

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

# المدن الأسبانية الإسلامية

ليوبولدو تورّس بالباس



ترجمه من الأسبانية
إليو دورو دي لابنيا




كتب مترجمة

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م

# المدن الأسبانية الإسلامية

ليوبولدو تورّس بالباس
من الأكاديمية الملكية للتاريخ

ترجمة من الأسبانية
إليو دورو دي لابنيا

راجعه
د. نادية محمد جمال الدين
د. عبدالله بن إبراهيم العمير

ح مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
بالباس، ليوبولدو تورس
المدن الأسبانية الإسلامية/ ترجمة اليو دورو دي لابنيا - الرياض.
٦٩٨ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٨-٨٧-٧٢٦-٩٩٦٠
١ - التاريخ الإسلامي ٢- الأندلس - تاريخ
أ - لابنيا، اليو دورو دي (مترجم) ب - العنوان
ديوي ٩٥٣،٠٧١ ٢٢/٣٥٩٥

رقم الإيداع: ٢٢/٣٥٩٥
ردمك: ٨-٨٧-٧٢٦-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م

أصل هذا الكتاب باللغة الأسبانية:
CIUDADES HISANO MUSULMANAS
Direccion General De Relaciones Culturales
Instituto Hispano-arabe De Cultura. Madrid, 1985

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
ص . ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ فاكس ٤٦٥٩٩٩٣



# المحتويـــات


الباب الأول

الفصل الأول: المدينة الإسلامية: مقدمة بقلم هـنري تراسـي ............ ٧

الفصل الثاني: المدن النصرانية والإسلامية المتباينة

في أسبانيا إبَّان القرون الوسطى ............ ١٧

الفصل الثالث: من المدن الرومانية إلى المدن الأسبانية الإسلامية ............ ٢١

الفصل الرابع: الـمـدن المندثرة ............ ٥١

الفصل الخامس: الـمـدن الحديثـة التأسيـس ............ ٧١

الفصل السادس: غـيـاب اللوائـح والنظـم الخاصـة بالبنـاء في الإسـلام ............ ١٠٩

الفصل السابع: عدد المدن وأهميتها ............ ١١٩

الفصل الثامن: مساحة المدن وديمغرافيتها ............ ١٤٣

الفصل التاسع: مقارنة ديمغرافية بين المدن الأندلسية والمدن الأوروبية في القرون الوسطى .... ١٦٣

الباب الثاني: تنظيم المدن

الفصل الأول: تأسيس المدينة الأرضية ............ ١٧٧

الفصل الثاني: التنظيم العام للمدينة ............ ١٨٩

الفصل الثالث: المناطق المحيطة بالمدن ............ ٢٠١

الفصل الرابع: المدينة والأرباض والأحياء ............ ٢٥٧

الفصل الخامس: أحياء المستعربين ............ ٢٩٣

الفصل السادس: أحياء اليهود ............ ٣١٣

الباب الثالث: الشوارع

الفصل الأول: المصلى والشريعة ............ ٣٢٥

الفصل الثاني: المصارة ............ ٣٤١

الفصل الثالث: المدافن ............ ٣٥١

الفصل الرابع: المفهوم الإسلامي للشارع ........ ٤١٩

الفصل الخامس: تخطيط الشوارع والمجموعات السكنية وتصميمها ........ ٤٢٥

الفصل السادس: الرحاب والأسواق والخانات في المدن الإسلامية ........ ٤٣٣

الفصل السابع: أسماء الشوارع والدروب والرحاب ........ ٤٧٩

الفصل الثامن: الشوارع الرئيسة والشوارع الثانوية ........ ٤٨٩

الفصل التاسع: القيصريات ........ ٥٠٥

الفصل العاشر: الشوارع المسدودة والدروب ........ ٥٤١

الفصل الحادي عشر: الشوارع المسقوفة والقويسات ........ ٤٦٧

الفصل الثاني عشر: واجهات المنازل: الطوابق العليا البارزة والمشربيات ........ ٥٧٧

الفصل الثالث عشر: الوسط الاجتماعي والحركة في الشوارع ........ ٦٠٩

الفصل الرابع عشر: تطور الشارع في القرنين الخامس عشر والسادس عشر
من شوارع مدن إسبانيا المسلمة إلى شوارع النهضة ........ ٦١٥

الكشافات العامة ........ ٦٣٥

# الفصل الأول
# المدينة الإسلامية

## مقدمة بقلم هنري تراسي

### الإسلام والمدن:

حظيت المدن الإسلامية دائماً بأهمية كبرى داخل إطار العالم الإسلامي[1]. فقد اكتسبت المدن المؤسسة قبل الإسلام والمدن حديثة التأسيس بشكل سريع طابعاً خاصاً احتفظت به خلال القرون الوسطى وامتدت في بعض الأحيان حتى أيامنا هذه.

وترجع الأولوية التي تعطى للمدن إلى أصول الدين الجديد: إذ إن مَن قام بتأسيس الإسلام مواطن حضري هو محمد [صلى الله عليه وسلم] وذلك بغرض الإصلاح الديني لمسقط رأسه. فبعد إخفاقه الأولي وهجرته إلى المدينة المنورة لم يكن في ذهن محمد [صلى الله عليه وسلم] إلا هدف واحد هو: فتح المدينة (مكة)، التي اضطر أن يغادرها بالقوة، وهدايتها لدين الإسلام. وعندما عاد إلى مكة المكرمة وبدأ في إقامة الدين الجديد لم يكن أمامه من وسيلة إلا أن يحترم، أثناء الحج، كل المعابد الوثنية لأمته والحفاظ على طقهوسهم التقليدية. وقد كان لدى المسلمين وسيظل من الأمور الجوهرية قيام المسلم بزيارة مدينة الرسول [صلى الله عليه وسلم] بغرض أداء العبادات الدينية التقليدية في الأماكن المقدسة كما كان يؤديها سكان مكة الأوائل. وتلك

(١) مارسيه. و. الإسلام والحياة المدنية.

المدينة هي المركز الجغرافي الأساسي الذي يتجه نحوه المسلمون من أي بقعة يؤدون فيها فريضة الصلاة.

ولقد تأسس المجتمع الأول الذي قام بتنظيمه محمد [صلى الله عليه وسلم] بالمدينة من المهاجرين من مكة وسكان المدينة على علاقة دينية قويّة، بحيث لا تَظهر فيه أبداً اختلافات عنصرية أو اجتماعية. وقد أصبح هذا المجتمع إلى الأبد المثل الفريد الأوحد لسائر المجتمعات الإسلامية التي يمكن أن تنشأ فيما بعد.

وضمت قيادة المجتمع المسلم في عهد محمد [صلى الله عليه وسلم] وفي عهد خلفائه الأوائل أفراداً من المدينتين المقدستين عُيِّنُوا فوراً حكاماً للأقاليم الجديدة. وتم هذا دون اللجوء إلى رأي رؤساء القبائل البدوية التي اندمجت في المجتمع الجديد طوعاً أو كرها.

وفي أثناء فترة توسع الإسلام استمر إنشاء مدن جديدة ذات طابع عسكري مواجهة للأقاليم المراد فتحها؛ فصارت تلك المدن فيما بعد مراكز ينتشر منها الإسلام في الأقاليم الجديدة. وبالإضافة إلى ذلك نجد أنه على مدى القرون الوسطى قامت الأسر الحاكمة التي ظهرت تدريجياً في الشرق كما في الغرب بتأسيس مدن كبرى. وهكذا، من خلال شكل أو آخر، توالى ظهور الكوفة والبصرة، وواسط، والموصل، وبغداد، والفسطاط، والقاهرة، وشيراز في الشرق؛ والقيروان، والمهدية، والجزائر، ووهران، وفاس، ومراكش، وقلعة بني حماد، وبجاية، والرباط في الغرب.

والقليل من هذه المدن انقرض انقراضاً شاملاً بينما ظلت خمس عشرة مدينة منها على الأقل باقية حتى الآن كمدن إسلامية كبرى.

إن القوانين المستمدة، بالطبع، من القرآن، قد سنَّت، لتطبيقها بشكل خاص على سكان المدن. ذلك لأن المسلمين لا يستطيعون أداء واجباتهم الدينية بصورة مريحة وكاملة إلا في الحضر.

فأداء صلاة الجمعة في ذلك اليوم الذي تجتمع فيه الأمة الإسلامية يقتضي وجود مسجد جامع مزود بمنارة ومنبر، كما يقتضي حضور خطيب لإلقاء الخطبة.

ولم يكن لكل مدينة، لفترة طويلة، إلا مسجد واحد فقط؛ ولكن تضاعفت بعد ذلك المساجد الكبرى في كل حي، في الشرق أولاً ثم في الغرب.

ويهيأ في المسجد كل شيء لكي تؤدى الصلاة في أحسن الظروف: غرفة خاصة للوضوء أرضيتها تكفل النظافة، وأكثر من ذلك: فقد أصبح الحمام، الذي يتطهر فيه المرء من كل نجاسة، مرفقاً أساسياً من مرافق المسجد فيما بعد.

وهناك أمر آخر وهو قرار المرأة داخل المنزل ـ طبقاً لما تنص عليه الشريعة الإسلامية ـ يمكن تطبيقه في المدينة فقط؛ ذلك لأنه في الريف لا مفر من منح المرأة حرية ما.

كانت المدينة دائماً بؤرة ومركز انتشار الإسلام: كانت نقطة الانطلاق لتعليم الدين الإسلامي للسكان المنتشرين في الأرياف. فعلى مدى العصور كانت المدينة فقط هي التي حافظت بصورة فعلية على هيمنة الحياة الدينية، إذ كان مقر الهيئات القضائية أو القانونية دائماً في المدينة، وكان يلجأ إليه بالضرورة سكان الأرياف في كل وقت.

أما إدارة الأموال المحبوسة أو الأوقاف (التي لا يقتصر عملها على ضمان

تطبيق الأحكام الدينية تطبيقاً صحيحاً، بل تعول أيضاً العديد من الأنظمة المدنيّة)، فإنها تتم في المدينة، حيث المكان الذي يوجد به بشكل خاص الجزء الأكبر من تلك الأوقاف. فالصلة الوثيقة بين الإسلام والمدن، العضوية إلى حد ما، هي التي تفسِّر الوحدة الكاملة للحياة المدنية في أنظمتها وأشكالها، داخل العالم الإسلامي بأكمله.

**مميزات المدن الإسلامية**

**البنية:**

في كل مدينة إسلامية ـ سواء أكانت قبل الإسلام أم حديثة التأسيس ـ يشكل مركزها دائماً المسجد الجامع، الذي لا يعد فقط المكان الخاص للعبادة وإنما أيضاً مقر الهيئة القضائية تحت سيادة القاضي ومساعديه. ومن جهة أخرى كان المسجد بيت الأمة: ففي داخله كان يتم تعيين السلطة السياسية وإعلان القرارات الخاصة بها.

وكذلك الحال بالنسبة للتعليم؛ إذ نرى أنه بمجرد تجاوز مستوى تعليم قراءة القرآن الكريم، فإنه كان ينظمُّ المسجد، ليصبح مركزاً للعلم. وأكثر من ذلك: عندما نشأت «المدارس» وهي مقر لإقامة الطلاب بصورة خاصة، استمرت المساجد الكبرى في أداء وظيفة التعليم في أغلب فروع العلوم. إضافة إلى ذلك فإن المساجد استعملت ومازالت تستعمل لإقامة الغرباء بالمدن الكبرى والصغرى على حدٍ سواء.

وتحت ظروف معينة كان المسجد أيضاً مقراً لخزينة أموال المجتمع الإسلامي المحلي، ذلك لأنه منذ القرون الأولى للهجرة أقر المسلمون خزينة المسجد داخل حرمه وبغرفة مرفقة به.

والعنصر الثاني للمدينة الإسلامية هو «السوق»، ويتكون من مجموعة من السُوَيْقَات التي تظهر دائماً حول المسجد أو على جانب من جوانبه على الأقل. والسوق عبارة عن شبكة من الحارات يتجمع فيها أصحاب الحرف والتجار حسب مهنة كل منهم، والسوق لا ينقصه أبدًا مقر «القيصرية» حيث تباع المنتجات الفاخرة والمستوردة. وكل هذا بجانب المخازن المتعددة التي تستخدم كمستودعاتٍ للجملة وورشاً ومقرات للإقامة فيها.

واتصال الأسواق بالمسجد له جاذبية قوية وغير عادية، ولذا فإن حركة المرور في أغلبها تنطلق من الشوارع التي تبدأ من هذا المركز المدني وتؤدي إلى أبواب المدينة.

ويخضع مخطط الأحياء السكنية إلى الميل للمحافظة على حجب المرأة والاحتفاظ بسر الحياة العائلية. أما تخطيط المدينة، خارج الأسواق والشوارع التي تتركز فيها حركة المرور، فيبدو متاهةً حقيقية من الشوارع المتعرجة التي يصعب تصفيفها. وعندما قام المسلمون بفتح مدن كانت تحتفظ بتخطيطها الشبكي ذي الطرق العريضة ـ كموروث قديم ـ اختفى هذا التخطيط الأصلي المنظم بسبب تقدم المباني الجديدة على الطريق العامة المرصوفة. ومن ثم لم تكن تفتح معظم أبواب المنازل على شوارع بل على أزقة متعرجة أو على «دروب» كانت لها أحياناً أبوابها الخاصة لتأمين الحماية ليلاً.

وفي بعض الأحيان كان يُبنى المنزل فوق هذه الأزقة مشكّلاً الممرات المميزة أو الشوارع المغطاة، لقد كانت كل عائلة تبحث عن الخلوة والصمت والهدوء.

وطبقاً لعادة سائدة في القرون الوسطى، كانت المدن الإسلامية تحمي نفسها بسور حصين، علماً بأن المجموعات السكنية غير المسوَّرة كانت نادرة. وعند

بناء أرباض ذات أهمية خارج الأسوار يلجؤون في الحال إلى بناء أسوار تكميلية لحماياتها.

وكانت المُدينْة Almudena أو القصبة Alcazaba تُنشأ مطلة على المدينة وملتصقة بها، هذا على الرغم من عزلهـا بالسور الداخلي المحيط بها. وكانت القـصبة، وهي مقر السلطة، أو الأمير أو الحاكم، مزودة في أغلب الأحيان بمسجدٍ خاصٍ وأبواب للاتصال بالخارج أو بالداخل.

قام الإسـلام بتجـديد «الأكربولس»(*) المتوسطيـة القديمة مطبـقاً فيـه نظمه السياسية والإدارية.

وعلى الرغم من ذلك لم تكن تقتـصر حياة سكان المدن دائمـاً على المساحة الداخلية المحصـورة بين أسوارها: فقد كـان أداءُ صلاة العيدين خـارج المسجد الجامع وخـارج الأسوار على مـساحة رحـبة فيـها مصلّى، وحـائط يفتح فـيه محراب بجوار سلم يُستعـمل منبراً وهناك أيضاً «الـمُصَارة» Almuzara وهي من مكونات المدينة؛ وهي عـبارة عن سـاحة واسـعة مـهيـأة للعروض العـسكرية ورياضات الخيل. وكانت تقع خارج الأسوار مباشرة.

وتحاط المدينة عادة بحزام جميل من الخـضرة المكونة من البساتين البسيطة أو المنازل الريفية تسمَّى بـــ «المنية» (Almunia) وهي أماكن للهو كبار رجال الدولة أو كبار رجال المدينة أو الأثرياء منهم.

والجـدير بالذكـر أن هذا النوع من العـقـار الريفي تطور تطوراً خـاصـاً في أسبانيا: بمعنى أنه كـان المقر الخاص بالمالك وبخدمه محاطاً بسـور صغير مزود ببرج مـحصّن. وفي حقيـقة الأمر يرجع هذا النوع من المبـاني إلى فكرة البيت الريفي الروماني الذي كان مزوداً ببرج.

(*) مدينة الموتى القديمة المعروفة بتلك التسمية في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

## النظام الاقتصادي :

يظهر المفهوم الإسـلامي للمدينة في الغالب من تفاصيل حياتهـا الاقتصادية. «فالـمُحتَسِب» Almotacen الذي يعمل تحت سلطة القاضي لا يتولى فقط ضمان الأداء السليم للعبادة والإشـراف على الحياة الدينية، طبقاً لما تنص عليـه الشريعة، بل يقوم أيضًا بتـنظيم الحياة الاقتصـادية ومراقبتهـا. فيعمل أصـحاب الحرف تحت رئاسته، ويراقب جودة المنتجات المعروضة للبيع، ويُحدد قائمة الأسعار، ويُطبق نظام الأوزان والمقاييس تطبيقاً دقيقاً، حتى يكفل بذلك انتظام وجودة المعاملات التجـارية. إن المحتسب قـد يقوم بعـمل عضو مـجلس البلدية كمـشرف على المباني، بل وبما في ذلك إصدار أوامر خاصة بتنفيذ أعمالٍ ذات طابع مدني.

وبالنسبة لمعظم المؤسسات الجـماعية للحياة الاقتصادية كـالمحال والقيصريات ومخازن الغلال، بما فيـها المطاحن والأفران، فهي ملك الأوقاف. ويقع الوقف أو الحبيس تحت سلطان القاضي حتى في حالة وجود إدارة خاصة لها.

ومن هنا فإن الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية كانت تحت وصاية الدين الإسلامي وضمانه عن طريق الحكام والهيئات القانونيـة لترسيخها والدفاع عنها أمام ملابسات الحيـاة السياسية وأمام أعمال النهب. إن الشـريعة الإسلامية التي تظهـر في الحيـاة المادية للمدينة، هي العـامل الأساس لحـفظ النظام وديمومـته واستمراريته.

## النظام السياسي :

تعد المدينة المقرَّ الرئيسَ للحـياة السياسية ومـحلاً لإقامة رؤسائها، كـما أنها الإطار الكامل للمجتمع الإسلامي المنظم والمحتفظ بمؤسساته الحيوية عبر القانون وهيئاته القضائية. ولم تحتفظ المدينة بشيء من تلك النظم التي كانت سائدة في

المدينة القديمة: فليست هناك أي هيئة ممثلة للشعب، كما أنه لم يكن فيها بالمرة ميثاق رسمي خاص بها ولا لائحة قانونية ولا امتيازات خاصة. كما تطبق السلطة السياسية بكامل أبعادها دون أن تخضع لأي تعديل عائد إلى نظام قبلي أو آخر، وهذا هو عكس ما يحدث في المناطق الريفية، ويرجع هذا النظام إلى الظروف الشرعية الخاصة للسلطة في المجتمع الإسلامي. «... فمصدر السلطة هو الله... تستقر عند الله... وتطبق عن طريق الله بوساطة الإنسان»(١) وعلى رأس المجتمع الإسلامي يأتي بالطبع الخليفة كممثل الرسول [صلى الله عليه وسلم]، وهو بهذا المنصب مكلف بالدفاع عن الدين وبحكم الأمة. ومن هنا فإن طاعة الخليفة معناها الطاعة لله مادام الخليفة لا يأمر بشيء مخالفٍ للشريعة. حتى في حالة اغتصاب الخلافة أو الاستيلاء على السلطة بالقوة من قبل حكام مسلمين آخرين، فإنه يجب قبول ما قدر الله بإراداته غير القابلة للإدراك.

ومن هنا تنشأ السلطة للرؤساء السياسيين المشتقة من سلطة الخليفة بشكل كامل، والمؤسسة على الأمور الدينية والدنيوية في آن واحد. وبجانبها لا يوجد هناك مجال لأي تمثيل للمجتمع الإسلامي.

وتتجسد مساواة المسلمين المعتمدة على الشريعة في المجال السياسي بالمؤازرة الكاملة للإنصاف والعدل.

ولا تعبر المدينة عن إرادتها الذاتية إلا عن طريق النقد أو التمرد. وفي حالة نمو روح الوطنية أو الشعور بالرأي العام فإن هذا يتم دائماً بعيداً عن الحياة المدنيَّة: فإنّ المفهوم الإسلامي للسلطة لم يسمح بأي تطور في هذا المجال.

---

(١) جارديه، لويس، المدينة المسلمة.

وكان للمدن الإسلامية دائماً حد أدنى في الشؤون الإدارية الموصولة بالهيئة القضائية ورؤساء السلطة المركزية.

وتمتد سلطة حكام المدن الكبرى إلى الأقاليم كلها نيابة عن الملك: فقد كان هؤلاء الحكام قبل كل شيء قادة عسكريين.

وفي بعض المدن ـ وبالأخص في أسبانيا ـ كان هنالك «صاحب المدينة»، وهو منصب مستوحًى من أصل المؤسسات البيزنطية، وله مهمة محددة هي الإشراف على كل ما يتعلق بالشرطة وبإدارة المدينة تحت سلطة المحافظ.

وبشكل عام لم يكن هناك إلا موظف واحد للشرطة يسمى «صاحب الشرطة» يرأس هيئة الشرطة المختارة للحراسة الشخصية للمحافظ. وتقوم هذه الهيئة أيضاً بتأمين النظام بكل أشكاله بتولي كل ما يتعلق بتنفيذ قرارات المحكمة بما فيها الخاصة بالقاضي.

ويمارس الوالي وصاحب المدينة وصاحب الشرطة سلطة شرعية خاصة بالإضافة إلى ما يتعلق بالشريعة الإسلامية. ولكبار الموظفين هؤلاء مساعدون ذوو سمعة ومراتب مختلفة.

ونظراً لعدم وجود نظام مستقل قابل للتطور، فإن المدينة الإسلامية ـ بفضل الهيئة القضائية الشرعية وعملاء السلطة السياسية ـ كانت عادة تتمتع بالسلام والنظام والعدل معتمدة على الطاعة الكاملة. وكانت عامة تدار، ربما على غير المستوى نفسه الذي أديرت به المدن البيزنطية، ولكن على مستوى أفضل من المستوى الذي أديرت به مدن الغرب النصراني حتى القرن الثاني عشر الميلادي على الأقل.

وأخيراً يمكن أن نلحظ دور الإسلام في تشكيل أنموذج هذه المدينة بشكل

مثبط حـيناً وإيجابي حيناً آخر على غـرار مثيلاتها مـن المدن الأخرى في أنحاء العالم الإسلامي الواسع. وصفحات هذا الكتـاب تحدثنا عما كانت عليه المدينة الإسلامية في أسبانيا.

**هنـــري تــــراسي**

## الفصل الثاني

## المدن النصرانية والإسلامية المتباينة

## في أسبانيا إبّان القرون الوسطى

إن التسلسل التاريخي الخاص بالمدن الأسبانية يوضح «الازدواج» الأصيل لحياتنا في القرون الوسطى، المستمر في عصر النهضة والذي مازال أثره دائماً. ومن البديهي أن السبب في هذه الظاهرة يرجع إلى تعايش حضارتين كبيرتين مختلفتين تماماً في أرضها: النصرانية الغربية والشرقية الإسلامية، اللتين أمدتا شعبنا بالثراء والتنوع أكثر من أي شعب آخر.

إن القارة الإفريقية لا تبدأ عند سلسلة جبال «البرانس» كما لا تبدأ أوروبا عند مضيق جبل طارق. فقد كانت شبه الجزيرة الإيبيرية الجسر الواسع بين قارتين بوتقة لحضارتين، وكل منهما يقابل شكلاً معينا للمدينة مختلفاً عن الآخر تمام الاختلاف، وكانا مسرحين في الوقت نفسه لكيانين مختلفين تماماً.

إن كلاً من المدينتين النصرانية والإسلامية، تنطلقان من التمدن الرائع الخاص بالإمبراطورية الرومانية، ثم تبرزان بشكل مستقل ومختلف كنتاج لثقافات وأساليب حيوية مختلفة. وعلى العوامل الطبيعية التي لها أهمية كبرى عند مقارنتها بالعوامل الإنسانية، كالمنطقة التي تقع فيها المدينة والأرض التي تقام عليها، بالإضافة إلى مميزاتها المناخية الطوبوغرافية، إلخ..، قامت كل حضارة بتشكيل مدينة مختلفة منطلقة، كما ذكر سابقاً، بالهيكل الأساسي المنتظم الذي تمتاز به المدينة الرومانية، تلك التي نشأت نتيجة لنظام مدني راسخ.

وفي الصفحات المقبلة سأحاول أن أرسم، إجمالاً، ما كانت عليه المدينة

الأسبانية المسلمة، ولذلك سأقارنها مرات عديدة بالمدينة الأوروبية في القرون الوسطى القريبة من محيطنا الثقافي. فبينَا عانت هذه الأخيرة من تطور ـ باستثناء بعض المناطق البعيدة ـ ظلت المدينة الإسلامية في العالم الإسلامي على نمط واحد ولم يكد يحدث تغيُّر يُذكَر من القرن الثامن حتى القرن الثاني عشر، وهو عصر امتدت فيه معظمها نظراً لازدهارها الاقتصادي الناتج من النمو الصناعي والنشاط التجاري، وهي الظواهر التي تتميز بها المدينة. واستقرار المدن منذ ذلك التاريخ يرجع إلى أسباب معقدة يتجاوز عرضها هذه الصفحات.

إن الحضارة الإسلامية كانت أساساً حضارةً مدنيّة. والحياة، التي كان يقودها الدين في كل مظاهرها، أعطت شكلاً مميزاً لمدينة موحدة البنيان وهو ـ على الرغم من عدم انتظامه الفني البين ـ انتشر بشكل عام في العالم الإسلامي مثلما انتشرت المدينة الرومانية بامتداد الإمبراطورية.

وبالإضافة إلى هذين النوعين من المدن الأسبانية المذكورة في القرون الوسطى ـ النصرانية والإسلامية ـ هناك نوع ثالث تشكّل من تحوّل الأخيرة بعد غزوها، وهي المدينة «المُدجَّنة» التي يجب دراسة التطور المدني المتبع فيها من أجل تحقيق التكيف المناسب لحياة سكانها الجدد. ونذكر سلفاً أن التغيرات كانت بطيئة وغير متعمقة: لأن العيش خلال عدة قرون في ظل الحضارة الإسلامية التي فيما يبدو وَجَدَ أهل قشتالة فيها الراحة، ربما بسبب سنة التعايش السائدة في مدينة طليطلة في القرون الوسطى، قد ساعدت على "مَشْرَقَة" المجتمع الأسباني تاركة فيه أثراً لم يُمحَ حتى الآن.

وهناك تأكيد يتكرر على ألسنة من قاموا بزيارة أسبانيا، وعددهم غير قليل. وهو تأكيد صحيح وله دلالته، ذلك لأنه يعبر عن الصفات الشرقية التي تمتاز

بهـا المدن، وبالأخص المنازل الريفـية، الواقـعة بمنطـقتي جنوب شـبه الجـزيرة الإيبيرية وشـرقها. وفي الصفحـات التالية سأحاول أن أعـبر عن تلك الظاهرة وأن أرسم الملامح التي بتـميزها تميـيزاً جذريـاً عن بقية المدن الغـربية، تجـعلها تتساوى بالمدن الإسـلامية. وجدير بالذكـر أنه إذا كانت التأثيرات القادمـة عبر جبـال البرانس قـد ساعدت عـلى تحديد تخطيط المدن الحـديثة التـأسيس في أسبانيا النصرانية، إلا أنها لم تستـطع إدخال تعديلات جذرية إلا بصورة طفيفة في معظم الأحيان في المدن الإسلامية التقليدية حتى القرن السادس عشر.

ففي المدن الأسبانية ذات الماضي الإسلامي يحدَّد موقع الكاتدرائية والكنائس القديمة بأرضيةِ المسـجد الجامع وأرضياتِ مساجد الأحيـاء الأخرى التي أقيمت في المكان القديم نفـسه؛ وكثيـر من الشوارع الحاليـة تحتفظ بتخطيطهـا القديم الذي يرجع إلى العهد الإسلامي، كما هي الحال بالنسبة للطرق المحيطة وأماكن النزهة الواقعة حـول مركز المدينة القديم الذي يتبع كله خطوط السـور العتيق. كما أن الشكل المتواضـع لواجهات معظم المنازل، التي تتوارى خلفهـا في كثير من الأحيان غرف فاخرة، هو موروث إسلامي، والشمَّاسات التي يرجع أصلها إلى المشربيات الطائرة التي كانت النساء يقضين فيها أوقاتاً من حياتهن بعيداً عن أنظار المارّة، وكذلك الارتفاع الواضح لدرجات سلالم المنازل الأندلسية.

وإذا انتقلنا من التـأثيرات المادية إلى التأثيـرات الأكثر رقـة في نفوس الناس وحياتهم سنجد أن الماضي قد أثر، ومازال، في الحياة الحالية تأثيرًا واضحاً فـي شـتى جوانبهـا. ويؤيـد ذلـك ما كـتبه تشـسترتـون CHESTERTON حيث قال «.. كـيف يقـولون: إنه لا توجـد آثار رومـانيـة في إنجلـترا؟ نـحن كلنا آثار رومانية». كما تعد الحياة النسائية المعزولة المكتفية بالمأوى العائلي والتي انتشرت

في جنوب أسبانيا حتى تاريخ حديث جدًا، موروثاً إسلامياً[١]. ومازال اليوم، كما كان منذ قرون، تتجسد قمة الجمال الأنثوي في نظر الأندلسيين، كما قال جارثيا جوميث، في التضاد بين الردف السمين والخصر النحيل[٢]. وحالياً يمكن قول ما كان يكتبه الشَّقَنْدي عن نساء مدينة أشبيلية في الأعوام الأولى من القرن الثالث عشر من أنهن "أكثر الناس طيشاً... والأكثر تلقائية في الفكاهة وقدرة على التهكم... حتى تعوّدوا على ذلك وأصبحت عادة منتشرة لديهم... ويعتبرون من لا يتقبل ولا يعتاد هذا النوع من الهزل شخصاً كريهاً وثقيلاً[٣].

إن مؤلف هذه الصفحات لا يتدخل في الجدال الجاري بَيْن من يعتقدون بأن انتشار الإسلام في جزء كبير من أسبانيا أثّر تأثيرًا قطعيًّا في حياتنا وبَيْنَ من يرجعون هذا التأثير السائد إلى التيار الفكري الذي قد يسمى اليوم بالتيار الأوروبي، كما أنه لا يحاول إطلاقاً تقييم ما هو إيجابي أو سلبي في الرأيين. بل يحاول فقط أن يعرض بعض الحوادث التاريخية، التي تكون أحياناً مصحوبة بأدلة كثيرة وربما تكون مملة قبل أن يقضي عليها التحول العميق الذي يجرى في مدن وطننا على البقايا المادية الأخيرة التي تمثل مظهراً من حياتنا الماضية[٤].

إن الكاتب حسّاس للجمال والتوافق الظاهرين في المدن القديمة التي تكونت بصورة تلقائية، سواء تلك التي من أصل غربي أو الأخرى ذات التراث الإسلامي. وهي المدن التي شكلتها خلال قرون طويلة روح شعبنا الذي يرثي لاختفائها. إن هذه الصفحات ستكون إذًا صفحات حب وحنين في الوقت نفسه.

---

(1) Sobre este punto, común a todo el Mediterráneo, cf. Tillion, Germaine, **Le harem et les cousins.**
(2) García Gómez, **Poemas arábigo-andaluces**, p. 43.
(3) Al-Šaqundī, **Elogio del Islam Español**, p. 96.
(4) La historia de la urbanización occidental española apenas si ha sido estudiada. Véase Torres Balbás y otros, **Resumen... del urbanismo en España.**

# الفصل الثالث

## من المدن الرومانية إلى المدن الأسبانية المسلمة

إن أي بتر في كتابة التاريخ أمر مصطنع وافتراضي، فلا شيء ينتهي أو يبدأ بشكل مطلق، فكل حدث يكون مرتبطاً ارتباطاً قوياً بالأحداث التي تسبقه والتي تلحقه[١]. والتقسيم التقليدي للتاريخ إلى عصور أو مراحل محددة بتواريخ يعد مريحاً وضرورياً من الناحية التعليمية، ولكنه يبدو دائماً أمراً محالاً[٢]. ويزداد عدم ملاءمة هذه الحدود التاريخية بصورة أكبر لرسم رؤيتنا عن الماضي بسبب نقص المراجع التاريخية اللازمة واختفاء حلقات من سلسلة التاريخ المتصلة، وتحول الحدود الخاصة بتسلسل التاريخ الموضوعة بشكل مصطنع بغرض دراستها إلى فجوات عميقة. مثال ذلك الانتقال من عصر الاحتلال الروماني لشبه الجزيرة الإيبيرية، وهي فترة معرفتها متوسطة ومازالت قليلة الدراسة[٣]، إلى الفترة الغامضة للمملكة القوطية، ثم بعدها إلى الفترات اللاحقة للفتح الإسلامي مباشرة، التي لا يحتفظ منها بشواهد أدق من الأولى ولا أكثر تفصيلاً[٤].

وإحدى تلك الفجوات الشاسعة في معرفة الحياة الأسبانية بين القرنين الرابع والعاشر هي المتعلقة بنظام المدن القوطية[٥]. وقد سجلت تلك الفجوات بعد ابتعاد المدن عن الجاذبية القوية لمدينة روما، وكذلك الفجوة المتعلقة بالتحولات المدنية التي مرّت بها المدن بعد الأزمة الحادة اللاحقة للغارات البربرية، خلال القرنين الثامن والتاسع، حتى وصلت في القرن العاشر إلى مدينة قرطبة. وقبل القرن الحادي عشر لم يُحتفظ إلا بمعلومات نادرة عن بقية المدن التي قد تشبه

بملامحها المدن الإسلامية في الشرق.

وتشيـر كل الدلائل، كمـا لاحظ لاكَارًا، إلى أنه عندمـا بدأت نظم البلدية الرومانية القديمة في الاختفاء من المدينة الأسبانية القوطية أصبحت هذه الأخيرة قليلة الأهمية وبدأت في الضعف كـمراكز اقتصادية، كما قلّ نشـاطها التجاري مما أدى بها تدريجياً إلى الارتباط أكثر بالحياة الريفية وبالاقتصاد الزراعي.

ويدرج سان أسـيدرو فصلين متـعلقين «بالمدن وبالمباني العامـة» في الكتاب الخامس عشـر لمؤلفه «**علم أصول الكلام**» ولكن يبحث فـيهمـا بلا جدوى عن معلومـة تتعلق بالمدن المعاصـرة؛ وقد اقتـصر على ذكر قـائمة طويلة من المدن والآثار التي تعود إلى العصـور القديمة الإغريقية والرومانيـة منقولة عن الكُتّاب الكلاسيكيين. وقد قام كل من «ليوفخـيلدو» و«ريكاردو» و«سوينتيلا» بتأسيس بعض المدن أو ترميمهـا؛ منها مدينـة «ريكوبلـس» Recopolis سنة ٥٧٨؛ ومدينة «فيكتورياكم»Victoriacum سنة ٥٨١؛ و«إيطاليكا» Italica سنة ٥٨٤؛ و«أولوجيكس» Ologicus سنة ٦٢١، ويحـتمل أن تكون آخـر مـدينة هي: «بيارا» الإسـلاميـة ولعلها (مونتورو Montoro الحالية). وفي سنة ٤٨٣ قام الدوق «سالا» بإصلاح بعض الأقـواس المتهـدمة من الجـسر العـريض على نهـر الجواديانا في مـدينة «ماردة» Merida وقد قـام بهـذا العمل «.. مـقلداً لشكل الأقواس القـديمة بل ومتفوقاً عليها». كمـا نفّذ «وامبا» أعمالاً جـمالية عظيمة في مديـنة طليطـلة Toledo[٦].

وعندما نحـاول أن نتتبع بصورة مـوجزة طرق التحـول التي أدت إلى إنشاء المدن الأسبـانية المسلـمة، فسـوف نضطر إلى اللجـوء إلى ما نعرفـه عن المدن الرومانية الإمبراطورية السابقة بسبب عـدم معرفتنا بالمدن القوطية، والهدف من

ذلك هو البحث عن مرحلة من مراحل تطور المدينة سبقت قالبها الإسلامي والمقارنة بينهما.

**المدن الأسبانية الرومانية : الانحطاط والتوسع .**

لم تكن المدن الرومانية في أسبانيا موضوعًا لدراسة منهجية. ولدينا أخبار عن أسوار بعضها مما تم قياسه في أغلب الأحيان بدقة غير متناهية[٧]، ودون أن يحدد لأكثرها المسوِّغ الأساسي لتاريخ إقامتها.

وقد عانت المدن التابعة للإمبراطورية في دولة «الغاليا» كما في شبه جزيرة إيبيريا، من تغييرات كبيرة ابتداء من أواخر القرن الثالث الميلادي، عند بداية غزوات الشعوب البربرية. ومنذ ذلك التاريخ، أثناء السنوات الطويلة التي تمتعت فيها الإمبراطورية بالسلام، انتشرت المدن بحُريّة مجردة من الأسوار التي تحد من امتدادها، أو أن القديمة منها قد انقرضت لعدم نفعها بعدما تحولت بكثرة إلى مبان.

وابتداءً من التاريخ السابق ذكره كانت هذه المدن هدفاً للنهب والدمار المستمر جاءت مقدّمةً لفترة طويلة من انعدام الأمن أدت إلى الانحطاط التدريجي حتى الفناء شبه التام للحياة المدنية، كما قيل من قبل. وقد صرح أباطرة القرن الخامس بأنه وأمام الخطر الوشيك والانحطاط الحتمي، اختزلت مساحات المدن بشكل كبير وأقيمت الأسوار على عجالة حول المكان الأكثر أهمية فقط أو ذي القيمة الإستراتيجة من هيكل المدينة لتسهيل الدفاع عنها. والأسوار التي بنيت في تلك الفترة الحرجة قد أقيمت فوق مبانٍ رومانية وبمواد استخرجت من أنقاض هذه الأخيرة كما هو الحال في مدينة برشلونة (بارثينو)[٨]، ومدينة «كونينبريجا» (كونديسا أبيلا أو كويمبرا القديمة).

ولنلقِ نظرة على المساحة المفترضة لبعض تلك المدن؛ على الرغم من عدم التأكد من مساحة أغلبها ولكنها في مجموعها يمكن أن تعطي فكرة تقريبية إلى حد كبير عن تطورها.

فمدينة كلونية Clunia (كورونيا ديل كوندي) الواقعة في الهضبة العليا، في إقليم، يعتقد أن المساحة داخل أسوارها كانت ١٣٠ هكتاراً حسب عالم الآثار «تراثينا». ولكن عالم الآثار المذكور ينبه بإحباط أن هذا الحساب غير دقيق؛ لأنه يعتمد على معلومات من القرن السابع عشر، ومن المستحيل إثبات ذلك اليوم بعد اختفاء سور المدينة. وإذا كانت تلك المساحة حقيقية فهناك تفسير معقول، فالمساحة الكبيرة داخل الأسوار كانت بهدف حفظ قطعان عديدة من الحيوانات وحمايتها إبان الخطر، ذلك لأن اقتصاد المنطقة كان يعتمد أساساً على الثروة الحيوانية[٩]. أما مدينة «ماردة» عاصمة «لوسيتانيا» فيقدِّر البعض أنها كانت تشغل مساحة ٥٠ هكتارًا تقريباً؛ بينما يؤكد البعض الآخر أن المساحة في أوائل القرن الثاني الميلادي ــ أي قبل الغزوات ـ كانت ٢٨ هكتارًا فقط، وعدد سكانها في نفس القرن الذي بلغت المدينة أقصى ازدهارها كان أكثر من ٣٠,٠٠٠ نسمة تقريبًا[١٠].

أما مدينة «أوجوستوبريجا» AUGUSTOBRIGA (سورأجريدا)، في ثيلتيبريا، فكانت مساحتها الداخلية تبلغ ٤٩ هكتاراً؛ أما مدينة قرمونة CARMONA التي احتفظت بجانب كبير من أسوارها الرومانية حتى اليوم ومدينة سرقسطة ZARAGOZA التي من المحتمل أن يكون السور الذي بني فيها في القرون الوسطى قد أقيم فوق السور الروماني القديم، ومساحته تبلغ ٤٧ هكتارًا. وكانت مساحة مدينة ترّقونة (عاصمة أسبانيا الدنيا ٦٠ هكتاراً في رأي

البعض و٣٥ هكتاراً في رأي تأكيد البعض الآخر[١١]؛ وكانت مساحة مدينة «لوشة» LUGO، التي تحتفظ حتى الآن بأسوارها العريضة من القرن الثالث الميلادي من ٣٢ إلى ٣٤ هكتارًا وطول محيطها ٢٣٦٢ مترًا. وتساوي مساحة مدينة «أُكساما» (أُوسما) مساحتها داخل الأسوار وهي ٢٨ هكتاراً؛ ومساحة مدينة « نومانثيا» NUMANCIA ٢٢ هكتاراً؛ ومدينة «لامبوريون» الرومانية مساحتها ٢١ هكتاراً[١٢]؛ ومساحة مدينة «ليون» LEON من ١٨ إلى ٢٠ هكتاراً؛ ومدينة «ترمانثيا» TERMANCIA مساحتها ١٧ هكتاراً؛ وكانت مدينة القلعة الحُرّة (كالاجورس خوليا) CALAHORRA ١٦هكتاراً؛ ومدينة «أوثيلس» (مدينة سالم MEDINACELI) مساحتها من ١٢ إلى ١٥ هكتاراً. وكانت مساحة مدينة برشلونة BARCELONA في أواخر القرن الثالث بعد اختزال سورها من ١٠ إلى ١٢ هكتاراً[١٣] ؛ ومدينة «جيرونة» GERONA مساحتها ٦هكتارات[١٤]. وكان محيط أسوار مدينة «إيطاليكا» ITALICA ٣١٥٠ متراً، وكان يسكن بداخلها حوالي ١٢,٠٠٠ نسمة كما يعتقد «توفينوت»[١٥]. وكتب كاروباروخا مؤكداً أنه: «عندما نتحدث عن المدن الكبرى الأسبانية المسلمة يجب أن نتحدث بتحفظ لكي نؤكد القيمة النسبية لهذا التعبير»... «وباستثناء إيطاليا، في الغرب، نستطيع القول بصورة عامة إن المدينة التي بها ٣٠,٠٠٠ أو ٢٥,٠٠٠ نسمة كانت مدينة كبيرة جدًا، والمدينة التي بها ٥٠٠٠ نسمة كانت ذات اعتبار ومعروفة...»[١٦].

وبمقارنة مساحة مدينة ترّقونة التي تبلغ ٦٠ هكتارًا؛ ومساحة قرمونة ٤٧ هكتارًا؛ ومدينة لوشة (لُكّ) ٣٤ هكتارًا (وكل هذه الحسابات تعتمد على الأرقام القصوى) مع المساحة الداخلية لمدن الأندلس الكبرى في أواخر القرن

الحادي عشر وفي السنوات الأولى للقرن الثاني عشر الميلادي، كمدينة أشبيلية التي كانت مساحتها ١٨٧ هكتاراً؛ وكانت المساحة الداخلية لمدينة قرطبة ١٨٢ هكتارًا؛ وكانت المساحة الداخلية لمدينة طليطلة ١٠٦ هكتارات، والمساحة الداخلية لمدينة ميورقة MALLORCA ٩٠ هكتاراً؛ والمساحة الداخلية لمدينة المريّة ALMERIA ٧٩ هكتاراً، والمساحة الداخلية لمدينة غرناطة ٧٥ هكتاراً[١٧]، يمكن أن نستنتج أن المدن الأسبانية الإسلامية كانت أوسع مساحة من المدن السابقة التابعة للإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى لعصرنا، علماً بأن تلك المساحات يجب أن يضاف إليها في كل المدن تقريباً المساحة غير المعروفة لربَض أو عدة أرباض خارجية.

ومن المرحلة الطويلة الغامضة التي تمتد من فترة الحياة المزدهرة الإمبراطورية الرومانية حتى القرن العاشر الميلادي مروراً بالجزء البدائي وشبه البربري منها، خرجت الأندلس بحيوية متجددة قبل الدول الغربية الأخرى بفضل الفتح الإسلامي الذي ربط بين شبه الجزيرة والمناطق الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط التي لم تعرف فيها الحضارة فواصل خلال تلك القرون كما حدث في الغرب[١٨].

**الشهادة المؤلمة للطبقات الأرضية : مشكلة تاريخية.**

لا تستطيع الروايات التاريخية، بما فيها التي كتبت بأسلوب أدبي، أن تعطي فكرة صحيحة عن الانتقال الدرامي من أسبانيا الرومانية إلى أسبانيا القرون الوسطى. فكثير من المؤرخين كتبوا مؤلفاتهم وحفظت في جو من الصمت والهدوء في دار المحفوظات والمكتبات، وكان هؤلاء الكتاب منهمكين في النصوص والوثائق دون أن يلقوا بالنظر إلى المسرح الحقيقي الذي وقعت فيه

الحوادث الإنسـانية التي هي موضوع دراسـتهم، ولا إلى البصـمات المادية التي بقيت مـنه في بعض الأحيان. وفي اعـتقـادي أنْ ليس هناك كتـاب واحد عن التاريخ العام لأسبانيا أو مـذكرة تتناول تاريخ القرون الأولى للعصور الوسطى، وتشير تفصيليًا إلى الآثار المدفونة للمدن الرومانية التي أقيمت بكثرة على أرضية الآثار المعروفة اليوم. والحفريات التلقـائية التي يتم تنفيذها لوضع الأساس لمبانٍ جديدة وإنشـاء خدمات المدينة (كالهـاتف ومياه الشرب وأنابيب توصـيل المياه، إلـخ) أظهرت في بعضهـا، على أعماق مختلفة، بقـايا من الأسوار وأرضيات من البلاط والفسـيفساء وأشكالاً هندسية مـعمارية وزخرفية وقطعًـا من الفخار المنزلي ومن العملات. . إلخ، تحمل في معظم الأحيان آثار حريق. وليس هناك قائمة جرد لتلك الآثار ولا دراسة الكثير منهـا؛ بل اختفت هذه البقايا في كثير من الحـالات وبحـرص شـديد خوفـاً من أن تؤدي إلـى إيقاف الأعـمـال أو تأجيلها[١٩].

وكان من الممكن أن تتم تلك الدراسة في مدينة قرطبة بصورة أكمل منها في مدن أسبانية رومانية أخرى، لأن المباني التابعـة لمستعمرة أعضاء مجلس الشيوخ الروماني، التي كـانت على رأس مجـمع شرعي هام، كانـت ذات قيمـة فنية فريدة كما تدل على ذلك الآثار التي عثر عليها صدفة.

أما البطانة الأرضـية السمـيكة وبقايا المبانـي القديمة التي تفصل بين أرضـية المدينة الإسلاميـة وأرضية المدينة الرومانيـة في الطبقات السفلى لمديـنة قرطبة، فهي تمثل تأثير الأزمة التي مرت بهـا المدينة عندما انتقلت من العالم القديم إلى فترة القرون الوسطى في نهاية «عظمة السـلام الروماني الجليل» (كما قال بلينيو الأكبر)، كما تحتفظ بسر المسألة التاريخية الجذّابة وأثر المآسي الإنسانية العديدة.

فما هي الكارثة التي شـهدتها مدينة قرطبة ـ يمكن أن يطرح السـؤال نفسه على معظم المدن الرومانيـة في أسبانيا ـ بين السنوات الأخيرة للقـرن الثالث الميلادي وفترة الفتح العربي في أوائل القرن الثامن الميلادي، وهي الكارثة التي أدت إلى هدم المدينة الـمَهيـبة وإعادة بناء مدينة جـديدة على أنقاضها مؤلفـة من مساكن متواضعـة كما يتضح من الآثار النادرة المتبقـية منها تحت الأرض؟ والإجابة عن ذلك: أن الشـعـوب البربرية الـتي ظلت على هامش حـضارة الإمـبـراطورية الرومانية العظيمة خارج حدودها كانت تشـهد عن كثب الحياةَ الرومانيةَ المترفة، فأصبحـت تطمع في تملك ثرواتها العظيمة. أهي الشعـوب التي عبرت سلسلة جبال «البرانس» أم تلك الأخرى البربرية القادمة من القارة الأفريقية التي سبقت الفتح الإسلامي؟ وسواء أكانت الأولى أم الثـانية، فهل الطمع في الغنيمة التي تركتها المدن الإمـبراطورية هو الذي تسبب في هدم مدينة قرطبـة ومدن رومانية أخرى في شبه الجزيرة الإيبيرية؟ أو أن هذا الـتدمير وقع في وقت لاحق نتيجة للصراعات الداخلية بين الشـعوب الغازيَة فيما بينها، أم نتـيجـة الحمـلـة التي باشـرها القوطيون ضـد البيزنطيين؟[٢٠]. لا توجد إجابة عن تلك الأسئلة في الكتب التاريخـية إلا في بعض الحالات كـحالة مدينة بلنسـية ومدينة قـرطبة، المدينتين اللتين اكتُـشفت فيهما جـزئياً جداً المستويـاتُ الأثرية للوجود الروماني والقوطي والإسلامي، ونستطيع، بتـحفظٍ كبير، كما سنقول فـيما بعد، تحديد تاريخ هدمها. إذا لم يمكن التـوفيق بين البيانـات التاريخـية الخاصة بهدم المدن المتبقيـة وبين المعلومات التي ظهرت نتيجة للدراسات الأثرية. كـما نجهل أيضاً متى وكيف أُبيد بعـضها نهائياً وأعيد إنـشاء البعض الآخر في وقت لاحق. إن سبب التدمـير لم يكن في أغلب الأحيـان نتيجة عامل وحـيد، لكنه ناتج عن عشرات السنين بل والقرون من الغزوات والصراعات[٢١]. لقد ظل لبعض بقايا

المباني الأثرية الرومانية: الكاتدرائيات والمعابد والحمامات العامة والسيركات والمسارح والمدرَّجات[٢٢]، ذكر في الكتابات اللاتينية التي جاءت في «الكربُوس» للكاتب «هوبنر» CORPUS DE HUBNER، بلا مصدر وشبه مختفية تحت الأنقاض، وهي تبدو كأنها أشباح ضخمة من الآجرّ والملاط الجاف. وهناك العديد من الساحات العامة المنعزلة والشوارع المهجورة تقف كشاهد أخير قائم، لفترة غير طويلة على حضارة مدنية زاهرة. وفوق أنقاضها وبالاستعانة بالمواد التي استخدمت في بنائها أقيمت مساكن فقيرة جانبية رصت بين بقايا بواباتها ومبانيها الضخمة المهجورة[٢٣].

**الأرضية القوطية والأرضية الإسلامية.**

أمام الحضارة الإمبراطورية الرومانية العظيمة، البارزة في المباني التي مازالت قائمة، وأمام البقايا التي اكتشفت بين أنقاض مدنها، من المملكة القوطية ذات، الحياة القصيرة لم يبق إلا آثار نادرة من مواقع مدنها[٢٤]. فمدينة قرطبة القوطية، خليفة المدينة الرومانية العظيمة، ليس فيها إلا بعض الأجزاء المعمارية المشوهة ذات فن بدائي شبه بربري باقية في الجامع وفي المتاحف. تلك هي الآثار الوحيدة الباقية للمباني التي يمكن من خلالها أن نتخيل تواضع البناء والفن. وبالكاد يذكر كثير من المؤرخين وعلماء الجغرافيا والرحالة المسلمون - من «ابن خرداذبة» في القرن التاسع حتى المقَّري في القرن السابع عشر الميلادي - شيئاً عن مبانٍ قوطية أخرى عدا بعض الكنائس، ودائماً دون تفحص لبنائها، مما يدل على قلة أهميتها، بينما لم يخفوا إعجابهم ببقايا البنايات الرومانية العظيمة التي أقيمت لتخلد. ولقد ذكر الكاتب المسلم «الحِميَري» في مؤلفه «**الروض المعطار**»: "لا يمكن لأحد اليوم إنشاء مبانٍ تمتاز بمثل هذا

الكمـال في هندستهـا المعمـارية»[٢٥] وذلك في معـرض حديثـه عـن بقايـا مباني مدينـة طـرّكونة الرومانية TARRAGONA. وقد عـثر في بلنسية وقـرطبة فقط علـى بقايا قليلة مـن المبـاني القوطيـة في أمـاكن قليلة من أرضيـتهـما السفلى، وهي الوحيدة التي تسمح بتحديد مستوى أرضيتهما لمقارنتها بالرومانية والإسلامية وبالأرضية الراهنة، وهـي مـعلومات على درجـة كبيرة من الأهميـة لتاريـخ المدن[٢٦].

في عام ١٩٠٥م اكتُـشف في مدينة بلنسية، بالقـرب من الكاتدرائية، على عمق ٢,٧٠ متر، على عمق الأرضية الحـالية ثلاثُ قطع غير كاملة من الرخام الأبيض عليها كـتابة تشير إلى ترميم أحـد المباني، كما اكتشـفت أجزاء أخرى لبلاطات فخّارية وبقايا زخرفـية من القرن السادس أو السابع الميلادي[٢٧]. فإذا لـم يكن هناك خطر في اسـتنباط نتائج مـبنية على خبـرٍ وحيد دون التـأكد من صحته، فإنه ـ على ما يبدو ـ كان مستوى أرضية بلنسية في العصر البيزنطي أو القوطي نفس مستوى المدينة الرومانـية على وجه التقريب، وعلى هذا الأساس يمكن الافتراض بأنه لـم يكـن هناك انقطاع فاصل بينهما. ويؤكد «بريميتين» مراراً أنّ الأرضية الرومانية في بلنسية تقع على عمق أربعة أمتار تحت الأرض في أكثر نقاطها ارتفاعاً؛ بينا تقع الأرضية الإسلامية على عمق أقل من متر واحد، وفي بعض المناطق لا يتجاوز ٦٠ سنتيمتراً[٢٨]. والأمتار الثلاثة الزائدة في الارتفاع المكونة من الرّديم هي الفـرق بين المسـتويات التي تكاد تـكون متـفقـة في كل أجزائهـا: الجزء الروماني ومسـتوى الأرض في القرن الحادي عـشر، والأرض المسلمة. ويدل هذا الفرق على حدوث كوارث وتخريب وعلى مرورها بفترات من الانحطاط الشديد في تاريخ المدينة.

وفي حين لا يُعرف عن أرضية مدينة قرطبة القوطية إلا بيان تاريخي واحد، فإنّ هناك العديد من البيانات التاريخية الخاصة بتلك المدينة إبان سيطرة الإمبراطورية الرومانية. ولا يوجد في الوصف الخاص بموقع مدينة قرطبة الرومانية ذكر لبقايا الفترة اللاحقة ولو أنها تظهر متناثرة خارجها. وقد أشارت البيانات إلى أنه كانت توجد كنيسة كانت مخصصة فيما يبدو للقديس سان بيثنتي والتي يتكرر ذكرها عند المؤرخين المسلمين، وكانت واقعة على جزء من الأرض التي أقام عليها عبدالرحمن الأول المسجد الجامع عام ١٦٩هـ/ ٧٨٥ - ٧٨٦م. أما الحفريات الرسمية التي نُفِّذت منذ عدة سنوات ـ ولم تُنشر حتى الآن ـ التي تمّت في داخل المصلى الإسلامي القديم، فقد كشفت أن أرضية المعبد النصراني، الفقير في بنيانه كما يستنتج من البقايا التي عثر عليها، كانت تقع على عمق ٤٠ سم أسفلَ أرضية المسجد وعلى عمق حوالي مترين فوق مستوى مبنى روماني مجهول المصير[٢٩].

ويبدو أن أرضية المدينة الإسلامية تقع على الجزء الباقي من موقع مدينة قرطبة على أعماق تختلف اختلافاً كبيراً. فمستوى أرضية الشوارع المجاورة لأرض المسجد الجامع لم يرتفع كثيراً إذا ما قورن بمستوى الأرض داخل المسجد التي تم إصلاحها منذ بضع سنوات[٣٠]. ويحدد «كاستيخون» عمق الأرضية الرومانية بين ثلاثة وستة أمتار حسب منطقة المدينة التي يحفر فيها. أمّا الأرض الإسلامية في اعتقاده، فإنها على عمق يتراوح بين مترين إلى ثلاثة أمتار[٣١] وهناك فرق في مستوى كل منهما يتراوح بين متر إلى ثلاثة أمتار. ويتفق هذا التقرير مع ما عثر عليه في شارع «جارثِيّا لوفيرا» GARCIA LOVERA، الذي اكتشفت فيه بلاطات فخارية إسلامية على عمق مترين، بينما عثر على عمق

أربعة أمتار تقريباً على الأرضية الرومانية[٣٢]. أما مقابر هذه الحضارة الأخيرة التي عثر عليها في مدينة الموتى الرومانية الواقعة على الطريق القديم لمدينة المدوَّر (المودوبار) فقد كانت تقع على بعد مترين ونصفٍ أسفل الأرض الحالية، بينَا كانت الأرض الإسلامية تقع على عمق ٧٥ سم فقط أسفل الأرض الحالية، وتم التعرّف عليها من دراسة بطانة من القرميد المتناثر فوقها[٣٣]. ويدل هذا القرميد دون شك على وجود مساكن إسلامية، ذلك أن المدينة الإسلامية في القرن العاشر الميلادي كانت أكثر امتداداً من المدينة الرومانية.

ويشير علم الآثار ـ مع ذكر التحفظ نفسه الذي وُضّح من قبل بخصوص تاريخ مدينة «بلنسية» ـ إلى وجود طبقة كبيرة من الرديم في قرطبة بين مستوى المدينتين الرومانية والقوطية بينما يقل سمك تلك الطبقة بين مستوى المدينتين القوطية والإسلامية مما يدل على وجود فاصل فجائي بين مدينة قرطبة الرومانية الكبيرة ومدينة قرطبة القوطية. ويمثل هذا الانقطاع الفاصل بقايا من رماد المباني والأتربة الهشة التي تغطيها.

ومن المحتمل أنه بعد عصر الفوضى والظلم الذي امتد بين أواخر القرن الثالث والرابع الميلاديين صارت قرطبة، مثل مدن عديدة في شبه الجزيرة الإيبرية التي انحطت انحطاطاً بالغاً، مدينة شبه مدمرة ومهجورة تقريباً. ثم عادت وشهدت بعض الازدهار عندما نظمت في القرن الأخير مكونةً دولة قوطية مستقرة نسبياً[٣٤].

وهناك قصة منقولة عن المقَّري، والتي قد تكون صورة مشوهة بعيدة عن الواقع أو قريبة منه، يمكن أن تؤيد شهادةَ علم الآثار والافتراض السابق، والتي تقول: إن سيداً أو أميراً خرج إلى الصيد في العصر القوطي وبدأ في مطاردة

صقرٍ في غابة كثيفة واقعــة على أرض قرطبة المهدمة، وعثر على آثار قصر من القصور كــان الطائر قد اختبأ فيــه. وبعد إعادة بناء ذلك القصر طبــقاً لتخطيطه الأصلي، أقام فيه الملك «روردريجــو» واتخذه مسكناً له حين توجه إلى الأندلس لمحاربة طارق. وابتــداء من ذلك التاريخ ســمي القصر باســم الملك المنحوس. ويقال: إن ذلك القصــر كان يشغل أولاً أرض القصــر اللاحق للأمراء ثم صار مِلْكًا للخلفاء فيما بعد[٣٥]. وقـد سبـق أن ذُكـرت تلك القصة باختصار شديد في نص لاتيني قديم «تأريخ روتنــسي»، في أوائل القرن الحادي عشــر الميلادي وهي تبين أن الملك «رودريجو» قام ببناء قــصر بمدينة قرطبة قبل اســتيلائه على العرش «وهو الذي يسميه المسلمون بقصر «رودريج»[٣٦].

**تحوّل مدن القرن السابع الميلادي إلى المدن الأسبانية المسلمة.**

تحولت عدة مــدن مشرقيــة إلى فترة المدنية دون انقطاع، كـما هي الحال في دمشــق وحلب وغيــرها عندما اســتولى عليــها المسلــمون[٣٧]. أما فــي مدن الأندلس، فلم يتمكن المسلمــون من إتمام هذا التحول؛ لأن التــخطيط الروماني الذي كان لايزال قائماً حتى القرن الســادس الميلادي بمدن الشرق قد اختفى من معظم المدن الأسبانية في السنوات الأولى من القــرن الثامن عقب الدمار الكبير الذي عانت منه المدن السابقة. وبعد قيــام المسلمين بالفتح العاجل لشبه الجزيرة الإيبيــرية دخل العديد من المــدن بالمعاهدة، لكن أغلب المدن الأخــرى الباقــية فُتحت عن طريق المحاصــرة المحدودة الدمار. ومن ذلك يمكن أن نستنتج أنه لـم تطرأ تغــيرات ذات أهمــية في النظم المدنــيّة الفــقيــرة في الفتــرة التاليــة لتلك الأحداث. ثم بدأ التغــير التدريجي البطيء تحت تأثير بعض الأســاليب القادمة من الشــرق الإسلامــي، حتى أصــبحت مدينة قرطبة في القرن الــعاشر الميلادي

مثلاً ـ مع نقص المعلومات التاريخية عنهـا ـ ذات أبنية مدنية مشابهة جدًا لتلك التي في دمـشق وبغـداد أو الفـسطاط، ومن أبرز صـفاتـها، كـمـا سنرى في الصفحـات الآتية، تقسيم المدينة: شوارع ضـيقة وملتوية، والرئيـسة منها التي تربط بين بوابات المداخل والأسوار عبر المدينة، ضواح كبيرة غير منتظمة تتوغل فيهـا أزقة مغلقة ليـس لها منافذ، وهي مزودة بأبواب عند مـداخلها، ومن ثَمَّ قيصريات مغلقة وأسواق مكونة من محال صغيرة جداً(٣٨).

ولم يُستَفَدْ من الآثار البـاقية في مدينة قرطبة الرومانيـة والقوطية إلا ببعض الدرازن من الأعـمدة وتيـجانهـا التي استـعملت في القـرنين الثامن والتـاسع الميلاديين كـمسند للأقواس الفـاصلة بين أروقة المسجـد الجامع. ولكن الدرس الذي أُخذ من العـمارة الرومانية الإمـبراطورية لم يُنْس نهائياً، ويؤكـد ذلك ما حدث عند بناء المسـجد المذكور في قـرطبة في النصف الثاني من القـرن الثامن وعند توسيعه في القرنين التاليـين؛ حيث تم اختلاط بعض أساليب البناء وعدد غير قليل من المواضيع الزخرفية الخاصة بالهندسة الرومانية بالأساليب والأشكال الأخرى القادمة من الشرق، ومن ثَمّ نشأت الهندسـة المعمارية الأسبانية المسلمة الأصيلة الفريدة من نوعـها، وهي ليست إلا فرعًا من فروع الهندسـة المعمارية الإسلامية.

* * *

# الملحق الأول

## المساحة الداخلية لأهم المدن الغاليّة الرومانية

إن مقارنة مساحة المدن «الغاليّة الرومانية» بالمدن الأسبانية المعاصرة السابق ذكرها أمر مهم.

فمدينة «تريفريس» ـ أكبر مدنها وعاصمة من عواصم الإمبراطورية خلال جزء كبير من القرن الرابع الميلادي ـ كانت تحتل مساحة ٢٨٥ هكتاراً، وكان طول أسوارها ٦٤١٨ متراً؛ ومدينة «نيمس» كانت مساحتها ٢٧٥ هكتاراً على وجه التقريب، ومحيط أسوارها ما بين ٦٠٠٠ إلى ٦١٠٠ متر (ويلاحظ أنه في أواخر القرن الثالث اختصرت هذه المساحة إلى حوالي ٣٢ هكتاراً فقط). وكانت مساحة مدينة «أنطون» ANTUN ٢٠٠ هكتار واختصرت هذه المساحة إلى ١٠ هكتارات أو ١٢ هكتاراً في العصر نفسه والخط المحيطي للمدينة ١٣٠٠ متر؛ وبلغت مساحة مدينة «أفرينشس» AVRENCHES (هلفيثيا) قبل الغزوات ١٥٠ هكتاراً وبعد الغزوات انحسرت إلى ٨ أو ٩ هكتارات. ومدينة «ليون» LYON كانت مساحتها ١٣٧ هكتاراً. أما مدينة ماجونثيا MAGUNCIA، عاصمة جزء من دولة جرمانيا، ومدينة تولوز TOULOUSE في سنة ٣٨٣، فبلغت مساحة كلٍّ منهما ١٠٠ هكتار؛ ومدينة كولونية COLONIA، عاصمة لجزء آخر من دولة جرمانيا كانت مساحتها ٩٧ هكتاراً وخط أسوارها ٣,٩١١ متراً؛ وكانت مساحة مدينة «ريمس»، في أواخر القرن الثالث ٦٤ هكتاراً؛

ومدينة «سنس» SENS وفيينا Vienne، في نفس العصر كانت مساحتهما ٣٦ هكتاراً. وكانت مساحة مدينة مارسيليا MARSEILLE ٣٠ هكتاراً، ومدينة «أُرليانس» ORLEANS، في أواخر القرن نفسه، ٢٥ هكتاراً؛ أما مدينة بوردو Burdeos التي كانت من أهم مدن غاليا في أواخر تاريخ الإمبراطورية فكانت مساحتها ٢٢ أو ٣٢ هكتاراً، وخط أسوارها ٢٣٤٠ متراً؛ ومدينة «ناربونة» NARBONA كانت مساحتها بين ١٤ إلى ٢٠ هكتارًا بعد الغزوات الأولى، ومدينة أستراسبورج STRASBOURG كانت مساحتها ٢٠ هكتاراً وخط أسوارها ٢١٠٠ متر؛ ومدينة تروا TROYES كانت مساحتها ١٦ هكتاراً؛ ومدينة تورني TOURNAI كانت مساحتها تتجاوز ١٢ هكتاراً، ومدينة لي مانس LE MANS كانت مساحتها ١٠ هكتارات تقريباً؛ ومدينة باريس PARIS كانت مساحتها ٨ هكتارات، ومثلها مدينة أميان AMIENS على وجه التقريب؛ ومدينة باسيليا BASILEA كانت مساحتها خمسة هكتارات ونصف[٣٩].

أما أسوار مدينة كونينبرجا (في البرتغال)، المبنية بعد غزوات القرن الثالث ـ والتي قد اختصر طول محيطها فيما بعد، تاركة جزءًا كبيراً من المدينة السابقة خارج أسوارها، فكانت تحيطها مساحة داخلية تساوي ٩ هكتارات فقط. ومدينة بولوبلس من أهم مدن مراكش، كانت مساحتها الداخلية ٢٨ هكتاراً تقريباً، والخط المحيط بها طوله ٢٥٣٠ متراً[٤٠].

وبمقارنة مساحة هذه المدن (الغالية الرومانية) قبل غزوات أواخر القرن الثالث بالمدن المعاصرة لمدن شبه الجزيرة الإيبيرية، لوحظ أن الأخيرة كانت أقل من الأولى عدداً ومساحة. وترجع هذه الظاهرة إلى عامل معروف، وهو أن الأرض الفرنسية أغنى. أما مدن الغاليا، وبالأخص تلك التي تقع شمال نهر «اللوار»،

فقد بُنيت أغلب منشآتها من مادة الخشب كما يذكر الكاتب «لوت» وهو يورد ملاحظةَ الكاتب «جرونيه» مؤكداً بأن مدينة كبيرة ذات مساحة كبيرة لا تعني أنها كثيرة السكان؛ وعلى هذا، فلم يعثر على أساس مبان في أغلب المساحة الداخلية لمدن الغاليا الرومانية الكبرى مثل «نيم»، و«أنطون» و«أفرنشيس» ANTUN, AVRENCHES, NIMES(٤١).

وضمن المدن الأسبانية المعاصرة التي تنطبق عليها هذه الحالة توجد مدينة «كولونية» بمساحة تقدر بـ ١٣٠ هكتاراً تقريبا في الجزء الداخلي، وكذلك الحال في مدينة «أجوستوبريجا». والعامل الأساس الذي يسوّغ وجود هذه المساحة الكبيرة في داخل الأسوار الحاجة إلى إيواء عدد كبير من المواشي عند تعرض المدينة للخطر. وفي بعض المدن السكنية كمدينة «إيطاليكا» عثر على «دموس» أو مساكن خاصة لعائلة واحدة تظهر فيها رفاهية ما، كانت تنخفض فيها الكثافة السكانية، فيما يُظنّ.

## الملحق الثاني

## العمق الحالي الذي تقع فيه آثار المدن الأسبانية الرومانية تحت الأرض

يُعد ارتفاع مستوى الأرض ظاهرة مشتركة بين المدن القديمة كلها. وترجع هذه الظاهرة إلى أسباب متعددة يمكن أن تقتصر على اثنين فقط، هما: أسباب طبيعية (كالأمطار والفيضانات والطرق وحركة الرياح والزلازل). وأسباب غير طبيعية، وهي الأكثر تعقيداً (الحرائق وأنقاض المباني وإقامة المنشآت الجديدة على بقايا القديمة طبقاً لعادة مسيطرة[٤٢]. ولموقع الأرض التي أقيمت عليها تلك المدن أثر في العمق الذي تقع فيه بقاياها؛ فالمدينة التي تقع على المرتفعات كمدينتي «أكساما» UXAMA و«بيلبليس» Bilbllis توجد آثارهما على الطبقات السطحية. أما في مدينة أخرى مبنية في قاع واد من الوديان ومحاطة بجبال مجاورة لها، فإن التراب المجلوب من سفوح الجبال بسبب مياه الأمطار يغطي تدريجياً آثار المدينة المنقرضة في أعماق متباينة. إن تراكم الأتربة المسحوبة بمياه أنهارنا في فيضاناتها الدورية يفسر تفسيراً مقبولاً ارتفاعَ مستوى الأرض في بعض المدن الأسبانية، ومنها: نهر الوادي الكبير في مدينة «أشبيلية» ونهر «وادي المدينة» في «مَالَقة» ونهر «توريا» في مدينة «بلنسية» VALENCIA ونهر «الإيبرو» في مدينة سرقسطة ZARAGOZA . . . ، إلخ.

ونورد، دون الرغبة في الإسهاب بعض المعلومات عن عمق مستوى الأرضية الرومانية بالنسبة إلى مستوى الأرضية الحالي في بعض المدن الأسبانية التي

ظلت عـامرة بالسـكان حتى أيامنا الحـاضـرة. وكمـا قيـل من قبل فـإن تلك المعلومات ليست إلا بيانات منفـردة؛ ذلك لأنه، لسوء الحظ، لم تسجل بصورة منتظمة كمـا كان يحدث في الأعوام الأخيـرة، بسبب الأعمال العامـة للتمدّن التي تمت تحت مستوى أرض مدن عديدة.

**غَرْناطة** GRANADA.

أظهرت الحـفريات التي تمت سنة ١٧٥٤في «حديقـة لوبيرا» المعروفة حـالياً بـ«كونثبـثيون» CONCEPCION الواقعة في القـصبة القديمة على أعماق مـختلفة تتراوح بين ٥ أمـتار إلى ٨,٣٥ آثارَ مـيدان بلدية «فلورنتـينو إليبرتانـو» وبينها مصاطب من الرماد وخبث المعادن المنصهرة وهياكل عظمية بشرية[٤٣].

**مَالَقَة** MALAGA.

توجـد في هذه المدينة على عمق يتـراوح بين ٣,٣٤ و٥,٠١ من الأمـتار تحت مستـوى أرضية المدينة الحالية بقـايا المدينة الرومانية[٤٤]. وأُكِّد وجود هذا المستوى حينما أقيمت مباني الجمرك في أواخر القرن الثامن عشر.

**إشبيلية** SEVILLA.

ظهرت الأرضية الرومانية سنة ١٧٥٢م في شارع فالنثويلا على عمق ٣,٣٤ أمتار تحت سطح الأرض[٤٥].

**قرمونة** CARMONA.

يُوجد في الميدان الصغير المسمّى سان فرناندو طبقة سمكها ٣ أمتار تقريباً من الأتربة ومن الأنقاض فوق مستوى الأرضية الرومانية[٤٦]

**بلنسية** VALENCIA.

عثر في بلنسية في حدود سنة ١٦٥٥م على آثار رومانية على عمق ١٦ شبراً

تحت مستوى الأرض[٤٧]. ويؤكد الكاتب برميتين مراراً بأن مستوى الأرضية الرومانية يقع على عمق ٤ أمتار تحت الأرض، ومن المرجح أن العمق أكثر من ذلك، بينما يذكر «ماتيو إي يوبيس» اكتشاف قطع عملة وآثار رومانية على عمق ٣,٥٠، و٤، و٤,٣٠ أمتار في أماكن مختلفة من الأرض التي كانت في أغلب الظن أرضية مركز المدينة الأصلية التي تقع بين قصري «الجِنَرالِيداد» Gen-eralidad والمطرانية وفي شارع «سرّانوس» Serranos[٤٨]. واكتشف في سنة ١٩٠٠م في شارع «دي لاباث» المجاور لشارع «لا كروث نويفا» الأرضية الرومانية على عمق ٢,٧٠ من الأمتار تحت مستوى سطح الأرض الحالية[٤٩]. وعلى العمق نفسه في المنطقة المحددة بالشوارع «دي لا باث» و«كروث نويفا» و«بوليو» و«بياتو خوان دي ريفيرا» عُثر على بقايا منزل روماني. وفي سنة ١٩٥٠م عثر في شارع الرّلوخ بيبخو على عمق ٢,٣٠ تحت مستوى الأرض على فسيفساء احتفظ بها في المتحف التاريخي للمدينة[٥٠].

**برشلونة** BARCELONA.

يعتقد بعض المؤلفين بأن المستوى المتوسط لمدينة برشلونة قد ارتفع من مترين إلى ثلاثة أمتار عن مستوى الأرض الرومانية[٥١]. ولكن عُثر في الحفريات التي تمت حديثاً في الحي المعروف باسم «الحي القوطي»، بالقرب من الكاتدرائية، على أرضيات مبانٍ رومانية على عمق ٤ أمتار تقريباً تحت مستوى الأرض الحالية[٥٢].

**سَرَقُسْطة** ZARAGOZA.

منذ عدة سنوات عثر ـ على عمق ٣ أمتار تحت مستوى سطح الأرض ـ على فسيفساء رومانية بالقرب من «سان خوان دي لوس بانيتس»[٥٣].

**بلنسية** PALENCIA.

يقع مستوى سطح الأرضية الرومانية في بلنسية على أعماق مختلفة تتراوح بين متر واحد وثلاثة أمتار[٥٤].

**قرطبة** CORDOBA.

تقع الآثار الرومانية على أعماق «مختلفة تتراوح بين ٣ - ٦ أمتار طبقاً للمنطقة التي يحفر فيها»[٥٥]. واكتشفت الأرضية الرومانية على عمق ٥ أو ٦ أمتار تحت مستوى الأرض في ميدان «سان خوان»؛ وفي ميدان خوسي أنطونيو على عمق ٥ أمتار تحت الأرض، وفي شارع «كروث كوندي» على عمق ٧ أمتار تحت مستوى الأرض، وفي هذا الأخير عثر على مبنى ذي أهمية كبيرة[٥٦]. وفي منزل يقع على شارع «لويس راميريث» و«كاساس ديثا» توجد الأرضية الرومانية على عمق ٤,٤٠ أمتار تحت مستوى الأرض الحالية[٥٧]. ؛ وفي شارع «جارثيا لوبيرا» تقع الأرض الرومانية على عمق ٤ أمتار تقريباً تحت مستوى الأرض[٥٨]؛ وفي شارع «فراي لويس دي غِرناطة» على عمق ٥ أمتار[٥٩]. وفي شارع «أشبيلية» عُثر أمام مبنى البنك الأسباني الأمريكي، على عمق ٣ أمتار تحت الأرض، على فسيفساء رومانية جميلة[٦٠]. ويؤكد الكاتب «سانتوس جوميث» بأن الأرضية الرومانية في مركز المدينة القديمة تقع على عمق كبير يقدر بـ - ٥ أمتار كرقم متوسط - ولكنها تقع على عمق مترٍ واحدٍ فقط عند باب معهد التعليم المتوسط في تندياس[٦١].

## الملحق الثالث

## غزو شبه الجزيرة الإيبيرية ابتداءً من القرن الثاني حتى القرن الثامن

لا أحاول في هذا الملحق أن أدرس التاريخ المعقد والغامض للغزوات التي تعرضت لها شبه الجزيرة الإيبيرية منذ القرن الثاني حتى القرن الثامن الميلادي اعتمادًا على النصوص المعاصرة أو التالية لها بقليل، والتي لست مؤهلاً لها، ولكنني أهدف فقط إلى إعطاء فكرة عن الاضطرابات الواسعة النطاق التي عانت منها المدن الأسبانية خلال تلك المدة.

ولقد تناول هذا الموضوعَ العديد من العلماء في السنوات الأخيرة.

لذا فإنني جمعتُ البيانات المنشورة في الملحق الآتي كجزء تكميلي قد يفيد فيما كُتِبَ في الصفحات السابقة.

تعرضت محافظة «بيتيكا» (في الأندلس) تحت حكم «ماركو أوريليو» لغزوتين قادمتين من موريتانيا، يفصل بين الأولى والثانية عدة شهور؛ فقد تمت الأولى بين أعوام ١٧٢م و١٧٤م والثانية في عام ١٧٥م. وتم التعرف عليهما بواسطة كتابتين قديمتين. إحداها منقوشة على قاعدة تمثال قادم من «إيطاليكا»، والأخرى عثر عليها بين أنقاض «سويجيليا باربا» بالقرب من «أنتقيرة». ويعبر المواطنون فيهما عن شكرهم للسيد باليوس ماكسميانوس نائب إمبراطور منطقة موريتانيا «تنجيتانا» (أيوس). أما أهل إيطاليكا فإنهم يشكرون النائب الروماني لأن السلام بفضله عمّ بلادهم «ألبيتيكا» (محافظة الأندلس). وأهل

«بسويجيليا» يعترفون بأنه تمكن من تحـرير المنطقة بعد حصار طويل وأنقذها من الحرب ضد أهل أفريقيا الغزاة[٦٢]. ويفترض المؤلف «توفينو» أن الغزاة القادمين كانوا من قـبيلة «الباكـاتس» التي كانت تحتل إقليم شـمال المغرب. وفي فـترة سابقة في عام ١٧٠-١٧١م قام بعض الغزاة بعـبور البحر وتمكنوا من الاستيلاء على «مالَقة»[٦٣]. وهناك جزء من لوحة حـجرية رومانية عثـر عليها في تلك المدينة عام ١٩٠٥م تبين سـرعة إنشاء مبانٍ رائـعة وبهيجة على بـقايا الأنقاض والرديم[٦٤]؛ وفي ذلك الوقت قام «مـاركو أوريليـو» بتقوية مـدينة «بولوبلس» وربما بعض المدن الأخرى من مـوريتانيا؛ ويعتقـد «تراثينا» أنه في الفترة نفـسها أقيمت أسوار بعض مدن محافظة الأندلس مثـال لذلك مدينة «إليباماقنا» (حاليا «ألكالاديل ريو») ومدينة «إيطاليكا» و«قرمونة» ويابرة (إيفورا).

وفي عـام ١٨٧م قام جنـدي يدعى «ماتيـرنو» قـادم من مـدينة «إيطاليكا» بتشكيل جيش في إيطاليـا من المغامرين وغادر بهم إلى «غاليا» ثـم إلى أسبانيا مدمرًا مدناً وحقولاً.

وفـي القرن الثالـث الـميلادي تحـت حكـم «سبتـيميوسيبيرو» (عام ١٩٣ - ٢١١م) ربما تم غزو آخـر من جانب الأفارقـة لشبه الجـزيـرة، وعلى أثر تلك الغـزوة أقيمـت أسـوار «إيطاليكـا» و«كارتيـا»، في اعتقاد توفينو. وكانت تلك الأسوار تشبـه أسوار مدينة «بولوبلس» VOLUBILIS المشيدة تحت حـكم ماركو أوريليو ـ كما قيل.

وإبان عهد «جاليانو» (٢٦٠ إلى ٢٦٨) قامت شعوب «السويف» و«الجرمان» و«الفرنج» بالغزوة الكبرى على الإمبراطورية الرومانية. وبعد أن دمروا محافظة «غاليا» انتقلوا إلى أسبانيا حيث من المحتمل أن يكونوا قد دمروا الحي الإغريقي

لمدينة «إمبوريون» EMPORION القديمة والمهجورة فيـما يبدو منذ ذلك التاريخ.
وبين أعوام ٢٥٥ و ٢٦٤م أو ربما في تاريخ لاحق استولت تلك الشعوب على مدينة «تراكو» (حالياً طرّكونة) بعد تدميرها تدميراً كاملاً. وفي حدود سنة ٢٦٥م دمرت مدينة برشلونة[٦٥]. وقد ظل الدمار الناتج عن ذلك التخريب ظاهرًا حتى أوائل القرن الخامس كما يشهد «أروسيو» في عام ٤١٦م[٦٦]. ودمرت تلك الشعوب أيضًا مدينة «ديانيوم» (حاليا دانية DENIA)، ثم عبر الجرمان والفرنج مضيق جبل طارق وأُهْلِكوا بالقرب من «تامودا» طبقاً لما جاء في كتابات منقوشة على لوحة حجرية عثر عليها هناك محفوظة في متحف الآثار بمدينة تطوان القريبة[٦٧]. ويبدو أنه بعد ذلك التاريخ انقطع تصدير الزيت من مقاطعة بيتيكا (الأندلس) إلى روما ويؤكد ذلك عدم اكتشاف جرار الزيت على جبل المدينة المعروف بـ «بتستاثيو» بعد عام ٢٥٥م. ويعتقد المؤلف «تراثينا» أنه في حوالي عام ٢٨٤م تم تدمير مدينة «كلونيا» CLUNIA؛ ويذكر الكاتب «أوسومو» أن مدينة «ليردا» (لارده حاليا LERIDA) قد دُمرت في فترة قصيرة بعد هذا التاريخ (٣٠٩ و٣٩٤م)[٦٨].

ويذكر سان أسيدرو في كتابه عن تاريخ شعوب «الوندال والسويف» الخراب المريع الذي تركته تلك الشعوب بعد مرورها على شبه الجزيرة بصحبة محاربي الألانوس في أعوام ٤٠٩-٤١٠م. ففي طريقهم خرّبوا الأرض بأكملها وحرقوا المدن. وقام «جوندريكو» ملك «الوندال» بعد تدمير مدينة «كارتاجو» أسبرتاريا (حالياً قرطاجنّة) (٤٢٥م) بهجوم على مدينة «براجا» (٤١٩م) وحاصر «هيسبالس» (حالياً أشبيلية) (٤٢٥ - ٤٢٨م) ودمرها وقتل معظم سكانها.

وقد سقطت مدينة «ماردة» سنة ٤٣٩م وقـام «ريكيلا» ابن جوندريكو بالقضاء على الجيش الروماني الذي كان يقوده «أندروتو» بالقرب من نهر «سنجيليو» (حالياً خينيل) ثم حاصر «أميريتا» (حالياً ماردة) واحتلها، واستولى في سنة ٤٤٠ م على «هسباليس» (حـالياً مـدينة أشـبيليـة) وعلى باقي مـحافظة «بـيتـيكا» (حالـيـاً الأندلس)[٦٩]. وفي سنة ٤٤٩م هاجم لاردة، وفي سنة ٤٥٧م هاجم أستـورجة، ثم مدينة لشبونة في سنتي ٤٥٧ و٤٦٨م، ومدينة «لوشة» في سنة ٤٦٠م، ومدينة كويمـبرا في سنتي ٤٦٤ و٤٦٧ م. وانقـرضت خلال القـرن الخامس الميـلادي في منطقـة الشمال المـدن الآتية: أنديلو وبليـا وخوليـوبريجا. ويذكـر أيضاً هيـداثيو (٣٨٨-٤٧٠ م تقريباً) مطران مـحافظة جاليثيا في كـتابه المعروف بـ «**الكرونيكون**» الدمار الناتج على إثر غـزوات شعوب الألانوس والوندال والسويف الذين تسـببوا في سلسلة من الأوبئة المميتة: الحـروب والضرائب المفرطة والمجاعة والطاعون وفي انتشار الحيوانات الضارية بسبب عدم دفن الجثث.

وفي حدود سنة ٦١٥م دُمـرت مدينة قـرطاجنَّة. وفي أواخر القـرن السابع الميلادي تلاشت مقار المطرانية لمدينة كاستُـولو في محافظة «بيتيكا» ومدن باليريا وسيجوبريجا وأوريتو ومنتيسا في مـحافظة «كاربيتانيا» حيث كابدت تلك المدن ومدن أخرى غـير معروفـة العذاب والانحطاط بسبب الأوبئـة المميتة واجـتياح الجراد المدمر[٧٠].

ويذكر كتاب «**تأريخ روتِنسي**» المؤرِّخ في بداية القرن الحادي عشر، في أقدم النسخ المحتفظ بها المتعلقة بتـاريخ الملك ألفونسو الثالث، أن أسطولاً مؤلفاً من ٢٧٠ مركـباً تابعاً للمـسلمين اليمانيـين هاجم الحدودَ الأسبـانية في زمن الملك «وامبا» (٦٧٢ - ٦٨٠م) ودمَّرت حرقًا[٧١].

(1) Prólogo de Henri Berr a la obra de Ferdinand Lot, **La fin du monde antique et le début du moyen âge**, p. XX.

(2) Róbert Latouche ha propuesto que se sustituya la palabra «período» por la de «etapa», que indica mejor el carácter dinámico de la evolución humana (**Les origines de l'économie occidentale (IXe-XIe siècle**, pp. XXV, notas 1 y 347-348).

(3) Para su mejor conocimiento sería necesario, entre otras cosas, emprender un plan metódico de excavaciones en los solares de varias ciudades hispanorromanas.

(4) «Sabemos muy poco —ha escrito Vázquez de Parga— de cómo se verifica el tránsito de la España, trabajosa e incompletamente unificada, de los reyes visigodos de Toledo, a la España escindida en dos culturas y dos religiones que sucede a la invasión musulmana» (**Los documentos sobre las presuras del obispo Odoario, de Lugo**, p. 635).

(5) En 1945 empezaron a excavarse por don Juan Cabré las ruinas de Recópolis en el cerro de la Oliva (Guadalajara), ciudad fundada por Leovigildo en la Celtiberia el año 578, según el Biclarense. La dotó el monarca fundador de admirables murallas y servicios, concediendo privilegios a los pobladores. Tal vez fue destruida por los musulmanes al invadir la Península; se despoblaría poco más tarde. Al morir el incansable arqueólogo, a los dos años de iniciada la excavación, quedó interrumpida, con gran perjuicio para la historia y la arqueología. Ultimarla sería abrir una ventana sobre una civilización de la que tanto ignoramos (Torres Balbás, **Ciudades yermas**, pp. 44-52).

(6) Sobre la evolución urbana es capital el estudio, con datos recogidos en otros anteriores, de José María Lacarra, **Panorama de la historia urbana de la Península Ibérica desde el siglo V al X**, pp. 322-345. Las páginas de este capítulo, escritas hace algunos año y ahora renovadas, no pretenden ser más que un complemento arqueológico de las excelentes del señor Lacarra.

(7) De muy pocas ciudades romanas españolas se han levantado planos con la suficiente exactitud y escala adecuada para poder medir la extensión de su recinto murado; en contados casos estudióse éste detenidamente, tratando de fijar la época de su construcción. Los límites señalados para los recintos romanos de Sevilla, Itálica, Córdoba y Mérida, siguiendo con frecuencia descripciones fantásticas de eruditos locales, carecen de valor científico. Los principales estudios en que figuran datos sobre extensión y demografía de las ciudades romanas españolas, son los siguientes: Taracena Aguirre, B., **Carta arqueológica de España, Soria**, p. 20; C. Serra Rafols, José de: **La vida en España en la época romana**, pp. 66, 67, 70 y 87; Martín Almagro Bosch, José de C. Serra Rafols y Colominas Roca, José: **Carta arqueológica de España, Barcelona**, pág. 68; Taracena Aguirre, B., **Las fortificaciones y la población de la España romana**, pp. 421, 428, 432 y 135-139; Caro Baroja, Julio: **España primitiva y romana**, pp. 98-99.

(8) Serra Rafols, José de, **op. cit.**, p. 71.

(9) Blas Taracena Aguirre, **El palacio romano de Clunia**, y **Las fortificaciones y la población**, p. 441, núm. 17.

(10) Serra Rafols —**La vida en España... romana**, p. 66— asigna a Mérida, a comienzos del siglo II, unas 50 hectáreas; Taracena —**Las fortifcaciones y la población**, p. 427— afirma que en sus primeros tiempos ocupaba tan sólo 28; su caserío se extendió posteriormente por 120. Gil Farrés da con reservas la cifra de 28 hectáreas para superficie inicial, la del primer recinto murado de Mérida, y 84 para el posterior, incluidos en éste el teatro y el anfiteatro (Octavio Gil Farrés, **¿Cuál fue la extensión urbana de la Mérida romana?**, p. 362), Caro, **Esp. primitiva y romana**, p. 98.

(11) J. Puig y Cadafalch —**L'Arquitectura romana a Catalunya**, p. 63— evalúa la superficie de Tarragona romana en 35 hectáreas, y Taracena —**Las fortificaciones y la población**, p. 427—, en un total de 60.

(12) Serra Rafols, **La vida en España... romana**, p. 67.

(13) Almagro, Serra Rafols y Corominas, **Carta arqueológica de España, Barcelona**, p. 68.

(14) Caro, **Esp. primitiva y romana**, p. 98.

(15) R. Thouvenot, **Essai sur la province romaine de Bétique**, p. 386; el dato del perímetro procede de don Demetrio de los Ríos y merece escaso crédito, lo mismo que el del número de habitantes, fundado sobre él. Según Lacarra —**Panorama de la historia urbana**, p. 322— el cauce del Guadalquivir sufrió alteraciones en la época romana que dejaron en seco el brazo que pasaba por Itálica. Sevilla absorbió el comercio fluvial, ya que sólo hasta ella llegaban los navíos de gran carga. Para la comparación de la extensión

de las ciudades de la España romana con las contemporáneas de las Galias véase el apéndice primero, **Superficie intramuros de las principales ciudades galorromanas,** del presente epígrafe, **De las ciudades romanas de la Península Ibérica a las islámicas,** por L. Torres Balbás, B. R. A. H., pp. CXLVII.

(16) Caro Baroja, **España primitiva y romana,** pp. 98-99.

(17) Véase **infra, Extensión y demografía.**

(18) Torres Balbás, **Extensión y demografía de las ciudades hispanomusulmanas,** pp. 42-59.

(19) Tan sólo de Valencia, gracias al celo de un arqueólogo local, encargado por «Lo Rat Penat», el Centro de Cultura y el Laboratorio de Arqueología de registrar los restos hallados con motivo de una etapa de remoción del subsuelo de sus calles, a partir de 1927, se conservan noticias circunstanciadas de ellos durante un breve período (**Excavaciones de Valencia,** por Nicolau Primitín). Don Francisco Collantes de Terán viene estudiando sistemáticamente la Sevilla subterránea, pero aún no ha publicado el resultado de sus observaciones. En fecha muy reciente, el catedrático de la Universidad de esa ciudad, ayudado por sus alumnos, ha estudiado escrupulosamente una extensa zanja de cinco metros de profundidad y unos trescientos de extensión, abierta para la colocación de un colector en Sevilla (**Una zanja en el suelo de Sevilla,** por Juan de M. Carriazo).

(20) Los historiadores no aluden a grandes destrucciones de ciudades al conquistar los musulmanes la Península.

(21) Véase el apéndice tercero **«Las invasiones de la Península Ibérica desde el siglo II hasta el VIII»,** del presente epígrafe **De las ciudades romanas de la Península Ibérica a las islámicas.**

(22) Recuerda Lacarra que, después de algunos años de suspensión, en el 504, se reanudaron en Zaragoza los espectáculos de circo; entre 614 y 620 el rey Sisebuto reprendió duramente al metropolitano de esa ciudad por su afición a los juegos teatrales y circenses. Cree que en tiempo de San Isidoro, a lo menos en la Bética, estaban en uso el teatro y las carreras a pie y a caballo (San Isidoro, **Etymol.,** XVIII, 38, 40, 41 y 51). (Lacarra, **Panorama de la historia urbana en la Península Ibérica,** pp. 335-336.)

(23) Casi todos los restos romanos hallados en el subsuelo de Córdoba han aparecido muy destrozados; piedras y mármoles calcinados y negros de humo (Samuel de los Santos Jener, **Córduba Marcelli Aedificivm,** pp. 158-159), lo mismo que en el foro de Iliberis (Granada)

(24) Exceptuadas las ruinas de Recópolis, antes aludidas.

(25) E. Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 123; trad.. p. 153.

(26) En el apéndice segundo del presente epígrafe publícase una nota sobre «La profundidad bajo el suelo actual de las ruinas de las ciudades hispanorromanas».

(27) Dr. Salvador Roda Soriano, **Aportación al estudio de la arqueología valenciana,** p. 28; Fidel Fita, **Dos lápidas visigóticas,** pp. 58-62; Ana María Vicent, **Restos visigóticos en Valencia,** pp. 514-519; Manuel González Martí, **Cerámica medieval valenciana. El pavimento,** pp. 22 y 24. Al derribar la casa número 4 de la plaza de la Almoina, frente a la catedral, donde estaba la capilla de San Valero, levantada en 1719, aparecieron restos de una solería de estrellas ensambladas de seis puntas; la inscripción fragmentaria aludida, labrada al dorso de un capitel romano de pilastra, y dos trozos de un cancel de piedra caliza, con ornamentación vegetal y geométrica, semejante a la de otros visigodos de Toledo y Cabeza del Griego. El P. Fita, sin prueba alguna, atribuyó la construcción o reconstrucción a la que parece referirse el epígrafe incompleto, al obispo levantino Justiniano (527-548), por conservarse copia de otra lápida, hoy perdida, en la que decía haber levantado nuevos templos y reconstruido otros vetustos.

(28) Primitín, **Excavaciones de Valencia,** pp. 73-78.

(29) Otras excavaciones oficiales realizadas en el patio de la mezquita dieron por resultado el hallazgo, a profundidad semejante a la de la solería romana del interior, de las ruinas de un pórtico de columnas, con nichos en sus costados, restos, al parecer, de un edificio de los últimos tiempos imperiales (Gómez-Moreno, **Ars. Hispaniae,** III; p. 20).

(30) Es dato interesante la diferencia de nivel, no grande, entre el piso de los baños musulmanes de los siglos X y XI conservados en Córdoba y el de las calles inmediatas: baño de la calle del Baño, después Carlos Rubio, casi totalmente destruido, y el de la calle de Comedias o Céspedes.

(31) R. Castejón, **Córdoba califal**, p. 258.

(32) Carbonell, **Vestigios antiguos incalificados en la provincia de Córdoba**, p. 231.

(33) Santos Janer supone que las casas actuales se hallan al mismo nivel que las de la época musulmana en las calles de Carlos Rubio, Céspedes, Torrijos, Alcázar, etc. (**Memoria de las excavaciones del Plan Nacional, realizadas en Córdoba**, pp. 24 y 96-97).

(34) Cree Lacarra que en «el tránsito del siglo VI al VII hubo un aumento de riqueza en las ciudades y más concretamente en Mérida» (**Panorama de la historia urbana en la Península Ibérica**, p. 339). Prueba la decadencia de la Córdoba visigoda a comienzos del siglo VIII que cuando, en el año 101/719-720, se apoderaron de ella los musulmanes, el gran puente estaba roto a consecuencia de grandes avenidas y la muralla en malas condiciones (Torres Balbás, **Arte hispanomusulmán**, pp. 339-340).

(35) Maqqarī, **Analectes**, I, p. 156 y sigs.; Gayangos, **Mohammedan Dynasties in Spain**, I, pp. 208-209; **Ajbār Maŷmū'a**, apénd., II, pp. 176-177.

(36) Gómez Moreno, **Las primeras crónicas de la Reconquista, El ciclo de Alfonso III**, p. 55. La Crónica llamada por Gómez Moreno Rotense es el más antiguo texto conservado de la que antes se conocía por de Sebastián o de Alfonso III.

(37) Sauvaget, **Esquisse**... **de Damas**, y **Alep**, pp. 247-248. Afirma Sauvaget que en estas dos ciudades los órganos capitales de su organización antigua, tras un proceso de dislocación y fragmentación, continuaron formando el esqueleto, muy degenerado, de las posteriores musulmanas, sin que surgiese una fórmula urbana nueva, nacida de una doctrina islámica (**Memorial Jean Sauvaget**, I, pp. XXXIII-XXXIV). Pero la transformación fue profunda, y la ciudad musulmana llegó a ser totalmente distinta de la romana, como escenarios ambas de civilizaciones y formas de vida muy diferentes.

(38) Creo equivocada la afirmación de Isidro de las Cajigas en su excelente obra **Los Mozárabes** (I, p. 147), de ser un hecho incontestable que las viejas ciudades hispanorromanas, conservadas por los visigodos, no sufrieron grandes cambios bajo los invasores árabes, pues ni éstos ni sus antecesores fueron capaces de modificar profundamente los focos urbanos de civilización que encontraron a su llegada. La arqueología demuestra, como se ha visto, que las ruinas de bastantes ciudades hispanorromanas estaban enterradas en el subsuelo a la llegada de los musulmanes a la Península.

(39) Camille, Jullian, **Histoire de la Gaule**, V, pp. 35-38; VIII, pp. 214-217; Ferdinand Lot, **Recherches sur la population et la superficie des cités remontant à la période gallo-romaine**, primera parte, II; pp. 310-313, 317, 335-341, 354 y 372-375; F. Lot, **La fin du monde antique**, p. 82; F. L. Ganshof, **Etude sur le développement des villes entre Loire et Rhin au moyen âge**, pp. 11-12 y 24.

(40) Henri Terrasse, **Histoire du Maroc**, I; pp. 58-59.

(41) Lot, **La Gaule**, p. 398. La falta de restos puede obedecer a que las viviendas fueran de madera.

(42) Léon Homo, **Rome Imperiale et l'urbanisme dans l'Antiquité**, pp. 28-38. Adopto la clasificación de Homo, algo modificada.

(43) Gómez-Moreno y Martínez, **Monumentos romanos y visigodos de Granada**, pp. 19 y 25, y **Monumentos arquitectónicos de España, Granada**, pp. 16-19.

(44) **Conversaciones históricas malagueñas**, que publica mensualmente don Cecilio García de la Leña, pp. 30, 66, 151 y 152, y **El Guadalmedina**, por Joaquín María Díaz de Escobar, apud. **Estudios malagueños**, pp. 63-64.

(45) José Cestoso, **Sevilla monumental y artística**, I, p. 21, n. (1).

(46) **Catal. arqueol. y artíst. de la provincia de Sevilla**, por José Hernández Díaz, Antonio Sancho Corbacho y Francisco Collantes de Terán, t. II, p. 90.

(47) José Vicente del Olmo, **Lithología o explicación de las piedras**...

(48) Primitín, **Excavaciones de Valencia**, pp. 73-75 y 85; Felipe Mateu y Llopis, **Hallazgos arqueológicos en la plaza de la Almoyna en la ciudad de Valencia**, pp. 217-219.

(49) **Geografía General del Reino de Valencia**, por José Martínez Aloy, pp. 343-344.

(50) Dr. Salvador Roda Soriano, **Aportación al estudio de la arqueología valenciana**, pp. 27 y 64.

(51) **Catal. monum. de España. La ciudad de Barcelona**, por Juan Ainaud, pp. 11-18.

(52) A. Durán y Sampere, «Itinerarios artísticos», **El barrio gótico de Barcelona**, p. 34.

(53) **La dominación romana en Aragón**, por José Galiay Sariñena.

(54) B. Taracena, **La necrópolis romana de Palencia**, y F. Simón Nieto, **Noticia de una necrópolis romana y de un bosque sagrado (Palencia)**, pp. 146-147.

(55) Rafael Castejón, **Córdoba califal, B. R. A. C. B. A. N. A. C.**, p. 258.

(56) **Memorias de los Museos Arqueológicos Provinciales**, 1941, pp. 66-67; 1944, vol. V (Madrid, 1945), pp. 84-85; 1945, vol. VI (Madrid, 1946), p. 40; 1946, vol. VII (Madrid, 1947), pp. 85-86; 1947, vol. VIII (Madrid, 1948), pp. 90 y 92.

(57) Dato facilitado por don Rafael Castejón.

(58) **Vestigios antiguos incalificados en la provincia de Córdoba**, por don Antonio Carbonell, p. 231.

(59) Blas Taracena y Aguirre, **El mosaico romano de Baco, descubierto en la bodega cordobesa de Cruz Conde**; vol. II, p. 348.

(60) A. Carbonell Trillo-Figueroa, **Antigüedades cordobesas**, apud. **Bol. de la Real Acad. de Cienc., Bellas Letras y Nobles Artes de Córdoba**, XXI, 1950, p. 90.

(61) **Memoria de las excavaciones del Plan Nacional, realizadas en Córdoba (1948-1950)**, por Samuel de los Santos; p. 79.

(62) Hübner, **C. I. L.**, núms. 1120 y 2015, Raymond Thouvenot, **Les incursions de Maures en Bétique sous le règne de Marc Aurèle**; pp. 20-28; Jérome Carcopino, **Le Maroc antique**; pp. 184 y 270.

(63) R. Thouvenot, **Une colonie romaine de Maurétanie Tingitane: Valentia Banasa**; p. 62; Taracena, **Las fortificaciones y la población de la España romana**, p. 431.

(64) M. R. de Berlanga, **Málaga**, apud. **Rev. de la Asoc. Artística-Arqueológica de Barcelona**, 1906, pp. 150-156 y 160; 1907, pp. 20-21.

(65) Hübner, **C. I. L.**, VIII, núm. 2786 y II, núm. 4144 y addenda, p. 711.

(66) Orosio, VII, 22, 41; Entropium, **Breviarium**, IX, 8. Serra Rafols, **La vida en España... romana**, p. 67. Las fechas son tan sólo probables. Durante esa invasión parece fueron destruidas, entre otras localidades levantinas de la Península, Baetulo (Badalona) y Sagunto; tal vez, según sospedha Tarradell fundándose en hallazgos numismáticos, Clunia (Coruña del Conde), a orillas del Duero, y Baelo (Bolonia), en la costa atlántica, entre Cádiz y Tarifa y varias ciudades del norte de Africa. Sobre estas invasiones véase el excelente estudio de M. Tarradell, sobre **Las invasiones germánicas del siglo III d. J. C. en la Península Ibérica**; pp. 95-110.

(67) Un texto de Aurelio Víctor parece afirmarlo (Aurelius Victor, **Liber de Caesaribus**, XXXIII). Miguel Tarradell Mateu, **Dos bronces de Lixus: Los grupos de Hércules y Anteo, y de Tesseo y el Minotauro**; p. 71; Pierre David, **Etudes historiques sur la Galice et le Portugal du VIe au XIIIe siècle**; p. 76.

(68) **Histora de España** dirigida por Ramón Menéndez Pidal, II pp. 280-281; Taracena, **Las fortificaciones y la población de la España romana**, p. 433.

(69) José Luis Romero, **La Historia de los vándalos y suevos de San Isidoro de Sevilla**; pp. 292-293 y 296.

(70) Lacarra, **Panorama de la historia urbana en la Península Ibérica**, p. 344. A este trabajo pertenecen bastantes datos de los que figuran en este estudio.

(71) Gómez-Moreno, **Las primeras crónicas de la Reconquista, El ciclo de Alfonso III**; p. 53.

# الفصل الرابع

## المدن المندثرة

هناك عادة سائدة في أيامنـا الحاضرة وهي اندماج تاريخ الحيـاة الإنسانية في تاريخ المدن. ولا شك أن حياة المدينة ليست إلا المحصلة النهـائية لحياة كثير من البشر في مكان مـحدد خلال مختلف الأزمنة، ومن ثـم فتاريخ المدينة يمكن أن يبلغ نفس الدفء وأن يمر بالتجـارب المأساوية التي يمر بها الإنسان. وكـما يولد الإنسان تولد المدن وتحيـا حياة متقلبة ثـم تختفي اختفاءً نهـائياً وإن كانت دورة حياة المدينة أطول من حياة الإنسان في معظم الأحيان.

وقديماً كانـت التغيرات الحضـارية الكبرى التي تحدث هي الفـيصل الأساس لتاريخ البشرية، تلك الـتغيرات كانت مرتبطة في كثـير من الأحيان بفناء المدن التي ازدهرت فيهـا وبنشأة مدن أخرى جديـدة. وربما كان التغييـر الفجائي في معظـم الأحيان لأرض المدينة وتحـرك موقـعهـا إلى مسرح جـديد، هو أوضح العلامات التي تشير إلى فناء حلقة من حلقات التاريخ.

وقد نشعر بالفخر بسـبب إقامتنا في إحدى المدن المعاصرة، ولكي نلطف من هذا الشعور يجب أن نستدعي اندثار أشهـر المدن التي سبقت العصر المسيحي. ومدينة «رومـا» هي الوحيـدة التي وصفت بالمدينـة الخالدة قبل أن تكـون المقر الرئيس للكنيسـة الكاثوليكية؛ وعلى الرغم من هذا فإنها مـرت بفترات طويلة من الاحتضار خلال القرون الخمسة والعشرين من عمرها الطويل.

وبالرغم من أن تحرير هذا الكتـاب يسمح باستعـمال التعريف السـابق ذكره الخاص بمدينة "السبعـة أقسام"، بطابعها الرئيس كتجمع مـدني محاط بسور أو

سيـاج، حتى عند دراسة المدن المندثرة، كـمدينة شلطيش (سـالتيس) SALTES التي كانت بدون أسوار بسبب موقعـها على أرض إحدى الجزر، ولكن وضعها المدني حدد تحـديداً واضحاً خـلال البيانات الـتي جاءت في مؤلفـات عدد من الكتاب في الـقرون الوسطى، فإنه يجب ذكـرها ضمن المدن التي يشـير إليـها التعريف الأول.

**لماذا تندثر المدن وكيف.**

يعدّ تـاريخ اندثار المدن فصـلاً من أهم فصول التـاريخ. ولدينا الرغـبة في معرفة كيف غرق تدريجياً أغلبها في الصمت والغموض... لماذا اندثرت؟... كيف انطفأت منازلها واستسلمت مسـاكنها حتى لم يبق منها مسكن واحد بناره ولم يسمع داخل أسوارها صياح الديكـة كما كتب ابـن خلـدون عن مدن البربر الوسـطى على إثر حملات قام بها ابن غانية[1].

وفي تكوين أي تجـمع من التجمـعات المدنيّـة وتطوره تتدخل عـدة عوامل عوامل، جغرافيـة واقتصادية وتاريخية، بعضهـا دائم، والبعض الآخر مؤقت. وعندما تكون ظروف العـوامل الثلاثة متـوافقة تنشـأ مدينة مزدهرة ومزدحـمة ومستمرة في حياة نشطة. أما العوامل الجغـرافية بجذورها العميقة والبعيدة عن الإرادة البشرية، والثـابتة في أغلب الأحيان، فهي التي تـضمن بقاء المدينة من خلال كل أنواع خطوب الدهر بالإضافة إلى أنهـا هي التي تمنح المدينة استقلالاً نسبياً أمام الإرادة البشـريـة. وتلك هـي حـال المـدن الواقعـة مثلاً علـى غوطـة خصبة ـ علماً بأن الأرض الطيبة تمنح أقـصى الاستقرار للتجمع المدني ولو أنها لا تعطيه بدرجة كبيرة من الثراء ـ؛ وكـذلك المدن الواقعة على حافة نهر صالح للمـلاحة، أو الواقـعة على شـرم آمن ومجـاور لإقليم غني بالثـروة الزراعيـة

والمعدنية؛ وكذلك المدن الواقعة على مفرق طرق طبيعية والواقعة على مخاضة نهر من الأنهار ذات المياه الغزيرة والتي تكون الممر الوحيد لإحدى الطرق المهمة. ولكن العوامل الطبيعية يمكن أن تؤدي إلى تكرار تدمير تلك المدن مثل الزلازل والبراكين والفيضانات أو لفعل الإنسان الحروب والحرائق(٢). وفي هذه الحالة يمكن أن تعرف المدن فترات نسبية من الازدهار.

أما الأرض الطيبة فتستمر في منح ثمارها بسخاء؛ وتستمر السفن في صعودها أعلى الأنهار الصالحة للملاحة حاملة البضائع؛ ولا ينقطع المرور بالطرق الطبيعية في الأسهل والأكثر اقتصاداً. وستعود التجمعات المدنية الواقعة على الأماكن التي تتوافر فيها تلك الظروف الطبيعية المثلى لتصبح نواة لكثافة سكانية. تلك هي الحالة، في بلادنا، ولكثير من المدن التي يمكن ذكرها مثل سرقسطة ومرسية. وفيما يتعلق بامتيازات موقع المدينة الأندلسية الكبيرة [أي أشبيلية] فإن الأمر لا يحتاج إلى لفت نظر إليها لأنها معروفة معرفة تامة. وتقع المدينة الثانية (سرقسطة) في وسط منطقة زراعية على حافة نهر صالح للملاحة، هو نهر الأبرو الذي كان صالحاً للملاحة في القرون الوسطى. بالإضافة إلى هذه المميزات فإنها كانت مدخل الطريق، كما يقال اليوم، على أهم طريق طبيعية من طرق شبه الجزيرة الإيبيرية. أما مدينة «مرسية» فإنها تقع في وسط وادٍ خصيب؛ وخصوبة ذلك الوادي هي التي جعلت المدينة تستمر في موقعها دون تغيير منذ إنشائها سنة (٢١٦هـ/ ٨٣١م) وذلك على الرغم من فياضانات نهر سقورا SEGURA المدمرة والدورية.

والمدن الحافلة بالحوادث والتي كانت إلى حد ما سريعة الزوال، هي - كانت، بالأصح - تلك التي قد أنشئت أساساً لأسباب سياسية أو عسكرية أو

اقتصادية وفقاً لتقدير الإرادة البشرية. ومن المدن السياسية تلك التي اختيرت لتكون عاصمة دولة أو إقليم ما على الرغم من الظروف الجغرافية غير الصالحة لأداء تلك الوظيفة أو بُعدها عن الطرق التجارية أو إقامتها على أرض قاحلة. ومن الأسباب الكفيلة بأفول تلك المدن وفنائها نقل طريق ما إلى مكان آخر بسبب بناء جسر جديد وتأسيس مركز مدني مجاور لها في مكان آخر أنسب من القديم، ووقف صناعة ما. وكانت المدن العسكرية الأكثر عرضة للاندثار السريع، ويرجع هذا إلى سببين رئيسين: أولهما التغير الطبيعي للحدود، والثاني تقدم الفنون العسكرية. وبسبب إقامة تلك المدن في مناطق مرتفعة صعبة الوصول وبسبب افتقار المناطق الزراعية المحيطة بها والخالية في أغلب الأحيان من المياه الجارية أوحتى من المياه الجوفية التي يَسهل رفعها، هذه الأسباب كلها حكمت بالفناء على تلك المدن التي أصبحت عرضة للذبول العاجل وهدفاً للاحتضار البطيء بعد اختفاء الأهداف التي كانت سبباً في إقامتها وبعد فقدان الغرض من إنشائها وهو أن تكون مدناً عسكرية محضة.

تلك هي حالة كثير من مدن الأقاليم الداخلية لشبه الجزيرة التي أقيمت على قمم جبال وعرة محاطة بأراضٍ جيرية فقيرة جرداء خالية من الأشجار ونادراً ما تنمو فيها نباتات، وبعيدة عن الطرق المزدحمة للعهد الحديث. وقد بدأ أفولها تدريجيًا منذ القرن السادس عشر، أما التي لم تزُلْ فقد تحولت إلى مناطق ريفية خامدة. وكان سكانها ـ الذين يقل عددهم تدريجيًا، والمتمسكون تمسكًا شديداً بالأرض القاحلة التي ولدوا فيها، وتكاد تكون الأرض لديهم أغلى من مرج خصيب يوهب لهم ـ يقدِّمون درساً رائعاً في الوفاء والإخلاص التاريخي. ونذكر من بين أمثلة تلك المدن في أسبانيا الحديثة مدينة «بيدراثا»PEDRAZA

(في محافظة شقَوبية) ومدينة سالم MEDINACELI (محافظة سورية)، ومدينة «ابن رزين» (البراثين) ALBARRACIN » في (طرويل)، و«ثوريتا دي لوس كانس ZORITA DE LOS CANES» (وادي الحجـارة) و«الأركون» ALARCON و«مويا» MOYA في (قونكة) و«فرياس» FRIAS و«كاستـروخريث CASTROGERIZ» في برغش (بورقُس)، وهي مـدن تستحق أن يحـتفظ بها بأكـملها كـصور مثـالية لوطن فائت أخذت بصماته المادية، ذات القيمة الروحية والفنية العالية، طريقها في الاندثار. وإذا كان عـدد تلك المدن قليلاً على مسـتوى شبه الجـزيرة، فإنه بالمقابل تكثر مدن أخرى وهي التي انتقلت مـراكزها السكانية انتقالاً بطيئاً ولكن مستمراً من قمة الجبل الذي أقيمت عليه في القرون الوسطى كموقع دفاعي إلى السهـل الواقع أسفل الجـبل. وأصبـحت مدن الموتى مـهجورة («أكـروبولس» ACROPOLIS المدينة التي يحتـفظ الرومان فيـها ببقايا الموتى)، ودمـرت القلاع والأسوار وانهارت المعـابد القديمة المهجورة بلا عبـادات. كما أن الأراضي التي انتشرت فيها المنازل في وقت سابق تشهد اليوم على خلوها وجدبها.

من المدن الزائلة وقع بعضـها ضحيـة للعمليات العسكرية. والـبعض الآخر الذي لم يتـعرض للعنف انهـار يوماً بـعد يوم وتآكل مع الزمن بصـورة بطيئـة وتدريجية. وعندمـا فقدت كيانهـا الحيوي بدأ سكانها في هجـر منازلهم بعدما فقـدوا وسائل المعـيشة: وهكذا تـعرضت المنازل الخاليـة والتي تفتـقد التـرميم للانهيار حيث بدأت أسقف القرميـد ثم طوابق المنازل بالانهيار وظهرت فتحات الأبواب والنوافذ من غير مـصاريعها الخشبية على الحوائط الخـارجية التي كانت لا تزال صامدة ثم انهارت فـيما بعد. وكانت تُحيط بالشـوارع أراضٍ مهجورةٌ مليئة بالرَّديم، ولهذا كانت تشهد مناظر عكسيـة للنمو والتقدم: فبعد أن فقدت

صفاتهـا المدنية تحولت إلى حارات وطرق مـقطوعة غزتها الأعـشاب والنباتات البرية. وتوجد حتى اليوم على مسافات مختلفة أجزاء متهدمة من السور المجرد من وظيفته الأصلية وهي الحمـاية، والتي سوف ينتهي أمرها بالاندثار. وبتتابع السنوات تتـراكم الأراضي النباتيـة على الأنقـاض بحيث لا يشـير إلى مـوقع المدينة، المدمرة والمَطْمُورة في باطن الأرض بعد زوال عهـدها وامتثالها لقدرها. إلاّ بعضُ التلال البارزة التي تختلط بتضاريس المنطقة.

وقـد وصف ابن خلدون نـشأة المـدن ثـم تطورهـا واحـتـضـارهـا ـ أي الـدورة الحيويـة للمـدن ـ وذلك عندما قام بدراسة مدن شمال أفـريقيا. ويقول إن المدن كانت في بدايـة تأسيسـها فقـيرة في بنيانهـا كمنازل الشعـوب المتنقلة البدويـة، وكانت المواد المستعمـلة في بنائها رديئـة. وإذا بلغت المدن ازدهارها بزيادة عدد سكانها كانت تقام مبانٍ أخرى ذات أهمـية كبيرة كانت تتطور عبرها فنون البناء والتعـمير. ولكن إذا بدأت المدن في الانـحطاط وقلّ عدد السكان، فإنه يتم التـوقف عن تشييـد المباني القوية والفـخمة والغنيـة بثروتها الزخرفـية والفنية. وعـندما تصبح المدن مـهجورة يـبدأ سكانها في خلع قطـع من المباني الخربة بغرض الاسـتفادة منها في بنـاء بعض المباني الأخرى الجديدة المتـواضعة وفي ترميم المباني القديمة. وعند نفادها يستـبدل الحجر بالطوب اللبن، وتتحول المباني شـيئاً فـشيئاً إلى منـازل قروية على منوال منازل الشعـوب الرحّالة ذات الحضارة الـبدائية. وإذا قدر الله للمـدينة حظاً بالغ السوء، فإن مصـيرها يؤول إلى الخراب التام(٣).

إن أطلال المدينة المنقرضة التي محيت مناظرها الطبيعية تثير الأسَى، وكذلك مشهـد بقاياها المدفونة تحت الأرض بعـد الارتفاع البطيء والمستمـر من منسوبه

الناتج من تراكم رديم المبـاني المنهـارة والأتربة المتـرسبـة عليـها الميـاه والرياح والنباتات البرية. والأكثر حزناً هو تأمل إحدى هذه المدن في احتضارها البطيء بطرقهـا وبميادينهـا المهجـورة تلك المدن التي لا يسكنها إلا الـظل، المجردة من الحياة والتي تسودها الوحدة والصمت العميق الخاص بالأماكن المهجورة بعد أن كانت منتعشة بوجود الإنسان.

إن الكآبة التي تثـيرها في النفس المدنُ المـنقرضـة لهي شعـورٌ مشتـرك لدى المثقفين في جـميع العصور. وقد عبّـر عنها «ابن حزم» في «**طوق الحمامة**» في روايته عن ما حدث للربض القـرطبي في «بلاط مُغيث» بعد الاضطرابات التي أدت إلى انهيار الخلافة في النصف الأول من القرن الحـادي عشر الميلادي. فقد قال: "قد امحت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيّرها البلى، وصارت صحـارى مجدبة بعد العمـران، وفيافي موحشـة بعد الأنس، وخرائب منقطعـة بعد الحـسن، وشعـاباً مفزعـة بعد الأمن، ومـأوى للذئاب، ومـعازف للغيـلان، وملاعب للجان، ومكامن للوحـوش، بعد رجالٍ كالليـوث، وخرائد كالدمى، تفيض لديهم النّعم الفاشية. تبدد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا؛ فكأن تلك المحاريب المنمّقة، والمقاصيـر المزيّنة، التي كانت تشرق إشراق الشمس ويجلو الهمومَ حسنُ منظرها، حين شملها الخراب، وعـمّها الهدم، كأفواه السباع فاغرة، تؤذن بفناء الدنيا، وتُريك عواقب أهلها، وتخـبرك عمّا يصير إليه كل من تراه قائماً فيها، وتزهد في طلبها بعد أن طالما زهدت في تركها"[٤].

وبعـد عـدة سنوات، في القرن الحـادي عشـر الميلادي، تناول الفـقيـه أبو إسحـاق في رثائه بقايا "إلبيـرة"، المدينة التي ولد فيهـا الواقعة على بعد سـتة

أميال من "غرناطة" التي انقرضت فيما بعد وعزا هجر المدينة المنقرضة إلى ذنوب سكانها التي لم يبك أحد عليها. . . ويقول الكاتب متسائلاً أين صارت العجائب الماضية وأين صار سكانها المخلصون، ومحاربوها وعلماؤها ونبلاؤها وفتياتُها الجميلات؛ لم يبق منها إلا ذكرى أمجادها وفضائلها وفضائل خلفائها(٥).

وبعد مرور ثلاثة قرون يستحضر ابن الخطيب أطلال المدينة فيكتب "ولم تزل الأيام تخيف ساكنها، والعَفاء يتبوأ مساكنها، والفتن الإسلامية تجوس أماكنها، حتى شملها الخراب، وتقسَّم قاطنها الاغتراب" . ويختم وزير غرناطة كلامه بقوله: «وكل الذي فوق التراب تراب»(٦).

وفي القرون الوسطى كان الأهالي يتحاشون المدن المهجورة ويبتعدون عنها لاعتقادهم بأنها ملعونة، وبأن انهيارها يرجع إلى أنها كانت مسرحاً للخطايا الفظيعة ولضحايا الأقدار الخَفِيَّة. ولا يزال ذكر مدينتي «سدوم» و«جوموراّ» حياً، واللتين كان انقراضهما في حكم العامة نتيجة للغضب الإلهي.

**المدن الأسبانية المسلمة المندثرة.**

بلغت شبه الجزيرة الإيبيرية، التي استعمرتها الإمبراطورية الرومانية استعماراً قويًا، درجة قصوى من التقدم المدني ليس في الأقاليم المحيطة والأودية الخصبة فحسب، بل أيضاً في الأقاليم الزراعية أو الأقطار القاحلة قليلة السكان. ومن بين ما يُؤكد ذلك الآثارُ الممتدة لمدينة لانثيا LANCIA (ليون)، ومدينة كلونيا CLUNIA (بُرْغش) والمدينتان أكساما وترمانثيا (سورية)، ومدينة خوليو بريجا (سانتندير) والمدينتان «إركابيكا» ERCAVICA و«باليريا» VALERIA (قونكة)،

ومدينة أوريتو ORETO (ثيوداد ريال) ومدينة «كاستولو» CASTULO (جيَّان).

وابتداءً من القرن الثاني الميلادي، والذي بدأت فيه الشعوب البربرية غزواتها عبر شبه الجزيرة شمالاً وجنوباً خلال سلسلة جبال «البرانس» وعبر مضيق جبل طارق، اشتد الانحطاط في النظم الإمبراطورية وفي المدن التي تعد من أهم إنجازاتها، كما ذكرنا في الصفحات السابقة، ففقدت تلك المدن مكانتها تدريجًا وخضعت للاعتداءات المتعددة وللدمار المتكرر.

وعلينا ألا نتصور، في كثير من الأحوال، أن هجر السكن التام للمدن كان نتيجة لكارثة واحدة فجائية، بل نتيجة لعمليات سلب وحرائق متتالية، ليس فقط من جانب غزاة غرباء، بل شارك فيها أيضًا - على الأرجح - رعاة ومزارعون كانوا يعيشون على هامش الحضارة اللاتينية في مناطق جبلية فقيرة. وقد خفضت تلك الحوادث تدريجياً عدد سكان تلك المدن التي دخلت في مرحلة الانحطاط. وبعد تدمير المباني الكبرى، التي فقد الكثير منها الغرض من بنائه، كالمعابد والمسارح المدرَّجة والملاعب(٧). ونتيجة للحروب والثورات دمرت القنوات والقناطر التي كانت تزود المدن بالمياه المجلوّبة من أماكن بعيدة، وبعد افتقار المدن الأخرى التي مرت بفترات من المجاعة بسبب تكرار القحط والغزوات الهائلة للجراد، تحول العديد من تلك المدن إلى مدن محتضرة. ولم تتمكن الدولة القوطية من إعادة الحيوية إلاّ إلى عدد نادر جداً منها. ويبدو أن حركة البناء في أثناء سيادة تلك الدولة كانت محدودة. وليس لدينا شواهد ملموسة عن تلك المدن كالتي لا تزال حيَّة حتى الآن من العصر الروماني السابق. ولم يُعثَر إلا على آثار نادرة للمدن القوطية في حفريات أجريت على طبقات أثرية تحت أرضية المدن الحديثة المؤسَّسة على أرضية الأولى. ففي

قرطبة وأشبيلية وبلنسية مثلاً لا توجد إلا بقايا بلا قيمة للمدن القوطية في القرنين السادس والسابع الميلاديين بين المستوى الأعمق لأرضية المدن الرومانية والمستوى الأعلى لأرضية المدن الإسلامية التي تعود إلى القرون الوسطى.

وقد سيطر الفاتحون المسلمون على المدن المنحطة الفقيرة التي كانت ذات أسوار متواضعة للغاية بمقارنتها بالأسوار الأصلية التي تعود إلى القرنين الميلاديين الأولين. وعلى إثر هذه الغزوة اختفت بصورة عاجلة أو بطيئة الحياة الهزيلة في بعض المدن؛ بينما تلاشت في القرون اللاحقة المدن التي أسست في فترة سابقة. والعديد من المدن القليلة التي أسست في عهد المسلمين. وبعد أن قل ذكر اسمها تدريجياً من النصوص الأدبية انتهى بالاختفاء منها نهائياً.

يقول المؤرخ «الرازي» أنه عند الفتح الاسلامي تكدس عدد كبير من النصارى في سلسلة الجبال الحصينة التي تمكنوا من بلوغها مما أدى إلى تحول الكثير من المدن إلى مدن مهجورة[٨].

ويجب البحث عن ذكر لأسماء المدن المنقرضة أثناء الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة في الكتب التاريخية التي توضح تسلسل الأحداث؛ علماً بأن آثارها مازالت مدفونة في الحقول والجبال. وليس من الممكن دائماً تحديد مواقع المدن المعروفة بالاعتماد على المراجع المكتوبة، كما يصعب تحديد اسم آثار مدن أخرى ذهبت في طي النسيان الكامل. وعلى سبيل المثال، فإننا نجهل مواقعَ المدن الآتية: البيضاء «البيلدة» ALBELDA وقلعة الخليفة (كالاتاليفا) CA-LATALIFA و«مدينة الزاهرة» MADINA AL ZAHIRA و«قلسانة» CALSENA و«لاكو» LAQQO.

نظراً لكون عدد المدن الإسلامية المنقرضة مرتفعًا نسبياً بالنسبة لعدد القليل

من المدن التي أسست إبان الحكم الإسلامي، فإنا نَتَذَكَّرُ ما قاله «ابن خلدون» من أن العرب لم يهتموا بمواقع تأسيس مدنهم، ولم يأخذوا في الاعتبار ظروف الأرض، وصفات الطقس والمياه والأراضي الزراعية والمراعي. كما يشير المؤرخ المذكور إلى قلة متانة المباني التي بنيت بأيدي العرب بسبب طبيعة حياتهم المتنقلة وإلى عدم إمعانهم بالفن(٩).

هناك العديد من المدن الإسبانية المسلمة المهجورة ومنها «قلعة عبدالسلام» و«قلعة الخليفة CALATALIFA، و«كانالس» CANALES و«أُولموس» OLMOS ومدينة «الفهميين» ومدينة «باسكوس» VASCOS، و«البالات» ALBALATE، و«قلعة رباح»، و«ألاركوس» ALARCOS، و«سيتيفيلا» SIETEFILLA ومدينة «بربشتر»(١٠)، والتي أقيمت على أماكن وعرة ذات أراض فقيرة خالية من الينابيع فتَعَسَّر الحصول على الماء فيها، قد حُكم عليها بحياة مصطنعة وقصيرة، كما ذكر من قبل عن المدن التي عانت من نفس هذه الظروف، ثم بالفناء عندما اختفت الأسباب العسكرية المؤقتة التي سوّغت وُجُودَها في وقت ما. وكانت تلك المدن عبارة عن رُبىً مطلة على مناطق صحراوية وأراضٍ قاحلة فلم تتمكن من الاكتفاء الذاتي حيث اعتمدت فقط على تربية المواشي مصدرًا أساسيًا لحياتها الاقتصادية بعد ما انتفى الهدف العسكري لوجودها.

وهناك مثال لمدينة تثير الاهتمام هي مدينة «منتيسا» MENTESA الرومانية المقامة على قمة جبل، وبذلك احتلت موقعًا دفاعيًا قويًا ومحاطًا بأراضٍ ترويها الينابيع الغزيرة التي تنبع من نفس المنطقة. وقد تكون قد دمرت بعد إحدى الثورات الكثيرة التي شهدتها منطقتها في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي. وهذا هو حال مدينة «جيَّان» JAEN المجاورة لها ذات العيون المائية

الغزيرة التي نزح عنها سكانها كلية. وبعد انقطاع فاصل يدل عليه اختفاء الاسم القديم بدأ حول موقع الربوة المرتفع المسمى «لاجوارديا» LAGUARDIA وذلك في أواخر القرون الوسطى، لكونها مقراً للمملكة المسيحية في مدينة «جيان» أمام المملكة الإسلامية لمدينة غرناطة، وبدأ يتبلور تدريجياً مركز مدني جديد مكوّن من مساكن مزارعي البساتين المجاورة لها.

وقد بدأ ورود ذكر اسم مدينة الجزيرة الخضراء (الخيثيرا) ALGECIRA في كتب التسلسل التاريخي إثر الفتح الإسلامي لإسبانيا، إشارةً إلى مكان ترجُّل الحملات الأفريقية، وذلك بعد تدمير مدينة «كارتيا» القديمة المجاورة لها على ما يُعتقد. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي أقيم مركز مدني جديد عرف بـ«البنية» على تل مجاور لتل المدينة السابق ذكرها؛ وكان يفصل بينهما نهر «لاميل». ثم اختفى اسم المدينة الجديدة، ومنذ ذلك الوقت سميت المدينتان بالاسم المشترك «الخيثيرا». ثم قام «ألفونسو» الحادي عشر بالاستيلاء عليها سنة ١٣٤٤م، ثم استولى عليها محمد الخامس صاحب غرناطة في أوائل سنة ٧٧١ هـ/ ١٣٩٦م. وعندما لم تمكنه قوته العسكرية من الاحتفاظ بها قام بتدميرها بين ٧٨٠ هـ و٧٩٠هـ (١٣٧٨/ ١٣٧٩م-١٣٨٨)، حسب ابن خلدون، وقام بإغلاق ميناء المدينة بغرض منع النصارى من استعماله[١١]. وظلت مهجورة حتى استيلاء الإنجليز على جبل طارق سنة ١٧٠٤م، وفي ذلك التاريخ بدأ سكانها الذين تركوها منذ وقت بعيد في الالتجاء إليها بعد أن كانوا يقيمون في المزارع المجاورة لها. ولم يُنسَ اسمها قط، كما حدث لمدينة «منتيسا»، وعادت المدينة إلى الوجود بعد مرور ثلاثة قرون متخذةً اسمها القديم.

وتهمنا أيضاً حالة المدينة الرومانية أوثيليس OCILIS والتي تقع على منطقة

مرتفعة خالية من الماء ومحاطة بأراضٍ فقيرة، مما هددها بالانقراض النهائي وبالأخص عندما فقدت صفتها المميزة كـ«قلعة للحدود» بعد الغزوة النصرانية في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي. ولكنها استمرت خلال هذا التاريخ دون انقطاع ـ محتفظة باسمها المعرّب وهو «مدينة سالم» ـ ذلك لأنها كانت المركز والمرفأ وإحدى مراحل الطريق؛ إذ كانت حصنًا تطل عليه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي علمًا بأن هذه الطريق تُعدّ من أهم طرق شبه الجزيرة. وتسير الطرق الحديثة اليوم ـ طرق الأسفلت وطرق السكك الحديدية ـ خلال وادي نهر الخالون، وبدأت بالأفول «مدينة سالم» الغربية في أعلى الهضبة بجانب قوس النصر الروماني كشاهد وحيد على مرور القرون والحضارات.

وفي مكان آخر بعيد عن «الجارا» التابعة لطليطلة التي تتسم بجمالها الطبيعي البرّي تُوجد الأرض المهجورة لمدينة «باسكوس»، وفي منطقة من أكثر مناطق أسبانيا وعورة على المنطقة الجبلية «لمالَقة» توجد أرض مدينة بربشتر (بوباسترو BOBASTRO)، الملجأ الأخير «لعُمر بن حَفْصون»، والتي بسبب موقعها تعرضت لحياة قصيرة وصعبة.

وكذلك بدأت بالانقراض مدنُ شنتبرية (سانتا فير SANTAVER» و«أوريتو» ORETO و«كارتيا» CARTEYA و«منتيسا» MENTESA، و(كاثلونا CAZ-LONA)، علما بأنّ المدينتين الأخيرتين من المدن الرومانية المهمة الواقعة في أرضِ «جيَّان»، ويُعتقد أنهما تضاءلتا تضاؤلاً جزئيًا في أوائل القرن الثامن الميلادي، وبدأ سكانهما بالنزوح عنهما تدريجيًا يومًا بعد يومٍ إثر الفتح الإسلامي بفترة قصيرة. واقتصرت حياة تلك المدن في فترة ما على كونها قلاعاً، ثم انتهى أمرها بالهجرة منها بعد أن فقدت أهميتها العسكرية، وآل أمرها إلى الاندثار.

ومن المرجح أيضاً أن سكان «سانتا فير» هجروا المدينة قبل القرن العاشر الميلادي، وهي مدينة كانت لها شهرتها أثناء ثورات شعوب البربر في القرن السابق، بالإضافة إلى موقعها الذي كان عند تلاقي نهري «الجواديلا» و«التاجُه» فإن أرض المدينة أصبحت أو سوف تصبح عن قريب مغمورة تحت مياه أحد السدود.

وقد أسهمت الأرض الموبوءة لمدينة «الأرك» في إفنائها. وتكررت تلك الحالة بمدينة قلعة رباح (كالاترافا القديمة) التي هجرها سكانها لنفس السبب السابق ذكره في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وكانت تلك المدينة تقع على ضفة نهر «الجواديانا» بمجراه الهادئ البطيء وغير المنتظم وبمياهه المختبئة تحت نباتات السعد وشجيرات الدلوب، وكان مجرداً من الأشجار التي تنمو على ضفاف الأنهار الأخرى الأكثر غزارة. وكذلك الحال بالنسبة لمدينة «طَلْياطة» TEJADA التي أصبحت جرداء في القرن الرابع عشر الميلادي بسبب سوء موقعها المضر بالصحة، وقد استعملت أسوارها، التي مازالت باقية، مصدراً للحصى في بناء طريق إسفلتي مؤخراً.

وقد اندمجت بعض المدن المنشأة في عصرٍ لاحق في مدن أخرى مجاورة لها تتمتع بظروف طبيعية أفضل. فمدينة جَيَّان، على سبيل المثال، من أصل روماني قد نمت، كما قيل، على حساب مدينة «منتيسا» التي يحتمل أنها انقرضت في القرن التاسع أو العاشر الميلادي. أمّا آخر سكان مدينة «ألبيرة» فاختلط بسكان مدينة «غرناطة» بعد تدمير الأولى في عام ١٠١٠م. ومدينة «كاستولو» الرومانية لم تستطع منافسة مدينتي «أُبّذة» و«بايثا» اللتين كانتا تتمتعان بموقع أفضل من الأولى من الناحية العسكرية والاقتصادية. ومدينة «كارتايا» التي كانت فيما يبدو منحطة انحطاطاً جذريًا عندما دخل المسلمون إلى

شبه الجزيرة انتهى الأمر إلى هجـرها بينما ازداد سكان مدينة «الجزيرة» المجاورة لها، وبالأخص عندما عين الفاتحون «الجزيرة» ميناءً لهم بسبب قربها من الضفة الثانيــة لمضيق جبل طارق. ولقــد أدى تطور مدينتي «كاراكــويل» و«قلعة رباح» إلى انقراض مــدينة «أُوريتو»، وكذلك هجـر السكان مدينة «الأرك» عندمـا قام ألفونسو العاشــر بتأسيس بلدة «بيّاريال» على أرض مستــوية بعيدًا عن الحدود، وفي وقت لاحق ارتقت إلى مســتوى مــدينة. وبعــد زوال خطر الهــجمــات الإسلامية بعد الانتصار المسيحي في الأرَك (نافاس دي تولوسا NAVAS DE TO-LOSA) عام ١٢١٢م بدأ السكان بهَــجْر «قلعة عبــدالسلام»[١٢] الواقعـة علـى قمـة جـبل مرتفع تطل على نهر «الهــينارس»، بينما بدأت بالنمو مــدينة «سان خوستو» SAN JUSTO أو «سانتيوست» المجاورة لها وهي التي ســميت فيما بعد «بالكلا دي هيناريس» ALCALA DE HENARES (قلعة هنارس)؛ ومعلوم أنه لم يَبْقَ من الأولى في القرن الخامس عشر إلا قلعة واحدة هجرها سكانها في وقت قصير فيما بعد.

إن إهمال طريق من الطرق الحــيوية سابقـاً يمكن أن يؤدي إلى انحطاط المدن الواقعة على حــافته بل وإلى فنائها. مــثال ذلك الطريق المؤدي من طليطلة إلى مدريد الذي كــان محاذياً للضفــة اليسرى من مــجرى نهر جوادارّامـا في القرن الثالث عــشر الميلادي ماراً بمدن «كــانالس» و«أُلمُوْسُ» و«قلعة الخليفــة». إذ كان السبب في القــضاء على تلك المدن الثلاث اتجـاه السكان إلى طريق أخرى تقع شرقاً، فتركوا المرور بالأولى. وفي الــوقت نفسه لم تخلُ بلدة طلمنكة الواقعة على ضفــة نهر «الخــراما» من السكان عندمـا فقدت مكانتــها كمــحطة ومعـبر أساســي علـى طريـق قشتــالـة القديمة، مرورًا بالجبال العالية من «ســوموسيرّا»

SOMOSIERRA إلى وادي نهـر التاجُـه، ولكنها أصـبحت فـيمـا بعد ضـيعـة متواضعة[١٣].

وعلى عكس ما سبق، فانقراض مدينة من المدن يمكن أن يتسبب في انحراف الطريق الذي كان يؤدي إليها. فمثـلاً عند جلاء سكان مدينة «قلعة رباح» عنها في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي اتجه السير إلى طرق جديدة تمر عبر بلدتي «الماجرو» و«بيلياريال» المزدهرتين في ذلك الوقت.

وكذلك انقرضت، بعد حياة قصيرة، ثلاث مدن أُسست نتيجة للاختيار الحر لبعض الملوك ومـدينة رابعة أسسهـا المنصور؛ ولم تدم تلك المدن الأربع طويلاً بعد وفاة مؤسـسيها وهي: مدينة «ريكوبولس» والمؤسس لها «ليـوفخيلدو» سنة ٥٧٨م؛ ومدينة «الـزهراء» من إنشاء الخليـفة عبـدالرحمن الثـالث وابنه الحكم الثـاني التي بدئ في بنائهـا سنة ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦م؛ ومـدينة «حـصن الفـرج» (آثنالفراش)، التي بنيت بأمر الأمير الموحّـدي أبي يوسف يعقوب المنصور ابتداء من سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م ومـدينة «الزاهرة» التي بُدِئ فـي أعمـال بنائهـا سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨-٩٧٩م.

بعض المدن السابق ذكرها قد سقطت نتيجة للعمليات العسكرية. وعثـر بيـن بقاياها المحترقة ـ إذ كان الحريق يكمل عمليات الهجوم والسلب ـ على الهياكل العظمية لسكانها، كما هو الحال في مدينة «إلبيرة» ELVIRA. أما المدن التالية: «البلدة» و«البلاط»، و«أوريتو» ORETO و«سيتـيفيلا» فهناك أخـبار عن دمارها نتيجة للعـمليات الحربية العنيفة؛ إذن فهذه المدن قـد أنشئت تحت ظروف معينة ولم تعد إلى الوجود مرة أخرى.

ويوجـد في بعض تلك المـناطق المهـجـورة ـ كـأراضي مـدن «ريكوبولس»

و«أوريتو» و«قلعة رباح» و«الأرك» و«كاستولو» و«سيتيفيلا»، و«حصن الفرج» - صوامع متواضعة في الخلاء كمصلى الجنازة التي تشرف على المدينة المندثرة والمدفونة. وعلى الرغم من عدم وجود الحياة الإنسانية في تلك الأراضي، إلا أن أماكن العبادة المتواضعة تلك تثبت استمرار العبادة الإلهية عبر قرون عدة ومعتقدات دينية مختلفة. فإذا كان الإنسان قد اختفى منها، فإن أماكن العبادة استمرت بعد ترميمها.

إن تواضع مباني المدن الأسبانية الإسلامية بما فيها المساجد، باستثناء بعض الحالات النادرة، يُفَسّر كون بقاياها لم تستعمل فيما بعد كمحاجرَ إلا بشكل طفيف كما لم يُستعن بموادها في إقامة مبانٍ أخرى لاحقة، كما كانت الحالة بالنسبة للمدن الرومانية. ومن الأراضي التي أقيمت عليها عدة مدن تبرز كآثار وحيدة باقية - «قلعة عبدالسلام» و«البَلاط» و«باسكوس» و«قلعة رباح» و«الأرك»، و«كاستولو» و«طلياطة» و«حصن الفرج» - وهذه الآثار ليست إلاّ بقايا من الأسوار والقلاع التي كانت تحمي تلك المدن، والتي يتناقص حجمها يومًا بعد يوم. وفي موقع مدينة الزهراء فقط، المدينة الملكية الأكثر ازدهارًا ونموًا في عصر الخلافة القرطبية، تكشف الفأس بهدوء رتيب بقايا ضخمة مدفونة تحت أكوام كثيفة من الرديم، وهذه الآثار هي البقايا التي ظلت خلال القرون مصادرَ لا تنفد لمواد البناء.

ومن هذه المدن المنقرضة، دون ادّعاء استيعاب عددها، المدن الآتية: «سانتافير» و«أوريتو» و«كاستولو» أو «كاثلونا» و«منتيسا» و«قلسانة» و«لاكو»، و«كارتيا»، وقد أسست حسب علمنا قبل الفتوحات الإسلامية. بينما أسست مدينة «ريكوبولس» على أيدي القوطيين. أما مدن «البيضاء» (البيلدة) و«قلعة

رباح» القديمة و«حصن الفرج» و«إلبيـرة» فقد تبين أنها من أصل إسلامي. وإذا اعتـمدنا على الاسم، فـإنه يمكن القول بأن مـدن «قلعة عـبدالسـلام» و«قلعة الخليفة» و«الفهميين» و«البَلاط» (البلات) و«باسكوس» و«الأرك» كانت أيضاً من أصل إسلامي.

وموقع هذه المدن المنقـرضة بالنسـبة إلى موقع أحـواض أنهار شبـه الجزيرة الإيبيـرية كـالآتي: عـلى حـوض نهـر «الإبرو» EBRO لا توجـد إلا مـدينة البيضاء(«البيلدا» ALBELDA)[١٤]. كما كانت تقع على حـوض نهر «التاجُه» TAJO وروافده مـدن: «ريكوبولس» RECOPOLIS و«شنتـبرية» SANTAVER، و«قلعة عـبدالسلام» (علـى ضفة نهـر «الهينارس» HENARES)؛ ومدينة قلعة الخليفة (كالاتاليفا) و«كانالس» CANALES وأولموس (والموش) (ثلاثتها مجاورة لنهر «الجوادارّاما» (وادي الرملة) GUADARRAMA) ومدينة الفهـميين (الفامين) (على ضـفة نـهر «ألبـرشى» ALBERCHE)؛ وكـانت تقع مدينتـا «باسكوس» و«الـبـلاط» في حـوض نهـــر «الوادي الكبيـر» GUADALQUIVIR، وكـذا مدينة «قسطلونة CAZLONA؛ ومدينة «منتيسا» MENTESA (مانتيشة)، ومدينة «الزهراء» ومدينة «الزاهرة» ومدينة سيتيـفيلا (سانتافيلا) SIETEFILLA و«حصن الفرج». وكانت توجد مدينة شلطيش (سالتيس) على إحدى الجزر الواقعة على مصب نهري «تينتو» TINTO و«أوديل» ODIEL.

وكانت تقع على ضفاف نهر «جواداليتي» GUADALETE، الذي تصب مياهه في المحيط الأطلسي، مـدينة «قَلْسانة» CALSENA. وكانت تقع مـدينة «لاكو» على حوض النهـر السابق على مـسافة غـير بعيـدة من ضفـافه في مكان ظل مجهولاً حتى الآن. وكانت قرطاجنّة (كارتيا) CARTEYA مدينة بحرية تقع في

مـؤخـرة خلـيج «الجـزيرة» ALGECIRAS . وكـانت تقع عـلى حـوض نهـر «الجوادالورثي» GUADALHORCE الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط مدينةُ بربشتر (بوباسـترو)، وعلى مسافة غـير بعيدة من نهر «الخينيل» الذي يصب في نهر «الوادي الكبير» كانت مدينة «إلبيرة» ELVIRA.

ولم تجر في المدن الآنـفة الذكر إلا حـفريات أثرية جزئـية، كمـا ذكر، في مدينة «الزهراء». والكشف التدريجي المنتظم عن بعض المدن الأخرى الباقية لم يعط نتائج قـيمة كـتلك التي حصلنا عليـها من حفريـات مدينة «الزهراء» التي أسسـها الخليفة عـبدالرحمن الثـالث والتي أمدتنا بمعلومات تـاريخية قيـمة في معرفة حياتنا في القرون الوسطى. وكان العديد من تلك الأراضي المندثرة سابقًا مسـرحاً لحوادث تاريخيـة جديرة بالذكر: فالملـكية القوطية سـقطت في مدينة «لاكو» LAQQO وبدأت السيادة الإسلامية على شبـه الجزيرة؛ أمّا مدينة بربشتر BOBASTRO فكانت الملجأ الأخـير لثائر كبـير من الثوار الأسبـان، كان على وشك أن يسبق تاريخ إعادة الاستـيلاء بستة قرون؛ كما أنشـئت واشتهرت في مدينة قـلعة رباح CALATRAVA رتب عسكـرية أثرت على مجرى حـياة شـبه الجزيرة تأثيرًا جذريًا في القرون الأخيرة من العصر الوسيط؛ وقد هُزمت جيوش ألفونسـو الثامن هزيمة شنعاء في مـدينة «الأرَك»، وكان هذا الحادث هو الحـافز الذي أدّى به إلى النصر الكبير على المـوحدين بعد ذلك بعدة سنوات وذلك في «العُقاب» (لاس ناباس دي تولوسا). وبعد انتهاء عهد هذه المدن واندثارها تحت الأرض فإنهـا تنتظر إعادتهـا إلى الحياة، كـما تنبأ بـذلك المؤرخ هوراثيو HO-RACIO بأن كل ما يسقط ويختبئ في باطن الأرض يكشف عنه الزمن، كما هو موضّح بالنصّ اللاتيني:

QUIDQUID SUB TERRA EST IN APRICUM PROFERET AETAS

(1) Ibn Jaldūn, **Histoire des Berbères,** III, p. 339.

(2) José Gaviria, **La Geografía de la ciudad.**

(3) Ibn Jaldūn, **Prolégomènes,** II, pp. 276-277.

(4) **El collar de la paloma,** trad. García Gómez, p. 20.

(5) García Gómez, **Un alfaquí español...,** p. 127.

(6) «Génesis», III, vers. 19. Dozy, **Recherches sur l'histoire des Musulmans d'Espagne,** 3.ª edic., p. 332.

(7) San Isidoro de Sevilla condena en sus **Etimologías** (libro XVIII, capítulos XXVII y LIX) la impudicia de los espectáculos teatrales, las crueldades que tenían lugar en los anfiteatros y las locuras circenses.

(8) Gayangos, **Memoria,** p. 67.

(9) Ibn Jaldūn, **Prolégomènes,** II, pp. 274-275. Afirma Ibn Jaldūn que del asentamiento de las ciudades depende su condición de buenas o malas y la prosperidad que deben a causas naturales.

(10) J. Vallvé Bermejo (**De nuevo sobre Bobastro,** 139-69) gracias a un estudio minucioso y crítico de los itinerarios seguidos por las diversas expediciones para reducir a 'Umar b. Hafṣūn, ha demostrado que dicha localidad habría de identificarse con Aute y el «Tajo de Gomer».

(11) Ibn Jaldūn, **Histoire des Berbères,** IV, pp. 380-381.

(12) Torres Balbás, **Complutum-Qal'at 'Abd al-Salām - Alcalá de Henares.**

(13) Torres Balbás, **Talamanca y la ruta olvidada del Jarama;** pp. 235-266.

(14) Los nombres árabes de estas ciudades figuran entre paréntesis después de los castellanos. Monografías de estas ciudades desaparecidas pueden verse en mi artículo **Ciudades Yermas,** pp. 79-114.

# الفصل الخامس

## المدن الحديثة التأسيس[1]

### النظرية الإسلامية لتأسيس المدن: الموقع والبناء

من الطبيعي في بلادٍ تتوافر فيها المراكز المدنية كشبه الجزيرة الإيبيرية في أوائل القرن الثامن الميلادي أيْ فترة الفتح الإسلامي، أن يكون عدد المدن التي تم تأسيسها بواسطة الفاتحين قليلاً نسبياً. ودون أنْ نقوم بدراستها دراسة مسهبة يمكن ذكر ثلاث وعشرين منها خلال القرون التي امتدت سيادتهم عليها، وذلك بتتبع التسلسل التاريخي قدر الإمكان.

ويرجع إلى الخليفة عمر القول الشائع الذي يعلل موقع المدن؛ إذ يقول: إنه يجب أن تقام في أماكن يتوفر فيها الماء والحطب للنار والمراعي للمواشي. ويسوق المؤرخ «ابن أبي ذر» من الغرب الإسلامي، عندما كتب بعد سنة ١٣٠٠م بقليل ممتدحاً موقع مدينة فاس، الشروط اللازمة لكي تبلغ المدن المجد والكمال: «يقول العلماء إنّ تَقَدم أية مدينة وازدهارها يتطلب توافر الشروط الخمسة الآتية: ماء جار؛ وأراض خصبة للزراعة؛ وغابة صغيرة قريبة لتكون مصدراً للحطب؛ وأسوار قوية، وحاكم يحافظ على سلام وأمن الطرق ويعاقب المعتدين»[2].

وفي وقت لاحق، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، يتحدث ابن خلدون بشيء من التفصيل عن ميلاد المدن ودورة حياتها وانقراضها بالإضافة إلى الشروط اللازمة لتأسيسها. فمن موقعها يمكن معرفة حالتها أجيدة

هي أم سيئة، مزدهرة هي أم منحطة، وذلك تبعًا للعوامل الطبيعية المؤثرة فيها. وبيّن أيضاً أن العرب لم يهتموا كثيراً بأمر الموقع المناسب للمدن التي أقاموها ولم يأخذوا في الحسبان ظروف الأرض ولا الصفات الخاصة بنقاء الهواء والمياه والأراضي الزراعية والمراعي. كذلك لم تكن مبانيهم على درجة كبيرة من المتانة بسبب ظروف حياتهم المتنقلة وبسبب قلة اهتمامهم بالفنون.

ويعدّد الفيلسوف البربري الكبير الشروط التي يجب أن تتوافر في إنشاء المدينة لكي تكون الحياة فيها سائغة وممتعة. فأولاً يجب أن يكون في موقعها نهر أو ينابيع ذات مياه نقية وغزيرة، لأن الماء "هبة من الله تعالى" ويُعدّ عنصراً من العناصر الحيوية للإنسان ووجود الماء في أماكن قريبة من السكان يزيل العديد من المتاعب عنهم. وعند إنشاء المدينة لابد أن يؤخذ في الاعتبار أن يكون هناك هواء نقي؛ لأنّه إذا لم يتجدد الهواء أو لم يكن على درجة مناسبة من النقاء أو كانت المدينة واقعة بجوار مياه راكدة أو مستنقعات تنبعث منها روائح كريهة؛ فإن سكانها سيعانون من أمراض مزمنة. كما يجب أن تتوافر في المناطق المحيطة بالمدينة مراعٍ جيدة وأراضٍ زراعية صالحة لزراعة الغلال كأساس لغذاء السكان والمواشي، ويجب أن تتوافر أيضا الجبال والغابات الصغيرة مصدرًا لأخشاب البناء وللوقود بالمنازل. ويضيف ابن خلدون أن هناك شرطاً أساسياً في إنشاء المدينة: وهو الخاص بالدفاع عنها. وعلى هذا يجب أن تبنى على قمة جبل وعر، أو على شبه جزيرة محاطة بالبحر ولو جزئياً، أو على حافة نهر لا يمكن عبوره إلا عبر جسر بالمراكب أو الأحجار. فإذا أقيمت المدينة على شاطئ البحر سيسهل بطبيعة الحال تموينها بالبضائع وتصدير الأشياء الثمينة الفاخرة منها؛ ولكن يجب في هذه الحالة بناء المدينة على تلٍّ عالٍ

يصعب الوصــول إليه. هذا بالإضافة إلى شــرط آخر وهو أن يكون في المناطق المحيطة قبائل أو أنــاس ذوات روح قتالية قادرة على المساعدة الســريعة في حالة الهجوم الفجــائي ليلاً. ولكي تكون محمية من المفــاجآت يجب أن تحاط بيوت المدينة بســورٍ عالٍ يلجــأ إلى داخله المزارعــون المقيــمون بالمناطق المجــاورة عند الضرورة. وبذلك تستطيع المدينــة الدفاع عن نفسها دون أن تلجأ إلى مــساعدة جيش ما.

ومن المدن الواقــعة على شــاطئ البحر المــعرضة لخطــر هجوم العدو مــدينةُ «الإسكندرية» فــي الشــرق و«طرابلس» و«بونا» و«ســلا» فــي الغــرب. وعلى العكس فإن «سبتة» CEUTA و«بوجيا» BUGIA و«كوليو» COLLO تتوفر فــيها شروط المدن البحرية السابق ذكــرها. إن العرب في العصور الأولى من الإسلام كشعب رحّال، غــير متبصر للمــستقبل، قاموا في العــهود الأولى من الإسلام بتــأسيس مــدن، في العراق كــما في شــمال أفــريقيــة، على نمط واحد منــها «القيروان» و«الكوفــة» و«البصرة» و«سجلماسة»، وغــيرها من المدن المجرَّدة من الموارد الطبيعــية والخالية من الشــروط اللازمة للإقامة الدائمــة، فصارت من ثَمّ معرضــة للانقراض العاجل[٣]. وكان مــعظم المدن التي أسسهــا المسلمون في البداية مدناً عسكرية؛ وهي عبارة عن معسكرات أو مواقع متقدمة بغرض تأمين أو متابعة فتح مملكة ما.

وهناك مسألة جوهرية تتعلق بتموين المدن بالماء، حيث أدى ذلك إلى انقراض بعض المدن القديمة وميلاد مدن أخرى. فبعد تدمير الشبكات المائية والقنوات في القرون التالية لسقوط الإمبــراطورية الرومانية، لم يكن لدى المسلمين في الفترة الأولى لسيــادتهم التقنيــةُ ولا القوة الكافيــان لإصلاحهــا، ومن ثم تركوا المدن

القديمة، الظمْـأى حينئذ، واستـقروا بالقرب من الينابيع أو الأنهـار التي كانت تمدهم بصورة دائمـة بهذا العنصر الحـيوي وهو الماء. وهكذا ترك إدريس الأول سنة ٧٨٩هـ العاصـمة «بلوبلس» VOLOUBILIS لتأسـيس مدينة «فـاس» على أرض شبـيهـة بأرض «غرناطة» التي يمـر عبرها نـهر يُيَسِّـر الحصـول على الماء بواسطة قنوات مائية فرعية.

وسوف ندرس في الصفحات التالية عددًا غير قليل من المدن التي أنشأها في الأندلس ملوك أو أمراء مسـتقلون نسبياً، لأن الملوك في الأقطار الإسـلامية هم أصحاب الإبداع في بناء الإنشاءات الجبارة، ولأن تَأسِـيسَ مدينةٍ ما يعدّ عملاً باسلاً لا يـتمكن من القـيام به إلاّ الملوك الأغنيـاء الذين ينفذون تلك المـشاريع لإظهـار عظمـتـهم. وعلى ذلك فـإن أعـمـال بناء المدن هي مـهـمـة الملوك والإمبراطوريات كما قال ابن خلدون[٤]. وقد قال الملك المتوكل العباسي عندما انتهى من مشروع بناء مدينـة الجعفرية، المسماة حالياً «المتوكليـة» الواقعة شمال سامراء، : «الآن عرفت أنني ملك بعد أن بنيت مدينة لتصبح مسكناً لي لأعيش فيه»[٥].

وفي القـرون الوسطى كان بناء مـدينة جـديدة في منطقة صـحراوية حـالة استثنائية. فـعلى أرضيات معظم المدن كانت توجد سابقاً قلـعة ما أو مزرعة أو قرية أو ضيعة. أمّا فيما يتعلق بأسـبانيا الإسلامية فإنّ تاريخ تأسيس المدينة يبدأ عندما يقام حـولها سور لحمايتهـا بالإضافة إلى المسجد الجـامع، وبهذا الشرط تتـأهل لأن تكون مـدينة. ويقـتـضي الأمـر أيضاً وجـود الأسـواق والأرباض والأحياء الداخـلية والخارجية أحـيانًا[٦]. وهكذا قام عـبدالرحمن الثـالث عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥ ـ ٩٥٦ م بتحويل المجموعة السكنية المعروفة بـ«بجانة» إلى مدينة

ألمرّية، ولم تكن هذه المنطقة مجردة من الأهمية؛ ذلك لأنها كانت منذ أكثر من قرن مضى ميناء للمناطق الزراعية المحيطة بها[٧].

ولم يُعرف إلا تفاصيل قليلة عن ظروف تأسيس المدن الجديدة في الأندلس مثلما عُرف عن مدينتي «فاس» و«مراكش»[٨]. ففي تأسيس مدينة «جبل طارق» سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م بدأ العمل بالحفر على سفح الجبل الذي أقيمت عليه المدينة، ونتيجة لذلك نبعت بعض العيون المائية فتجمعت مجاريها في مصارف صغيرة ثم في قناة تتوغل إلى داخل المدينة وتصب في خزان كبير[٩].

وكان إنشاء المدينة يبدأ عادة ببناء السور الذي يؤمّن حياة المركز السكني الجديد واستمراره كما يتضح من بناء مُدُنِ «المرّية»، و«مدينة سالم» MED-INACELI و«حصن الفرج» AZNALFARACHE. وعند قيام المنصور بإقامة مدينة الزاهرة (٣٦٨ هـ/ ٩٧٨ ـ ٩٧٩م) قام أولاً بتسوية الأرض المختارة ثم أقيمت القصبة والمسجد الجامع ومساجد أخرى في وقتٍ واحد. والحال نفسه حدث في مدن بطليوس BADAJOZ والمرية ALMERIA وجبل طارق والبُنية ALBUNIYYA (الجزيرة الجديدة). وإذا كانت المدينة مَلَكِيَّةً بُني القصر عادة خلف السور كما حدث بمدن «الزهراء» و«الزاهرة » و«حصن الفرج» و«البنية». وفي مدينة «بطليوس» بُنِيَ السور والمساجد والحمامات في آنٍ واحد؛ إضافة إلى معسكرات الجيش في «مدينة سالم» باعتبار أنها مدينة واقعة على الحدود وباعتبار أنها مدينة حدودية وعسكرية.

وضمن المدن التي سيأتي ذكرها فيما بعدُ نجد أن البعض منها كانت مدناً عسكرية أقيمت لأغراض إستراتيجية وتحتل أماكن يتيسر الدفاع عنها ويصعب حصارها. وهذه المدن في معظم الحالات تقع على سفوح التلال وتوجد في

قمتها قلعة وظيفتها حماية المدينة (مثل مدن: «أُقْلِيش» UCLES و«تطيلة» -TU
DELA و«لاردة» LERIDA و«المرية» ALMERIA و«جبل طارق» GIBRALTAR).
مدن أخرى كانت تمتد على هضبة محصورة بواسطة أنهار أو غدران تُستعمل خنادقَ (مثال ذلك مدن: «أُبَّدة» UBEDA و«مدريد» MADRID و«مدينة سالم» MEDINACELI و«حصن الفرج»). أمّا موقع مدينة «قلعة أيوب» CALATAYUD فكان بين بعض القمم الجبلية محاطة بوهدة عميقة، بينما تقع مدينة «مرسية» على أرض مستوية، كما هو الحال بالنسبة لمدينة «الزاهرة». وتقع أيضاً على حافة أنهار ذات أهمية ما المدن الآتية: مدينة «لاردة» (على حافة نهر السيجرى)، ومدينة «تطيلة» (على حافة نهر إيبرو)، ومدينة «قلعة أيوب» (على حافة نهر الخالون). وتقع مدينتا: بطليوس وقلعة رباح CALATRAVA (على حافة نهر جواديانا)، ومدينة «حصن الفرج» (على حافة نهر الوادي الكبير)، ومدينة مُرسية (على حافة نهر السيجورا). وأقيم على شاطئ البحر المدن الآتية: «المريّة» و«جبل طارق» و«البُنيَّة».

وضمن المدن الثلاث والعشرين الحديثة التأسيس أو المجددة، هناك أخبار عن أنه قد أعيد بناء ثلاث منها على مواقع قديمة وهي «مدينة لاردة» Lerida و«مدينة سالم» MMEDINACALI ومدينة باجة BEJA؛ وهناك عشرٌ أخرى من تلك المدن تم تأسيسها أو إعادة بنائها لأغراض عسكرية بحتة. وذلك إما للدفاع عن الحدود والشواطئ أو لاتخاذها قاعدة للحملات الحربية وهي: «قناة عامر» QANAT AMIR و«قلعة رباح» Calatrava و«تطيلة» Tudela وطلمنكة TALAMANCA و«مدريد» MADRID ومدينة الفتح MADINAT AL-FATH و«سكتان» SEKTAN و«مدينة سالم» MEDINACELI و«جبل طارق»

GIBRALTAR والبُنيَّة AL-BUNIYYA . وهناك أربع عشرة مدينة أخرى أسست بأمر الملوك؛ وهي:

١ ـ إلبيرة بأمر عبدالرحمن الأول.

٢ ـ تُطيلة بأمر الحكم الأول.

٣ ـ مرسية وأُبُذَّة بأمر عبدالرحمن الثاني.

٤ ـ أمّا محمد الأول فقد أكمل بناء مدينة أُبَّذة وأسس «طلمنكة» و«مدريد».

٥ ـ مدينة «الفتح» ومدينة «الزهراء» و«مدينة سالم» ومدينة «المريّة» بأمر عبدالرحمن الثالث.

٦ ـ مدينة بلا اسم في منطقة طليطلة بأمر الحكم الثاني.

٧ ـ جبل طارق بأمر عبدالمؤمن.

٨ ـ باجة BEJA أعيد بناؤها بأمر أبي يعقوب يوسف.

٩ ـ حصن الفرج بأمر أبي يوسف يعقوب.

١٠ ـ والبُنيَّة بأمر المريني أبي يوسف.

أمّا الفترة التي أُسس فيها أكبر عدد من المدن فهي الواقعة ما بين عهد عبدالرحمن الثاني حتى وفاة عبدالرحمن الثالث، (أي من ٢٠٦ / ٣٥٠هـ ـ ٨٢٢/ ٩٦١ م). وتنسب كل من «قلعة أيوب» و« قلعة رباح» إلى تابعيّين من تابعِي صحابة رسول اللّه [صلى الله عليه وسلم]. وقد أقيمتا تحت القلعتين المشار إليهما. أمّا مدن «قناة عامر» و«أقليش» و«لاردة» و«بطليوس» و«سِكْتان» فيرجع إنشاؤها إلى أُمَراء أو سادة مستقلين نسبياً عن السلطة المركزية، ويعود إنشاء مدينة «الزاهرة» إلى وزير مطلق التصرف.

اندثر من الثلاث والعشرين مدينة الآنفة الذكر قلعة رباح وإلبيرة ومدينة

الزهراء ومدينة الزاهرة وحصن الفرج، والثلاث الأخيرة ليست إلا مدناً مصطنعة أنشئت تحقيقاً لهوى الأثرياء المسيطرين، وقد أقيمت الأربع مدن الأخيرة بجانب أخرى قديمة ومزدحمة اندمجت فيها عند وفاة الأمراء الأقوياء. و«مدينة الفتح» لكونها مدينة حصار فقد أقيمت لأجل قصير. أمّا مدنُ: «قناة عامر» و«سِكتان» والمدينة التي أقامها الحكم الثاني على حدود «طليطلة» ولا يُعرف موقعها على وجه التحديد، فلا يعرف إن كانت موجودة بأسماء أخرى مختلفة عن اسمها الأصلي، وهو أمر قليل الاحتمال. وتقع المدن الثلاث والعشرون المذكورة متناثرةً عبر مناطق أسبانيا المسلمة دون أن تكون الأفضلية لمنطقة معينة عن الأخرى. ولم تعرف إلا أسماء قليلة من المعماريين الذين اشتركوا في إقامة تلك المدن منهم أحمد بن نصر بن خالد ٢٨٨/ ٣٧٠هـ ـ ٩٠١/ ٩٨٠م وأصله من مدينة طليطلة وقد كان رئيساً للشرطة ومفتشاً للأسواق، وكذلك قاضي مقاطعة (جيَّان)، وقد كلّفه الحكم الثاني عام ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م ببناء مدينة متينة جيدة التنظيم، يُجهل اسمها، على حدود منطقة طليطلة، ووضع تحت تصرفه لهذا الغرض مبلغاً كبيراً من المال(١٠). وكما يقول ابن حزم إن هذا الشخص ألف كتاباً عن مساحة الأراضي. فمن المحتمل أنه اشترك كخبير في تخطيط مشروع المدينة(١١).

ويؤكد المؤلف المجهول لكتاب «الحُلَلْ الموشِيّة» أن الملك الموحِّدي عبدالمؤمن رسم الدائرة المحصَّنة المحيطة لجبل طارق(١٢). وقام بإدارة العمل المهندسُ المشهور الحاج يعْلس YA"LS من «مالَقة» المرسل من قبل عبد المؤمن من مراكش، والمهندس المعماري أحمد بن باسو المقيم بمدينة «إشبيلية». ومن تلك المدينة ومن أماكن أخرى من البلاد ذهب الناس للعمل بمشاريع جبل طارق من

بنائين ونجَّارين وحجَّارين بأمر الملك.

أما الأعمال التي قام بتنفيذها المرينيون بعد قرنين من الزمان في المدينة نفسها والتي بدأها أبوالحسن وأنهاها أبو عِنان (الذي بويع في ربيع الأول ٧٤٩ هـ/ يونيو ١٣٤٨م) فيوضح ابن جُزَي، كاتب **رحلة ابن بطوطة**، أنه اهتم بتلك القلعة الإسلامية اهتماماً بالغاً، حتى أمر بتصميم مجسَّم رائعٍ للجبل والأسوار والأبراج والقصبة والبوابات والمسجد والترسانة والصوامع ومخازن الذخيرة الحربية، وذلك في قاعة الاستقبال بقصره الموجود في مدينة فاس المسمى (المَشْوَر)[١٣].

ويكشف عِلْم أسماء البلاد الحالي النقاب عن عدة مدن أخرى في الأندلس التي لم يُعرَف بعدُ تاريخُ تأسيسها، وكذلك كثيرٍ من القرى التي أسست إبان الحكم الاسلامي واحتفظت بالاسم العربي الذي خضع لبعض التعديلات عند الانتقال من اللغة العربية إلى اللغة «الرومانسية». أما المدن التي أُنشئت قبل القرن الثامن الميلادي ولم تحتفظ باسمها العربي فقد احتفظت باسمها القديم عندما استمرت حياتها دون انقطاع. وضمن المدن العديدة التي لها اسم من أصل إسلامي هنالك المدن الآتية: «المدينة» MADINA، والبلاط (الطريق) AL-BALAT و«البيضاء» ALBAIDA و«المعدن» ALMADEN و«القنطرة» AL-CANTARA. ومنها المدن العديدة ذات الأصل العسكري كالقلعة المتصلة بكلمة أخرى من نفس المعنى كالقَلْعة والقُلَيعة؛ وكذلك الكلمات الأخرى المشتقة من العربية من كلمات مثل: كلمة «حصن» (كـ «حصن الطرف» IZNATORAF، و«الحصن الآخر» IZNAJAR، و«حصن القصر» و«حصن اللوز» IZNALLOZ إلخ. وكلمة «برج» BORJ [١٤] (كـ«برج الأنثى» (بوخالانث)، و«برج الروث» (بوخالاروث) و«برج الصوت» (برجاسوت) إلخ)[١٥].

**مدن ملكية.**

كما ألمحنا في الصفحات السابقة، فإن العديد من هذه المدن قد أُسس بأمر الملوك أو السادة الكبار أو بأمر ولاة الأوائل ليكون مقراً لإقامتهم وإقامة بلاطهم. ولهذا قام عبدالرحمن الثالث ببناء «مدينة الزهراء» في سلسلة جبال «قرطبة» سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م؛ و«مدينة الزاهرة» الواقعة شرقاً والقريبة من الأولى قام بتأسيسها الحاجب المنصور (٣٦٨/ ٣٧٠هـ - ٩٧٨ أو ٩٧٩/ ٩٨١م)؛ ومدينة «حصن الفرج» التي بناها الملك الموحدي أبويوسف يعقوب في ضواحي أشبيلية سنة (٥٨٩/ ١١٩٣م)؛ «والبُنَيَّة» الذي أمر ببنائها المريني أبويوسف بالقرب من الجزيرة سنة (٦٧٤/ ٦٨١هـ - ١٢٧٥/ ١٢٨٢م) لأغراضٍ عسكرية ولكنه أنشأ مقراً ملكياً فيها.

ومهما يكن الأمر فإن وجود مدن تُبنى داخلَ أسوارها قصورُ الملوك وقصورٌ رسمية مستقلة عن العواصم القديمة هي ظاهرة مستمرة في الإسلام في المشرق والمغرب على حد سواء. كان الملوك يؤسسون عادة تلك المدن الفاخرة في أماكن منفصلة بعيدة مقرًا خاصًا بهم، ويلجؤون إلى تلك الأماكن مبتعدين عن الإزعاج الناتج من أعباء الحكم ومن الإشراف على الرعية في تلك المدن المضطربة بشكلٍ مستمر. وفي هذا المقر كان يتمتع الملوك باستقلال أكبر وبراحة أوفر مما كانوا يتمتعون به في القصور المشيدة داخل المدن المزدحمة.

لقد قام الخلفاء الأمويون، المستقرون في عاصمتهم دمشق، ببناء قلاع على هيئة قصور(١٦) في الصحراء السورية وأجريت على هذه الآثار بعض الدراسات والحفريات في السنوات الأخيرة. وفي تاريخ لاحق انتقل الخليفة العباسي «المتوكل» ببلاطه من بغداد إلى سامراء (سرّ من رأى) المدينة الرائعة التي أَمَرَ

ببنائها منفقاً على مشروعها مبالغ طائلة، والتي نزح الخليفة المعتمد عنها بعد خمسين عاماً من إنشائها وجعل إقامته في بغداد مرة أخرى. وفي أفريقية سكن الأمير الأغلبي إبراهيم الأول في القصر القديم على بعد أربعة كيلو مترات من القيروان؛ بينَا ذهب أحد خلفائه للعيش في رَقَّادة التي أسست سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م والواقعة على بعد خمسة كيلو مترات من المدينة الأولى.

وكان يُنشأ عادة حول المقر الملكي، في ظل القصور الجديدة، مركز مدني فخم أمام القصر القديم الذي يغادره الملك في فترات بشكل مؤقت[١٧]. وكان الصراع بين أهل المدينة دائماً، فكان مصير المدينة الملكية معروفاً تمام المعرفة فلأنها أسست طبقاً لرغبة وقتية مصطنعة، كانت غوغاء المدينة القديمة تقوم بنهبها وتدميرها. وفي إطار المدن الأسبانية فقط نذكر حوادث النهب والتدمير لمدينة الزهراء ومدينة الزاهرة التي اشترك فيها إلى حد كبير غوغاء قرطبة ورجالها بمساعدة البربر وذلك في السنوات الأولى من القرن الحادي عشر الميلادي. وعند بناء جدران السور والقصور وأبراجها في مدينة «حصن الفرج» على هضبة قمة جبلية وعلى المنطقة السفلى لنهر «الوادي الكبير» في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثاني عشر الميلادي أثار هذا العملُ ضغينةَ أهل أشبيلية، لأن إقامة تلك المباني أدت إلى هجر قصور أشبيلية ذاتها. ومازالت مدينة «البُنيَّة» قائمة بعد أن تحولت إلى ضاحية من ضواحي مدينة «الجزيرة» ALGECIRA، واستمرت المدينتان، القديمة والجديدة، معاً إلى أن دمَّرهما محمد الخامس من مدينة غرناطة.

### مدن مجهزة للحصار

هناك نوع آخر من المدن مجهز للحصار، وهي عبارة عن معسكرات تتفوق

من حيث الثبات والاستمرارية عن غيرها. وقد أقيمت تلك المعسكرات لأداء أغراض المدن الأولى ولكن بصفة مؤقتة ومحددة. فانقرض معظمها بعد أداء مهمتها. وإنشاء تلك المدن على هيئة معسكرات مجهزة لهجوم مدينة أخرى محاصرة أو للدفاع عن نفسها من هجوم محاربي تلك الأخيرة كان غاية من الغايات العسكرية. ولكن الغرض الأساس من إقامتها في معظم الحالات الإثبات للعدو عن التصميم الراسخ في استمرار المعركة إلى أجل غير مسمى حتى الاستسلام النهائي.

ولم يبق في أسبانيا الإسلامية إلا ذكر «مدينة الفتح» MADINA AL-FATH كمدينة للحصار، والتي أسست بالقرب من مدينة طليطلة بغرض فتحها من قبل جيوش عبدالرحمن الثالث سنة (٣١٨هـ/ ٩٣٠م). ومازال موقعها مجهولاً حتى الآن، كما أسلفنا من قبل.

وقد أقيمت أيضاً مدن مجهزة للحصار في المغرب عندما حاصر عبدالمؤمن مراكش سنة ٥٤١هـ - ١١٤٦/١١٤٧م وقام في الوقت نفسه ببناء مدينة مماثلة على الجبل القريب المسمى «إيجيليز» IGILLIS. وتوجد حتى الآن آثار مدينة المنصورة بالقرب من «تلمسان» التي بناها السلطان المغربي أبو يعقوب سنة ٧٠٢هـ - ١٣٠٢/١٣٠٣م بغرض فتح تلك المدينة. وعندما تأخر في تحقيق هذا الغرض قام بتحويل المعسكر المؤقت إلى مدينة دائمة وأصبحت مقر إقامته بعد الانتصار. وهناك أيضاً آثار لمدينة «أفراغة» AFRAG التي تتبع «سبتة»، وهي التي بناها المرينيون.

وكذلك بنيت في أسبانيا المسيحية مدن مجهزة للحصار. ولنذكر المدينة التي قام ببنائها فرناندو الثالث سنة ١٢٤٧م بغرض الاستيلاء على أشبيلية؛ والتي

أقامها ألفونسو الحادي عشر سنة ١٣٤٢م بغرض السيطرة على الجزيرة، ومدينة «سانتا فير»، أمام مدينة غرناطة، التي بنيت بأمر الملوك الكاثوليك عام ١٤٩١م، وهي حالة نادرة للغاية حيث مازالت قائمة حتى أيامنا الحاضرة. وهناك معلومات تاريخية مفيدة عن هذه المدن الثلاث في «الكتب التاريخية القشتالية». ولعل تخطيطها المنظم أثر على تقاليد تخطيط المدينة المنتظمة خلال القرون الوسطى[١٨].

**المدن الأسبانية الإسلامية الحديثة التأسيس.**

**(١) مدينة قلعة أيوب (كالاتايود CALATAYUD).**

كتب «دون رودريجو خيمينيث دي رادا» في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، ناقلاً بلا شك من بعض الأخبار الإسلامية القديمة، عن مدينة «قلعة أيوب» أنّ تأسيسها يرجع إلى «أيوب». وهذه التسمية التي احتفظت بها المدينة تعود إلى أيوب بن حبيب اللَّخْمي أحد التابعين، وقد كان واليًا على أسبانيا الإسلامية مدة ستة أشهر بعد مقتل ابن عمه عبدالعزيز بن موسى بن نصير في أوائل شهر رجب سنة ٩٧هـ مارس سنة ٧١٦م. ويقبل بهذه المعلومة التاريخية التي أشاعها المؤرخان «ثوريتا» ZURITA و«ماريانا» MARIANA بصفة مؤكدة علماءُ الحضارة العربية المعاصرون[١٩]. وقد وقع أول حادث تاريخي معروف يعود فيه ذكر اسم قلعة أيوب بعد سنة ٢٧١هـ - ٨٨٤م بقرن ونصف تقريباً. وفي هذا التاريخ كان عبدالرحمن بن عبدالعزيز التُّجِيبي، حاكم مدينة «دورقة» DAROCA و«قلعة أيوب» ورئيس أسرة عربية قوية مقيمة في مقاطعة «أرجون» ARAGON منذ أيام الفتح، حليفاً للأمير القرطبي، وقام بمشاركته في إعادة ترميم الأسوار الدفاعية لتلك المدينتين ضد بني قسيّ من

سرقسطة ZARAGOZA [٢٠]. وفي سنة ١١٢٠م قام ألفونسو الأول المحارب بالاستيلاء على «قلعة أيوب» وكانت حسبما أورد «**القرطاس**» أهم قلاع شرق الأندلس[٢١]. وتقع قلعة أيوب بالقرب من واد خصب، وكانت مفتاحاً لعدة طرق طبيعية، ومن ثَمَّ كانت تتمتع بموقع إستراتيجي لا مثيل له. وقد أسست على وهدة طبيعية، لذا أدَّت هذه التضاريس إلى أن تحصَّن المدينة تحصيناً معقداً غير عادي. وقد بنيت الأسوار حول قمم الجبال التي تطل على المدينة حيث أقيم عليها أربع قلاع عالية، وامتدت تلك الأسوار حتى المنطقة السفلى للوهدتين اللتين تفصلان بين القمم، ثم إلى الوادي فالنهر حول الجزء الشرقي المنبسط الذي كان يستمدّ الحماية أيضاً من الوهدة الطبيعية لنهر الخالون JALON.

ولم يتبق من الماضي الإسلامي لقلعة أيوب سوى بعض الأطلال التي لم تُدْرَس، وهي عبارة عن أسوار وأبراج مبنية من الحجر الجيري وفي بعض أجزائها ألواح خشبية. وهناك برج ثُمانيُّ الشكل من الناحية الخارجية وأسطواني من الناحية الداخلية، مغطًّى بقبة مخروطية الشكل، بالإضافة إلى أبراج أخرى مستطيلة الشكل مغطاة بقباب ذات منحنى نصف دائري والمفتوحة من ناحيتها الداخلية. وعلى السور الصاعد من باب سورية SORIA، وقد اختفى هذا الباب، إلى القلعة الكبرى مازال يوجد باب واقع على منحدر القمة الجبلية مسدود بجزء من حطام السور، وارتفاع الفتحة متران أو أكثر، وفي الجزء العلوي منه قوس بارز على هيئة حدوة الفرس تتحد العروق في قمته. وكانت المساحة الداخلية لمدينة قلعة أيوب عند فتحها ما بين ٣٩ و ٤٠ هكتاراً.

**(٢) مدينة كلاترابا القديمة «قلعة رباح»** LA CALATRAVA VIEJA.

يقال: إن الاسم العربي لـ«كلاترابا» (قلعة رباح) يرجع إلى اسم تابعي

دخل الأندلس هو علي بن رَباح اللَّخْمي[٢٢] ومن المحتمل أنه مؤسس المدينة. ويقول الحميري إن تأسيس المدينة يرجع إلى العصر «الأموي» عندما ترك سكان «عُريت» (أوريتو) مدينتهم الرومانية الأصل بعد تدميرها وانتقلوا إلى هذه للاستقرار فيها. أما المَقَّري فيسميها بالبيضاء LA BLANCA[٢٣].

ويظهر اسم قلعة رباح فيما بعد في الكتب التاريخية العربية عندما يُذكر تمرد أبي الأسود محمد بن عبدالرحمن الفهري ضد عبدالرحمن الأول سنة ١٦٩هـ - ٧٨٥م في مدينة طليطلة أواخر حكم هذا الأخير. وقد ألحق به الأمير هزيمة دامية لتمرده، وطارده إلى ما بعد قلعة رباح ثم قُتِل جميع الهاربين الواقعين في أيدي الجيوش الموالية للأمير[٢٤].

وتمكن شعب طليطلة المتمرد دائماً ضد قرطبة وعلى رأسه المستعرب «سونتيلا» من احتلال قلعة رباح بعد هجوم جريء وسريع، وقام المسلمون بإخلائها وتدميرها. وكان ردُّ الفعل لذلك الهجومِ هو إرسالَ حملة سريعة من قرطبة إلى طليطلة في صيف سنة ٢٣٩هـ -٨٥٣م وعلى رأسها الأمير الحكَم شقيق الحاكم الأمير محمد. وعندما وصلوا إلى قلعة رباح وجدوا المدينة مهجورة وخالية من سكانها، فأمر الحكم بإعادة بناء الحصون وتعميرها وإعادة السكان الهاربين منها نتيجة الهجوم الطليطلي. واستغرقت الأعمال سنتين كاملتين وانتهت سنة ٢٤١هـ - ٨٥٥م. وبعد تعمير المدينة زودت بحراسة مشددة[٢٥].

وقد قام ألفونسو السابع سنة ١١٤٧م بغزو قلعة رباح ثم هجرها النصارى عام ٥٩٥ هـ - ١١٩٥م بعد هزيمة «الأرك» ALARCOS. وفي صيف عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م استولى عليها الجيش الذي هزم الموحدين بعد أيام قليلة، في معركة العقاب (لاس ناباس دي تولوسا LAS NAVAS, DE TOLOSA). ولكن

الموقع الموبوء للمـدينة بالقرب من نهـر الجواديانا GUADIANA ذي المياه القليلة كان، على الأرجح، السبب في نزوح سكانها سنة ١٢١٧م.

وفي هذا التـاريخ كانت مـدينة قلعة رباح ممتـدة على سطح هَضبـةٍ ضَيّـقَةٍ وطويلة، يزداد ارتفاعـها قليلاً نحـو الغرب، وتتراوح الارتفـاعات المطلة على المجرى الواسع لنهر الجواديانا ما بين ١٥-٤٠ متراً. وكانت يغطي نهر الجواديانا نباتات الأسل والقصب والدلبوث ونبات ذيل الهر، ويكوّن النـهر خندقاً طبيعياً في الجزء الغربي للهضبة.

ويرجع تأسيس قلعة رباح إلى أسباب عـسكرية بحتة دون شك هي: الحاجة إلى وجود قلعة على الوادي المتوسط لنهر الجواديانا، لتكون محطة من محطات طريق الجيوش المتنقلة من قرطبـة إلى طليطلة وعلى طريق «لا ماركا العليا» LA MARCA SUPERIOR لمحاربة النصـارى. وكانت، بالإضافـة إلى ذلك، ملتقى طرق هامة ومفتاح المرور بين الأندلس وشمال شبه الجزيرة[٢٦].

ولم يبق من قلعـة رباح إلا آثار نادرة لأسـوارها وبعض الأبـراج المبنيَّـة من الحجر الجيري[٢٧]. أما مساحتها فكانت تبلغ داخل الأسوار أربعة هكتارات أو أكثر بقليل.

**(٣) قناة عامر** QUANAT AMIR.

في عام ١٣٦هـ - ٧٥٣ م/ ٧٥٤م، قام القائد العسكري عامر ببناء قلعة في بستان له غرب مـدينة قرطبة يسمّى بقناة عامر. وقـد أحاط مساحة كـبيرة من الأرض بسور، وبنى في داخله مباني بغرض تحويلها إلى مدينة يلجأ إليها أتباعه وتسمح له باستمرار المعركة المقـدسة ضد يوسف إلى أنْ تصل إليه المساعدة من اليمنيين[٢٨]. ولم يتكرر في الكتب التاريخية ذكر قناة عامر فيما بعد.

## (٤) مدينة إلبيرة ILBIRA.

يَعْزو الحميري تأسيس إلبيرة إلى عبدالرحمن الأول. ويقول إنه عمّر المدينة بعدد كبير من مواليه، الذين انضم إليهم فيما بعد بعض العرب من جند دمشق[٢٩]. وقد سبق للحاكم أبي الخطار الكلبي أن منح هؤلاء الجند السوريين أراضي إقطاعية في منطقة إلبيرة وذلك قبل سنة ١٢٣هـ - ٧٤٢م[٣٠]. ويبدو أن تاريخ إنشاء المدينة المذكور آنفاً يتناقض مع الحدث التاريخي الذي يذكره بعض المؤلفين المسلمين، الذين حددوا تاريخ إنشاء المسجد الجامع على يد التابعي المشهور حَنَش الصنعاني (المتوفى سنة ١٠٠ هـ - ٧١٨/٧١٩م. وقد قام محمد الأول سنة ٢٥٠هـ - ٨٦٤ م بإعادة بناء هذا المسجد وتوسعته. وكان يجتمع فيه العرب القادمون من القرى المجاورة للوادي[٣١]. وترك المسلمون مدينة «غرناطة» GRANADA المأهولة بالمستعربين واليهود كلٌ له معابده لممارسة شعائره ثم اتخذوا إلبيرة حضْرةً للمنطقة (الكُورة).

وكانت «إلبيرة» ILBIRA لفترة قصيرة من أغنى مدن الأندلس كما كانت أكثرها ازدحامًا وفخامة وعاصمة الجزء الشرقي منه. ولكن المدينة ومحافظتها عانت كثيراً أثناء تمرد العرب والمولدين والمستعربين ضد الأمويين القرطبيين خلال الفترة المضطربة لحكم الأمير عبدالله وفي السنوات الأولى لحكم عبدالرحمن الثالث. وقد سقطت المدينة عنوةً تحت هجمة شعوب البربر سنة ٤٠٠ هـ - ١٠١٠م أثناء الثورات التي أدت إلى نهاية خلافة قرطبة[٣٢].

كانت مدينة إلبيرة تقع عند قاعدة سفوح الجبال الجنوبية من سلسلة جبال إلبيرة المعروفة لدى العرب «بالعُقاب UQAB»، وفيما بعد سميت بجبل إلبيرة. وهو جبل أجرد من الرخام الغامق يقع على بعد ثلاثة أكيال شمال شرق

غرناطة في المكان نفسه الذي احتلته المدينة الرومانية قسطيليا القليلة الأهمية. ولم يبق آثار تذكر عن مدينة إلبيرة. والحفريات التي تمت في القرن الماضي لم تُظهر، إضافة إلى بعض البقايا الأثرية الرومانية وأجزاء زخرفية محفورة على الجص، إلا بعض القطع البرونزية والفخارية التي تُعْزَى إلى القرن العاشر الميلادي. وهذه عثر عليها جملةً في الحفريات التي تمت في المسجد وحفظت بأكملها في متحف الآثار بمدينة غرناطة(٣٣).

(٥) مدينة أُقليش (أُكليس) UCLES.

تمرد الفتحُ بن موسى بن ذي النون، أمير أو سيد، على عبدالرحمن الأول فقام بتحديد إقامته سنة ١٦٠هـ - ٧٧٥/ ٧٧٦م في مدينة أقليش التي كانت منذ ذلك الحين عاصمة محافظة شنتبرية (سانتا بر). وكان بها مسجد جامع وحمامات كانت تستمد مياهها من العين الواقعة في الجهة العليا للمدينة(٣٤). بالإضافة إلى ذلك كانت المدينة مركزاً سياسياً ومنطقة إستراتيجية، ولو أن أهميتها لم تبلغ درجة جديرة بالذكر. وقد استولى عليها ألفونسو السادس في نفس التاريخ الذي استولى فيه على مدينة طليطلة (١٠٨٥م). ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي أصبحت مقراً لمقام «سانتياجو» SANTIAGO واقتصرت مهمتها على طابعها العسكري والديني فقط ولم تبلغ تطوراً كبيراً.

(٦) مدينة تُطِيلة TUDELA.

حسب العديد من المؤرخين المسلمين فإن «عمروس» AMRUS المولَّد الموالي للحكم الأول قام بتنفيذ أوامره في مشروع بناء «تطيلة» TUDELA «القلعة المحصنة» على الضفةِ اليمنى لنهر «الإبرو» EBRO على نصف الطريق تقريباً بين «سرقسطة» و«بمبلونا» سنة ١٨٦هـ - ٨٠٢م وعين فيها للإقامة الدائمة ابنه

يوسف بصحبة حراسة عسكرية مشددة[٣٥].

وقد ازدادت المدينة أهمية عندما أصبحت عاصمة لإمارة موسى بن موسى أو موسى الثاني، أشهر أفراد بني قسيّ الذي كان يُسَمِّي نفسه ملك أسبانيا الثالث والذي اتسعت ممتلكاته اتساعاً بالغاً في السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن التاسع الميلادي. في سنة ١١١٩م بعد الاستيلاء على مدينة «سرقسطة» سيطر ألفونسو الأول المحارب على تطيلة عن طريق المعاهدة. وتحتل المدينةُ السفوحَ الشرقية لجبل قريب من الضفة اليمنى لنهر «الإبرو» على بعد ٨٠ كيلو متراً من «سرقسطة». ولحمايتها أقيمت على قمة الجبل قلعة محصنة بالإضافة إلى الحماية المستمدة من مجرى نهر «الإبرو» شمالاً وفي الجزء المنبسط منه شرقاً تستمدّ المدينة حمايتها من وهدٍ أو جدول مائي، رُدِمَ اليوم، وعُرِف «بمردانشو» MERDANCHO في القرون الوسطى ثم سمي بعد ذلك «بمديافيلا» -ME DIAVILLA. ويعتقد المؤلف «لاكارّا»[٣٦] أنه بتحول مدينة «تطيلة» إلى المركز السياسي «للملك أسبانيا الثالث» في منتصف القرن التاسع الميلادي ولجوء أهل المدينة المجاورة طَرَسونة TARAZONA إليها، فإنها قد اتسعت أسوارها شرقاً وبلغت الوهد الطبيعي لنهر آخر صغير يعرف «بالقليس» (نهر قالاس) QALAS.

ويرجع تأسيس مدينة تطيلة إلى ضرورة حماية أراضيها المستوية الخصبة الواقعة على المجرى الأوسط لنهر الإبرو من غزوات شعبي باسكونيا والفرنج. وقد كانت مطلة على أراضي الشعب الأول وتقوم بحماية معبر النهر. وعندما اختفى الغرض العسكري لإقامتها اعتمدت على امتيازاتها الأخرى، وهي موقعها على الجسر الإجباري عبر النهر، كما اعتمدت بالأخص على ثروتها

الزراعية ومراعيها في الأراضي المجاورة لها. وهذه الأسباب مكنتها من الاستمرار في الوجود.

ولم يبق من ماضي تطيلة الإسلامي إلا بقايا زخرفية نادرة وبدائية، إضافة إلى «الكوابيل» MODILLONES المعمارية التي انتُفع منها في مقدمة الكنيسة القديمة التي ربما يرجع أصلها إلى كنيسة مستعربة من القرن العاشر الميلادي.

وكانت المساحة داخل أسوار مدينة تطيلة تقدر بأكثر من ٢٣ هكتاراً عندما قام ألفونسو الأول بانتزاعها.

**(٧) مدينة مُرسية MURCIA.**

أمر الأمير عبدالرحمن الثاني بتأسيس مرسية لتكون مقر إقامة المحافظين والزعماء العسكريين لمقاطعته. وقد كلف الأميرُ عبدالرحمن الثّاني بهذه المهمة والي تدمير TUDMIR جابر بن مالك بن لبيد في خطابه المؤرخ في يوم الأحد ٤ ربيع الأول/ ٢١٦هـ - ٢١ ابريل ٨٣١م. وأمره أيضاً بالإقامة في المدينة. وبعد انتهاء بنائها قام جابر بتنفيذ أوامر ملكية خاصة بتدمير مدينة إيليو ELLO [٣٧] المأهولة بالمضريين واليمنيين، ذلك لأنها كانت بؤرة لمعارضة الأمير، والتي اندلعت منها بعض التقلبات الشعبية وحركات التمرد في وقت سابق[٣٨].

وفي الفرض الضريبي تم دمج مملكة مرسية إلى قشتالة عام ٦٤٠هـ - ١٢٤٣م: وعندما ثار جيرانها العرب اضطر خايمي الأول إلى الاستيلاء على المدينة بعد أن ضرب حصاراً حولها في شهر فبراير سنة ١٢٦٦م[٣٩].

هذا وتقع مرسية على سهل واسع على الضفة اليسرى لنهر «السيجورا» وكان يوجد بها في القرن الثاني عشر الميلادي معبر للمراكب [٤٠] كما كانت تتقاطع شبكة من القنوات على طول مساحة الوادي الخصيب، وبالتالي فإن

ازدهارها مستقبلاً كان أمراً مؤكداً. وفي القرن الثالث عشر الميلادي عندما وقعت تحت السيادة المسيحية كانت تبلغ مساحتها الداخلية أكثر من ٤١ هكتاراً.

(٨) أُبَّذَة (عُبَّادة العرب) UBEDA.

يعزو جميع الكتاب المسلمين تأسيس المدينة إلى عبدالرحمن الثاني الأموي ٢٠٦/٢٣٨هـ - ٨٢٢/٨٥٢م؛ ويقولون إن ابنه محمداً أكمل بناءَها. وقد سميت المدينة بعبادة العرب لتميزها عن مدينة أخرى تحمل الاسم نفسه تقع في منطقة «إلبيرة» كانت تشكل جزءًا من كورة «جيّان»[٤١]. ووفقاً لرأي ابن خلدون، فإن ألفونسو السابع أَمَرَ يحيى بن غانية أن يسلمه «بيّاسة» BAEZA و«أبذة» UBEDA سنة ٥١٢هـ - ١١٤٧م. أما مؤلف **القرطاس** فيرى أن ذلك الحصن وحصوناً أخرى مجاورة له سُلِّمت سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩/ ١١٥٠م[٤٢]. وبعد تغيير حاكمها عدة مرات قام فرناندو الثالث، الحاكم على «بياسة» منذ سنة ١٢٢٧م، بالاستيلاء على المدينة في شهر يوليو سنة ١٢٢٣م بعد حصار دام ستة أشهر[٤٣].

ولقد دمرت الأمطار الغزيرة التي سقطت سنة ١٣٠٥م على المنطقة جزءًا من أسوارها، ثم قام محمد الخامس من «غرناطة» بتدميرها تدميراً شبه كامل سنة ١٣٦٨م، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء على القصر أو القصبة[٤٤].

وتقع أبَّذة على القمة الجنوبية لسلسلة الجبال الممتدة على وادي نهر «الوادي الكبير» GUADALQUIVIR التابعة للقمم الطويلة التي تحمل التسمية نفسها وهي التي تمتد بين ذلك الوادي ووادي نهر «الجواديلمار» GUADALIMAR. وتبدأ في الجزء الشمالي لأرض المدينة ثلاث وهود، سطحية في بدايتها،

ولكنها تتعمق تدريجياً كلما اتجهت إلى المنطقة الجنوبية. الوهدتان الواقعتان على الطرفين استعملتا كحدود وكخندق للأسوار؛ أما الوهدة المتوسطة فإنها استعملت طريقًا رئيسة للمدينة. وكانت القلعة تحتل الجزء الأكثر تقدماً في الاتجاه الجنوبي الشرقي. وكانت «أبذة» ثكنة عسكرية تسمح بمراقبة مناطق واسعة كما كانت منطقة مزدهرة وعامرة بسبب خصوبة الأراضي الزراعية المحيطة بها.

ولم يبق من الأسوار المهدمة آثار يمكن نسبتها إلى الأسوار الإسلامية، ولو أنها ربما تحتفظ بتصميمها القديم. كانت المساحة المحصورة بداخل أسوار مدينة أبذة أكثر من ٣٥ هكتاراً.

(٩) طلمنكة TALAMANCA.

أَمَرَ الأمير محمد الأول بتأسيس مدينة «طلمنكة» في منطقة «لاماركا» LA MARCA سنة ٢٣٨/٢٧٣هـ - ٨٥٢/٨٨٦ م.[٤٥] ومن المرجح أنها أسست قبل سنة ٨٦٠ م كما يتضح من كتاب «**إلكرونيكون**» EL CRONIÇON (**موسوعة قشتالة التاريخية**) للمؤلف «سان أسيدرو دي ليون»، فهو يذكر أن تدمير المدينة تم بتدخل حملةٍ جسورة للكونت القشتالي «رودريجو» الذي وصل حتى نهر «التاجُه»، وتعزو بعض الكتب التاريخية الأخرى تلك الحوادث إلى أخيه أو زوج أخته «أوردونيو» الأول[٤٦]. ومن المرجح أن «طلمنكة» وقعت تحت سيادة النصارى سنة ١٠٨٥م تقريباً بعد قيام ألفونسو السادس بفتح مدينة طليطلة.

وتقع المدينة على المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال «الجوادارّاما» GUADAR-RAMA على بعد مئتي متر من الضفة اليسرى لنهر «الخراما» JARAMA، وهي

على أرض مستوية تقريبًا ينساب فيها الجدول المائي «فالدخوديوس» -VAL DEJUDIOS.

وقد أسست مدينة «طلمنكة» على هيئة قلعة حصينة بغرض منع مرور الحملات النصرانية فوق معبر قديم على نهر «الخراما» نحو وادي نهر «التاجه». وفقدت المدينة أهميتها العسكرية بعد الاستيلاء على مدينة «طليطلة»، كما أنها فقدت في وقت لاحق أهميتها كمعبر على النهر.

ولم يبقَ في القرية الصغيرة المعاصرة أية بقايا تتحدث عن ماضيها الإسلامي.

**(١٠) مدينة مدريد (مجريط) MADRID :**

ينسب أيضاً تأسيس مدينة مدريد إلى الأمير محمد الأول(٤٧)، كما هو الحال بالنسبة لمدينة «طلمنكة»، وانتقلت المدينة إلى السيطرة النصرانية بعد استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة.

كانت مدينة مدريد الإسلامية تحتل الطرف الغربي لهضبة مرتفعة ارتفاعاً شديدًا، ومطلة على الضفة اليمنى لنهر «المنثانارس» MANZANARES. تحدها شمالاً وجنوباً وهاد ـ حاليًا شوارع «شيقوبيا» SEGOVIA و«آرينال» ARENAL وعقبة شارع سان بيثنت VICENTE SAN ـ عميقة تشكل خنادق طبيعية للسور، كانت تنحدر نحو النهر بميل شديد للغاية.

والسبب في تأسيس «مدريد» هو السبب العسكري نفسه الذي من أجله أسست طلمنكة؛ حماية وادي نهر التاجه ضد الحملات العسكرية النصرانية القادمة من الشمال التي كانت تعبر سلسلة جبال «جوادارّاما» GUADARRAMA.

وتخلو مدريد من بقايا أثرية إسلامية في أراضيها. وكانت مساحة المُدَيْنَة (أو

القلعة) تمتد نحو ثمانية هكتارات، بينما بلغت المساحة المحصورة داخل أسوارها المبنية في القرون الوسطى، والتي يرى بعض العلماء أنها من ذات أصل إسلامي[٤٨] ، إلى ٣٥ هكتاراً تقريباً.

(١١) لاردة LERIDA.

كانت لاردة في أثناء حكم الأمير محمد الأول، مدينة ذات أصل روماني، وبعد تدميرها وهجرها أعيد بناؤها إبان حكم أميرها المستقل إسماعيل بن موسى بن لب بن قسي سنة ٢٧٠هـ - ٨٨٣/ ٨٨٤م. وفي تاريخ لاحق أقيم في قصبتها الحصينة مسجد جامع جميل[٤٩]. ويتفق هذا مع رأي لابن خلدون عن تاريخ بدء بناء المدينة الذي تدخل فيه نصارى برشلونة بغرض عرقلته[٥٠].

وقام بالاستيلاء على لاردة «الكونت رامون برينجر» سنة ١١٤٩م. وكانت قصبة المدينة واقعة على تل عالٍ على الضفة اليمنى لنهر «سيجرى». وكانت المدينة تمتد بين القصبة والنهر بالقرب من الجسر الذي كان يعبره. أما أهميتها الإستراتيجية فكانت كبيرة. كما كانت الأراضي الزراعية المحيطة بها تؤمن وجودها.

(١٢) بَطَلْيَوْس (باداخوث) BADAJOZ .

يرجع تأسيس بَطَلْيَوْس إلى المولد عبدالرحمن بن مروان المسمى ابن الجِلِّيقي من مدينة ماردة الذي تمرد على الأمير محمد الأول. والذي قام الجيش القرطبي بحصاره بعد المعاهدة التي تمت بينه وبين الأمير سنة ٢٦١هـ ـ ٨٧٤/ ٨٧٥م، وبعد الحصول على تصريح من الأمير محمد الأول حددت إقامته في بطليوس التي كانت مدمرة عندئذ. فحصّنها ثم أسكن فيها الأهالي القادمين من

مدينة «ماردة» ومن أمـاكن أخرى. وعندما قام عـبدالرحمن بتمـرده مرة أخرى احتلت جيوش الأمير المدينة وقامت بتدمير مبانيها[٥١].

ولا يتـفق ما ذكـر سالفًـا، والذي ورد في كتـاب «البيان»، مع ما أورده البكري. إذ ينسب البكري تأسيس المدينة إلى المولدي ولـكن أثناء حكم عبدالله وبتفويض منه سنة ٢٧٥ هـ إلى ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢م. وقد وضع الأمير تحت تصـرف ابن الجليقـي عمـــال البناء والموارد المالية اللازمة. فشرع في إقامـة المسجد الجامع وبعض المساجد الأخرى، أحدها في القصبة، وبعض الحمامات[٥٢]. وقد استولى ألفونسو الحادي عشر من ليون على بطليوس سنة ١٢٣٠م.

كانت تلك المدينة تقع على تلٍّ محـاط من جانب منه بنهر «الجواديانا»، عند طرف الزاوية الناتجـة من انحراف مجـرى النهر إلى الجنوب الغـربي. مما يكوِّن حدًا طبيعيًا بين أسبانيا والبرتغال على الطريق السهل المباشر بين لشبونة والمحيط الأطلسي المؤدي إلى الهضبة المركـزية في أسبانيا. أما القصبة الإسـلامية القديمة فتقع على أعلى قمة الربوة فوق النهر بنحو سـتين مترًا. ويحدّها شمالاً مجرى نهر «الجـواديانا» كخندق لها، وكان في المـاضي على مسافة أقـرب منها؛ ومن الجهة الشرقية يوجد الجدول المائي المعروف بـ «ريبالياس» الذي يتلاقى مع النهر المذكور عند أسفله. أما في الجزئين الأماميين منها، فيمثل الجبل انحداراً شديداً على مجرى النهر وعلى واديه.

والأثر الوحيـد الباقي من الماضي الإسلامي لمدينة بطليـوس هو السور الذي كان يحيط بالقصـبة، والذي تغير نتيجة عدد لا نهائي من الـترميمات، وترتفع فوق الأسوار أبراج وبها بابان علي هيئـة كوع الذراع. وهذه الأسوار من أعمال الموحدين في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي[٥٣].

والمساحة المحصورة داخل أسوار مدينة بطليوس الإسلامية كانت تبلغ ٧٥ هكتاراً تقريبًا.

**(١٣) مدينة الفتح ( شالينكاس)** CHALENCAS.

حاول عبدالرحمن الثالث إخضاع مدينة طليطلة لسلطته نهائيًا بعد التمرد المتكرر لدى سكانها في عام ٣١٨هـ / ٩٣٠ م. ولتحقيق هذا الغرض أظهر لشعب طليطلة عزمه الراسخ على الاستيلاء عليها عندما أمر الوزير سعيد بن المنذر ببناء مدينة على تل يسمى «جرانكاس» Djalankas أو «جلانكاش» DJA-LANKASH في المرحلة الأخيرة الواقعة على الطريق بين قرطبة وطليطلة، والتي كان التل يطل على المدينة والنهر وعلى الوادي بحدائقه وكُرومه. فقام بنصب الخيام فيه وسماه مدينة الفتح. واستغرق حصاره لطليطلة سنتين كاملتين. وأخيراً في ٢٥ من شهر رجب سنة ٣٢٠هـ أواخر شهر يوليو ٩٣٢م وبعد أن تلقى الخليفة استسلام شعب طليطلة دخل المدينة المهزومة راكباً جواده. وأسرع المحاصَرون إلى مدينة الفتح بغرض الحصول على المؤونة وأشياء أخرى تعوزهم(٥٤). ومن المحتمل أن هذه المدينة العسكرية كانت محاطة بسور من الطين، أقيمت بداخله مبانٍ مؤقتة، وموقعها مجهول(٥٥).

**(١٤) مدينة الزهراء** MADINAT AL-ZAHRA.

عندما أعلن عبدالرحمن الثالث خليفة أسس المدينة الملكية المسماة بـ «مدينة الزهراء» سنة ٣٢٥هـ ـ ٩٣٦م على بعد ٤ أكيال شمال غرب قرطبة، على سفوح سلسلة الجبال (جبل العروس). وامتدّ البناء على فترات متقطعة خلال الأربعين عاماً اللاحقة، واستنفد مبالغ طائلة من المال.

وقد بنيت المدينة بصورة عاجلة كما لو كانت بقوة سحرية نتيجة لتوفر القوة

والثروة الهائلتين لأوربا الغربية في تلك الحقبة. وأصبحت المدينة خلال سنوات قصيرة رمـزاً واضحاً ومعبِّراً عن فـخامة خلافة قرطبـة. والآن، بعد الحفريات الجزئية التي أجـريت فيها، ظهرت المدينة مـهدمة ومدمرة مـعبِّرةً عن فخامـتها الأولى مرة أخرى.

وهي مدينة وجدت بطريقة مصطنعة بإرادة ملك أو تلبية لهوى محظيّة لديه، وبعد حياة قصـيرة، كانت ثروتها سبباً في تدميرها؛ إذ قـام رعاع شعب قرطبة بسلبها سنة ٤٠١هـ ـ ١٠١٠م ثـم احتلها الجيش وأحرقـها. فسلبت كل آثارها خلال سنوات طويلة وتشتت رخامها وأحجارها المنقوشة عبر بلاد بعيدة.

أمّا أسوارها فيبلغ امتدادها ١٥١٨ متـرًا تقريبًا وعرضها ٧٤٥ متراً. وكانت المساحة الداخلية المحصورة بين الأسوار المدمرة ١١٢ هكتاراً[٥٦].

(١٥) سِـكْـتـان SEKTAN .

قام القائد أحمد بن محـمد بن إلياس سنة ٣٢٩ هـ ـ ٩٤٠/ ٩٤١ م بتنفيذ مشروع بناء مدينة «سِكْتان» وترك فيها حراسة عسكرية وزودها بمؤونة وأسلحة. ثم أرسل عـبدالرحـمن الثـالث قائداً آخـر هو أحمـد بن يعلى، والي مـدينة بطليوس (بداخوث)، بمصاحبـة بعض أعضاء بلاطه لينضم إلى القائد الأول في تلك المدينة، فوصل إليهـا في شهر صفر/ ديسمبـر. وفي اليوم الأول من شهر جـمادى الأولـى الموافق للأول من شـهر فـبـراير سنة ٩٤١م، أعلن النجـاح العسكري لوالي المدينة الجـديدة والاستيـلاء على الأرض التابعة لراميـرو الثاني حيث قُتل وأُسر سكانها النصارى[٥٧].

(١٦) مدينة سالم (مدينه ثيلي) MEDINACELI .

قام القـائد غالبٌ أحـد موالي عبـدالرحمن الثـالث بإعادة بناء مـدينة سالم

(مدينة ثيلي) الرومانية التي هجرها سكانها منذ زمن طويل. وكان هذا بأمر من الخليفة سنة ٣٣٥هـ - ٩٤٦ م، بهدف إقامة قاعدة عسكرية قوية فيها خلال الحملات ضد النصارى؛ فأقبل إليها البناؤون من شتى الأماكن لإقامة السور والمعكسرات الحربية. وتم تنفيذ الأعمال الرئيسة في شهر صفر ٣٣٥ هـ سبتمبر ٩٤٦م، ومنذ ذلك الوقت عاش المسلمون في أمان تام في تلك القاعدة[٥٨]. ويذكر الرازي الذي كتب عنها قبل تأسيسها بفترة قصيرة بأن طارق بن نصير وجد المدينة مدمرة عند دخوله[٥٩]. وبعد مرور المدينة بعدة خطوب انتقلت إلى السيادة النصرانية لفترة قصيرة حيث استولى عليها ألفونسو الأول المحارب في أواخر سنة ١١٢٣م، أو في الأيام الأولى من عام ١١٢٤م.

ويبدو أن «مدينةَ سالم» التي تعود إلى القرون الوسطى والمدينةَ الحالية تقعان فوق المدينة الرومانية التي تشغل سطح أو هضبة واسعة على قمة ربوة مائلة صعبة وشاقة البلوغ على الضفة اليسرى لنهر «الخالون» JALON على ارتفاع ١٢٠٢ متر. وفي الحفريات التي تمت منذ عدة سنوات على تل مجاور له والمسمى «بيابييخا» (المدينة القديمة) LA VILLA VIEJA اكتشف سور طويل ومتين ربما يكون هو السور الذي أقامه غالب.[٦٠]، وفي صحن القصر الواقع داخل الأسوار حيث دفن المنصور المتوفى هناك في ٢٧ رمضان عام ٣٩٢هـ/ (١٠ من شهر أغسطس سنة ١٠٠٢م).

وبحكم موقع مدينة سالم فقد كانت لها أهمية استراتيجية بالغة تحت سيادة الأمويين. ولأنها كانت المدينة الوحيدة المواجهة لمنطقة قشتالة التابعة لنهر «الدويرو» DUERO، فقد كانت القلعة الأخيرة التي يخرج منها جيش قرطبة عند الضرورة في الحملات الصيفية ضد النصارى في المناطق الشمالية ويلجأ

إليهـا. ونظراً لفقـدان المدينة لأهميتـها العـسكرية ونقص الماء فيـها والأراضي الفقـيرة المحـيطة بها والصـعبة الوصـول إليهـا، فإن مـدينة سالم اليـوم مدينة محتضرة.

**(١٧) الْمَرِيَّـة ALMERIA.**

كانت المرية، حسب الحِمْيري، مدينة حديثـة التأسيس أي إسلامية، فقد أمر عبدالرحمن الثالث ببنائها سنة ٣٤٤ هـ ـ ٩٥٥/ ٩٥٦م. وبنى في ذلك الوقت السور الدفاعي للمدينة والقصبة[٦١]؛ وربما أيضاً المسجد الجامع.

وكما حدث في مواقع أخرى، فإن المكان كان معموراً. فقد كان فيه ضاحية أو ربض بحري عُرف «بمِيناء بجّانة» PECHINA الواقع بالمناطق الداخلية. حوّل عبدالرحمن الثالث الضاحية البـحرية إلى «مدينة» كما حوّل الميناء الى «ترسانة» بحرية ومـرسى لأسطول الخلافة. وقام الـوالي السلافي «خيران العـامري» من ٤٠٣/٤١٩ هـ ـ ١٠١٢/ ١٠٢٨م، ببناء سـورٍ مـن الطوب حـول الأحـيـاء الجديدة التي أضيفت إلى المدينة. وقام خَلَفُه زهيـرٌ بتوسيعات جديدة (من سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م حـتى ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م). فـزوّد المسـجـد الجـامع برواقين جديدين[٦٢]. وفي عـام ١٤٩٨م استولـى الملكان الكاثوليكيان على المدينة.

وقد بنـيت «المرية» في قاع خليج عظيم وعـميق لتكون مـرفأ آمنًا للـسفن. واحتلت قصبتُـها قمةً منعزلة ضيقة وطويلة ومحاطة بلهـبين صغيرين. وعندما ازداد عدد سكانـها في النصف الأول من القـرن الحادي عشـر الميلادي امـتدت المدينة نحو الغرب وبالأخص نـحو المنطقة المسطحة جهـة الشرق للوصول إلى المنخفضات الطبيعية للهبين لتصبح حدوداً لأسوارها.

وقـد بلـغ ازدهـار مـدينـة المرية أوجًا عظيـمًا في فتـرة المرابطين. ويعزى

ذلك إلى نشاطهم الصناعي وإلى التجارة البحرية مع الموانئ المطلة على البحر الأبيض المتوسط وبالأخص مع الموانئ الشرقية منها.

وبقيت من مدينة المريَّة الإسلامية بعضُ أجزاء الأسوار والأبراج؛ والقصبة المرممة بصورة شبه كاملة وبعض آثار محراب مسجدها الجامع(٦٣). وقد شغلت هذه المدينة المنسوبة إلى عبدالرحمن الثالث ٢١ هكتارًا وذلك في القرن العاشر الميلادي. وبعد إتمام التوسيعات الجديدة قبل منتصف القرن الحادي عشر الميلادي بلغت مساحتها الداخلية ٧٧ هكتاراً.

**(١٨) مدينة بلا اسم في إقليم طليطلة.**

يذكر ابن عذاري أن الخليفة الحكم كلّف أحمد بن نصر سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م ببناء أو بإعادة بناء مدينة ما لم يذكر اسمها، على حدود مدينة طليطلة(٦٤). وكان هذا الشخص أحد رؤساء الشرطة المسؤولين عن إدارة أعمال مشروع كسوة محراب المسجد الجامع في قرطبة بالرخام في عام ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م كما يتضح من الكتابة المنقوشة على الجزء الأعلى منه(٦٥).

**(١٩) مدينة الزاهرة** MADINAT AL-ZAHIRA .

كان الحاجب المنصور، وزير هشام الثاني وصاحب السلطة المطلقة، قد بدأ سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨-٩٧٩م ببناء مدينة أسماها «المدينة الزاهرة»، ولعله حاول بذلك أن يجمع حوله البلاط والهيئة الإدارية للدولة ليجعل الخليفة الحاكم بعيداً منعزلاً عن منصبه. ذلك لأن تأسيس مدينة ما كان مشروعاً سامياً قادراً على رفع هيبة المؤسس بشكل جلي.

وبدأت الأعمال بعد تسوية الأرض المختارة. فبُني سورٌ عالٍ مُحَصَّن وبداخله قصرٌ فاخرٌ لحاشيته ولأصحاب المقام من جلسائه، كما ألحقت به

مقرات خاصة بمكاتب للمستشــارين ولأركان الحرب، ومخازن واسعة للأسلحة وللغــلال، وأسواق ومطاحن على ضــفة نهــر «الوادي الكبــير» وقــد استــغرق المشروع عامين. وفي سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠-٩٨١م انتــقل المنصور ليستقــر فيها. واستمر الوزير في تجميلها إلى أن تم بناؤها سنة ٣٨٧هـ - ٩٩٧م، طبقًا لقول ابن خاقان(٦٦). وعندما استلب السلطةَ وأعلن خليفة الأميرُ محمد بن هشام بن عــبدالجــبار سنــة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م أمر بسلب المديــنة الزاهرة. وفي جمــادى الآخرة/ ١٩ فبــراير ١٠٠٩م أمر أيضاً بتدمــيرها وبإحراقها كــلياً دون أن يترك حجراً فوق الآخر.

وقد بلغ التدمير ذروته، بحيث لم يبق ذكر في الروايات المحلية لاسم المدينة ولا للمكان الذي احتلتــه. ولا يعرف عنها شيء إلا أنهــا كانت واقعــة الشرق وقريبة من قرطبة على منعطف الضفة اليمنى لنهر «الوادي الكبير»(٦٧).

**(٢٠) مدينة جبل طارق (خيبر التار) GIBRALTAR :**

عرض الملك الموحــدي عبدالمؤمن بناء مــدينة عظيمة في جــبل طارق بغرض استعمالها قاعدةً للحرب المقــدسة في الأندلس. فبدأ بحفر الأساس في التاسع من شهر ربيع الأول (١٩ من مــايو ١١٦٠ م). وانتهت أعمال المشــروع سريعاً في شهر ذي القعدة (٢ نوفمبر إلى ديسمبر من السنة نفسها)، وقد أنفق في هذا المشــروع مبالــغ طائلة جداً. ولتنفــيذ ذلك أرسل عــبدالمؤمن إلى جــبل طارق النجارين والبنائين والحجّــارين من مدينة أشبيلية ومن أمــاكن أخرى من دولته. ومن ضمن المباني التي أقيــمت حينئذ، وهي أول مبان للموحــدين في إسبانيا، هناك المســجد الجــامع وقصــر لإقامة الملــك وقصور أخــرى لأبنائه، ومــقرات لأصحــاب المقــام من بلاطه. وابتداء من ذلك التــاريخ تحول الجــبل الصــخري

والمدينة والقصبة والميناء إلى قلعة محصنة للإسلام وأصبحت الجزيرة قاعدة تسهّل مرور المسلمين من أفريقية إلى الأندلس. ومن المرجح أن المباني العسكرية قد دمرت بعد انتزاع النصارى لجبل طارق سنة ١٣٠٩م. وبعد استعادتها سنة ٧٣٣هـ ـ ١٣٣٣م على أيدي المرينيين وأهل غرناطة قام المرينيون بإقامة أسوار دفاعية عظيمة سنة ١٣٥٠م عندما قام ألفونسو الحادي عشر بحصارها بلا جدوى.

وشغلت المدينة الإسلامية المنطقة الشمالية لأراضيها الحالية، أي الأراضي الواقعة بالقرب من الأخدود الممتد على الحدود الشمالية للجبل الصخري، أما قصبتها فهي في الجزء الأعلى منها.

يحتفظ جبل طارق من العصر الإسلامي ببعض الأسوار وبحمام واحد، بالأخص ببرج القصبة العالي المسمى القلعة الحُرَّة CALAHORRA التي أقامها الملك المريني أبوالحسن بين سنة ١٣٤٢م و١٣٤٤م[٦٨].

**(٢١) حصن الفرج (أثنالفراش) AZNALFARACHE .**

يذكر صالح بن سيد أن «المعتمد على الله» قام في سنة ٤٧٢هـ ـ ١٠٧٩/ ١٠٨٠م بترميم حصن الفرج ـ قلعة المَشْرَف أو المربأة ـ ويعزى هذا الاسم إلى المنظر الطبيعي الجميل المنبسط أسفل هذا الحصن[٦٩]. وهذا الحصن والحصون الأخرى في منطقة «الشرف» AJARAFE تعرض لهجمات شرسة من الجيوش النصرانية في ربيع عام ٥٧٨هـ ـ ١١٨٢م والتي كانت قد استولت من قبل على «سان لوكار دي برّميدا» ثم انسحبت منها متجهة إلى طريق «لَبْلة» NIEBLA[٧٠].

ولابد أن مدينة حصن الفرج كانت مدمرة، عندما أمر الإمبراطور الموحدي

أبو يوسف يعقـوب المنصور، بإقـامة مقـرٍ في ذلك المكان خلال إقامـته وذلك لتأمين مأوى آمن للمـجاهدين ولإدخال الرعب في نفوس الكفار كـما جاء في كتاب «البيَان». ولقد أقيمت أسوار المدينة علـى عجل حول هضبة التل الواسع الذي بنيت عليه المدينة، وبُني بداخل الأسوار قصر كـبير ذو مجالس تطل على مدينة أشـبيلية كمـا أحيط به أراض واسعـة. كـما حُـــدد مكـــان خاص لبناء بعض المساكن. وقـد أشرف على بنائها الملك نفســه الذي أعطى الاسم للمدينة وهو «حصن الفرج» Hisn al Farg والذي كان يرغب بفارغ الصبر أن يرى المدينة وهي مكتملة البناء(٧١). وتمكن فرناندو الثالث من الاستيلاء على مدينة إشبيلية سنة ١٢٤٨م بعد بذل مجهـود جبار وبعد سفك دم غزير قبل الاستـيلاء عليها عنوة. وفي القرن السادس عشر الميلادي انتـقلت مدينة حصن الفرج إلى سفح الجبل بجوار نـهر الوادي الكبير، بينمـا ظلت الأرض القديمة مهجـورة ومدمرة بأبراجها وأسوارها.

وكان موقع المدينة على بعد ٤ أكيال تقريبـاً أسفل إشبيلية على منحدر شديد الميل ارتفاعه ٤٠ متراً فوق الضفـة اليمنى لنهر الوادي الكبير. وأقيم على طول دائرة حافـة التل سورٌ قـويٌ بأبراج مسـتطيلة بارزة قليلاً مـبني بالطوب النِّيء. وبقايا من هذا السور ظلت موجودة حتى اليوم.

**(٢٢) الجزيرة الجديدة (البُنيّة)** ALGECIRA LA NUEVA :

في حملة من حملاته العسكرية ضد النصارى أمر أبو يوسف سلطانُ المغرب ببناء مدينة جديدة بالقـرب من ميناء «الجزيرة» على الضفة اليسـرى لنهر العسل الذي كانت تستعمله المدينة كخندق في جزئها الشمالي. وأقيمت المدينة الجديدة بغرض عزل الجيش ولجـعلها بعيدة عن عمليات العنف والاغتـصاب على حافة

البحر بالقرب من الميناء. وأمر السلطان ببناء المساكن اللازمة تحت إشراف رجل قدير. وسميت المدينة الجديدة باسم البُنِية(٧٢).

ولم يتفق المؤرخون وعلماء تسلسل الحوادث التاريخية على تاريخ تأسيسها. ويفترض البعض أنها أُسست بعد شهر جمادى الأولى سنة ٦٧٤هـ/ أكتوبر ـ نوفمبر ١٢٧٥م أو بعد هذا التاريخ بقليل؛ والبعض الآخر يعتقد أنها أسست سنة٦٨١هـ/ ١٢٨٢م (٧٣). ويؤكد كتاب «**لاكرونيكا**» لألفونسو العاشر أنها أسست عندما ترك النصارى حصار مدينة الجزيرة عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م على الأرض التي أقاموا عليها معسكرهم مستفيدين من منازلهم ومن بقايا مبانيهم. كما يذكر الكتاب نفسه أنّ مدينة الجزيرة الجديدة أسست لمنع وقوع أضرار على المدينة القديمة، وإذا ما حوصرت من جديد(٧٤).

وقد استولى ألفونسو الحادي عشر في عام ١٣٤٤م بعد حصار شاق وطويل على المدينتين المسمّاتين بـ «الجزيرة». وقد فتحها محمد الخامس من غرناطة مرة أخرى في عام ٧٧١هـ ـ ١٣٦٩م(٧٥) منتهزًا فرصة النزاعات الواقعة بين العائلات الملكية بقشتالة. وعندما نقصت قوته العسكرية اللازمة لاستمرار المعركة قام بتدمير المدينة تدميراً شاملاً بين ٧٨٠ / ٧٩٠هـ ـ ١٣٧٨/ ١٣٧٩ إلى ١٣٨٨م كما قام بردم الميناء لكي يتعسر استعماله، كما يذكر ابن خلدون(٧٦). وظلت المدينتان خاليتين من سكانهما حتى استيلاء الإنجليز على جبل طارق سنة ١٧٠٤م، ومنذ ذلك التاريخ بدأ تعميرهما بعد أن عاد إليهما السكان الهاربون منهما، واللاجئون في المزارع المجاورة لهما.

ولقد احتلت مدينة البنية، كما قيل، تلاً مرتفعاً على شاطئ البحر شمال التل الآخر الذي أقيمت عليه مدينة الجزيرة، وكان يفصل بينهما نهر «لاميل»

(نهر العسل). أما تل المدينة الجديدة فيزيد ١٠ أمتار عن التل الآخر للمدينة القديمة وأكبر منه مساحة.

أما بالنسبة للمساحة المحصورة في داخل أسوار «الجزيرة»، فكانت أقل من ١٥ هكتاراً بقليل، وكانت مساحة مدينة البنية أقل من ذلك.

(1) De cada una de las 23 ciudades fundadas por los musulmanes en la Península, enumeradas a continuación, se insertan datos sobre su origen, descripción de su solar, brevísima historia de sus vicisitudes, rápida noticia de los restos monumentales, en el caso de conservar algunos, y, cuando se conoce, el trazado de su cerca islámica, con la extensión intramuros. Todo ello muy resumido por la obligada brevedad de estas páginas.

(2) **Qirṭās,** trad. Huici, p. 27; trad. Beaumier, p. 36.

(3) Ibn Jaldūn **Prolégomènes,** II, pp. 247-248, 250-252 y 274-276.

(4) **Ibidem,** pp. 238-239.

(5) Ya'qūbī, **Buldān,** edición Leiden, p. 266, citado por Nāŷī al-Aṣīl, **La ciudad de al-Mu'taṣim en al-Qāṭūl;** p. 346.

(6) Sobre la clasificación administrativa de las ciudades hispano-musulmanas cf. H. Mones, **La división político-administrativa de la España musulmana;** pp. 79-136.

(7) Torres Balbás, **Almería islámica,** pp. 416-418.

(8) **Qirṭās,** trad. Huici, pp. 24-26, 33-34 y 327; trad. Beaumier, pp. 31-33, 44-45 y 459-460; E. Lévi-Provençal, **La fondation de Marrakech;** pp. 117-120.

(9) E. Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 121; trad. p. 148.

(10) Ibn 'Iḏārī, **Bayān,** II, texto, p. 252; trad. p. 390; Ibn al-Faraḏī, **Ta'riḫ 'ulamā' al-Andalus,** núm. 398, p. 114; Dozy, **Recherches sur l'histoire... d'Espagne,** tercera edición, p. 434.

(11) Maqqarī, **Analectes,** II, p. 118, citado por Dozy (véase nota anterior); Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** p. 12.

(12) Traducción de Huici, pp. 185-186, texto p. 129.

(13) Ibn Baṭṭūṭa, **Voyages,** IV, pp. 359-360.

(14) J. Vernet sugirió en las J. H. A. C. de Córdoba, a propósito de la ponencia de H. Mones, que se interpretara el término **burŷ** por «burgo, aldea, cortijo» en vez de «torre».

(15) Asín, **Toponimia árabe de España.**

(16) La interpretación tradicional de «castillos del desierto» expuesta y defendida por H. Lammens, **La Bâdia et la Hîra sous les Omaiyyades. Un mot à propos de Mšatta,** p. 91-112, ha sido substituida, a la luz de las últimas excavaciones y fotografías aéreas, que han revelado la existencia de extensas zonas de cultivo y regadío en sus alrededores, por la de «gran propiedad agrícola» de «casa grande», cf. D. y J. Sourdel, **La civilisation de l'Islam classique,** p. 276-9.

(17) Georges Marçais, **L'urbanisme musulman (Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman,** I, pp. 221-222).

(18) Torres Balbás, etc., **Resumen... del urbanismo en España,** pp. 50-74.

(19) **Encyclopédie de l'Islam,** I, p. 846, en artículo de C. F. Seybold.

(20) Lévi-Provençal, **Histoire de l'Espagne musulmane,** t. I, p. 328.

(21) **Quirṭas,** trad. Beaumier, p. 234; trad. Huici, p. 167.

(22) C. F. Seybold en **Encyclopédie de l'Islam,** I, p. 846; Asín, **Contribución a la Toponimia árabe de España,** p. 100.

(23) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 163; trad. p. 196; Maqqarī, **Analectes,** I, p. 103.

(24) Ibn 'Iḏārī, **Bayān,** II, texto, pp. 51-52; trad. pp. 77-78; Ibn al-Aṯīr, **Annales du Maghreb et de l'Espagne,** texto, p. 53; trad., p. 132.

(25) **Bayān,** II, texto, pp. 87, 98 y 99. trad., pp. 138 y 155-156; Ibn al-Aṯīr, **Annales,** texto, p. 47; trad., p. 231; Nuwayrī, **Historia de los musulmanes de España y Africa,** trad. Gaspar Remiro, pp. 15, 40-41 y 46.

(26) **Idrisī,** edic. Dozy y De Goeje, texto, pp. 175, 186 y 213; trad. pp. 210, 226 y 263-265.

(27) Torres Balbás, **Ciudades yermas hispanomusulmanas,** pp. 79-114.

(28) **Ajbār Maŷmū'a,** edic. y trad. española de Lafuente y Alcántara, pp. 67-68.

(29) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 29; trad. p. 37.

(30) **Bayān,** II, texto, p. 33; trad., p. 48.

(31) Dozy, **Recherches sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne,** tercera edición, I, pp. 328, 331-332 y apéndice XXVII, p. LXIX.

(32) Torres Balbás, **Ciudades yermas,** pp. 205-218. La bibliografía se encuentra en este trabajo.

(33) **Medina Elvira,** por Gómez Moreno.

(34) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 28; trad., pp. 35-36; Maqqarī, **Analectes,** I, pp. 99 y 140.

(35) Afirman la fundación de Tudela por 'Amrūs, obedeciendo órdenes de al-Ḥakam I, al-Rāzī, **Memoria sobre la autenticidad de la Crónica del moro Rasis,** por Gayangos, pp. 44-45; Lévi-Provençal, **La «Description de l'Espagne» d'Aḥmad al-Rāzī,** p. 76, y el geógrafo Yāqūt en su **Mu'ŷam al-buldān,** terminado en 621/1224 **(Yacut's Geographisches** Wörterbuch, I, p. 853).

(36) José María Lacarra, **El desarrollo urbano de las ciudades de Navarra y Aragón en la Edad Media,** p. 9.

(37) Ella fue una de las siete ciudades entregadas por Teodomiro, mediante el célebre tratado, a Mūsà b. Nuṣayr. Tal vez sea Ojós o Ulea, villas ambas próximas, en el valle del Ricote.

(38) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 181; trad., pp. 218-219. Ibn'Idārī **(Bayān,** II, texto, pp. 84-85; trad., pp. 134-135), y Yāqūt **(Mu'ŷam al-buldān,** IV, p. 497) atribuyen la fundación al mismo emir, pero el año 210/825.

(39) Francisco Codera y Zaidín, **Biblioteca arábico-hispánica,** t. V, p. 386. Ballesteros Beretta, **La reconquista de Murcia,** CXI, pp. 138-147.

(40) **Idrīsī,** edic. Dozy y De Goeje, texto, pp. 194-195; trad., pp. 236-237.

(41) **Encyclopédie de l'Islam,** IV, p. 1038.

(42) Ibn Jaldūn, **Histoire des Berbères,** II, p. 187; **Qirṭās,** trad. Huici, pp. 396-402.

(43) Dan la fecha de la era 1271 —año 1233— para la conquista la **Chronique latine des rois de Castille,** pp. 136-137 y los **Annales Compostellani (España Sagrada,** XXIII, p. 324).

(44) Mariano Gaspar Ramiro, **Correspondencia diplomática entre Granada y Fez (siglo XIV),** pp. 295, 301 y 325-330.

(45) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p 118; trad., p. 155. Lo mismo en Yāqūt, **Mu'ŷam al-buldān,** edic. Wüstenfeld, III, p. 543.

(46) **Discursos leídos ante la Real Academia de la Historia en la recepción pública de don Manuel Gómez-Moreno Martínez,** pp. 12 y 23.

(47) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, pp. 179-180; trad., p. 216.

(48) Jaime Oliver Asín, **Historia del nombre «Madrid».**

(49) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 168; trad., p. 202.

(50) **Historia de los árabes de España, por Ibn Jaldūn,** trad. Machado, p. 157.

(51) Ibn 'Idārī, **Bayān,** texto, pp. 104-105; trad., pp. 167-169.

(52) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 46; trad., p. 58. Difieren de éstos también los relatos de Ibn al-Qūṭiyya e Ibn Jaldūn.

(53) Torres Balbás, **La alcazaba almohade de Badajoz,** pp. 168-203.

(54) Ibn 'Idārī, **Bayān,** II, pp. 218 y 222-223 del texto y 336-337 y 343 de la trad.

(55) En su solar había en el siglo XII una viña: «una vina en Chalencas» (Angel González Palencia, **Los mozárabes toledanos en los siglos XII y XIII,** vol. preliminar, p. 309; vol. I, doc. núm. 258, p. 201). En «çalencas prope Toletum» tenía unas propiedades don Sancho de Aragón, arzobispo de Toledo, que cambiaba en 1271 por otras en Alcalá de Henares (Fidel Fita, **Madrid desde el año 1235 hasta el de 1275,** pp. 77-79).

(56) Torres Balbás, en **Historia de España,** dirigida por Ramón Menéndez Pidal, t. V, pp. 424-463.

(57) Ibn 'Idārī, **Bayán,** II, texto, p. 226; trad., p. 348. La noticia procede de Ibn Mas'ūd.

(58) Ibn 'Idārī, **Bayān, II,** texto, pp. 229-230; trad., pp. 354-355.

(59) Gayangos, **Memoria sobre... la Crónica del moro Rasis (Mem. de la R. A. de la Hist.,** VIII, p. 47; Lévi-Provençal, **La «Description de l'Espagne»,** p. 79.

(60) **Ocilis** (Medinaceli), Memoria de las excavaciones practicadas en 1924-1925, por don José Ramón Mélida.

(61) Lévi-Provençal, **La Peninsule Ibérique**, texto, pp. 183-184; trad. p. 221.

(62) **Ibidem.**

(63) Torres Balbás, **Almería islámica**, pp. 411-453.

(64) **Bayān**, II, texto, p. 252; trad., p. 300.

(65) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne**, pp. 9-10.

(66) Maqqarī, **Analectes**, II, pp. 58-59.

(67) Bibliografía en **Ciudades yermas**, por Torres Balbás, pp. 142-148.

(68) Torres Balbás, **Gibraltar, llave y guarda de España**, pp. 168-216, trabajo en el que encontrarán referencias y bibliografía.

(69) **Al-Bayān al-Mugrib... por Ibn 'Iḏārī al-Marrākušī, Los almohades**, t. I, trad. Ambrosio Huici, p. 177.

(70) Ambrosio Huici Miranda, **Los almohades en Portugal**, 1954, p. 28.

(71) **Al-Bayān, Los almohades**, t. I, trad. Huici, pp. 176-177.

(72) Ibn Jaldūn, **Hist. des Berbéres**, trad. Slane, IV, p. 81.

(73) **Ibidem; Qirṭās**, trad. Beaumier, p. 568; trad. Huici, p. 416; **al-Hulal al-Mawšiyya**, trad. Huici, p. 202; Lévi-Provençal, **Le Musnad d'Ibn Marzūk**, pp. 44-45.

(74) **Crónica de don Alfonso X**, caps. LXIX, LXX y LXXII, p. 53-57.

(75) Ibn Jaldūn, **Hist. des Berbéres**, IV, pp. 380-381; **Qirṭās**, trad. Beaumier, p. 568; **Correspondencia diplomática entre Granada y Fez (siglo XIV)**, por Mariano Gaspar Remiro, pp. 264-269 y 334-341.

(76) Ibn Jaldūn, **Hist. des Berbéres**, IV, pp. 380-381.

# الفصل السادس

# غياب اللوائح والنظم الخاصة بالبناء في الإسلام

إن الشريعة الإسلامية جزء لا يتجزأ من الدين في المجتمع الإسلامي، وهي لا تحتوي على مواد خاصة بتنظيم المدينة أو النظم البلدية مثل التي كانت للمدن الرومانية أو النصرانية الناشئة ابتداء من القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين[1]؛ ذلك لأن الإسلام لا يعترف إلا بمجتمع المؤمنين.

فالمدن الإسلامية، في الشرق والغرب على السواء، كانت تنقصها لائحة قانونية إدارية ومبانٍ إدارية؛ لم تكن تشكل المدن كياناً سياسياً، بل كانت منظمة على هيئة معسكرات تسمح للعامة من المواطنين أن يؤدوا واجباتهم الدينية ويتمسكوا بمثلهم العليا الاجتماعية[2]. إن الشريعة الاسلامية ـ بكل أحكامها المرتبطة بالدين ـ لم تنص على شيء خاص بتنظيم المباني ولا بموقعها أو خصائصها ولا بالتخطيط أو بعرض الشَوارع والمباني المحيطة بها. وعند غياب المؤسسات البلدية، فإن كل ما يتعلق بمسائل المدينة وبمبانيها حُكِم فيه بفعل التقاليد ومن ثَمّ كانت تجدد المدينة بالإرادة الفردية غير المحدودة في أغلب الحالات، كما سيتبيّن فيما بعد. وبطبيعة الحال فإن حدوث كارثة، كحريق أو زلزال أو دمار ناتج عن الانحطاط أو الهجرة أو الإرادة الشخصية المسيطرة، كانت كفيلة بإحداث تغيرات جذريّة على جزء من المجموعة السكانية. وكمثال للحالة الأخيرة يمكن ذكر بناء مسجد جامع جديد في مدينة أشبيلية والتي كانت مزدحمة ازدحاماً كثيفاً سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م بسبب المساحة الضيقة للمسجد السابق المتروك للعبادة حتى هذا التاريخ. فأقيم المسجد الجديد على أراضي

بعض المنازل الواقعة في القصبة التي أُمِرَ بهدمها بغرض إقامة المسجد بدلاً منها مما أدى إلى تغيير مظهر وطبيعة المنطقة بأكملها[٣].

ويكاد يكون تطور المدينة بطيئاً، ويرجع السبب في هذا إلى المبادرة الخاصة في كثير من الأحيان. وكان هذا حماية للمصلحة الشخصية مهما كان ذلك مضراً بمصلحة المجتمع أو بمصلحة الملاك المجاورين. وبهذا الخصوص ذكر ابن خلدون مثالاً، فيما يبدو، للمدن الإسلامية الكبيرة في الغرب التي كانت مزدحمة ازدحاماً شديداً بكثافتها السكانية والتي كان على سكانها السهر للدفاع عن حقوق ملكية الأراضي التي تحتلها منازلهم والتمتع بالهواء الطلق، وكثيراً ما سبب الدفاع عن تلك الحقوق العديد من المشاجرات بين الجيران في رأي الكاتب المذكور. وكانت تلك المشاجرات تدور حول حقوق الاستعمال والمرور بالشوارع الضيقة، وحول استعمال المجاري لتصريف مياه المساكن وحول ارتفاع الأسوار المبنية، والتلف الذي يطرأ عليها؛ كل هذا كان يُعَرِّض الاستقرار للخطر، وكذلك تقسيم منزل ما بين مالكين. وكان يحل كل تلك القضايا «البارعون» في البناء (الأمين AMIN أو العريف ARIF أو بمعنى آخر النقابي) طبقاً لخبرتهم الفنية[٤]. وطبقاً لما أورده الماوردي (المتوفى ببغداد عام ١٠٥٨م عن عمر يناهز الـ ٨٦ سنة) فقد اعتاد مسلمو الشرق أن يعطوا الحرية الكاملة لمن أراد أن يقوم بمشروع جديد أو ترميم مبنى من المباني بما في ذلك القيام بأعمال الأروقة الخارجية أو الساباطات المسقوفة ومخارج لمياه الصرف مع اشتراط عدم الإضرار بالمشاة وبالملاك المباشرين[٥]. والسبب في تلك الحرية يرجع إلى أن تلك الأمور كلها كانت تخضع مباشرة للتقاليد وليس للقوانين أو للتعليمات الرسمية. وفيما يتعلق باغتصاب الأفراد للملكية العامة، فإن الشريعة

والعادات كانت متسامحــة إلى حد بعيد. وكل ما كان يرتبط بالشوارع وبالطرق العامة فكان يتعلق أكثر بالملكيــة الخاصة عنه بالملكية العامة[٦]. وبما أن الإسلام لم يعرف نظام البلدية كإطار مـستقل لحياة المدينة فإنه يعـوض عن ذلك بتعيين موظف قدير من أفراد الشرطة بأمر القاضي كـتابع ومساعدٍ له. ومثلما كانت الوظيفة الأســاسية للأخيـر هي الإشراف على الأمور الدينية فكان عليــه السهر لمنع التـعـسف في شتى أوجــه الحـياة المـذكورة في المدينة. وكـان يتـبع ذلك الموظف، في الغـرب، على الأقل الأمينُ أو العـريف. وهذا الشـرطي سُـمي «صاحب السوق» في الأندلس أيام حكم الأمويين وفي فترة ملوك الطوائف[٧]. وسُمي فيما بعد بالمحتسِب. وبانضمامه فيما بعد إلى نظم البلدية احتفظ باسمه المتحول إلى اللغة الرومانسية وهو «الموتاثين» ALMUTACEN، ومن العجيب أن هذا الاسم ظل مستعملاً في كثير من المدن الأسبانية المسيحية حتى القرن الثامن عشر[٨]. وفي المغرب مازال هذا الموظف يقوم بواجباته التقليدية.

وكان المحتسب مراقبــاً مكلَّفاً بالإشراف على السلوك العام المادي والأخلاقي لأهل المدينة؛ ويستَمِدُّ سلطته من واجبه الديني وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن واجبــاته مراقــبة وتطبيق المبــادئ والواجبــات الدينية[٩] والعادات والتقــاليد الخاصة بالواجب العــام. كما كان مـراقباً في الوقت نفســه للعادات العامة وعلى المحافظة على الأمانة التجارية في صــفقات التجار وأصحاب المهن اليدوية، والتحقق من موازينهم ومقاييــسهم، ومعاقبة مَن يرتكب أعمال الغش منهم؛ والتــأكد من نوعــية المنتــجات الصناعــية والبـضائع المعــروضة للبــيع؛ والإشراف على قــيام الموظفين بواجــباتهم، والحـفاظ على النظام والنـظافة في الأسواق والأماكن العــامة؛ وأحياناً كان يحــدد السعر العادل للمــواد الغذائية،

وكان يحصل على بعض الحقوق المالية.

وفيما يتعلق بالأمور المدنية والمباني فكان على المحتسب فقط أن يُلْزِم أصحاب المباني الخربة أن يزيلوها تجنباً لحدوث كوارث تصيب المارة بالشارع. وعندما يتحدث الماوردي عن الشرق الإسلامي وعن المحتسب فإنه يقول إن من واجباته أيضاً التدخلَ في بناء الأسوار والمباني العامة؛ ويتدخل أيضاً في المشاجرات الخاصة بارتفاع أبنية الجيران وفي بعض الحقوق والتقاليد الشائعة كوضع الدعائم أو الروافد على حائط الجار؛ وكذلك منع انتشار جذور وفروع الشجر خارج الملكية الخاصة؛ كان أيضاً يمنع إقامة مبانٍ على الطريق العام وامتداد طنف الأسطح والساباطات؛ وكان يراقب مواسير المياه النقية ومياه الصرف[١٠].

ويؤكد الماوردي أيضا بأن المبنى الواقع على شارع أو على طريق عام كان يأمر بتدميره مهما كان حجمه حتى ولو كان المبنى مسجداً[١١]. والهيئة التي ينتمي إليها المحتسب ـ شرطة العادات والتقاليد وشرطة الأسواق ـ وتتبعها وظيفته، كانت تسمى «بالحِسْبة». وكانت من أهم المؤسسات في الحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي[١٢]. وهناك عدة كتب منهجية عن الحسبة تعرف بـ (فادميكم VADEMECUM) أو الكتب التي تتحدث عن المحتسب الكامل وهدفها الأساسي تسهيل ممارسة المحتسب لمهمته كما تُحذره من التدليس والتعسف. وهي تتناول بالتفصيل مهامه الخاصة بالممنوعات المحددة بصورة أوضح في الإسلام في الغرب أكثر منها في الشرق[١٣] حيث إن مجال عملها كان أوسع في الأول عنه في الثاني. وأقدم الكتب الغربية في هذا الشأن هو كتاب «**أحكام السوق**» للكاتب يحيى بن عمر الأندلسي (المتوفى سنة ٢٨٩هـ ـ ٩٠١م) الذي

قضى طفولته في مدينة قرطبة؛ ثم أقام في الشرق وأخيراً استقر في أفريقية؛ ويبدو أنه زار أسبانيا عدة مرات. ويعرض يحيى بن عمر في كتابه المميزات الخاصة لصاحب السوق عندما يتناول المواضيع الخاصة بالتنظيم العمراني للمدينة، ونظافة شوارعها، وفتح أبواب في حاراتها، والإشراف على سك النقود وعلى الأوزان والمقاييس، وعلى الضرائب والاحتكارات، ومطاردة المزيفين، كما أنه يهتم أيضاً بالجانب الجمالي للمدينة. ومن المرجح أن الحياة في أسبانيا الإسلامية لم تكن تختلف كثيراً عن مثيلتها في أفريقية؛ كما يجب أن نذكر أيضاً أن نشأة المؤلف كانت مختلطة بين الدولتين(١٤). وقد كتب ابن عَبدون والسَّقَطي في أشبيلية ومالقة نحو سنة ١١٠٠م رسالتين علميتين عن الحسبة تناولا فيهما شتى واجبات المحتسب بالتفاصيل. ولم تذكر الرسالتان شيئًا خاصاً عن تصميم الشوارع وعرضها ولا عن ارتفاع المباني. ويقول ابن عبدون عن أشبيلية في السنوات الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي إنه كان يجب على كل ساكن في المدينة القيام بردم الحفر الموجودة في الشارع الواقع أمام منزله، وكذلك بالنسبة إلى قنوات مياه الصرف التي يجب ألا تفيض في قارعة الطريق فترة الصيف. ويحافظ المحتسب على عدم إلقاء القمامة والقاذورات في طرق البلدة. كما يجب عليه منع إقامة المباني في الأماكن التي يستخرج منها الحصى والرمل وذلك لأنها للمنفعة العامة. ويذكر المؤلفان أيضاً واجب أصحاب المنازل الخربة بأن عليهم هدمها لخطورتها على المارة وأن يدمروا أيضا المنشآت المبنية عنوة في المقابر الواقعة خارج الأسوار بجوار أبواب المدينة والتي بنيت عند ازدياد عدد السكان، وتناول المؤلفان شروط بناء الأسوار والشروط الواجب توافرها في المواد الداخلة في بنائها(١٥).

ومن وظائف المحتسب الاهتمام بكل الأمور المتعددة السابق ذكرها طالما أنها ليست مادة نزاع، وفي هذه الحالة كان يتدخل القاضي الذي يتبع له المحتسب. وكما قيل، فإن مهمة المحتسب كانت في بادئ الأمر مهمة دينية بحتة، وهي أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. لكنه دون أن يُغْفَل ذلك الدور اتجه نشاط المحتسب تدريجيًا إلى حالات الغش والتدليس التجاري وبين أصحاب المهن وإلى النظر في الأعمال الجنائية وأصبح تعيينه يتم من قبل السلطة المدنية بدلاً من السلطة الدينية، فتحول المنصب الديني للمحتسب إلى منصب سياسي(١٦). ويذكر الخُشَنِي ضمن قصصه الغريبة في كتابه «**تاريخ قضاة قرطبة**» بعض النزاعات حول المباني في المدينة.

وفي عهد عبدالرحمن الأول رُفعت دعوى خاصة بسارية جدارية أقامها رجلٌ من أهل قرطبة بغرض استعمالها كمسند للسور المجاور لمالك آخر. وقد أصدر القاضي أبوالزَّهْرِية حكماً ضد الأول مبيناً فيه أن إزالة السارية تضر بالسور. وقد حل القاضي سليمان بن الأسود نزاعًا خاصًا بفرن من الأفران، كان صاحبه قد بناه بطريقة تجعله يُزعج الجيران بدخانه؛ وكان رأي ابن قاسم هو أنه كان يجب ألا يصدر الأمر ببناء الفرن ولكن القاضي قرر تركيب أنبوبة بالجزء الأعلى منه، كما كانت العادة بالشرق، بغرض تصريف الدخان من الناحية العليا دون أن يتسبب في إزعاج سكان المنازل المجاورة(١٧).

ومن المحتمل أنه قد كانت في مدن أسبانيا الإسلامية، على غرار مدينة فاس في أواخر القرن الرابع عشر الميلاد، أوقاف مخصصة لتمويل بعض الخدمات المدنية مثل إزالة القمامة وإضاءة المدينة القديمة(١٨).

وحتى سنة ٨٨٢ هـ - ١٤٧٧م لم تفكر إدارة القاهرة في توسيع الشوارع

والحارات وهو إصلاح قليل الأهمية، فقد نُفّذ هذا المشروع خلال سنة واحدة فقد أُرْغم أصحاب المنازل على إصلاح واجهاتها تحت إشراف مراقب، وقاموا أيضا بتنظيف مداخل المساجد ورخامها ودهان الأسوار(١٩). وفي العصر نفسه على الطرف الآخر للبحر الأبيض المتوسط قام الملكان الكاثوليكيان بإصدار أوامر بتقويم شوارع مدن الأندلس الملتوية والضيقة التي مازالت تحتفظ بملامحها الإسلامية. كما أمرا أيضاً بتدمير الشماسي AJIMECES (الشرفات المعلقة) المغلقة مع المشربيات المصنوعة من الخشب التي كانت تجعلها رطبة مظللة(٢٠). ولعله من غير الجدير أن نتعمق كثيراً في إظهار غياب الأنظمة واللوائح الخاصة بتنظيم وتطوير المدينة الإسلامية قد أدى إلى ترك تلك المهمة تعتمد على المعايير الشخصية وفي كثير من الأحيان على إهمال وتحكم موظف ما.

(1) La inferioridad de la vida urbana en el Oriente medieval resalta con mayor claridad al compararla con el desarrollo de la municipal de estos países en la Antigüedad. En los fueros municipales de las villas españolas de los siglos XII y XIII, no estudiados en este aspecto, comienzan a apuntar disposiciones sobre la altura de las casas, el material de sus cubiertas, la propiedad de los muros comunes o medianeros, las letrinas, el tamaño de ladrillos y tejas, etc.

(2) Gustav E. von Grunebaum, **Die islamische Stadt,** pp. 138-153, obra en la que se define la ciudad islámica por oposición a la helenística que la precedió en múltiples ocasiones.

(3) Ibn Sāḥib al-Sa'ā, **Al-mann Ḡil-imama,** p. 474-87/trad. 195-204; este texto había sido aprovechado por M. Antuña, **Sevilla,** pp. 100-110. El Sr. Hussain Monés **La división político-administrativa de la España musulmana,** p. 99, menciona como existente en la España musulmana y nacido en ella un consejo de la ciudad —**mašyajat al-balad**— sobre el que convendría conocer más amplia información.

(4) Ibn Jaldūn, **Prolégomènes,** II, pp. 374-375.

(5) Abū-l-Hasan 'Alī al-Māwardi, **Les statuts gouvernamentaux ou règles de droit public et administratif,** p. 551.

(6) Brunschvig, **Urbanisme médieval,** pp. 131-132.

(7) Romanceado en las formas **zabazan** y **zabazoque** en el Fuero de León de 1020 (Muñoz y Romero, **Colección fueros,** 69).

(8) Aunque se han publicado en fecha reciente estudios sobre la función del Almotacén en varias ciudades españolas, aún no hay ninguno de conjunto para toda la España mudéjar, ni se han comparado sus funciones con las de su antecesor islámico. Para todo lo referente a dicho funcionario cf. P. Chalmeta Gendron, **Estudio sobre la hisbat al sūq en al-Andalus.**

(9) Entre ellos, la abstención del vino, y de la comida, a ciertas horas del día, durante el mes de Ramadán.

(10) Abū-l-Hasan 'Alī al-Māwardī, **Kitāb al-Aḥkām al sulṭānīya,** ed. Būlaq. p. 227 y figs. y **Les status gouvernementaux ou règles de droit public et administratif,** trad. Fagnan, cap. XX, pp. 514-551; Julián Ribera y Tarragó, **Orígenes del justicia de Aragón,** pp. 71-76. Acerca de las atribuciones del **muḥtasib** en Oriente, a más de la obra citada, pueden verse: Reuben Lévy. The **Ma'ālim al-qurba fiahkām al-ḥisba;** R. Brunschvig, **Urbanisme médieval et droit musulman** (Rev. Etudes Islamiques, 1947, pp. 127-145), y E. Asthor-Straus, **L'administration urbaine en Syrie médiévale,** pp. 81-83. Aunque se refiere al Magrib central y oriental —la vida social de esas comarcas, en este aspecto, sería semejante a la de al-Andalus— es útil la consulta, sobre todo respecto a los fraudes de los comerciantes, parecidos por todas partes, del artículo de M. Talbi, **Quelques données sur la vie sociale en Occident musulmane d'aprés un Traité de ḥisba du XV siècle,** pp. 294-306. Las funciones del almotacén en las villas cristianas de la Península no han sido estudiadas en conjunto; principalmente se ocupaba de la vigilancia de las pesas y medidas y, según Ribera, en que no se estrecharan las calles, ni se empeorasen, ni se depositaran en ellas suciedades y estiércoles, sobre todo en los lugares del recinto amurallado; también entendía sumariamente y sin escritos, de las causas de obras, puertas, ventanas, aspilleras, estelicidios y paredes medianeras de calles y otras cosas semejantes, y mandaba derruir las obras hechas contra las disposiciones forales, imponiendo además la multa de sesenta sueldos (Ribera, **Orígenes del Justicia,** pp. 71-76). Sobre las atribuciones y función del almotacén cristiano, cf. P. Chalmeta, **Estudio...,** pp. 173-244, y **La figura del almotacén en los Fueros hispánicos y su semejanza con el zabazoque hispano musulmán.**

(11) Māwardī, **Les status gouvernementaux ou régles de droit public et administratif,** trad. Fagnan, p. 551.

(12) **Ency. Isl.,** II, p. 336; v. supra nota 7.

(13 **Un manuel hispanique de ḥisba: Traité d'Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. Abī Muḥammad as-Sakatī de Málaga sur la surveillance des corporations et la répression des fraudes en Espagne musulmane,** p. 5. Trad. Chalmeta, P., **El «Libro del buen gobierno del zoco» de al-Saqaṭī.**

(14) Maḥmūd 'Ali Makki, **El libro «Ahkām al-sūq» (Leyes del mercado),** de Yaḥyā Ibn 'Umar al-Andalusī, en Revista de Estudios Islámicos, vol. IV, 1956, pp. 140-144. (Trad. García Gómez, E., **Unas «ordenanzas del zoco» del s. IX,** pp. 253-316).

(15) G. S. Colin y E. Lévi-Provençal, **Un manuel hispanique de ḥisba,** e Ibn 'Abdūn, **Sevilla,**

(16) Como es natural, las obligaciones del **muhtasib** variaban en detalle de uno a otro lugar y se modificaron al correr del tiempo (Ibn Jaldūn, **Prolégomènes,** I, pp. 458-460; Colin y Lévi-Provençal, **Un manuel hispanique de hisba,** p. a).

(17) Ribera, **Jueces de Córdoba,** trad., pp. 46, 138 y 169-170.

(18) E. Lévi-Provençal, **Les villes et les institutions urbaines,** p. 86. Sobre la importancia y cuantía de estos bienes de mano muerta, cf. Villanueva Rico, C., **Habices de las Mezquitas de la ciudad de Granada y sus alquerías.**

(19) Hautecoeur y Wiet, **Les mosquées du Caire,** I, p. 110.

(20) Véase **infra** «Evolución de la calle en los siglos XV y XVI».

# الفصل السابع
# عدد المدن وأهميتها

**المدن حتى سقوط الخلافة القرطبية.**

تطرق علماء جغرافيا ومؤرخون ورحالة مسلمون إلى عدد مدن الأندلس؛ فذكر البعض أهميتها الكبرى أو الدنيا مبيناً في الوقت نفسه ما إذا كانت المدينة قديمة أو حديثة من حيث المنشأ. وتوجد أخبار قريبة من تاريخ فتح سبع مدن تقع في قطر صغير من أقطار شبه الجزيرة الإيبيرية وتُذْكر تلك المدن في المعاهدة السلمية المبرمة سنة ٩٤هـ - ٧١٣م بين موسى بن نصير و«تُدْمِير» TE-ODOMIRO عندما قام هذا بتسليمها لموسى، وتلك المدن هي: «أورِيُولة» OR-IHUELA و«بالتانا» BALTANA و«لقنت» ALICANTE و«مُولا» MULA و«فيلينا» VILLENA و«لورقه» LORCA و«إلّيو» ELLO[1].

ولا توجد أخبار تاريخية عن مدن الأندلس في القرن الثامن الميلادي؛ كما لم نتمكن بسهولة من تتبع سير تطور العاصمة قرطبة في القرنين اللاحقين. وفي القرن التاسع الميلادي، في أثناء الحكم السلمي للأمير عبدالرحمن الثاني من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨هـ (٨٢١ إلى ٨٥٢ م) نجح إلى درجة كبيرة تأثير البلاط العباسي المتميز في بغداد على البلاط القرطبي بعد ارتباط هذا الأخير سياسيًا مع مدينة «القسطنطينية»[2]. وقد ظهر في عهد ذلك الحاكم ترف مفرط، فقد عُني بتجميل قصره وأقام بقرطبة دارا للسِّكَّة CECA؛ واستقدم من مدينة بغداد ومن المدن المشرقية الأخرى سجاجيد وجواهر ثمينة بالإضافة إلى

أشياءَ أخرى نفيسة ونادرة[٣]. وارتفع عدد السكان في قرطبة بعد إقبال الناس عليها من مختلف البلدان حتى أصبح جامعها الذي بناه عبدالرحمن الأول غير كاف لاستيعاب المصلين، مما جعل الكثير منهم يتركون صلاة الجمعة فيه[٤]. ووجد الأمير نفسه مضطراً إلى توسعته.

ومما ذكره الفارسي ابن خرداذبة في كتابه «**المسالك والممالك**» الذي كُتب بين السنوات ٢٣٢ و٢٧٢ هـ ـ ٨٤٦/٨٤٧ إلى ٨٨٥/٨٨٦ م أنه كان بالأندلس ٤٠ مدينة بما فيها «ناربونة» NARBONA[٥]. ويذكر اليعقوبي ـ الرجل المشرقي الذي أقام بالمغرب سنة ٨٨٠ م وكتب مؤلفه «**كتاب البلدان**» سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١ م ـ عدةَ مدن في شبه الجزيرة الإيبيرية ويصف مدينة طليطلة ومدينة سرقسطة بأنهما مدينتان كبيرتان[٦]. وبعد سنوات قليلة أي في عام ٢٩٠هـ ـ ٩٠٢م تقريباً يكرر الهَمْداني في كتاب آخر بالعنوان نفسه الحديثَ عن المدن الأربعين مستعملاً التعبيرات ذاتها التي استعملها ابن خرداذبة[٧].

وقد امتدح علماءُ جغرافيا ورحالةُ عدد المدن الأندلسية وأهميتها في القرن العاشر الميلادي وأشادوا بازدهارها الاقتصادي. وفي النصف الأول من ذلك القرن تحت حكم عبدالرحمن الثالث كتب عالم الجغرافيا الإصطخري كتابه «**المسالك والممالك**» والذي يؤكد فيه على وجود العديد من المدن الواسعة المزدحمة بأسبانيا الإسلامية. وقد ذكر منها ١٨ مدينة سبقت فترة الفتح الإسلامي باستثناء مدينة بجانة PECHINA المقامة على حدود منطقة معروفة باسم «إلبيرة» ILBIRA؛ وكانت مدينة قرطبة هي المدينة الكبرى[٨].

وتمدنا ترجمات مشوهة لمؤلفات الأسباني الرازي (الذي توفي ربما سنة ٣٤٤هـ - ٩٥٥م) محتفَظ بها حتى اليوم ـ منها ترجمة إلى اللغة البرتغالية قام

بترجمتهـا قس معروف باسم «خيل بِرِثْ» GIL PEREZ وذلك بمساعدة مترجم مسلم انتهى من مهمته قبل سنة ١٣١٦م تقريباً وثلاث نسخ منها مترجمة باللغة الأسبانية ـ بمعلومات قيمة أكثر تفصيلاً عن التي ذكرها آنفاً حول المدن الأسبانية الإسلاميـة، كما أنّ لها أهمية بالغـة في دراستها؛ وتستـحق أن تكون موضوع بحث دقيق ناقد. من خـلال تلك التراجم غير المنتظـمة نعرف الأهـمية والثراء الذي كانت تتمتع به مدن الأندلس في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي وازدهار الزراعة والصناعـة ومنتجاتهـا التي كانت تصـدر إلى أقصى بلدان في الشرق. لقد كـان في شبه الجزيرة «مدن قوية قـيمة بها عدد كـبيـر من الرجال الذين يستغلون الأرض الخصبة»؛ كما كان بهـا كثير من «المدن الصغيرة الطيبة» وعددهـا ست وثلاثون مدينة كـما يشـير إلى ذلك الرازي؛ منهـا ماهي قـديمة واحتفظت بآثار مـاضيها، كطليطلة، ومنها مـا كانت تستقبل السفن الضـخمة كأشـبيلية؛ وكـان ميناء طـرطوشـة TORTOSA كثـير الحركة لاسـتقبال التـجار القادمين من شتى أنحاء العالم؛ أما مـيناء المريّة فكان ترسانة للمراكب الكبيرة. وفي قرطبة كـان يضرب الدينار الذهبي الخالص وقطع قيمة من الـفضة. وكان القطن يصدر من أشبيلية إلى «. . البلدان الأخرى عبر البحر. . » وكذلك الزيت من «المشرف» ALJARAFE «يُصدر بواسطة السـفن المبحرة من المنطقة الشـرقية» و«إلى شتى أنحـاء العالم» كان التجار يصـدرون الزعفران من مدينة بـلنسية؛ ومن مدينة المعدن ALMADEN كان يصدر الزئبق؛ ومن مـدينة طرطوشة تصدر شجرة البقس ومنتجات أخرى. وكان الحرير متوفراً في أسبانيا حيث يتم نسجه بقرطـبة ويطرز بخـيوط من الذهب في مـدينة المريّة ومدن أخـرى كسرقـسطة والمنكّب ALMUNECAR، وتصنع السـجـاجيـد في مـدينة «بيّاسـة» BAEZA. وبالإضافة إلى هذه المنتجات يذكر الرازي أيضاً منتـجات زراعية أخرى في شبه

الجزيرة الإيبيرية؛ منها: الزعفران في طليطلة وبلنسية، والقرطم في مدينة «لَبْلة»NIEBLA؛ وقصب السكر في «أشبيلية» و«إلبيرة» و«المنكَّب»؛ والتين في مدينة «مالقة»؛ والكتان والعسل والشمع، إلخ. ، في أماكن مختلفة. كما كان في الأندلس مناجم للذهب والفضة والزئبق والرصاص والنحاس والحديد؛ وكان فيها محاجر للرخام الأبيض في مدينة «فريش» وفي منطقة «إلبيرة»، وكان هذا الأخير يستخدم في نقش المنحوتات(٩).

وهناك أيضاً مصدر آخر مباشر وهو كتاب ابن حوقل من بغداد. فبعد زيارته للأندلس في سنة ٣٤٠هـ - ٩٥١م تقريباً لأغراض تجارية ولكنه كان مرسلاً، في اعتقاد «دوزي» DOZY، للتجسس لحساب الفاطميين، وكتب كتاب «**المسالك والممالك**» فيما يبدو في تاريخ يلي سنة ٣٦٧هـ - ٩٧٧م، وأقام عدة أيام في قرطبة المدينة التي ليس لها مثيل في المغرب في اعتقاده حتى ادعى بعض أهلها أنها تكاد تكون مشابهة لبغداد أو صنوها. وفي كتابه ذكر عدداً من المدن التي تمتاز بوفرة محاصيلها وتجارتها وزراعتها وحقول العنب فيها وبأسواقها وينابيعها وحماماتها ومحلاتها التجارية ومساجدها الرائعة. وكانت تصدر منتجاتها بكميات غزيرة، وخاصة الرقيق، إلى مصر وإلى المغرب. وفي دار السكة بقرطبة كان يضرب ٢٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً(١٠). وعندما يصف ابن حوقل شمال أفريقية يذكر السفن القادمة من الشواطئ الأسبانية المتجهة إلى «طبيرة» TABARCA؛ وكانت التجارة مزدهرة بين مدينة «تينس» وشبه الجزيرة الإيبيرية؛ كما كانت البواخر الأندلسية تصل إلى مدينة وهران محمَّلة بالبضائع وكانت تعود مشحونة بالقمح؛ وقد استعانت تلك السفن ببحيرة «أريج» ARIEG ميناءً لها في البحر الأبيض المتوسط وقريبة من مدينة «البصرة»(١١).

وكان المقدسي تاجراً شرقياً لم يُقِم بالغرب، وهو مؤلف كتاب «**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**» وانتهى من تأليفه، حسب ياقوت، سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م (ومن المحتمل أنه أكمله في تاريخ لاحق لأنه يسجل فيه أخباراً وقعت بعد التاريخ المذكور)، يشير هذا المؤلف إلى العدد الهائل من التجار والرحّالة الذين يذهبون إلى الأندلس، ويمتدح مهارة سكانها في صنع الورق، ويذكر أنها كانت تصدر إلى مصر العبيد بالإضافة إلى كميات كبيرة من الأسلحة والأقمشة وأشياء أخرى نادرة وخاصة[١٢].

وفيما يتعلق بالتوسيعات التي أجريت لمدينة قرطبة خلال الحكم الزاهر لعبدالرحمن الثالث فإن هناك مراجع متوفرة خاصة بها، بينما تشح المعلومات عن بقية المدن في شبه الجزيرة الإيبيرية.

وقد اقتضى ازدياد سكان قرطبة توسيع مسجدها الجامع في أثناء خلافة الحكم الثاني. فعندما تولى الخلافة سنة ٣٥٠هـ ـ ٩٦١م بدأ في تنفيذ التوسعة؛ وانتهى الجزء الأكبر منها في عام ٣٥٥هـ ـ ٩٦٦م، بسخاء وفن مدهش. وقد اطَّرد ازدياد السكان في المدينة في السنوات اللاحقة بشكل سريع. واختلف إليها الناس من شتى أنحاء العالم، مسلمون قادمون من الشرق، وبربر قادمون للالتحاق بجيوش المنصور التي لا تغلب. وبسبب الهجرة المستمرة لشعوب البربر ارتفع عدد السكان في الأندلس بشكل ملموس وأضيفت أحياء جديدة إلى الأحياء السابقة، وكان عدد السكان الذين ليس لهم مساكن غير قليل حتى اضطروا أن يعسكروا في خيام نصبت لهم خارج أسوار المدينة[١٣]. ووسع الجامع للمرة الثالثة سنة ٣٧٧هـ ـ ٩٨٧/ ٩٨٨م[١٤]. وعلى الرغم من القحط والأوبئة والفيضانات المتكررة، فقد بلغت مدينة قرطبة قمة

عظمتهـا من حيث المساحة وعدد السكان في سنة ١٠٠٠م تقـريباً. وبعد ذلك بقليل بدأت في الانـحطاط السـريع عقب هـجوم الغـوغـاء من الشـعب على القصر. ثم سلبت مدينة الزاهرة في فـبراير سنة ٣٩٩هـ ـ ١٠٠٩م وحوصرت قرطبة من قـبل شعوب البربر لمدة تتجـاوز السنتين ـ من ٤٠١ ـ ٤٠٣هـ أواخر ١٠١٠ إلى مايو لسنة ١٠١٥م ـ. واختفى الطوق الأخـضر المكوَّن من القصور والمنيات التي كانت تحيط بها والتي صـوّر أطلالها الشاعر ابن زيدون في أبيات شـعرية مليـئـة بالحـزن سنة ٣٩٤ إلى ٤٦٣هـ ـ ١٠٠٣ إلى ١٠٧١م. وهكذا تحولت الأحـياء المدمَّرة بأكـملها إلى أراضٍ مهـجورة وبدأت الدائرة العمـرانية تضـيق رويداً رويداً حتى أصـبحت العـاصمـة القديمة للخـلافة ظلاً لمـاضيـها العجيب.

وكانت «المريّة» أحـد الأحيـاء البحرية لمديـنة «بجانة» PECHINA حتى سنة ٣٤٤ هـ ـ ٩٥٥/ ٩٥٦م عندما أمر عـبدالرحمن الثالث بتـسويرها، وربما أيضاً أمر في ببناء مـسجدٍ جامـع فيها وبذلك تحـول الحي إلى مدينة. ثم أقبل إليـها سكان بجانة التي كـانت بها ترسانة مهـمة وقاعدة أسطول تحت حكم الخـليفة الحكم الثاني فـأصبحت من بعـدُ الميناءَ الرئيس للأندلس حيث أصـبحت على اتصال مستمـر بالشواطئ الأفريقية الشمالية وبالجـزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. ومنذ ذلك العهد حتى تاريخ سـيادة المرابطين، فترة أوجها، ازدهرت ازدهارًا تدريجياً دون انقطاع[١٥].

**مدن ملوك الطوائف.**

يبـدو أن الاضطرابات التي سبـقت انحـلال الخلافـة في قرطبـة وتبعـتهـا والصراعات المستمرة خلال أعوام طويلة بالإضافـة إلى تقسيم أسبانيا الإسلامية

إلى ممالك طائفية متعددة قصيرة الأجل ذات بلاط صغير ازدهر في بعضها الشعر الرائع الخاص بالبلاط. كل ذلك قاد إلى انحطاط الحياة المدنيّة في هذه الممالك. ولكن لا تنطبق هذه الحالة إلاّ على مدينة قرطبة، كما قيل، على الرغم من غياب المعلومات التاريخية الدقيقة عن بقية مدن الخلافة فإذا كانت قد مرت تلك المدن بفترات انحطاط أو استقرار في نموها وتطورها المدني، فإن تلك الفترات لابد وأنها كانت قصيرة. وفيما يتعلق بالحياة الاقتصادية في عهد ملوك الطوائف فبإمكاننا أن نؤكد أن التنافس السائد بين الملوك الصغار والاضطرابات القوية التي تشكل حلقات تاريخها لم تتمكن من عرقلة حركة البضائع ومن انتشار التقاليع وتبادل الأفكار بين أطراف البلاد. وقد سادت قلة الاكتراث بالحدود السياسية والعسكرية لدى التجار الذين استمروا في ذهابهم إلى الأسواق بعدد متزايد؛ وكذلك لدى الأتقياء الذين لم ينقطعوا عن زيارات أماكن العبادة؛ ولدى الطلاب الذين واصلوا حضور الدروس التي يلقيها أشهر الأساتذة[١٦]. وقد قال كاتب إسلامي بعد فترة قليلة في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي: «إن الجنود مشغولون بحروبهم، بينما تستمر الشعوب في تجارتها بالطرق السلمية ولا يملك الدنيا إلاّ مَنْ يستطيع الاستحواذ عليها»[١٧].

ويذكر مؤرخون وأدباء كتبوا فيما بعد عن فترة ملوك الطوائف بالرغم من رفضهم لأساليبها عندما اقتضى الأمر ذلك فقط أنها كانت مزدهرة ازدهاراً بالغاً برخائها وبحياتها السهلة والبهيجة المليئة بالعديد من الاحتفالات[١٨]. ويلاحظ أن تكاثر بلاط الأمراء في القرن الحادي عشر الميلادي قد ساعد على توسيع المدينة وتطورها، ويتضح ذلك في أسوار مدن كل من غرناطة وميورقة والمريّة وطليطلة وسرقسطة وبلنسية ومالَقة، وهي ممالك تتبع لملوك الطوائف المحبين للشعر والفن وحماة للأدباء والشعراء[١٩].

ولنضرب مثالاً لإحدى تلك المدن وهي مدينة المريّة التي كانت العاصمة غير المركزية لإحدى الممالك الصغيرة. فلقد كانت ذات أرض قاحلة، وارتفع عدد سكانها في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي بعد أن وصل إليها الأهالي الفارّون من أماكن أخرى من أسبانيا الإسلامية بسبب الحرب الأهلية والاضطرابات التي قضت نهائياً على الخلافة في قرطبة. وقد استمرت التجارة البحرية في مينائها على البحر الأبيض المتوسط كما أمر حاكمها «زيران العامري» (من سنة ٤٠٣ إلى ٤١٩هـ/ ١٠١٢ إلى ١٠٢٨) ببناء سور من الطوب النيء لحماية الضاحية الجديدة «المصلَّى» الواقع شرق مركز المدينة الأصلية. ومن المعتقد أن ذلك الحاكم الصغير ذاته أو خليفته «زهيرًا» (٤١٩ إلى ٤٢٩هـ ـ ١٠٢٨ إلى ١٠٣٨م) قد قام ببناء سور الضاحية الأخرى الأصغر الواقعة غرب المدينة، وهي المعروفة «بضاحية الحوض» المجاورة للمرسى ولذلك توافرت فيها المؤسسات التجارية والصناعية. وقام زهير أيضًا بتوسيع المسجد الجامع فأضاف إليه رواقين بعد ازدياد عدد السكان في المدينة. وخلال حكم زهير والمعتصم، الحاكمين الأخيرين للطوائف، كانت الحياة في المرية مزدهرة وسعيدة كما يقول علماء تسلسل الحوادث التاريخية. وعلى حدِّ قول المقَّري كان يُوجد عندئذ في المدينة حوالي ٥٠٠٠ منسج؛ ومصانع لكل أنواع الأدوات من النحاس والحديد والزجاج؛ أما الفنادق والحمامات العامة فإنها قد بلغت أكثر من ألف، وكانت تصل إلى مراسيها بضائع من جنوة GENOVA وبيسا PISA ومصر وسوريا[٢٠].

وإنْ قلّت الأخبار والمعلومات التاريخية عن الازدهار الاقتصادي الذي عرفته الممالك الأخرى التي يمكن أن تكون الدليل القاطع على رقيّ مدنها، فإن

الأدلة المادية عن المدن الموجودة متوفرة ومنها الكنوز التي جمعها الأمراء، والقصور الفاخرة التي شيدوها والهبات الجزيلة التي بذلوها للكُتّاب المتملقين العاملين بالأجر لديهم، والضرائب المطردة التي يسددونها للملوك والمحاربين من النصارى نظير حمايتهم التي لن يتمكنوا بغيرها من الاستمرار في الوجود.

ولم ترتكز تلك الثروة لدى كبار الرجال والأهالي في المدن الأندلسية والشرقية ذات الوديان الخصبة التي تتمتع بموقع ممتاز صالح للتبادل التجاري، بل هناك شواهد معاصرة أو لاحقة تذكر الازدهار الباهر الذي بلغته مدينة «بربشتر» شمال أرجون ARAGON، وسرقسطة وتُطِيلة الواقعتان على حدود المنطقة العليا؛ وطليطلة الواقعة على حدود المنطقة الوسطى، ودانية التي تقع على الشاطئ الشرقي.

وهناك قصة لابن حيان يذكرها ابن بسام (المتوفى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) ويشير فيها إلى الغنيمة الضخمة التي أخذها النصارى عند استيلائهم على مدينة «بربشتر» سنة ٤٦٥هـ ـ ١٠٦٤م[٢١]. وقد بلغ ازدهار سرقسطة درجة عالية تحت حكم المنذر بن يحيى المنذر (سنة ٤٢٠ إلى ٤٣١هـ ـ ١٠٢٩ إلى ١٠٣٩م) والذي تغنى الشعراء ببلاطه العظيم. وكانت مناسبة زفاف «المستعين» ابن الملك المؤتمن (سنة ٤٧٤ إلى ٤٧٨هـ ـ ١٠٨١ إلى ١٠٨٥م) على ابنة وزير بلنسية أبي بكر بن عبدالعزيز مؤشرًا على هذا الازدهار. إذ اختلف إليها الكثير من الأهالي؛ وتتابعت الولائم دون انقطاع حتى آخر الليل وظهرت دلائل الثراء في كل مكان أثناء الاحتفال[٢٢]. ولما حاصر ألفونسو السادس سنة ١٠٨٦م سرقسطة قدّم أميرها أحمد بن يوسف المستعين مبالغ كبيرة من المال للملك القشتالي لرفع الحصار[٢٣].

وازدهرت طليطلة تحت حكم المأمـون (من سنة ٤٣٥ إلى ٤٦٧هـ - ١٠٤٣ إلى ١٠٧٥م ) ازدهارًا منقطع النظير. وكـانت قصورها الرائعة تبـرهن على ما وصلت إليه من رقـي وأناقة؛ فقـد احْتُفِلَ فـيها بمهـرجانات عظيـمة وصفـها المؤرخون بإعجاب[٢٤].

وما ذكر سالـفًا من دلائل الترف والرخاء كان مشـهودًا كذلك في بلاط بني الأفطس بمدينـة بَطَلْيَـوْس (من سنـة ٤٠٣ إلى ٤٨٧ هـ/ ١٠٢٢ إلى ١٠٩٤م) وكذلـك في بلاط المعتـمد بأشـبيليـة (من سنة ٤٦١ إلى ٤٨٤هـ ـ ١٠٦٩ إلى ١٠٩١م). وتـكثـر المراجـع التي تشـير إلى ثراء ملـك بلنسية «الـقادر» وثراء كبار رجال الأقاليم الشرقـية، ذلك الثراء الذي أدمى «السِّيد» CID في السنوات العشر الأخيرة من القرن الحادي عشر الميلادي والذي ينعكس في سياق القصيدة الآتية:

عندما انتصر «سيدي» على بلنسية ودخل المدينة،

فإن من سار على قدميه أصبح فارسًا نبيلاً،

من يستطيع أن يصف كمية الذهب والفضة؟!

لقد أضحى الجميع هناك أغنياء[٢٥].

وانسحب الزاوي، مؤسس الأسـرة الملكية البربرية في غرناطة، إلى أفـريقية سنة ٤١٦هـ ١٠٢٥م وبحوزته ثروة طائلة. وعندمـا قام يوسف المرابطي بانتزاع الحكم من عبدالله خليفة الزاوي سنة ٤٨٣ هـ ـ ١٠٩٠م عثـر في قصر القصبة القديمة بغـرناطة على ثروة كبيـرة، وصفهـا ابن الخطيب بدقة متناهيـة. ولسوء الحظ فُقِـد مؤلف البكري، العالـم الجغرافي الأندلسي، وهو كـتاب « **المسالك والممالك**» المكتوب سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧ـ ١٠٦٨م، الذي وصف فـيه الأندلس

ومدنها فـي عصر ملوك الطوائف. ولم يبق من هذا الكتاب إلاّ أجـزاء متناثرة حفظـت بشكل خاص في «**الروض المعطار**» للحِمْـيَـري.

**المدن إبان عهد المرابطين.**

كان ازدهار الحـضارة المدنية في الأندلس وتفننهـا مفاجأة لشـعوب المرابطين البربرية الذين أعجبوا برخائها، على عكس الفقر السائد في المغرب(٢٦). وليس هناك أخبار تاريخية ولا بوادر تشير إلى انحطاط الاقتـصاد في أسبانيا الإسلامية وفي مدنهـا عندما انتـقل الحكم إلى المرابطين. وقـد أشار ليفي بروفـنسال إلى التغيـير الطفيف الذي طرأ على حيـاتها الاقتصادية عـندما وقعت (المدن) تحت تأثير الملابسـات السياسيـة الجديدة(٢٧) في الفتـرة التي سبقت «العصـر الجديد والطويل الذي اتسم بالازدهار وبالرفـاهية» وهو عصـر «علي بن يوسف» (من سنة ٥٠٠/ ٥٣٧هـ ـ ١١٠٦/ ١١٤٣م)(٢٨).

والمؤلفـات الجغرافـية المعـروفة للإدريسي تؤكـد ازدهار الأندلس تحت حكم المرابطين، وهي كتاب «**القرطاس**» ودراستان «للحسبة»، أي شرطة المدينة، كتبتا في مدينتي أشـبيلية ومالَقـة في السنوات الأولى من القرن السادس الهـجري، وهما تؤكدان أيضاً ذلك الازدهار.

وهناك دليل آخـر يؤكد ازدهار الأندلس في عهـد المرابطين، وقد أشـار إليه منذ عـدة سنوات السيـد «فرانشـيسكو كـوديرا» FRANCISCO CODERA، وهو الإحكام الذي لوحظ في النظم النقـدية وجمال العمـلة المضروبة في دار السكة الأسبانيـة، وهذا الدليل علامة واضحة علـى الازدهار المادي. وفي أثناء سيادة المرابطين بُني سورٌ حول الربض القرطبي المعروف باسم "الشرقية" AJARQUIA ومدينة لبلة NIEBLA. وكذلك أقيـمت أسوار من الطوب حول مدينة أشـبيلية

بمساحة قدرها ١٨٧ هكتاراً، كما قاموا بتقوية أو توسيع أسوار مدينة غرناطة.

ويبحث الإدريسي في مؤلفاته عن تاريخ أسبانيا في أواخر أيام المرابطين بتفاؤل شديد؛ وقد كتب بعضًا منها على الأقل بين سنة ٥٤٢هـ ـ ١١٤٧م وهي السنة التي استولى فيها ألفونسو السابع على المرّية وسنة ٥٤٩هـ ـ ١١٥٤م عندما بدأ تسرب الموحدين داخل الأندلس. ويصف العالم الجغرافي السَّبْتي منطقة الأندلس قائلاً إنها غنية بالمناجم وبالمنتجات الزراعية، وتتوافر فيها الماشية والثروة السمكية، وإن التجارة والصناعة مزدهرة ازدهارًا عظيمًا حيث كانت تصدر منتجاتها إلى المغرب والإسكندرية وسورية والعراق وحتى إلى الهند.

ويقسم الإدريسي مدن الأندلس إلى مدن كبرى ومدن متوسطة ومدن صغرى، ولكنه لم يتحدث عن أهمية الكثير منها. وتأتي ضمن القسم الأول: طليطلة وأشبيلية والمريّة وبلنسية وسرقسطة ومايورقه وطلبيرة TALAVERA وترجاله TRUJILLO ويابُرة EVORA. وقرمونة CARMONA وقلسانة CAL-SENA. والمدن المتوسطة هي سُرتّة ZORITA، وأقليش UCLES و"وَبْذة" HUETE وشنتجالة CHINCHILLA والقصر (الكوثيردا سال) وسانتا ماريا دي الغربي S.M.DE ALGARBE والمنكب، ووادي آش GUADIX ولورقة LORCA وبريانة BURRIANA. وتأتي بين المدن الصغيرة لاردة LERIDA ودروقة DA-ROCA وقونكة CUENCA ومدريد وأُبَّذة وبريجو وطريف وماربلّة MAR-BELLA وجزيرة يابسة IBIZA[٢٩].

وحسب ما يورد كتاب **القرطاس** كانت أيامُ سيادة المرابطين أيامَ الرفاهية والراحة ورِخصِ البضائع الدائم والصحّة والسلام... وقد توفرت فيها الخيرات إبان حكمهم وازدهرت البلاد ازدهارًا مميزاً وعرفت النعمة والهناء»[٣٠].

وطبقاً لما ذكر في دراستَي «الحسبة» عن مدينتي «أشبيلية» و«مالقة» يتضح أنهما كانتا مدينتين مكتظتين، فيهما نشاط حيوي، وتتمتعان بنشاط مكثف في المجالين التجاري والصناعي[٣١]. وطبقًا لرأي الإدريسي، بالإضافة إلى دلائل أخرى الآثارية منها والمكتوبة، فإنه لم يَقِلّ نشاط مدينة المريّة، الميناء المرابطي للتجارة مع الشرق. ولكن عندما استولى عليها ألفونسو السابع سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م انقطع ازدهارها ولم تسترده حتى في السنوات العشر الواقعة بعد هذا التاريخ بعد عودتها إلى المسلمين، فبدأ يسود الانحطاط والدمار في بعض ضواحيها الأكثر سكاناً ونشاطاً وثراء[٣٢].

**المدن في أثناء عصر الموحدين.**

تُذْكَرُ مدينة إشبيلية ضمن المدن التي شهدت الازدهار وزيادة السكان في فترة سيادة الموحدين في الأندلس. وقد انتقل إليها النصيب الأكبر من سكان قرطبة في عصر ملوك الطوائف، ومن ثَمَّ أصبحت أكبر مدينة في الأندلس حسب قول ياقوت، وقد استمرت كذلك بعد احتلال المرابطين لها. وقد أصبح جامعها يغص بالمصلين يوم الجمعة، وقد ضاق المسجد فاضطر العديد منهم أن يؤدوا الصلاة خارجه، علما بأن الأماكن الخالية أصبحت تتناقص شيئاً فشيئًا. وقد أدى نقص الأماكن في داخل أسوار المدينة إلى إقامة المنازل داخل المقابر الواقعة خارج الأسوار، وضاقت المقابر أيضاً ولم تعد كافية لاستيعاب الموتى[٣٣]. ولقد بلغت أشبيلة أوجًا عالياً وأهمية بالغة، حتى إنها أصبحت أغنى مدينة في شبه الجزيرة وأكثرها سكاناً إبان نصف القرن الطويل لسيادة الموحدين. وشهدت الأندلس خلال تلك الفترة الهدوء والسلام. وقد وصف مؤرخ معاصر عن توسُّع العاصمة الأندلسية في أواخر القرن الثاني عشر

الميـلادي وبالأخص في أثناء حـكم أبي يعـقـوب يوسف (٥٥٨ إلى ٥٨٠هـ ـ ١١٦٣ إلى ١١٨٤م) وأبي يوسف يعقـوب المنصور (٥٨٠ إلى ٥٩٥هـ ـ ١١٨٤ إلى ١١٩٨م) الذي انتصر في معركة «الأرَك». والمؤسس لأعمال مدنيّة ضخمة. كان عـدد سكان أشبيليـة في ازدياد، وانضمت إليهم فـرق من جنود الموحدين القادمة من أفـريقية للاشتراك في الجـهاد. وامتلأت الأسوق بالتـجار الذين كان معظمـهم يبيعون بضـائعهم في الهواء الطلق؛ أمـا القيصريات وأسـواق الغلال فكانت تكتظ دائماً بالناس. ونظراً لضيق مساحة المسجد الجامع الآنف الذكر في فترة المرابطين، فقد أمر الحاكم ببناء مسجد آخـر مثيل لمسجد قرطبة في حجمه، وكان ذا منارة ضخمة عرفت باسم «لاخيرالدا» LA GIRALDA "الخالدة"[٣٤].

وامـتدت بعض ضـواحي المدينة إلى خـارج أسوارها. فـفي سنة ٥٩٣هـ ـ ١١٩٧م وصل إلى أشبـيلية عـدد ضخم من الجنود للاشـتراك في حـملة ضد النصارى، فضاقت بهم المدينة وصارت غير قادرة على استيعابهم وتموينهم بالمواد الغذائية[٣٥]. وقد ذكر الشقـندي أن أشبيلية كانت من أكـثر الـمـدن الأسـبانية المسلمة سكـاناً، وتعـد من أكبر عواصـمها[٣٦]. وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي كانت تقام الاحـتفالات بسبب الرخـاء والأمن العام بفضل ثرواتها وكثرة أموالها وللكميات الغزيرة من المؤونة، حسب ما ذكر مؤرخ عاشَر الحكام الموحدين. وكانت المديـنة حينئذ عاصمـة التمتع بالحرية والحيـاة الناعمة وراحة البال والجمال والصخب[٣٧]. ولكن انحطاطها كان سريعًا على أثر هزيمة (العُقـاب) لاس ناباس LAS NAVAS (سنة ١٢١٢م) وبعـد الهزيمة المحليـة في «طَلْياطة» TEJADA (٦٢٢هـ ـ ١٢٢٥م) التي هلك فيـها أغلب أهالي أشبـيلية ومعظمهم من التجار، وقد وقعت المعركة على بعد ٤٠ كيلاً من المديـنة وذلك

عندما هاجمتها الجيوش البرتغالية القادمة من «الغرب». وأسفرت الهزيمة عن خسارة كبيرة في عدد السكان ـ ويقال إن عدد الذين هلكوا بلغ عشرة آلاف ـ وأصبحت المساجد والأسواق في العاصمة الموحّدية مهجورة، وتكررت تلك الحادثة في مُرسية على إثر كارثة عسكرية أخرى[٣٨].

وقد نظم الكاتب القرطبي «الشقندي» (المتوفى بأشبيلية سنة ٦٢٩هـ ـ ١٢٣١/ ١٢٣٢م)[٣٩] قصائد رثاء لبعض المدن الأندلسية في نهاية العصر الموحدي، منها أشبيلية وقرطبة وجيان وغرناطة ومالقة والمريّة ومرسية وبلنسية وميورقة. وفي التاريخ نفسه تقريباً كتب ياقوت في الشرق معجماً جغرافياً واسعاً ودقيقاً عرف باسم «**معجم البلدان**» وانتهى من تلك المهمة سنة ٦٢١هـ ـ ١٢٢٤م. ولا يخلو الكتاب من الأخبار الشيقة عن مدن الأندلس[٤٠]. ولقد ساعد انحطاط دولة الموحدين بعد معركة العقاب (لاس ناباس) وبروز الممالك النصرانية في شبه الجزيرة كثيراً على انتقال سيادة أهم المدن الإسلامية إلى أيدي النصارى في السنوات اللاحقة للمعركة. فقد استولى خايمي الأول على ميورقة في الأيام الأخيرة من سنة ١٢٢٩م، ومدينة بلنسية سنة ١٢٣٨م؛ أما فرناندو الأول فقد استولى على مدينة قرطبة سنة ١٢٣٦م وعلى «جيّان» سنة ١٢٤٦م وعلى أشبيلية سنة ١٢٤٨م بعد حصار طويل استغرق خمسة عشر شهراً مما يبيّن قوة أسوارها على الرغم من حركات التمرد المستمرة ومن تغير الحكام خلال السنوات السابقة.

وفي سنة ١٢٤٣م انضمت إلى قشتالة مملكة مرسية التابعة لها في الفرض الضريبي؛ وعندما تمرد العرب المقيمون بها قام دون خايمي JAIME الأول بتسليم هذه المدينة لهم بعد حصارها سنة ١٢٦٦م.

**مدن مملكة غرناطة.**

منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي لم يبق تحت سيادة المسلمين في شبه الجزيرة الإيبرية إلا مملكة «غرناطة». وقد بدأ توسع غرناطة في القرن الحادي عشر الميلادي تحت سيادة الأسرة «الزيرية» ثم التحق بها أهالي مدينة إلبيرة المجاورة لها التي دُمِّرت سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م. أمّا تحت حكم المرابطين فقد صارت المدينة مقرًا للحكومة التابعة للعائلة الحاكمة. وعلى ما يبدو فإن أهميتها استمرت في عهد الموحدين. وبعد أن قام بنو الأحمر بالسيطرة عليها وبتحويلها عاصمة للمملكة الناصرية بدأ عدد سكان المدينة في الازدياد عبر المسلمين المهاجرين القادمين من المدن التي احتلها الأمراء النصارى. وقد ورد في كتاب **تاريخ دون خايمي** الفاتح والذي يبدو أنه من تأليف الملك ذاته أن بعض عرب مدينة بلنسية غادروا المدينة وذهبوا إلى غرناطة بعد الاستيلاء عليها سنة ١٢٣٨م[٤١].

ولعل السبب في ازدياد عدد السكان والرخاء المستمر في أواخر القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين هو الصراعات الداخلية التي دارت في مملكة قشتالة بالإضافة إلى عدة سنوات من الاستقرار. ومن ثم توسعت المدينة ونشأت أحياء جديدة فيها. ومن المحتمل أن سور الربض الشمالي الذي يطلق عليه اسم «نجد» NAJD قد بني في فترة حكم محمد الثاني (من سنة ٦٧١/٧٠١هـ - ١٢٧٣/١٣٠٢م) ذلك لأنه وجد نقش اسم هذا الأمير على زليج الباب المعروف باسم «باب السمك» P. DEL PESCADO المدمر قبل عام ١٨٤٠م بفترة قليلة. ويثني الكُتّابُ العرب على البساتين والحدائق الواقعة داخل السور وربض الفخارين الذي كان محصوراً أيضاً داخل السور. وسبق أن

سُميت تلك الضاحية بعد الاستيلاء عليها مباشرة بالأسماء التالية: «باب العاشر» BIBALACHAR و«باب متر» BIBMITRE و«باب ألتي» BIBELTEE و«باب الدار البيضاء»[٤٢]، وترجع الأسماء الثلاثة الأولى إلى أصول عربية يعسر البحث عن الأصل المناسب لها.

وبين سنة ١٣٢٩ إلى ١٣٥٩م قام الحاجب رضوان ببناء سور الربض الكبير المعروف باسم «البَيَّازين» ALBAICIN والذي غاب عن الوجود فيما يبدو في يونيو ١٢٨١م عندما دخل ألفونسو العاشر في وادي «غرناطة»، ضرب فيه أطنابه وأصبح فيما بعدُ مكانًا للربض المذكور[٤٣]. وفي أوائل القرن الخامس عشر ربما قد التجأ إلى غرناطة أهالي مدينة «أنتقيرة» بعد قيام الأمير «فرناندو دي أرجون» FERNANDO بالاستيلاء عليها سنة ١٤١٠م. وهذا الاسم «أنتقيرة» ANTEQUERUELA هو لإحدى ضواحي المدينة التي لم تعرف عنها أي أخبار قبل سنة ١٤٩٢م، ويعود ذلك الاسم إلى تاريخ هجرة الأهالي السابق ذكرها.

وفي أواخر القرن الخامس عشرة ازداد عدد سكان غرناطة بلا توقف، ولا يرجع هذا إلى ازدياد نشاطها ورخائها بل إلى الحشد الكبير من المسلمين المطرودين والفارين من المناطق التي استولى عليها الملك الكاثوليكي. كما هو الحال بالنسبة للسكان العرب الذين غادروا مدينة جبل طارق بعد الاستيلاء عليها والتجؤوا إلى داخل أسوار غرناطة باحثين عن الأمان والحماية سنة ١٤٦٢م؛ وفي سنة ١٤٨٥م أقبل إلى المدينة سكان قصور «كامبريلز» CAM-BRILES و«الحبار» ALHAVAR؛ وفي السنة التالية انضم إليها سكان قصور أليورا وموكلين ومونتي فريو؛ وجزء من سكان قصور بَلّش (بيليث مالقة) سنة

١٤٨٧م[٤٤]. وبعد جلاء المسلمين من منطقة «وادي آش» GUADIX سنة ١٤٨٩م اتجه سكانها العرب إلى غرناطة حاملين معهم المؤن والممتلكات[٤٥]. وبعد نهاية العداء بين أبي عبدالله والملك فرناندو سنة ١٤٩٠م أجبر هذا الأخير السكان المستعربين بمغادرة القرى والمدن المسورة التابعة لمملكة غرناطة مما استولى عليه في حملات سابقة. ظل البعض منهم مقيمين في الضواحي خارج الأسوار والبعض الآخر اندمج بالعدد الزائد من السكان اللاجئين الذين أقاموا في العاصمة الإسلامية. ومن المحتمل أن عدد السكان في غرناطة عند اقتراب خروج المسلمين من أسبانيا قد بلغ رقماً أعلى منه في نصف القرن الرابع عشر الميلادي عندما مرت المدينة بفترة ازدهار لا مثيل لها في التاريخ. ولكن تلك الزيادة في السنوات الأخيرة لم يكن نتيجة وجود مدينة مزدهرة، بل تدل على القلق الناتج من التراكم السريع من الأهالي الهاربين الذين تضاءلت موارد غذائهم تدريجيًا[٤٦].

ولقد بقيت مدينة «مالَقة» على هامش التقلبات السياسية التي مرت بها غرناطة عاصمة المملكة. وكانت «مالقة» المركز التجاري الكبير الذي تُشحَن السفن الإسلامية والنصرانية من موانيها بأنسجة الحرير والفواكه الجافة والزبيب واللوز والتين المشهور من منطقة «ريَّة» RAYYA ثم تُصدَّر إلى مصر وسورية والعراق حتى الهند والصين كما يقول الإدريسي؛ ومن المنتجات الأخرى النبيذ والسكاكين والمقصات ومصنوعات مختارة من الجلد والوسائد أو أغلفة الوسائد والأحزمة وبالأخص الخزف المذهَّب المشهور الذي بقيت منه نماذج رائعة كالجرار الموجودة بقصر «الحمراء» ALHAMBRA. وقد استمرت الحركة التجارية في نشاطها حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي. وعندما قارن الوزير ابن الخطيب

من غرناطة مدينة مالقـة بالمدينة الأفريقية «سلا» SALE قال إنها مزدهرة وغنية ومترفة، وفاضت أسواقها بالعديد من المحلات[٤٧].

وفي النصف الثـاني من القرن الـرابع عشـر الميلادي بدأ تقـهقـر الأسطول الإسلامي أمام أسطول المـمالك النصرانية في شبـه الجزيرة، وبالأخص أسطول مملكتي «قطلونيـة» و«أرغـون» فلم يعد قـادرًا على حـماية التـجـارة البحـرية والتصدير لموانئ مملكة غرناطة. ويقول ابن خلدون بأن انحطاط البحرية المغربية بدأ بعـد حكم أبي الحـسن (من سنة ٧٣١ إلى ٧٤٩هـ ـ ١٣٣١ إلى ١٣٤٩م) أي في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي[٤٨]، وهو تاريخ يتفق على وجه الاعتقاد مع اضمحلال الوجـود الإسلامي في أسبانيا. وبدأ سكان بلنسية بحس تجـاري ذكي في صـنع أنسـجـة مـثـيلة لما كـان يصـنع في دور الطراز الإسلامية، وأنشـئت في مدينة «مانيس» MANISES وفي أماكن أخرى مصـانع فخـار يعـمـل فيها الفـخـارون العرب مقلـدين بنجـاح أفخر منتجـات الفخـار المعروفـة في الميناء الأندلسي، وكانوا يصنعون الخـزف المذهب الذي يصدر إلى أقطار من إنجلترا وحتى الأقطار الإسلامية شرق البحر الأبيض المتوسط.

وفي كتـاب آخر يختلف عمـا ذكر سالفًا، وربما مكتـوب بعده، يصف ابن الخطيب حال مدينة «مالقـة» بتفاؤل قليل: بدأت المدينة بالانحطاط وبدأ العديد من منازلهـا بالفناء وهي التي كثـرت في فترة سـابقة. في الوقت نفـسه الذي تركها سكانها ونزلاؤها وأصبحت الأماكن مهـجورة بعد رخاء ورفاهية فيها في الوقت الماضي[٤٩].

وتقل الأخبـار التاريخية عـن مدينة المرية في النصف الثاني من القـرن الثالث عشر الميلادي وفي القرنين اللاحقين، وهي مدينة انقضت أيامها في حياة ضعيفة.

ويصف المدينة الكاتب المشرقي العُمَري في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ويقول إنها كانت ملجأ للقراصنة الذين يهاجمون السفن العابرة للمياه الإقليمية المجاورة؛ حيث إن هؤلاء اعتادوا الرسو في الشواطئ النصرانية بغرض خطف الأهالي واسترقاقهم وعرضهم للبيع فيما بعدُ أرقاء[٥٠].

وجاء وباء الطاعون الأسود المرعب الذي دمر مدينة المريّة ابتداءً من سنة ٧٤٨ إلى ٧٥٠ هـ - ١٣٤٨/١٣٤٩م ليساعد على انحطاطها. وبعد سنوات قليلة كتب ابن خاتمة عن المدينة قائلاً: إنها كانت مدينة مهجورة في جزئها الغربي الواقع بالقرب من الربَض المهجور المعروف «بالحوض». أما ضاحيتها الشرقية فهي التي توافرت فيها المباني. ويقول ابن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦هـ/ ١٣١٣ - ١٣٧٤م) مستعملاً الأسلوب الأدبي ومبالغًا فيه بأن «مدينة المريّة قد سقطت ولن تقوم مرة أخرى أوتخرج من كارثتها إلا بمشيئة الله»[٥١]. وعندما قصّ ألفونسو دي بلنسية كيفية تسليم المدينة للملكين الكاثوليكيين سنة ١٤٨٩م أكد أنه لم يكن بالمدينة إلا القليل من السكان؛ وأنها كانت مزدحمة نسبياً عندما كانت تحت سيادة غرناطة[٥٢]. وفي القرن الرابع عشر الميلادي اهتم جغرافيان من الشرق في أعمالهما بمدن الأندلس. وقد تناول أحدهما وهو «أبو الفداء» هذا الموضوع في كتابه «**تقويم البلدان**» سنة ٧٢١هـ - ١٣٢١م؛ أما الآخر وهو مصري فلم يزر شبه الجزيرة الإيبيرية ويقال له العُمَري، وقد كتب جزءًا من كتابه «**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**» المخصص للأندلس من سنة ٧٣٨ إلى ٧٤٩ هـ - ١٣٣٧ إلى ١٣٤٩م وهو تاريخ وفاته. وفي هذا الكتاب أخبار مفيدة وافرة عن الجماعات الإسلامية في مدن مملكة غرناطة[٥٣]. وفي سنة ٧٥١هـ - ١٣٥٠م قام ابن بطوطة بزيارة جبل طارق ومالقة وغرناطة

وأماكن أخرى من المملكة النزارية. وفي الرواية الخاصة بتلك الزيارة التي كتبها ابن جُـزَيّ، وهو من غرناطة، تفاصيل طوبغرافية مفيدة عن تلك المدن، وعلى رغم ذلك لا يوجد فـيها مـا يسمح بتقـدير حالتهـا المدنيّة[٥٤]، وبهذا يصبح البحث فيها عديم الجدوى.

وهناك أخـبار مـتأخـرة عن بعض المدن، منها مـا سبق ذكـره في مؤلـفات الكاتب الغرناطي ابن الخطيب المولود بمدينة لوشة LOJA الذي عين وزيراً لمحمد الخامس في غرناطة في تاريخ ماض.

وهناك كتـاب أساسي عن المدن الأسـبانية الإسـلامية وهو كـتاب «**الروض المعطار**» لابن عبد المنعم الحِمْيري الذي سبق تكرار ذكره. وقد أُنْهِيَ هذا الكتاب سنة ٨٦٦ هـ ـ ١٤٦١م، ولكن لابد وأن أحـد أسلاف المؤلف أخـرج الكتاب قبل ذلـــك التاريـخ بكثـيـر، فقـد استـعان به عدة مـؤلفين. وهو عـبارة عن مجموعة كـبيرة من الأخبار التاريخية، يرجع الكثيـر منها إلى عهد قديم، ومن ضمنها ما كتبه، كـما قيل، على الأقل جانب منه الجغرافي الأندلسي «البكري» في سنة ٤٦٠ هـ ـ ١٠٦٧/ ١٠٦٨م[٥٥].

أما رواية الرحـالة المصري المعروف باســم «عبدالبـاسط» الذي زار «غرناطة» وبعض المدن الأخرى الـتابعة لمملكتـها سنة ٨٧٠ هـ - ١٤٦٥/١٤٦٦م فـإنها ليست ذات أهمية كبيرة تخدم هدفنا في هذا الكتاب[٥٦].

أما رواية عن الكاتب الكبير المعروف بـ «الـمَـقَّرِيّ»، من القرن السابع عشر (المتوفى سنة ١٠٤١ هـ/ ١٦٣٢م)[٥٧] فإن له أهمـية تسـاوي أهمية مـؤلفات الكاتب الحميري أو تزيد عنه إذا أخذنا في الاعتبار موضوع كتابنا. ولقد رجعْنا كثيراً إلى كتاب المقري في هذه الصفحات.

(1) E. Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, pp. 62-63; trad. p. 79.

(2) E. Lévi-Provençal, **España musulmana**, IV, pp. 161-173.

(3) Ibn 'Idārī, **Bayān**, texto, p. 93; trad. pp. 148-149.

(4) E. Lévi-Provençal, **Documents et notules**, I, **Les citations du «Muqtabis» d'Ibn Hayyān relatives aux agrandissements de la Grande Mosquée de Cordoue aux VIIIe et IXe siècles d'après des textes inédits**, pp. 89-92.

(5) Edic. Goeje, **B. G. A.**, VI; Alemany, **La Geografía**, pp. 3-4.

(6) Edic. Goeje, **B. G. A.**; Alemany, **La Geografía**, p. 7.

(7) Alemany, **La Geografía**, pp. 11-12.

(8) Goeje, **B. G. A.**, I, p. 43; **K. ṣūrat al-arḍ**, edic. Kramers, I, p. 110; Alemany, **La Geografía**, pp. 15-17.

(9) Gayangos, Pascual de, **Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis**; y Lévi-Provençal, **La «Description de l'Espagne» d'Aḥmad al-Rāzi, essai de reconstitution de l'original arabe et traduction française**, pp. 51-108.

(10) Ibn Hawqal, **Kitāb al-mamālik wa-l-masālik**, en Goeje, **B. G. A.**, II; Maqqarí, **Analectes**, I, p. 300; Alemany, **La Geografía**, pp. 19-26.

(11) **Description de l'Afrique por Ibn Hawqal**, pp. 8, 21, 26-28, 36.

(12) Goeje, **B. G. A.**, t. III, p. 235; t. IV, pp. VI-VIII; Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane au Xème siècle**, p. 116.

(13) Ibn 'Idārī, **Bayān**, II, texto, pp. 307-308; trad., p. 478; Gayangos, **Mohammedan Dynasties in Spain**, I, p. 214.

(14) Sobre las sucesivas ampliaciones de la mezquita mayor de Córdoba en relación con su capacidad y el aumento de pobladores de la ciudad, véase **Ampliación y tamaño de varias mezquitas**, por L. T. B., pp. 343-345 y 351-352.

(15) Torres Balbás, **Almería islámica**, pp. 411-457.

(16) Marçais, **L'art de l'Islam**, p. 17.

(17) Citado por R. López, **Les influencies orientales**, p. 614.

(18) Pérès, **La poésie andalouse**, p. 362.

(19) Resumen del contraste entre la decadencia política de los taifas y su vigoroso desarrollo intelectual y material, comparados con las actividades análogas de los reinos cristianos de la Península, puede verse en Menéndez Pidal, **La España del Cid**, I, pp. 86-97.

(20) Maqqarī, **Analectes**, I, p. 102; Gayangos, **Mohammedan Dynasties in Spain**, I, p. 61.

(21) Dozy, **Recherches sur l'histoire des musulmans d'Espagne**, tercera edición, t. II, pp. 335, 349; Menéndez Pidal, **La España del Cid**, I, pp. 164-165. Unos veinte años después de la conquista de Barbastro, Al-Bakrī escribía que los cristianos se apoderaron en esa ciudad de joyas y telas de extraordinaria belleza (Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, p. 40; trad., p. 51).

(22) Ibn Jaqān, **Qalā'id al-iqyān**, p. 67; Maqqarī, **Analectes**, I, p. 424; Pérès, **La poésie andalouse**, p. 295.

(23) Menéndez Pidal, **La España del Cid**, p. 343.

(24) Ibn Bassām, que reproduce un texto de Ibn Hayyān (E. Lévi-Provençal, **Alphonse VI et la prise de Tolede**, apud. **Islam d'Occident**, pp. 119-120).

(25) **Poema de Mio Cid**, edic. y notas de Ramón Menéndez Pidal (Madrid, 1913), versos 1.212-1.215, p. 207.

(26) Dice Ibn Jaldūn —**Prolégomènes**, pp. 45 y 271— que las ciudades y villas escaseaban en el Magrib e Ifrīqiya por haber pertenecido estas comarcas desde millares de años antes del islamismo a beréberes que vivían bajo tiendas y viajaban en camellos, los cuales conservaron siempre las prácticas costumbres de la vida nómada, en contraste con al-Andalus, Siria, Egipto, el Irán y otras comarcas; la civilización de al-Andalus era más avanzada que la del Magrib. El mismo autor afirma la persistencia en al-Andalus, merced a su civilización sedentaria, del desarrollo cultural y artístico a través de la dominación visigoda, de la omeya, de la de los reyes de taifas, hasta el siglo XIV, en que escribía, civilización que no alcanzó en ningún otro país islámico, excepto en el 'Irāq, Siria y Egipto, tal grado de perfección y persistencia, comparable a la del buen tinte que tan sólo desaparece del tejido que colorea con la destrucción de éste (**Prolégomènes**, II, pp. 361-362).

(27) Lévi-Provençal, **Les villes et les institutions urbaines.** Sobre la supuesta decadencia de la España islámica bajo los almorávides, enunciada por Dozy (**Recherches sur l'histoire... d'Espagne,** tercera edición, I, p. 343, e **Histoire des musulmans,** edición I-P., III, pp. 134, 154 y ss.), véase **Un eclipse de la poesía en Sevilla, La época almorávide.** por García Gómez, pp. 22-26.

(28) E. Lévi-Provençal, **Réflexions sur l'Empire almoravide au début du XIIe siècle,** p. 4.

(29) Idrīsī, **Description de l'Afrique et de l'Espagne.**

(30) **Qirṭās,** trad. Huici, pp. 170-171; trad. Beaumier, pp. 238-239.

(31) G. S. Colin y E. Lévi-Provençal, **Un manuel hispanique de ḥisba**; trad. Lévi-Provençal y García Gómez, **Sevilla a principios del siglo XII.**

(32) Torres Balbás, **Almería islámica,** pp. 411-453.

(33) E. Lévi-Provençal y E. García Gomez, **Sevilla a principios del siglo XII.**

(34) Ibn Ṣāhib al-Salā, **Al-mann bil-imāma,** p. 461-487; trad. p. 186-204. Había sido ya parcialmente recogido por M. Antuña, **Sevilla y sus monumentos árabes,** p. 134-135; trad. p. 100-104.

(35) Ibn 'Iḏārī, **Bayān, Los Almohades,** I, p. 199.

(36) Al-Šaqundī, **Elogio del Islam español,** p. 99.

(37) **Un eclipse de la poseía en Sevilla,** por E. García Gómez ,pp. 63-66, y **Poemas arábigoandaluces,** p. 37; H. Pérès, **La poésie andalouse,** pp. 140-141, 208 y 389.

(38) E. Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, pp. 128-129; trad., p. 156; **Qirtās,** trad. Huici, p. 279.

(39) Al-Šaqundī, **Elogio del Islam español.**

(40) Yāqūt, **Mu'ŷam al-buldān,** s. v.

(41) Jaime el Conquistador, **Historia,** caps. CCXXXVII y CCXXXVIII, pp. 316, 317 y 319. José Antonio Conde afirma —**Historia de la dominación de los árabes en España,** cuarta parte, cap. VI, p. 269— que al conquistar Sevilla Fernando III en 1248, muchos de sus habitantes aceptaron la protección de Ibn al-Aḥmar y fueron a tierra de Granada. El hecho es muy verosímil.

(42) Gómez Moreno, **Guía de Granada,** pp. 223-224.

(43) El dato de la construcción de la muralla del Albaicín, se encuentra en la **Iḥāṭa** de Ibn al-Jaṭīb, El Cairo, 1955, vol. 1, p. 517 (Luis Seco de Lucena Paredes, **El ḥāŷib Riḍwan, la madraza de Granada y las murallas del Albayzīn,** pp. 295-296). Refiere la entrada de Alfonso X en la vega de Granada, la llamada «Cuarta Crónica General», cap. CCXLI, pp. 22-23. El cercarse tardíamente el Albaicín contradice la afirmación de Mármol, muy repetida luego, de formarse ese arrabal con los moros salidos de Baeza y Ubeda, conquistadas por Fernando III.

(44) Valera, **Crón. de los Reyes Católicos,** pp. 208 y 212, Bernáldez, **Hist. de los Reyes Católicos,** t. I, pp. 241 y 227.

(45) Bustani y Quirós, **Fragmento de la época sobre noticias de los reyes nazaritas,** pp. 35-37.

(46) Torres Balbás, **Esquema demográfico de la ciudad de Granada,** pp. 131.

(47) «Hablemos ahora de la **prosperidad** de Málaga, apoyados en escogidas pruebas, y ningunas sirven mejor para el caso, que las alhajas, los perfumes, las túnicas de brocado, las chilabas, los jardines de aspecto maravilloso, los alcázares construidos en las faldas de las montañas, las huertas de espesa sombra, las albercas que murmuran con su agua dulce y límpida, los trajes llevados con elegancia por cuerpos bellos y flexibles como ramas, las bodas de rumbo que denotan el desahogo de las situaciones y los ajuares de novia valorados en miles» (El **«Parangón entre Málaga y Salé»** de **Ibn al-Jaṭīb,** por E. García Gómez, pp. 190-192).

(48) Ibn Jaldūn, **Prolégomènes,** II, pp. 45-46.

(49) Simonet, **Descripción del reino de Granada,** p. 79.

(50) 'Umarī, **Masālik,** pp. 237-239 y 246.

(51) Simonet, **Descripción del reino de Granada,** p. 103.

(52) Alonso de Palencia, **Guerra de Granada,** t. V, p. 445.

(53) 'Umarī, **Masālik.**

(54) Ibn Baṭṭūta, **Voyages**, IV.

(55) Lévi-Provençal, **La Péninsula Ibérique.**

(56) G. Levi Della Vida, **Il regno di Granata nel 1465-66 nei ricorde di un viaggiatore egiziano,** pp. 307-332.

(57) Maqqarī, **Analectes**; Gayangos, **Mohammedan Dynasties in Spain.**

# الفصل الثامن

## مساحة المدن وديمغرافيتها

للقيام بدراسة أكثر موضوعية عن نمو المدن وتطورها يجب أن نعرف عدد سكانها خلال عصور مختلفة. ولكن لم تتم إحصائيات خاصة في بعض البلدان إلاّ في القرن الرابع عشر الميلادي وتمت في البعض الآخر بعد هذا التاريخ. كما أنه ليس لدينا بيانات دقيقة عن سكانها، لذا لم نتمكن من الوصول إلاّ إلى استنتاجات ناقصة وذلك بسبب الاعتماد على أخبار تاريخية متفرقة وغير مباشرة أحيانًا ومن هنا فإن هذه الاستدلالات تؤدي إلى استنتاجات قابلة للشك[1].

**الديمغرافية والدعاية.**

نظرًا لعدم وجود إحصائيات خاصة، فإن بعض الكتّاب الذين يستحقون كل التقدير لنزاهتهم مازالوا يعتمدون في أعمالهم القيمة على الأرقام التي قدمها بعض المؤرخين أصحاب الحوليات القدماء عن عدد سكان المدن الأسبانية المسلمة. ومن المعتاد أن تكون تلك الأرقام التقديرية خيالية، إما بسبب الخطأ في بعض الأحيان، في أحيان كثيرة بغرض متعمد لتزوير الحقيقة بممارسة فن الدعاية الكاذبة دائماً التي ترجع جذورها إلى أصل بعيد، والتي نعاصر حالياً درجة كبيرة من الإتقان والتطوير فيها. وقد قال ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي أنه عندما يكون الحديث عن مبالغ الأموال أو قوة جيش ما فإنه يسرف في الكذب وفي المعلومات غير الصادقة[2]؛ وكان في إمكان الكاتب المذكور أن يضيف إلى ذلك أن تلك الحالة تتكرر أيضاً عند تقدير عدد سكان إحدى المدن في الماضي.

وعادةً ما يتفق الكتاب المسلمون والنصارى في التقديرات الديمغرافية المتطرفة وبالأخص المسلمون الأندلسيون الذين كانوا يميلون إلى هذا الاتجاه بحكم طبعهم المائل إلى التضخيم والمبالغة بغرض تنظيم أهمية المدينة التي يتحدثون عنها. أما النصارى فيميلون إلى ذلك لإبراز بطولة محاربيهم الذين انتزعوا مدناً مزدحمة معتمدين على قلة عددهم. وقد تكررت تلك الأرقام شديدة المبالغة منذ القرون الوسطى، وقد تلذذ بها بعض أصحاب الدراسات والروايات المحليين الذين يقومون أحيانًا بتضخيمها لتمجيد العظمة الماضية للمدينة موضوع دراستهم أو لكونها المكان الذي وُلدوا فيه، أو بغرض مقارنتها بالانحطاط الراهن المتصور في أذهانهم.

ولو جمعنا بعقلية ناقدة تلك الحقائق الموجودة في كتب الرحَّالة وفي القصص التاريخية المتسلسلة والروايات لعثرنا بلاشك على معلومات تاريخية مفيدة. ليست كل البيانات الديمغرافية في القرون الوسطى عرضة للرفض؛ فهناك بيانات صادرة من قصصيين صادقين مطّلعين، ومنهم من كتب عن الفترة الأخيرة للسيادة الإسلامية على شبه الجزيرة، وبعض هؤلاء اشتركوا في الحملات التي قام بها الملكان الكاثوليكيان، وبالأخص عندما يشير هؤلاء لأماكن قليلة الأهمية يمكن تقدير عدد سكانها بصورة أدق حيث إن هذا أسهل من تقدير عدد سكان المجموعات السكنية الكبرى؛ وترجع بعض هذه البيانات إلى الإحصائيات التي أجريت بغرض فدية المسلمين المطرودين من المدن المفتوحة وإلى التقديرات التي أجريت بصورة أدق وذلك لتدوينها، على الرغم من أنها تمت بشكل غير كامل في أغلب الأحيان، في بعض «كتب توزيع المدن» REPARTIMIENTOS وهي الوثائق التي اعتمد عليها في توزيع أملاك المسلمين المهزومين على الغزاة بامتياز ملكي خاص(٣).

**كيفية بحث المسألة الديمغرافية :**

إذا أردنا معرفة عدد سكان المدن الأسبانية المسلمة بصورة تقريبية فليس لدينا إحصائيات مناسبة، ولكن لدينا بيانات قيّمة للغاية عن الكثير منها كمساحة السور المحيط بها. ويمكننا بالاعتماد على تلك المساحة استنتاج ديمغرافيتها. وقد نلجأ إلى معادلة رياضية بسيطة حيث المجهول هو عدد السكان والمعلوم هو المساحة الداخلية.

ويعتقد بعض المؤرخين أنه لا يمكن الاعتماد على مساحة المدينة داخل الأسوار وعلى مساحة ضواحيها المسورة لاستنتاج عدد السكان(٤). وقد يكون هذا الاعتقاد صحيحًا بالنسبة للمدن التابعة لممالك حضارات أخرى ولكنه لا ينطبق على مدن الأندلس.

وقد بقيت أجزاء من أسوار بعض المدن الأسبانية المسلمة؛ وتسمح بعض التخطيطات القديمة بإعادة تصميم خطوط أسوارها، وبقيت آثار لعدد كثير منها لبقايا هيكلها العمراني ذلك لأنه لم تطرأ عليها تغييرات جذرية حتى أيامنا الحاضرة. وكثيراً ما نتمكن من تحديد تاريخ إقامة الأسوار، ونتعرف بالتالي التاريخَ الذي بلغت فيه المدينة مساحة معينة داخل أسوارها. ويلاحظ أن الدراسة المقارنة للمساحات الداخلية في المدن الأندلسية مع المدن الحديثة في أسبانيا النصرانية وبمدن الغرب الأوروبي سوف تؤدي إلى استنتاجات علمية مفيدة. ويمكن القول بأن كل حالة، أي كل مدينة، تحتاج إلى تمعن دقيق ودراسة تفصيلية خاصة للوصول إلى معرفة أدق للمراحل المختلفة لنموها(٥).

ولمحاولة حل المسألة الديمغرافية بصورة تقريبية معتمدين على المساحة الداخلية للمدينة، يجب معرفة كثافة السكان بالهكتار (١٠,٠٠٠ متر٢)، وهو

المقيـاس المستعمل في هذا النوع من الحـسابات لتحـديد عدد المنازل والسكان. وسوف نحـدد عدد السكان مـعتمـدين على عدد المساكن، ونـحصل على هذا بتحـديد المساحـة المتوسطة لكل مـسكن بالإضافـة إلى نسبة مـساحـة الأماكن الفضـاء، وهي الأراضي الواقعـة داخل المدينة وبلا مـبانٍ، هذا بالإضـافة إلى المباني غير المستعملة للسكن أو قليلة السكن. وقد لوحظ في أغلب الأحيان أن لكل عائلة منزلاً واحدًا[٦]، وعلى هذا الأساس فإننا نتمكن من حل المسألة إذا استطعنا بصورة تقريبـية تحديد عدد أفراد العائلة المتوسطة بما فـيهم عدد الأرقاء العاملين لدى العائلات المرفهة.

ولتـقـدير عدد المـساكن وعـدد السكان الـناتج عنه سـوف نضطر إلى ربطه بمراحل مـعينة من تاريخ المدينـة عندما كـان حزام أسـوارها محـيطاً بالمساحـة الداخلية المبنية من المدينة إحاطة كاملة: إن نمو المدينـة والذي يتأثر بعوامل كثيرة ومتنوعـة لا يمكن أن ينعكس في شيء ما ثابت إلى حد ما مـثل سور له أبراج وهو مبنيّ من الأحـجار أو من الطوب. وكان مـشروع بناء سور المدينة عـملاً شاقًا طويلاً ومكلفًا، وهو مـا يفسر دوامه معتمـداً على الإصلاحات الدائمة له وعلى إضـافة الأرباض المسوّرة إلـيه عندما تـتعدى المدينة أسـوارها الأولى[٧]. وفي فتـرات الانحطاط كـانت الحلقة الدفـاعية رحـبة بينـما بدأ عدد المـساكن المجاورة في النقصان، وتصير شوارعها صامتة وذات منازل خالية غير مسكونة، وقد ينتهي أمرها إلى السقوط، فتتحول إلى أراضٍ مهجورة كالتي تُرَى اليوم في الأجزاء العليـا الوعرة لبعض مـدن القرون الوسطى التي تنحـدر منازلها رويدًا رويدًا إلى الوادي بفـعل جـاذبية مـفـترق الطرق والسكك الحـديدية والمصـانع والبساتين. وعلى العكس يكون من المحتمل أن عدد سكانها قد ازداد في فترات

الازدهار حتى أصبحت المساحة داخل أسوارها غير كافية لإيواء السكان جميعاً، فأقيمت عندئذ أحياء أو ضواحٍ خارجَها، وكان يتناسب عددها تناسباً طردياً مع ازدياد السكان. وإذا كانت تلك الضواحي محوطة أيضاً بسور وتوافرت دراسة تاريخية عن تصميمها، فمن السهل عندئذ قياس مساحتها وتقدير عدد سكانها بالاعتماد على الطريقة التي سوف نعرضُها فيما بعد. ولكن إن لم تبق آثار مادية لسور الضواحي، كما هو الحال في كثير من الأحيان، فإن دراستنا تُعَد بعيدة عن الدقة. كما يستعصي إتمام هذه الدراسة إذا خلت الضواحي أصلاً من الأسوار كما هي الحال في المدن الآتية: «بسطة» BAZA في القرن الثاني عشر الميلادي، وضواحي «طريانة» TARYANA و«مكرانة MAQARANA و«بناليوفار» BENALIOFAR في أشبيلية في القرن الثالث عشر الميلادي(8).

وهناك عامل آخر يصعب تقديره وتعد الاحتمالات فيه بعيدة عن الصواب، وهو العامل الذي يتعلق بعدد السكان الذين استقروا في الضواحي المباشرة للمدن مجتمعين في المنيات أو قرى وفي منازل صغيرة وأكواخ وكهوف. وبالنسبة للمراكز السكنية المحاطة بالأراضي الخصبة وبالبساتين - وتلك هي حالة معظمها - أو بغوطة واسعة لنهر من الأنهار، فإنّ الريف المجاور لها كان فيما يُعتقَد مزدحمًا جدًا(9). ولن يكون تقديرنا في الوقت الحالي لحدود مدينة من المدن بالاعتماد على مساحتها أمراً سهلاً إلاّ باعتبار المحيط الإداري لها، ومن المعلوم أن المحيط الإداري لا يتفق دائماً مع المحيط الحقيقي؛ ويكون أصعب في القرون الوسطى، وهو ما يفسر بعض التقديرات المبالغة بشأن عدد السكان، مع الأخذ في الاعتبار أن السكان المقيمين في وادٍ مثمر كانوا يرتادون المركز السكني الرئيس المجاور لبيع منتجاتهم الزراعية وشراء منتجات أخرى

صناعيـة ولأداء صلاة الجـمعة في الجـامع، إلخ. ومن هنا كانت المدينـة تظهر عندئذ أكثـر ازدحاماً مما كانت عليـه في الواقع. ولهذا كان الكثيـر من سكانها المقيمين خارج الأسوار بالإضافة إلى المقـيمين في أماكن أبعد منهم بمسافة قليلة يتعرضون لحيـاة غير مستقرة وبالأخص عند اقتراب حـملات العدو العسكرية، وعند المحاصرة التي لا تتكرر كثيراً وتستـغرق في العادة شهوراً أو تتجاوز السنة الواحدة أو السنتين أحياناً كان السكان حينئذٍ يضطرون إلى الاعتصام وراء أسوار المدينة، وكـان القادر منهم يشـترك في الدفاع عنـها. فكان عدد سكـانها يزداد تلقائياً، لكن المعارك وخاصة الأوبئة القاتلة، كان لها الأثر في تقليل عددهم.

أما من حيث تنظيم المساحة الداخلية للمـدن الأسبانية المسلمة فمن المعروف أن معظم المنازل الصـغيرة[١٠] كانت مـتلاصقـة على طول الأزقة الضيـقة[١١] وكانت الميـادين الكبيرة والـصغيـرة فيهـا قليلة محدودة المسـاحة[١٢]. لم تكن بداخل أسوارها أحياء تفـصلها عن باقي المدينة ومساحات فضاء واسـعة مثل ما كانت الحالة في مراكش وفي بعض المدن النصرانية الواقعة في النصف الشمالي لشبه الجزيرة الإيبيرية[١٣]. وبالطبع كانت منازل الأحياء التي يقيم بها الأهالي الفقراء صغيرة جداً.

ولتحقـيق الإحصاء السابق ذكـره يجب أن نجعل في الاعتبـار أنه توجد في المدينة أمـاكن مـعـينة مثـل «القيـصـرية» ALCAICERIA و«الأسواق» ZOCOS ومحالها الواقـعة في وسط المدينة التي كانت تشكل أحياءً صغـيرة يسكنها ليلاً حراسها فقط. كذلك توجد المساجد والحمامات العامة وبعض المرافق الأخرى. كما أن كثيراً من النزلاء كانوا يقيمون في الفنادق التي كانت متوافرة وبالأخص في المدن التجارية والصناعية.

ويتضح من هذا أن المدن الأسبانية المسلمة كان فيها أحياء صغيرة تجارية عامرة بعض الشيء؛ ومساكن عديدة صغيرة متلاصقة، ومساكن أخرى أكبر حجماً محاطة أحياناً ببعض البساتين والحدائق. ولم تتخذ الطبقات الاجتماعية المختلفة مجموعات سكنية منفصلة، بل كانت تتشابك دون الارتباط بالتقسيمات العمرانية.

وهناك معلومات نادرة جدًا، تمثل خطوط عريضة فقط، حول تصميم تلك الأحياء والأرباض(١٤). وعن طريق ذلك يتم إحصاء غالبية المساكن ذات الحجم المتوسط، ومن ثَم معادلة الصغيرة منها بالمساكن الأخرى الأكثر أهمية.

**مساحة المسكن.**

يوجد لدينا تخطيط لأرضية ثمان وعشرين مسكنًا من المساكن الأسبانية المسلمة؛ وهي مساكن يملكها أهالٍ مختلفون كل الاختلاف في أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية. وهذه المساكن تُعين على حساب مساحتها المتوسطة اعتمادًا على بقاياها الأثرية، حيث إن تسعةً منها تحتل جزءاً من السور الداخلي للقصبة في مدينة «مالَقة»؛ ومسكنًا آخر وُجد في مدينة «المريّة»؛ واثني عشر مسكناً منها في قصبتها، وثلاثة مساكن في أماكن مختلفة من قصر الحمراء بغرناطة؛ واثنين في وسط مدينة غرناطة، والمسكن الأخير في مدينة رُندة. وجميع تلك المنازل مزودة بفناءٍ داخلي مساحته ضيقة جداً في بعضها(١٥). والعديد من المساكن كانت تتجمع في حيين صغيرين لهما طابع خاص تعود إلى موقعهما داخل الميادين العامة لقصبتي مَالَقة وقصر الحمراء في غرناطة(١٦). وبالنسبة لمنازل مَالَقة والمريّة فإنها ترجع - في اعتقادنا - إلى فترة المرابطين (أي النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي)؛ أما باقي المساكن، فإنها ترجع إلى

الفترة النصرية (السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر حتى الخامس عشر).

وتقل مساحة كل من المنازل الستة التي في مَالَقة والمنازل الأحد عشر التي في قصبتها والمنزل الذي في «سيكانو» SECANO في الحمراء عن مائة متر؛ ونجد أحدَ عشرَ منزلاً لا تزيد مساحة كل منها عن ٥٠ متراً مربعًا[١٧]. وتقل مساحة منزلين من منازل مَالَقة ومنزلٍ في قصبة الحمراء وآخرَ من منازل «سيكانو» SECANO في الحمراء ومنزلٍ في مدينة المرية عن مائتي متر مربع لكل منها[١٨]. وهناك منزلان، أحدهما في الحمراء أيضاً في موقع رئيس أمام الواجهة الجنوبية لقصر الملك كارلوس الخامس ومنزل آخر في قصبة «مَالَقة» ـ كان في داخل القصر نفسه ـ تزيد مساحة كل منهما عن مائتي متر مربع. وأخيرا المنزل الموجود في مدينة «رُنْدة» والذي يعتبر، على ما يبدو، من أهم منازل المدينة الإسلامية[١٩]، ومنزل «الأمراء» INFANTES بمدينة غرناطة فهو عبارة عن قصر صغير يقيم فيه أهل الملك وتزيد مساحتهما عن ثلاثمائة متر مربع[٢٠]. وكانت الحالة الاقتصادية لأصحاب المساكن تؤثر على مساحة المسكن وموقعه؛ وعلى العكس، ليس من المحتمل، أن مرور الزمن قد أثر تأثيرًا بالغاً في هذه المساحة، وبالتالي يمكننا أن نطبق المساحة المتوسطة التي حصلنا عليها من دراسة المنازل السابق ذكرها على المدن الأسبانية المسلمة منذ القرن العاشر وحتى القرن الخامس عشر الميلادي.

ويحوي كتاب تقسيم مدينة بلّش(فيليث مَالقة) "REPARTIMIENTO" المكتوب بعد الاستيلاء عليها بفترة قصيرة في عام ١٤٨٧م بياناتٍ مفيدةً عن النِّسب الخاصة بمختلف أنواع المساكن في مدينة من المدن التي كانت ذات أهمية. وقد قام المسؤولون عن قياس مدينة «مَالَقة» بتقسيم مساكنها إلى خمسة

مستويات، فوجد في مركـز المدينة ثمانية منازل تندرج داخل ترقيم الخمس نقط وهي الدرجة القصوى؛ وفي اعتقـادي أن مساحة كل منزل من المنازل كان يزيد عن ثلاثمائة مـتر مـربع. والمنازل ذات الأربع نقط كانت تراوح مـساحتـها بين مائتي مـتر إلى ثلاثمائـة متـر تقريباً، وعـددها خـمسة عشـر منزلاً؛ أما منازل الثلاث نقط فإن مساحة كل واحد منها كـانت بين مائة وخمسين متراً إلى مائتي متر مـربع، وكان عددها واحداً وأربعين مـسكناً؛ والتي تندرج ضمن النقطتين كانت مساحة كل منها تراوح بين مائة متـر ومائة وخمسين متراً مربعاً، وعددها أربعة وسبعون مـسكناً، أما مساكن النقطة الواحدة فقط فمساحـتها بين خمسين ومائة متر مربع، وعددها مائتان وأحد عشر مسكناً. وكانت هناك مساكن أخرى أصغر «غير صالحة لإقامة المواطنين» أي لكونها ضـيقة فكانت تعتبر غير صالحة لإقامـة النصارى؛ تلك المساكن كـان يبلغ عددها مائتين وثلاثة مـساكن. وفي اعتقادنا أنْ لم تكن تزيد مساحة كل منهـا عن ٥٠ متراً مربعاً. وقد وجدت في رَبَض بَلّش (فيليث مَالَقة) مـساكن أخرى «صغيرة جداً غـير صالحة للسكن ولا يُرغب في الإقامـة فيهـا على الإطلاق» (لم يُذكَر عددها)؛ هذا بالإضـافة إلى ثلاثة منازل تندرج ضمن ترقيـم الأربع نقط، وخمسة عشر منزلاً في مـستوى الثلاث نقط، وعـشرين منزلاً من مستـوى نقطتين، وستة وسـتين منزلاً ضمن مستوى النقطة الواحدة[٢١]. أما المساكن الأصغر مساحة ـ ذات النقطة الواحدة أو أقل ـ فكان عددها أربـع مئة وأربعـة مساكن، فكان هذا الـعدد مئـة وثمان وعشرين مسكنًا وهو أكبر بثلاثة أضعاف من عدد المساكن الأوسع الواقعة داخل السور[٢٢].

وفي «تدوين مـدينة «رُندة» (بين عـامي ١٤٨٥م ـ ١٤٩١م)» وُصِفَت عـدة

منـازل بأنهـا صغيرة للغاية ويكثر عدد المنازل التي منحت للنصارى الذين كانوا يملكون منزلين أو ثلاثة أو أربعة أو ستة[٢٣] . ويلاحظ الكاتب «كارِّياثو» -CAR RIAZO «أن صغر المنزل أصبـح ميزة من مميزات مـساكن المسلمين بمدينة رُندة، وامتدت تلك العادة حتى أيامنا الحاضرة، واحـتُفظ بها في النظم المدنية المتأخرة وحـتى في بعض الـضـواحي الحـديثـة نسـبـيـاً مـثل ضـاحـيـة السـويقـة (MERCALDILLO). وتكثر اليـوم المنازل التي تشكل مجمـوعات ضيـقة والتي ليس لها إلا باب المدخل فقط مطل على الشارع بالإضافة إلى نافذة ضيقة واقعة بين الباب والسقف. أما الجدار الخلفي للمنازل فكان قطعة واحدة فقط»[٢٤].

وفيمـا يتعلق بضاحية القصـبة بمدينة مَالَقة ذات المنازل التسـعة، فإن المنازل المتلاصقة داخل المسـاحة الضيقة المحصورة داخل السـور الخارجي الأخير والتي تشكل طابعاً اسـتثنائيًا كمـا قيل وبعض منازل هذه المجموعـة، التي تنتمي إلى المستـويات الثلاثة الأولى التي تعرف بشـوارعها الضيـقة وبوجود حمـام واحد صغـير، يمكن أن تلفت انتـباهنا فيـما يخـتص بالمساحة المتـوسطة لتلك المنازل وعلاقتها بالأراضي الفضاء والمباني الخالية من السكان. وتنقسم المساحة المساوية لـ ١,٣٦٤,٥١ مـتراً مـربعاً التي تمثـل امتـداد الحي تنقسم إلى: الجـزء الأول مساحته ٤٠٨,٢٦ متراً مربعاً للأماكن والمسـاكن الخالية والجز الثاني ومساحته ٩٥٦,٢٥ متراً مربعاً فـهو للمساكن العادية المعمورة. ويعـادل متوسط المساحة لكل منزل بما فـيها جـزء من نسبـة مسـاحة الشارع والحـمام ١٥١,٦٠ مـتراً مربعاً[٢٥].

ويمكن حسـاب المساحة المتـوسطة لكل مسكن من مسـاكن «مالَقة» الواقـعة داخل السور باستعـمال طريقة أخرى بالاعتماد على عـدد السكان التقريبي عند

الاستيلاء عليها سنة ١٤٨٧م وذلك لأن السكان جُمِعوا جميعًا بأمر الملكين الكاثوليكيين في ساحة القصبة أو في الساحتين الكبيرتين في القصبة بغرض حصرهم وإنقاذهم. ويقول «موسين دييجودي باليرا» MOSEN VALERA بأن عددهم بما فيهم الفتيان والكبار بلغ ١٥,٠٠٠ نسمة[٢٦]. ولكن قِسَّ مدينة بلاثيوس PALACIOS على العكس، يذكر أنه لم يكن من الممكن بالمرة معرفة عدد السكان الذين تم إنقاذهم، ويضيف بأن المدينة كانت تضم أكثر من ثلاثة آلاف رب أسرة، ويفترض أن عددهم زاد عن ١١,٠٠٠ نسمة[٢٧]. ولا يبتعد هذا الرقم كثيراً عن رقم «باليرا» السابق ذكره. فلنْقبل إذاً بالرقم ١٥,٠٠٠ لهذا الأخير آخذين في الاعتبار عدد السكان المقيمين في المناطق والأرباض المجاورة الذين لجؤوا إلى داخل أسوار المدينة عند بدء حصارها، بالإضافة إلى عدد الموتى بسبب المعارك المتتالية التي استغرقت أكثر من ثلاثة أشهر، وبسبب المجاعة والأوبئة[٢٨]. وبما أن المساحة داخل الأسوار كانت ٣٧٥,٨٥٣ متراً مربعاً بما فيها ساحة القصبة وساحة صحن المعتقلين، باستثناء منطقة «خيبرالفارو» GIBRALFARO (جبل الفارو)، فإن نصيب كل فرد من الـ ١٥,٠٠٠ مواطن مساحة تعادل ٢٥,٠٥ متراً مربعًا. ولمسكن العائلة التي قد تتكون من ستة أفراد، سوف يعلل هذا فيما بعد، بالإضافة إلى نصيبها النسبي من الأرض الفضاء، إلخ.، تعادل ١٥٠,٣٠ متراً مربعًا. ومن ثَم فإن لكل هكتار من الهكتارات السبعة والثلاثين المسوَّرة يمكن تحديدها بـ ٣٩٩ نسمة والمساكن بـ ٦٦ منزلاً كحد متوسط؛ بينما المجموع الكلي لتلك المنازل كان ٢٤٦١ منزلاً تقريباً.

وفي «تقسيم» مدينة «ميُورقة» الذي تم بعد الاستيلاء عليها سنة ١٢٢٩م

على يد «خايمي الأول» يقال بأنه كان في «المُدَيْنَة» ALMUDAYNA أو «القصبة» ALCAZABA أكثر من ١٧٨مبنى[٢٩]. ونصف مساكن المَدِينَة والتي خصصت للحاكم، منها ١٤٩٢ مسكناً معموراً و٤٩٤ مسكناً خالياً من السكان. وبذلك نستطيع الافتراض بأن عدد المساكن التقريبي لعاصمة الجزيرة في القرن الثاني عشر الميلادي كان (٤٩٤) ٢+ (١٤٩٢) ٢+ ١٧٨= ٤٢٥٠. وبما أن المساحة المتوسطة داخل الأسوار كانت ٨٩٩,٧٢٥ متراً مربعاً فإن لكل مسكن بما فيه الجزء النسبي من الأرض الفضاء مساحة تقدر بـ ٢١١,٧٠ متراً مربعاً.

وليس لدينا معلومات تاريخية عن مدن أخرى تسمح بالتأكد من هذه الحسابات أو تعديلها. وثلث المجموع الكلي للأرقام الثلاثة الناتج من مساحة المساكن الخالية والمساحات الخاصة بالشوارع، والميادين والحدائق، إلخ.، يكون كالآتي: ـ ١٥١,٦١ ـ متراً لكل مسكن بالقصبة في مدينة مَالَقة، وـ ١٥٣,٤٩ ـ متراً مربعاً مساحة المسكن في نفس المدينة. وـ ٢١١,٧٠ ـ متراً مربعاً لكل مسكن بقصبة مدينة مايورقة، و١٧٢ متراً مساحة المسكن داخل المدينة[٣٠]. وسوف نتبنى هذا الرقم لتقدير عدد المنازل وعدد السكان عندما يقتصر علمنا على المساحة المحصورة داخل الأسوار فقط.

**عدد السكان في كل مسكن.**

إذا افترضنا، كما قيل من قبل، أن أغلب المنازل تَسْكُن فيها عائلة واحدة فقط، وهذه هي الحالة الأعم،[٣١]، فعلينا أن نحدد أيضاً العدد المتوسط لأفراد كُل عائلة لكل مسكن لكي نحل المسألة بصورة تقريبية. ويعد هذا عاملاً غير دقيق ومتغير ويستعصي تحديده باحتمالات دقيقة نسبياً لعدم وجود البيانات الكافية.

هناك العديد من الوثائق من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر تشير إلى أن العرب والمستعربين كانوا يتكاثرون بمعدل أكبر بكثير من النصارى. وليست لدينا إلا معلومات قليلة عن العائلات الإسبانية المسلمة ومنها عدد الزوجات لكل رجل. إن الرجال من الطبقتين المتوسطة والمتواضعة، وهم الأغلبية، لم يكن لدى كل منهم إلا زوجة واحدة[٣٢]. ويؤكد هذه المعلومة صغر المنازل التي يسكنونها. أما الطبقة الاجتماعية الأكثر رفاهية فكانت تمتلك العدد الأكبر من النساء ـ الزوجات الشرعيات والإماء ـ وهذا يؤدي بالطبع إلى زيادة عدد الورثة والإماء والعبيد. ولكي نتمكن من حساب هذا العدد الزائد سوف نأخذ في الاعتبار المنازل الأكثر مساحة. ولندرس بعض البيانات التاريخية التي قد تلفت النظر إلى حساب العدد المتوسط لأفراد كل عائلة. ففي كتاب **علم التسلسل التاريخي للمؤرخ** «فرنان بيريث دي قوثمان» FERNAN PEREZ DE GUZMAN عن دون خوان الثاني نجده يحدد عدد السكان المسلمين الخارجين من مدينة «أنتقيرة» ANTEQUERA عند استيلاء الأمير «دون فرناندو» عليها سنة ١٤١٠م بـ ٢,٥٢٨ نسمة؛ منهم ٨٩٥ من الرجال المحاربين، ٧٧٠ من النساء و٨٦٣ من الأطفال[٣٣]. ولكي نتمكن من حساب عدد رؤساء العائلات ضمن المحاربين، فإننا سوف نجد النسبة ذاتها في مدينة «رندة»، وكانت هذه النسبة على حد قول «دييجو دي باليرا» DIEGO DE VALERA هي ٧٠٠/ ١٢٠٠ على التوالي[٣٤]، وهذا يجعلنا نقدر أن عدد رؤساء العائلات في «أنتقيرة» ٥٢٢، وبالتالي فإن لكل عائلة عددًا متوسطًا من خمسة أفراد.

وقد ذكر مؤرخو «الملكين الكاثوليكيين» REYES CATOLICOS كما قيل من قبل أن عدد سكان مَالَقة عند غزوها كان أكثر من ٣٠٠٠ رب أسرة أي

١٥,٠٠٠ نسمة. وطبقاً لهذه الأرقام يكون متوسط عدد أفراد العائلة الواحدة خمسة أفراد أيضًا.

وكان عدد سكان مدينة «الحامَة» ALHAMA التي استولى عليها أمير قادش CADIZ سنة ١٤٨٢م ٦٠٠ نسمة كما أكد القِسّ «بالاثيوس» LOS PA-LACIOS، ومات في تلك المناسبة حوالي ٨٠٠ من العرب الذكور وبعض الإناث وقُبض على ٣٠٠٠ نسمة تقريباً بين صغار وكبار[٣٥]. ومن هنا يمكن أن نفترض أن عدد سكانها كان ٣٧٠٠ نسمة تقريباً، وهو رقمٌ يحدد متوسط عدد الأفراد في كل عائلة إلى أكثر من ستة.

وبدراسة تلك البيانات عن العدد التقريبي لأفراد العائلة المتوسطة في مدن: «أنتقيرة» ANTEQUERA و«مَالَقة»، و«الحامة»، فإننا نتمكن من تحديد ٦ أفراد يقيمون في كل مسكن. ومن ثَم يمكننا معرفة الكثافة السكانية لكل هكتار وهي ٣٤٨ فرداً[٣٦].

وطبقاً للحسابات السابقة نستنتج إذاً أن مساحة المسكن المتوسط تعادل ١٧٢ مترًا وعدد المقيمين فيه ستة أفراد.

ولنقم بعملية رياضية معتمدين على بيانات حسابية غير دقيقة، وهذا أمر يؤدي بطبيعته إلى نتائج تقريبية فقط. وبعد إتمام دراسة دقيقة للموضوع يستنتج أن نسبة الخطأ قد تكون في أغلب الأحيان أدنى من ٣٣٪ ولن تزيد عن ٥٠٪ على الإطلاق. ويمكن الحصول على استنتاجات أكثر دقة بمقارنة المساحات الداخلية للأسوار التي تعتمد على مصادر صحيحة حتى ـ ولو أنها غير كاملة ـ كما قيل من قبل، ذلك لأنه ليس لدينا علم بعدد المساكن الواقعة خارج السور أو المتناثرة في المناطق المحيطة المجاورة. وباستثناء حالات نادرة للغاية يمكن

التأكد من أنها لا تعادل نصف عدد المنازل الواقعة داخل الأسوار. والأرقام التي حصلنا عليهــا من الكثافة السكانية والعمــرانية يجب مقارنتها بالأرقــام الخاصة بعدد المساكن الكلي وبعــدد السكان التي حصل عليها علماء الحــوليات القدامى والمؤرخون الأكثر أمانة. ولنوضح مبدئيًا أنــه لا يوجد اختلاف كبير بين النتائج التي حصلنا عليها باســتعمال الطريقتين، وهذا يؤكد الصلاحية الــنسبية للطريقة الأولى.

والاستنتــاجات التي حــصلنا عليهــا سوف تفيــدنا، على الأقل، في رفض الأرقام التي تقــدم أحكامًا على غير أســاس وبصورة نمطية منقــولة من قصص قديمة منذ عدة قرون ودون إمعان النظر في استحالتها.

وقد كتب حديثــاً مؤرخ أسباني بارز عن قرطبة مبــيناً أن تلك المدينة كان بها ٥٠٠,٠٠٠ نسمــة فــي الــقــرن العاشــر الميلادي، بينما يقول مــؤرخون آخرون في تاريخ حديــث أيضــاً بأن مدينة غرناطة كــان بها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة في القرن الرابع عشــر الميلادي. وأُســر بمدينة عبــيدة ١٠٠,٠٠٠ أسيــر من المسلمين سنة ١٢١٢م عندما استسلمت المدينة لجــيوش «ألفونسو الثامن» بعد معــركة العقاب (لاس ناباس دي تولــوســا» LAS NAVAS DE TOLOSA ). وبغض النــظر عن صعوبات إمداد تلك الحشود بالمواد الغذائية وعن مشاكل انتقالهم من مكان إلى آخر، فلندرس المساحــة التي احتلتها تلك المدن المزدحــمة في القرون الوسطى. فإذا طبقنا الأرقام التي حصلنا عليها من قبل التي تحــدد ١٧٢ مترًا مربعًا كمساحة للمسكن المتــوسط، وستة أفــراد لعدد المقيــمين فيه، تمكــنا من التوصل إلى أن المدينة التي بها ١٠٠,٠٠٠ نسمة يكون فيهــا ١٦,٦٦٦ مسكناً، وتحتل مساحة قدرها ٢,٨٦٦,٥٥٢ متراً مربعاً؛ أي أنّ مساحتها تزيد عن ٢٨٦ هكتاراً، وبها

كثافة سكـانية تساوي ٥٨ مسكناً و٣٤٨ نسمة لكل هكتـار. وإذا افترضنا تلك المدينة المثاليـة مربعة الشكل أيضـاً فإن الضلع الواحد من المحـيط الكلي سوف يسـاوي أقل من ١٧٠٠ مـتـر طولي تقـريبـاً، وهذه هي المسـافـة بين نقطتين متـقابلـتين على محـيط المربع، والطول الكلي لأسوارهـا سيكون سـتة أكـيال ونصفـاً. وإذا طبقنا هذه العمليـة الحسابيـة على مدينة بها ٥٠٠,٠٠٠ نسـمة مربعة الشكل أيضاً، فإننا نجد أن طول مـحيطها يساوي ١٤,٨٠٠ متر طولي، والمسافةَ بين نقطتين متضادتين على طول المحيط تساوي ٣,٧٠٠ متر طولي.

وباستـثناء مدينة قرطبـة التي لا يمكن حساب مـساحتـها في القرن العـاشر الميلادي ـ ومن المعتقد أن بها حوالي ١٠٠,٠٠٠ نسمة ـ فإن باقي مدن أسبانيا الإسلامـية، كإشبـيلية وغرناطة وطليطلة ومـايورقة والمريّة وبطليوس وأستـجة وسرقسطة وشريش وبلنسية وجيان ومرسيه ومَالَقة وأبذة، كانت بعيدة عن تلك الأرقام. ويمكن لأي شخص التأكد من هذه الظاهرة بسـهولة بالاستعانة بالرسم البياني وبفـحص تخطيطات حديثة لتلك المدن التي احتـفظت بأسوارها القديمة التي تعود إلى القرون الوسطى[٣٧]. وحتى لو أخـذنا في الاعتبـار الفروق في كثافة السكان بين المدن الأسبانيـة المسلمة والمدن الحديثة ـ علماً بأن تلك الفروق تختلف كل الاختلاف وليـست دائماً من نفس النوع ـ فإن من الواضح أن هذه الأخيرة تتجاوز اليوم بصورة شاسعة النواة السكانية العربية المنغلقة داخليًا كخلية أولى لمساحة المدينة.

(1) Sobre la imposibilidad de llegar a evaluaciones demográficas de alguna precisión antes del siglo XV, véase Pirenne, **La civilisation occidentale au Moyen Âge du XIe au milieu du XVe siècle,** p. 148. Acerca del problema demográfico, puede verse el reciente y muy interesante trabajo, **Sur les témoignages d'acroissement de la population en Occident du XIe au XIIIe siècle,** por Léopold Génicot **(Cahiers d'Histoire mondiale,** I, pp. 446-462). Afirma Génicot que el aumento demográfico de la Europa cristiana del siglo XI al XIII, admitido por todos, es hecho muy mal conocido, por no haberse arriesgado nunca a su estudio analítico, al creer que la pobreza de la documentación existente le condenaba al fracaso, sin más resultado que la deducción de vagas conclusiones generales (Ibidem, p. 446).

(2) Ibn Jaldūn, **Prolégomènes,** I, pp. 14 y 19.

(3) La publicación de ediciones críticas del «Repartimiento», impreso hace años de Valencia y de los inéditos de Málaga, Murcia, Orihuela, Ecija, Jerez, etc., es una de las más urgentes a acometer por los paleógrafos y eruditos españoles. Reciente es la publicación del de Sevilla por don Julio González, pero de él no se puede deducir dato alguno demográfico respecto a esa ciudad.

(4) **Convertir ces gains territoriaux en nombre de citoyens est impossible. Cela supposerait qu'on calculât au préalable la densité de l'habitat urbain au bas moyen âge et entreprendre un tel travail serait d'autant plus téméraire que cette densité varie d'une ville à la voisisine et, dans une même ville, d'une période à la suivante ou d'un point à l'autre,** ha escrito Génicot **(Sur les témoignages d'acroissement de la population en Occident,** I, pp. 453-454.

(5) Para Ganshof, «el criterio por excelencia de la extensión urbana sigue siendo el estudio de los recintos sucesivos» **(Développement des villes,** p. 51).

(6) Más adelante se intenta justificar esta afirmación.

(7) Muy atinadas observaciones pueden verse sobre este extremo en el **Mémorial Jean Sauvaget,** t. I, p. 65.

(8) Es posible que estuvieran barreados por obras tan livianas como serían los muros de modestas viviendas y tapias, más de cerramiento que de protección militar, de las que, naturalmente, no queda rastro.

(9) Véase **infra, «Los contornos».**

(10) Más adelante se dan algunos datos sobre sus exiguas dimensiones, a las que aluden escritores islámicos como Ibn Jaldūn y no pocos cristianos.

(11) Véase **infra,** «Calles mayores y secundarias».

(12) Véase **infra,** «Plazas y zocos».

(13) A. Joly calculó en 1904 que la superficie intramuros de Tetuán ocupada por los terrenos sin construir y los jardines era un quinto de la total de la ciudad **(Tetouán,** por M. A. Joly, con la colaboración de MM. Xicluna y L. Mercier, p. 299).

(14) Véase **infra,** «La medina, los arrabales y los barrios».

(15) Casas sin patio hay en la Alhambra; construidas en lugares aislados, no en calles, constituyen casos excepcionales.

(16) Leopoldo Torres Balbás, **El barrio de casas de la Alcazaba malagueña,** pp. 396-409).

(17) Superficie en metros de las casas: alcazaba de Málaga, 38,30; 49,50; 51,90; 78,40 (dos); 86,00; alcazaba de la Alhambra, 16,40; 21,80; 22,10; 25,60; 27,20; 27,90; 30,00; 39,00; 44,70; 54,10; 70,90; secano de la Alhambra, 80,40.

(18) Superficie de las casas en metros: alcazaba de Málaga, 178,00 y 183,50; alcazaba de la Alhambra, 130,30; secano de la Alhambra, 117,90; Almería, 187,20. La extensión de esta última es aproximada, pues no se llegó a descubrir la vivienda completa. La casa morisca del número 2 de la calle de Yanguas, en Granada, idéntica a las islámicas en dimensiones y plano, ocupa una superficie de 115,50 metros.

(19) Torres Balbás, **Plantas de casas árabes en la Alhambra,** pp. 380-387; **Excavaciones y obras en la Alcazaba de Málaga,** pp. 173-190; **La Acrópolis musulmana de Ronda,** pp. 469-475.

(20) Superficie de las casas en metros: Alhambra, frente a la fachada meridional del palacio de Carlos V, 210,90; alcazaba de Málaga, 210,45; casa de la placeta de Villamena, en Granada, 225,45 (superficie aproximada, por no conocer más que las dimensiones del patio y de las crujías que limitan dos de sus lados. Su descripción y planos: **Los restos de la casa árabe de la placeta de Villamena en Granada,** por Jesús Bermúdez Pareja, pp. 161-164. Casa de los Infantes, en Granada, 300,40 (superficie aproximada, por no estar bien definidos los límites de esta casa, derribada hace unos 40 años) (**Granada: la ciudad que desaparece,** por Leopoldo Torres Balbás, pp. 312-314, y **Guía de Granada,** por Gómez Moreno, pp. 219-230); casa de los Gigantes, en Ronda, 312,00. No carece de interés comparar estos datos con los publicados por Taracena sobre el promedio superficial de las casas hispanorromanas conocidas y medidas: 200 metros cuadrados, las más frecuentes; 600, las que se pueden reputar de lujosas (B. Taracena Aguirre, **Las fortificaciones y la población de la España romana,** p. 428).

(21) **Vélez Málaga,** por Moreno de Guerra, pp. 371-372.

(22) En el «Repartimiento» de Valencia, escrito en latín, se inventarian, algunas veces, **domus optimas, máximas, bonas, mediocres, parvas** y **parvissimas** (**Repartimientos,** por Bofarull, pp. 516, 519, 520, 524, 528, 560, 571, 633 y 644). Los repartidores de la ciudad de Mallorca comenzaron por escoger las 30 casas mayores de la ciudad; menos concienzudos que los de Valencia, no especifican categorías entre las restantes, unas 4.220 (**ibidem,** pp. 116-126).

(23) Carriazo, **Asiento de... Ronda,** pp. 32, 36, 113, 128, 175, 186, 211, 213, etc.

(24) **Ibidem,** p. 23.

(25) La planta del barrio de la Alcazaba de la Alhambra no está completa, por lo que no puede hacerse con sus casas un cálculo semejante al realizado para las de la Alcazaba de Málaga.

(26) Valera, **Crón. de los Reyes Católicos,** p. 271.

(27) Bernáldez, **Hist. de los Reyes Católicos,** tomo I, p. 256.

(28) Otras «gentes de las que vivían en las comarcas y se metieron en ella (en Málaga, poco antes de comenzar su asedio) con sus mujeres y fijos e bienes», aumentando así «la mucha gente que en ella avía». Durante el cerco, era tanto el hambre en la ciudad, «que los más días algunos moros salían a se ofrecer por esclavos de los cristianos, eligiendo de su voluntad el cautiverio por sostener la vida». Muchos fueron los muertos: «es cierto que así de feridos como de enfermos murieron en este cerco más de tres mill cristianos e más de cinco mill moros, por confessión suya». El rey Católico escribía a su hijo, el arzobispo de Zaragoza, el 18 de agosto de 1487, al entrar en la ciudad rendida, que «a vueltas de la extrema fambre que tenían, y la mucha gente, que, assí por muertes como por feridas, les fallecía... les fué forzado... entregarnos la ciudad». El arrabal que estaba a la parte de la mar, «avía muchas hvertas e casas caydas». Respecto al otro, «su circuito era grande, los moros tenían en él sus ganados»; árboles y huertas que tiene (Málaga) en grand abundancia, dentro de la cibdad y en los arrabales» (Pulgar, **Crón. Reyes Católicos,** vol. segundo, pp. 281-282, 284, 292 y 321; Valera, **Crón. de los Reyes Católicos,** p. 274; Antonio de la Torre, **Los Reyes Católicos y Granada,** p. 88; Maqqarī, en Gayangos, **Mohammedan Dynasties in Spain,** II, p. 381. En las Ordenanzas dadas en 1489 por los Reyes Católicos para el acrecentamiento y gobernación de Málaga se dice que, a causa de que muchas de sus casas estaban caídas y «de las sanas, hera neçesario darse a los vesinos della mucho mas conplimiento que los moros tenían» (es decir, que las viviendas de los musulmanes malagueños eran muy reducidas para los pobladores cristianos); no se podrían avecindar dentro de la ciudad más de 1.200 vecinos (**Documentos... de Málaga,** por Morales, tomo I, p. 4).

(29) Piferrer y Quadrado, **Islas Baleares,** p. 116.

(30) Prescíndase de las cifras decimales.

(31) Tan buen conocedor de la civilización hispanomusulmana como es el señor Lévi-Provençal así lo afirma, aunque con algunas reservas: «Comúnmente, la casa no albergaba más que a una sola familia; pero entre las clases más pobres de la población podía suceder que un matrimonio no dispusiese más que de una habitación, lo cual suponía la permanente promiscuidad de los arrendatarios, y era fuente de disputas y altercados entre vecinos» (Lévi-Provençal, **España musulmana,** t. V, Hist. Esp. Men. Pidal, p. 267).

(32) **Ibidem,** p. 399.

(33) **Crónicas de los reyes de Castilla,** II, LXVIII, p. 331.

(34) Valera, **Crón. de los Reyes Católicos,** p. 189.

(35) Bernáldez, **Hist. de los Reyes Católicos**, t. I, p. 151.

(36) Las cifras de densidad humana por unidad superficial hay que manejarlas con mucho cuidado por su enorme variación; es peligroso sacar consecuencias de ellas. París, en el reinado de Luis Felipe, tenía 150 habitantes por hectárea y en 1896 su media era de 321; Roma, en 1944, 400. En el Marrākuš actual, los barrios de Guéliz, la **madīna** y el **mallāh** (barrio judío), tienen, respectivamente, 35, 450 y 1.350 habitantes por hectárea (P. Flamand, **Quelques renseignements statistiques sur la population israélite du sud marocain**, p. 386). Ferdinand Lot calcula una densidad para las ciudades medievales de Occidente de 200 a 300 habitantes por hectárea.

(37) Consúltense además de los planos que acompañan a este estudio, la carpeta de planos de ciudades españolas de la obra del malogrado arquitecto alemán Oskar Jürgens, **Spanische Städte**. Sus planos están todos a la misma escala de 1/5.000 (equivocadamente figura en ellos la de 1/10.000), lo que permite comparar su superficie.

## الفصل التاسع

## مقارنة ديمغرافية بين المدن الأندلسية والمدن الأوروبية في القرون الوسطى

إذا كنا قد تناولنا في موضوع التمـدن وتنظيم المدن في القرن العاشر الميلادي في الأندلس فإننا بالكاد قد أشرنا لمدينة قرطبـة. ففي القرن اللاحق نجد أخباراً مخـتلفة عن مـدن أخرى مـزدهرة ولدينا علم بمحيطهـا على نحو يعـيننا أن نستنتج مساحتها الداخلية وتحديد عدد سكانها التقريبي. وباستثناء البعض منها، وهي التي ركّزت نشاطها على المجال الصناعي والتجاري مثل ماهو الحال بمدينة المريّة، فإن أكثرها أهمـية وكثافة كانت تقع على وديان يسـهل فيها الري. ومن هنا أصبحت أولى المراكز السكنية المهمة في النهضة العمرانية للمدينة في أوروبا الغربيـة. بالإضافـة إلى ذلك، فإن تلك المدن في عصـر ملوك الطوائف وتحت سيـادة المرابطين (في القـرن الحادي عشـر وفي النصف الأول من القرن الـثاني عشـر الميلاديين) تمتعت بوضع اقتـصادي جيد بـفضل نموها الزراعي والصناعي والتجاري الكبير.

وكان يسكـن في الـمـدن المزدهـرة عدد من الأهالي أكثر ممـا ذكر المؤرخون المحدثون مقارنةً بالمدن المستجـدة المعاصرة في باقي الدول الغربية. وكانت تلك المدن مركـزًا لحضارة مـتقدمـة بأسواقهـا الدائمة الرخاء المـعتمـدة على صناعة مزدهرة. وكـانت أسوارها العاليـة تمتد حول المساكن الـعديدة المزدحمة الجـاثية على سفوح القـصبات الواسعة المحصّنـة، حيث أقيمت بداخلها قصـور فاخرة وأسواق عـديدة مـزودة بكل أنواع المؤن بالإضافـة إلى العديد من الحـمامـات والفنادق والمنازل والقصور التي كانت تثيـر إعجاب الأجانب الزائرين للمنطقة.

وكان يوجد في بعضها دار السكة التي كانت تُضرَب فيها الدنانير، أي النقود الذهبية.

وكان يسكن تلك المدنَ الأمراءُ والكتاب ورجال الأدب والعلوم والمزارعين المكلفين بزراعة الأودية المجاورة، بالإضافة إلى العمال والنساجين والفخارين والصاغة والدباغين والخبازين، إلخ. وكانت منتجاتهم تباع في العديد من الأسواق وفي الكثير من المتاجر؛ وقد صُدِّرت تلك المواد والمنتجات الزراعية إلى مدن شمال أفريقية وشرق البحر الأبيض المتوسط، وبالأخص إلى المدن الإسلامية المشتركة في اللغة والدين وخصوصًا عن طرق الحج والعمرة إلى مكة. ومنذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ازدادت الاتصالات البحرية والتجارية لتلك المدن بوساطة سفن الجمهوريتين الإيطاليتين جنوة وبيسا.

وفي أواخر القرن العاشر الميلادي بلغ تطور قرطبة ذروته، ولم يظهر ذلك التطور في مساحة المدينة بسبب عدم معرفة حدود أحيائها الخارجية. وقد بلغت المساحة العظمى لمدينة المريّة ٧٩ هكتارًا تحت سيادة «خيران» (توفي سنة ٤١٩ هـ ــ ١٠٢٨م)؛ وقبل نهاية القرن الحادي عشر الميلادي بلغت المساحة الداخلية لمدينة «مَالَقة» ٣٧ هكتارًا، ثم اتسعت مساحتها في النصف الأول من القرن اللاحق وشملت مباني الربضين الخارجيين، واحتفظت بتلك المساحة حتى تاريخ استيلاء الملكين الكاثوليكيين عليها سنة ١٤٨٧م؛ وبلغت مساحة غرناطة الداخلية ٧٥ هكتارًا عندما توفي «باديس» (٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م)؛ وفي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي كانت المساحة الداخلية لمدينة طليطلة ١٠٦ هكتارات، ومدينة مَيُورقة ٩٠ هكتارًا، ومدينة بلنسية ٤٤ هكتارًا؛ وفي سنة ١١١٨م عندما سيطر ألفونسو المحارب على سرقسطة، وكانت مساحة المدينة

٤٧ هكتــارًا (وأقيمت أســوارها فوق الأســوار الرومانيــة في القرن العــاشر أو الحادي عشر الميلادي)، وكان للمدينة في ذلك التاريخ ربضان خارجها. وكانت مساحة أسوار أشبيلية والتي أقيمت بفضل جهود المرابطين في النصف الأول من القرن الثــاني عشر الميلادي ١٨٧ هكتــارًا؛ أما المساحة المحـصورة داخل أسوار مدن «بطليوس» و«أستجة» و«شريش دي لا فرونتيرا» فكانت ٧٥، و٥٦، و٤٦ هكتاراً على التــوالي، مع ملاحظة أنها من أعمال الموحـدين في النصف الثاني من القرن المذكور.

وباعتبار الحسابات السابقة يمكن استنتاج أن تلك المدن بالمساحة الداخلية كان يفترض أن عدد سكانها كما يلي:

طليطلــة = ٣٧,٠٠٠ نسمة تقريباً.

المريّـــة = ٢٧,٠٠٠ نسمة تقريباً.

غرناطــة = ٢٦,٠٠٠ نسمة تقريباً.

ميورقــة = ٢٥,٠٠٠ نسمة تقريباً (سُميت «بَالْـمَـا» فيمـا بعـد).

سرقسطة = ١٧,٠٠٠ نسمة تقريباً.

مَالَقـــة = من ١٥,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠ نسمة تقريباً.

بلنسيـــة = ١٥,٥٠٠ نسمة تقريباً.

إشبيليــة = ٨٣,٠٠٠ نسمة تقريباً.

بطليوس = ٢٦,٠٠٠ نسمة تقريباً.

إستجــة = ١٨,٠٠٠ نسمة تقريباً.

شريش (دي لا فرونتيرا) = ١٦,٠٠٠ نسمة تقريباً.

وعلى هذا فقد وجدت في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي في أسبانيا الإسلامية تسعة مراكز على الأقل مزدحمة وغنية بالحضارة المدنية المتطورة. زادت المساحة المسورة لكل منها عن ٤٠ هكتاراً وعدد سكان كل منها زاد عن ١٥,٠٠٠ نسمة. وهذه المراكز هي قرطبة وإشبيلية وطليطلة والمريّة وغرناطة وميورقة وسرقسطة ومَالَقة وبلنسية.

وللعثور على نظائر لها في نفس العصر وعلى مدن أخرى كبيرة كان يجب الاتجاه إلى المناطق الواقعة على الطرف الآخر للبحر الأبيض المتوسط مثل مدينة القسطنطنية وهي أكثرها ازدحاماً، حيث بلغت في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، طبقاً لبعض التقديرات، مليون نسمة، ولكن البعض الآخر يقدر عدد سكانها ما بين الـ ٢٥٠,٠٠٠ إلى ٣٥٠,٠٠٠ نسمة بل وحتى ١٠٠,٠٠٠ نسمة[١]؛ ومدينة القاهرة الفاطمية (٩٥٨هـ - ١١٧١م) التي بلغت مساحتها داخل الأسوار ١٤٠ هكتاراً تقريباً، وبلغ عدد سكانها في القرن الحادي عشر الميلادي ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، كان نصفهم يسكن داخل أسوار المدينة[٢].

ولوحظ في تلك السنوات ذاتها في الدول الغربية الأخرى بوادر متواضعة أو نادرة لتطور المدن.

ويمكن القول بأن الدول الغربية الأوروبية قد مرت بقرون طويلة من الانحطاط بعد الحضارة المدنية الراقية للامبراطورية الرومانية؛ فعندما انقطعت المواصلات خلال تلك الفترة وكادت تختفي الصناعة والتجارة في الدول البعيدة، هجر السكان المدن وغاب الكثير من العمال والتجار واقتصر نشاطها على كونها مراكز دينية وسياسية فقط بأنماط شبه ريفية.

وقد أدى الانحطاط البالغ في الحياة المدنية إلى انتشار اقتصاد ذي طابع زراعي. وأكد بعض المؤرخين المعاصرين الانقطاع السريع للنشاط المدني باستثناء ما وجد في إيطاليا الجنوبية وفينسيا اللتين استمر بهما بفضل الاتصالات التي استمرت بينهما وبين مدينة «بيزانسيو» BIZANCIO وهي المدينة التي لم تختف منها الحضارة عند انتقالها من العالم القديم إلى عالم القرون الوسطي. وضمن المرحلة الطويلة المذكورة يأتي العصر «الكارولنجي» CAROLINGIO ، من منتصف القرن الثامن حتى أوائل العاشر والذي بلغ ذروة الانحطاط. ومن أبرز ملامح ذلك توقف دار السكة عن سك النقود الذهبية واستبدالها بالقطع الفضية ابتداء من القرن التاسع الميلادي. ولم تستأنف تلك الظواهر في أوروبا الغربية ـ دليل واضح على نهضتها الاقتصادية ـ إلا في شبه الجزيرة الإيبيرية، حتى القرن الثالث عشر الميلادي؛ وفي فرنسا تحت مُلْكِ سان لويس (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠م)؛ وفي الوقت نفسه بدأ في مدينة فلورنسا ضرب نقود الفلورين وفي مدينة فينيسيا ضرب الدوقية.

ومنذ أواخر القرن العاشر الميلادي والقرون اللاحقة، وبالأخص في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وهي فترة هدوء ونظام نسبيين بدأت فيها بعض الدول الأوروبية في الإنشاء والتنظيم، ظهرت البوادر الحقيقية للنهضة التي يمكن أن تسمى بالنهضة «الرومانية» الذي يرجع اسمها إلى الفن العالمي الروماني الذي نشأت وتطورت به. وبدأ الناس في الانتقال من مكان إلى آخر مدفوعين بأسباب تجارية أو دينية ـ كفترة الحج والحروب الصليبية في الشرق والتي بدأت منذ سنة ١٠٩٦م ـ؛ كما ازدهرت الصناعات؛ وتمت زراعة مساحات كبيرة من الأراضي لتغذية الأعداد المتزايدة من السكان. ومع التحسن

الاقتصادي تجمع المواطنون في مراكز مدنية جديدة - بالقرب من القصور المحصّنة وحول أماكن العبادة والأديرة وبالقرب من الموانئ الطبيعية للشواطئ وعند مصابّ الأنهار وعلى طول الطرق الجغرافية والعسكرية والدينية وعند تقاطعاتها - كما ازداد عدد سكان المدن القديمة ازدياداً بارزاً حتى تحوّل البعض منها، ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، إلى مدن كبرى وأصبحت مراكز تجارية بارزة وأسواقًا دائمة ومراكز للحرف الصناعية تضاهي مدن الإمبراطورية الرومانية.

إن المسائل التي أثيرت حول هذه الأحداث وخاصة الديمغرافية والاقتصادية والمبينة في الأسطر السابقة بصورة وجيزة، توقظ في الوقت الحالي اهتمامًا خاصًا، لأن التغيرات في الكثافة السكانية والتقلبات التي تطرأ على الثروة تُعَدّ فصلاً من الفصول البارزة، وقد تكون أهم ما في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وبالتالي أهم ما في التاريخ السياسي في القرون الوسطى(٣).

إن التحول من حضارة الإمبراطورية الرومانية، بمدنها المتعددة العظيمة ذات الإنشاءات الجيدة، إلى الحياة البدائية الزراعية للقرون الوسطى، يُعَدّ ظاهرة تاريخية تتطلب اهتماماً بالغاً للاستفادة منها. ففي أعماق الفكر الإنساني الواعي يكمن الخوف من تكرار الحدث بصورة أشمل، فإن المدن الكبيرة الحالية، ذات الأعداد السكانية الهائلة في أغلبها يتحول بسرعة غداً إلى مساحات من الأنقاض المغطاة بطبقة كثيفة من النباتات الطفيلية تتناثر على طولها بعض التلال التي تشير إلى موقع أكثر المباني أهمية وارتفاعاً التي كانت تمثل فخراً لحضارتنا.

إن المؤرخين القائمين حالياً على دراسة هذه المشكلات يعترفون بانتعاش

النشاط التـجاري في أوربا الغـربية في القـرون الوسطى، كما قلـنا، ابتداءً من أواخر القرن العاشر الميلادي وبصورة أكثر وضوحاً ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي، عـلى طول الشواطئ الإيطاليـة وبالأخص في الجزء الشـمالي لشـبه الجزيرة الإيطالية [٤] وفي مناطق الفلامان والمناطق الواقعة بين أنهار «الإسكالدا» ESCALDA و«الموسا» MOSA و«الرّاين» RIN. وأنشأت جمهوريات فينيسيا وبيسا وجنوا أساطيلَ خـاصة للنشاط التجـاري مع الموانئ النصرانية والإسلامـية على حد سواء، وهناك أساطيل أخرى للحمـلات العسكرية بالأجر أو لقاء نسبة من الغنيمة. وقد ساعدت الحروب الصليـبية في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عـشـر الميـلادي والـقـرون اللاحـقـة عـلى ازديـاد المواصـلات بصـورة بارزة وبخاصة الملاحـة في البحر الأبيض المتوسط، كما سـاعدت تلك الحروب على ازدهار الملاحـة. أما المدن الـثلاث السـابق ذكـرها الواقعـة في شـبة الجـزيرة الإيطالية، بالإضـافة إلى مدينة «باليـرمُو» PALERMO في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ومدينة «فلورنسا» FLORENCIA في تاريخ متأخر، فقد ازدادت عدداً وثروة بسبب تنظيمـها التجاري الفعال بالإضـافة إلى مواردها المالية وإلى تقنياتها الصناعية[٥].

أمّا مدن «الفلامان» FLAMENCAS فكانت تملك أساطيل لتصدير أنسـجتها التي كانت مصدراً أساسياً لنمـوها وثرائها. وسرعان ما تطورت مدينتا «أراس» ARRAS و«أيبرس» IPRES في الاتجاه الجنوبي؛ ومـدينة «جانت» GANTE في ناحية ألمانيا؛ وفي وقت لاحق مدينة «بروخاس» BRUJAS. وهذه المدن المذكورة بالإضافة إلى بعض المدن الفرنسية لم تبلغ مرتبة المراكز المدنية الكبرى البارزة إلا في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي أو بالأحرى في القرن الثالث عشر[٦].

وكان ضمنَ المدن الأوروبية التي ازدهر فيها النشاط التجاري والصناعي ازدهاراً بالغاً تلك المدنُ التي كانت تقع بين وادي نهر «اللوار» LOIRE ونهر «الراين» RIN. فقد دل بناء الأسوار في تلك المدن على تطورٍ ما وهو الذي أعطى للمدن سماتها المدنية. كما تجب الإشارة إلى أن الأسوار المحصنة لم تكن جدرانها تبنى دائماً من الأحجار أو من الطوب كما كانت الحال في المدن الأسبانية المسلمة، بل اقتصرت على خندق ومتراس مقام خلفه من التربة المستخرجة من حفره. وكانت تلك المتاريس مزودة بسور من القضبان الخشبية وبأبواب أشد صلابة ورسوخاً. وكانت مدينة «كولونيا» COLONIA محصنة جزئيًا سنة ٩٤٨م؛ ومدينة «نامور» NAMUR التي ازدهرت فيها صناعة المعادن، محصنة سنة ٩٣٣م؛ وأقيم السور الأول في مدينة «ليج» LIEJA قبل سنة ١٠٠٢م وفي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين اقتصرت مساحة المدن الواقعة بين وديان نهري «الراين» RIN و«اللوار» LOIRE السابق ذكرهما على ثلاثة هكتارات أو أربعة؛ بينما لم تبلغ مساحة باريس تسعة هكتارات. وكانت المساحة الداخلية لأسوار مدينة «جانت» GANTE المقامة في أوائل القرن العاشر تساوي ٤,٧٥ هكتارات؛ والمساحة الداخلية لمدينة «دوي» DOUAI المنشأة في أواخر القرن السابق أو في السنوات الأولى من القرن اللاحق تساوي ٤,٨٠ هكتارات. وكانت المساحة الداخلية مدينة «بروخاس» BRUJAS التي بني سورها، على الأرجح، سنة ٩٧٧م أقل من ٣,٧٥ هكتارات. بينما لم تبلغ المساحة الداخلية لمدينة «لوفين» LOVAINA في أواخر القرن العاشر الميلادي إلا ٤,٧٧ هكتارات، أمّا مساحة مدينة «أمبرس» AMBERES فكانت تساوي ٢,٨٠ هكتار.

وفي القرن الحادي عشر كانت المساحة الداخلية لمدينة «ريمس» REIMS تبلغ ما بين ٢٠ و ٣٠ هكتاراً؛ أمّا مدينتا «باريس» و«روان» فكانت مساحة كل منهما أقل منها؛ وكانت مساحة مدينة «سواسون» SOISSONS ١٢ هكتاراً؛ ومساحة مدينة «بوفي» BEAUVAIS ١٠ هكتارات؛ ومساحة مدينة «أراس» ARRAS ٩ هكتارات؛ ومساحة مدينة «أميان» AMIENS ٨ هكتارات تقريباً؛ ومساحة مدينة «سونليس» SONLIS ٦ هكتارات، ومساحة مدينة «تورني» TUORNAIS ١٤ هكتاراً، ويرجع نمو المدينة الأخيرة، مثلها مثل مدن حوض نهر إسكالدا، إلى تطور صناعة الأقمشة وازدهار الاتجار بها، وقد بُني سورها بين سنتي ١٠٥٤ و١٠٩٠م. وكانت الأسوار الحامية لمعظم هذه المدن هي التي بنيت خلال السنوات الأخيرة المضطربة للإمبرطورية الرومانية وتم ترميمها وإعادة بنائها على محيطها الأصلي. وفي القرن الحادي عشر الميلادي، قبل سنة ١٠٨٩م، أقيم سور جديد في مدينة «بروخاس»، وكانت المساحة الداخلية لها ٢٥,٨٠ هكتاراً، كما بنيت قبل انتهاء ذلك القرن أسوار المدن الصناعية الآتية: «جانت» GANTE ومساحتها ٨٠ هكتاراً، و«دوى» DOUAI وربما «إيبرس» IPRES. ومن المعتقد أن السور الأول لمدينة «باسيليا» BASILEA قد بني سنة ١٠٨٠م؛ وكان محيطها كيلين. وفي مدينة «بزانسون» BESANCON قاموا بتحصين سور المدينة الأصلي عند تأسيسها في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي(٧).

وقد ازداد عدد سكان المدن وبخاصة في غرب أوروبا نتيجة لتطور الملاحة البحرية والنمو الاقتصادي والعسكري البارز من بداية القرن الثاني عشر. واستمر هذا التطور بمعدل سريع ودون انقطاع حتى أواخر القرن الثالث عشر(٨)، ويرجع

ذلك إلى ظروف مختلفة في الحياة الاقتصادية والسياسية أدت إلى نهضة صناعية وتجارية انعكست انعكاساً بارزاً في حياة المدينة واقتصادها. وقد كان القرن الثالث عشر هو العصرَ الذي بلغت فيه المدن الكبرى في «إيطاليا» ITALIA و«فلاندس» FLANDES و«فرنسا» FRANCIA ذروة ازدهارها؛ وقد برزت هذه الظاهرة نفسها في المدن الإنجليزية والألمانية في وقت لاحق، لكنها ازدادت بصورة أقل نسبة من الأولى. وبلغ عدد سكان مدينتي جنوة GENOVA وفينيسيا VENECIA في أواخر القرن المذكور ١٠٠,٠٠٠ نسمة؛ وفي خلال هذا القرن بلغت مدينة ميلان بين ١٧٥,٠٠٠ إلى ١٨٠,٠٠٠ نسمة؛ أما مدينة باليرمو فقد وصل عدد سكانها إلى أكثر من ٥٠,٠٠٠ نسمة[٩]؛ وبلغ عدد السكان في مدينة «نابولي» ٣٠,٠٠٠ نسمة وفي مدينة «ميسينا» ٢٥,٠٠٠ نسمة. ولم تبلغ مدينة «فلورنسا» FLORENCIA الـ ٤٥,٠٠٠ نسمة إلا في سنة ١٢٨٠م[١٠] وكان بمدينة «بادوا» في السنة اللاحقة ٣٩,٠٠٠ نسمة تقريباً. وحسب المؤلف «بيرنّي» PIRENNE الذي درس الدول الأوربية السفلى، فإن عدد سكان مدينة «إبرس» IPRES في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ٢٠,٠٠٠ نسمة تقريباً ملاحظاً أن تلك الدول كانت تمر بازدهار صناعي ملموس.

ويلاحظ التطور الواضح للمدن الأوربية في القرن الثالث عشر الميلادي حين كان الازدهار الباهر للمدن الإسلامية ذكرى ماضية بعيدة. وعندما انتقل الكثير من أهم تلك المدن إلى سيطرة السلطة النصرانية في القرن الثالث عشر وفي القرن السابق انقطعت فيها الحياة الاقتصادية إثر طرد سكانها المسلمين. هذا، بينما استمر سكان المدن الأوروبية الأخرى في النمو المتدرج دون انقطاع حتى القرن الرابع عشر عندما توقف نمو السكان في أغلب المدن بسبب الأوبئة المروعة

القرن الرابع عشر عندما توقف نمو السكان في أغلب المدن بسبب الأوبئة المروعة التي من أشهرها الطاعون الأسود سنة ١٣٤٨/ ١٣٤٩م، وبسبب الحروب المستمرة والاضطرابات الاجتماعية. ومن المحتمل أنه لم يُوجد في ذلك القرن في شبه الجزيرة الإيبيرية إلا مدينتان ازداد فيهما السكان والمساحة الداخلية، وهما بلنسية وغرناطة، وهما من المدن الإسلامية الأصل، ويرجع الفضل في هذا بالنسبة لبلنسية إلى ازدهار التجارة في البحر الأبيض المتوسط. أما مدينة «غرناطة» فمرد ازدهارها إلى أنها أصبحت عاصمة «المملكة» التي تركز فيها المسلمون المهاجرون بعد الهجمات النصرانية، ومن ثم ازدادت مساحة المدينة وارتفع عدد سكانها.

* * *

(1) A. Andréades —**De la population de Constantinople sous les empereurs byzantins**, pp. 68-112— da la cifra del millón de habitantes para Constantinopla. Ferdinand Lot, **La fin du monde antique et le début du Moyen âge**, pp. 81 y 517, la cree enormemente exagerada y estima que no pasaría de 250.000 a 300.000. Roberto López la rebaja todavía más, en la alta Edad Media, hasta 100.000 (Lacarra, **Panorama de la historia urbana**, pp. 408-409).

(2) **Le Caire**, por Clerget, I, pp. 126 y 238-239.

(3) Jean Helperin, **Les Transformation économiques aux XIIe et XIIIe siècles**, p. 21. Para Marc Bloch, **Les caractères originaux de l'histoire rurale française**, p. 17, el renacimiento urbano y económico del Occidente de los siglos X al XIII fue el hecho de consecuencias más trascendentales en la historia de la civilización europea. Génicot ha escrito en fecha reciente que hay pocos problemas históricos tan importantes como el del incremento demográfico medieval (**Sur les témoignages d'accroissement de la population en Occident du XIe au XIIIe siècle**, por Leopold Génicot, p. 462).

(4) Algunos eruditos italianos creen que el aumento demográfico comenzó en su país en el siglo X (G. Luzzatto, **Storia económica d'Italia**, Vol. I, p. 212; P. Torelli, **Un comune cittadino in territorio ad economia agricola**, I, pp. 151 y sigs.; R. López, **Les influences orientales et l'éveil économique de l'Occident**, apud **Cahiers d'Histoire mondiale**, I, p. 597).

(5) **Rapport de M. A. Sapori**, pp. 283, 289-292.

(6) **Les Villes du Moyen Âge**, por Henri Pirenne, pp. 17, 90-91 y 119. Excelente exposición resumida de estos problemas en la obra de Charles. Verlinden, **Introduction à l'histoire économique générale**, pp. 23, 42 y 45-53. La bibliografía es extensísima y aumenta a diario.

(7) F. L. Ganshof, **Etude sur le développement des villes entre Loire et Rhin au moyen âge**, pp. 17, 35-38, 45 y 58; Ferdinand Lot, **Naissance de la France**; Pirenne, **La civilisation occidentale**, p. 148; F. Vercauteren, **Etude sur les civitates de la Belgique seconde**; Charles Verlinden, **L'histoire urbaine dans la Péninsule Ibérique**, apud **Rev. Belge de Philol. et d'Hist.**, XV, p. 1145.

(8) Pirenne, **La civilisation occidentale**, pp. 62-63.

(9) Según Ibn Hawqal de Bagdad, cuya obra **Al-masālik wa'l-mamālik**, que parece haberse redactado en fecha anterior a 367/977, Palermo en el siglo X tenía unos 300.000 habitantes y en número de mezquitas tan sólo la excedía Córdoba (de Goeje, **Bib. Geogr. Arab.**, II).

(10) Davidsohn, **Forschungen zur Geschichte von Florenz**, II, segunda parte, p. 171. La cita es indirecta, por no haber podido consultar esta obra.

# الباب الثاني
# تنظيم المدن

# الفصل الأول

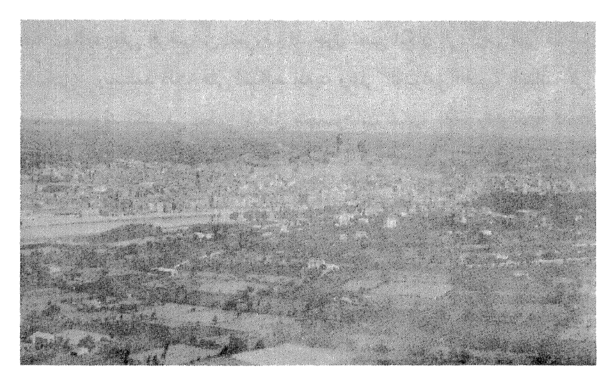
## تأسيس المدينة: الأرضية

يمكن تعريف تأسيس المدينة بأنه مـجموعة العوامل الطبوغـرافية المحلية التي تشكل المدينة وتؤثر في تخطيطها ونموها.

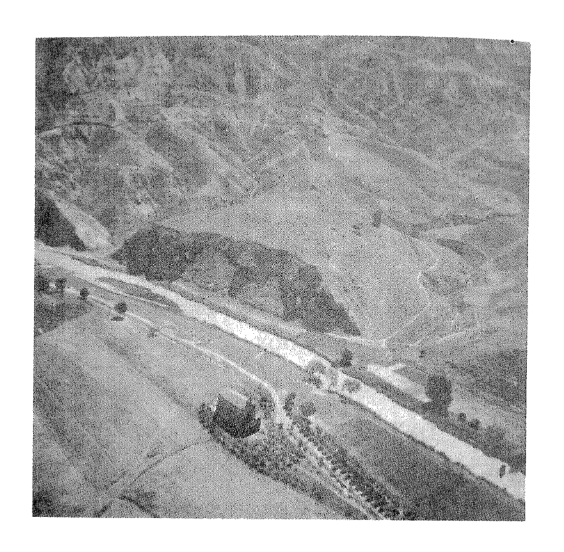
وقد سـبقت الإشـارة في الصفـحات السابقـة إلى المواقع التي تحتـلها المدن القليلة التي أسسها المسلمون في شـبة الجزيرة الإيبيرية. وقد اتضح من ذلك أن تأسيس تلك المواقع لم يخضع لأفـضلية معينة ولا لمبدأ من المبـادئ العامة، بل كان يخضع إلى الإرادة الفردية أو إلى ضرورات مـؤقتة ومحلية. ويرجع أصل تأسيس الأغـلبية العظـمى من مدن أسبـانيا الإسـلاميـة القديمة التـأسيس إلى المجموعات السكنيـة للأهالي المحليين. فهناك قانون يعبر عن استـقرار البشرية في مكان ما، وعلى ضوء هذا القانون فإن أي مكان عامـر يظهر مقاومة شديدة ضد زواله، على الرغم من الظروف قد تحوّل نفس المكان إلى أرض غير صالحة للسكنى. ويعـتمد ذلك على تقـاليد المدينة وعلى العـوامل الحيوية القـائمة في منطقتها. وقد تكثر في بعض المناطق مجمـوعات سكنية مهجورة ولكنها كانت في أغلبها قرى وضيعاتٍ ومزارعَ لم تبلغ صفة التمدن على الإطلاق.

ويرجع الأصلُ القديم لمعظم المدن الأسـبانية المسلمة إلى اختـيار موقع المدينة المؤهلة في كثيـر من الأحيان لتأمين العـوامل الدفاعية. وكان أغلبـها يمتد على منحدرات المرتفعات الوعرة، بينا يكون القصر أو القـصبة على القمة منها. أما النهر أو الجدول المائي الذي كان يمر في كثيـر من الأحيان أسفلها، فكان خندقاً طبيعـياً مناسبًا ترتفع على أحـد جانبيه أسوار المدينة. هـذا هو الحال في مدينة «وادي الحجـارة» ومديـنة «لوشة» و«أنتـقيـرة» و«لبلة» و«مونتـيليا» و«لـورقة»

و«تطيلة» و«لاردة» و«بطليوس» و«أوريولَة» و«قلعــة عبدالسلام» وغيرها كــثير.
وإذا شكّل النهر منعطفاً حول الجزء الأكبــر من الجبل، فإن المدينة المؤسسة عليه تعتبر حصينة وبالأخص إذا أضيف إليها سور «محصّنٌ» على البرزخ المؤدي إلى مدخلهــا. وتلك هي الحالة المعــروفة في مدينة «طليطــلة» الواقعة على صــخرة وعرة من الجرانيت التي يحــيط بثلثي دائرتها المجرى الغائرُ والوعر لنهــر التاجه TAJO الذي يلتف حول المدينة على هيــئة منجل؛ ومدينة «شنتمــرية» (البرّاثين) ALBARRACIN في محافظة ترويل المحاطة إحاطة شبه كاملة بنهر «التوريا» -TU RIA، ومــدينة «أركــوس دي لا فرونتيــروا» ARCOS DE LA FRONTERA في محافظة (قادِش) الواقعة على قمة صــخرة عاليــة محــاطة بنهر «الجواداليتي»[١] GUADALETE ومديــنة «بويتــراجو» BUITRAGO (مدريد) على «منــعطف نهر «اللوثويا» LOZOYA.



منظر لمدينة لاردة مع هضبة القصبة، في أسفل الصورة السيجريه وحوله السهل.



الهضبة التي كانت عليها قلعة عبدالسلام (القلعة القديمة) وأسفلها نهر هناريس، وفي الأعلى بقايا لأسوارها وفي الأسفل (في الأمام) صومعة نويسترا سنيورا ديل بال
(أُخذت الصورة من الجو ل. رويس ديه ليون)

كما أن الأرض التي تقع عند ملتقى نهرين كـانت تتمتع بموقع دفاعي ممتاز، لأن النهرين يعدان خنادق طبيعية تمنع من دخول العدو إليها. وكانت تقع فيهما المدينة الرومانية لانثيا LANCIA في محافظة «ليون» LEON. «وهي المدينة القوية الكبرى ضمن مدن شمال أسبانيا في تاريخ الفـتوحات الرومانية، كما أنها تعد

المعقل الأخير لأهل أسبانيا ضد روما»[٢] وتقع هذه المدينة على ربوة وعرة عند ملتقى نهري «الإسلا» ESLA و«البورما» PORMA؛ وهناك أمثلة أخرى منها: مدينة «قَلْسانة» CALSENA بمحافظة (قادش) المنقرضة التي مرت بنفس ظروف المدينة السابقة، فهي تقع عند ملتقى نهري الجواداليتي GUADALETE و«المخاثيتي» MAJACEITE؛ ومدينة «شقوبية» SEGOVIA على رأس الزاوية المشكلة من التقاء نهري «الإرسما» ERESMA و«الكلامورس» CLAMORES، ومدينة «كوكا» COCA (في شِقوبية) على ملتقى نهري «الفولتاثا» VOLTAZA والأرسما؛ ومدينة بينافيل PENAFIEL (في محافظة ابن الوليد) بين نهري «الدويرو» DUERO و«الدوراتون» DURATON، ومدينة «أريبالو» (أبيالا) AR-EVALO بين نهري «الأداخا» ADAJA و«الأريباليُّو»؛ AREVALILLO؛ ومدينة «هارو» HARO (لوقرونيو) LOGRONO بين نهري «الإبرو» EBRO و«التيرون» TIRON؛ ومدينة كوفرنتس COFRENTES (في بلنسية) على ملتقي نهري «كابريبل» CABRIEL و«خوكار» JUCAR. ومن المدن الإسلامية الأخرى كانت «قونكة» CUENCA الجاثمة على قمة صخرة جبلية وعرة عند ملتقى نهري «الخوكار» و«الويكار» بمجرييهما الغائرين؛ ومدينة «ولبة» HUELVA التي تحيط بأراضيها مياه نهري «أوديبل» ODIEL و«تينتو» TINTO؛ ومدينة «أشبيلية» التي يحميها غربًا نهر «الوادي الكبير»، وجنوبًا المجرى المتواضع للنهر الصغير «تاجاريتي» TAGARETE، المحجوب اليوم الذي كانت مياهه تصب في نهر الوادي الكبير إلى الاسفل قليلاً من منطقة برج الذهب TORRE DEL ORO.

ولعل المدينة التي كانت تتمتع بحماية كبيرة هي مدينة «الجزيرة» ALCIRA (بلنسية)، فقد كانت المدينة، كما يدل على ذلك اسمها، تحتل جزيرة في وسط

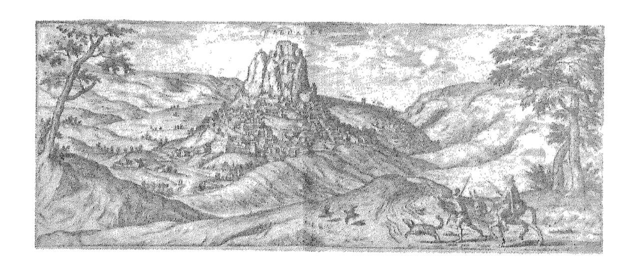
مـجرى نهـر «الخوكـار» JUCAR. وعلى الرغم من احـتفـاظ مدينة «الجـزيرة الخضراء» ALGECIRAS في (قادش) بنفس التـسمية العربيـة التي كانت ترجع إلى جزيرة صـغيرة مجـاورة لها، فإنهـا أقيمت على أرض صلبـة على شاطئ البحر.

وفي أغلب المدن التي لا تمر بها أنهـار صالحة لأن تكون خنادق حامـية على طول أسوارها كان يستـعان بالمرتفعات التي يصعب الوصول إليها فـتساعد هذه في الوقت نفـسه على الدفـاع عنها عـبر الأبراج والدروب. ويلاحظ مـثلاً في مدينة «المريّة» كيف كانت التوسعات المتتالية للمدينة حتى حافة الوهاد.

وقد أقيمت بعض المدن، بصـورة استثنائية، على قمة شبه مـسطحة لصخرة من الصخـور الضخمـة البارزة المطلة على وادٍ أو سهـل أو على الريف المحيط فتبدو مثل قلعة طبيـعية. ومثال ذلك مدينة «موريًّا» MORELLA في «قسطلونة» في المنطقة الشرقيـة؛ ومدينة «أتينسه» ATIENZA في وادي الحجارة في محافظة قشتالة؛ وكذلك مدينة «أردالس» ARDALES في مَالَقة في الأندلس.

وفي بعض الأحيـان لم يكن ينعزل التل الذي أقيمت على منحـدراته مدينة من المدن انعزالاً تاماً، بل كـان يمثل جزءًا من التضاريس التي تشـمل المرتفعات المجاورة له. والتي من خلالها كان يُسهِّل الهجوم والسيطرة على المنطقة المسورة للمجموعة السكنية. وإذا أصبحت تضاريس أرضـية المدينة صعبة وغير متساوية فإن الأمر في هذه الحالة يحتاج إلى إدخال تلك المرتفعات العالية المجاورة داخل أسوار المدينة. وأشهر الأمثلـة على هذا النوع مدينة «غرناطة» إذ كانت تقع هي وقصبـتها إبَّان القرن الحادي عشـر الميلادي على تل صغير على الضـفة اليمنى لنهر «دارُّو» DARRO؛ واضطرت المدينة إلى إدخـال التل المجاور في أسـوارها

الذي يقع عليه قصر الحمراء بعد النمو العمراني وزيادة سكان المدينة خلال القرنين اللاحقين، ويعتقد بأنه كان على هذا التل حصن قديم غير ذي بال.



منظر لأرداليس (مالقة) وضواحيها في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

وقد مرّت مدينة «المريّة» بحال مشابهة للمدينة السابقة حين بدأت تتشكل فيها الأحياء الجديدة في القرن الحادي عشر الميلادي مما اقتضى بناء سورٍ حول الجزء الأعلى لقمة «سان كريستوبال» SAN CRISTOBAL التي كانت تطل عليها. وكذلك حال مدينة «مَالَقة»، فلو كان جبل «خيبرالفارو» GIBRALFARO على مسافة بعيدة نسبياً من المدينة لما تمكن النبّالون من إصابتها من قمة ذلك الجبل، ولكن عندما انتشرت الأسلحة النارية الطويلة المدى في القرن الرابع عشر الميلادي احتاج الأمر عندئذ إلى إقامة حصنٍ على القمّة التي كانت تتصل بالقصبة بواسطة ممر مغطى بين سورين.

وكان موقع قلعة أيوب CALATAYUD أكثر صعوبة، فقد كانت المدينة تقع

بجوار غوطة تعدّ «مفتاحًا» لعدة طرق طبيعية وبهذا كانت تحتل موقعاً إستراتيجياً لا مثيل له. وقد أسس المسلمون المدينة بعد الفتح بقليل على وهدة طبيعية، وحول أسفل الوهدة فيما بعد إلى شارع رئيس يربط ما بين البابين المتقابلين لسور المدينة. ووقعت داخل السور قمم التلال الأربع المطلة على الوهدة وعلى المدينة. وأقيمت على تلك القمم حصون عالية أخرى، فامتد السور إلى أسفل الوهدتين البارزتين ثم إلى الغوطة والنهر حتى أصبح الجزء الشرقي المسطح داخل المنطقة المحصورة بين الأسوار التي استمدت الحماية أيضاً من المجرى الطبيعي لنهر «الخالون».

أما منحدر الوهدة الذي كان يمر بأسفله الشارع الرئيس لمدينة «دروقة» DA-ROCA في سرقسطة والذي كان يربط بين البابين الرئيسين لسور المدينة فقد كان أضيق من الوهدة السابقة. وقد كان على جانبيهما جبلان وعران عاليان؛ وظل الجزء الأكبر من المساحة الداخلية المحصورة بين أسوارها الطويلة خالياً من السكان كما كان الحال في مدينة «قلعة أيوب» التي كانت تتسع لعزل المواشي عند الطوارئ، وفي هذه الحالة نجد أن الأسوار تتسلق المنحدرات الجبلية المائلة تاركة في داخلها قممها.

أما مدينة «رُنْدة» فإن حالتها كانت استثناءً «إذ أقيمت المدينة على صخور عالية جداً وعلى صخور أخرى متشققة»[٣] على هضبة قمة جيرية، وليست تلك القمة إلاّ صخرة ضخمة مقطوعة رأسياً بشكل حاد حول الجزء الأكبر من دائرتها بواسطة نهر «وادي اللبن» GUADALEVIN الذي يشق طريق مجراه الضيق العميق بين تلك الشقوق. وقد أقيمت المدينة الإسلامية على الجزء الجنوبي الأقصى من هذه الصخرة مُستَمِدَّة حمايتها شمالاً من الفالق العملاق

لنهر وادي اللبن، علماً بأن هذا الفالق العملاق ليس إلا خندقاً ضيقاً عميقاً يبلغ طوله كيلاً واحداً، ويتجاوز عمقه مئة متر في بعض أجزائه. ولم يعد الجزء المقابل منه في الجانب الشرقي أكثر وعورة من الجانب الغربي ولكنها كافية لوقاية المدينة التي كانت تستمد حمايتها أيضاً من أسوارها المتعددة الأبراج. وأخيراً لو اتجهنا جنوباً للاحظنا أن أرض الوادي ترتفع تدريجياً وتختفي الصخرة تحت الأرض ويصبح مدخل الهضبة مسطحًا سهل الدخول. وفي سبيل حماية ذلك المدخل، وهو المكان الوحيد المجرد من عوامل الحماية الطبيعية الكبرى، أقيم قصر محصن، وقد دُمِّرَ بعد الاستيلاء النصراني.

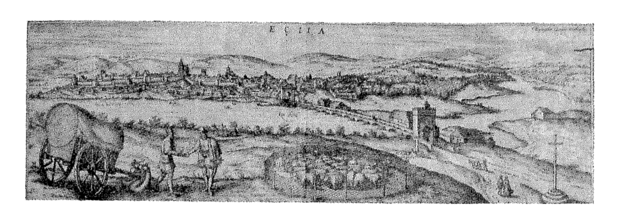
أما موقع مدينة «شَنْت أشتبين» SANTISTEBAN (في جيّان)، فكان حصناً مشهوراً تردد ذكره في أثناء تمرد عمر بن حفصون، وقد فُتح بعد جهود شاقة بفضل عبدالرحمن الثالث في عام ٣١٣هـ ـ ٩٢٥م، وكانت أرض تلك المدينة محاطة بثلاث قمم جبلية؛ أهمها كانت منبسطة الرأس وعُرِفَتْ باسم «القُلَيعة» CASTILLO، التي تمتد منها منحدرات وعرة وفي الجزء الأعلى منها هضبة واسعة شبه دائرية يبلغ قطرها ٢٠٠ متر تقريباً ومحاطة بأسوار قوية تمتد حتى الجزء الأسفل من المدينة لتطويقها.

لما كانت مدينة «شاطبة» JATIVA (في بلنسية) تقع على أحد المداخل الجنوبية من أبواب بلنسية وعلى المنحدرات الجنوبية الصخرية لجبل «برنيسا» BERNISA، وهو جبل صخري وعر ذو قمة عالية، فقد دعت الحاجة إلى بناء قصرٍ محصَّنٍ على كلٍّ من طرفي القمة. وأُقيمت الأسوار ابتداء من القصرين، وامتدت هابطة على منحدرات الجبل حتى المدينة القديمة الواقعة على سفح الجبل لإحاطتها وحمايتها. أما المدن البحرية الواقعة عند الشروم المهيأة لوصول السفن

فتمتد غالباً بين جبل غير بعيد عن البحر كانت تحتله القصبة وشاطئ البحر، وكانت العادة تقضي أن تبنى بجوار الشاطئ أسوار المدينة.

وقد أقيمت المدن في مناطق أخرى على أرضٍ مستوية، نظراً لعدم وجود المرتفعات الطبيعية. وكانت تلك هي حالة بعض الشروم الممهدة للملاحة البحرية، ومن أمثلتها تلك التي أقيمت عليها مدينتا «ميورقة» و«بلنسية»، وهما مدينتان مزدهرتان في القرن الحادي عشر الميلادي، وقد عرفت «مايورقة» فيما بعد باسم «بالما» PALMA. ذلك الموقع، الصالح عسكرياً، كان اضطرارياً بالأخص عند المخارج ومعابر أهم أنهار شبه الجزيرة الإيبيرية التي كانت التجمعات المدنية فيها تشكل حصونًا حقيقية تُعرف حالياً باسم آخر هو: «رؤوس معابر» CABEZA DE PUENTE حيث تحمي معبر النهر وتمنع عبور الأعداء. وكانت ـ ومازالت ـ مدينة سرقسطة تقع فوق أرض مستوية على نهر الإيبرو على أكثر الطرق استعمالاً في شبه الجزيرة في القرون الوسطى. وكذلك كانت حال مدينة قرطبة المنعوتة «بالمسطحة» LLANA في كتاب **القصائد الشعبية** والواقعة على نهر الوادي الكبير GUADALQUIVIR. واختير موقع أشبيلية على ضفة نهر الوادي الكبير، على أرضٍ من الطمي مجردة تقريبًا من التضاريس. كذلك اختير موقع مدينة «ماردة» بالقرب من المعبر الكبير لنهر «الجواديانا» GUADIANA؛ وموقع مدينة «طلبيرة» TALAVERA على نهر «التاجُه» TAJO جنوب مدينة «طليطلة»؛ وكذلك موقع مدينة «أستجة» ECIJA التي كانت تحمي معبراً آخر على نهر «الخينيل» GENIL، وتقع مدينة «مرسية» بالقرب من معبر المراكب على نهر «شقورة» SEGURA. وكانت مدينة «شلب» SILVES (في البرتغال) تقع على أرض مسطحة، وكذا مدينة «بريانة» BURRIANA في

كاستيون. واحتاجت تلك المدن الواقعة على أراض مسطحة إلى حصون ضخمة نظراً لعدم وجود تضاريس طبيعية مناسبة لحمايتها، ولم تكن تستعين إلا بحماية واحدة، هي الحماية المشكَّلة من مجرى النهر في جزء من حدودها.




إستجة (أشبيليا) وضواحيها في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

(Civisate Orbis Terratum)

وإذا كانت الأسباب العسكرية والدفاعية هي العوامل الرئيسة في بناء المدينة ونموها في مكان تندر فيه المياه الجارية التي لم تكن تستبدل بشكل سهل بتلك المحفوظة في الأجباب ALJIBES، فقد تكرر في هذه الحالة بناء المدينة على حافة تيار مائي فياض إلى حد ما كاف لكي تستمد منه المدينة هذا العنصر الحيوي للإنسان. وهنا لابد أن تمتد الأسوار إلى أسفل ضفة النهر أو الجدول المائي بغرض تسهيل تموينها بالماء في حالة الحصار ولتعبئة خزانات المياه في داخل المدن. وفي داخل بعض المدن من بينها «أُقليش» و«جيَّان» و«أرشدونة» ARCHIDONA و«إيورا» ILLORA و«وادي الحجارة» GUADALAJARA و«شاطبة» كانت هناك بعض الينابيع التي يحتمل أنه يرجع إليها منشأ تلك المدن القديمة. ولكن فيما يتعلق بتموين مدينة ما بالماء فكانت أنسب الحالات أن يعبر خلالها

نهر دائم مـثل ما كانت عليه الحـالة في غرناطة GRANADA وميورقة وطريف TARIFA والجزيرة ALGECIRA[٤]. كما كـان للتيار المائي فائدة بالغـة لتحريك دواليب الطواحين.

(1) «Abraza a esta ciudad y elevada roca el río Guadalete por la mayor parte de su circunferencia, abriéndose paso con estrechuras, y por una formidable profundidad» (Ponz., **Viaje de España,** XVII; pp. 285-286).

(2) Gómez Moreno: **Catálogo monumental de España, Provincia de León,** pp. 53-55.

(3) Vicente Espinel, **Vida del escudero Marcos de Obregón,** disc. VII.

(4) El río de Mallorca, que cruzaba la ciudad, según su **Repartimiento,** sería con frecuencia una rambla sin agua alguna. Corrientes de agua intramuros tenían, según Idrīsī **(Description... de l'Espagne,** texto, p. 176; trad., p. 2112), Tarifa y Algeciras; la de esta última —el río de la miel— separaba los cerros ocupados por la vieja Algeciras y la fundada en el último cuarto del siglo XIII. En Fez, como en Granada, un río atraviesa la ciudad y el agua se reparte por toda ella, como ocurría en la andaluza.

## الفصل الثاني

## التنظيم العام للمدينة

### تخطيط هيكل المدينة.

يجدر بنا إلقاء نظرة على تخطيط المدينة قبل أن نتناول بالتحليل الدقيق العناصر التي تدخل في تركيب المدينة، حتى لو اضطررنا أن نعيد ذكر بعض العناصر السابق ذكرها.

كانت المدينة الأسبانية المسلمة في أغلب الحالات مُشكَّلة من مجموعة متلاصقة من المساكن المحوطة بالأسوار التي كانت تحميها وكانت تفصل بينها وبين الأرض المجاورة. وهناك استثناءان لهذه الحالة هما مدينة «بَجَانة» PE-CHINA بمقاطعة (المريَّة) ومدينة «مربيطر» MURVIEDRO بمقاطعة بلنسية. فالأُولى كانت تتكون من أحياء أو حارات متناثرة حول مسجد عظيم جامع. وقد استمر هذا حتى سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤-٨٨٥م في مملكة الأمير محمد الأول عندما نزل بالقرب منها بحارون مغامرون أندلسيون حوّلوا مدينة بجانة إلى مجمع سكني مستقل لا مثيل له وقاموا ببناء سور حول المدينة[١]. أما فيما يتعلق بمدينة «مربيطر» فكانت كما يقول الإدريسي تشكلها مجموعة من القرى المعمورة المحوطة بحدائق[٢].

وفي الحالات العادية كانت المدينة المسورة تعتمد في جانب من حياتها وتطورها على المناطق المحيطة بها التي تزرع فيها الغلال وتوجد بها حدائق الفواكه والخضار والمراعي التي تزود المواطنين ومواشيهم بالغذاء.

وفي ضواحي كل مدينة كان يوجد عادة على المرتفعات المجاورة لها روابط

صغيرة (مفردها رباط)، وهي الكلمة التي استعملت في القصائد الشعبية بأسماء مختلفة ـ «رابيتا RABITA ، RAPITA «رابيدا» RAVIDA، وتتكرر هذه الأسماء في مبحث أسماء الأماكن الأسبانية ـ حيث كان يعيش بعض الناسكين الذين كرسوا حياتهم للعبادة والذين كان بصحبتهم أحيانًا بعض التلاميذ. ثم انعزلوا عن الدنيا في محاولة للفوز بالحياة الأبدية بمزاولة وسيلة شاقة هي التوبة والصلاة. وكان يحيطهم جو من الاحترام والوقار.

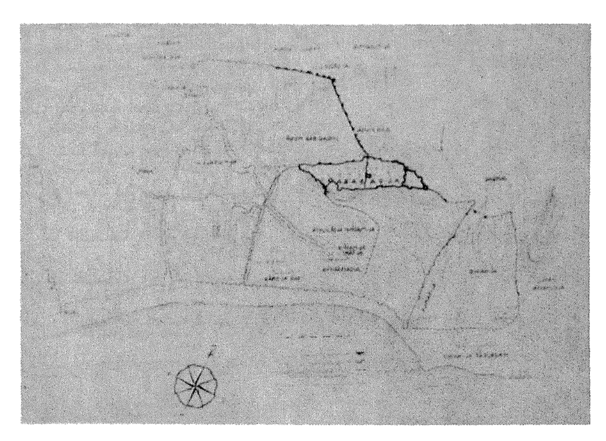
ومما كتبه «هرناندو ديل بولجار» HERNANDO DEL PULGAR في أوائل القرن السادس عشر الميلادي[٣] مايلي: «ولما كان أغلبية العرب الأسبان صدِّيقين، فإنهم يصدِّقون فقهاءهم ويعدّون الذين يعيشون في البرية معيشة الناسكين من الأولياء». وقد ازدهرت الحياة الصوفية الناسكة ازدهاراً بالغاً في الأندلس وبالأخص ابتداء من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي عندما تطورت المذاهب الدينية للمرابطين أولاً، ثم المذاهب الدينية للموحدين في وقت لاحق. وعند وفاة أحد المرابطين كانت العادة الجارية أن يدفنوه في الرباط الذي عاش فيه وحول مقابر هؤلاء الصوفيين انتشرت العبادة بين التائبين والأتقياء من أفراد الشعب الذين أقبلوا على مقابرهم لممارسة بعض الفرائض الدينية. وعندما انتقلت الأرض الإسلامية تدريجياً إلى السيطرة النصرانية تهدم كثير من تلك الأربطة المهجورة؛ بينما خصص البعض الآخر للأولياء النصارى وقد خلفت في نفس الأماكن الشعائر النصرانية الشعائر الإسلامية[٤]. وهناك رباط في ضواحي مدينة غرناطة عرف بمصلى سان سباستيان SAN SEBASTIAN تمت فيه بعض التغييرات، ويعود هذا الرباط إلى سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨-١٢١٩م وهو التاريخ الذي أقيم فيه قصر من القصور الكبيرة على ضفة النهر الخنيل GENIL المعروف باسم "قصر السيّد" نسبةً إلى السيد إسحق بن يوسف[٥].

وكان المصلى يقام عادةً في الضواحي القـريبة من المدينة على أرض مسطحة برحةٌ مستوية بقدر الإمكان. وكـان يقع عادة في الهواء الطلق وكان يطلق عليه أيضاً بالأسبانية العـربية اسم الشَّرِيعة SARI'A. وبالإضافة إلى الأرض المستوية التي تتسع لعـدد سكان المدينة فإن المصلى كان مزودًّا بمحـراب مؤقت أو دائم، مفتوح أحياناً في سور القبلة ليحدد اتجاه المصلين.

أما «الـمُـصَارَة» الموجودة في أهم المدن الأندلسية فإنها كانت تتطلب الشروط السابقة نفـسها، وهي أرض مستـوية خارج أسوار المدينة وقريبـة منها. وكانت المصارة أرضاً مخـصصة للتدريبات العسكرية والفروسـية ومكانًا للترويح العام. وكانت المصارة في بعض الأحيان تحتل مكان الشريعة بالقرب من المقابر الواقعة دائماً عند مخـرج المدينة، خارج الأسوار وقريبًا من الأبواب كمـا كانت العادة في الحضـارة الرومانيـة. وكان المسافـر الذي يصل إليهـا يمر أولاً بمدينة الموتى (المقبرة) قبل أن يدخل إلى المدينة.

وكانت مـعظم المدن الإسـلامية مـزودة بحائط أو بسـور ترتفع فوقـه بعض الأبراج، وكـانت مبنيـة من الطوب (اللَّبِن) أو من الأحجـار المنحوتـة، وكان السور يحمي المدينـة وسكانها والمقيمين في المناطق المجاورة لـها الذين يلجؤون إليها في حالة الخطر. ولم يذكر في الأندلس إلاّ مـدينة واحدة فقط مجردة من حماية السـور وهي مدينة «شلطيش» SALTES بالقرب من «ولبة» HUELVA، ويرجع هذا بلا شك إلى أنها مقامة على إحدى الجزر.

وإذا كانت المدينة مـبنية على جبل أو فوق منطقـة وعرة، وهي حالة كـثيرة الحدوث، فإن السور كان يتبع خطوط التضاريس المائلة، ممتداً على طول الوهاد وعلى مجارى النهر أو الأنهار القريبة والتي كانت تشكل خنادق طبيعية للمدينة.



مخطط للمريَّة في القرن الرابع عشر. توجيه توريّس بالبّاس
وتخطيط أوكانيا خيمينيث.

وكانت الدفاعات المشددة تتركز في الأجزاء المنبسطة التي يسهل الوصول إليها في محيط المدينة، أما الأجزاء التي كان يستعصي الهجوم عليها بسبب موقعها الوعر أو بسبب الحماية الفعالة المستمدة من نهر فياض أو السببين معًا، وللاقتصاد كان السور فيها يبنى مجرداً من الأبراج ومصمماً أحيانًا على هيئة خطوط متعرجة أو مسننة بغرض مقاومة هجوم العدو والاستغناء عن الأبراج. وكمثال على ذلك احتفظت مدينة «طليطلة» بجزء كبير من سورها الواقع على حافة الوادي في المنطقة الشمالية منه، وهذا دليل على صلابته، بينما لم يبق من دائرة السور الواقعة على المنحدرات الحادة المطلة على منعطف نهر «التاجُه» TAJO إلا آثار نادرة؛ فإنها لم تتمكن من مقاومة عوادي الزمن بسبب عدم

الاهتمام ببنائها. وعندما تكون المدينة على ضفة نهر وتكون الأرض منبسطة أو وعرة، فإن سورها يطل على رأس الجسر بغرض تأمين العبور فوقه ولمنع مرور الأعداء. وكان يقام أمام رأس الجسر أحياناً "بربخانة" أو حائط أمامي عالٍ محاط بخندق يستعمل في أغلب الأحيان لتقوية دفاعات المدينة.

وكانت القصبة تحتل الجزء الأعلى في المدينة، وهي عبارة عن مُدَيْنَة محاطة بسور ذي مساحة مناسبة. وكانت القصبةُ القلعةَ القوية والملجأ الأخير والحيَّ الصغير الذي يقام فيه القصر لسكنى الأمير أو حاكم المدينة أو المنطقة. وكان موقع القصبة دائماً بجوار السور العام للمدينة بغرض الخروج منها دون المرور بشوارعها، وكانت هذه الطريقة الحذرة متبعة بغرض الابتعاد عن غوغاء المدينة، ولم تحتفظ بشكل عام المدن النصرانية بهذه الطريقة في الفترات التاريخية اللاحقة؛ لأن خبرة التاريخ الماضي يشير إلى أنه يجب الحذر من العدو الخارجي دون أن يُنسَى العدو الداخلي.

وكان عدد أبواب السور يتناسب تناسباً طردياً مع أهمية المدينة. ومداخل السور المقابلة بعضها لبعض كانت متصلة بالشوارع التي كانت في الوقت نفسه الممرات الكبرى للتجمعات السكانية المدنيّة. ومن تلك الأبواب كانت تنطلق الطرق المؤدية إلى المدن المزدحمة، القريبة أو البعيدة، التي كانت المدينة على علاقة بها. وكانت الأبواب في أغلب الأحيان تسمى بأسماء المدن المجاورة، وكان يُشكَّل في داخلها أحيانًا كوع أو عدة أكواع معمارية تنتمي إلى عادة موروثة عن الهندسة المعمارية العسكرية البيزنطية هدفها عرقلة دخول قطاع الطرق إلى داخل الأسوار، وهذه العادة كانت نادرة الاستعمال في المدن النصرانية في القرون الوسطى.

وعندما لا توجد في داخل الأسوار ينابيع مائية ولا يمر بداخلها نهر من الأنهار فإنه يُعمَد في هذه الحالة إلى بناء سورٍ إضافي ينتهي ببرج ينحدر حتى التيار المائي أو المنبع المجاور. وكان السور ببرجه معروف في التسمية العربية المتأثرة بالرومانسية «بالكرزة» CORACHA ووظيفته هي تسهيل تموين المدينة بالمياه عند حصَارهَا.

وكان بناء السور يكلف كثيراً ويستغرق مدة طويلة لكنه كان يشكل حزاماً ثابتاً صلباً للغاية حول المدينة لمواجهة التقلبات الديمغرافية التي تمر بها. وعند تطور المدينة وزيادة عدد سكانها، كانت تضاف حولها أرباض تخطَّط حسب الظروف الطبوغرافية والحياة المدنية. وعندما تبلغ تلك الأرباض مساحة معلومة، فإنها عادة ما تسوّر بسور مستقل، وقد يصير جزء من السور الأصلي ملاصقاً لجزء من سور الربض الجديد. وهكذا فإن المدينة كانت تتشكل من القصبة المحصّنة تحصيناً قوياً وهي مقرٌّ للحكومة وتقع في الجزء الأعلى من أرض المدينة؛ كما كانت تتألف من دائرة أخرى أوسع مكونة من أسوار تنطلق من أسفل القصبة نفسها وكان هذا المركز يتسم بصفة «المدينة» MEDINA باعتبار أنه كان محاطًا بسور وبه مسجد جامع. كما تتكون المدينة من عدة أرباض مجاورة مستقلة ذات حكم ذاتي نسبي ومأهولة أحياناً بسكان من نفس الأصل أو لهم دور عملي متشابه في المجتمع. ولكل جزء من تلك الأجزاء المكونة للمدينة حياته الخاصة.

وتتألف المدينة والأرباض من أحياء مختلفة في مساحتها، منها الضيق جدًا وهو الغالب، ومنها المكوَّن من شارع واحد فقط. وكانت تفضي إلى الخارج بواسطة أبواب تغلق ليلاً. وقد كان لكل ربض وربما لكل حي ذي مساحة

متوسطة حياة مشابهة لحياة المدينة؛ فهو يشكل مدينة صغيرة مستقلة منظمة حول مسجدها فيها أسواق ومتاجر ومخازن للغلال وحمامات وأفران. والعناصر الوحيدة التي كانت تربط بين أقسام المدينة وأحيائها هي السور العام والمسجد الجامع الواقع في المدينة الذي يؤمه المصلون أيام الجمعة لأداء الصلاة وارتياد المتاجر الموجودة حوله.

وكان المسجد الجامع يقع في الشارع الرئيس من مركز المدينة ويتكون من بيت الصلاة وساحة كبيرة ذات أروقة مرتبة حولها، بالإضافة إلى المئذنة التي يرفع منها المؤذن صوته داعياً إلى أداء الصلوات.

وكانت الشوارع الرئيسة - لم يكن هناك مرور مركبات - أحيانًا مستقيمة نسبياً وبالأخص عندما تعود بأصلها إلى التخطيط المميز للمدينة الرومانية كما هو الحال في مدينة سرقسطة، ولكنها كانت ملتوية في أحيان كثيرة مغيرةً اتجاهها بشكلٍ مستمر كأنما تريد تأخر خروجها من باب المدينة. وكانت شوارع المدينة تتقاطع عادة عند مركزها حول المسجد الجامع في المكان الذي تتجمع فيه المحلات المؤقتة للتجار المتواضعين بمظلاتها وبمناضدها المتنقلة وكان يمر بينهم الباعة الجائلون الذين يعرضون بضائعهم بالنداء عليها.

وقد انتشرت الأسواق والسلع الهامة أيضاً في الشوارع المتجهة إلى المسجد الجامع؛ كما توجد بالقرب من المسجد القيصرية وعدد غير قليل من الفنادق لإقامة التجار الغرباء حيث إن بها أماكن لخزن بضائعهم وبيعها.

وتتصل بالشوارع الرئيسة شوارعُ أخرى أقلُّ منها أهمية وحركة، تقود إلى أزقَّة مقطوعة، بها أبواب تغلق ليلاً، وكانت تفتح على تلك الأزقة المنعطفة المعروفة باسم «الدروب» ADARVES أبوابُ المساكن. أما الشوارع الثانوية

والأزقّة الملتوية المتقاطعة فاتجاهاتها تتـغير باستمرار. وكانت الشوارع تتناثر على طول المدينة على هيئـة شبكة معـقدة متفـرعة مثل الأوردة في جـسم الإنسان. وكانت الأحـياء التي تتـجه إليهـا الدروب وتسمح بالمرور إلى مـداخل المساكن كبيرة وغير منتظمة؛ وكان بداخل بعـضها أفنية وحدائق. إذًا، كان هناك تقسيم خاص أشار إليـه علماء تنظيم المدن المعاصرون الذين يفـصلون ما بين الشوارع الصاخـبة المخصصـة للتجارة والحركـة، والأزقة الهادئة الصامـتة التي لم يكن يتجول فيها إلاّ سكان المنازل وزوارهم.

وكانـت الشوارع الملتـوية والأزقة والدروب في بعض المدن مـغطاة جزئـياً بواسطة سقائف التي تصل الطوابق العليا للمنـازل الواقعة على جانبي الشارع. وربما يرجع هذا الترتيب إلـى تلاصق المساكن داخل المدينة. وبسبب قلّة الحـيِّز امتدت بعض الطوابق العليـا للمنازل فوق الشارع بصورة جزئيـة، بحيث كانت المباني البارزة تستند على دعامات أو ركائز؛ وفي أحيانٍ أخرى تمتد كلها امتداداً كاملاً على جزء من الشارع مما أدى إلى تضاد شديد حيث وجدت مناطق مغطاة بظل كثيف يتخذه الأفراد ملجأ لطيفًا عندما يشتد الحر، ومناطق أخرى مشمسة جدًا.

كمـا كانت توجد أقواس صـغيرة عرضـيّة مبنيـة في أعلى الشوارع بين كل مسـافة وأخرى. وكان بعـضها يسـتخدم في سند أبواب مـداخل تلك الشوارع بينما يستعان بالبعض الآخر لدعم الجدران الخارجية الضعيفة البنيان.

كان نظام الشـبكة المتعرجة لطرق المديـنة هذا يمنع دخول الرياح القوية فيـها ومن ثم كان الجـو دائماً ساكناً، وهذا من أوضح خـصائص المدن الإسلامـية. على حين أن معظم شوارع المدن الغـربية تعد مفتوحـة للمرور الحر دون انقطاع

عدا الشـوارع المغلقة التي كانت تشكل حـالة استثنائية. ويرجع الاخـتلاف في تخطيط الشوارع إلى اختلاف أساليب الحيـاة الموجودة في تكوينها المتباين. ففي المدن النصرانية يتم أولاً إقامة الشارع على هيئة طريق تقام المساكن على جانبيه؛ وبعد ذلك تبنى شوارع أخرى عرضية تربـطها به وذات مبان مرتبة على الصورة السابقـة نفسـها. أما الشـوارع الرئيسـة في المدن الإسلامـية فتُنشـأ على شكل متطابق، ثم تنتظم بينهـا المنازل جنباً إلى جنب وتُشكِّل بهذه الصـورة الشوارع الفـرعية والأزقـة والدروب. وفي التـخطيطات المدنيّة الحـديثة هناك اتجـاه إلى تصميم المخططات على أساس الأراضي المناسبة، وليس ابتداء من الشوارع كما كانت العادة قديماً.

وكانت شبكة شوارع الأرباض أقل من السابقة حجـمًا وعددًا ولكنها مشابهة لها، فـهناك شارع رئيس عـلى امتداد شـارع المدينة وكان هذا الشـارع الرئيس يتصل بالمداخل المزدحمة كما يتـصل بالدروب عن طريق مدخل مفتوح عليه أو على الشوارع الفرعية الأخرى. أما قلب المدينة ومـركز حياتها الدينية والتجارية فكان، كما قلنا سابقًا، المسجد الجامع وما حوله.

كان الجامع يؤدي بطريقة ما الوظيفة التي كانت تقوم بها الساحة المركزية في المدن الرومانية. فـإضافة إلى أنه كان المكان الرئيس لأداء الصلاة فيـه كان أيضاً مقرًا لإقـامة الاجتماعات الـعامة الكبرى، ومكانًا لإعلان الأحكام القـضائية، وإعطاء الدروس وللدعاء عند الشروع في التحركات العسكرية. ومن فوق المنابر تُقرأ الإخـطارات والتقاريـر عن أهم الحوادث. وبالقـرب من الجامع والمسـاجد الثانوية كـانت العادة تقضي بإقـامة ساحة غـير واسعـة مكانًا للسوق الدائم أو المؤقت. أمـا في باقي مناطق المدينة فكانت الرحـاب نادرة؛ وفي داخل شـبكة

الشوارع والأزقة الملتوية كانت تتشكل أحياناً بعض الرُحَيْبات أو بعض الزوايا الفسيحة التي تفرج الضيق، وهي ناتجة عن التغيير الفجائي في اتجاه الشارع أو الازدياد المتكرر في عرضه.

وقد انتظمت التجارة في الشوارع المتخصصة تخصصاً دقيقاً، بحيث نجد فيها النقابات والمهن أو المحاصيل. وقد استمر هذا الترتيب حتى أيامنا الحاضرة، كما قال ماسينيون، نظراً لعدم تحقيق ثورة تقنية في طرق الصناعة عند الحرفيين. ولقد حظيت المهن المحلية الشريفة بالاستقرار في وسط المدينة. كما أقبل فلاحو المناطق المحيطة لبيع منتجاتهم عند أبواب السور حيث انتظمت الأسواق الخارجية. وكان حول المسجد الجامع عمال المهن اليدوية والمصارف وباعة العقاقير والعطارون وتجار المنسوجات والكتب. كانت المحلات والورش ضيقة للغاية ومكونة من طابق أرضي فقط ولا يدخلها المشترى عادة. وكان التجار وأصحاب المهن يسكنون في أماكن مختلفة من المدينة بينها الحواجز المميزة للمدن الإسلامية، وقد احتفظ بها الحي التجاري المشهور «الكانا» AL-CANA في مدينة «طليطلة» حتى القرن السابع عشر الميلادي. وأقيمت بعض الصناعات مثل صناعة الدباغة وأعمال الفخار في المناطق القريبة من المدينة حيث تتوفر المياه.

أما البضائع الفاخرة ذات السعر المرتفع كمنسوجات الحرير فكانت تخزن وتباع في القيصرية التي هي عبارة عن محلات مغلقة، وذات مدخل واحد أو عدة مداخل تفتح نهاراً فقط ومزودة بالحراس. وهي تقع بالقرب من المسجد الجامع مباشرة وأحياناً تتكون من عدة شوارع تجارية مغطاة أو مكشوفة.

وانتشرت في أنحاء المدينة مباني الحمامات الصغيرة المقببة والأفران العامة والمصلّيات الصغيرة والخلوات.

**تقسيم المدينـة.**

إن التقسيم من أهم مميزات المدينة الإسلاميـة وعند مقارنتها بالمدينة الرومانية لوحظ أن هذا التـقسيم يعنـي الفصل بين أجزائهـا المختلفـة بدرجة واضـحة؛ فالقصبة والمدينة وأرباضها كانت مراكز مستقلة بحياتها الذاتية. وانقسم كل منها إلى أحياء متعددة مغلقة بـأبواب. كما كانت الحال بالنسبة للدروب التي تشكل الوحدة المدنيّة الأخـيرة التي كانت تفتح عليها مـداخل المنازل التي كان داخلها متوارياً خلف الجدران المغلقة المجردة من أية فتحات.

والعناصر الوحيدة المشتركة في المديـنة كانت، كما ذُكر، السور العام الواقي من العدو الخارجي والمسجد الجـامع، الذي كان المصلون يؤدون فيه الصلاة في أيام الجمـعة، بالإضافة إلى الأسـواق والمتاجر والمراكز التـرفيهيـة الأخرى التي كانت توجد حولها.

إن الحاجـة الأولية إلى الدفـاع كانت تتطلب ذلك التـقسيم. ونظراً لتكرار فترات من عـدم الأمان والتمرد، كان الأمـر يستدعي حمايـة المدينة ضد العدو البعـيد، كما أن الحواجـز المتعددة داخل الأسوار كـانت ضرورية لحمايتـها من العدو الداخلي الأخطر لأنه الأقرب.

وإذا كانت المدينة الإسلامية مشتـقة من المدينة الرومانية فإنه جدير بالذكر أن المدينة الإسلامية اكتسـبت سريعاً شخصيتها المستـقلة. ولا تعد المدينة الإسلامية نتاج تفكك المدينة الرومانية كما يُدَّعَى أحياناً، بل إنـها تُعَدُّ إبداعاً ذاتياً مستمداً من شكل مخـتلف للحياة. إنه لمن المحزن جـداً فقدان المدينة الإسلامـية بسبب ميول المسـلمين المحدثين في الوقت الحاضر إلى تقليـد نظم غربية مدنـية قديمة ومـخـتلفـة كل الاختـلاف وأن يفكر هـؤلاء دون وعي في إزالة المدن الأثرية واستبدالها بمدن أخرى ذات شوارع مستقيمة واسعة.

(1) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, pp. 37-39; trad., pp. 47-49; Leopoldo Torres Balbás, **Almería Islámica,** pp. 416-425.

(2) Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** texto p. 191; trad . p. 232.

(3) Hernando del Pulgar, **Crónica de los Reyes Católicos,** Vol. II, p. 314.

(4) Torres Balbás, **Rábitas hispanomusulmanas,** pp. 475-491; Oliver Asín, J., **Origen árabe de «rebato», «arrobda» y sus homónimos. Constribución al estudio de la historia medieval de la táctica militar y de su léxico peninsular.**

(5) **Al-Hulal al-Mawšiyya,** trad. Huici, p. 196.

## الفصل الثالث

## المناطق المحيطة بالمدن

إن تنوع الظروف الطبيعية في مناطق الأندلس، بسبب تضاريسها المتباينة، كان كبيراً جداً. فمعظمها كان ينتمي في مُناخه وأرضه إلى البحر الأبيض المتوسط الذي يختلف كل الاختلاف عن مناطق أوروبا الوسطى. إذ إن الأرض وعرة حيث الكتل الصخرية العارية تطل برؤوسها في أماكن شتى؛ ووهاد عميقة محفورة بفعل التعرية، أو جافة في معظم الأحيان، أو أنه كان يجري في منخفضها جدول مائي صغير؛ أما بالنسبة للغطاء النباتي فهو من النوع الدائم في السهول البور التي تغطي معظم أنحائها، هذا بالإضافة إلى أنواع من الأشجار كالبلوط وأشجار الزند والسنديان والغطاء النباتي ذي اللون الأخضر الغامق المنتشر في سفوح الجبال. وكان هناك اختلاف شديد بين الأراضي الداخلية الفقيرة الصالحة للرعي أكثر منها الزراعة، والبساتين وأودية الأنهار في المنطقة الشرقية LEVANTE وعلى نهر «الوادي الكبير» GUADALQUIVIR وفي أماكن أخرى من الأندلس حيث تكونت أراضٍ ناتجةٌ من رواسب الأنهار المتأثرة بالشمس الساطعة وبالمياه الغزيرة التي تنتج محاصيل وفيرة. أما المناطق التي كان يقلّ فيها الماء فكان يختفي منها الغطاء النباتي الأخضر فجأة وتظهر الأراضي القاحلة والصخور الكلسية المحترقة بفعل حرارة الشمس فيتحول منظرها الطبيعي إلى أراضٍ جافة مغبرَّة. لقد كانت الأندلس منطقة من الواحات. كانت المدن العشرون الأكثر سكانًا فيها تقع بالقرب من الأودية والبساتين القادرة على تأمين الغذاء لسكانها؛ بينما يقع البعض الآخر على حافة بعض الأنهار الغزيرة الجارية عبر شبه الجزيرة الإيبيرية ـ نهر الوادي الكبير ونهر

الجواديانا ونهر الإيبـرو ـ أو كان يقع البعض الآخر بالقـرب من الشروم الملائمة للتجارة البحرية النشطة. ومن المدن العـشرين كانت هناك طليطلة وجيان وأبذة ووَشْقة وهي مـدن داخلية لم تساعدها الظروف على التطور بـسبب بعدها من الأودية الخصبة وبسبب موقعها السيئ.

وفيـما يتعلق بالمقـارنة بين الغطاء النباتي في الأندلـس إبان القرون الوسطى والغطاء النباتـي في أسبانيـا الحالية، فـسوف نعرض في الصـفحات المقـبلة بيانات لدراستها مع ملاحظة أنه ينبغي عدم تصديق بعض الكُتَّاب فيما يقولون. فيجب ألا نصدّق بوجود غابات واسعة مورقة كثـيفة، وكل ما هنالك هو مساحات من أشجار البلوط والزند الواسـعة التي اجتـثت بعد النصف الثـاني من القرن السادس عـشر الميلادي بغرض زيادة مساحة المناطق الزراعية واستعمال الخشب وقودًا في المنازل.

إن المدينة تغـير من المنظر المحـيط بها. فـهناك مثـلاً فرق شـاسع في المنظر المحيط بالمدن الأسبانية المسلمة قـبل حكم الملك فيليبي الثاني وبعده، ولـم يكن هذا الفرق في صـالح تلك المدن بعد فيليـبي الثاني. وسأحـاول أن أورد أمثلةً لمناظر تاريخية مـعتمداً على نصوص قديمة، وإن كان هـذا المشروع يحمل قدراً كبيراً من المخـاطرة، لأن تضاريس الأرض لـم تشهد تغيراً جـذرياً خلال بضعة قرونه. ولكن كم كانت التغييرات عديدة وعميقة في الطرق وفي الغطاء النباتي الذي تغلغلت جذوره فيها، والمباني التي أقيمت على أراضيها!

**مدن متجهة إلى الخارج ومدن متجهة إلى الداخل.**

للمواطن في أي مـدينة موقفـان متضـادان تجاه المناطق المحيطة به: فـإمّا أن يعيش بعيـداً عنها في انطواء تام داخلَ المدينة، وإمّا أن يجتازها مـرات كثيرة أو قليلة لكي يتمـتع بالطبيعة المحـيطة بها وبالآفاق الشاسـعة المترامية. وقد تأخذ

شعـوب معينة في فـترات تاريخيـة محددة الموقف الأول أو الثـاني دون التأثر بحالات القـحط أو الخصـوبة التي تلم بالمناطق المحـيطة بها. إن الحـياة داخل المدينة كانت في بعض المناسـبات مختلفة كـل الاختلاف عن الحياة خـارجها، باستثناء حياة الفلاحين المقيمين فيها الذين كانوا يزرعون الأراضي المجاورة لها.

إن الشعـراء الأندلسيين، كما كـتب هنري بيرث HENRI PERES لم يحبوا المدن المجردة من الريف، وكان المصـدر الأساسي لإلهامهم هو الـمُنْيَـة الواقعة بين الأنهـار والقنوات المائيـة التي كـانت حـول المدن. والأوصاف الشـاعـرية للحدائق، وهو النوع المعروف باسم «الرَّوْضِيَّات»، تتـوافر بشكل غير عادي في الأدب الأسباني المسلم حـتى كان يظن السامع أو القارئ أن الأندلس وأسـبانيا بأكمـلها روضة شـاسعـة كانت فـيهـا الأشجار والزهور تـنشر ألوانهـا الخلابة وأوراقها الغضـة. وفي القرن الحادي عشر الميلادي انتشـر حب الطبيعة في كل الطبقـات الاجتماعـية؛ كما أن انعـدام المركزية في السلطة وظهور التـعدد في الأسعار كل ذلك دفع أصحاب الثروة إلى إنشـاء مبانٍ فاخرة في وسط البساتين المتلئـة بالأزهار؛ ولم تملك أسبانيا الإسـلامية في تاريخها حـدائق ومتنزهات ومُنْيَات متـعددة مثل ما ملكت في هذه الفتـرة. وقد كان حلم كل أندلسي أن يملك قطعـة أرض يغرس فـيهـا الأشجـار والزهور. وقد وصـفهـا الوزير ابن الحَـمَّـارة قائلاً[1]:

لاحتْ قُراها بين خُضْرة أيْكِها كالدُّرِّ بين زَبَرْجَدٍ مكنونِ

[ النفح ١/ ٢٠٥]

وربما تستطيع الصـفحات التاليـة تأييد هذه التأكـيدات، إن أسبانيـا المسلمة كانت بلدًا زراعيًـا وكان مواطنو مدنها ـ منهم القليل من ذوي الامـتيازات لكي

بملكية الحدائق الخـاصة بداخل أسوار المدن ـ يشعرون بين فتـرة وأخرى بالحاجة إلى الابتعـاد عن مركز المـدينة المزدحم لقضاء بعض الـوقت في ضواحيـها في مسكن بين البسـاتين والحدائق في اتصال مباشر مع الطبـيعة. وتلك الحدائق لا تتفق مع نفس المصطلح بمعناه المعاصر: فالحديقة في بلاد الأندلس كانت خليطاً من النباتات الزكيـة الرائحة ونباتات الزينة الأخرى، بالإضافـة إلى الخضراوات وأشجار الفاكهة. ولهذا كان الشـعراء يذكرون في قصائدهم وصورهم المجازية الرائعة الورد والقرنفل والباذنجان والخرشوف.

وعلى عكس هذا، كان مواطنو أغلب المدن الأسبـانية المتمون إلى العائلات النمسـاوية و«البربونس» يحـسون باللامـبالاة الكاملة تجاه المناطق المحـطية بهم المقفرة والتي انحطت كليّةً منذ القرن السادس عشر. وإذا تأملنا حال سكان مدن الهضبة المركـزية في أسبانيا وجدنا التبايُن واضحـاً بين اتصالهم السابق بالمناطق الواقعة خـارج الأسوار وانطوائهم في الداخل فيما بـعدُ. والجدير بالملاحظة أن المراكز والمدن الأندلسية والشـرقية ذات الغوط والحقول الخصبة لم تفـقد حزامها النباتي الأخـضر بصورة جوهرية في القـرون الأخيرة، مثل مـا حدث في مدن مملكة «قشـتالة» CASTILLA. وقد يرجع هذا إلى المـناخ الأكثر اعـتدالاً وإلى الأرض المثمرة التي سـاعدت على إقامة ضيعـات زراعية بين البنادر والأراضي الخـضراء في المناطـق المجاورة لهـا، ولكنهـا لم تبلغ الوفـرة ولا المساحـة ولا النضارة التي عرفتـها في ماضيها الإسلامي؛ ولم يكن يقيم فـيها إلا المزارعون المتواضعون الذين اقتصر نشاطهم على الأعمال الزراعية فقط.

والصفحـات التالية توضح جيداً التبـاين بين مدينتين أسبانيتين منتـميتين إلى القـرون الوسطى وممثلتين لـوجهي المديـنة الأولى هي «طليطلة» الواقـعـة على

الهضبة السفلى من قشتالة، والتي احتفظت بآثار ازدهار المناطق المحيطة بها حتى القرن السابع عشر. والثانية هي مدينة غرناطة الواقعة في الأندلس ذات الغوطة المثمرة التي تُروى بالمياه الغزيرة والتي بدأ انقراض الأماكن القريبة منها، بعد استيلاء الملكين الكاثوليكيين عليها مباشرة، ويؤكد ذلك قول «ناباخيرو» Navajero الذي سوف نذكره فيما بعد.

وهناك حال شديدة التناقض ظهرت في مدن القرون الوسطى؛ فعندما كانت تلك المدن محصّنة ومحاطة بحزام قوي من الأسوار والأبراج كان خارج الأسوار منازل وبساتين عديدة على الرغم من قلة الأمن والحماية في المناطق المجاورة لها؛ وعلى العكس فعندما فَقَد السورُ فائدته وتهدَّم تدريجيًا وأصبحت الحياة خارج الأسوار غير خطرة قلّ خروج السكان إلى تلك المناطق للنزهة والتسلية بعيداً عن مركز المدينة.

ومنذ بضع سنوات بدأ التغير في وضع المناطق المجاورة للمدن الأسبانية، كما تغير وضع سكانها الذين لم يكن من طبيعتهم الخروج منها. واليوم ينتقل جمهور كبير إلى المناطق الريفية في أيام الأعياد. أما أفراد الطبقة الغنية فإنهم يبنون منازل ريفية محوطة بالحدائق والبساتين في المناطق المجاورة للمدن يقيمون فيها مؤقتاً أو بصفة دائمة. وقد ساعدت وسائل النقل الكثيرة والسريعة دون شك على توسعة المدينة خارج الأسوار مع ملاحظة أنّ هذا لم يكن السبب الوحيد لتلك التوسعات وأن هذا التحليل خارج عن نطاق هذه الدراسة. وقد ظهر تشوق الإنسان المعاصر إلى ضوء الشمس والهواء الطلق في الفتحات الخارجية للمساكن التي تكثر تدريجياً، وفي توفّر عدد الشرفات حسب نظم الهندسة المعمارية.

المناطق المحيطة بالمدن.

يؤكد المؤلف «بوركارد» Burckhardt في واحد من أشهر كتبه المعروف باسم «**ثقافة النهضة في إيطاليا**» La Cultura del Renacimiento en Italia بأن أول من عرف جمال المناظر الطبيعية في العصر الحديث هم الإيطاليون الذين وجدوا متعة خاصّة في تأملها؛ وقد ذكر أنه لم يكن يقيم بالريف إبان العصور الوسطى في شمال أوروبا إلاّ النبلاء في قصورهم وأعضاء بعض الأنظمة الرهبانية في أديرتهم؛ أما أبناء الطبقة البرجوازية حتى أكثرهم غنىً، فكانوا يقيمون طوال السنة دون استثناء في المدن. ولعل مردّ هذا إلى أن إيطاليا ـ وبالأخص المناطق المحيطة ببعض مدنها ـ كان يتوافر فيها الأمن السياسي والنظام أكثر من غيرها. هذا بالإضافة إلى هواية الناس وتمسكهم بالريف الذي بلغ ذروته، على الرغم من أن الأهالي كانوا يتعرضون للأخطار الناجمة عن الحرب. وهكذا أنشئت الفيللا أو البيت الريفي(٢).

ولم يكن «بوركارد» على علم تام بالحضارة الأسبانية المسلمة عندما عزا حب الطبيعة وحب الحياة الريفية إلى جنوب إيطاليا. ففي عصر أبعد من الذي يتحدث عنه كان الرخاء المادي والثقافة الروحية قد ازدهرا وبلغا تطوراً كبيراً في أسبانيا الإسلامية، بحيث نتج من جديد الإحساس بالطبيعة. وإن المنازل الريفية التي بناها مواطنو مدينة «فلورنسا» FLORENCIA حول مدينتهم في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، والتي كانت أجمل من منازلهم في المدينة، قد بُنِيَت بعد عدة قرون من بناء المنيات والقصور الفاخرة التي كانت تحيط بمدن «قرطبة» و«غرناطة» و«بلنسية» وببعض المدن الأسبانية الأخرى.

وكان المنظر الطبيعي للمناطق المحيطة بالمدن مختلفاً عما تشهده في العصر

الحديث، إذ كانت المنازل الريفية ـ المُنْيات والضيعات ـ والأبراج والقصور قابعة بين البساتين والحدائق والأشجار، مشكِّلةً حزاماً أخضر من النباتات ومختلطة باللون الأبيض الجيري للمباني المحيطة بالمدينة. وكان الملوك والأمراء قدوة لشعبهم عندما أقاموا مقارّهم خارج الأسوار ليقضوا حياتهم محاطين بالأشجار والأزهار بعيدين عن ضوضاء المدينة في أماكن أكثر أمانًا. وقد امتلك كل ملوك الطوائف في القرن الحادي عشر الميلادي قصورًا ريفية بالقرب من بلاطهم وكانوا يقلدون بذلك أمراء قرطبة. وقد تعددت قصائد الشعراء الأُجَرَاء المقيمين بجوارهم الذين تغنوا بالساعات الجميلة التي قضوها في تلك الأماكن، كما وصفوا غابات الأشجار والزهور والمياه الجارية التي كانت تزينها.

وقد اعتاد مواطنو المدن الأندلسية أن يقضوا فترات في تلك المنازل الريفية الواقعة حولها بين البساتين والحدائق، وكان يشترك في ذلك الملوك والأمراء والأفراد العاديون على حدٍ سواء. وكانت تلك المساكن الريفية أماكن للهوهم واحتفالاتهم وطربهم، وهي في الوقت نفسه موضع الفضيحة من قبل المتشددين الدينيين القشتاليين[٣].

واعتاد العرب من أهل غرناطة ومرسية وجيّان ـ وربما أهل المناطق الأندلسية والشرقية الأخرى ـ أن يحتفلوا في الريف بعيد «الأثيرس أو اليرثس» AL-ACERES (مشتقة من الكلمة العربية: العصير ASIR أو جني العنب في فصل الخريف)، وهو الفصل الذي تقطف فيه الفاكهة[٤] في شهر سبتمبر حيث ينتقل الأهالي من منازل المدينة التي يمضون فيها أغلبية السنة إلى مساكنهم الريفية الواقعة خارجها بين حقول الكرم ليقضوا الوقت مشغولين في تزبيب العنب مع شيء من الجلبة والغناء والرقص مرتدين الأزياء الزاهية والحلي الثمينة؛ وكان الأبناء

المولودون في تـلـك المناسبـــات وفي تلك الأمـاكـن يُعـدّون من السـعـداء والمغبوطين[٥].

وكانت الحـدائق الواقعـة خارج مـدينة غرناطة هـي حدائق «عيـندمار» AI-NADAMAR المفضلة لاحتفال عيد العصير ASIR أو عيد الخريف[٦].

وبلا شك كانت الحـياة خـارج الأسوار مزعـزعة أحيـانًا بسبب الصـراعات الدائرة بين المسلمين أنفسهم مما أدى إلى نهب الحقول خارج الأسوار وتدميرها؛ وأحيـانا أخرى بسبب غـزوات جيوش النصـارى الذين قطعوا وأحرقـوا مزارع الغلال والغابات والقرى أو الضيعات المجردة من حماية الأبراج والأسوار القوية المحصّنة. وهناك مثـال لذلك في غوطة غرناطة التي عانت الكثيـر من هجمات النصارى منـذ ربيع سنة ١٠٩١م عندما دخلهـا «ألفونسو السـادس» وظل على منحدرات سلســلة جبال إلبـيرة ELVIRA ستة أيام، مطلاً على المـدينة وخلفها سلسلة جبال «نيفادا» NEVADA حتى تم غزوها بمساعدة الملكين الكاثوليكيين. وقد ندد الأميـر حارث بن عكاشة، حاكم قلعة رباح، في مقـاطعة قلعة رباح (كلاترابا) CALATRAVA بفعل ألفونسو السادس ونسب إليه تدمير منطقته وهدم المباني وقـلع الأشجار وقـال: «ليس من صفـات الأمير القـادر التدمـير وزرع الخراب؛ لأنك إذا تمكنت من امتـلاك المنطقة ستجد أنك أحدثت أضـراراً جمّة لمملكتك»[٧]. وأمام جنـون الإنسان وأعمـاله الخطيرة، فـي تخريب البـساتين والحدائق والمنازل الريفـية والمزارع، وكان صمود المزارعين الذيـن كانوا يجدّدون مزارعهـم المرة تلو الأخرى ويعيدون بناء الأسـوار حولها بإصرار عـجيب على غرار طبيعتهم الصامدة التي لا تعرف التعب.

وتوافرت في معظم المدن الإسـلامية مياه الري اللازمة للبـساتين والحدائق،

حيث تصبح الحياة النباتية بغير تلك المياه مستحيلة فيها. وكانت ترفع المياه إلى بعض المدن من النهر المجاور لها بواسطة دواليب أو آلات هيدروليكية؛ بينما يستمد البعض الآخر مياهه من مجرى النواعير والقنوات؛ أما الأماكن الخالية من المياه الجارية فتحصل على الماء من الآبار بوساطة الساقية.

ولعل وصف المنظر الطبيعي للمناطق المحيطة بالمدن الأسبانية المسلمة المستنتج من بيانات الصفحات الآتية يتجاوز الحدّ، لأن وصف المنظر الطبيعي يجب أن يعتمد على ميزة تختلف كل الاختلاف عما تم وصفه؛ إن أكوام النفايات المتراكمة خارج أسوار مدينة «يابرة» EVORA قد مكّنت الحاكم «أوردونيو الثاني» ORDONO II في ربيع سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م من السيطرة بسهولة على كل الوسائل الدفاعية للمدينة ومن إبادة المقيمين فيها(٨) على الرغم من أن ذاك التراكم الهائل من النفايات الموجود بجوار أبواب السور كان موجودًا في مدنٍ أخرى.

**قرطبة.**

كانت القصور والمنيات تتعدد على نهر الوادي الكبير حول مدينة قرطبة، بالإضافة إلى البساتين الجميلة الممتعة وذلك لتسلية الأمراء وكبار السادة. ولم يكن يتمتع أحد بجمال تلك الأماكن إلا من خلال قصائد الشعراء ومن خلال أوصاف المؤرخين والجغرافيين ومشاهداتهم.

ويصف الرازي (الذي ولد قبل ٢٧٤هـ /٨٨٧م وتوفي عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م تقريبًا) المدينة الأندلسية العظيمة، عاصمة الخلافة بأنها «كانت محاطة ببساتين رائعة، تطل عليها أشجار الفاكهة التي تنتج الثمار اللذيذة الطعم وكانت

الأشجار عالية ومتنوعة. . . كما كان يوجد بالقرب من معبر النهر مساحة كبيرة غُرست فيها أشجار جميلة، بينما هناك في أقصى الشمال ترقد سلسلة جبال طويلة بكرمها وأشجارها الكثيفة»(٩).

وعلى سهل آخر عرف بـ «سهل الخيمة الملكية» ـ «فَحْص السُّرادق» ـ الواقع شمال قرطبة كان يوجد مسكن ريفي ـ «متنزّه» ـ تابع للأمراء الأمويين جرت العادة أن تنصب فيه خيمة يستعرضون فيها قواتهم قبل بدء الحملات العسكرية(١٠).

وفي القرن العاشر الميلادي كان هناك حي من الأحياء العديدة في مدينة قرطبة يسمى «ربض الروضة» RABAD AL RAWDA معناه ضاحية الحديقة(١١).

وعلى مسافة ثلاثة أكيال شمال غرب المدينة، على حافة الجدول المائي القادم من سلسلة الجبال، أمر عبدالرحمن الأول في بداية حكمه ببناء مسكن واسع محاط بحدائق. في المكان الذي رأى فيه نخلةً وحيدة في إحدى تنزهاته مما ذكره بشوق بمقره بالشام المسمى «بالرُّصافة» RUSAFA، فسَمَّى هذا المكان بالاسم المعروف به حالياً "الرُّصافة" (الرُّثافا Arruzafa)، وقضى فيه أغلب أيام عمره. وبُنِيَ حول قصره في بداية القرن التاسع الميلادي ضاحية من أكبر الضواحي ازدحاماً في مدينة قرطبة. ويقول ابن حوقل الذي زار الأندلس أثناء خلافة عبدالرحمن الثالث، بأن كبار البلد وأصحاب المقام اختاروا الإقامة في تلك الضاحية، كما أنه امتدح ازدهارها وسخاءها. ويقول بأن الخليفة الآنف الذكر استقبل في قصر الرصافة سنة ٣٥١هـ/ ٩٤٦م بموكب عظيم «أيوبَ»، الموفدَ من أبيه أبي يزيد، من سادة القيروان، لإبلاغ الخليفة بأنه يعترف بسلطته والخضوع له. وقد هدم هذه الرصافة المشهورة ـ بحماقة ـ واضحٌ العامري الذي

تركها نهبًا للغوغاء، وأمر بتدميرها وإحراقها بعد استيلاء البربر على مدينة الزهراء بفترة قصيرة[١٢].

وبنيت «مُنْيَة الناعورة» على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير بعد موقع المُصَارَة على الأرض الواسعة التي اشتراها الأمير عبدالله سنة ٢٥٣هـ ـ ٨٦٧م من خليل البيطار والتي جعل منها بستاناً بهيجًا رائعًا مزدحمًا بالأشجار والنباتات في وسط المتنزهات الواسعة والحدائق المرويّة بالآلات الهيدروليكية التي كانت تجلب المياه من النهر القريب. وعندما ورث هذا المقرَّ حفيدُه عبدُالرحمن الثالثُ أدخل عليه تحسينات هامة، ثم اختاره مكانًا مفضلاً له في السنوات الأولى لحكمه حيث استقر فيه سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨ - ٩٢٩م عند عودته من الحملة ضد «بربشتر». كما انطلق من المكان نفسه في السنة التالية لمحاربة أهل مَالَقة مرة أخرى. ويُذْكر كذلك بأن أوردونيو الرابع ومعه عشرون رجلاً لجؤوا بعد طردهم من مملكة قشتالة إلى مُنية الناعورة فلقوا معاملة طيبة فيها[١٣]. وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي قام ابن عبدالجبار بنهب الناعورة والقصر والرصافة[١٤].

وهناك كانت تمتد «مُنْية عَجَب» على حافَة نهر «الوادي الكبير» جنوب المدينة أيضاً. وكانت عبارة عن حديقة كبيرة أمرت بغرسها إحدى زوجات الحكَم الأول. وسميت هذه الحديقة باسمها، ثم أمرت بتحويل ريع ثمارها بصفة دائمة إلى ملجأ الجذام المجاور. ومن بعد ذلك تكوّن ربض حول هذه المنية كما حدث لبعض المنيات الأخرى[١٥].

وكانت «مُنْية الناصر» تقع على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير على أرض مجاورة للمقبرة القديمة المسماة بالربض (مقبرة الربض)، وأصبحت المنية ملحقاً

للقصر. وكانت المقر الخاص للناصر كـاتم الأسرار أو الفتى الأكثر مودة للأمير عبدالرحمن الثاني؛ وبعـد أن قام الأمير عبدالله باستردادها وبتوسـعتها وضعت تحت تصرف الأميـر ولي العهد الحكم. وأقامت بهده المنيـة السفارةُ المرسلةُ إلى الناصـر في صيف سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م من «كونسـتانتـينو بورفـيروخـينينا». وكمصير العديد من المنيات الأخرى هدمت عند سقوط مملكة الأمويين[١٦].

وذكر الحميري في «**الروض المعطار**» مزيداً من الأخبـار عن «منية نصر» في قرطبة. فأخبر أنها واقعة غرب المدينة وسميت أيضاً باسم أرحاء الحناء؛ وكانت عبارة عن مدينة واسـعة ذات مبانٍ جديدة قام ببنائها الإمام عبـدالله بن محمد. ويشير عبيدالله بن يحيى (٢٩٨هـ/ ٩١١م) في إحدى قصائده إلى قصرٍ بُني في ذلك المكان أنه كـان يمكن رؤيته من مدينـة قرطبة، وأنه كـان محـاطًا بحدائق يجري النهر أسفلها.

والزاوية الجنوبية الشـرقية لهـذه المنية الواقعة علـى حافة النهر كـانت تسمى بالرّكين AL-RAKIN وكانت مغطاة بأشـجار الزيتون. وفي أواخر القـرن العاشر الميـلادي وأوائل القـرن اللاحق أصبح الحـيـز الواقع بين الركين ونهـر الوادي الكبير باردًا ومظللاً وكان المكان المفضل للـنزهة التي يختلف إليها الموسرون من سكان قرطبة[١٧].

وفي شرق قرطبة كانت «منية عبدالله» و«منية المغيرة» وقامت حولهما أرباض كثيرة. ولا شك أن المناطق المحيطة بمدينة قرطبة كـانت فيها أماكن متعددة ذات منازل وحولهـا حدائق وبساتـين. وفي أواخر القرن العـاشر الميلادي انتـشرت قصائد مخـصصة لوصف الزهور عرفت باسم «النَّوْريات» NAURIYAT تُطري جمـال الزهور وعطور حـدائق مدينة قـرطبة ومنهـا: الورود والرياحين وأزهار

البنفسج والنرجس والنسرين والمنثور[١٨]. وفي السنوات الأُوَل من القرن الحادي عشر الميلادي أشار ابن حزم إلى حدائق قصر أبيه الواقعة في الربض الشرقي لمدينة الزاهرة، وإلى فسطاط وسط الحدائق كان يسمح بالتمتع بمنظرٍ جميل للمدينة وضواحيها[١٩].

وبعد ذلك التاريخ بقليل يرد اسم «قصر البستان» بالقرب من «باب العطارين» DROGUEROS غرب مدينة قرطبة وهو الذي استقر فيه «المعتمد»، طبقًا لما ورد في مقطع من مقاطع "**القلائد**"[٢٠].

كما يذكر ابن سعيد اسم القصور التي تقع حول قرطبة وهي «قصر الحائر»؛ و«قصر الروضة»؛ و«قصر الزهور»؛ و«قصر المعشوق»؛ و«قصر المبارك»؛ و«قصر الرُّستاق»؛ و«قصر السرور»؛ و«قصر التاج»؛ و«قصر البديع»[٢١].

ويذكر الفتح في **قلائده** عند حديثه عن حياة الوزير «ابن عمّار» أنّ له قصراً عرف بـ«قصر دمشق». وَصَفَه بأنه منزل للراحة والاستجمام به أعمدة رائعة من الرخام تسند السقف؛ وبأرضيته فسيفساء من آلاف الألوان. وحوله حدائق لا مثيل لها ذات ثمار لذيذة وزهور شذية، ومناظر طبيعية رائعة وجداول مائية صافية وغيوم من الندى المعطر؛ ومن المعتقد أنه أُنقِذَ من دمار الفتنة. وكما يدل اسم هذا القصر فإنه كان نسخة طبق الأصل من قصر أموي آخر في الشرق بُني على غراره[٢٢]. وكان هناك مسكن ريفي آخر للاستجمام خارج قرطبة يُسمى «منية زُبير» بناه «الزبير بن عمر المُلَثَّم» أثناء ولايته تلك المدينة. كذلك هناك منية أخرى معروفة باسم «المُصْحَفية» نسبة إلى الحاجب أبي عثمان جعفر بن عثمان المُصْحَفي، وزير الخليفة الحكم الثاني. ولقد عدَّد الشاعر ابن زيدون في قصيدة من قصائده أسماء القصور والحدائق وأماكن الاستجمام في

قرطبة في عصره مثل «قصر الفارسي» و«مرج النَّضير». ولما تحدث ابن سعيد عن ملك أبيه ذكر «قصر مرج الخُور» و«فحْص السرَّاق» و«فحص السُّد»؛ وكان هذا الأخير معروفاً أيضاً باسم «فَحْص الرَّحَى» وقد ذكره قاسم بن الرياحي[٢٣].

وقد نشر الكاتب «هنري بيريس» وصفاً لإحدى حدائق قرطبة التي تعود ملكيتها إلى عائلةٍ ذات أصل بربري من قبيلة «الزَّجَّاليّ»، تحولت في القرن الحادي عشر الميلادي، تنفيذًا لوصية صاحبها، إلى متنزَّه عامّ ـ ولعلها كانت الحديقة الأولى في القرون الوسطى التي تمتعت بتلك الصفة ـ ومنذ ذلك الوقت سميت «حَيْر الزَّجَّالي» وكانت تقع بالقرب من «باب اليهود» خارج أسوار المدينة جهة الشمال. والحير (الفسطاط) الذي يرجع إليه هذا الاسم كَتَبَ عنه «الفتح بن خاقان» بالكلمات التالية: «كان هذا الحَيْر من أبدع مواضع (الاستجمام) وأجملها، وأتمّها وأكملها جمالاً. صحنه مرمر صافي البياض؛ يخترقه جدول كالحيّة النضاض؛ به جابية، كل لُجّة فيها كابية. وقد قُرنست بالذهب واللازورد سماؤه، وتأزرت بهما جوانبه وأرجاؤه. والروض قد اعتدلت آسطاره، وابتسمت من أكمامها أزهاره. ومنع الشمسَ أن ترمق ثراه، وتعطّر النسيم بهبوبه عليه ومسراه[٢٤]. وكانت به مقبرتان متجاورتان لصديقين كانا حميمين في الحياة أيضاً، وكذلك مقبرة الشاعر والناقد ابن شهيد (المتوفى عام ١٠٣٥م).

ويقول الشقندي (المتوفى في ٦٢٩هـ/ ١٢٣١ ـ ١٢٣٢م) إن قرطبة عندما كانت في فترة الانحطاط في السنوات القليلة قبل انتزاع فرناندو الثالث لها، كان بها على حافة «نهر الوادي الكبير» حدائق ومراعٍ زادت المدينة جمالاً وروعة[٢٥].

**طليطلة وغوطتها ومُنية المَلِك.**

وصف الإدريسي مدينة طليطلة وصفاً يقع ضمن الحدود المعقولة؛ فذكر أن بها حدائق يفصل بينها عدد من القنوات كان يستعان بمياهها لتحريك دواليب هيدروليكية أو نواعير مزودة بالقواديس (الدواليب) لري المزارع. ولذلك أنتجت كميات كبيرة من الثمار الطيبة. ووجدت في كل مكان بين البساتين والمنيات والأبراج المحصنة[٢٦]. ويمتدح «أبوالفداء» (٦٧٢ ـ ٧٣٢/ ١٢٧٣ ـ ١٣٣١م) جمال بساتين طليطلة التي تنمو فيها أشجار الفاكهة خاصة أشجار الرمّان ذات الزهور الكبيرة. وتقع خارج الأسوار على الضفة الأخرى للنهر قبل معبر القنطرة «المنيةُ الملكية» التي يشبّه شعراء البلاط في القرن الحادي عشر الميلادي حدائقها بحدائق الجنة. وقد أمر ببنائها في طليطلة الملكُ الحاكم «المأمون بن ذي النون» (٤٣٥ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٤٣-١٠٧٥م) وقام على زراعتها عبدالرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن محمد اللخمي (٣٨٩ ـ ٤٦٧هـ/ ٩٩٩ ـ ١٠٧٤/ ١٠٧٥م) المشهور بكنيته «أبي المطرِّف» الذي برع في الطب والفقه وعلم الزراعة[٢٧]. وحصلت تلك المنية على شرف عظيم حين وصفها ابن بسام الذي كان يسميها «المنية المنصورة».

ويذكر المقَّري أن المأمون قد وزع عند بنائها هدايا وافرة وجاء إليها بأحسن فناني العصر والمعماريين والمهندسين والرسامين، قدم البعض من مناطق بعيدة وقد حصلوا على مكافآت جزيلة بعد أن حققوا فيها إنجازاتهم الفنية الرائعة.

وفي الحديقة الملتفة المورقة المجاورة للقصر بركة كبيرة يرتفع في وسطها فسطاط جدرانه مبنية بقطع زجاجية ملونة بشتى الألوان وبالزخارف المكفَّتة بالذهب. وكانت ترتفع مياه البركة حتى الجزء الأعلى من قبة الفسطاط ثم

تنزلق على جدرانه وتصب مرة أخرى فيها. وكان السلطان يقضي في داخلها وقتاً رائعاً في جو رطب في أيام الصيف الحارة في قشتالة دون أن يخشى البلل؛ وكان أحياناً يُضيء سُرُجًا داخل الفسطاط ليحصل على منظر خلاب من خلال النوافذ الزجاجية الملونة. وكانت تتخلل الحدائقَ نوافيرُ مائية جميلة مزينة بأشكال زخرفية منوعة[٢٨].

وسُمي هذا الفسطاط «بمجلس الناعورة»؛ ويرجع هذا إلى أنّ مياه نهر التاجُه TAJO كانت ترتفع بواسطة هذا الجهاز العجيب إلى مستوى عالٍ. ووصف أيضاً أبومحمد بن السِّيد البطليوسي، عالم النحو واللغة، المنيةَ والفسطاط في إحدى قصائده التي نقلها «الفتح بن خاقان». وقد حكى البطليوسي لمؤلف **القلائد** عن تلك الساعات الجميلة التي قضاها مع المأمون في المنية، ويذكر ابن خاقان القصة قبل القصائد قائلاً:[٢٩]

«أخبرني أنه حضر مع المأمون بن ذي النون في مجلس الناعورة بالمنية التي تطمح إليها المنى، ومرآها هو المقترح والمتمنّى. والمأمون قد احتبى، وأفاض الحبا. والمجلس يروق كأنّ الشمس في أُفقه، والبدر في مفرقه، والنور عبق، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق. والدولاب يئنّ كناقة إثر الحُوار، أو كثكلى من حرّ الأوار. والجوّ قد عنبرته أنواره، والروض قد رغته أمطاره وأنداؤه. والأسْد قد فغرت أفواهها، ومجّت أمواهها».

ويقول دون رودريجو خيمينيث دي رادا إن ألفونسو السادس عندما لجأ إلى مدينة طليطلة قبل أن يعيَّن حاكمًا، قام الأمير المسلم ببناء مساكن مناسبة له ولأصحابه من النصارى بالقرب من قصره في منطقة بعيدة عن معبر المدينة بغرض تسليته وإبعاده عن صخبها[٣٠].

وفي أواخر الصيف أو الخريف من سنة ١٠٨٤م استقر ألفونسو السادس في «منية المنصورة» ومنها كان يدير حصار المدينة. وبعد استسلامها في ٦ مايو سنة ١٠٨٥م اشترط على سكان المدينة ضمن شروط المعاهدة أن يكون الأمير المسلم مالكًا للسكن الذي التجأ إليه واستقر فيه[٣١].

وفي السنوات التالية تعرضت المناطق المحيطة بمدينة طليطلة وبالأخص تلك الضيعة الملكية إلى خسائر فادحة متتالية. وفي سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٩٠م وصل المرابطون إلى أسوار المدينة التي جاهد «ألفونسو السادس»، بمساعدة ملك أراجون ARAGON «سانتشو راميريث» SANCHO RAMIREZ، في تحصينها ولم يتمكن المرابطون من فتحها ولكنهم اجتثوا أشجار المنية[٣٢].

وحاصر المرابطون طليطلة مرة أخرى سنة ٥٠٣هـ ـ ١١١٠م وقد خيم معسكر الأمير علي بن يوسف مدة ثمانية أيام (حسب ما ورد في كتاب حوليات المدينة في الجزء الأول؛ ويقول كتاب **القرطاس** إنه بقي شهراً واحداً) أمام الباب الرئيس للمنية الواقعة حول المدينة. ولما استحال عليه الاستيلاء عليها دمّر الأراضي المحيطة بها مرة أخرى ودمر تلك المنية كما جاء في **الحُلَل**[٣٣].

وفي سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م وصل إلى أبواب طليطلة الموحدون، بعد انتصارهم في معركة «الأرك»، وعلى رأسهم يعقوب المنصور ثم خيّمت جيوشهم في الجهة الشمالية، وبعد عدة اشتباكات عبروا نهر التاجه ونهبوا المنية الملكية مرة أخرى. ويذكر كتاب «**الحوليات**» الآنف الذكر أنهم قضوا فيها عشرة أيام وقطعوا الكرم والأشجار؛ بينما يشير كتاب مجهول المؤلف «**من مدريد وكوبنهاجن**» أنهم مكثوا فيها أسبوعاً واحداً فقط[٣٤]. وورد في كتاب

«**الحوليات**» وفي نصوص أخرى أن المحاربين المسلمين قاموا بغارة جديدة على مدينة طليطلة في السنة اللاحقة لعام ١١٩٧م، ولهذا السبب أصبحت منية الجنينة خالية من الزراعة وأشجار الفاكهة. وكانت «الجُنينة» تقع على ضفة نهر التاجه عند مكان انفصاله عن طليطلة. ومما يذكر أنه في مايو ١١٩٩م ورد في وثيقة من أصل مستعرب أن سبب الدمار يرجع إلى المسلمين(٣٥).

وفي ربيع سنة ١٢١٢م خيمت جيوشُ الكتائب الأجنبية في بستان الملك تحت ظل الأشجار وخارج الأسوار بالقرب من نهر التاجه، كما يذكر النص اللاتيني، وانتظمت تلك الجيوش في حروب صليبية ضد الموحّدين. ويذكر "**كتاب التاريخ العام الأول**" PRIMERA CRONICA GENERAL المترجم إلى لغة طليطلة «أن الملك منح لهم مكانًا خارج المدينة على ضفة نهر التاجه بالبساتين والحدائق والأراضي الزراعية الخضراء، لكي يتمتعوا بالرفاهية التي كان يتمتع بها الملك عندما وصل إلى تلك المدينة للتنزه فيها. كما منح لهم حق الاستمتاع بكل شيء حسب رغبتهم وللنزهة تحت ظل الأشجار عند اشتداد الحر» (كما جاء في النص المحرر باللغة القشتالية القديمة)؛ واستعمل رجال الجيش أغصان أشجار الفاكهة لبناء أكواخ يقضون فيها أوقات الراحة في أثناء حملتهم. ونصبوا خيامهم «في بستان الملك المذكور آنفا» وصفّوا فيها الموائد عند وصول ملك أراجون. وفي كتاب «**الحوليات**» المذكور سابقاً الخاص بطليطلة، كتب شخص مستعرب من سكان طليطلة أن من الأضرار الناجمة عن مرور الجيوش الأهلية والأجنبية قتْلَ عددٍ كبير من اليهود «وقطْعَ بستانِ الملك HU-ERTA DEL REY وبستان ألكارديث ALCARDET كله، كما كانت تلك الجيوش السببَ في الخسائر الجسيمة التي وقعت فيها مدينة طليطلة لمدة

طويلة»[٣٦]. ولم يتوقف القتال إلا بعد تدخل كبار رجال المدينة.

وعلى الرغم من التدمير المتكرر فإن تلك المنية الملكية، التي كانت ملك الأمراء المسلمين أولاً ثم انتقلت ملكيتها إلى أمراء قشتالة، احتفظت بغطائها النباتي الأخضر المتجدد وبغاباتها ذات الأشجار الظليلة بفضل السقي المستمر. وفي أواخر القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي اختفى الفسطاط والمساكن المجاورة له بعد تدميرها خلال إحدى الحصارات الفاشلة للمرابطين وللموحدين. وفي القرن الرابع عشر قام القزمانيون ببناء قصر ريفي جديد اشتهر منذ القرن السادس عشر؛ وذلك بعد أن منحهم ألفونسو الحادي عشر، باسم «الجاليانا» أرض تلك المنية[٣٧].

ويفيد «ناباخيرو» الذي زار طليطلة في شهر سبتمبر سنة ١٥٢٥م أنّ السهل المعروف باسم «بستان الملك» كان يُروى بالنواعير أو الدواليب الهيدروليكية التي ترفع مياه النهر إلى المزارع. وبذلك تحولت إلى أراض مزروعة غاصة بالبساتين، ومليئة بالأشجار الكثيفة. وهكذا كانت الحالة بالنسبة إلى الغوطة الواقعة عند مخرج النهر بين الجبال وأقصى المدينة؛ بينما كان باقي الأراضي قاحلاً ولا تُرى فيها شجرة واحدة. ووجدت بهذا السهل آثار قصر رائع في مكان هادئ جداً «ويقال عنه أنه كان مُلْك «غاليانة» Galiana ابنة ملك من ملوك العرب»[٣٨].

هذا، وتندر الأخبار عن بقية البساتين والمنيات التي كانت تُكَمِّل في القرون الوسطى منظر الغوطة الخضراء الواقعة شمال طليطلة وكذلك في المنطقة البعيدة عن مجرى نهر التاجه. وهناك وثيقة تعود إلى سنة ١١٤٣م، تشير إلى منية الكارديتو ALCARDETO التي نهبتها القوات فيما بعد سنة ١٢١٢م قبل خروجها

في حملة ضد الموحـدين، كما ذكر؛ وكـانت المنية تقع بجوار نهر التـاجه ولها سد وناعورة[٣٩].

وبالإضافة إلى المراكز الخضراء الواقعة خارج الأسوار السابق ذكرها فإنه كان هناك موقعان آخـران فيما يعتقد: أحـدهما على الضفة اليمنى للنهر قـبل معبر القنطرة ALCANTARA بمسافة قليلة بين سور الربض ونهر التاجه. بينما يلتصق الآخر بضفة النهر عند مخرجه من مجراه الضيق خارج المدينة.

وكان في الموقع الأول في القرنين الثـاني عشر والثالث عشر الميـلاديين كثير من البساتين والحدائق التي تسمى أحـياناً بحقول الرُّمَّان GRANADALES واقعةً بالقرب من «باب المخـاضة» BAB ALMAJADA ومعناه باب مـخاضـة النهر، ويُعْرَف أيضاً باسم «باب الطفَّالين». ووُجدَ هناك أيضاً بـستان المخاضة، إضافةً إلى بستـان حقل الرُمّـان وبستان الخـزنة المجاوِرَيْنِ له، وبسـاتين أخرى مليـئة بأشجار الفاكهة، هذا عدا عن مزارع الشعير الأخضر؛ وكذلك وجدت قناة من قنوات المياه المـتفرعـة من النهر كـانت تحرك «السانيـة»، ويطلق هذا الاسم في طليطلة على النواعير الكبيرة[٤٠].

وفي الموقع النباتي الآخر بالقرب من دير سان بدرو SANPEDRO أسفل باب اليـهود على حـدود المسيل الـذي يتصل بنهـر التـاجـه يقع البسـتان المعـروف بـ«بستان الحفـرة» وبجانبه «مرج القاضي»، وهو يعود إلى القـرنين الثاني عشر والثالث عـشر الميلاديين. وفي مكان قريب من تلـك المنطقـة وجـد أيضاً طريق مؤدٍ إلى المركب (يحـتمل أن يكون في البـرج المعروف حاليـاً «بحمام القـبو») وكذلك طاحونة في سد أسوميل ASOMAIL أو أثوميل AZUMEL[٤١].

وبالقرب من سـانتا ليـوكاديا LEOCADIA امتـد علي حافة نهر التـاجُه في

النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي بستان «برجاس» BARGAS، وهو «عبارة عن حديقة بها متنزّهات كثيرة وأماكن مزروعة بأشجار الريحان، وعدد كبير من المخترعات في مجال زراعة الحدائق»(٤٢).

وبين معبري القنطرة وسان مارتين SAN MARTIN احتل بستان الكورنيا AL-CURNIA الجميل مكاناً على حافة النهر أسفل سور المدينة. وكان هذا البستان هو المكان المفضل لاستراحة مطارنة طليطلة، واستمر حتى أيامنا الحاضرة بعد تحويل اسمه إلى «رملة الكورنيا». وقد أتى على هذا البستان فيضان سنة ١٥٤٥م(٤٣).

وفي الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي أثنى لوثيو مارينيو سيكولو LUCIO MARINEO SICULO على الروضتين الواقعتين خارج طليطلة قائلاً: «إنهما أكثر حرجات أسبانيا خصبًا وثماراً، وطولهما من جانبيهما أكثر من خمسة أميال وعرضهما مماثل في الجهة الغربية»، كما امتدح الأشجار العديدة الموجودة: ومنها أشجار الزيتون والكرم واللوز وأشجار أخرى كانت تنبت في ضواحي طليطلة(٤٤).

ويتذكر «جارثيلاسو» GARCILASO في ذلك التاريخ ضفتي نهر التاجُه عند انفصاله وابتعاده رويداً رويداً عن المدينة، فيقول:

من ذاك المكان يسيل مجرى نهر التاجه

بمياهه الوادعة اللطيفة

يروي الحقول والغابات

بنواعيره العالية

وبعد مرور عدة سنوات في أثناء حكم «فيليبي الثاني» FELIPE II أنشد «دون

لويس سيرنـوسكولو دي جوثمان» هذا المنظر الشاعـري مستعمـلاً أوزانًا ثلاثية العروض مجردة من أية قيمة إلهامية:

البساتين المحيطة العديدة تجمل الضفتين وتزينها

بثمارها وبزهورها الوافرة،

فيها إشباع للذوق، وتسلية للعقل(٤٥).

وحتى في أوائل القرن الســابع عشر كانت ضفـتا نهر التاجه قبل تطويقــهما المدينة وبعــده «متوجــتين» ومزينتين بغــابات رطبة رائعة مليـئة في أمــاكن شتى بالحرجات والبــساتين والأشجار الكثيفــة الممتعة. ولما كان يصعب وصــول مياه الآبار إلى البســاتين البعيدة عن ضــفّة النهر «الواقعــة في أماكن مرتفعــة كانت تُرْوَى بعجـلات كبيرة من الخـشب المعروفة بالسدود تحـركها قوة جـريان النهر وترفع الماء إلى أعلى ثم تصبه في قنوات خشبية فيصل بعد ذلك إلى البساتين. من هذه السدود توجد ثلاثة أو أربعة ببســتان الملك: أحدها يسمى «راساسو»، والثاني معروف بــاسم «سد البِرْكة»، الثالث «سد الجُزَيْـرة» والرابع «سد قصور جاليانا». وفي منطقــة بعيدة على حدود حديقة دون بيـدرو مانريك يوجد سد آخر تابع لبـستان «ليـتيك». كمـا توجـد أربعـة سـدود أخــرى فـي الغوطـة، اثنـان فـي «باتانيـس» BATANES، والثالث في «سان بيـدرو الأخضر» S.P. EL VERDE والرابع في بســتــان أ. ديّاث AGENJO DIAZ»(٤٦). ويذكـر الكاتب «سيـربانتس» CERVANTES في تأليـفه «**لا إلوسـتري فريجـونا**» La ILUSTRE FREGONA (من القرن الســابع عشر) بستانَ الملك الذي كـان به سد، وهو من أهم الأشياء التي تلفت الانتباه في طليطلة.

وقد أدى الانــحطاط الشديد والإهمــال التام الذي مــرت به المدينة منذ ذلك

التاريخ إلى اختفاء المنيات والبساتين والحدائق حتى إن الغوطة الرائعة الخضراء تحولت إلى أراضٍ مقفرة ومزارع قاحلة. واستمرت هذه الحالة حتى أيامنا الحالية؛ ومنذ سنة ١٧٨١م تغير منظر جزء من ضواحي المدينة الواقع بين بوابة «باب الشُكْر» ومصنع الأسلحة من شكله الذي اتسم به في هذه السنة وفي تاريخ سابق؛ ويرجع الفضل في هذا التغير إلى أحد الأساقفة الكبار بمدينة طليطلة «الكاردينال لورينثانا»، فقد غُرست أشجار الدردار على جانبي الطريق، وكانت هذه الأشجار تمثل عصر النهضة إبان عصر الملك كارولوس الثالث؛ وبلغ البستان نضارته في ذلك الوقت، ولكنه بدأ في التناقص والاختفاء تدريجياً[٤٧].

وقد ترك الأهالي غوطة طليطلة التي كانت في وقت سابق مكانهم المفضل للاستراحة في الريف وللابتعاد عن ازدحام مركز المدينة. ودمرت النواعير والدواليب حتى أصبح نهر التاجه يسيل هادئاً بين أراض قاحلة بور تكاد تكون خالية من غطائها النباتي الأخضر طوال السنة تقريباً.

أما آثار «قصر جاليانا»، التي تضمحل تدريجياً يومًا بعد يوم، فتبرز في الوقت الحاضر على سهل غير مزروع وخال من غطائه الأخضر ومن غابات الأشجار الكثيفة.

**بلنسية.**

عندما تطرّق «نشيدُ السِّيد» و«**الكتابُ الأول العام للتواريخ**» إلى انتزاع البطل القشتالي لبلنسية في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر الميلادي أشارا، على هامش الأحداث، ولكن بصورة متكررة، إلى أنها كانت محاطة ببساتين وحدائق ذات غطاء نباتي رائع.

وعندما اتجهت السيدة خيمينا (زوجة السِّيد) وبناتها إلى بَلَنْسِية قادمات من قشتالة القاحلة صعدت بصحبة «السِّيد» إلى أعلى برج من أبراج القصر لتتأمل منظر المدينة العظيمة بأجمعها وهي جاثية تحت قدميها ببستانها الأخضر الخصيب المحيط بالمدينة التي أصبح السِّيدُ صاحبها. تقول القصيدة:

ذهب سيدي «أدلينو» معهن إلى القصر

وهناك صعدوا إلى أعلى مكان يتأملون أنحاء المنطقة؛

يتأملون مدينة بَلَنْسِية الراقدة فوق أراضيها...

وعلى الجانب الآخر تمكنوا من رؤية البحر

وأن يشاهدوا أيضًا بستان المدينة الكثيف والكبير

وكل الأشياء الأخرى بجمالها ورونقها(٤٨).

وتكرِّر نصوص «**الكتاب الأول للتسلسل التاريخي**» وصف البساتين المجاورة لمدينة بَلَنْسِية؛ فقد كانت مكمنَ خطر دائم لمحاربي «السِّيد»، إذ إنها تُيَسِّر مكامن للمحاربين من الأعداء، وفي الوقت نفسه لم تكن تسمح بانتشار كتيبة فرسان «السِّيد»(٤٩).

ومن تلك البساتين أكبرها المعروف ببستان فيلانوبا VILLANUEVA الذي أقام فيه ملك مدينة سرقسطة. وقد اختار «السيد» هذا المكان منفًى له عام ١٠٩٣م. ولم يكن البستان إلا منية ابن عبدالعزيز التي قام ببنائها المنصور بن أبي عامر، أمير بَلَنْسِية (٤١٢-٤٥٢هـ/ ١٠٢١-١٠٦١م)، وبمناسبة افتتاحها أقام الأمير احتفالاً رائعاً وزع في أثنائه هدايا كثيرة. وتحت سيادة المرابطين كان بهذه المنية حديقة واسعة نمت فيها أشجار الفاكهة وأشجار الزينة والزهور، وكانت تعبر الحديقة قناةُ «ساقية» يقع في وسطها القصر، وهناك أحد فسطاطيه

مزخرف زخرفة فخمة تُفْتَح أبوابه كلها على الحديقة. وقام بوصف هذا المجلس شاعر غير مشهور هو علي بن أحمد في أربعة أبيات من الشعر، ويبدو أن المنية أصبحت مكانًا عامًا للنزهة فيما بعد[٥٠]. وخلال حصار بَلَنْسِية دمر المحاربون القشتاليون كل المنازل والأبراج التي عثروا عليها خارج الأسوار وقاموا ببناء مدينة صغيرة وجميلة بالقرب من قصر «جوبالا» مستعينين بما وجدوا فيها من أخشابٍ وأحجار؛ وكذلك قام المسلمون المحاصَرون، عندما أيقنوا بدمار مبانيهم، بأخذ أكبر كمية ممكنة من الأخشاب ووضعوها داخل سور المدينة[٥١].

وكانت دهشة القشتاليين عظيمة جدًا أمام عدد البساتين المحيطة ببلنسية وكثافتها، وعكس ذلك كان عذاب المسلمين المحاصَرين عظيمًا وبالغًا عندما انتشر الدمار في بساتينهم الرائعة الجميلة. وفي أوائل سنة ١٠٩٤م قام الفقيه «الوَقَّشي»، العالم العجوز، الماهر في نظم الشعر، بنظم قصيدة رثاء بعد حصار المدينة: «بلنسية، بلنسية، لقد داهمتك الكروب الكثيرة وأنت الآن تحتضرين... أما بساتينك الأصيلة النضرة التي تحوطك، فقد اقتلع الذئب المسعور جذورها ولن تعطي ثماراً... ومروجك الأصيلة، التي كانت تعج بالزهور الرائعة، حيث كن استمتاع سكانك بها كبيراً، أصبحت قاحلة»[٥٢].

وبعد مرور نصف قرن تقريباً على احتلال القشتاليين عادت المدينة إلى سلطة المسلمين مرة أخرى، فقام المسلمون بزرع الأراضي وإصلاح الدمار ورجعت المناطق المحيطة بها إلى روعتها وجمالها القديم. وحينئذ ذكر الإدريسي أن مياه نهرها استخدمت في ري المزارع والحدائق وبساتين القرى المجاورة للمدينة[٥٣].

واشتهرت في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي «الرُّصافة»

الواقعة جنوب شرق ضواحي مدينة بَلَنْسِية. وقد ألَّف الرُّصافي الذي ولد فيها قصائد في الثناء عليها(٥٤). وبعد استيلاء النصارى وعلى رأسهم خايمي الأول سنة ١٢٣٨م على المدينة مرة أخرى لم يذكر شعراء بَلَنْسِية في المنفى مبانيها ولا ثروتها المفقودة، بل بكوا حدائقها المدمرة التي لن تتكرر رؤيتها وتأملها.

«هذه المدينة الجميلة لم تكن إلا روضة تجري من تحتها الأنهار» وهذا بعض ما قاله الكاتب القاضي أبوالمطرِّف بن عَميرة المتوفى نحو عام (٥٨٢ ـ ٦٥٦/ ١١٨٦ـ ١٢٥٨)(٥٥).

ويتساءل ابن الأبَّار في مرثيته الشهيرة: «أين بلنسية ومغانيها، وأغاريد وُرْقِها وأغانيها أين حُلَى رصافتها وجَسْرها، ومنزلا عطائها ونَصْرها؟ أين أفياؤها تندى غَضّارة، وذكاؤها تبدو من خضارة؟ أين جداولِها الطفّاحة وخمائلها؟ أين جنائبها النفّاحة وشمائلها؟...»(٥٦).

ومن المعتقد أن بَلَنْسِية كانت أقلَّ دماراً من الأقطار الأخرى التي أصبحت تحت سيطرة النصارى، إذ بقي الكثير من المزارعين المسلمين في المنطقة، ولم تنقطع زراعة الأرض على ما يبدو. وفي القرون التالية امتدح زائرو بَلَنْسِية بحماس عظيم خصوبتها وجمال ضواحيها. وعندما قام «منزر» السابق ذكره بزيارة بساتين بَلَنْسِية المجاورة للمدينة سنة ١٤٩٤م خُيل له أنه في جنةِ الأرض(٥٧).

**أشبيلية.**

الأخبار التاريخية عن ضواحي أشبيلية قبل استيلاء فرناندو الثالث عليها قليلة. ولكن يُذكر أنّ المعتمد أمر بزرع بساتين وحدائق مورقة في إحدى البحيرات المجاورة للمدينة المعروفة «بالبحيرة الكبرى» التي جُفِّفت فيما بعد بصورة شبه كاملة، وبَنى فسطاطًا في وسطها. وكان المعتمد يتذكر باشتياق

شديد هذه البساتين والمساكن الأشبيلية الأخرى عندما طُرد فيما بعد إلى منفى «أَغْمات»[٥٨]. واشتهر «مرعى الفضة» بجوار أشبيلية على ضفة الوادي الكبير بسبب مقابلة المعتمد «الرُّميكية» المشهورة فيه وهي تغسل ثيابها، وكانت هذه المقابلة مقدمة لزواجه منها[٥٩].

يقول المقري إن نهر الوادي الكبير كان قابلاً للملاحة عند أشبيلية على امتداد ٢٤ ميلاً ماراً دائماً تحت ظل أشجار الحور وأشجار الفاكهة. وعلى طول ضفتي نهر الوادي الكبير بمسافة عشرة فراسخ (٣٠ ميلاً) كانت تُرى سلسلة متواصلة من المباني والضيعات الفاخرة والأبراج العالية[٦٠].

وعندما وصل الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف إلى هذه المدينة في شهر صفر سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م أمر ببناء قصور فاخرة سميت فيما بعد بقصور البحيرة LA LAGUNA وهي واقعة خارج «باب جَهْوَر». وأقيمت حولها مزارع واسعة تُسقى بمياه القنوات الرومانية القادمة من "الكلا دي جواديرا" A. GUA-DAIRA أو "منابع كارمونا" CANOS DE CARMONA. كما غرست أشجار الزيتون والتين والكرم وأشجار الفاكهة الغريبة المتنوعة الأجناس التي تنتج ثماراً لذيذة بشكل غير عادي. وقد أخذ من أقطار "الشَّرَف" ALJARAFE ١٠,٠٠٠ غصن زيتون من أجود أنواعها بغرض غرسها في "البحيرة" على حساب خزينة الدولة. وأمر السلطان والي كل من "غرناطة" و "وادي آش" بإرسال أغصانٍ من أنواع مختلفة من الكمثرى ومن البرقوق المعروف أيضًا باسم "عيون الثور" ومن الكمثرى الصغيرة ومن التفاح لغرسها في البحيرة[٦١].

وكانت تلك الحدائق تقع خارج الأسوار جنوب شرق المدينة؛ وفي القرن الثالث عشر ذكر منها حديقة الجنوب المعروفة "بجنة المصلّى" التي زرع فيها

قصب السكر[٦٢]. وفي التاريخ نفسه كانت ضفتا نهر الوادي الكبير محفوفتين، طبقًا لقول الشقندي الذي يؤكده عدد غير قليل من القصائد المعاصرة، بضيعات وبحدائق وبمزارع كرم وبأشجار الحور «بطريقة متتابعة دون انقطاع ودون مثيل لها في أي نهر من الأنهار الأخرى»[٦٣].

وعندما يشير كتاب "**التواريخ العام الأول**" إلى حصار فرناندو الثالث لأشبيلية الذي انتهى بالاستيلاء عليها سنة ١٢٤٨م، فإنه يذكر أيضًا أنه كانت هناك "مزرعة زيتون على طرف المدينة". ويقول الكتاب نفسه إنه كانت هناك نباتات كثيفة على ضواحي المدينة ذلك لأن المحاربين النصارى "استقروا داخل أيكة كثيفة خضراء واقعة بين المدينة وجهة أخرى في غربها"[٦٤]. كما يذكر الكاتب "مورجادو «أنه عندما انتزع الملك فرناندو أشبيلية أُعجب إعجاباً بالغاً بالحدائق والأغيال الواقعة بين بابي "الأوساريو" Ossario و"قرمونة" Carmona حيث أهداها فيما بعد إلى الدير الخاص لاستراحة الملوك بمدينة بورقوس" Monasterio de las Huelgas de Burgos، وذلك عند توزيع ميراث الدولة[٦٥].

**بسطة** BAZA.

كانت مدينة "بسطة" في حوالي القرن الثالث عشر مشهورة بمياهها الجارية وبحدائقها[٦٦]. ويروي ابن الخطيب أن نساء بسطة الرقيقات والحسناوات والمرتديات أزياء بهية، قد اعتدن مغادرة المدينة إلى ضفاف الجداول المائية العديدة للاستراحة، وإلى غيطانها الرائعة التي تُدخل رؤيتُها البهجة في النفس[٦٧]. وبعد قرن من ذلك يمدنا مؤرخو الملكين الكاثوليكيين بفكرة واضحة عن حدائق ضواحي المدينة الوارفة. ويقول ديقو دي باليرا Diego de Valera عنها عام ١٤٨٩م "إن المدينة كانت صغيرة ومحصنة بأبراجها، وكانت

تقع على سهل، وبعيدة إلى حد ما عن سلسلة جبال "لاسييّرا La Sierra" . . .
وبها العديد من البساتين المنتظمة حول دائرة المدينة وبها أشجار عالية وكانت سواقيها الكثيرة تمتد على دائرة يتجاوز قطرها نصف فرسخ (١,٥ ميل)، وكانت تلك البساتين والسواقي تصل إلى قرب أسوار المدينة" . وهناك رواية عن المدينة أكثر تفصيلاً وأكثر أهمية للمؤلف "بولقار" Pulgar إذ قال: «عند مخرج المدينة تجاه السهل غُرِسَ بستان كثيف به أشجار ضخمة وأشجار فاكهة على مسافة تكاد تبلغ فرسخاً على طول خط دائري. وفي هذا البستان أكثر من ألف برج صغير، لأن كل مواطن من أهالي المدينة يمتلك جزءًا من أرض البستان كان يُشيِّد برجًا بجوار أشجاره؛ وكان يروي أراضيه بماء السواقي وبالمياه الغزيرة الهابطة من سلسلة الجبال القريبة. وبكل قطعة أرض خاصة بنيت مبانٍ عديدة متينة حتى أصبح البستان قويًا محصنًا. .»[٦٨].

**وادي آش** GUADIX.

أشاد مجموعة من الشعراء من القرن الحادي عشر في قصائدهم بجمال وادي هذه المدينة وبمياه جداولها التي تنساب بين البساتين، وتتحدث تلك الأشعار عن أشجارها الملتفة المائلة بلطف وحنان كالأمهات الحانية على أبنائها حديثي الولادة؛ ومياهها الصافية الأعذب من النبيذ؛ وظليلتها التي يُلجأ إليها عندما تشتد حرارة الشمس، يتمتع المرء تحتها بنسيم لطيف[٦٩]. وفي القرن الثاني عشر قام محمد بن علي بن فرح، المعروف بالشفرى [؟] AL-SAFRA الذي كان طبيبًا وعالم نبات عظيم، بغرس حديقة نباتات للسلطان محمد الناصر (توفي في ٦١٠هـ-١٢١٣ - ١٢١٤م) بمقره بمدينة "وادي آش"[٧٠].

**مدينة مَالَقَة MALAGA.**

تعد مدينة مَالَقة واحدة من أقدم الشواهد على وجود حدائق في أسبانيا الإسلامية التي يحتمل أنها تعود إلى ما قبل الإسلام، أي إلى العصر القوطي VISIGODO . ولقد ذكر المقري أنه عندما قام عبدالعزيز بن موسى بن نصير بحصار "مَالَقَة" غادر حاكمها المدينة ليستريح في الحدائق المجاورة، وقد كان رجلا مهملاً محدود القدرات، وقد ضجر من الحصار، دون أن يأخذ حذره بوضع بعض المراقبين أو الطلائع، ولذا تمكن منه بعض فرسان العرب ليلاً ثم فتحوا المدينة(٧١) .

ولم يكن في المدينة مصدر مياه إلا الآبار، وعلى الرغم من ذلك يقول الإدريسي إن ضواحيها كانت ذات بساتين مفروشة بأشجار التين، وذلك قبل نهاية النصف الأول للقرن الثاني عشر بفترة قليلة، وكانت ثمارها تتمتع بشهرة عظيمة(٧٢) . وفي القرن التالي ذكر الشقندي أن ضيعات مَالَقة كانت تشبه «نجوم السماء في عددها وفي بهاء ازدهارها»(٧٣) . وفي القرن الرابع عشر ذكر ابن الخطيب أن سهل مَالَقة كان "قصورًا وحدائق" ؛ وكانت بها حدائق ذات مناظر رائعة، وقصور مبنية على منحدرات الجبال والبساتين بظلها الوارف، وبرك ذات مياه عذبة صافية؛ كما أن أرباضها النشطة كانت تتجلّى بكبريائها بين صفوف أشجار الحور؛ ولم تكن هناك مدينة مثلها توافرت فيها المزارع والكروم والزهور الزكية؛ كانت المدينة بأكملها جنة(٧٤) .

وعندما يذكر المؤرخون الثلاثة للملكين الكاثوليكيين، ألونسو دي بالنسيا Al-onso de Palencia، وفرناندو ديل بولقار F.D.Pulgar وموسين ديجو دي باليرا M.D. De Valera، استيلاء هاذين الملكين على مَالَقَة سنة ١٤٨٧م فإنهم يصفون

المدينة بأنها محوطة بحدائق وبساتين نضرة. ولنسمع أقوالهم. يشير الأول إلى التسهيلات المهيأة للمدافعين عن المدينة المتمثلة في «أشجار الفاكهة المورقة النامية في البساتين العديدة المجاورة للأسوار». ويذكر بولقار أنه "بالإضافة إلى الجمال الآتي من البحر ومن المباني فهناك منظر أكثر منه جمالاً، وهو منظر أشجار النخيل العديدة وأشجار الليمون وأشجار البرتقال والأشجار الأخرى، والبساتين الكثيرة في داخل المدينة وضواحيها وفي المزارع المجاورة لها"؛ وكان في الضاحية الواقعة جهةَ البحر العديد من البساتين ومن المنازل المهدمة. ولقد دمَّر المحاربون النصارى في ضواحي المدينة مزارع القمح والكرم والبساتين وأشجار الزيتون وأشجار اللوز، وأشجار النخيل وأشجارًا مختلفة، ودمروا أيضاً الطواحين الموجودة في دائرتها. وكان بالقرب من المدينة البستان الذي استقر بجواره المعلم سانتياجو Santiago أثناء حصارها، والذي كان يسمى "بستان الملك" . ويتكرر الإعجاب عينه في أقوال باليرا، فهو يقول: "المكان الذي تقع فيه المدينة عبارة عن سهل واسع في غوطة كبيرة وجميلة مليئة بالبساتين وبالأشجار وبالكرْم. ويوجد في سلسلة الجبال القريبة الكثير من الكرْم والمساكن وأبراج تشكل منظرًا رائعًا للرؤية"(٧٥).

وبعد هذه الفترة بقليل في سنة ١٤٩٤م، عندما قام منزر MUNZER بزيارة المدينة بدا المنظر أكثر اكفهراراً مما كان عليه. وقد أقيم دير الشباب الرهبان «على سهل خصب نمت عليه من قبلُ العديدُ من البساتين الغنَّاء التي أهمل أمرها منذ تاريخ الحصار"(٧٦).

**غرناطة.**

يصف المؤلفون العرب في القرن الحادي عشر حدائق غوطة غرناطة ذات

الخصوبة العظيمة بأنها مماثلة لحدائق قرطبة وإشبيلية(٧٧).

وفي القرن الثالث عشر الميلادي كان في منطقة قريبة جدًا من غرناطة بستان رائع معـروف باسم "دارا بنار DARAVENAR"، وأقيم فـيه منزل ريـفي عرف باسم قـصور دون نونيـو PALACIOS DON NUNO، ويرجع هذا الاسم إلى أن حاكم غرناطة اسـتضاف فيه الأمير دون نونيـو جونثالث دي لارا الذي وقع في خلاف مع الملك ألفونسو الحكيم.

وفي النصف الأول من القـرن الرابع عشـر كتب "العُـمَري" (المتـوفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) أن نهر "الخنيل" كـان يجري في غوطة غرناطة مـسافة ٤٠ ميلاً بـين الحدائق والضيعـات والمزارع المزدحمة بالمنازل والمنيات وأبـراج الحمام والمباني الأخـرى المتنوعة. وقبل وصـول نهر الدارُّو DARRO إلى غرناطة كان يجري بين الحدائق والمزارع والكروم. وكـان في المدينة تَلاَّن فوقهما عـدد كبير من المنازل الرائعـة والفسـاطيط المتجـهـة إلى الخارج وكـانت تطل على المناظر الجميلة من الأراضي الزراعيـة والجداول المائية والسواقي التي كانت تعبـر فيها، ولم يكن لهذا مثيل ولم يكن في الحسبـان أن يتصوره العقل. وكان أحد التلين يسـمى "الشـورّو" أو "الموّار" MAWROR؛ أمـا الثـاني فـيسـمى القـصـبـة القديمة(٧٨). ويذكر ابن بطوطة، الذي تجوّل في عدد كبير من البلدان في القرن الرابع عشر الميلادي من المحيط الأطلسي حتى الصين بما فيها غرناطة، أنه ليس لمدينة غرناطة مثيل آخر في العالم؛ وقد كانت محوطة من جميع نواحيها بمنازل وقـصور وحـدائق وبساتين ومـراعٍ وكـروم. ويذكـر أنه مكث يومين وليلة في حديقـة من هذه الحدائق في محادثة وديـة مع قاض من قضاة البلد وأشـخاص آخرين من كبار المسؤولين(٧٩).

وذكـر ابـن الخطيب في سنة (٧١٣/ ١٣١٣ ـ ٧٧٦/ ١٣٧٤) أن غـرناطة كانت مـحوطة بالـمُنْيـات وبالمزارع الملكية المزودة بمسـاكن فاخـرة كانت تطوق وكأنها أسوار، أو بمعنى أدق أساور حول المدينـة، ويقول المؤلف نفسه في كتابه «**الإحاطة**»: «كانت توجـد مئات الحدائق (الجنـة والجنات) لا نعرف مواقعـها؛ منها جنة اللحد أو جنة بركة الوادي [؟] ومزرعة أو جنة الجرف، جرف مقبل، والجنة المعروفة باسم فدان عصـام، وجنة العريف، والجنة المنسوبة إلى قداح بن سحنون...»[٨٠].

ويضيف وزير غرناطة أن أشجار الكروم أو الأشجار المحملة بالتفاح والفاكهة الأخرى اللـذيذة في كل أنحاء المدينة ملتـفة على بعـضهـا. وكانت البـساتين المجاورة للمدينة تنتج كميات هائلة من الغلال والخضار، حتى لم يكن يستطيع تسديد قـيمتهـا إلا أمير ذو ثروة كـبيرة. وبلغ الدخل السنوي لكل بسـتان ٥٠ قطعة ذهبيـة، وكان يدرّ كل من هذه البساتين على الملك ثلاثين جنيـهًا. وكان كل الريف مغطى بأشـجار الفاكهة بصـورة مستمرة حـتى أصبحت المزارع ذات خضرة دائمـة. وقد قدرت قيـمة ثمارها بـ ٢٥,٠٠٠ قطعة ذهـبية. كان من ضمن ممتلكات الملك منازل فـاخرة للترفـيه وفيهـا متعة لا مـثيل لها بأغيـالها وبالتنوع في نباتاتها وحـدائقها. وإلى أي ناحية نظر الرائي كـان يصادف أبراجًا ذات مظهر رائع؛ وكانت تسيل المياه في جميع الاتجاهات، وتلك المياه تستخدم في الحـمامـات أو في تحريك الأرحـاء التي يُستـغل ربحهـا في ترميـم أسوار المدينة[٨١]. وقـد اندهش الرحالة المـصري عـبد البـاسط بن خليل بن شـاهين الملطي عند وصـوله إلى البسـاتين والحدائق التي كـانت تطوق غرناطة فـي عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م، ولإنتـاجها الغـزير. فمن نـاحية ـ يقـول الرحالة ـ كـانت

الحدائق تنتشر ومن الجهة المقابلة لها الكروم، كما شاهد شجيرات الكروم وأشجار التين ذات الأحجام الهائلة[٨٢].

وقد كانت كل تلك الثروة الآنفة الذكر معرضة للخراب المستمر؛ إذ تذكر كتب التواريخ أن المحاربين القشتاليين تسربوا مرات عديدة إلى غوطة غرناطة بغرض القتال وسرقة القرى العربية وتدمير مزارع الكروم والقمح والبساتين وحقول أشجار الزيتون المجاورة للمدينة[٨٣].

قد يعتقد أن الكتّاب المسلمين قد استنفدوا أسلوبهم الغزير في الثناء على مدينة نهر الدارّو DARRO ونهر الخنيل (غرناطة)، ولكن أكثر الظن في هذا أن بعض النصارى الأجانب الذين زاروها تجاوزوا أساليب المسلمين، وذلك في السنوات التي تلي استيلاء الملكين الكاثوليكيين على المدينة مباشرة عام ١٤٩٢م. وتعد الأساليب التي يصفون بها غرناطة أكثر حماسة وإطراء لها مما ذكره المسلمون عن المدينة نفسها. وكان الألماني مُنْزِر MUNZER على علم بأكبر وأجمل مدن أوروبا الوسطى؛ كما كان الإيطالي "أنجلريا" ANGLERIA على علم تام بأشهر المدن الإيطالية المتنوعة الأساليب ولنسمع شهادتيهما:

عندما قام "خيرونيمو منزر" MUNZER بزيارة غرناطة في أكتوبر سنة ١٤٩٤م، أي بعد الاستيلاء عليها بأقل من ثلاث سنوات، كان المنظر العام مشابهًا لما كان عليه تحت السيادة الإسلامية. فقد كان في المناطق المحيطة بها، "أسفل منحدرات الجبال"، على سهل «يقع على مسافة ميل تقريبًا من المدينة، عدد غير متناهٍ من البساتين والقرى الزراعية التي تروى بالسواقي المعمورة دائمًا، وتبدو تلك القرى بأجمعها على بعد معين كأنها مدينة كبيرة مزدحمة؛ بالأخص شمال غرب المدينة على مسافة ٤,٤٤٥ متراً حيث يرى

عدد لايحصى من المنازل والبساتين، ويرجع هذا إلى أن العرب من محبي زراعة البساتين، وهم على درجة كبيرة من المهارة في تنمية المزارع وفي فنون الري"(٨٤).

وفي الربع الأول من القرن السادس عشر كتب الإيطالي "بيدرو مارتير دي أنجلريا" PEDRO MARTIR DE ANGLERIA المتخصص في العلوم الإنسانية (١٤٥٧-١٥٢٦) في إحدى رسائله وربما أكمل تقريظ عن موقع غرناطة وضواحيها قائلاً: "أين يوجد قطر مثله بمتنزهاته الرائعة لترفيه الإنسان ولتنشيطه ولتسلية النفس المثقلة بالأشغال وعناء الحياة؟ فمدينة فينيسيا Venecia الرائعة محوطة بالبحر من جميع أنحائها؛ ومدينة ميلانو الفاخرة نصيبها الوحيد من الحظ أنها تقع على سهل؛ ومدينة "فلورنسا" FLORENCIA محوطة بالأراضي المرتفعة وتخضع لقساوة الشتاء؛ ومدينة روما مكتومة ببخار بحيرات نهر التيبر" TIBER، بالإضافة إلى رياح الجنوب التي تمسح وجهها باستمرار حاملة أبخرة موبوءة كريهة الرائحة من القارة الأفريقية تمنع الكثير من أهلها من أن يبلغوا الشيخوخة، بينما تعاني في فترة الصيف من الحر الشديد الذي يتعب السكان ويجعلهم غير قادرين للقيام بأي عمل. وعكس ذلك يحدث في مدينة غرناطة حيث "نهر الدارُّو" الذي يجري وسط المدينة فيجعل الجوّ صافيًا صحيًا. وتتمتع المدينة بوجود الجبال وبوجود سهل واسع؛ كما أنها تزهو بمحصولها الدائم وبأشجار الأرز وأشجار التفاح الذهبية من كل الأنواع؛ وهناك بساتين بهية، كما تنافس حدائقها حدائق الهزبريدس HESPERIDES. وتمتد الجبال المجاورة حول المدينة على هيئة تلال رشيقة ومرتفعات منتظمة مغطاة بشجيرات ذات رائحة زكية من نبات الريحان والكروم. ولننقل باختصار

إن القطر بأجمعه بنضارته ومياهه يشبه (الحدائق الفردوسية) "الشانزليزيه" . لقد تأكدت بنفسي كيف أن جداولها المائية الشفافة، التي تجري وسط أشجار الزيتون الكثيفة والبساتين الخصبة، تنعش النفس المجهدة وتبعث دفعة جديدة للحياة»[٨٥].

ولم يكن "ناباخيرو" NAVAJERO أقل من سابقه حماسةً عندما وصف ضواحي "غرناطة" فقد فقال: "إن الربى والسهل الذي يعرف بالغوطة على حد سواء كلها ساكنة بأجمعها تثير الدهشة والعجب في النفس، يتوافر فيها الماء بغزارة، كما أنها مليئة بأشجار الفاكهة، وأشجار البرقوق المتنوعة، وأشجار الخوخ، وأشجار التين، وأشجار الدراق وأشجار المشمش، وأشجار الكرز الحامض وأشجار أخرى عديدة تكاد تغطي السماء بفروعها المورقة المتشابكة فلا تسمح برؤيتها . . وبالإضافة إلى الأشجار السابق ذكرها فإن هناك مجموعة كبيرة من أشجار الرمان الفائق الجمال وأشجار الكرم المحمل بالعنب النادر المتنوع . . . ولم تنقص أشجار الزيتون الكثيفة التي تبدو كأغيال من أشجار البلوط. ويُرى في كل مكان من ضواحي غرناطة عدد كبير من منازل العرب على التلال والسهول، وبعضها مختفٍ بين أشجار الحدائق، وكلها مجتمعة تشكل مدينة كبيرة مثل مدينة "غرناطة" ؛ وبالرغم من أنها في حقيقة الأمر صغيرة، ولكنها مزودة بالماء وبالورود وبأشجار البندق وبالريحان. وهي تجلب السكينة والهدوء للنفس"[٨٦].

ويرجع الجمال البالغ والنضارة العميقة لضواحي "غرناطة" إلى مياه نهر الدارُّو ونهر "الخينيل" ومنبع قرية الفخار ALFACAR الموزعة على هيئة سواق عديدة تسمح بتحويل تلك الأراضي إلى جنةٍ رائعة، ويرجع ذلك إلى مياه

الري، إذ بدونها لم يكـن لينبت سوى نباتات الأراضي البـور والأعشاب شـبه الصحـراوية. ويُعزَى إلى مـحمد بن الأحـمر (٦٣٥/ ١٢٣٧ـ ٦٧١/ ١٢٣٨) مؤسس الأسرة الناصرية أعمال بناء "الساقية الملكية" التي نتج من مياهها الـتي تسيل من مـجراها الملتوي منذ ذلك التـاريخ "قصـرُ الحـمراء" ALHAMBRA و"جنةُ العَريف" GENERALIFE. وقبل وصول المياه لهذين القصرين، أي قبل القرن الثالث عشر، كانت التلال التي يقع عليـها القصران اليومَ عبارة عن ربًى جرداء مغطاة بالأعشـاب تخضرّ فقط خلال فصل الربيع القصيـر المميز للمنطقة الجنوبية كما هـي الحال اليوم ـ وسوف نرى فيما بعـد أنه لم تكن الحالة كذلك في تاريخ مـاضٍ ـ بالنسـبـة إلى الأراضي التي تحف مـجرى نهـر الدارّو قـبل وصوله إلى مدينة غرناطة.

أما في الفترة الأخيرة للحكم الناصري وكذلك في الفترة التي تلت الاستيلاء مباشرة، فتظهر ضواحي غرناطة من خلال قصائد الشعراء، ومن خلال قصص المؤرخين والرحالة أكثـر دقة مما تبدو عليه في الأوصـاف المتكررة السابقة. ومن الممكن من خلالهـا ذكر بعض الأسماء وتحـديد مواقع لبعض المنيـات والحدائق التي ألّفت الحزام الأخـضر حول المدينة وأن نعيِّن مواقع بعـض القصور والمنازل والأبراج التي كـانت حيطانهـا البيـضاء المـدهونة بالجيـر الأبيض تطل من بين الأوراق الكثيفة. وبالاعـتماد على تلك البيانات يمكن القول بـأنها تجمعت في عدة مراكز: على التل حيث توجد اليوم ضيعة "المارترس" MARTIRES؛ وفي "الرياليـخو" REALEJO الواقع بين الحي الحـالي المعروف بأنتكيـرويلا ANTE-QUERUELA ونهر "الخينيل"؛ وفـوق قصر الحمراء وجـنة العَريف؛ وفي اتجاه منبع نهر الدارُّو قبل دخوله غرناطة على سفوح التلال التي تحف مجراه؛ وعلى

السفح الغـربي لسلسلة جبال "لاسيـيرا" التي تمتد إلى الشمال عـبر التل الذي يقع عليه البـيازين ALBAICIN. والأخبـار عن السهل الذي كان على امـتداد الغوطة غرب غرناطة شحيحـة، ولكن سهولة أعمال الري تمكن من القول بأنه لم تنقطع عنده حلقة الأغيال والمنازل الصغيرة القائمة في تلك الأماكـن. وذكـر في القـرن الخامس عشـر أرحاء "خرانبي" JARANBI الواقعة في تلك الأماكن بالقرب من باب الرملة BIBARRAMBLA، الذي قام الملك الكاثوليكي بهـدمه سنة ١٤٨٤م أثناء غـارة من غاراتـه عبـر غوطة "غـرناطة"(٨٧). ولنَرَ هل في الإمكان إعادة بناء بعض هذه الروضات التي تشكل العـقد الرائع المحيط بالمدينة علمًا بأن أجملها ينتمي إلى التركة الملكية.

في جنوب المدينة، خارج السور القديم أي على الجانب الآخر للسور الهابط من "تورس برميخاس" BERMEJAS حتى "باب الطوَّابين" في داخل سور آخر مبنـي على ما يبـدو في أواخر القرن الـثالث عشـر، كانت هناك حـدائق غنّاء وبساتين أشاد بجمالها الكتّاب المسلمـون والنصارى: منها بستان عصام وبساتين الـمَنجرة الكبرى والصغرى وبسـاتين الفخَّارين في الربض المعروف بهذا الاسم بجوار البـاب الذي يحمل الاسم نفـسه(٨٨). وكان بسـتان المنجـرة الكبرى في أواخر القرن الخامس عشـر خاصًا بالملكة "حرة" HORRA أم عبدالله، ويحده شرقًا الشـارع العام لربض "باب الفخَّارين"، وغـرباً سور المدينة؛ وجنوبًا باب لربض آخر للملكة زوجة أبي عبد الله وكـذلك "الباب العاشر" وشارع المنجرة الكبرى؛ كما وجـدت شمالاً المنجرة الصغرى المحدودة غربًا ببـستان زوجة أبي عبد الله الواقع على حافة نهر الخنيل، وشرقًا بمنازل وحدائق كثيرة(٨٩).

وهكذا امتـدت البساتين الثلاثة مـن شارع الربض المعروف بباب الفـخارين

الذي يطلق عليه حالياً اسم "الرياليخو" REALEJO وشارع سانتياجو -SAN TIAGO حتى "كاريرا ديل الخينيل"، ومن باب العاشر حتى قلعة باب الطوابين[٩٠].

ويبدو أنه كان يوجد أسفلَ النهر، على الضفة اليمنى منه خارج الأسوار، الطريقُ المحفوفة بـ"حَوْر مؤمَّل" HAUVR MU`AMMAL المغروس في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر تحت سيادة المرابطين وقام بهذا المشروع مولى قديم لباديس عرف بنفس تلك التسمية (توفي سنة ٤٩٢/ ١٠٩٩م) عندما كان وكيلاً على ممتلكات للزيريين المصادرة لصالح الملوك الأفارقة. ويذكر الكاتب الغرناطي أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد (المتوفى سنة ٥٥٩/ ١١٦٣م) في قصائده تلك الطرق المحفوفة بأشجار الحور عندما وصف وقت غروب الشمس الذي قضاه بها في الهواء الطلق مستمعًا إلى «هديل الحمام في الغيل الكثيف وأغصان الريحان المائلة على المجرى المائي»، مصطحبًا حبيبته الشاعرة حفصة بنت الحاج الرَّكوني". وكان يتردد على ذلك المكان الكثير من المتعطلين والعاشقين كما احتفظت بهذه التسمية في القرن الرابع عشر حيث أورد ذكرها ابن الخطيب.

وتشير قصيدة أبي جعفر التي سبق ذكرها إلى النسيم العطر الآتي من النجد NAJD حيث ينتشر في الهواء طيب القرنفل. ويقول الملاحي (في "**الحلل المَوْشية**" ص١٣٦) عن عبد الواحد الخليفة الموحدي، المعروف "بالمخلوع" (٦٢٠-٦٢١/ ١٢٢٤) إنه بنَى في النجد قلعة ومبنى عُرف "بالدار البيضاء". وفي هذه الفترة ذاتها نجد أن الشقندي (المتوفى في ٦٢٩/ ١٢٣١-١٢٣٢) يمتدح مدينة غرناطة ونسيم نجدها والمنظر الطبيعي الرائع لحورها الممتع للعيون

والقلوب الذي يشيع الراحة في النفوس[٩١]. وكان النجد في القرن الرابع عشر ربضًا من أرباض "غرناطة" واقعًا على تل قريب مباشرة من المكان الذي تقع عليه سبيكة الحمراء بينها وبين وادي نهر الخينيل[٩٢]؛ وكان في النجد عديد من الأبنية والحدائق، كما كان في الجزء الأعلى منه «زاوية اللجام»[٩٣]. ومن المعتقد أنه تحوّل بعد الاستيلاء إلى "كنيسة الشهداء" ERMITA DE LOS MAR- TIRES التي تحولت إلى دير في وقت لاحق. ولم يُذكر ربض "النجد" في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ولا في السنوات الأولى من السادس عشر، ولكنه احتفظ بذكره مع الباب الأقصى للسور المضاف إلى سور غرناطة في القرن الثالث عشر وهو الباب المسمى "ببيب نت" أو باب النجد BIBNEXDE, BIBNEST. ولما اختفت التسمية العربية أطلق عليه باب الطواحين أو باب "جويخر" GUEJAR. ودعي "طود الشهداء" فيما بعد سنة ١٤٩٢م بفترة قصيرة، بطود الهبول ALHABUL؛ ولم تشر أقدم الروايات التاريخية النصرانية إلا إلى وجود بعض المطامير فيه؛ وتجهل تلك الروايات وجود ربض النجد ولكنها تذكر على العكس حي "أنتكيرولا" "ANTEQUERUELA"، ومن المحتمل أن الربض الأول كان يقع بين هذا الحي وطود الشهداء.

وقد أقيم على الضفة اليسرى لنهر الخينيل، بعد عبوره، قصر الخينيل الذي كان عبارة عن ضيعة ملكية واسعة مزوّدة بفساطيط فاخرة وببرك ضخمة. وفي خلال القرن الخامس عشر وصلت أفواج المحاربين القشتاليين إليه مرتين في بعض غاراتهم عبر الغوطة؛ وكذا في سنة ١٤٣١م في الحملة التي اشترك فيها "دون خوان الثاني" و"دون البارودي لونا"، والحملة الأخرى عام ١٤٦٢م التي قادها دون "دي ميجل لوكاس دي إرانثو"[٩٤].

وقريباً من هذه المنطقة كانت توجـد بساتين الأمراء الناصريين المذكورة في وثائق تلت الاستيلاء مباشرة، وبعض تلك البساتين أصبحت خاصة بالملكين الكاثوليكيين ومنهـا: جنينة الفـارس ALFARAZ وهي الجنينة الأولـى من دار الهـديل التي خصصت للأراضي الزراعـية؛ وجنينة القاضي ALCADI وجنينة الغار، وكانت الجنينات الثلاث تروى بمياه السـاقية الرئيسة المعروفـة باسم أرميليا ARMILLA؛ هذا بالإضافة إلى جنينة الجوف ALJOF؛ وجنينة السيد مكلز MOCLIZ؛ وجنينة حامد HAMET؛ ودار الغازي DAR-ALGAZI «التي هي عبارة عن مزرعة جيدة من أروع المزارع الموجودة في الغوطة»(٩٥). وكذا كان في مُلْك الأمراء المسلمين بستان "النوبلو" NUBLO الذي أسس مكانه فيما بعد دير "سان خيرونيمـو"(٩٦).

ومـرورًا ببـاب "فـحـص اللـوز" FAJALAUZA عند أعلى نقطة بـشمـال سلسلة جبـال البيازين ALBAICIN في الاتجاه الشمـالي يخرج المارّ إلى حدائق غرنـاطة المخصوصـة بالثناء التي أطلق عليـها حـدائق "عين الدمع" AINADA MAR وهي واقعـة على المنحدرات الغربيـة لسلسلة جبلية أو على تل مـجاور. ويقول ابن بطوطة إن "عين الدمع" كانت جبلاً مغطى بالبساتين والحدائق؛ وأن ليس لمدينة جبل مثله. ويصف ابن الخطيب المكان نفسه قائلاً: إنه جبل ذو جو معتدل ولطيف جدًا مغطى بمزارع وبسـاتين جميلة وحدائق ذات نباتات عطرية، تجري فـيها المياه العـذبة الغزيرة، وتوجد بهـا مساكن فاخـرة وعديد من المآذن والمنازل القوية البنيان وأخرى متواضعة. وفي اعتقاد الكاتب "ناباخيرو" أن دير الرهبان الـقديم (الواقع في حدائق عـين الدمع القديمة) أحسـن وأرقى الأماكن الموجودة جمـالاً؛ وهو ذو مناظر طبيعية رائعـة، ونظرًا لكونه مكانًا منعزلاً عن زحمـة الناس، فهـو يُشيع الهدوء في النفـس بخضرته وعـيونه المائيـة العديدة

وأشجار الريحان المتــوافرة فيه. أما الجزء الذي يقع في أقــصى غرناطة فإنه في غاية الجــمال وهو مليء بالقرى والحــدائق بعيونها المـائية والبساتين والأغــيال، وتبلغ العيون في بعض الحــدائق درجة كبيرة في الحــجم والجمال؛ وعلى الرغم من تفوق تلك البســاتين جمالاً على غيرها، فإنه ليس هناك فــرق شاسع بينها وبين تلك البساتين التي تقع في ضواحي غرناطة(٩٧). وفي القرن السادس عشر ذكر مــارمول MARMOL "أن الأثرياء من الأهالي يقــضون في مــتنزهات عين الدمع، عندما كانت غرناطة تحت سـيادة العرب، ثلاثة أشهر من كل سنة، أي فترة الربيع التي يسمونها "العصير" LA AZIR . . . وتحتل منطقة النزهة في عين الدمع مساحــة فرسخ ونصف في اتجاه سفوح سلسلة جبــال البيازين المطلة على الغــوطة ثم تصل حــتــى المنطقــة المجــاورة لأســوار المدينة"(٩٨). وتروى تلك الحدائق بمياه "ساقــية الفخار" ALFACAR. كما أقيم الحــصنُ المعروف بالقلعة الحرة CALAHORRA على قمة تل مطل على تلك الحدائق.

وكان أقــدم جزء بمقبرة "ســاهي بن مالك" SAHI B.MALIK الواقعة خارج "باب إلبيرة" BAB ILBIRA مزروعًا بأشجار الزيتون(٩٩).

وقبل أن يعبــر نهر الدارّو غرناطة كان يجري، حسب قــول العمري، وسط حدائق وحقــول ومزارع من الكروم(١٠٠)؛ وكانت تنــمو على ضفــته أشــجار الألنوس والدردار والجوز وأشجار القسطل. ويصف "نباخيرو" ذلك الجزء من غوطة النهر وصفًــا كاملاً في تلك الصفحات التي كتبــها سنة ١٥٢٦م فيقول: "يصل "الدارو" إلى غــرناطة وسط الربى الرائــعة التي تشــكل غوطة مليــئــة بأشجار الفاكهة اللذيذة، والتي تشكل بكثافتها غابة من الأشجار يجري خلالها النهر، وتهدر ميــاهه وسط الصخور الكبيرة في بعض أجزاء مــجرى النهر؛ أما

في المناطق الأخرى فإنه يسيل هادئًا. وتكون ضفتاه مظللتين عاليتين مغطاتين بالخضرة، هادئتين محفوفتين من الجانبين بالكثير من المنازل الصغيرة المطوقة بالحدائق الصغيرة حتى تكاد تكون مختبئة وسط الأشجار الكثيفة المتغيلة... والوادي الذي يجري فيه النهر جميل وهادئ... أما الربى التي تكونه فهي مزروعة إلى قمتها بأشجار كثيفة تشبه الغابة.. أما سفوح الجبال التي لا تصلها الزراعة فإنها تكتسي بالشجيرات وبالسرخس والنباتات الأخرى المثيلة"(١٠١).

ويتناقض منظر الغطاء النباتي الغزير الذي وُصف من قبلُ مع منظر ربوة السَّبيكة التي أقيم على قمتها قصر الحمراء، التي يعتقد أنها كانت عارية من أية نباتات نظرًا إلى صفتها كقاعدة عسكرية. ولكن جنة العريف التي تقع أعلى منها بنباتاتها المورقة الكثيفة تعوّض عن تجرد الربوة السفلى. ومع ذلك فإنها لم تتمكن من تحقيق أمنية سادة كبار غرناطة في البعد والانعزال وفي تأمل المناظر الطبيعية الشاسعة، فقاموا ببناء قصور وفساطيط أعلى من حدائقهم المطوقة كالعادة بالأسوار، ورُفع إليها الماء لسقي البساتين والحدائق ولملء البرك به وتم رفعه بواسطة آلات ووسائل شاقة ومعقدة تتطلب صيانتها جهدًا وعناية بالغة ونفقات باهظة(١٠٢). وما يثير الدهشة هو العدد الكبير من العمال الذين بذلوا جهدهم في بناء مشاريع مكلفة كهذا المشروع في تلك الدولة التي مازالت في حالة دفاعية والتي تتابعت فيها الخلافات والحروب دون انقطاع.

ولا تُعرف الفترة التي بدأ فيها إهمال النواعير والتوصيلات المائية التي كانت توصِّل الماء بوسائل شاقة إلى تلك الحدائق والقصور والأماكن الواقعة على سفوح الرُّبى بين نهري "الدارو" و"الخنيل". وقد أصبحت تلك الأراضي الرملية جافة جرداء وبذلك عادت إلى حالتها الطبيعية السابقة. ولتحديد تلك

الفترة هناك احتمالان: الاحتمال الأول أنها تعود إلى السنوات الأخيرة لمملكة غرناطة المضطهدة التي اشتد عوزها عندما لم يكن لديها أدنى مفر يهديها نحو الأمل. أما الاحتمال الثاني فهو أنها تعود إلى ما بعد الاسترداد مباشرة. وحقيقة الأمر أنه كانت هناك في القرن السادس عشر مجموعة من البرك والمباني الواقعة في المناطق العليا من "جنة العريف" وكان يصل إليها الماء، فأصبحت مناطق مهجورة مدمرة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الجزء الشرقي لقصر الحمراء الذي يقع في أعلى مجرى الساقية الملكية والذي تحوّل إلى أرض جرداء(١٠٣). وفي تلك الفترة أصيبت أيضًا ضواحي المدينة بنفس التدهور. وهاجر المسلمون الأندلسيون الذين زرعوا أرضهم بعناية ودقة بالغتين، بينما أقبل إلى مدينة غرناطة النصارى الأوئل الذين لم يكونوا إلا لاجئين مغامرين معدومي التقاليد والاجتهاد والمعلومات الزراعية. وفي سنة ١٥٢٦م عندما كرر سفير "فينيسيا" "ناباخيرو" مدح مدينة غرناطة يقول بأسلوب حزين، في الفقرات السابق ذكرها، كيف أصبح ذلك الجمال على وشك الانقراض «وبالقرب من الوادي الواقع تحت دير "سانتا كروث" SANTA CRUZ وعلى حافتي نهر "الخنيل" . . يحدد "ناباخيرو" "بعض القصور وبعض الحدائق الأخرى التي تعود ملكيتها إلى ملوك العرب"؛ وقد تمكن من رؤية "بعض الآثار التي مازالت فيها، ومن المعتقد أن هذا المكان هادئ جدًا ومازالت به بعض أشجار الريحان والبرتقال. . ويوجد في منطقة سفلى على الوادي بعد معبر نهر "الخينيل" . . . قصر آخر بقي منه جزء كبير (قصر الخينيل) بحديقة رائعة وبركة شاسعة وأشجار الريحان العديدة ويعرف اليوم ببستان الملكة، وهو مكان هادئ أيضًا. ويتضح من دراسة تلك الأماكن العديدة أنه لم يكن ينقص الملوكَ العرب شيءٌ من أمور الترف والحياة السارة(١٠٤).

وقبل انتــهاء القرن الســادس عشر ســجل "مارمول كــارباخال" MARMOL CARVAJAL حالة الإهمال والخراب التي لحقت بالـقصور الواقعة في أعلى جنة العريف، ويشير إلى مـساكن الغوطة التي كان يقيم فيـها المزارعون؛ ويقول إنه بلا شك لم يكن لدى المسـتـوطنين الجدد، وهم الطبـقـة البرجـوازية والطبقـة المرفهة، الميل إلى الريف وحبه كحال مَن سبقهم من المسلمين(١٠٥). وقد كتب مارمــول قائلاً: "إن موقع مديـنة غرناطة يبدو اليوم رائـعاً بل هو أكثر جـمالاً وروعة عند رؤيتــه من الخارج، لأن المدينة أقـيمت على قمـم مرتفعــة جدًا.. ولأنها تتضــمن الأودية الواقعة بين التلال فإنهــا تمتد طولياً عبر منطقــة مسطحة واســعة غــرباً حيث توجـد غوطة مـسطحة مـربعـة رائعة مليـئة بالأشـجـار والنضارة، ويتـوسط الغوطة عدد من القرى يقطنهـا المزارعون وأهالي الريف، ويمكن مشاهدة تلك المناظر الطبيعـية من فوق منازل المدينة". والمناظر من فوق تلك المنازل مازالت جميلة ورائعة جدًا على مدار السنة. فإذا نظرت إلى الغوطة الخضراء فإنك تشاهد الأشجار الكثيفـة فتحس بشذاها وبجمال الأماكن الكثيرة الواقعة فـيها المثيـرة للبهجة والراحة؛ وإذا مـا نظرت إلى القمم فإنك ستــشعر بالشعور نفســه؛ وإذا سرَّحت طرفك إلى سلسلة الجبال فإنك تشـعر مرة أخرى بابتهاج عظيم من رؤيتها قريبة جداً ومغطاة بالثلوج البيضاء معظم أشهر السنة، وترى الأرض البيضاء كأنها مكسوة بملاءة من القطن الناعم". "ويوجد، خارج المدينة، في اتجاه الغوطة، العـديد من البساتين الواسعة والأشجار الـكثيفة التي تُروى بمياه السواقي". و"المخارج المطلة على الغوطة على هيئة مسطحات مليئة بالأشجار البديعة، وكذلك الحــال بالنسبة إلى المخارج المطلة على سلسلة الجبال التي تثيـر البهجة والســرور في النفس مثل الأولى، لأن المرء يتنزه فيــها وسط الحدائق والبســاتين النضرة، وبالأخص عند مخرج باب البيــازين المعروف بباب

"فحص اللوز" ، حيث توجد حدائق «عين الدمع» التي تمتد على طول ضفة نهر الدارّو العليا(١٠٦).

وتؤيد أقوالُ القس "دون لويس دي لاكوبيا" في مؤلَّفه المشهور " **الأحاديث** " DIALOGOS ، وقد نشر بإشبيلية سنة ١٦٠٣م، قولَ "ناباخيرو" إذ يقول القس: "إن الجبال (القريبة من غرناطة) بمنحدراتها مغطاة بأشجار كثيفة حتى إنه لم يتمكن من رؤية الأرض تحتها، وهذا كان قبل ثورة المدجَّنين (المسلمين الأندلسيين) سنة ١٥٦٩م(١٠٧).

ومازالت حتى اليوم تلك المناطق المرتفعة الواقعة أعلى قصر الحمراء وقصر جنة العريف ودار العروسة DAR AL ARUSA ولوس أليخارس ALIJARES خالية جرداء، وكذلك منطقة دار الوادي DAR AL WADI بالقرب من نهر الخينيل. ولم يبق من بساتين "الرياليخو" إلا بقايا نادرة؛ بينما انقرضت حدائق قصر نهر الخينيل كليًا، وغطيت بركها بالرديم والأتربة؛ أما حدائق عين الدمع التي أطريت في تاريخ ماضٍ فلم يبق منها إلا آثار قليلة لأوان فخارية عربية الأصل متناثرة على أرضها وعدة برك مائية مدمرة، وكذلك الحال بالنسبة إلى منحدرات التلال التي تحف نهر الدارّو قبل وصوله إلى مدينة غرناطة وبعض الأماكن الأخرى التي أصبحت مناطق جرداء خالية من الحياة النباتية، هذا باستثناء غابة من الأشجار في منطقة "ساكرومنتي" SACROMONTE وبعض المناطق القليلة الأخرى. وتلك الأماكن المتعددة التي كانت مزدهرة منذ ٥٠٠ عام لايصل الماء إليها اليوم كما كان الحال عليه في الزمن الماضي، عندما كان يصل إليها بوسائل بدائية وبجهد جبار حتى أصبحت في وقتها أماكن مورقة وبديعة(١٠٨).

**مدن أخرى.**

يصف الإدريسي مدينة "سرقسطة" بأنها محوطة بالبساتين وبالحدائق؛ ويقول عن مدينة "داروقة" إنها كانت مليئة بالحدائق ومزارع الكروم(١٠٩).

وذكر "الحِميَري" أن ماء نهر "الخالون" JALON كان يستعمل في مدينة "رِكْلَة" RICLA في ري الحدائق المجاورة لها؛ وكانت "أفراغة" FRAGA محاطة بالحدائق المنقطعة النظير؛ وكانت تحيط بمدينة "وِشْقَة" HUESCA، ذات الأرض الخصبة، الحدائقُ والبساتين المليئة بأشجار الفاكهة، وتستمد مياهها من النهر الذي يجري في وسطها(١١٠)؛ وعلى كلٍ من ضفتي النهر الواقع في الجزء الغربي لمدينة "وادي الحجارة" GUADALAJARA كان يوجد الكثير من الحدائق والبساتين والكروم والمزارع الأخرى المتنوعة(١١١).

وكان يتغنى الوزير أبو عمرو بن الفلاس قائلاً:

بطليوس لا أنساك ما اتصل البعدُ
فلله غور من جنابك أو نجدُ!
ولله دوحات تحفك بينها
تفجر واديها كما شقق البرد!

وأقام الوزير "المتوكل" بجوارها منيتَه المسماة "البديع" BADI، حيث كان يذهب إليها مع أقاربه ليتناول الولائم في سعادة أو ليستريح بين الأشجار والزهور(١١٢).

ولقد كانت بضواحي مدينة "شلْب" SILVES مجموعة من الحدائق والبساتين؛ بينما كانت بساتين مدينة "شنترين" تنتج ثمارًا وخضروات متنوعة(١١٣).

وكانت في مـدينة "أستجة" بسـاتين وحدائق كثيفـة محاطة بنباتات مـلتفة رائعة. أمـا مدينة "هرنـا شولوس" HORNACHUELOS فكانت مـحاطة بمزارع الكرم وبكثـير من البسـاتين، بينما كـانت "شَريش" JEREZ محاطة بـأشجار الكرم، وأشجـار الزيتون، وأشجـار التين. كما امـتد على حافـتي نهر «وادي العسل» في مـدينة الجزيرة العـديد من الحدائق والبـساتين(١١٤). وكانت مدينة "لوشة" LOJA محاطة بأشجار الكرم والبساتين والأشجار الكثيفة(١١٥).

وهناك وثيقـة مسـيحيـة عن مدينة "شـاطبة" JATIVA الواقعـة في المنطقة الشرقيـة تصور حالة المناطق المحيطة بالمدينة. ويذكر "خـايمي الأول" في كتابه عن التسلسـل التاريخي الأثر الرائع الذي تركه في نفـسه منظر المدينة ببسـاتينها عند غروب الشمس، عندمـا كان يتأملها للمرة الأولى من ربوة مـجاورة لقصر المدينة: "رأينا أجمل بستـان لم نرَ مثله من قبل، وهو محاط بأكـثر من مائتي قـرية جـميلـة رائعة بمنـظر نبـاتاتها الـكثيـفـة وقلعـتـها الـنبيلـة وبستـانهـا الجميل..."(١١٦).

وفي نفس المنطقة يصف الإدريسي مدينة "بريانة" BURRIANA بأنها محوطة بالأشجار وبمزارع الكرم، وأن مدينة "مربيطر" MURVIEDRO محاطة بالبساتين التي تُروى بالمياه الجارية، كما يصف مدينة "الجزيرة" ALCIRA بمناطقها المحيطة الرائعة التي توفرت فيـها أشجار الفاكهة والري الجـيد؛ ومدينة "دانية" DENIA وسط الأراضي المزروعة بأشـجار الكرم والتين؛ وكـذلك مدينة "أوريوله" OR-IHUELA التي كـانت حـولها الحـدائق والبـساتين الـتي تنتج ثمـارًا بكميـات عجيبة(١١٧).

وقد ذكر ابن الأبَّار حديقة في مُرسية عرفت "بروضة ابن فرج" ABEN FARAG

في ربض "سـرحان" SIRHAN، وترجم لابن فـرج الذي توفي سنة ١٢١٧ ـ ١٢١٨م ودفن في الروضة المذكورة[١١٨]. ولعل وصف الشقندي كان أكثر من سابقه تعبيرًا؛ حيث ذكـر أن: على ضفة نهر "مرسية" MURCIA كانت توجد عدد من الحدائق ذات الأغصان الملتوية المتمـوجة، والنواعير الكثيرة التي تعزف ألحانًا مـوسيقية، وعـدد من الطيور المغردة، وعـدد هائل من الزهور المرتبة في صفوف لامـثيل لها[١١٩]. ولانعلم عن حدائق وادي مـدينة "لورقة" LORCA التي كـانت تكثـر فيـهـا السـواقي، إلا أنها كـانت تروى بواسطة الـنواعيـر أيضًا[١٢٠].

هذا، ونجـد الإدريسي عندما وصف بجّـانة PECHINA ذكر أنـهـا محـوطة بالبسـاتين والحدائق والمساكن الـريفية، كـما أن بها حـقولاً من الكرم وأراضيَ زراعيةً أخرى[١٢١]. ويشير العُمَري، بعد ذلك بقرنين، إلى أنه تكثر في المكان عينه أشجـارُ الزيتـون ومـزارع الكـرم وحـدائـق شاسعـة تنتـج ثمـارًا كـثيـــرة ومتنوعة[١٢٢].

ويقول أحد الكتّاب المـسلمين أنه بالقرب من مدينة "المرية"، ذات الأراضي القاحلة بصورة شـبه دائمة كان للأهالي من الطبقة الاجـتماعية الراقيـة مساكن «بأبراج» يلجؤون إليها بعد انتهاء مشاغلهم وأعمالهم في المدينة[١٢٣].

ولقد أشاد أحد مواطني مدينة "بَرْجة" BERJA الواقعة جنوب غرب مدينة "الـمَريّة" في القرن الحادي عشر، بجمال الحدائق المحيطة بالمدينة؛ ومما لاريب فيه أن هناك تضادًا بين منظر الحدائـق ومنظر الجبال والأراضي المجاورة القاحلة في كل من مدينتي بجّانة والمرية[١٢٤].

وحسبما ذكره الإدريسي فإن مـدينة "جيان" تقع على سفح محاط بالحدائق

والبساتين، والحقول المزروعة بالقمح والشعير والفول وكل أنواع الغلال والخضار. أما الرازي فيشير إلى مدينة "بيَّاسة" ويقول إنها "تقع على وادٍ مزدهر تنمو فيه الأشجار الكثيفة الطيبة"[١٢٥]. وحتى في مدينة سالم الواقعة على قمة الربوة الصخرية القاحلة التي تنتشر فوقها المدينة، كانت توجد في القرن الحادي عشر حديقة معلقة بجوار النهر أمام قصر الملك[١٢٦].

(1) Maqqarī, **Analectes**, I, p. 126; Pérès, **La poésie andalouse**, pp. 16, 121, 157 y 166.

(2) Jacob Burckhardt, **La cultura del Renacimiento en Italia**, pp. 185 y 252.

(3) «Añacea: fiesta, regocijo, diversión» **(Dicc. R. A. E.)**; «Añazeas: Dixéronse assi porque se hazen cada año y, se empieçan en día señalado» (Covarrubias, **Tesoro)**; «Añazea: cosa de placer» (Alcalá, **De lingua arabica**, p. 102); «Alfonso (VIII)... urtóles (a los moros) las huertas et los logares de sus annazeas o fazien sus deleytes et tomaman sus solazes»; «Abenarrami, convidó I vn día a comer et a sus annazehas de solaz et de amizdat que fazen los moros, las que al deleyte de aquella yente vsa mucho et las onrran mucho» **(Primera Crón. Gen.**, I, cop. 734, p. 430; cap. 999, pp. 678-679, y cap. 1.037, pp. 721-722); «Exixuela (Cijuela), donde estava el alcaçar del rrey (de Granada) que era la mejor y más rica casa que el tenía después de Alfambra, do fazía sus anaçeas» **(Crónica del halconero de Juan II**, p. 99). Véanse también Dozy y Engelmann, **Glossaire des mots...**, pp. 195-196, y Neuvonen, **Los arabismos del español**, pp. 235.

(4) Dozy, **Supplément aux dictionnaires arabes**, II, p. 134, «otoñada assi: **aácir»** (Alcalá, **De lingua arabica**, p. 332). Mármol se equivoca y confunde las estaciones, al escribir que «en tiempo que la ciudad (de Granada) era de Moros, iban a tener los tres meses del año, que ellos llaman la Azir, que quiere decir la primavera» (Mármol, **Hist. del rebelión**, I, cap. X, pp. 34-35).

(5) Longás, **Vida religiosa** p. L. El autor dice ser esta costumbre de los moriscos de Granada, Jaén y Murcia; es indudable su procedencia de la época anterior a la cristiana.

(6) En Granada y en algunos otros lugares de Andalucía la costumbre islámica perduró por lo menos hasta mediados del siglo pasado. En la primera mitad del XVII escribía conceptuosamente Henriquez de Jorquera que en las muchísimas casas de recreación y quintas de la vega de Granada, «en el temprano octubre se halla la bizarría de las granadinas celebrando la vendimia con primorosas y costosas galas, ofreciendo a tanta belleza en óptimos racimos el dulce licor de la más estimada planta» **(Anales de Granada**, p. 36). «En el término de Colmenar (Málaga) se encuentra un gran número de cortijos de labor e infinidad de caseríos llamados lagares, muchos de los cuales son tan deliciosos y amenos, que sirven también de recreo y diversión a sus dueños y otras muchas familias durante la temporada en que se hace la vendimia» (Madoz, **Dicc. geog.**, VI, p. 523).

(7) Maqqarī, **Analectes**, II, p. 377, según cita de Pérès, **La poésie andalouse...**, p. 188.

(8) Lévi-Provençal y García Gómez, **Una crónica anónima...**, texto, pp. 43-44; trad., pp. 108-109.

(9) Gayangos, **Memoria**, p. 36.

(10) E. Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane au Xème. siècle**, pp. 141 y 225.

(11) **Ibidem**, n. (3) de la p. 207.

(12) Gayangos, **Mohammedan Dynasties in Spain**, I, p. 207; la detallada descripción de las fincas de los contornos de Córdoba por Maqqarī, procede de Ibn Saʿīd. De la versión inglesa de Gayangos procede la castellana incluida en **La España musulmana**, por Claudio Sánchez Albornoz, I, pp. 337-340. Lévi-Provençal, **Historia de España musulmana**, t. IV, pp. 89, 174, 316, 401, 408 y 462; Alemany, **La Geografía...**, p. 26; García Gómez, **Ruina de la Córdoba omeya**, pp. 280-281.

(13) Ibn Hayyān, **Al-Muqtabis**, p. 169; Lévi-Provençal, **España musulmana**, t. IV, pp. 334-335 y 379-380.

(14) Ibn 'Iḏārī, **Córdoba**, pp. 155, 157 y 167.

(15) Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane**, p. 207, n. (3), y **España musulmana**, p. 121.

(16) Lévi-Provençal, **España musulmana**, p. 335; Pérès, **Poésie andalouse**, p. 132.

(17) Lévi-Provençal, **La Péninsule ibérique**, pp. 180 del texto árabe y 226 de la trad. francesa.

(18) Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane**, p. 174.

(19) Ibn Hazm, **Tawq al-ḥamāma**, ed. Pétrof, pp. 102-105, citado por R. Dozy, **Histoire des musulmans d'Espagne...**, II, pp. 328-331; Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane**, p. 207, nota (3).

(20) García Gómez, **Ruina de la Córdoba omeya**, p. 289

(21) Maqqarī, **Nafḥ al-ṭīb**, en **La España musulmana**, por Sánchez Albornoz, I, p. 339.

(22) Pérès, **La poésie andalouse**, p. 128; García Gómez, **Ruina de la Córdoba omeya**, p. 289.

(23) Maqqarī, **Nafḥ al-ṭīb**, en **La España musulmana**, por Sánchez Albornoz, I, páginas 339-340.

(24) **La poésie andalouse**, por Pérès, pp. 128-130. Los versos descriptivos en Maqqarī, **Analectes**, I, p. 420, I..3. Pérès traduce la palabra **qurbisa** o **qurnisa** de la descripción del techo del pabellón por estalactitas —mocárabes—, pero éstos no llegaron a España, desde Oriente, hasta el siglo XII. García Gómez, **Poemas arábigoandaluces**, p. 25.

(25) Al-Saqundī, **Elogio**, pp. 105-106.

(26) Idrīsī, **Description... de l'Espagne**, p. 188 del texto árabe y 228 de la trad. francesa; **La Péninsule Ibérique**, pp. 132-133 del texto árabe y 160 de la trad. francesa. Idrīsī terminó su obra en 1154, pero el Toledo que describe debe de ser el anterior a su conquista por Alfonso VI.

(27) **Takmilat al-Sila**, de Ibn al-Abbār, ed. Codera, p. 561, según cita de José María Millás Vallicrosa, **La traducción castellana del «Tratado de Agricultura» de Ibn Wāfid**, p. 284. Dice Pérès —**La poésie andalouse**, p. 197— que los directores del jardín botánico de al-Ma'mūn fueron Ibn Wāfid e Ibn Baṣṣāl.

(28) Tomo IV de la **Dajīra** de Ibn Bassām fº s. 187 **b** y 188 **a**; Maqqarī, **Nafḥ al-ṭīb**, **Analectes**, I, pp. 347 y 348; II, p. 673, según cita de E. Lévi-Provençal, **Alphonse VI et la prise de Tolède**, pp. 119, 120 y 129; **Maqqarī**, adaptación de Gayangos, I (Londres, 1840), pp. 239-240; II (Londres, 1843), p. 263; Ibn Badrūn, **Commentaire de la Risāla al-'abdūniyya**, pp. 277-278, citada por Pérès, **La poésie andalouse**, pp. 150-151.

(29) **Qalā'id**, p. 194, e Ibn Zāfir, **Badā'i'**, pp. 169-170. en **Analectes**, I, pp. 425 y 426-427, según cita de Pérès, **La poésie andalouse**, pp. 151-152.

(30) Jiménez de Rada, **De rebus Hispaniae**, lib. VI, cap. X.

(31) Jiménez de Rada, **De rebus Hispaniae**, lib VI, cap. XXII, p. 136.

(32) **Qirṭās**, trad. Huici (Valencia, 1918), p. 157.

(33) **Al-Hulal al-mawšiyya** (obra terminada en 783/1381), f.º 54; Francisco Codera, **Decadencia y desaparición de los Almorávides en España**, pp. 233-234; R. Menéndez-Pidal, **La España del Cid**, I, pp. 420-421; **Kitāb al-iktifā'**, f.º 164 v, según cita de R. Dozy, **Recherches sur l'histoire des musulmans d'Espagne**, II, p. LX; «Anales Toledanos I», en **España Sagrada**, por Fr. Henrique Flórez, XXIII, p. 387; **Qirṭās**, trad. Huici, p. 165; Maqqarī, adapt. Gayangos, II, p. XLV. A esta expedición deben de referirse los «Anales Toledanos II», aunque asignándola equivocadamente la fecha de era 1166 (año 1128) (**Esp. Sag.**, XXIII, p. 404).

(34) E. Lévi-Provençal, **Un recueil de lettres officielles almohades**, pp. 66-67; «Anales Toledanos I», en **España Sagrada**, XXIII, p. 393; Jiménez de Rada, **De rebus Hispaniae**, lib. VII, cap. XXX, p. 171; **Chronique latine des rois de Castille**, I, pp. 45 y 48; **El Anónimo de Madrid y Copenhague**, edic. A. Huici, p. 73 del teto árabe y 83 de la trad.

(35) **España Sagrada**, XXIII, p. 393; González Palencia, **Los mozárabes de Toledo**, I, doc. núm. 293, pp. 233-235; **El Anónimo de Madrid y Copenhague**, p. 76 del texto árabe y 86 de la trad., afirma que el monarca almohade razió los contornos de Toledo con más furia que la vez pasada, devastando y arruinando el país.

(36) Jiménez de Rada, **De rebus Hispaniae**, lib. VIII, cap. I, p. 176; **Memorias históricas de la vida y acciones del rey don Alonso el Noble, octavo del nombre**, p. CVIII; **Primera Crónica General**, I, texto, cap. 1.010, p. 689; «Anales Toledanos I», en la **España Sagrada**, de Flórez, XXIII, pp. 395-396. En 1294 era amín de la almunia del Rey Micael Domínguez (**Los Mozárabes de Toledo**, por Angel González Palencia, II, doc. núm. 1.045, p. 332).

(37) En 1431, al regresar don Juan II de la vega de Granada, los alcaldes y regidores de Toledo le tenían preparado un cadalso de madera bien alto, todo cubierto de paños franceses, «en derecho de la puerta de la huerta, que se llama del Rey» (**Crónica del halconero de Juan II**, edic. Carriazo, p. 110).

(38) **Viajes por España**, traducidos por Fabié, pp. 253-254 y 370-371. Medio siglo más tarde, Luis del Mármol Carvajal, en su **Descripción general de Africa**, I, f.º 94, refiere que Galafre, al celebrar las bodas de Galiana y Carlos, «porque los christianos no entrassen en Toledo, mandó hazer en la propia Güerta unos palacios que oy día llaman los palacios de Galiana»; R. Menéndez Pidal, **Historia y epopeya**, apud. **«Galiene la belle» y los palacios de Galiana en Toledo**, p. 276.

(39) **Noticias sobre Don Raimundo, Arzobispo de Toledo** (1125-1152), por González Palencia, p. 111.

(40) González Palencia, **Los Mozárabes de Toledo**, I, documentos números 162, a 1182; 243, a 1193; 257, a 1194; 262, a 1196; 368 y 369, a 1209, pp. 119-120, 187-188, 200-201, 205, 307-310; **Documentos lingüísticos de España**, I, Reino de Castilla, por Ramón Menéndez Pidal, pp. 370-372.

(41) González Palencia, **Los Mozárabes de Toledo**, vol. preliminar, pp. 79 y 82; I, 33, a 1146; 114, a 1174; 288, a 1198; 593, a 1199; 322, a 1202, pp. 23-24, 82, 226-227, 233-235, 262-263; III, 967, a 1124; 969, a 1143; 973, a 1160, pp. 303, 305-306 y 309-310. En estos documentos mozárabes toledanos se emplea la palabra **al-ŷanīna** —pl., **al-ŷinān**— para designar una huerta o jardín; **ard al-qasīl** y **ard maqṣala**, que también aparecen con frecuencia en ellos, serán —según Ocaña Jiménez— tierras de alcacer, es decir, de cebada verde cortada así para alimento de las caballerías. Al dorso de algunos de los documentos citados figura la palabra «Ajuneyna» y «Ajunayna», diminutivos de huerta, que sin duda había pasado a designar una o un grupo de ellas.

(42) **El peregrino curioso y grandezas de España**, por Bartholomé de Villalba y España; la licencia de impresión es de 1577.

(43) **Descripción de la imperial ciudad de Toledo**, por el doctor Francisco de Pisa, f.º 25.

(44) Lucio Marineo Sículo, **De las cosas memorables de España**, lib. II, f.º 12 **v.**

(45) Conde de Cedillo, **Toledo en el siglo XVI, después del vencimiento de las Comunidades**, pp. 220-224.

(46) Pisa, **Descripción de la imperial ciudad de Toledo**, f.º 9 **v** y 25.

(47) Don Antonio Ponz, el más ardoroso propagandista de la repoblación arbórea que ha habido en nuestro país, elogia cumplidamente estas plantaciones en su **Viaje de España**, t. X, pp. III-IV.

(48) **Poema de Mio Cid**, edic. y notas de Ramón Menéndez Pidal, versos 1.610-1.616, p. 232.

(49) **Primera Crónica General**, I, texto cap. 925 y cap. 930, p. 605.

(50) Ibn Sa'īd en **Analectes**, I. p. 110; **Subh al-a'šà**, V, p. 231; **Qalā'id**, 69 en **Anal.**, I, pp. 436-437, según citas de Pérès, **La poésie andalouse**, pág. 153-154; **Poesía y arte de los árabes en España y Sicilia**, por A. F. de Schack, III, tercera edición, pp. 71-73 y 100; Ibn Jāqān, citado por Dozy, **Loci de Abbad**, I, 1846, p. 31, núm. 99; Menéndez Pidal, **La España del Cid**, **II**, p. 484.

(51) **Primera Crónica General**, cap. 891. p. 560; cap. 903, p. 570; cap. 908, pp. 573-575.

(52) **Ibidem**, cap. 909, p. 756; Ramón Menéndez Pidal, **La España del Cid**, II, pp. 493-494.

(53) Idrīsī, **Description de l'Espagne**, p. 191 del texto árabe y 233 de la trad. francesa.

(54) **Anal.**, I, p. III; II, p. 421, según cita de Pérès, **La poésie andalouse**, p. 153-154.

(55) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, pp. 49 y 52-53 del texto árabe y 62 y 66 de la trad. francesa.

(56) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, pp. 52-55 del texto árabe y 66-68 de la trad. francesa; **Manzil 'Atā** será la actual Mislata, a tres kilómetros al sudoeste de Valencia, y **Manzil Naṣr**, Masanasa, a siete al sur.

(57) Jerónimo Münzer, **Viaje por España y Portugal**, p. 63.

(58) Pérès, **La poésie andalouse**, pp. 140 y 188.

(59) Dozy, **Loci de Abbadides**, II, pp. 151-152 y 225-226, y III, pp. 240-242; Maqqarī, **Analectes**, II, p. 568.

(60) Maqqarī, **Analectes,** I, pp. 128 y 228.

(61) Crónica del contemporáneo Ibn Ṣāḥib al-Salā; véase T. B., **Notas sobre Sevilla en la época musulmana,** pp. 189-196.

(62) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** p. 21 del texto árabe y 27 de la trad. francesa.

(63) Al-Šaqundī, **Elogio,** p. 95.

(64) **Primera Crónica General,** I, texto, cap. 1.093, p. 755, y cap. 1.102, p. 758.

(65) **Historia de Sevilla,** por Alfonso de Morgado, p. 331. En nota anterior se han citado testimonios de la frondosidad de los alrededores de Sevilla en los siglos XVI y XVII.

(66) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** p. 45 del texto árabe y 57 de la trad francesa.

(67) Simonet, **Desc. del reino de Granada,** p. 62.

(68) Mosén Diego de Valera, **Crónica de los Reyes Católicos,** 281; Fernando del Pulgar, **Crónica de los Reyes Católicos,** vol. seg., capítulo CCXXXV p. 372; **Guerra de Granada,** escrita en latín por Alonso de Palencia, p. 400.

(69) Pérès, **La poésie andalouse,** pp. 158-159.

(70) Max Meyerhof, **Esquisse d'histoire de la pharmacologie et botanique chez les musulmans d'Espagne,** p. 29.

(71) **Ajbār maŷmū'a,** p. 192.

(72) Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** pp. 200 y 204 del texto árabe y 244 y 250 de la trad. francesa. Lo mismo en el **Rawḍ al-Mi'ṭār,** p. 213.

(73) Al-Šaqundī, **Elogio del Islam español,** p. 110.

(74) García Gómez, **El «Parangón» entre Málaga y Salé de Ibn al-Jaṭīb,** pp. 188-192.

(75) **Guerra de Granada,** escrita en latín por Alonso de Palencia, p. 400; **Crónica de los Reyes Católicos,** por Pulgar, vol. II, pp. 111-112 y 284; Mosén Diego de Valera, **Crónica de los Reyes Católicos,** p. 239.

(76) Münzer, **Viaje por España y Portugal,** p. 114.

(77) **Qalā'id,** pp. 174-175, reprod. en **Analectes,** I, p. 448, según cita Pérès, **La poésie andalouse,** p. 147.

(78) Ibn Faḍl Allāh al-'Umarī, **Masālik,** pp. 226 y 288.

(79) Ibn Baṭṭūṭa, **Voyages,** IV, pp. 368-369 y 371.

(80) **Iḥāṭa,** I, pp. 24-25; **Analectes,** I, p. 84; Francisco Javier Simonet, **Desc. del reino de Granada,** pp. 47 y 53.

(81) **Ibn al-Jaṭīb,** según la versión de Lafuente Alcántara, **Historia de Granada,** III, pp. 115 116.

(82) G. Lévi Della Vida, **Il regno di Granata nel 1465-66 nei ricordi di un viaggiatore egiziano,** p. 322.

(83) **Crónica de don Alvaro de Luna,** edic. y est. por Juan de Mata Carriazo, pp. 124-125 y 131; **Crónica de los Reyes Católicos,** por Pulgar, II, p. 237.

(84) Münzer, **Viaje por España y Portugal,** LXXXIV, p. 93.

(85) **Opus epistolar. Petri Martyris** (Amsterdam, 1670), p. 54, primera edición en Alcalá, en 1530; trad. de Valera en Schack, **Poesía de los árabes en España,** III, pp. 170-172.

(86) Fabié, **Viajes por España,** pp. 925-926.

(87) Pulgar, **Crónica de los Reyes Católicos,** II, p. 125.

(88) Hoy se llama el lugar de estas huertas el Realejo, sin duda por haber sido propiedad real. Mármol dice que estaban en la loma y campo de Abulnest, «donde llaman agora campo del Príncipe», y que en ellos pasaban los reyes los veranos.

(89) Constan los linderos de estas huertas en la cédula que en 5 de abril de 1492 dieron los Reyes Católicos a fray Tomás de Torquemada cediéndolas —pasaron a poder real por compra— para la fundación de un monasterio de la orden de Predicadores

—Santa Cruz la Real, Santo Domingo— (**Los alquezares de Santa Fe,** por Miguel Garrido Atienza, pp. 60-61); **Colec. de doc. inéditos para la Hist. de España,** XI, pp. 543-544. La cesión de la Almanjarra mayor —que así se transcribió su nombre árabe— fue con la casa que en ella había, es decir, con el Cuarto real. La Almanjarra menor fue del alcaide Monfarrax.

(90) Manuel Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 215.

(91) Al-Šaqundī, **Elogio,** pp. 108-109.

(92) Ibn al-Jaṭīb, **Iḥāṭa,** edic. del Cairo, I, pp. 24-26; al-Maqqarī, **Analectes,** I, pp. 84, 310 y 649; II, pp. 147, 345, 348 y 543, según citas de E. Lévi-Provençal, **Les «Mémoires» de 'Abd Allāh,** p. 257; Emilio García Gómez, **El libro de las banderas,** pp. 212-213, y Louis Di Giacomo, **Une poétesse grenadine,** pp. 48-49. Había Sabika alta y baja (Carta de Abulcacín el Muleh a Fernando de Zafra, en **Las capitulaciones... de Granada,** por Miguel Garrido Atienza, p. 249).

(93) Ibn Baṭṭūṭa —**Voyages,** IV, p. 373— dice que el arrabal del Naŷd estaba situado fuera de Granada e inmediato a la montaña de la Sabīka; según al-'Umarī —**Masālik,** pp. 228 y 233— su emplazamiento era cercano al Genil. La palabra árabe **naŷd** significa meseta, lugar alto. Por antonomasia designa la región de estepas elevadas del centro de la Península arábiga, en contraste con las del litoral (Nedjd o Nedjed en las cartas geográficas) (Di Giacomo, **Une poétesse grenadine,** p. 48, núm. (109) y p. 49, núms. (113) y (114). Lévi-Provençal cree que este arrabal del Naŷd se extendía a oriente de la colina de la Alhambra, enfrente del barrio del Albaicín, del que tan sólo le separaba el cauce del Darro, pues Ibn al-Jaṭīb, en la **Iḥāṭa,** I, p. 1939, se refiere a un individuo, muerto en 1307/707, y enterrado en el cementerio de los extranjeros **ma-qbarat al-gurabā'** —situado en el arrabal que hay junto al río— y enfrente de Naŷd» (E. Lévi-Provençal, **Le voyage d'Ibn Baṭṭūṭa dans el royaume de Grenade** (1350), ap. **Mélanges William Marçais,** p. 221.

(94) **Crónica del halconero de Juan II,** edic. Carriazo, capítulo XCIII, pp. 104-107; **Hechos del condestable don Miguel Lucas de Iranzo,** edic. y est. por Juan de Mata Carriazo, p. 93.

(95) **Col. de documentos inéditos para la Historia de España,** VIII (Madrid, 1846), pp. 460-461; XI, pp. 543-544; Garrido Atienza, **Los Alquezares de Santa Fe,** pp. 10, 56 y 58.

(96) Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 362.

(97) **Viajes por España,** por Fabié, pp. 295-296.

(98) Ibn Baṭṭūṭa, **Voyages,** IV, pp. 368-369; **Iḥāṭa,** I, pp. 24-25; Luis Mármol Carvajal, **Historia de la rebelión del Moriscos,** I, cap. X, p. 35. El Gran Capitán cedió en 1513 dos huertas llamadas del Alcudia de Ainadamar y los Abencerrajes para la fundación de la Cartuja (Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 344).

(99) Münzer, **Viaje por España y Portugal,** p. 90.

(100) Al-'Umarī, **Masālik,** p. 226.

(101) **Viajes por España,** por Fabié, pp. 290-291. He modificado ligeramente la traducción de éste y de algunos otros de los párrafos transcritos.

(102) Torres Balbás, **Dār al-'Arūsa y las ruinas de palacios y albercas granadinas situados por encima del Generalife,** pp. 185-203.

(103) Aún lo era no hace más de veinticinco años; hoy el agua llega a sus últimos rincones y están las viejas albercas, aparecidas bajo montones de escombros, en las que se reflejaron antaño los arcos festoneados de los patios de casas y palacios.

(104) Fabié, **Viajes por España,** pp. 286-287.

(105) «Iten que todos los naturales y labradores de las alquerías desta cibdad que en las alquerías tienen casas, se baya a beuir a ellas y las casas que en la cibdad tovieren las vendan a cristianos» (**Las capitulaciones de Granada,** por Garrido Atienza, p. 142). Esas palabras de un documento del Archivo de la Casa de Zafra sobre el apartamiento y separación de moros y cristianos, redactado poco después de la conquista de Granada, comprueban que sus vecinos tenían fincas en sus contornos, a las que antes se dijo iban a pasar temporadas.

(106) **Historia del rebelión de los Moriscos,** por Mármol Carvajal, I, cap. V, p. 17; cap. VII, pp. 27-29; cap. IX, p. 31; cap. X, pp. 35-36. La primera impresión, en Málaga 1600; el privilegio para ella es de 1599, pero obtuvo otro anterior en 1580.

(107) **Diálogos de las cosas notables de Granada,** por el licenciado Luys de la Cueua, p. Aiiii.

(108) Visión optimista de los alrededores de Granada poco antes de mediar el siglo XIX es la de Lafuente Alcántara, en **El Libro del viajero en Granada** (Granada, 1843), pp. 19, 21, 25, 26 y 28.

(109) Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** pp. 189 y 190 del texto árabe y 230 de la trad. francesa.

(110) Lévi-Provençal, **La Péninsule ibérique,** pp. 24, 78 y 195 del texto árabe, y 31, 98 y 236 de la trad. francesa.

(111) Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** p. 189 del texto árabe y 229 de la trad. francesa.

(112) **Ṣubḥ al-a'šà,** V. pp. 223-224; **Qalā'id,** p. 151. **Analectes,** I, p. 144 y 421, citados por Pérès, **La poésie andalouse,** pp. 149-150.

(113) Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** pp. 180 y 186 del texto árabe, y 217 y 226 de la trad. francesa.

(114) Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** pp. 176, 205 y 207 del texto árabe, y 212, 253, 254 y 256 de la trad. francesa.

(115) Pulgar, **Crónica de los Reyes Católicos,** II, p. 217.

(116) Jaime I, **Libre dels feyts,** ed. Aguiló, p. 348.

(117) Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** pp. 191, 192 y 193 del texto árabe, y 232, 233, 234-235 de la trad. francesa.

(118) **Takmilat al-Sila,** de Ibn al-Abbār, t. V, p. 314, núm. 939.

(119) Al-Šaqundī, **Elogio,** p. 115.

(120) Lévi-Provençal, **La Péninsule ibérique,** p. 172 del texto árabe y 207 de la trad. francesa.

(121) Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** p. 200 del texto árabe, y 245 de la trad. francesa.

(122) **Analectes,** II, p. 360, según Pérès, **La poésie andalouse,** p. 144.

(123) **Analectes,** II, p. 360, según Pérès, **La poésie andalouse,** p. 144.

(124) Pérès, **La poésie andalouse,** p. 145.

(125) Gayangos, **Memoria,** VIII, p. 39.

(126) Pérès, **La poésie andalouse,** p. 440.

## الفصل الرابع

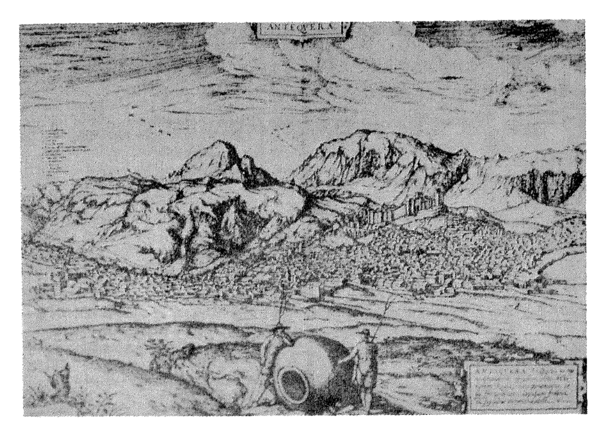
## المدينة والأرباض والأحياء

كانت أهم المدن الأسبانية المسلمة تتكون أساسًا من نواة مركزية محاطة بأسوار عرفت باسم «المدينة» وكان يقع فيها المسجد الجامع والقيصرية والسوق الرئيسة التي كان يتفرع منها شوارع ضيقة وأسواق ومجموعة «أرباض» مستقلة نسبيًا وغير متصلة بها اتصالاً كاملاً. وكانت تلك الأرباض تحتاج في معظم الأحيان إلى سور لحمايتها مستقل عن السور الذي كان يحيط بالمدينة نفسها.

وقد نشأت المدينة وأرباضها من تلاحم الأحياء أو الحارات المتباينة الأبعاد والمساحة، وقد تكون أحيانًا ضيقة جدًا إلى حدٍّ أنها كانت أقل عرضًا من أحد الشوارع، ومزودة على أطرافها بأبواب تغلق ليلاً.

وكلمة "رَبَض"، التي اشتقت منها الكلمة الأسبانية «أرّابال» ARRABAL، ترد في معظم المعاجم العربية بمعنى الكلمة الأسبانية نفسها، ومعناها الضاحية الواقعة خارج مركز المدينة السكني[١]. وفي الأندلس كانت الأرباض لها المعنى نفسه دون ريب، ويلاحظ أنهم اعتادوا إطلاق هذه التسمية على الضواحي الواقعة داخل النواة المركزية المسورة. وقد ترجم الكاتب بيدرو دي ألكالا الأسماء الإسبانية الثلاثة: "الربَّال ARRABAL وباريّو BARRIO وكولاثيون المدينة COLLACION DE CIUDAD بنفس الكلمة العربية "ربض"[٢]. وفيما يتعلق بمدينة قرطبة فإن بعض النصوص الإسلامية تذكر أحيانًا "ربض الرقَّاقين"، وأحيانًا أخرى "حارة الرقاقين"، وكان هذا الربض عبارة عن مجموعة سكنية غرب المدينة بالقرب من باب العطارين[٣].

وطبقاً لما في كتاب "توزيع ميورقة" كان في هذه المدينة "ربض" متوسط أو مركزي عرف "بالربض الأوسط"(٤) عندما قام النصارى بالاستيلاء على المدينة سنة ١٢٢٩م، وكذلك الحال بالنسبة إلى مدينة سبتة في بوادر القرن الخامس عشر الميلادي(٥).




أنتقيرة في النصف الثاني من القرن السادس عشر حسب صورة من

(Civisate Orbis Terratum)

وتذكر وثائق المستعربين في مدينة طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين أسماء أرباض واقعة أيضًا بمركز المدينة، منها: ربض فرانكوس ويعود أقدم ذكر له إلى سنة ١١٣٤م، وكان يقع بين المسجد الجامع، الذي حوّل إلى كاتدرائية فيما بعد، وسوق الدواب ZOCODOVER ، وكذلك ربض

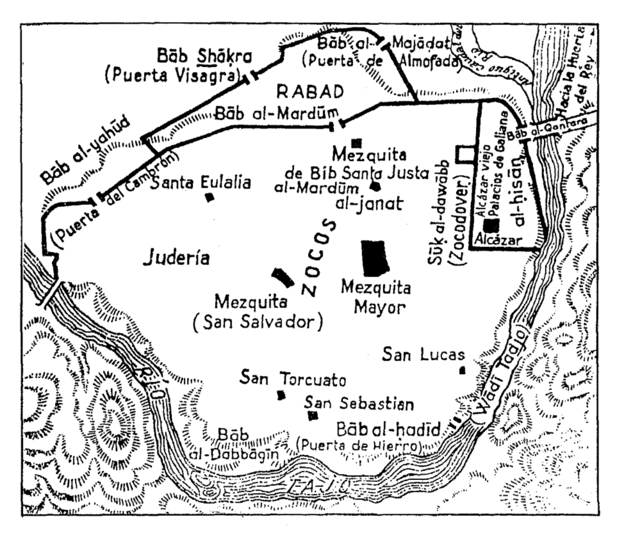
الحلاقين؛ وربض المَلِك، الواقع في حي سانتا ماريا مَجْدَالينا جنوب سوق الدواب بينه وبين الكاتدرائية(٦). وتبّين المذكرات المؤرخة بعد الاستيلاء على غرناطة مباشرة ذكر ربض «أبي العاصي» ويقع بين المسجد الجامع وشارع إلبيرة بمركز المدينة، ويعود هذا الاسم إلى "أبي العاصي" الذي قام ببناء مسجدٍ وحمام في ذلك المكان كما يذكر ابن الخطيب(٧).

كذلك تشير وثائق المستعربين المذكورة إلى أسماء أرباض لمدينة طليطلة داخل أحياء المدينة منها: ربض "أرانوك" أو ربض الخندق، وكان هذا الربض بالقرب من حارة اليهود وداخل حارة سان مارتين(٨). إذن تشير كلمة ربض في إسبانيا المسلمة في كثير من الأحيان إلى جزء واقع داخل المدينة، وهذه الكلمة وكذا كلمتا "حارة" و "شارع" كانت كلها تستعمل، دون تمييز دقيق، للإشارة إلى مجموعات سكنية في المدينة متنوعة في الموقع والمساحة.

كانت الأرباض والحارات ذات المساحة الكبيرة تشكل مدينة صغيرة شبيهة بالمدينة الكبيرة، وكانت منظومة حول مسجد صغير ولها أسواق ومتاجر وفنادق وأسواق غلال وحمامات وأفران.

وكان أهالي الأرباض والحارات يعيشون حياة مغلقة مستقلة داخل أسوارهم. وكان يحدث أحيانًا أن بعض الأرباض المجاورة تقع تحت سيطرة الأعداء؛ وفي هذه الحالة يظل الأهالي محصورين فيها مع استمرار النضال بينهم مدة طويلة. ويذكر ابن الخطيب أن مدينة سرقسطة أيدت المرابطين سنة ٥٠٣هـ/ ١١١٠م، لأن أهل المدينة كانوا مستائين من المعاهدة المبرمة بين عبدالملك وبين حاكم قشتالة، حيث قام سكان سرقسطة باستدعاء قائد مدينة بلنسية محمد بن الحاج وفتحوا له أبواب المدينة، وبدأت المعركة ضد عبدالملك الذي كان مالكاً لباقي

أنحـاء المدينة[٩]. وفي سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م عندمـا تمرد أهالـي قرطبـة ضـد الخليفة المأمون القاسم، عندما كان صدفة خارج البلدة، اعتصموا داخل المدينة، واستمر الحصار أكثر من خمسين يومًا[١٠].




مخطط لمدينة طليطلة في القرن الحادي عشر.

ويقدم لنا تاريخ مـدينة غرناطة نموذجًا جيـدًا عن التقسيم الذي خـضعت له المدن الأسبانية المسلمة. فبعد أسـر أبي عبد الله في معركة "لوثينا" قام الملكان

الكاثوليكيان بإطلاق سراحه سنة ١٤٨٦م، فدخل ربض البيازين في غرناطة ثم أغلق الأبوب المتصلة ببقية النواة السكنية، ووضع عند كل باب أحجارًا وترابًا وكمية كبيرة من الحطب، وقام بحماية "مداخل الشوارع والأبواب الجانبية"، واستمر داخل الربض حوالي سنة مكافحًا ضد عمه الزجال، صاحب الجزء الباقي من مدينة غرناطة وقصر الحمراء(١١).

وفي وقت لاحق، تحت السيطرة النصرانية سنة ١٤٩٩م، تمرد مسلمو البيازين وأسرعوا إلى "الأسلحة باسم محمد رسول الله مبتهلين ومعبرين عن حقوقهم وحريتهم وعن مخالفة وثائق السلام، ثم سيطروا على الشوارع والأبواب ومداخل البيازين وتحصنوا ضد النصارى داخل المدينة وبدؤوا المعركة ضدهم"(١٢).

وقد تجمّع الأهالي في الضواحي والأرباض حسب اعتقاداتهم الدينية - أرباض المستعربين وأرباض اليهود؛ وحسب الأصل، ربض الغُمَار GU-MARA وربض زناتة ZANATA بمدينة غرناطة، وربض صنهاجة CINEJA بمدينة سرقسطة؛ وكذلك حسب أمراضهم المزمنة المشتركة: ربض باب البُرْص أو باب المرضى بغرناطة أيضًا. وكان يتكرر تجمعهم حسب ميولهم وأنشطتهم التجارية والصناعية والإدارية: مثال لذلك: ربض الطرّازين TEJEDORES، وربض موظفي حاشية الملك أو الزجاجلة بقرطبة؛ وربض الحلاقين بطليطلة؛ وربض تجار التين أو التيّانين HIGOS بمَالَقة؛ وربض أو حارة الدباغين بسرقسطة؛ وربض البيّازين بغرناطة، والحامة ALHAMA، وقيطاجة QUESADA، وبيانة BAENA، وربض الفخّارين في قرطبة وأشبيلية وغرناطة. وكان بعض الأرباض يستمد اسمه من اتجاه موقعه، ومثال ذلك الربض الجنوبي والربض الشرقي

بمدنيـة قـرطبـة، والربـض الغربـي بمدينة وشْــقَة HUESCA· وهناك ربض من أرباض ميورقة سُمي "بالربض الجديد". والبـعــض الآخـر قد استمد الاسـم من الموقع الطبـوغـرافي: ربض الكديـة ALCUDIA أو الربوة بمدينة بلنـسيــة، ومدينة طليطلة؛ وربض العَقَبـة وربض "فحص اللوز" بغرناطة. وكان الربض أحيـاناً ينسب إلى أحد أبواب السور الـقريب من الربض كربض باب الشـقراء بطليطلة[١٣] وأرباض باب الرملـة وباب المرضى بغـرناطـة. وهناك ربض من أرباض مدينة المرية استمد اسمـه من جب قريب، فعُرف بربض الحوض. وفي عدة مدن ـ المـرية وغرناطة وبلنسية ـ وجـدت أرباض أو أحياء معـروفة بربض المصلَّى أو بربض الشَّريعة، وترجع هذه التسميـة إلى موقعه بالقرب من الساحة الواقعة خارج المدينة التي كان بها سابقًا المصلى المقام في الهواء الطلق، ولذلك ســمي هذا الربض بهذين الاسـمين معًـا[١٤]. أمـا التسـمـية التي تعـود إلى الأشخاص فـقد كان بغرناطة ربض باديس وربضُ أبي الـعاصي، وعدة أرباض أخرى مذكورة في وثائق لاحقة لسنة ١٤٩٢م.

**المدينـة** LA MEDINA.

يشير مصطلح «المدينة» إلى المنطقة السكنية المحصنة الملحقة بالمسجد الجامع، وكان على رأســها صاحب السلطة: الملك أو الأمـير أو السيـد أو الحاكم[١٥]. وقد احتـفظت بتلك التسمـية الرومانية بعض المدن الصـغيرة الإسبـانية وبعض الأماكن منها: شـارع من شوارع مدينة "المرية" سمي بالشـارع الملكي للمدينة REAL DE ALMEDINA، ويوجـد داخل ســور طريف TARIFA باب يعـرف "بباب المدينة"، كما كانت المدينة تسمى باسم العقبة التي كانت تؤدي إلى باب المدينة[١٦]. كمـا احتفظت بذلك الاسم الضاحـية المسورة الواقـعة على أعلى

نقطة بمدينة «بيَّانة» ـ علمًا بأنه هذه الضاحيـة كانت محاطة بربض آخر ـ وضاحية أخرى في "توركس" TORROX [١٧] وباب وضاحية بمدينة كويمبرا.

وعادة يُقرن اسمُ "المدينة" باسم آخر مثل: مدينة "سيدونيا" أو مدينة ابن سالم، ومدينة سالم. وقد دعيت سرقسطة أيضاً بالمدينة البيضاء، ويرجع ذلك إلى منازلها التي طليت باللون الأبيض[١٨].

وأثناء خلافة قرطبة انقسمت المدينة إلى قسمين رئيسين: الجانب الشرقي والجانب الغربي[١٩]. وكانت المدينة، التي تقام غالباً على أرض مستوية، عندما تسمح الظروف بذلك، وتشكل ما يسمى اليوم بالنواة الرئيسة التي ترتكز حولها جاذبية المدينة، هذا بالإضافة إلى دائرة الأسوار التي كانت تغطي الوحدة المتكاملة للمجموعة السكنية. وكان يوجد في المدينة المسجد الجامع؛ والقيصرية التي كانت عبارة عن سوق مغلق مخصص للاحتفاظ بأنفَس البضائع؛ هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الفنادق للإقامة وفي نفس الوقت مخازن للبضائع المستوردة التي تباع في هذا المكان، كما توجد عدة حمامات والأسواق الدائمة والمتاجر المهمة. ومن ثَمَّ كانت المدينة مركزًا للحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية للمجموعة السكنية الواحدة. ولهذا لا ينبغي لنا أن نبحث عن سوابق لهذا النظام في المدن الرومانية بساحتها المميزة، ولا أن نبحث عنها في أقدم النظم. ذلك لأن الظروف المتشابهة في كل زمان ومكان أدت بصورة تلقائية وطبيعية إلى إقامة متاجر الرُّحَّل من البدو والمساكن المستديمة حول أهم المواقع التي تسير فيها الحياة الرسمية والاجتماعية دون تباين في مستوياتها.

وكان المسجد الجامع المركز الوحيد للتعليم الديني عند بداية تاريخ الإسلام في أسبانيا، كما أنه المكان المخصص لأداء الصلوات المفروضة ـ وخاصة صلاة

الجمعـة التي يجب أن يؤديها المسلمون به ـ ولأداء بعض الاحتـفالات الأخرى كحفلات مـباركة الرايات قبل الخروج في الحمـلات العسكرية؛ وقراءة الوثائق الرسمية وأهم التقارير والأخبار المفيدة للأمة؛ كما يتم في الجامع تعيين الحكام، وإلغاء الضرائب. إن وظيفة المسجـد الجامع، بصحنه وأروقته المحيطة به، يمكن مقارنتـها إلى حد ما فـقط بدور الساحة الرومانـية والساحة العامـة في القرون الوسطى.

وكان موقع الجامع في مدن الأندلس يقع في مركز المدينة تقريبًا، ومثال ذلك مـدينة بلنسيـة وأشـبيليـة وتُطِيلة، وكـانت الأولى والثـانية على أرض سـهلة التضـاريس وكذلك الحال بالـنسبة إلى طليطلة. على الـرغم من إقامتـها على صخور وعـرة. أما في مدينة قرطبـة، الواقعة على أرض قليلة التـعاريج، فإن الجامع كان يحتل موقعًا قـريبًا من سور المدينة لا في مركزها، وقد يرجع ذلك إلى بنائه أصلاً على أرض كنيسة قوطية كانت تقع في ذلك المكان كما يتأكد في التقاليد القديمة.

وكان القـصر ALCAZAR في قرطـبة وبلنسـية وأشبـيلية يقع بالـقرب من الجامع[٢٠]. فكانت هكذا مراكز الحياة الدينية والاجتمـاعية والسياسية قريبة من بعضها.

ويفسر هذا التـقارب الظاهر بين المراكز الأخيرة في المدن السـابق ذكرها أنها بُنيت على أرض مستوية؛ في حين أن المدينة التي كانت تقام على أرض وعرة ـ وهي أكثر وقوعًا ـ كان القصر يقام فيها على أعلى نقطة في المدينة، كما أشرنا في الصفـحات السابقة وكان يـستمد حمـايته من أسوار المدينة أو القصـبة التي تسهل الدفاع عن أرض المدينة.

وباعتبار جاذبية المسجد الجامع لدى أغلب المواطنين، انتظمت الحياة التجارية حوله بصورة بارزة في الشوارع المجاورة المحفوفة بالدكاكين الصغيرة في القيصرية والفنادق ومخازن الغلال والأسواق. وكذلك انتظمت حول ذلك الجامع الرئيس الأماكن المؤقتة للتجار المتواضعين بمظلاتهم وبمناضدهم المتنقلة، كما كثر حوله الباعة المتجولون وهم يصيحون ببضائعهم.

وتعدّ مدينة أشبيلية من أوضح الأمثلة على الحياة التجارية النشِطة التي انتظمت وتطورت دائمًا حول المسجد الجامع. وحتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي كان مسجد "عَدَبَّس" ADABBAS بمركز المدينة، الذي أقيم في مكانه اليوم كنيسة "سان سالبادور"، تحيط به الأسواق والمتاجر الرئيسة. ولكن هذا الجامع أصبح في أواخر القرن الثاني عشر لايتسع لسكان المدينة المزدحمة، ولايستوعب المصلين أيام الجمعة فكانوا يتلاصقون بجواره، حيث ينتشر العديد من الباعة المتجولين حول الجامع ومعهم مناضدهم المنتصبة يعرضون عليها بضائعهم في الهواء الطلق.

ولحلّ مشكلة ضيق الجامع قام الأمير الموحدي أبو يعقوب يوسف ببناء جامع آخر أكبر منه لاستيعاب سكان مدينة إشبيلية؛ وكان موقعه بالقرب من القصر على أحد طرفي المدينة حيث أقيمت الكنيسة الكاتدرائية اليوم.

وقام الأمير بنزع ملكية العقارات من أصحابها وهدم مساكن الأهالي المجاورة للجامع الجديد لبناء أسواق ومتاجر متينة ذات منظر جميل. ومن المتاجر التي بنيت هناك "متاجر العطّارين" التي كانت تعرض أجود منتجات القرون الوسطى وأثمنها؛ ومتاجر لبيع الأقمشة، وأخرى للخيّاطين. وبعد نقل المحلات الواقعة حول الجامع القديم إلى جوار الجامع الجديد تركزت الحياة

الاقتصادية للمدينة حول هذه المتاجر[٢١]. ونظراً لعدم وجود مراجع عن مدينة طليطلة الإسلامية، فإن المستندات التاريخيـة للمستعربين في القرنين الثاني عشر والثالث عشـر ـ التي تكرر ذكرها في هذه الصفحـات ـ تمدنا بمعلومات عديدة عن تنظيم المدينة وتخطيطهـا. ويلاحظ أنه لم تطرأ على المدينة تعـديلات تُذكر خلال القرنـين التاليين للاستيـلاء عليها لأن عددًا كبـيرًا من المسلمين أقام فـيها تحت سيادة النصارى. فكان ربض فرانكوس FRANCOS، الذي يذكر في أغلب وثائق المسـتعـربين، مركـزًا تجاريًا ضـمن أبرز المراكـز التجـارية، وهو يقع في الضاحيـة المجاورة للكاتدرائية (الجامع القديم الذي تحول إلى كنيـسة). وكان به متاجر الفخّاريين والعطارين والجزارين واللمّاعين والصرّافين والبواريين والدباغين والسراجين، وكـانت معظم المتاجر في سـوق منفصل. كما كـان بالقرب من المصلَّى الإسلامي القديم في القرن الثاني عـشر وفي أوائل الثالث عشر الميلادي متاجر العطارين التي بني مكانها الدير المحرم في القرن الرابع عشر[٢٢]. وكان يحتل نفس المكان السوق المشهور المعـروف بسوق الخانة (الكانا) المزدحم بمتاجر النصارى والمسلمين.

ومن المعلوم أن القـيصـرية كـانت قريبـة من المسـجد الجـامع في قرطبـة، وطليطلة، وإشـبـيلية، ومَـالَقَـة، وغرنـاطة. وقد كـتب "هرناندو دي بايثـا" H.DE.BAEZA ـ المترجم لأبي عـبد الله آخر أمـــراء غـرناطة، عن هذه المدينة الأخيرة قائلاً: "يقع شارع السقاطين ZACATIN ومَرافقه والقيصريةُ بالقرب من الجـامع. . . لأن هذا المكـان كـان في الماضي ومـازال جـزءًا أسـاسـيًا من المدينة"[٢٣]. وقد احتفظت المدينة بهـذه القيصرية حتى بعد احتـراقها وتجديدها عام ١٨٤٣م، حـيث مازال اسـمهـا العربي «قـيصـرية السقّـاطين» ZACATIN

معروفًا حتى اليوم، وهذا من أوضح الدلائل التي تشير إلى وجود متاجر الملابس القديمة في ذلك الشارع منذ خمسمائة سنة. وقد كانت قيصرية مدينة طليطلة في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي في ربض الملك الواقع في حي "سانتا ماريا مجدالينا" جنوب "سوق الدواب" وبالقرب من الكاتدرائية(٢٤)، واستمرت في هذا المكان حتى القرن السادس عشر الميلادي(٢٥).

وكان باب القيصرية في إشبيلية يواجه الباب الرئيس للجامع الكبير حتى بعد خمس سنوات من الاستيلاء عليها سنة ١٢٥٣م؛ وليس من المرجح أن القيصرية انتقلت إلى موقع آخر في تلك المدة القصيرة(٢٦).

وهناك أخبار تثبت وجود حمامات قريبة من المصلى الرئيس في كل من قرطبة، وطليطلة، وإشبيلية، وغرناطة. أما حمام قرطبة الواقع في شارع "كوميدياس" COMEDIAS فلاتزال بعض أطلاله الهامة باقية حتى اليوم. وكان هناك حمام آخر بالقرب من الكاتدرائية في طليطلة يعرف بحمام كاباليل CABALLEL سنة ١١٦٣م(٢٧).

ويذكر هرناندو دي بايثا أن أحد الحمامات في مدينة غرناطة في السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادي اقتلع بغرض بناء أساس الكنيسة الرئيسة الواقعة بالقرب من الجامع الذي هدم أيضًا فيما بعد لبناء قدس الأقداس. ومن المحتمل أن ذلك الحمام هو الذي ذكره "جوميث مورينو"، وقد دُمِّر قبل عام ١٥٠٥م بفترة قليلة، ودمر أيضًا سبعة عشر متجرًا لبناء مقبرة الكنيسة(٢٨). وكان مدخل هذا الحمام في أحد الشوارع التي كانت تقطع أرض الكنيسة الحالية، فقد كان يمتد من الميدان الصغير المحصور بين منزل "الكابيلدو CABILDO" القديم - المدرسة الإسلامية - وكنيسة الساجراريو والكنيسة الملكية

إلى فندق "الجنوبييز" الذي تحول بعد ذلك إلى سجن لسنوات عديدة، واستمر على هذه الحالة حتى هُدم حديثًا. ويقول "ريانيو" RIANO نقلاً عن ابن الخطيب إنه بدئ في بناء ذلك الحمام سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م، وقام بهذا المشروع شخص يسمى "المَعافِري"؛ وذكر اسمه في مرجع مؤرخ سنة ١٥٠٦م تحت اسم حمام "أبي العز". ويلاحظ أنه لم يكن الحمام الوحيد الواقع بالقرب من الجامع؛ فقد كان هناك حمام آخر بين الجامع والسويقة يعرف بحمام القرّاقين (الحذائين) QARRAQIN[٢٩].

وكانت الفنادق تكثر بمركز المدينة. فهناك واحد منها في "الكُدْية" بمدينة طليطلة داخل ربض المسجد الجامع السابق، ويذكر أن الجزارين في سنة ١١٦٦م زاولوا مهنتهم في هذا الفندق. وكان هناك فندق آخر في أحد الشوارع القريبة من "الكدية" يعرف بشارع الفندق، كما يذكر اسم فندق ثالث هدم فيما بعد، وكان بجوار الفندق السابق[٣٠].

وكان بمدينة غرناطة الإسلامية أثناء الحصارات الأخيرة التي جرت في القرون الوسطى فندق قريب جدًا من المسجد الجامع يعرف بفندق "الجنوبيين" وقد حُوِل لاحقًا إلى سجن بأمر الملكين الكاثوليكيين. وهناك فندق آخر يعرف بفندق زائدة ZAIDA واقعًا في السويقة بالقرب من المدرسة[٣١]. والفندق الوحيد الذي بقي بمدينة غرناطة هو فندق "ساحة الفحم" CORRAL DEL CAR-BON ويقع على مسافة قريبة من المصلى الرئيس.

ويلاحظ أن التنظيم العمراني للمدن الواقعة على ساحل البحر يختلف عن تنظيم المدن الأخرى. فالميناء، بنشاطه التجاري، كان مركز الجذب الذي يقام بالقرب منه المسجد الجامع عادةً؛ في حين تمتد مساكن الأهالي على شكل شبه

دائري تقريبًا حوله عندما تتوافر الأراضي المناسبة للبناء. وفي مدينة ميورقة المسطحة بنيت "القصبة" والقصر ـ المُدَيْنَة (المدينة الصغيرة) ـ بأبراجها وأسوارها العالية على شاطئ البحر لحماية الميناء. أما في مدينتي "مَالَقة" و"المرية" فإن وجود التلال المجاورة للمرسى مكّن من بناء القصبات القوية المحصنة.

ويبدو أنه لم يوجد في وسط المدن الأسبانية المسلمة مساحات واسعة، جرداء أو مزروعة، لكن وجدت هذه المساحات في الأرباض والضواحي الخارجية البعيدة عنها، وقد اتسمت تلك الأرباض بأنها كانت زراعية أكثر منها مدنيّة، مثل ما كان موجودًا في عدة أحياء بمدن قرطبة وإشبيلية وبلنسية والأحياء الجنوبية في مدينة غرناطة.

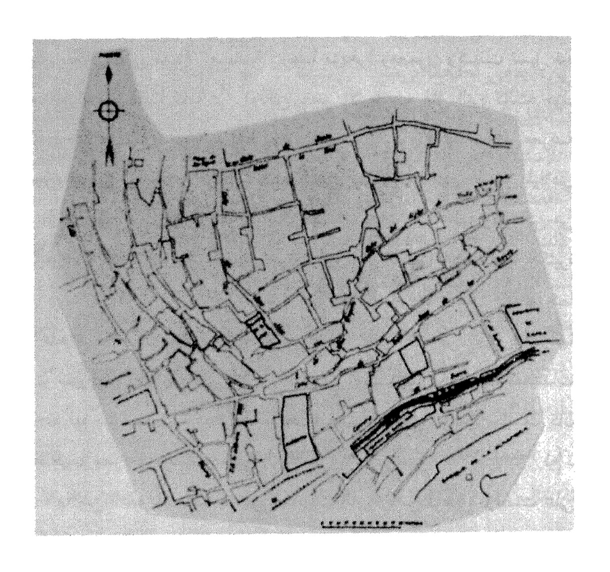
**الأرباض.**

قيل من قبل كيف استُخدم المصطلحان "ربَض" و "حارَة" بشكلٍ متكرر دون التمييز بينهما في أسبانيا الإسلامية، مما أدى إلى الاختلاط في التعبير عن هاتين المجموعتين السكنيتين[٣٢]. وقد استُخدم المصطلح الأول للتعبير عن مجموعة سكنية شبه مزدحمة نسبيًا، تتضمن العديد من الأحياء المختلفة في مساحتها التي تتألف أحياناً من شارع واحد فقط، وعلى أية حال، هناك أمثلة غير قليلة تخالف هذه الحالة. وفي الصفحات التالية لن أتعرض إلا للأرباض الواقعة خارج أسوار المدينة التي أنشئت في الغالب عند تضخم المدينة بعد إقامة الأسوار حولها.

وكذا كانت مثلاً حالة مدينتي قرطبة وغرناطة. ففي غرناطة أضيف إلى النواة السكنية الأصلية التي كانت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وأرباض البيازين والأرباض الجنوبية في القرنين التاليين. وهناك

استثناء لهذه الحالة، في مدينة "قونكة" CUENCA التي تخلو من الأرباض[٣٣]، بينما كان في بعض المدن الأخرى قليلة الأهمية أرباض. وكانت مساحة الأرباض أحيانًا تزيد عن مساحة المدينة، مثل ما كانت الحالة في الربض الواقع شرق مدينة "بطليوس" على الغوطة في القرن العاشر الميلادي الذي أدى دماره إلى الاضطرابات عند سقوط الخلافة[٣٤] وربض الشرقية AJAR-QUIA في قرطبة في القرن الثاني عشر. وفي بعض الأحيان كانت الأرباض تحيط بالمدينة على مسافات قريبة منها، مثل ماكانت الحالة عليه في مدينة "وشقة" HUESCA. ولكن الشائع كان وجودها على مخرج النواة السكنية، وعلى جانبي الطرق التي تربط المدينة بالمدن الأخرى المجاورة لها أو البعيدة عنها نسبيًا. ومن العناصر التي كانت تؤثر في تكوين الأرباض التضاريسُ الطبيعية للأرض واختلافُ مستوياتها. ففي مدينة طليطلة لم تتمكن المدينة من التوسع إلا في جهة الغوطة وذلك لأن مجرى نهر التاجه العميق كان يحد باقي المحيط المسور للمدينة، فانتشر الربض الوحيد للمدينة تجاه الغوطة[٣٥]. وامتدت أرباض غرناطة شمالاً وجنوباً وغرباً، ولم تمتد جهة الشرق بسبب تضاريسها الوعرة. وفي القرن الحادي عشر الميلادي أضيفت إلى مدينة المرية عدة أرباض شرقاً وغرباً، حيث كانت تحدها أودية رملية غير عميقة. وفي مدينة تطيلة توسع المركز العمراني، في وقتٍ ما، قبل القرن الثاني عشر الميلادي وامتد الربض في الأرض المحصورة بين سور المدينة والجدول المائي "قيلس" QUEILES الذي كان يجري في شرقها. وكانت بعض الأرباض بعيدة عن المدينة كما هو الحال في ربض "شقندة" أو الربض الجنوبي الذي يقع على بعد ميلين (حوالي ٢٩٦٢ مترًا) من مدينة قرطبة، وربض مقرانة "مقرينة" MACARENA على مسافة تقل عن كيلو مترين من مدينة إشبيلية[٣٦].

ويرجع السبب في إنشاء أرباض جديدة في كثير من الأحيان إلى بناء قصر أو "مُنية" خارج المدينة، فكانت المباني تشيَّد مكوِّنةً الأرباضَ الجديدة. وهكذا أنشئ في قرطبة الربض الغربي المعروف بربض "البلاط المجيد" بالقرب من القصر الذي أهداه موسى إلى مجيد وكذلك أرباض منية عبد الله ومنية المغيرة ومنية عَجَب على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير(٣٧). وكان ربض البيازين بغرناطة ربضًا فريدًا، ففيه مسجد جامع، وكما أشار العمري إدارة مستقلة ورجال مميزون عن التابعين للمسجد(٣٨).



مخطط لأحياء أكساريس وكوراتشا على الضفة اليمنى لنهر الدارو في غرناطة.

وكان بعض الأرباض يمتد حول أو بجـوار حصن من الحصون، ويكون هذا هو ملجـأ السكان في حالة الخطـر. وكان يسكن هذه الأرباض جنود مـؤهلون مسؤولـون عن حمايتهـا، بالإضافة إلى التجـار الذين يقومون بتمـوينها بالمواد اللازمة، وكـذلك مزارعوا الأراضي المجاورة لهـا. وفي الظروف العادية يزداد أحياناً عدد السكان فيها حتى تتحول إلى مدينة. ويذكر ابن عذاري عدة أرباض في الأندلس تكونت بهذه الصورة ويسمي كلا منها "بربض الحصـن"(٣٩).

**أربـاض غير مُسوَّرة.**

سبق القول بأن الأرباض كـانت مزوَّدة في الغالب بأسوار مستقلة عن سور المدينة. فكان ربض مدينة "مرسـية" ربضاً مزدهراً ومعمورًا وكـانت تسيل فيه المياه الجارية ومـحصناً تمامًا(٤٠). ولكن بعض الأرباض، مثل التي كانت حول مدينة قرطبة في القرن الـعاشر الميلادي، كانت غير مسورة، مما جـعلها معرضة للهجوم السـهل والسلب. وفي النصف الثاني من القرن الحادي عـشر الميلادي ذكر الأمير عبدالله أميـر غرناطة أن تناثر الأرباض يضر بدفاعاتها ولا يمكن من حماية فعالة لها(٤١). ونظرًا لعدم وجود السور إبان الصـراعات الأهلية الكثيرة التي جرت في أوائل ذلك القرن حُـفر، كما ذكر الـمَقَّري، خندق حـولها كما بُني عدد من الجدران العالية القوية بغرض حماية تلك الأرباض. ومما يؤكد أنها كانت غـير مسورة في الماضي أنه لايوجـد في الكتب التاريخيـة ولا المستندات اللاحقة لها بفترة قصـيرة ذكرٌ لأسوارها أو اسم باب من أبوابها. ولذلك كان انحطاطهـا سـريعًـا جـدًا، حـتى إن البـكري كـتب سنة (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م - ١٠٦٨م) عن التمـردات الممتدة التي مسـحت آثار أرباض قرطبة، وقضت على كل أثر للثـروة الزراعيـة في تلك المنطقـة التي تحولت كلهـا تقريبـاً إلى أرضٍ صحراوية بعدما تم تجنيد أهلها(٤٢).

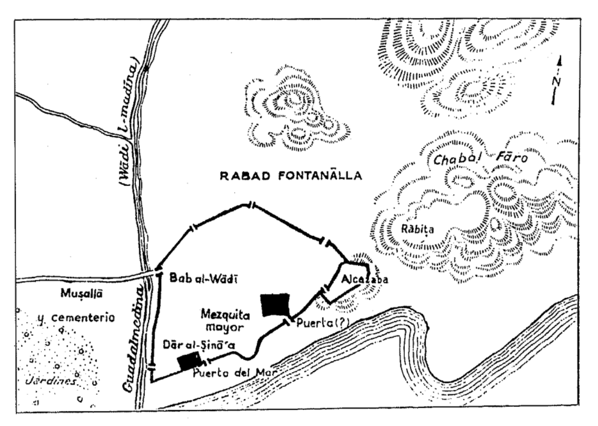
وكان ربض مدينة لسانة LUCENA ، الذي كان فيه المسجد الجامع على غير العادة، في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، غير مسور؛ ولكن المدينة نفسها، التي كان يقطن فيها اليهود كانت مزودة بتحصينات قوية(٤٣). أما مدينة "بسطة" فعلى الرغم من أنها كانت على سهل مسطح فقد كانت أغلب حاراتها مجردة من الأسوار سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م عندما قام ألفونسو المحارب بحملته الجريئة عبر أراضي الأندلس؛ وقد حاول ملك "أرغون" الاستيلاء عليها دون جدوى(٤٤). وبعد أكثر من ثلاثة قرون، عندما قام الملك الكاثوليكي بالاستيلاء على هذه المدينة سنة ١٤٨٩م، يذكر المؤرخون اسمين لربضين كبيرين، يدعى أحدهما بربض "مارسويلا" MARCUELLA(٤٥)، وهو الربض الذي انتقل إليه السكان المسلمونْ بعد الاستسلام، حاملين أثاثهم وممتلكاتهم بعد الاستيلاء على منازلهم(٤٦). ويفيدنا الكاتب "بولجار" PULGAR بأخبار أكثر تفصيلاً فيقول: «إن أرباض هذه المدينة كبيرة ومرتبة حولها لكنها مجردة من ذلك السور المناسب لحمايتها فهو من التراب وبدون ردم»(٤٧). وفي نفس الحملة أُرغم السكان المسلمون في مدينة «وادي آش» على ترك المدينة وأرباضها. ويذكر المؤرخ "باليرا" VALERA عن أحد أرباض تلك المدينة الذي أمر بتدمير منازله ملكُ غرناطة القديم، عندما أشرف فرناندو الكاثوليكي على حصار مدينة مَالَقة.

وفي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي كان الربضان المزدحمان في مدينة مَالَقة خاليين من الأسوار، ولكن كان فيهما أسواق الغلال والحمامات وغيرها. وكان أحد هذين الربضين يسمى "ربض فونتانالا" FONTANALLA، أما الآخر فهو ربض تجار التين (التيّانين)(٤٨). وقد كتب عنهما ابن الخطيب نحو سنة

١٣٦٠م أن كلاً منهمـا «كان عبـارة عن مدينة كاملة مـثل امرأة جميلة تتـباهى بزينتها وسـحرها الفتان» وأن «العيـون لا تجد سبيلاً للنفاذ إليـهما»(٤٩)، وهذا يشير إلى أن الربضين كانا عندئذ مسورين. وبالنسبة إلى ربض فونتانالا، الواقع ناحية اليابس، فإنه كان مسوراً وذا أبراج كثيرة، مثل ما ذكر في روايات حصار "مالقة" من قبل الملكين الكاثوليكيين(٥٠).

**عدد الأرباض.**

كان عدد الأربـاض الواقعة خارج المدينة يعـتمد على كثـرة عدد السكان أو قلتهم؛ كمـا كان يعتمد أيضًا، كـما رأينا، على موقعها الطبـوغرافي. وكانت مدينة قرطبة في القرن العاشـر الميلادي، وهي السنوات الأكثر ازدهاراً، محوطة بواحدٍ وعشرين ربضًا، كما ذكر ابن بشكوال في القصة التي نقلها المقري والتي




مالقة. مخطط مجمل في القرن الحادي عشر.

يأتي فيها ذكر أسماء تلك الأرباض. ومنها الزاهرة، لكنه لم يتطرق إلى الزهراء البعيدة(٥١). وقد ذكر " **البيان**" أن هذا العدد بلغ ثمانية وعشرين بما فيه هذا الأخير(٥٢) في حين يذكر بعض الكتاب عشرين فقط(٥٣).

وقد قام المرابطون في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي في مدينة قرطبة ببناء أسوار بأبراج من اللبن، وتخطيطها معلوم ويُحتفظ ببعض الآثار منه. وكانت تلك الأسوار تحيط بربض أكبر من مساحة المدينة. ونظرًا لموقعه شرق المدينة سُمي "الحارة الشرقية"، وهو في اللغة الرومانسية AJAR-QUIA(٥٤). وليس من السهل الربط بين ما ذكره ابن بَشكُوال وبين ما أشار إليه معاصره الإدريسي في مؤلفاته الجغرافية المعروفة. حيث يقول عن مدينة قرطبة إنها كانت تشتمل على خمس مدن متجاورة، وكل مدينة محوطة بسور، ومستقلة عن الأخرى بأسواق ومتاجر للغلال، وبحمامات، وبمبان مخصصة للمهن المختلفة(٥٥).

وعلى عكس مدينة قرطبة كانت مدينة أشبيلية في وقت لاحق عندما حاصرها فرناندو الثالث، كان بها ثلاثة أرباض فقط خارج أسوار المدينة هي: طريانة TARYANA، وبناليوفار BENALIOFAR، ومكرانة MAQARANA. ويقع الربض الأول على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير، وقد احتل أقرب منطقة من المعبر، وهي التي كانت بها الضاحية المزدحمة المسماه "طريانة" TRI-ANA(٥٦). ويُذكَر الربض الثاني في النصوص النصرانية باسمي "بينا هوار" VENAHOAR و "بن أهوار" BEN AHOAR، وحسب الكاتب المحلل "أورتيث دي ثونيجا" فإنه الذي «يسمى اليوم بربض سان برناردو»(٥٧)؛ ولكونه يقع جنوب المدينة، فقد اندمج بمساكنها. ويؤكد المؤلف نفسه بأن ربض "المكارنا"

وهو الثالث ليس هو المعروف سابقًا وفي الأيام الراهنة بذلك الاسم، لأنه كان يقع خارج الأسوار قريبًا من باب "المكارينا" على مسافة أقل من كيلومترين شمال المدينة، حيث وجد من قبل برج إسلامي تحت سيادة المسلمين، ووجد فيما بعد مستشفى "سان لاثارو" تحت سيادة النصارى. وقد بقيت للبرج الإسلامي بعضُ الآثار الموجودة حاليًا بجوار مقبرة سان فرناندو(٥٨).

وعندما استولى "السِّيد" على مدينة بلنسية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، كان في ضواحيها خارج الأسوار ربضان للمستعربين وهما: ربض "الرُّصافة" RUZAFA، وربض "الرايوسة" RAYOSA جنوب المدينة، وكان هناك أيضاً اثنان آخران شمال المدينة، على الضفة الأخرى لنهر التوريا، وهما: ربض بيانوبيا VILLANUEVA الذي دمر السِّيد جزءاً منه سنة ١٠٩٣م، والقريب من الكدية الذي احتل العرب غير الموالين للسِّيد جزءاً منه بعد أن استولى على بلنسية(٥٩).

وعندما قام ألفونسو المحارب سنة ١١١٨م بانتزاع مدينة سرقسطة كان فيها ربض الدباغين. وبعد حصار المدينة الذي استغرق ثمانية أيام "سيطر المحاصِرُون على الضاحية الواقعة على الضفة المقابلة من النهر المسماة بـ"أتاباهس ATABAHAS و بـ"التّباس" فيما بعد... ثم تغلّب المحاصِرُون على الأهالي المقيمين خارج الأسوار الحجرية"(٦٠).

وهناك عدة وثائق ومراجع نصرانية تذكر اسم ذلك الربض، وذلك في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي(٦١). وهناك مراجع أخرى تعود إلى سنة ١١٣٣م تذكر اسم الربض واسم بابه المدعو بربض ثينيخا CINEJA (وهناك مرجع يعود إلى سنة ١١١٧م يسميه "ثيني هية" CINE EIA) غرب المدينة، ومن

المحتمل أن هذا الاسم يرجع إلى أفراد قبـيلة الصنهاجة الذين استوطنوا في هذا المكان المسمى بربض ثنهـاشا (صنهاجـة) في القرن الرابع عشر الميـلادي، وقد استمر ذكره خلال العصور حتى أيامنا الراهنة باسم "باب أو قوس ثنيخيو" CI-NEGIO[٦٢].

وكـانت مدينة "المرية" مـركزًا تجـاريًا بحـريًا منذ القرن العـاشر الميـلادي، واستمرت على هذه الحـالة حتى قبيل نصف القرن الثاني عـشر، وكانت أيضًا المعبـر الرئيس للحركة التجـارية الكثيفـة نحو الشرق. وقد اشـتملت على نواة مركزية عرفت "بالمدينة" فيها المسجد الجـامع، وكان يحميها شمالاً أحد التلال الذي بنيت على قمته "القـصبة"، أما من الناحية الجنوبية فكان يحمـيها البحر وعدة أرباض. وقد شُيد إحداها على تل معروف باسم "جبل لحام" وهو حالياً هضبة "سـان كريستوبال". وهناك ربض آخـر يسمى الحوض (الجبّ)[٦٣] في الاتجاه الغربي محـاط بأسوار في داخلها الكثير من المباني والأسـواق، ومتاجر الغلال والحمامات. وكان هذا الربض منتصـف القرن الرابع عشر الميلادي خاليًا من السكان[٦٤]، ويرجع هذا ودون ريب إلى الاحتـلال المسيحي لـلمدينة سنة (١١٤٧ ـ ١١٥٧م)؛ ويذكر كاتب معـاصر ربضـًا آخر عرف بربض المصلّى ـ وهو المصلى الواقع في الهواء الطلق ـ وكان أكـبر الأرباض ويقع شرق المدينة. وقـام خـيـران العـامـري، والي المرية بـبناء سـوره من الـلبن سنة ٤٠٣ ـ ٤١٩هـ/ ١٠١٢ ـ ١٠٢٨م).[٦٥] (انظر خـريطة المرية في القـرن الرابع عـشـر الميلادي ـ تخطيطها العام).

وعـندما قام أهالـي "قطلونيـة" CATALUNIA وأهالـي "جنـوة" GE-NOA وأهالي "بيـسـة" PISA بالاحـتـلال العـاجل لمديـنة "مـيـورقـة" سنة

٥٠٩هـ/ ١١١٥م كانت المدينة مؤلفة من ثلاثة مراكز سكنية: أحدها كان صغيراً يعرف بالمُدَينة (تصغير للمَدينة) يقع بجوار الميناء، وكان المركزان الآخران الكبيران يمتدان على هيئة نصف دائرة حول المُدَيْنَة، وكان طرفاهما يبلغان شاطئ البحر. وتسمي الكتب التاريخية النصرانية الربض الأوسط منهما "بالباب الجديد". وقام أبو الجيش مجاهد (المتوفى سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤ ـ ١٠٤٥م) ببناء هذا الجزء من المدينة في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي. أما الربض الخارجي فكان أكثر اتساعًا من الربضين السابقين معًا بمقدار الضعفين أو الثلاثة، وقد قام الأمير مجاهد مبشر بن سليمان المعروف في الكتب التاريخية النصرانية بناصر الدولة NASER AL DAWLA ببنائه في الأعوام الأخيرة من القرن الحادي عشر الميلادي أو في الأعوام الأولى من القرن اللاحق. وتسمي الكتب التاريخية النصرانية هذه التوسعات الأخيرة بالربض الجديد(٦٦).

لا نعرف كثيراً عن ربض مدينة مرسية الذي كان، حسب الإدريسي، مزدهراً ومزدحمًا هل هو ربض الرجاء أم ربض الرشاقة المذكورين في **قصيدة المقصورة** للقَرْطَاجَنِّي في القرن الثالث عشر الميلادي(٦٧). ويذكر كتاب "**التكملة**" ربض سِرْحان في المدينة الأخيرة، وقد دفن في روضته شخصية ماتت سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧ ـ ١٢١٨م(٦٨). ويذكر مرجع نصراني يعود لسنة ١٢٦٧م اسم ربض "عابث" ABEZ الذي كان فيه مسجد يحمل هذا الاسم(٦٩).

ويذكر العمري في القرن الرابع عشر الميلادي أربعة أرباض رئيسة واقعة حول مدينة غرناطة: ربض البيّازين، شمال المدينة وقريبًا من "باب الضفَاف" BAB AL-DIFAF، وهو أهم الأرباض وأكثرها ازدحامًا، على هيئة مدينة سكنية

مستقلة بجامعه الرئيس وبهيئة إدارية ذاتية، وقد احتفظ باسمه في اللغة القشتالية "البيائين" ALBAICIN (البيّازين). والثاني هو ربض الفخّارين، جنوب غرب المدينة وخارج أسوارها بالقرب من نهر الخينيل وجوار باب يحمل نفس الاسم(٧٠)؛ وربض باب الرملة الذي يحمل اسمَه ميدانُ بيارمل BIBARRAMBLA(٧١)؛ وربض نجد NAYD الواقع مباشرة على نهر الخينيل، مثل ربض الفخارين، والمزود بعديد من الفساطيط والحدائق(٧٢). وكان ربض نجد يقع شرق مدينة غرناطة، داخل أرض مسورة أضيفت إلى أسوار المدينة في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.

وهناك أرباض أخرى بمدينة غرناطة أقل أهمية من الأولى دون ريب ـ كان بعضها جزءاً من الأرباض الأربعة السابق ذكرها ـ، التي تذكرها بعض المراجع وبعض المنشورات المؤرخة بعد سنة ١٤٩٢م بقليل، وبعضها يحمل أسماء عربية مشوهة: ربض "أبو العاصي" الواقع بين المسجد الجامع وشارع إلبيرة؛ وربض البيضاء الواقع على مطلع "الشابيث" يميناً داخل ربض البيّازين؛ وكان بالبيازين من الناحية الغربية ربض آسفي ASIF. وكان يقع إلى الطرف الآخر المباشر لسان "إلْد فونسو"؛ ومن الناحية المقابلة لميدان سان ميجيل ربض "باديس" BADIS؛ وكان ربض "إلكسيس" ALXEUX و"أثياثي" ACIEZI واقعين، فيما يبدو، بالرعية القديمة للسلفادور بالبيّازين؛ بينما احتل ربض فحص اللوز FAJ-ALAUZA، كما يُعتقد، مكاناً مجاوراً من باب البيّازين الذي يحمل الاسم نفسه(٧٣).

وكان لمدينة سَبْتة CEUTA في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ربض ملاصقاً لسورها الغربي، وربض آخر عند سورها الشرقي به ثلاثة

حمامات[٧٤]. وفي بداية القرن الخامس عشر عندما سقطت المدينة تحت سيطرة البرتغاليين، وصفها كاتب مسلم معاصر قائلاً إن للمدينة ستة أرباض، ثلاثة منها بجوار المدينة، وآخر خارجها، وقد قام السلطان المريني أبو سعيد بتدمير سوره؛ و"أفراغ" AFRAG، وكان يقع على مسافة قريبة من مركز المدينة واحتفظ هذا الربض بجزء من أسواره. وربض الميناء الواقع شرقًا، وكان يحميه أيضًا سور به مجموعة من الأبراج[٧٥].

وكان في مدينة "أستَجَّة" ECIJA عدة أرباض واسعة ذات أسواق مزدحمة بها أسواق للغلال[٧٦].

وكانت مدينة شلبترة (شلبتيارة) SALVATIERRA في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي مدينة صغيرة، بها قلعة على قمة جبل وعر «خرقت قمته السحب المرتفعة» يُصعَد إليه من طريق ضيقة شاقة؛ وقد انتشرت الأرباض على سفوحه وامتدت على جانبيه حتى السهل[٧٧]. ولمدينة "شلطيش" SALTES، المنقرضة الواقعة في إحدى الجزر أمام مدينة "ولبة" HUELVA، أرباض واسعة[٧٨].

كما يُعرف اسم ربضين من أرباض مدينة "وشقة" HUESCA هما الربض الغربي وربض المقيبرة MUQAYBARA[٧٩]. ولمدينتي "طرطوشة" TOR-TOSA والجزيرة (ألثيرا) ALCIRA نفس العدد من الأرباض. ففي المدينة الأولى امتدت الأرباض شمال وجنوب القصبة التي قام الأمويون بإحاطتها بسور من الأحجار[٨٠]. وكانت أرباض مدينة الجزيرة (ألثيرا) تعرف عند النصارى بأرباض الكنيسة، وتعرف اليوم بربض سان أجوستين SAN AGUSTIN، وربض برالبيت BARRALBET المعروف في الوقت الحاضر بحيّ سانتا ماريا[٨١].

ولم يكن يوجد في كثير من المجموعات السكنية الصغيرة إلا ربض واحد.

مـثال ذلك قلـعـة قيطاجة " QUESADA المزدحمة كالمدينـة الصغيرة التي زادت بذلك الربض الوحيـد؛ ولمدينة "المنكّب" ALMUNECAR ربض واحد أيـضًا، وكان ذلك الربض في القرن الثاني عشر الميلادي واقعًا على ضفة النهر، وعلى سـفح الجبل الوعـر الذي تعلوه "شانتـرين"[٨٢]. ولمدينة "طريف" TARIFA ربض "الرباط" REBATUM الذي استـولى عليه سنة ١٢٩٢م سانتـشو الرابع قبل انتـزاع المدينة بمدة تتجاوز الشـهر[٨٣]. وسيطر فـرناندو الثالث على ربض "إليورا" ILLORA بعد تدميره وقبل السيطرة على مدينة أشـبيلية. وبعد استيلاء ألفونسو الحادي عـشر على مدينة قلعة ابن زيد (المسمـاة بعد ذلك بالملكية) سنة ١٣٤١م أصلح وزيّن «مـخارج سـور ربض هذه المدينة»، كـما سلب وأحـرق مخارج سور ربض "إليورا" وكانت مدينة صغيرة قوية جداً ومسورة بسور قوي من الحـجارة»[٨٤]. وكـانت مدينة "بَلِّش" بملقـا VELEZ-MALAGA متـوسطة المساحة وبهـا ربض واحد واسع، وكان هذا الربض يقع ناحية البـحر. وعندما قام الملك الكاثوليكي بالاستيلاء عليه كانت فيه متاجر المدينة كلها بالإضافة إلى ثلاثة أفران[٨٥].

وكانت "دانية" DENIA مدينة بحرية، فيها ربض مزدحم في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وكان ذلك الربض قائمًا عند الاستيلاء على المدينة المشار إليها، وقد ذكر اسم هذا الربض (رابلوم دينيا) في كتاب "**توزيع مدينة بلنسية**" سنة ١٢٤٢م. أما بالنسبة إلى ربضي "كوربيرا" و "كوليرا" فإنهمـا ذكـرا بعـد سبـع سنوات من هذا التاريخ[٨٦]. وبعد استـيلاء خايمي الأول JAIME I على مدينة شـاطبة في عـام ١٢٤٨م أصدر امـتيازاً في يناير عـام ١٢٥١م بأن تكون المدينة سكنًا للمسلمين، وخـصص لهم ربض شاطبة JATIVA بأكمله؛ وكان

يمتد من جدار فوبيــا حتى جدار الشريعة؛ وقد احتفظ المــلك لنفسه بالممتلكات التالية: الملحــمة، والمصبغة، والحمــام والأفران والمتجرة(٨٧). وقد امتد ربض مدينة لورقة LORCA على طول أحد المنحدرات أسفل القــلعة والمدينة الواقعتين على أعلى المــنحــدر؛ ويلاحظ تكرار اخــتــيــار هذا الوضــع في بعض المدن الأخــرى. وكان هذا الربض مــحــاطًا بأسوار وبه الســوق والجــمرك ومــتاجــر العطارين(٨٨).

ومن المحتــمل أيضًا أن ربــض "ابن أشواي" BENAXUAY بمدينة "شلب" CHELVA وربض "بنواثاس" BENOAZAS كانا من العــصر الإســلامي، وقد حاولت دونيــا "بونابنتورة دي أربوريا"، إحــدى السيدات البــارزات في مدينة "خريكا" JERICA، تعميرهما سنة ١٣٧٠م، بحكم وثيقــة رسمية دعت فيها المسلمين إلى الإقامة فيها ومنحت من يقبل هذه الدعوة امتيازات خاصة(٨٩).

وعندما قام ألفونسو العاشر بأخذ مدينة "مولا" MULA " طرد كل المسلمين خارج المدينة ســوى عدد قليل منهم وأمرهــم بالإقــامة في الربض"(٩٠). وكان شرق مدينة "رندة" ربض آخر واسع محاط بأسوار(٩١).

**بيوت البغــاء.**

يترجم بيدرو دي الكالا الكلمــة الأسبانية «Mancebia» بـ «ربض البغايا»(٩٢) مما يدل، فيما يبدو، على أنه كان بالمدن الأسبانية المسلمة ربض مخصص لإيواء البغايا. وكان يسمــى «القُصيفة» وقد تحول إلى اللغة الرومانــسية في البرتغال، في القرن الثاني عشــر، إلى «القوثيفة»(٩٣). وكان هناك بيت للبــغاء في مدينة الحامــة بغرنــاطة، فلدى استــردادها، في ١٤٨٣م، منح كونت تنديــا Tendilla لإرناديث بيريث ديل بولجار مخبزاً بالقرب منه(٩٤). ويشير ابن خلدون، خلال

حديثه عن إشبيلية نحو عام ١١٠٠م، إلى نساء بيوت البغاء (دار الخراج)، اللاتي كن مجبرات على عدم السير مكشوفات الرأس خارج «الفندق» مما يعني أنهن كن يمارسن حرفتهن داخل تلك الأماكن[٩٥].

وقد جاء في امتياز منحه ألفونسو العاشر عام ١٢٧٢م إلى سكان مدينة مرسية المسيحيين، أنه يحرّم «على المحكمة وعلى أي جهة غيرها أن يكون بها فندق ولا مكان يضم البغايا»[٩٦].

**الأحياء.**

كانت أحياء المدن الأندلسية، المتباينة المساحة، ضيقة جداً في أغلبها: بعضها كان يتكون من شارع واحد. وتأتي الكلمة في المعاجم الأسبانية - والتي تسمى في اللغة العربية حارة أو حَوْمة للمفرد وحارات للجمع[٩٧]- أحياناً بمعنى شارع وأحياناً أخرى بمعنى حي. وقد سبقت الإشارة إلى اختلاط هذه المعاني في الصفحات السابقة، بحيث أن التمييز بين المصطلحين «حي» و«ربض» لا يبدو واضحاً بشكل كبير في كثير من الأحيان.

كانت مدينة "بجانة" PECHINA قبل حكم الأمير محمد مؤلّفة من أحياء متناثرة. وقد تحولت هذه الأحياء إلى كتلة سكانية واحدة عندما قام الملاحون بالاستيلاء عليها سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م وأقاموا بها أسواراً على غرار مدينة قرطبة[٩٨]. وفي القرن التاسع الميلادي تذكر المراجع التاريخية اسم حيين في هذه المدينة الأخيرة؛ يسمى الحي الأول بحي "كولوبرس" CO-LUBRIS، وهو الحي الذي أقيمت فيه كنيسة كبيرة مخصصة للقديسَيْن "قوسمي" SAN COSME و"دَميان" SAN DAMIAN، ويسمّى الحي الثاني بحي "ترثيوس" TERCIOS، ويقع في ريف قرطبة، وقد أقيمت به كنيسة

كبيرة أخرى مخصصة للقديس "مارتين دي تور"[٩٩].

وكذلك لدينا معرفة ببعض أسماء الأحياء في بمدينة قرطبة وضواحيها في فترة الخلافة ومن أمثلتها: "حي الرقّاقين" الواقع بالقرب من باب العطّارين غرب المدينة؛ و "حي النجّارين"، "وحي عين الفرقد" في الربض الشرقي؛ وحي "غدير ثعلبة"؛ وحي "الزجاجلة أو حي الزجّالي" (خدام بلاط الملك) الذي يقع على مسافة قريبة من باب اليهود. ومن الحديقة الشهيرة التي تعرف "بحَيْر الزجّالِي"؛ وحي "قوته راشو" و"حارة الفخّارين" المجاوران لها. وحارة "الطرّازين" التي كانت تقع فيما يبدو بالقرب من كنيسة "سان أندريس"[١٠٠]. ويُذكر أيضًا اسم حي "كوباس" CUBAS الذي وزع فيه ألفونسو السابع هبات عظيمة سنة ١١٥٠م عندما كانت مدينة قرطبة تحت الحصار[١٠١]. ويعتقد القس "فيتا" أن ذلك الحي، والذي كان يعسكر فيه الإمبراطور، وكان يقع قريبًا أو حول العين المائية المعروفة بنفس هذا الاسم. والتي يحدد العالم الجغرافي ياقوت موقعها بأنه غرب المدينة[١٠٢].

وبالإضافة إلى ذلك فإن المعتمد يذكر في شعره اسم حي من أحياء مدينة "أشبيلية" يسمى "بحومة القصر المبارك" نظرًا لأن به "القصر المبارك" المشهور[١٠٣].

وهناك حي آخر بمدينة "طلبيرة" يعرف بحومة العرب[١٠٤]. وبعد استيلاء بدرو الأول على وشقة HUESCA في عام ١٠٩٦م وجدت بها مستندات مؤرخة في سنة ١٠٩٩م وسنة ١١١٤م وسنة ١١٦٤م يُذكر فيها اسم باب حارة القومس HARATALCOMEZ عند السور الخارجي للمدينة، ومن المعتقد أنه كان بالقرب منه الحي الذي تذكره وثيقة عربية أخرى سنة ١٢٢٤م، وهي تدعوه

باسم "حارة القومس" HARAT AL-QUMIS. وكان يقع شمال غرب مدينة "وشقة"؛ يحده شمالاً الطريق المتجه إلى "إيربي" AYERBE وحدود كنيسة "سان ثيبريان" التي يعتقد أنها تنتمي إلى حضارة المستعربين طبقاً للمستندات المؤرخة في العامين ١١٥١ و١١٦٤م؛ وكان يقع بالقرب حي اليهود(١٠٥). وفي التاريخ نفسه تذكر بعض المراجع اسم حي "ابن هاجون" BENAHAGON الواقع خارج الأسوار الحجرية لمدينة وشقة. وهناك أسماء لأحياءٍ أخرى احتفظت باسمها العربي القديم في المراجع العربية، وباسمها الأسباني في المراجع النصرانية استمرت حتى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ومنها "حارة القبلة"، بالقرب من الباب الجنوبي المعروف بهذا الاسم وكانت تمتد من مدخل "الكوسو" إلى شارع "راميرو المونخي"؛ وحارة "باب الحديد"؛ وحارة "زبالاشن" ZABALACHEN؛ وحارة "حومة المَرِيج"، (المعروفة اليوم بالميريث ALMERIZ)؛ و"حومة الموريلوم" MURILTUM، و"حومة المائدة". وكانت في الحارات الثلاث الأخيرة حقول الكرم والمزارع(١٠٦). وهناك حي آخر بمدينة بلنسية يقع خارج أسوار المدينة، يسمى بحي الشريعة في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ويذكر اسم هذا الحي في القرن الثالث عشر الميلادي في المراجع الخاصة بتوزيع المدينة، بالإضافة إلى حي آخر يسمى "ابن جهاف" AVINGAHAF كان يقع تقريبًا في الشارع المعروف حاليًا باسم شارع "الأبيلانس" AVELLANAS(١٠٧).

ويذكر مرجع لاتيني يعود إلى سنة ١١٢٦م يذكر حيٍّ "السويقة" AZO-CLA بمدينة "سرقسطة"(١٠٨).

ويورد المرجع الخاص "**بتوزيع ميورقة**" أسماء عدة أحياء وضواح (في

اللاتينية: VICUS) يحمل معظمها أسماء إسلامية أصلية[١٠٩].

وكانت مدينة غرناطة الإسلامية حتى عام ١٥٠٠م تحتفظ بعدد غير قليل من أسماء أحيائها (بالتسمية القشتالية)، علمًا بأن اسم البعض منها ظل باقيًا ضمن أسماء مناطق المدينة، ومنها: حي "البوكارولفسين" BUCAROLFACIN الواقع في نهاية شارع "أراندس" ARANDAS، وحي "أكسارس "AXARES -AJSAR) (IS الممتد من نهر الدارو حتى سان خوان دي لوس ريّس، ومن سان بيدرو وسان بابليو حتى كنيسة لابيكتوريا[١١٠]؛ و"حي زقاق البصري" الذي اشتق اسمه من ساقية الماء الواقعة خارج باب إلبيرة الواقع بين هذا وسان خيرونيمو؛ و"حي المنصورة" ALMANZORA الواقع على منحدر التل الممتد بين "سانتا أنا" وشارع "جوميرس"؛ و"حي الكرز" في القصبة القديمة بالقرب من كنيسة خوان دي لوس ريس"[١١١]؛ وحي "عيون جارة الريحان" AITUNJARARROHAN بالقرب أيضاً من الكنيسة المذكورة؛ وحي الكورة "الشورا" CHURRA على الضفة اليسرى لنهر "الدارو" بين سانتا آنا وباب الضفاف، الباب المطل على نهر الدارو، الذي بقيت منه بعض الآثار؛ و"حي مورُور" الواقع على طرف تل صغير يمتد من تل قصر الحمراء حتى نهر الدارو، وقد احتفظ بهذا الاسم حتى الآن. وسميت حديقة من حدائق غرناطة الموجودة بالتل السابق ذكره بحديقة مورور؛ وحي "حارة القصبة" الذي يبدأ من حي مورور وينتهي بالقرب من سانتا أسكولا ستكا"؛ وحي "الشريعة" الواقع على الجزء المنبسط الأعلى من "حي البيازين" بين كنائس سان جريجوريو، و"سان بارتولومي" و"سان كريستوبال" الذي كان به "الشريعة" أو المصلى المفتوح في الهواء الطلق، إلى أن عُمِّر حي البيازين في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي؛

وحي صنهاجة ZENETE الواقع على منحدر وعر أسفل أسوار القصبة القديمة؛ وحي "العقبة" الذي ظل محتفظاً باسمه حتى الآن؛ وحي "قرية" CAREYO الواقع شرق سان خوان دي لوس ريس[١١٢]؛ وحي "البستان" في منطقة البيازين[١١٣]؛ وحي "باب المرضى"، أو باب الجذام، الواقع خارج الأسوار بالقرب من المدخل الذي يفتح أمام دير "الترنيداد" عند مخرج شارع "لاس كابوشيناس"؛ وحارة الفرج HARATALFARAC، وحارة الشومة -HAR ATALCHEMA المعروفتان اليوم بشارع "جوميرس" الذي استوطنت فيه مجموعة من الأفريقيين القادمين من سلسلة جبال "فيليث دي لاجوميرا"، والذين جاءوا إلى مدينة غرناطة لأداء خدمتهم في الكتائب العسكرية[١١٤]، وكان ذلك في عهد الملك ألفونسو الحادي عشر، حسب رأي أحد المؤرخين حوالي سنة ١٣٣٤م.

وقد كان لكلمة «حي» أو «حارة» في اللغة العربية الجارية في مدينة غرناطة معان واسعة، إذ لم يكن إطلاق هذه الكلمة على أحياء المدن والمراكز السكنية ذات الأهمية المتباينة في مساحتها وحجمها، بل استعملت أيضاً في تسمية الأحياء البعيدة جداً عن المدن، والقرى والمزارع والضيعات التي تندر فيها المساكن "كحارة العرب" (تالورا) بوادي "ليكرين"[١١٥]. وكان أغلب القرى والضيعات التابعة لمقاطعة "البوخاراس" ALPUJARRAS مؤلفة من قرى أو من أحياء متناثرة يطلق عليها اسم "حارة" متبوعاً بلقب ما. ومثال ذلك أن مدينة "كاديار" CADIAR كانت تتألف من أربع حارات: "حارة الحاج" و"حارة الشوق" و"حارة الثمرة" و"حارة السوق" وفي الأخيرة منها كان يقام السوق فيما يعتقد[١١٦].

(1) **Enc. Islām,** III, p. 1162; Dozy y Engelmann, **Glossaire des mots,** p. 198. Según las **Siete Partidas,** «este nombre cibdat, que se entiende todo aquel lugar que es cercado de los muros, con los arrabales et los edificios que se tienen con ellos» (Part. VII, tít. XXXIII, ley VI).

(2) Alcalá, **De lingua arábica,** pp. 105, 114 y 149.

(3) Maqqarī, **Analectes,** I, p. 304; Ibn Baškuwal, **Sila,** pp. 15 y 573.

(4) Busquets, **El códice... del Repartimiento de Mallorca,** p. 277.

(5) Lévi-Provençal, **Une description de Ceuta.**

(6) González Palencia, **Los Mozárabes de Toledo,** vol. preliminar, pp. 51, 52, 57 y 68; vol. I, pp. 14, 15 y 306; docs. núms. 20, de 1136, y 366, de 1209; vol. II, pp. 75-76, 194-195 y 252-253; docs. núms. 474, de 1224; 597, de 1256, y 652, de 1276; vol. III, pp. 525-526, docs. núms. 1.106, de 1232. El arrabal de Francos algunas veces se llama **«Cal de Francos»** y **vico francorum.**

(7) J. F. Riaño, **La Alhambra,** pp. 189-190; Gómez-Moreno, **Guía de Granada,** p. 322.

(8) González Palencia, **Los Mozárabes de Toledo,** vol. preliminar, pp. 76-77; vol. I, pp. 126 y 251, docs. núms. 170, de 1184, y 311, de 1202.

(9) Codera, **Decadencia... de los Almorávides,** p. 257.

(10) Al-Marrākušī, **Histoire des Almohades,** pp. 43-44; al-Nuwayrī, **Historia de los Musulmanes,** I, p. 76 de la traducción.

(11) Baeza, **Las cosas que pasaron...,** pp. 35-36. Según Mármol **—Historia del rebelión...,** I, p. 67... la lucha entre Boabdil y el Zagal en el interior de la ciudad duró más de cincuenta días.

(12) Mármol, **Historia del rebelión...,** I, p. 117.

(13) La más antigua mención que conozco de la **bāb Šaqra,** abierta hacia la comarca de la Sagra y del arrabal **—bi-rabaḍ Ṭulayṭula—** al que la puerta daba ingreso desde el exterior, es del año 400/1009-1010 (**Sila,** de Ibn Baškuwāl, p. 23).

(14) Véase **infra «Muṣallā» y «šarī'a».**

(15) Para Sebastián de Covarrubias, **medina** es «nombre arábigo; vale tanto como ciudad principal y metrópoli, según la interpreta Diego de Urrea» (**Tesoro de la Lengua Castellana,** p. 796).

(16) Madoz, **Diccionario geográfico,** XIV, p. 606.

(17) **Ibidem,** III, p. 287; XV, p. 114.

(18) Al-Idrīsī, **Description... l'Espagne,** p. 190 del texto, y 231 de la traducción. En una escritura mozárabe y en otra latina del año 1220 se llama a Toledo «Medina Tulaytola» (Simonet, **Hist. de los Mozárabes,** p. 381).

(19) E. Lévi-Provençal, **Las Ciudades y las Instituciones urbanas,** p. 17. Según Cagigas (**Los mudéjares,** II, p. 363), los **yānibes** eran los arrabales laterales, a oriente y occidente de la medina.

(20) En Sevilla, la primitiva mezquita mayor, que estaba en el centro de la ciudad, al ser pequeña, a fines del siglo XII, los Almohades construyeron otra cerca del alcázar.

(21) E. Lévi-Provençal y E. García Gómez, **Sevilla,** pp. 89 y 134; párrafos de la crónica de Ibn Ṣāḥib al-ṣalā, escritor coetáneo, en **Sevilla,** de Antuña, texto, pp. 134-136 y 140-141; trad. pp. 101-102 y 122-125. En el mismo lugar de Sevilla, en torno a la mezquita mayor convertida en catedral, siguió bajo el dominio cristiano el comercio principal de Sevilla (Ballesteros, **Sevilla,** p. VI, doc. núm. 5, de 1251; p. LX, doc. núm. 57, de 1253; p. LXII, doc. núm. 60, de 1253; p. LXX, doc. núm. 68, de 1255, etc.).

(22) González Palencia, **Los Mozárabes de Toledo,** vol. preliminar, pp. 57, n. (2), y 60.

(23) Baeza, **Las cosas que pasaron...,** p. 18. Según el Qirṭās (trad. Huici, p. 34; trad. Beumier, p. 44), al construir Fez **Idrīs II** en los primeros años del siglo IX «edificó la alcaicería al lado de la mezquita y estableció en torno tiendas y plazas».

(24) González Palencia, **Los Mozárabes de Toledo,** vol. preliminar, p. 68; vol. III, pp. 316-318; doc. núm. 978, del año 1190.

(25) Hurtado de Mendoza, **Memorial de... Toledo.**

(26) Ballesteros, **Sevilla,** p. LXII, doc. núm. 60; p. CCCXXXVIII, doc. de 1389; p. CCCXXIX, doc. de 1422.

(27) González Palencia, **Los Mozárabes de Toledo,** vol. preliminar, p. 54.

(28) Baeza, **Las cosas que pasaron...**, p. 39; Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 322.

(29) Riaño, **La Alhambra,** pp. 189-190; Gómez Moreno, **Guía de Granada,** pp. 311 y 322.

(30) González Palencia, **Los Mozárabes de Toledo,** vol. preliminar, pp. 53, 58 y 59.

(31) Gómez-Moreno, **Guía de Granada,** p. 322; Münzer, **Viaje por España y Portugal,** p. 54.

(32) La cita más antigua de la palabra arrabal registrada en documentos cristianos figura en uno de 950 del becerro de Celanova (M. Gómez-Moreno, **Iglesias mozárabes,** p. 122). Neuvonen afirma —**Los arabismos del español,** pp. 116-117— que por la gran distancia temporal y local no se le puede considerar como ascendiente rectilíneo del arabismo castellano, cuyo punto de origen sospecha sea Toledo, de donde se propagaría rápidamente a otros lugares de la Península.

(33) Al Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** texto, p. 195; trad., p. 237.

(34) **Ibidem,** texto, p. 181; trad., pp. 219-220.

(35) Hay referencias de la puerta de Visagra **(bāb Šaqra),** que daba entrada al arrabal desde principios del siglo XI (véase **infra, Los nombres de «las puertas»).**

(36) El arrabal de Secunda, a juzgar por su nombre, estaría en el segundo miliario de la vía romana que salía de Córdoba por la puerta del puente hacia Sevilla y Cádiz, la «vía Augusta». Francisco Collantes de Terán, **La torre y la puerta de Macarena,** pp. 199-207).

(37) **Ajbār Maŷmū'a,** texto, p. 21; trad., p. 33; Maqqarī, **Analectes,** I, p. 304; Lévi-Provençal, **L'Espagne... au Xème siècle,** p. 207, n. (3).

(38) Al-'Umarī, **Masālik,** pp. 232-233.

(39) Lévi-Provençal, **La Péninsule ibérique,** texto, p. 186; trad., p. 225.

(40) Al-Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** texto, p. 194; trad., p. 236.

(41) Lévi-Provençal, **Deux nouveau frangments...**, p. 52.

(42) Gayangos, **Mohammedan Dynasties in Spain,** I, p. 215.

(43) **Ibidem,** texto, p. 205; trad., pp. 252-253.

(44) **Al-Hulal al-Mawšiyya,** trad. Hulci, p. 111.

(45) Valera, **Crónica de los Reyes Católicos,** cap. XCII, p. 281; Antonio de la Torre, **Los Reyes Católicos y Granada,** pp. 113-115.

(46) **Fragmento de la época,** pp. 31 y 40.

(47) Pulgar, **Crón. Reyes Católicos,** vol. II, cap. CCXXXV, p. 372.

(48) Al-Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** texto, p. 204; trad., p. 250.

(49) García Gómez, **El parangón...**, p. 186.

(50) Pulgar, **Crón. Reyes Católicos,** vol. II, cap. CCIV, p. 284.

(51) La descripción de los arrabales cordobeses de Ibn Baškuwāl (499/1101-578/1183) puede verse en Maqqarī, **Analectes,** I, p. 304, y Gayangos, **Mohammedan Dynasties in Spain,** I, pp. 206-207. Lévi-Provençal, **L'Espagne... au Xème siècle,** pp. 207-208, da los nombres y situación de dichos arrabales, siguiendo a ése y a algunos otros escritores árabes que proporcionan detalles complementarios acerca de ellos.

(52) Ibn 'Idārī, **Bayān,** II, texto, p. 248; trad., p. 383.

(53) Gayangos, **Mohammedan Dynasties in Spain,** I, p. 215.

(54) La **Primera Crónica General,** cap. 1.046, p. 729, alude, con motivo de la conquista de Córdoba en 1236, al «arraval de que dizen en aravigo el Axarquia». Lo mismo en la **Crónica del Santo Rey,** cap. XXI, f.º 14 r. Igual nombre le da también Jiménez de Rada **(De rebus Hispaniae,** IX, 16). Por un privilegio del año 1241, Fernando III, concedió al monasterio de Santo Domingo, en Córdoba, terrenos **circa antemurale, inter Xarquiam et Almedinam (Catálogo de los obispos de Córdoba,** por el doctor don Juan Gómez Bravo, p. 256).

(55) Al-Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** texto, p. 208; trad., p. 257.

(56) Triana, «que es como arraval et alcaçar de Sevilla», fué incendiado por el rey de Granada, Habūs ben Māksan, entre los años 1035 y 1038 (**Primera Crónica General**, capítulo 779, p. 465).

(57) Ortiz de Zúñiga, **Anales de... Sevilla**, I, pp. 19 y 36. La situación de ese arrabal queda bien fijada por varios documentos, entre otros un privilegio rodado de Alfonso X en el que alude al agua de los caños procedente de Alcalá de Guadaira que debía disfrutar «la huerta de Abenahofar» (**Mem. Hist. Esp.**, t. I, Madrid, 1851, doc. XV de 1254, pp. 26-27). Dicha huerta era la llamada de la **Buḥayra** en la época musulmana (Torres Balbás, **Notas sobre Sevilla**, X, pp. 194-195).

(58) Ortiz de Zúñiga, **Anales de... Sevilla**, I, pp. 35-36. Collantes de Terán ha estudiado detalladamente la situación de ese arrabal de Macarena, cuyo nombre procedía del **pagus** o villa rústica romana de un Macarius (**La torre y la puerta de Macarena**, pp. 199-207).

(59) **Primera Crónica General**, caps. 878-896 y 904, pp. 549-566 y 570; R. Menéndez Pidal, **La España del Cid**, pp. 337, 378, 385, 437, 473-475, etc.

(60) Zurita, **Anales... de Aragón**, I, Lib. I, cap. XLIV, p. 42.

(61) José María Lacarra, **La conquista de Zaragoza por Alfonso I**, pp. 74 y 89.

(62) Alfonso I confirmaba en 1117, estando en **Cine Eia**, la donación de la iglesia de las Santas Masas de Zaragoza a la catedral de Jaca (Lacarra, **Documentos... del valle del Ebro**, primera serie, doc. núm. 1, p. 471). En 1133 confirmaba asimismo a los pobladores de Zaragoza **totas vestras hereditates quod habetis in Çaragoça foras et intus de Cinegia** (Biblioteca Nacional, ms. 746, pp. 277-278, citado por Lacarra, **La conquista de Zaragoza**, pp. 76, 79 y 89). Una escritura arábiga, coetánea o muy poco posterior a la conquista de Zaragoza, menciona el arrabal de Cinega, a poniente de la ciudad (R. García de Linares, **Escrituras árabes pertenecientes al Archivo de Nuestra Señora del Pilar de Zaragoza**, doc. núm. 2, p. 175). Bonet de Ximénez vendía en 1128 un huerto dentro del muro de Cineja por 150 sueldos jaqueses (Archivo del Pilar, arm. 9, cax. 1, lig. 1, núm. 11, según cita de Asso, **Historia... de Aragón**, p. 264). El arrabal de Zaragoza, sin apelativo, figura en documentos de 1121 a 1126 y de 1132 (documentos números 20, 25, 35, 43, 45, 50 y 74 publicados por Lacarra, **Documentos... del valle del Ebro**, primera serie, pp. 489-491; 494-495, 502, 508-510, 512-513 y 528).

(63) Al-Idrīsī, **Description... de l'Espagne**, texto, pp. 197-198; trad., pp. 239-241.

(64) Al-'Umarī, **Masālik**, p. 239.

(65) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, pp. 183-184; trad., p 221.

(66) El muro exterior de este arrabal, que envolvía por la parte de tierra los otros dos, llegó casi intacto al siglo pasado. Los datos anteriores procedentes de poemas pisanos casi coetáneos de la primera conquista de 509/1115, escrito uno por quien asistió a ella, y de las crónicas catalanas que relatan la definitiva de 627/1229, han sido recogidos por el padre Alcover en sus folletos **El sitio de Mallorca** y **El Islam en Mallorca**. Algunos documentos y datos topográficos pueden verse en las obras **Antecedentes relativos a la Puerta de Santa Margarita** y **La Puerta de Santa Margarita**.

(67) García Gómez, **Observaciones sobre la «qaṣīda maqṣūra»**, pp. 94 y 101. El arrabal al-Rašāqa se llamó por los cristianos Rexaca, Arreixaca y Arrijaca. («Arrixaca vieja... en la collación de Sant Miguel» en doc. de 1293). Menéndez Pidal, **Doc. ling. de España**, I, núm. 371, p. 490, a él dispuso Jaime I y, posteriormente en 1266, Alfonso X, fuesen a vivir los moros murcianos apartadamente de los cristianos, autorizándoles a labrar muro (Flotats y Bofarull, **Historia del Rey... don Jaime**, cap. CCLXVII, p. 366). Consta que tenía adarve, es decir, muro de cerca, en 1305 (Menéndez Pidal, **Doc. ling. de España**, I, núm. 372, p. 493).

(68) Ibn al-Abbār, **Takmila**, núm. 939, p. 314.

(69) Juan Torres Fontes, **El Obispado de Cartagena en el siglo XIII**, en **Hispania**, p. 547.

(70) La **bāb al-Fajjārīn** estaba por la moderna plaza de Fortuny; el arrabal se hallaba cercado (Seco de Lucena, **Documentos árabes granadinos**, II, p. 136).

(71) Una cerca protegía el arrabal de **bāb al-Ramla** (Gómez-Moreno, **Guía de Granada**, p. 247.

(72) Al-'Umarī, **Masālik**, pp. 232, 233. Erróneamente este autor oriental (m. 749/1349) llama al-Ajal al arrabal al-Naŷd. Su situación se fija en el estudio de Seco de Lucena, **De toponimia granadina**, pp. 49-64. Según Ibn Yūzay, redactor de los viajes de Ibn Baṭṭuta, estaba fuera de Granada e inmediato a la montaña de la Sabīka (Ibn Baṭṭūṭa, **Voyages**, IV,

p. 373). Su nombre evocaba una célebre región de Arabia así llamada (Al-Saqundī, **Elogio del Islam**, p. 108, núm. 155.

(73) Gómez Moreno, **Guía de Granada**, pp. 322, 338, 451, 465 y 475-476. **Al rabad Albaida** lo cita Mármol, **Historia del rebelión**..., I, pp. 238 y 240; estaba en las inmediaciones de una puerta del mismo nombre. Un documento de 1530 alude a «los vecinos de Rabadalbayda» (Garrido Atienza, **Las aguas del Albaicín**, p. 40, núm. 1). En esta misma obra —p. 57, núm. 1— se menciona el arrabal extremo Rabadarif, en San Ildefonso.

(74) Al-Bakrī, **Description de l'Afrique**, pp. 202 y 204.

(75) Lévi-Provençal, **Une description de Ceuta.**

(76) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, p. 15; trad., p. 21.

(77) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, p. 134; trad, p. 134, **Qirṭās**, p. 241 de la trad. de Huici, y 335 de la de Beaumiee.

(78) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, p. 111; trad. 135.

(79) El primero figura en un documento árabe de 1215; el segundo en otro de 1269 (Bosch Vilá, **Los documentos árabes... de Huesca**, pp. 10-11 y 47).

(80) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, p. 124; trad., pp. 151-152.

(81) Pelufo, **Topografía de Alcira árabe**, pp. 21-22.

(82) Al Idrīsī, **Description... de l'Espagne**, texto, pp. 186 y 203; trad., pp. 225 y 249.

(83) **Ann. Iamienses**, en **M. G. H.**, XVII, pp. 343-344.

(84) **Primera Crónica General**, cap. 1.068, p. 745; **Crónicas Reyes Católicos**, tomo primero, cap. CCLVII, pp. 332-333.

(85) Valera, **Crónica de los Reyes Católicos**, pp. 217 y 244; Moreno de Guerra, **Vélez-Málaga**, p. 373.

(86) Al-Idrīsī, **Description... de l'Espagne**, texto, p. 192; trad., p. 233; Bofarull, **Repartimientos**, pp. 367, 387 y 396.

(87) Fernández y González, **Estado social y político**..., apéndice XXIV, pp. 324-327.

(88) Al-Idrīsī, **Description... de l'Espagne**, texto, p. 196; trad., p. 206; Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, p. 171; trad., p. 206.

(89) Fernández y González, **Estado social y político**, p. 272.

(90) **Primera Crónica General**, I, cap. 1.065, p. 744.

(91) Torres Balbás, **La acrópolis musulmana de Ronda**, pp. 462-465.

(92) Alcalá, **De lingua arábica**, p. 305.

(93) Dozy y Engelmann, **Glossaire des mots...**, p. 92.

(94) Juan de Mata Carriazo, **«El breve parte» de Fernán Pérez del Pulgar.**

(95) Lévi-Provençal y García Gómez, **Sevilla**, pp. 156-157.

(96) **Mem. Hist. Esp.**, I, documento número CXXVIII, pp. 278-287.

(97) **Ḥawma** es palabra usada tan sólo en el Occidente islámico con la significación de parte de una ciudad, barrio a la vez que la más general **ḥara.** Del empleo de ambas se dan a continuación varios ejemplos. Un documento mozárabe toledano de 1175 se refiere a la venta de una casa en el arrabal (**rabaḍ** de **bāb Saqra**, en la **ḥawma** de Santiago (González Palencia, **Los mozárabes de Toledo**, I, doc. 121, pp. 87-88). Según Lévi-Provençal (**Las Ciudades y las Instituciones urbanas**, p. 17), los barrios centrales se llamaban, y siguen llamando, en las islámicas, **ḥawma.** Sin embargo, más adelante se citan casos, como el de Huesca, en que recibían ese nombre barrios rurales.

(98) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, p. 37; trad., pp. 47-48.

(99) **Eulogii Liber Apologeticus Martyrum**, números 21-35, según cita del padre Zacarías García Villada, **Historia Eclesiástica de España**, III, p. 114.

(100) Lévi-Provençal, **L'Espagne... au Xème siècle**, pp. 207-208, n. (3).

(101) **Facta carta in Corduba, in barrio de Cubas, quando imperator tenebat eam circumdatam (Lib. priv. eccl. Toletane**, f.° 62 v, según cita de Fidel Fita. **La cantiga LXIX del rey don Alfonso el Sabio**, pp. 188-189). La fecha de 1150 para un asedio de Córdoba por Alfonso VII está comprobada por los **Anales Toledanos I (España Sagrada**, XXIII, p. 390).

(102) **Mu'gam al-Buldān**, IV, pp. 30 y 31.

(103) Maqqari, **Analectes,** II, p. 45, citado Pérès, **La poésie andalouse,** p. 138.

(104) Elías Terés, **Linajes árabes en Al-Andalus,** p. 93.

(105) Balaguer, **Notas... sobre mozárabes oscenses,** pp. 405-406; Jacinto Bosch Vilá, **Escrituras oscenses en aljamía hebraico-árabe (Homenaje a Millás-Vallicrosa,** I, pp. 200 y 204). **Hūrat al-Qūmis** estaba en el término hoy llamado de la alguerdía (F. Balaguer, **Notas documentaels sobre los mozárabes oscenses,** p. 10).

(106) Arco, **Huesca en el siglo XII,** pp. 316-317, 359, 360, 387, 444 y 445; Bosch Vilá, **Los documentos árabes... de Huesca,** pp. 10, 11, 28, 33 y 42.

(107) Bofarull, **Repartimientos,** pp. 156, 180, 539, 556 y 627; Menéndez Pidal, **La España del Cid,** p. 339.

(108) Lacarra, **Documentos... del Valle del Ebro,** prim. serie, doc. 52, p. 514.

(109) Bofarull, **Repartimientos,** pp. 64-66, 117-118, 120, 127-130.

(110) Haxazyz o Hazariz, quiere decir, según Mármol, deleite o recreación **(Historia del rebelión...,** I, p. 21).

(111) Seco de Lucena cree que Cauracha **—Qawraŷa—**, no es voz árabe sino transcripción de un topónimo anterior **(De Toponimia granadina,** p. 79).

(112) Alguno de estos barrios serán los citados por Mármol: «En el ámbito de la Alcazaba nueva **(sic)** hay tres barrios, que parece haber sido cercados cada uno de por sí en diferentes tiempos, y todos estaban inclusos debaxo de un muro principal» **(Historia del rebelión...,** I, p. 20). El primero lo supone situado junto a la Alcazaba antigua en la parroquia de San Miguel; el segundo, en la parroquia de San José, y el último, en la de San Juan de los Reyes. Lo de la Alcazaba nueva es error notorio.

(113) En el Archivo del Ayuntamiento de Granada, Fomento, leg. I, se conserva un seguro o salvoconducto expedido en 1495 o 1496 a favor de un vecino del Albaicín, en el barrio del Bistene, que quería ir a traficar a Africa (Garrido Atienza, **Las capitulaciones... de Granada,** p. 155).

(114) Para la enumeración de estos barrios se han tenido sobre todo en cuenta las siguientes publicaciones: Mármol, **Historia del Rebelión...,** I, pp. 21-30; Eguilaz, **Noticias de la Alhambra y de Granada;** Gómez-Moreno, **Guía de Granada,** pp. 179-181, 224, 381, 392, 407, 419, 428, 432, 451, 467, 475, 476, 482 y 496. Respecto al barrio o arrabal de la Antequeruela, las más antiguas menciones que de él conozco son las de Münzer (1494) y Navajero (1526); ambos explican su nombre por haberse poblado con gentes expatriadas de Antequera al ser conquistada esta ciudad en 1410.

(115) Seco de Lucena, **Más nuevas notas,** p. 84. El mismo sentido de pequeña agrupación rural parece que tenía también el nombre **rabaḏ** en la Granada islámica lo que confirma una vez más la imprecisión con que se precisaban los términos arrabal y barrio. En efecto, según el fragmento árabe en el que se refiere la conquista de Granada que «abandonando la ciudad, pasasen a habitar en los arrabales **(al-arbāḏ)** y alquerías **(al-qurā...** Y llenos de oprobio y humillación tuvieron que salir de **Madīna Garnata» (Fragmento de la época,** p. 51).

(116) Gómez-Moreno, **De la Alpujarra,** pp. 24-34; Cajigas, **Topónimos alpujarreños,** pp. 303-306.

# الفصل الخامس

## أحياء المستعربين

كان في المدن الأسبانية المسلمة مراكز سكنية بارزة استقر فيها المستعربون MOZARABES (وهم النصارى القاطنون في المناطق الإسلامية) حتى النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي. كما كان في الأرياف والمناطق الجبلية في الأندلس وفي المحافظة الشرقية، وفي محافظة "أرغون"، عددٌ من المستوطنات مأهولٌ بالنصارى فقط: نفس الشيء حدث، ولكن بشكل عكسي، من القرن الثاني عشر حتى القرن السادس عشر الميلادي مع المسلمين المدجَّنين (المستعجمين) الذين كانوا يقيمون بتلك المناطق ذاتها. وفي حالتي الطائفتين (المستعربين والمدجَّنين) نجد أن أغلبية المتمسكين بالدين غير الرسمي مالوا على مرّ السنين إلى اعتناق الدين السائد في الدولة. وقد جاء وقت فرضت فيه الوحدة الدينية والسياسية في كلتا المملكتين الإسلامية والنصرانية، ومن ثَم أجبر باقي المعتنقين، وقد صاروا أقلّية، إلى اتباع الدين السائد أو الهجرة[1].

ومن الممكن مقارنة أرباض المستعربين في الأندلس بأرباض المسلمين المدجنين (المسلمين الأندلسيين) في أسبانيا النصرانية، وبين هجرة المستعربين إلى المناطق التي انتزعها النصارى وهجرة المسلمين الأسبان إلى أفريقية بعد أن سيطرت النصرانية على شبه الجزيرة الإيبيرية. وفي كلتا الحالتين، ولأسباب بديهية، كان أول من قام بالهجرة طبقة المثقفين وأصحاب المراكز الاجتماعية الراقية، والذين كانوا متمسكين بأرضهم الأصلية ومصممين على الاحتفاظ بدينهم على أرض يتحكم فيها أصحاب الدين الآخر، ومنهم المزارعون المتواضعون المرتبطون ارتباطًا وثيقًا بأراضيهم التي يعتمدون عليها مصدراً لرزقهم.

وكانت حملات عمر بن حفصون، في الفترات الأولى من تمرده في أواخر القرن التاسع، ناجحة بسبب المعونة التي حصل عليها من كثير من المواطنين المستعربين ومن السكان الأصليين في ريف الأندلس. وكان في المناطق الجبلية من الأندلس بعض المزارع التي يسكن فيها المستعربون فقط[٢] حتى النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

وأمام الازدياد المتصاعد لعدد السكان المستعربين في أسبانيا الإسلامية وتهديد أمْنَ الدولة بالخطر يومًا إثر يوم بعد تقدم النصارى إلى الجنوب، وحاول المرابطون وهم البربر الأفارقة الذين كانوا أكثر تدينًا من ملوك الطوائف وأقل منهم تسامحًا، أن يقللوا من عدد المستعربين. ففي عام ١١٠٦م قاموا بطرد المستعربين من مدينة مالقة إلى شمال أفريقية في أغلب الظن[٣]. ولم يتمكن ألفونسو الأول دي أرغون من إنجاز حملته الشهيرة المكونة من أربعة آلاف فارس، التي استغرقت تسعة أشهر إلا بمعونة الذين ظلوا في الأندلس، وخاصة سكان الريف وسكان القرى القليلة الباقية. والتي قام بإنجاز الجزء الأكبر منها في موسم الشتاء من عام ١١٢٥ ـ ١١٢٦م، وقد عبر خلالها المناطق الإسلامية حتى وصل إلى شواطئ مدينتي غرناطة ومالقة. ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على أي مدينة هامة فرجع إلى أرغون مصطحبًا عددًا كبيرًا من المستعربين الأندلسيين الذين ساهموا في تعمير الأراضي الحدودية المنتزعة حديثًا[٤].

ويقول الصيرفي، أحد مسلمي غرناطة من منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، عن المستعربين إنهم كانوا يزرعون الأراضي ويسكنون في ضيعات تحت حكم رؤساء يدينون بدينهم ذوي خبرة عالية، أذكياء بشوشين وعلى علم تام بالجزية التي كانت مفروضة على النصارى. وأحد هؤلاء يعرف باسم "ابن

القلاّس" اشتهر في وسطهم، وكان يمتع بسمعة حسنة لدى حكام مدينة غرناطة في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي.

وعلى أثر الحملة التي قام بها ألفونسو المحارب، قام أيضًا علي بن يوسف الحاكم المرابطي في خريف عام ١١٢٦م بطرد أغلبية المستعربين وأجبرهم على العبور إلى أفريقية بعائلاتهم(٥). وقد استقر العديد منهم في ضواحي مدينتي "سلا" و"مكناس"، بينما كوّن الباقي منهم كتيبة في الجيش المقرب من الحاكم، وقد نجحت الكتيبة نجاحًا بارزاً، وأدت بفعّاليتها إلى تأخير سقوط الأسرة الملكية الحاكمة(٦).

ويذكر الكتاب التاريخي "**أديفونس إمبراطورس**" أن تاشفين بن علي عندما ترك أرض الأندلس وانسحب إلى أفريقية سنة ١١٣٨م، أخذ الكثير من الأسرى النصارى المسمين بالمستعربين الذين كانوا يقطنون منذ زمن طويل أرض أرغون(٧).

وقد كان الموحدون أقل تسامحًا وأكثر تعصبًا من سلفهم المباشرين. فبعد قيام الخليفة عبد المؤمن بالاستيلاء على مراكش (سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧م) أعلن أنه لن يسمح بوجود غير المسلمين على أرضه، وأنه سوف يدمر كل الكنائس والمعابد اليهودية. وعندما قام بفتح مدينة أشبيلية سنة ١١٤٧م رحل مطران المدينة ورجال الدين المقيمون في مدينتي "سيدونيا" و"بله" ورؤساء بعض الأبرشيات الأخرى إلى أرض قشتالة لاجئين إلى مدينتي "طليطلة" و"طلبيرة". ومن المعتقد أنه كان هناك بعض النصارى بغرناطة، وأنّ الأقوياء والأغنياء منهم شاركوا اليهود عام ٥٥٧هـ - ١١٦٢م والتحقوا بقوات ابن هَمُشْك IBN HAMUSKU - نائب ابن مردنيش - الذي اشتهر بلقب: الملك

الذئب ـ بغرض الاستيلاء على تلك المدينة. وعندما استعادها مرة أخرى الموحدون بعد فترة قصيرة، وقام هؤلاء بالقضاء على معظم المستعربين حسبما يذكر ابن الخطيب(٨).

وبعد سنوات قليلة أكد المراكشي تلك الحوادث، وهو يقول عن يعقوب المنصور، الذي انتصر في معركة "الأرك" (سنة ٥٩١هـ ـ ١١٩٥م) بأنه كان يتباهى بأنه قام بتدمير كل الكنائس والمعابد اليهودية في مملكته(٩).

وهذا الموجز السريع يشير إلى الأهمية الخاصة للمجتمعات النصرانية من المستعربين في أسبانيا الإسلامية. فقد كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي، كما كانوا يحتفظون بدينهم وبقوانينهم القوطية غالباً تحت سلطة الأساقفة وأمراء النصارى، كما يقومون بدفع جزية خاصة. وكان في الأوساط الريفية قرى كاملة يقطنها المستعربون أما في المدن، فكانوا يختلطون بباقي السكان أحيانًا، وأحياناً أخرى في مجموعات أو أحياء مستقلة داخل المدينة أو خارجها. وقد سهّل هذا النظامُ الخاص عملية تحصيل الجزية منهم(١٠).

ولاتمدنا الكتب التاريخية بشيء يتعلق بتجمعات للمستعربين في قرطبة. ومن المحتمل إذن أنها كانت مختلطة ببقية منازل السكان. وفي منتصف القرن التاسع الميلادي، عندما قام الأمير محمد الأول بمطاردة النصارى كان في وسط قرطبة أو في ضواحيها القريبة بعض الكنائس منها: الكنيسة الكاتدرائية "سانتا أولاليا" الواقعة في ربض "فلاجيلاس" (المجهول الموقع)، والتي دفنت فيها "كولومبا" COLUMBA(١١)؛ والكنيسة الكاتدرائية "سان ثبريانو" التي احتفظ فيها ببقايا جثتين للقديسين "أدولفو" و"خوان". وكانت الأخيرة قريبة من كنيسة أخرى التجأ إليها سنة ٨٥٣م رهبان دير

"تابانوس" بعد تدميره[١٢]، وكنيستا القديس "كوسـمي" و"داميان" الواقعتان في ربض "كولوبرس"[١٣]. ويُذكر أن سفير "أتون الأول" المبعوث إلى قرطبة في عهـد الخليفة عـبدالرحمن الثـالث سُمح له بالتـردد على معبـد قريب من مسكنه في الأعـياد الدينية الخاصـة بسان مارتين؛ ومن المحـتمل أن يكون ذلك المعبد هو الذي خصص للقديس "مارتين دي تورس" الواقع بربض "ترثيوس" في ريف مدينة قرطبة[١٤].

ويمدنا "**كتـاب الأنواع**" LIBER ANOE المعروف بـ «**تقـويم قرطبـة**»، الذي حرره الأسقف المستعرب الشهير "راسموندو"، أو "ربيع بن زيد" (من إلبيرة) سنة ٩٦١م، بأخبارٍ عـن الكنائس الأخرى الموجودة في القرن العـاشر الميلادي في قرطبة[١٥]. ويذكر هذا الكتـاب اسم الكنيسة الكاتدرائية الواقـعة "بربض الطرازين" على ما يعتقد بالقرب من كنيسة "سان أنديس" التي احتفظت ببقايا جثـمانيْ "سان ثويلو" والقس "سـبرا إن ديو"[١٦]. وفي الجهـة الغربيـة من المدينة على مسافة قريبة من ربض الرقّاقين القريب بدوره من باب العطارين كان يقع معبد هام أو من أهم المعابد خصص للقديس "سان أثيسكلو" ACISCLO؛ وكان المعـبد معـروفاً لدى المسلمين بكنيـسة الحَرْقَى أو كنـيسة الأَسْـرَى تخليداً للذين مـاتوا حَرْقَى من سكان قـرطبة داخل أسـوارها سنة ٧١١م[١٧]. وهناك كنيسـة كاتدرائية أخـرى مكرسة للقديـسَيْنِ ["فاوست يانوريو" و"مـارثيال"] ويقـول عنها كـتاب التقويم إنها كـانت واقعـة في ربض البرج الـواقع شرق المدينة[١٨]. وتحولت إلى كنـيسة القـديس بطرس بعد انتـزاع المدينة كمـا يقول "أمبروسيودي مورالس"[١٩].

وإن أردنا أن نخرج من المعلومات السابقة القليلة وغير الدقيقة باستنتاجات،

فإن الاستنتاج الأول يبين لنا أن المدينة الإسلامية كانت خالية من المعابد النصرانية، ولكن تلك المعابد وجدت في المراكز السكنية القريبة منها. ومما يؤكد هذا القول ما يقوله الفقهاء المسلمون في أوائل القرن العاشر الميلادي عن الكنائس النصرانية، فقد سيطرت عليهم فكرة السماح للنصارى باستعمال كنائسهم في داخل المدينة بشرط عدم التصريح ببناء كنائس أخرى جديدة، باستثناء المناطق الريفية التي كانت معمورة بالنصارى المجتمعين في أحياء أو أرباض مستقلة بعيداً عن التجمعات المسلمة[٢٠].

ويذكر أن المسجد الجامع في مدينة طليطلة كان في القرن التاسع الميلادي بجوار إحدى الكنائس، وعندما سقطت منارة المسجد طلب سكان طليطلة من الأمير محمد الأول تصريحاً خاصاً لإعادة بناء المنارة، وقد سمح لهم الأمير بذلك، وكانت تكاليف البناء من الأموال الواردة من الضرائب، كما طلبوا في الوقت نفسه أن تضاف إلى المسجد الكنيسة المجاورة له[٢١]. وكان على رأس العدد الكبير من المستعربين بمدينة طليطلة في القرن الحادي عشر الميلادي مطران واحد، وكان هؤلاء المستعربون مختلطين بالمسلمين ويستخدمون الرعيات PAR-ROQUIAS الست الموجودة داخل المدينة. واستمرت العبادة الكاثوليكية فيها دون انقطاع حتى انتزعها ألفونسو السادس. وكانت أسماء الرعيات الست كالآتي: "سان لوكاس"، و"سان سيباستيان"، و "سان توركاس"، (سان توركواتو)، و "سانتا أولاليا"، و"سان ماركوس"، و"سانتا خوستا، و"روفينا"[٢٢]، وكانت موزعة في أماكن مختلفة داخل أسوار المدينة، وكانت الأخيرة منها في وسطها. وبعد سيطرة ألفونسو السادس على المدينة سنة ١٠٨٥م، استمر سكان طليطلة المستعربون في استقلالهم محتفظين بطقوسهم القوطية VISIGOTICO

على الرغم من سيادة الطقوس الرومانية التي انتشرت في باقي شبه الجزيرة الإيبيرية. بل ظل القساوسة يستعملون اللغة والكتابة العربية في الوثائق الرسمية والسجلات، بالإضافة إلى استخدام القانون العربي الذي كان ساري المفعول لديهم حتى بعد بداية القرن الثالث عشر الميلادي بفترة طويلة(٢٣).

وفي مدينة "وشقة" كان المسلمون في القرن الحادي عشر الميلادي يسكنون أعلى مكان من المدينة، على أرض كانت قريبة من مركز شبه الجزيرة الإيبيرية القديمة، وكان ذلك الموقع محصنًا بسورٍ حجري. وفي عصر لاحق يصعب تحديده بُني سور آخر من الأحجار حول السور الأصلي(٢٤)؛ واستقر المستعربون بين السورين بجوار كنيسة سان بيدرو العجوز التي ورد ذكرها في وثيقة مؤرخة في ٢٩ أبريل سنة ١٠٩٧م، أي قبل مرور سنة على تاريخ انتزاع المدينة (في ٢٦ نوفمبر ١٠٩٦م)، وتفيد الوثيقة بأن الكنيسة تسمى "القديمة"، واستمرت بهذه التسمية. ويقول القس "هوسكا"، دون تحديد المصدر، إنه اطلع على مستندات ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي تذكر اسم ربض المستعربين في مدينة "وشقة" والقاطنين في رعية سان بيدرو، ووثيقةٌ أخرى مؤرخة في ١١٧٨م تشير إلى الربض المذكور(٢٥). وفي الوقت الحالي يمكن استكشاف السور المزدوج في موقعه في التخطيط العام للمدينة. ومازالت في الموقع الذي كان حي المستعربين بقايا من التنظيم الخاص بالمدن الأسبانية المسلمة ذات الشوارع الضيقة الملتوية التي ليس لبعضها مخرج. كما كان جزء منها مغطى بالطوابق العليا فوقها، فكانت المنازل متصلة ببعضها من جانبي الشارع في طوابقها العليا(٢٦).

ومن المحتمل أنه كان للمستعربين في مدينة "وشقة" إضافة إلى كنيسة سان

بيدرو، وكنيسة ســان ثيبران أمداً غير معروف، وكـانت تلك الكنيسة تقع على مساحة مسـورة بسور ثالث، كان معموراً في عهـد المسلمين، كان مصنوعاً من الطين[٢٧]. ويذكر أن السور المشار إليه كان يقع بالقرب من الحي الجديد. وقبل الاستيلاء على مدينـة "وشقة"، أهدى سانشورا ميريث معـبد "سان ثيبريان" لدير سان خوان دي لابنيـا. وفي سنة ١٠٩٧م أكد بيدرو الأول ذلك الإهداء، ولكنه اشتـرط على الرهبان أن يقـوموا ببناء كنيســة باسم القديســة مريم. وفي الوثيقة يؤكد الأمـير سانشورا ميريث أن المسلمين انتـزعوا ذلك المعبد من أيدي المسيحيين. وهو تكرر على لسان البـابا باسكوال الثاني عندما أيد الوفاق السائد بين أسقف "وشقة" ودير سان خوان دي لابنيا سنة ١١٠٥م[٢٨].

وفي سنة ٩٨٦م كان موثيون، أحد المستعربين من مدينة برشلونة، قد سجن بمدينة قرطبة وفـي طريق عودته من السجن توفي في مدينة ســرقسطة وجاء في وصيـته أنه ترك نذوراً في كنيـسة القـديسة مريم الواقـعة بســرقسطة، وكنيـسة سانتاس ماساس الواقعة خارج الأسوار[٢٩]. وكانت كنيسة سانتاس ماساس تقع على ضفة نهـر هوربا. أما كنيسة سانتا مـاريا فكانـــت تــعد معبـدًا مســيحيًا رئيسًا سمي فيما بعد بـ "ديل بيلار" DEL PILAR.

وقد قـام باتيرنو PATERNO أسـقف مدينة ســرقسطة بإدمـاج كنيســة لاس سانتـاس ماســاس مع كاتدرائية خــاكا سنة ١٠٦٣م، وأكـد ذلك الإدماج سنة ١٠٨٦م سانشورا ميريث وابنه بيدرو وألفونسو الأول سنة ١١١٧م[٣٠].

وحسب قول لاكارّا LACARRA أن هاتين الكنيســتين لم تكونا المستـعربتين الوحيدتين في مدينة سرقـسطة في الأيام الأخيرة من سيادة المسلمين، ذلك لأنه وجد عند انتـزاع المدينة بعض الكنائس الأخرى مـفتوحـة للعبادة، ويبـدو أنها

كانت ترجع إلى تاريخ قديم[٣١]. أما كنيسة سانتياجو أو لابيليثريا PELICERIA فقد أدمجها ألفونسو الأول سنة ١١٢١م مع الدير الواقع في سلسلة جبال البريني المعروف بدير سان بيدرو دي سيريسا[٣٢]. ووهب الملك السابق ذكره كنيسة سان خيل إلى أسقف "خاكا" بمدنية "وشقة" لقاءَ خدماته التي قدمها أثناء غزو المدينة؛ وهو ما أكده القس دون بيدرو سنة ١١٢١م[٣٣]. ومن الكنائس الأخرى الموجودة كنيسة سانتا ماريا مجدالينا المذكورة في إحدى وثائق سنة ١١٢٦م[٣٤]. ومن المرجح أن تلك المعابد كانت في أصلها مساجد. وتعدّ كنيسة سان خوان العجوز المذكورة سنة ١١٥٥م مثالاً آخر يبين ذلك بصورة أوضح[٣٥].

ويفترض الكاتب لاكارا أن الموقع الخاص بحي المستعربين بمدينة سرقسطة كان داخل المدينة في زاويتها الشمالية الغربية، وكان يحده شمالاً سور المدينة. ويعتمد في هذا الافتراض على وجود الكنيسة الرئيسة سانتا ماريا الواقعة في هذا المكان ـ والمسماة "ديل بيلار" فيما بعد ـ ومكانها على مسافة غير بعيدة من قصر السدة أو قصر حكم المسلمين.

ومن المعتقد أن النصارى بمدينة سرقسطة اختلطوا بالمسلمين، كما حدث بمدينة طليطلة. ولابد أن عدد المستعربين بمدينة سرقسطة كان كبيراً وهاماً. وفي إحدى الفترات عندما بلغ ازدهار المدينة ذروته في عهد أحمد بن سليمان المقتدر [٤٤١ ـ ٤٧٤هـ / ١٠٤٩-١٠٨١م]، الذي قام ببناء الجعفرية، كان أبو عُمر بن قوندي سالبو GUNDISALVO، وهو أحد المستعربين، كبير وزرائه، وكان شاعراً جيداً وحاكمًا في الوقت نفسه[٣٦].

وكانت مدينة تطيلة، الواقعة على ضفتي نهر "الإبرو"، نسخة مصغرة من

مدينة طليطلة، كما كانت في الوقت نفسه البوتقة التي انصهر فيها سكان الأديان الثلاثة. ويعتقد أنه كان فيها قبل انتزاع ألفونسو الأول سنة ١١١٩م لها عدد كبير من السكان المستعربين استمر ذكراهم خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في عيد تسمية المدينة، وفي حي من أحياء المستعربين، اسمه موضح في مستندين مؤرخين في القرن الثالث عشر الميلادي، يسمحان بتحديد موقع هذا الحي في رعية سانتا ماريا[٣٧]. فهل كانت هذه كنيسة من كنائس المستعربين؟ أم لا؟ «ونرد بالإيجاب... وعلى الرغم من أن المستندات لاتؤكد هذه الإجابة بصورة واضحة، إلا أن الدراسة المقارنة للمستندات السابقة والتفاصيل التي تقدمها تؤيد هذا الافتراض بصفة شبه مؤكدة»[٣٨]. ومن المشكوك فيه أيضًا انتماء كنيسة "سانتا ماريا مجدالينا دي تطيلة" إلى أصل مستعرب، ذلك لأن ألفونسو الأول وهب هذه الرعية إلى أسقف مدينة بانبلونة بعد شهور قليلة من استيلائه على المدينة في شهر مارس سنة ١١١٩م على وجه التقريب، وذلك عندما كان يحاصر مدينة طرسونة TARAZONA[٣٩].

وهناك تأكيد على وجود حي للمستعربين بمدينة "قلعة أيوب"، الذي وهبه الحاكم رامون برنجر الرابع (١١٣٧ ـ ١١٦٢م) إلى دير "أنيا"، ولكننا لا ندري هل كان تأسيسه قبل انتزاع المدينة (١١٢٠م) أم كان بمساعدة المستعربين الذي جمعهم ألفونسو الأول بعد حملته عبر بلاد الأندلس سنة ١١٢٥-١١٢٦م. وكان هذا الحي يقع عند قاعدة جبل مشهور باسم "ديل ريلوخ تونتو" بجوار دير سان بنيثو على مدخل باب مدينة سرقسطة[٤٠].

وكان المستعربون في مدينة شقندة SIGUENZA يتجمعون، على مايعتقد، حول كنيسة في داخل المدينة بالقرب من نهر هينارس، كانت تعرف قبل

منتصف القرن الثاني عشر بـ "سانتا ماريا دي مدينة "، و"سانتا ماريا القديمة جداً" و"سانتا ماريا القديمة" فيما بعد.

وكانت الصورة المميزة لها هي إحدى المعجزات التي كتب عنها الملك الحكيم في شعره حيث قال:

في مدينة شقندة

التي بها أسقفية ثرية

يوجد مكان منعزل

يدعى سانتا ماريا

القديمة...[٤١]

وكان بالقرب من هذا المعبد برج من الأحجار والملاط، والذي على الرغم من احتمال كونه البرج الذي أُمر بتدميره سنة ١٣٢٢م، فهو مازال قائمًا، واستعمل برجَ أجراس لكنيسة "سانتا ماريا دي لوس هورتوس"، التي بنيت في القرن السادس عشر الميلادي على أرض سانتا ماريا القديمة[٤٢].

ويذكر كاتب عربي كنيسة "البرانية" بالقرب من مدينة "دروقة" DAROCA ويذكر أنها بناء رائع بها ٣٦٠ بابًا[٤٣]. وفي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وجدت عدة كنائس مفتوحة للعبادة بمدينتي لاردة LERIDA وطرطوشة TOR-TOSA[٤٤]؛ ولا تعرف مواقعها، أو أنها كانت داخل أحياء المستعربين.

وكان المستعربون في مدينة بلنسية مقيمين بأراضيهم، وتؤكد تلك الحقيقةَ، فيما يبدو، الكتبُ التاريخية لـ"بيوتر" BEUTER التي تذكر اللقب الخاص المستعمل عند المسلمين لتسمية النصارى المقيمين في وسطهم وهو الربضيين[٤٥].

كمـا وجد بتلك المدينة ربضان للمـستعـربين في أواخر القرن الحادي عـشر الميلادي، وذلك عندما انـتزعها السِّيـد، ربض الرصافة RUSAFA الواقع شمال شرق المدينة بعيداً عنها قليلاً، وقد كانت له كنيـسة مخصصة لسان باليريو على ما يعتـقد، وربض الرايوسة RAYOSA الواقع جنوبًا خارج المدينة، وبه كنـيسة لـ"سان بيثنت الشهيد"(٤٦). ومن الأماكن التي تغنَّى بها الشعراء المسلمون في مدينة بلنسـية الإسلامية في مـراثيهم "ربضُ الكنيسة"، بالإضـافة إلى الربض السابق، وقد ذكـروا جماله الباهر وخضـرته التي زالت، وذلك على أثر انتزاع خـايمي الأول للمدينة عـام ١٢٣٨م. وكان فـي ذلك الربض صغـار العجـول والغزلان؛ ومن المعتقد أنه كان الربض المعروف بربض "الرايوسة"(٤٧).

وهناك ربض آخر أطلق عليـه اسم الكنيسة وهو ما يفتـرض أنه كان مأهولاً بالمستعربين، في مدينة الجزيرة ALCIRA، على حافة نهر الخوكار المقابلة للحافة التي أقيمت عليهـا المدينة، وكان هذا الربض على حدود مقبرة إسـلامية. وقد ذكـر الشاعـر ابن خفـاجة (المتـوفى سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م) في أحـد مؤلفـاته الأوقات الممتعة التي قضاها أيام شبابه في ذلك المكان الرائع، والتي لن يستطيع الشاعر أن يعيـشها مرة أخرى(٤٨). وكان في ربض الكنيسة بساتين ذات طابع ريفي، وكـان يقع على الطريق الـقديم المؤدي إلى مـديـنة شـاطبـة JATIVA. وأطلق عليه في كتاب توزيع المدينة "قرية الكانيثيا"، وقد استمرت هذه التسمية "ربض الكانينثيا" حـتى القرن السابع عشر الميلادي، وذلك عندمـا حول اسمه إلى سان أجوستين(٤٩).

ويعتـقد أن ربض «الرشـاقة» AL-RASAGA في مديـنة مرسيـة هو الربض الخاص بالمستعـربين، ويذكر ألفونسو العاشر في إحدى مـدائحه أن في الرشاقة

كنيسة قديمة مـخصصة لسانتا ماريا، وتدعـو الشعب المؤمن إلى صورة العذراء مريـم التـي كانـت تمدّ البحّـارة من جنـوة وبيسـا وصقلية بالحماية وهم اللذين اختلفـوا إليها لأداء فـريضة الصلاة. ويذكـر أن المسلمين لم يُلحقـوا أي ضرر بذلك المعبد. وبعد أن ثار مسلمو مناطق الشرق والأندلس، بعد أن انتزع خايمي الأول مدينة مرسية نهائيًا سنة ١٢٦٦م، واسـتولى على المسجد الجامع لتحويله إلى كاتدرائية، ثم تقدم المسلمون بمدينة مرسـية بطلب السماح لهم بهدم كنيسة الأرجاكـا لأنهم بلا شك انتقلوا للعـيش في ذلك الربض الواقع شمـال غرب مرسية، وقد وافق الملك الأرغوني في يونيـو ١٢٦٦م لهم بالعيش فيه منفصلين عن النصارى، وأبلغهم أن بإمكانهم أن يقوموا ببناء السور المحيط بالربض[٥٠].

وبعد أن حصلوا على التصـريح لم يتمكنوا من هدم المعبد. وبتكرار الطلب لدى ملك قـشتـالة، الذي قد وصل إلى مـرسيـة في وقت لاحق، الذي وافق كرهًا، ذلك لأن المعبد قد طلي حديثًـا. ومن ثم توجهت جماعة المسلمين إلـى أميـر المسلمـين لكـي يصـدر الأمر بهدم المعبد[٥١]. ولكنه قال لهم:

... لاتفعلوا هذا؛

لأن من لايحترم مريم

تصيبه بسوء[٥٢].

وكان ابن خاتمة (مـتوفى سنة ٧٠٣هـ ــ ١٣٦٩م تقريبًا) طبيبًـا وشاعرًا من شعراء ألمرية المشهـورين، وقد ذكر اسم "جبل الكُنَيْسة" المعـروف أحيانًا بجبل الحجر، وهو الطرف النهائي لسلسلة من الجبال الوعرة الممتدة إلى داخل البحر، وكانت تلك السلسلـة تمتد على طول حدود مـدينة ألمرية حتى المنطقة الغـربية. ومن المحتمل أن هذا الاسم يشير إلى وجود كنيـسة قديمة في القرن الرابع عشر

الميلادي كانت ربما تابعة لأحد الأديرة، أو مصلى واقعاً في الخلاء كما يدل عليه موقعها[٥٣]. ويذكر أبو عبد الله بن الحداد، شاعر من شعراء بلاط مدينة ألمرية، أسماء كنائس في وادي آش، وكان ذلك الشاعر عاشقًا لفتاة نصرانية من فتيات تلك المدينة، ويروي في شعره أنه زار الكنائس حبًا لها وليس مودة للصلبان[٥٤].

ولانعلم أكان نصارى مدينة غرناطة مختلطين بمجتمع المسلمين أم لا. وكانت توجد كنيسة قديمة مشهورة وجميلة بجوار المدينة أمام باب إلبيرة، وقد هدمها المسلمون تماماً حتى أساسها تنفيذًا لفتوى صادرة من الفقهاء الذين كانوا يطبقون أوامر يوسف بن تاشفين سنة (٤٩٢هـ/ ٢٣ مايو ١٠٩٩م). وهذا فيما يبدو يدل على أن النصارى كانوا يسكنون على مسافة غير بعيدة عنها خارج الأسوار. وقد أضيفت أرضها فيما بعد إلى المقبرة الكبيرة الواقعة عند مخرج الباب السابق ذكره[٥٥].

ويقول ابن عبدون في رسالته إنه كان في مدينة أشبيلية إبان عهد المرابطين نصارى ويهود، بعضهم أطباء، وكنائس مفتوحة للعبادة يحتفل فيها بالأعياد الدينية، وكان يرأس تلك الأعياد قسس، وصفهم الكاتب بأنهم أصحاب رذائل عديدة، وكان يتمنى أن يجبروا على الزواج. ويبدو أن العدد الأكبر من المجتمع النصراني كان يتركز على الضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير وربما في مدينة "طريانة" TRIANA[٥٦].

وقد ذكر الحميري أن في ربض إستجة ECIJA بجوار المسجد الجامع كنيسة ـ ومن المحتمل أنها استمرت حتى عهد المرابطين ـ ولكن ليس لدينا علم بتاريخ وجودها، وهذا يدل على الاختلاط السائد بين المسلمين والنصارى[٥٧].

ويؤكد صاحب "**الروض المعطار**" أن العديد من النصارى في جزيرة شلطيش أقاموا عند ملتقى نهري تينتو TINTO وأوديل ODIEL(٥٨). وإذا صحت أقوال بيرومارين، أحد رهبان دير سيلوس SILOS في كتابه عن **المعجزات في القرن الثالث عشر الميلادي**، فإن بعض النصارى كانوا يسكنون بجوار مدينة مورون MORON(٥٩).

ويصف الإدريسي أشهر معابد النصرانية في أسبانيا المسلمة، والذي استمر حتى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وهو كنيسة الغُراب، ويؤكد أنه لم يطرأ أي تعديل عليها تحت سيادة الإسلام، وتقع تلك الكنيسة على قمة تل "سان بيثنتي" الممتد في اتجاه البحر. وكان في خدمة الكنيسة عدد من القسس والرهبان، لأنها كانت تمتلك ثروة كبيرة، ولها إيرادات متنامية، معظمها يأتي من الأراضي التي أهديت إليها في منطقة الغرب. وقد قصد الكثير من الحجاج النصارى تلك الكنيسة، حيث كانت العادة التقليدية، المتصلة منذ قديم الزمان، أن يُستضاف كل من أقبل إليها لتناول الغذاء. وكان قبالة الكنيسة مسجدٌ يتجه إليه المسلمون أيضاً وكان فرضًا على رهبان الدير أن يستضيفوا المسلمين ويقدموا لهم حقوق "الضيافة" ADIAFA(٦٠).

(1) Para la supervivencia de comunidades cristianas e iglesias en el norte de Africa —en 1503 había cinco obispos en esas regiones— véase **La Berbèrie musulmane et l'Orient au moyen âge,** por Georges Marçais, pp. 173-175.

(2) Por ejemplo, las de Riana y Jotrón, en la Ajarquía malagueña, según refiere 'Abd Allāh en sus «Memorias» (E. Lévi-Provençal, **Les «Mémoires» de 'Abd Allāh, dernier roi zīride de Grenade,** p. 63). A orillas del Huete (Wabda), en la región de Cuenca, dice al-Himyarī que había una aldea llamada Bawtīŷ, habitada por cristianos (E. Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** p. 194 del texto y 236 de la trad.).

(3) **Anales Toledanos I en Esp. Sag.,** XXIII, p. 386: «Fué la hueste de Málaga, quando exitieron los mozárabes de Málaga, Era MCXLIV».

(4) Carta de donación y fueros concedida en junio de 1126, en Alfaro, por Alfonso el Batallador a **uos totos christianos mozarabis quos ego traxi cum Dei auxilio de potestate sarracenorum et adduxi in terras christianorum... et quia uos pro Christi nomine et meo amore laxastis uestras casas et uestras hereditates et uenistis mecum populare ad meas terras... (Docs. para el est. de la reconq. y repob. del Valle del Ebro** (Primera serie), por José María Lacarra, apud. **Est. de Edad Media de la Corona de Aragón,** vol. II, doc. núm. 51, pp. 513-514.

(5) Probablemente a este éxodo forzoso aludirá la noticia de los **Anales Toledanos I,** aunque lo sitúa erradamente en el año 1124: «Pasaron los Mozárabes a Marruecos ambidos, Era MCLXII» **(Esp. Sag.,** XXIII, p. 388).

(6) **Al-Hulal al-Mawšiyya,** trad. de Ambrosio Huici, pp. 108 y 115-116; Orderico Vital, **en Esp. Sag.** X, pp. 583-584; R. Dozy, **Recherches,** pp. 350-361. El relato de Dozy procede de Ibn al-Jaṭīb **(Iḥāta,** I, pp. 41-43) y del autor de **Al-Hulal al-Mawšiyya;** los que, a su vez, lo tomaron de una perdida historia de los Almorávides, escrita hacia mediados del siglo XII por el granadino Ibn al-Sayrafī. Sin duda a causa de la intolerancia almohade, algunos restos de esos mozárabes expatriados volvieron hacia 1150 a la Península, estableciéndose en Toledo, según refiere la **Crónica** latina de Alfonso VII: **Quo tempore, multa millia militum et peditum Christianorum cum suo episcopo et cum magna parte clericorum, qui fuerant de domo Regis Haly et filii ejus Texufini, transierunt mare et venerunt Toletum (Esp. Sag.,** XXI, p. 399; **Chronica Adefonsi Imperatoris,** 205, p. 162).

(7) **Chronica Adefonsi Imperatoris,** 140, pp. 109-110.

(8) Dozy, **Recherches,** I, pp. 361 y 381, apénd. núm. XXVIII, pp. LXX-LXXIX (texto de Ibn al-Jaṭīb).

(9) **Histoire des Almohades** d'Abd el-Wâh'id Merrâkechi, trad. y anot. por E. Fagnan p. 265, Al-Marrākušī escribía en 621/1224.

(10) Lévi-Provençal, **Hist de l'Esp. musulmane,** III, p. 218. En esta obra reciente se publica un resumen sobre las comunidades mozárabes (pp. 214-226), hecho con la competencia indiscutible del autor.

(11) **Eulogii Memorialis Sanctorum,** lib. III, cap. X.

(12) **Eulogii Memorialis Sanctorum, Praefatio,** 2; lib. II, caps. II, 1; XII y XV, p. 472; y lib. III, caps. VII, 1, 43, 9; **Esp. Sag.,** XI, pp. 283-286 y 522 (García Villada, **Hist. Ecles. Esp.,** III, pp. 72, 76, 100, 101, 105, 116 y 138); J. Simonet, **Santoral Hispano-Mozárabe,** pp. 28-29 y 33.

(13) **Eulogii Liber Apologeticus Martyrum,** núms. 21-35, pp. 543-561, según cita, lo mismo que la anterior, de Zacarías García Villada, **Historia Eclesiástca de España,** III, pp. 105 y 114.

(14) (A. P. y M.), **Embajada del emperador de Alemania Otón I al califa de Córdoba Abderrahmán III,** pp. 40-41. Generalmente se alojaba a los enviados extranjeros en palacios o almunias de los alrededores de la ciudad.

(15) Sobre esta obra y sus diversas ediciones, véase Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, pp. 222 y 239-240, n. 2. Citamos a continuación por la edición española de F. Javier Simonet, **Santoral hispano-mozárabe.**

(16) **Esp. Sag.,** X, p. 228; **Eulogii Memor. Sanct.,** lib. II, cap. VI, 1; cap. X, 2 (García Villada, **Hist. Ecles. España,** III, pp. 74-75); **Santoral hispano-mozárabe,** pp. 23, 25, 26 y 31. «Todos los escritores locales están contestes en que el vico tiraceorum de Recemundo, es el barrio central de la Ajerquía, que hoy es el de San Andrés, porque esta iglesia era la basílica de San Zoilo, de tan brillante historia muzárabe», Castejón **Córdoba Califal,** p. 293.

(17) **Eulogii Memorialis Sanctorum,** lib. II, cap. I, 1; lib. III, cap. VIII, 1, y capítulo XVI; **Samsonis Apologeticus, Esp. Sag.,** XI, **Praefatio,** lib. II, 87 (García Villada, **Hist. Ecles. España,** III, p. 73); Maqqarī, adap. Gayangos, I, p. 279, y edic. Leide, I, p. 166; **Bayān,** II, p. 12. **Ecclesia carceratorum... eclesia facientium pergamena in Corduba (Santoral hispano-mozárabe,** p. 32), parece referirse a dos templos, en uno estaba enterrado San Acisclo y en el otro se celebraba su aniversario.

(18) **Eulogii Memorialis Sanctorum,** lib. II, capts. IX y XII (García Villada, **Hist. Ecles. España,** III, p. 72); Maqqarī, I, p. 304; **Santoral hispano-mozárabe,** p. 30.

(19) Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, pp. 222 y 224-225, y **L'Espagne musulmane au Xe siècle,** pp. 207-208, n. (3); **Hist. de los mozárabes,** por Simonet, pp. 612 y ss. y 776. Sobre las iglesias mozárabes cordobesas ha escrito Rafael Castejón, **Córdoba Califal,** pp. 329-332.

(20) Ibn Sahl, **Ahkām kubrà,** f.º 213 v del mans. de Rabat, según cita de Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, p. 224. Esa actitud explica que bajo dominio islámico hayan podido levantarse en comarcas rurales, pobladas probablemente por mozárabes, las iglesias subsistentes de Melque (Toledo) y Casillas de Berlanga (Soria). Conviene recordar que en el Museo Arqueológico Nacional de Madrid se conserva una ventana gemela, obra al parecer mozárabe, procedente de la iglesia de San Ginés de Toledo.

(21) La interesante noticia procede de la parte recientemente descubierta e inédita del **Muqtabis** de Ibn Hayyān, f.º 269 v (Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, p. 224, n. (4). **In civitate Corduba... in vico turris (Santoral hispano-mozárabe,** p. 30). El **al-Rawḏ al-Mi'ṭār** se refiere como existente en Toledo a una iglesia, **Kanīsat al-malik,** la iglesia del Rey, construida en el reinado del César Diocleciano (Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** p. 191 del texto y 232 de la trad.).

(22) El arzobispo don Rodrigo Jiménez de Rada cuenta nueve iglesias toledanas con culto durante la dominación islámica: las seis citadas y Omnium Sanctorum, Santa Leocadia, Santa María de Alficén y San Cosme y San Damián **(De rebus Hspaniae,** lib. IV, cap. 3).

(23) **Crónica del rey don Pedro,** por don Pedro López de Ayala, capítulos XVII y XVIII, pp. 419-422. Esta obra alude a las seis parroquias mozárabes mencionadas.

(24) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** pp. 194-195 del texto y 236 de la trad.; Ricardo del Arco, **Huesca en el siglo XII,** pp. 353, 378, 382, 387 y 429-430.

(25) P. Ramón de Huesca, **Teatro histórico de las iglesias del reyno de Aragón,** VII, p. 15, según cita de Federico Balaguer: **Notas documentales sobre los mozárabes oscenses,** vol. II, pp. 399-403.

(26) José María Lacarra, **El desarrollo urbano de las ciudades de Navarra y Aragón en la Edad Media,** pp. 10-11.

(27) Menciona el muro de tierra Pedro I en un privilegio concedido al monasterio de San Juan de la Peña en octubre de 1097 y Alfonso I en el de fundación del templo de San Miguel de Huesca en 1110 (R. del Arco, **La aljama judaica de Huesca,** p. 275).

(28) J. Briz Martínez, **Historia de la fundación y antigüedades de San Juan de la Peña,** pp. 638-639; Cart. de San Pedro el Viejo, folios 106 v y 147, citados por Balaguer, **Notas... sobre los mozárabes oscenses,** p. 401.

(29) A. Campillo, **Disquisitio methodi consignandi annos Aerae christiane,** apéndice VIII, y P. Fidel Fita, **El templo del Pilar y San Braulio de Zaragoza,** pp. 439-443), citas ambas de Isidro de las Cajigas, **Los mozárabes,** II, p. 476.

(30) **Huesca, Teatro histórico... de Aragón,** pp. 185 y ss., y Lacarra, **Docs. para el est de la reconq.** (Primera serie), apud. **Est. de Edad Media de la Corona de Aragón,** II doc. núm. 1, p. 471.

(31) **La restauración eclesiástica en las tierras conquistadas por Alfonso el Batallador (1118-1134),** por José María Lacarra, pp. 7-8.

(32) El documento dice: **ecclesiam in honore Sancti Iacobi in Caesaraugusta ciuitate constructam** (José María Lacarra, **Documentos para el estudio de la reconquista y repoblación del Valle del Ebro** (Segunda serie), vol. III, doc. núm. 115, p. 519).

(33) **Huesca, Teatro histórico... de Aragón,** VI, p. 452.

(34) Lacarra, **Docs. para el est. de la reconq.** (Primera serie), apud. **Est. de Edad Media de la Corona de Aragón,** II, núm. 50, pp. 512-513.

(35) **Historia de la economía política en Aragón,** por don Ignacio de Asso, p. 201.

(36) Maqqarī, **Analectes,** I, p. 350; II, p. 276, según cita de Cajigas, **Los mozárabes,** II, p. 452.

(37) Se menciona el barrio de los mozárabes de Tudela en documentos de 1184, 1247, 1251 y 1281 (Francisco Fuentes, **Catálogo de los Archivos Eclesiásticos de Tudela,** docs. núms. 113, 278, 291, 388 y 1.097, pp. 33, 75, 79, 103 y 285. Los núms. 291 y 388 aluden a casas en la parroquia de Santa María y barrio de los Mozárabes). Don Pascual Galindo, en el prólogo de ese **Catálogo,** identifica el barrio de los mozárabes con el de Santa María la Mayor. Lacarra —**El desarrollo urbano de las ciudades de Navarra y Aragón,** pp. 8-9 y láminas VIII y IX— lo localiza en la parte sudoeste del recinto murado medieval, junto a la calle de San Julián. En trabajo posterior y fundándose en las breves referencias documentales del citado Catálogo, dice que al parecer «estaba en el centro de la población, junto a Santa María la Mayor» (**La restauración eclesiástica,** p. 10). Más afirmativo, ha escrito en fecha reciente que «en Tudela subsistía la iglesia de Santa María, sita en el barrio mozárabe, sobre la que se fundó la Colegiata actual» (José María Lacarra, **La reconquista y repoblación del valle del Ebro,** apud **La reconquista española y la repoblación del país,** Zaragoza, 1951, p. 72). La consagración de la iglesia mayor de Tudela parece tuvo lugar el 14 de abril de 1121, según deduce Lacarra de la data de un documento del «Cantoral pequeño» (f.º 46 v) de la Seo de Zaragoza (**La fecha de la reconquista de Tudela,** apud **Príncipe de Viana,** a. VII, Pamplona, 1946, p. 51). En 1125 se labraba un pórtico nuevo bajo la puerta mayor de Santa María de Tudela (**Esp. Sag.,** L, p. 340; José María Lacarra, **Docs. para el estudio de la reconq. y repobl. del Valle del Ebro** (Tercera serie), doc. núm. 316, p. 540). Diez años después asignábase parte de unos diezmos para restaurar el templo, consagrado en fecha anterior: **ad restaurandum Ecclesiae ipsius aedificium** (**Esp. Sag.,** XLIX, p. 334). García Ramírez el Restaurador, hacia 1134-1135, donó a Santa María de Pamplona la iglesia de Santa María de Tudela, con todos los bienes que tuvo en tiempo de moros y cristianos: **cum sua pertinentia quam habuit uel habere debuit in tempore sarracenorum atque christianorum** (Lacarra, **Docs. para el estudio de la reconq. y repobl. del Valle del Ebro** (Segunda serie), III, doc. núm. 184, p.577).

(38) Don Pascual Galindo, en el prólogo a la citada obra de Fuentes, **Cat. de los Arch. Ecles. de Tudela.** El archivo de Santa María conserva documentos bilingües, en latín y árabe, fechados en los años 1158, 1167, 1174 (cuatro), 1177, 1219 y 1222. Como en Toledo, había mozárabes entre el clero de Tudela (Fuentes, **Cat. de los Arch. Ecles. de Tudela,** doc. núms. 27, 46, 73, 74, 77, 79, 92, 195 y 207).

(39) Lacarra, **Docs. para el estudio de la reconq. y repobl. del valle del Ebro** (Tercera serie), apud. (**Est. de Edad Media de la Corona de Aragón** (Zaragoza, 1952, doc. núm. 303, p. 530). Según el **Diccionario Geográfico-Histórico de España,** por la Real Academia de la Historia, sec. I, tomo II (Madrid, 1802), p. 392, en las inmediaciones de la iglesia de Santa María Magdalena «estaba el barrio de los mozárabes, que hoy es parte del que llaman San Julián».

(40) Raimundo, conde de Barcelona y príncipe de Aragón, concedió al monasterio de la Oña el de San Benito de Calatayud, **quod est situm in illo barrio de Muzarabis ad illam portam de Caesaraugusta, una cum praedilecto barrio de Muzarabis, populato et non populato** (**Esp. Sag.,** XLIX, apénd. XXII, p. 363). Aún se decía la de San Benito parroquia de mozárabes en el siglo XVI (**Historia de la siempre augusta y fidelísima ciudad de Calatayud,** por don Vicente de la Fuente, II, p. 236). Mozárabes de Calatayud, con otros de Zaragoza y de varios lugares de Aragón, llevó Alfonso VII en 1156 para poblar Zorita de los Canes.

(41) **Cantigas de Santa María de don Alfonso el Sabio,** vol. I, cant. CCCLXXXIII, pp. 535-537.

(42) Manuel Pérez Villamil, **La catedral de Sigüenza,** pp. 40-41 y doc. III, pp. 448-450; **Historia de la diócesis de Sigüenza y de sus obispos,** por Fray Toribio Minguella y Arnedo, vol. I, p. 73 y doc. núm. XXIII, pp. 375-377).

(43) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** p. 76 del texto y 96 de la trad. En Gallur, según Alfonso I, **sarraceni male tractabant ecclesias Christi sub potestate sua.** Consta la existencia de mozárabes en Calahorra en 1088, 1092 y 1126, con nombres mixtos. En 1077 Julián, obispo de Zaragoza, daba al monasterio de Alaón la iglesia de Santa María de Sibrana: Ciurana no fue conquistada hasta 1153 —fecha de la carta de pobla-

ción— o 1154, por Ramón Berenguer IV (José María Lacarra, **La repoblación de Zaragoza por Alfonso el Batallador,** p. 18). Parece que también tenían Iglesias cristianas Valtierra, Cadreita y Murillo de las Limas, en término de Tudela, y hay alguna referencia a la persistencia de mozárabes en Alagón (Lacarra, **La reconq. y repobl. del valle del Ebro,** p. 72).

(44) **Documentos reales del antiguo Archivo de Roda, anteriores al siglo XII,** por don Juan Francisco Yela y Utrilla, p. 336; Lacarra, **La reconq. y repobl. del valle del Ebro,** p. 73.

(45) **Primera parte de la Crónica General de toda España,** por Antón Beuter, lib. II, cap. 21, p. 111, y cap. 40, p. 217.

(46) R. Chabás, **Episcopologio valentino,** I; Menéndez Pidal, **La España del Cid,** pp. 337, 453, 484 y 585). Escolano dice, siguiendo a Beuter (**Historia de Valencia,** I, col. 920 a 921, parte IV, cap. XXIII, f.º 867) y con error notorio, que los cristianos mozárabes conservaron la iglesia del Santo Sepulcro de Valencia, consagrada más tarde a San Bartolomé, todo el tiempo que estuvieron bajo la cautividad de los moros. Una constante tradición señala la iglesia de San Vicente de la Roqueta, a unos 1.000 metros al mediodía de la antigua puerta de Boatella, como sucesora del templo mozárabe de Rayosa, levantado en el lugar en que sufrió martirio el Santo. En 1232, seis años antes de la reconquista de Valencia, Jaime I concedió al abad del monasterio aragonés de San Victorián, para cuando se adueñase de la ciudad, «aquel lugar o iglesia que está en Valencia... cuyo lugar o iglesia se llama y dice San Vicente (**Locum illum sive ecclesiam que est apud Valentiam... qui locus siue ecclesia oucatur et dicitur Sanctus Vicentius.** Roque Chabás, **Los mozárabes valencianos,** apud **Antigüedades de Valencia,** por Fray Josef Teixidor, t. I, 1895, pp. 395 y 406-408).

(47) Versos de Ibn 'Amīra (m. hacia 656/1258) contestando a una epístola de Ibn al-Abbār (Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** pp. 48-49 del texto y 61-62 de la trad.)

(48) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** pp. 103 del texto y 126-127 de la trad.

(49) Bofarull, **Repartimientos,** año 1249, pp. 390-391, 413-414 y 126-127, y año 1248, pp. 421, 422, 424 y 479; **Topografía de Alcira árabe,** por Vicente Pelufo (**Anales del Centro de Cultura Valenciana,** pp. 84, 87 y 90-92). Hay otra partida llamada Alquenencia, según Chabás, en el valle del Pp, cerca de Murla (Teixidor, **Antigüedades de Valencia,** I, p. 397).

(50) **Discursos históricos de la muy noble y muy leal ciudad de Murcia y su reino,** por el licenciado Francisco Cascales, cap. XVIII, pp. 58-59.

(51) En documentos de 23 del msmo año de 1266, se dice ser señor de los moros murcianos «don Buabdille Abenhut, rey de Murcia» (**Mem. Hist. Esp.,** I (Madrid, 1851), doc. CV, pp. 231-232).

(52) **Cantigas de Santa María de don Alfonso el Sabio,** vol. II, cant. CLXIX, pp. 241-242.

(53) Ibn Jātima, **Taḥṣīl...** f.º 62 r. La traducción de la descripción de Almería, inédita, ha sido hecha por don Manuel Ocaña Jiménez.

(54) **La poésie andalouse,** por Pérès, pp. 279-282.

(55) Dozy, **Recherches,** I, pp. 351-352. La noticia procede de al-Sayrafī, a través de Ibn al-Jaṭīb. Dice aquél que en su tiempo —mediados del siglo XII— aún subsistía algún resto de muro del templo derribado; el visir granadino se refiere a la existencia de un cementerio en su emplazamiento. Desconócese el de las tres iglesias visigodas cuya consagración —la más reciente en el reinado de Viterico (603-610)— consta en la lápida encontrada al abrir los cimientos de la iglesia de Santa María de la Alhambra, conservada hoy sobre la puerta de su sacristía. Es posible que estuviesen en la misma colina de la Alhambra, en donde apareció hace algunos años —intramuros, cerca de la puerta de la Justicia— una lápida sepulcral mozárabe de una María, fallecida en 1120, cuya tosquedad permite suponer procede de lugar próximo (J. María Navascués, **Nueva Inscripción mozárabe de la Alhambra,** pp. 268-276). En 1116-1117 estaba en Sahagún el obispo mozárabe de Granada (**Historia Compostelana,** trad. del latín al castellano por el R. P. Fr. Manuel Suárez, lib. I, cap. 13, p. 217).

(56) E. Lévi-Provençal y Emilio García Gómez, **Sevilla,** pp. 149-151, 154-155, 157 y 171-173.

(57) E. Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** p. 15 del texto y 21 de la trad. Creo que por **rabad** hay que entender en este caso el núcleo de la ciudad, diferenciado del alcázar o alcazaba, emplazado en el ángulo sudeste del recinto. No hay noticia ni restos de arrabales inmediatos a la ciudad en la Ecija musulmana. Si damos crédito a al-Himyarī respecto a la proximidad de la iglesia cristiana y la mezquita mayor, la primera pudo ocupar el emplazamiento de la parroquia de Santa Bárbara, de acuerdo con tradición viva en el siglo XVII; en el corral de su cementerio se reunía el cabildo en el siglo XIV (P. Martín de Roa, **Ecija, sus santos, su antigüedad eclesiástica i seglar,** folios 129 v, 136 v y 137). Y la mezquita mayor pudo estar donde hoy Santa María o San Juan, cercanas ambas a Santa Bárbara.

(58) E. Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** p. 111 del texto y 136 de la trad.

(59) José María de Cossío, **Cautivos de moros en el siglo XIII,** p. 57.

(60) Al-Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** pp. 180-181 del texto y 241 de la trad.; Abū-l-Fidā', **Taqwīm al-buldān,** p. 169 del texto y 241 de la trad.; Simonet, **Hist. de los mozárabes,** pp. 256 y 814-815. Abū-l-Fidā' se refiere al testimonio de Ibn Sa'īd, por lo que tal vez pueda afirmarse la subsistencia de la iglesia en el siglo XIII.

## الفصل السادس

## أحياء اليهود

أثّر نشاط اليهود تأثيرًا بالغًا على الحياة الاقتصادية في الأندلس. ففي الفترة الأولى من فتح المسلمين لشبه الجزيرة الإيبيرية عاملت الدولة القوطية اليهودَ معاملة السخط والاحتقار - فقد أجبرهم إربيجيو Ervigio عام ٦٨١م على اعتناق النصرانية أو تهجيرهم من البلاد - ومن ثَم تعاون اليهود مع المسلمين وكُلِّفوا بالقيام بالحراسة في بعض المدن، في الوقت الذي واصل المسلمون خلاله في حملتهم الحربية[١].

وكانت مطاردة المرابطين لليهود أخف من مطاردة الموحدين، الذين لم يكونوا يسمحون، كما قيل، بوجود غير المؤمنين بدين محمد [ﷺ]. فاعتنق بعض اليهود الإسلام، وهاجر البعض الآخر، وقد اتجه أغلبهم إلى أسبانيا النصرانية وبالأخص مدينة طليطلة. ويغلب الظن أنهم استقروا في الأراضي الإسلامية مرة أخرى في وقت لاحق، ويؤيد هذا وجودهم في المملكة النصرية بمدينة غرناطة، وتدخُّلهم في العديد من أنشطة المدينة، وبالأخص في الأعمال المالية العادية.

والجدير بالذكر أن مدينة غرناطة من ضمن المدن التي كثرت بها التقاليد اليهودية حتى قيل لغرناطة «مدينة اليهود» طبقاً لقول الرازي[٢]، لأنهم كانوا قاطنيها؛ والإدريسي يطلق نفس الاسم على المدن الآتية: طركونة التي لم تكن تسكن فيها إلا أقلية من النصارى طبقاً لقول الكاتب نفسه، ومدينة اللسانة (قرطبة)، وقصر روتا Rota بمحافظة أرغون (المعروف اليوم بقصر "رودا دي خالون"). وقد كتب الإدريسي في آخر العهد المرابطي عن أحد أرباض اللسانة

Lucena غيـر المسوّر، الذي به المسجـد الجامع وسكن فـيه المسلمون مـختلطين ببعض اليهود، أما البعض الآخر من اليهود، وهم أغنى فئة من الفئات اليهودية الموجودة في الأقطار الإسـلامية الأخـرى لكون مدينة اللسانة أكـثر المراكز أهمـية لتجارة اليهـود فكان يسكن في المدينة المحمية بأسوارها المحصنة وبـخنادقها المائية العميقـة التي كانت تسقط مياهها من مجرى الـسواقي، ولم يتمكن المسلمون من دخولها[٣]. ولكن غزو الموحدين لمدينة اللسانة سنة ١١٤٨م قضى نهائيًا على تلك الامتيازات، كما يوضح إبراهيم بن عزرا سنة ١٠٩٢ - ١١٦٧م في رثائه[٤].

كان اليهـود يقطنون في معظم مدن أسـبانيا الإسلامـية على هيئة تجـمعات منعزلـة عن المسلمين في الأرباض الخاصـة بهم. وكانت أحـياؤهم بعـيدة عن الشوارع الرئيسة في المدينة الإسلامية، مُـشكِّلة مراكز منفصلة لها مدخل واحد أو مداخل قليلة. وكان التخطيط المدني لهـذه الأحياء يشبه باقي تخطيط المدينة الإسلاميـة: فالشوارع ضيـقةٌ جدًا بعضـها غير نافذ ومـزوَّد بمداخل تغلق ليلاً عرفت باسم الدروب. وقد توافرت في أحيـاء اليهود "الكرالات" أو الصحون الداخلية التي سميـت هكـذا بالمراجـع الخاصـــة لمستعربـي مدينـة طليطلـة كرالات Corrales (مفـرده كرال Corral)، وهو فناء داخلي مـزود بمدخل واحد محـاط بمسـاكن، وقد انتـشر هذا الأسلوب الخـاص بأحيـاء اليهـود في المدن النصرانية، وقد ساعد هذا الوضع على الانعزال وعلى أمن السكان.

وكان مـن المعتاد أن يـخصص مبنى للحمـامات في أحـياء اليـهود يشـبه الحمامات الأسبـانية المسلمة. وظل أحد هذه الحمامات وهو أضيـقها باقياً بحي بسطة Baza، المعروف فيـما بعد باسم حي سانتـياجو، حتى سنوات مـتأخرة. ويرجع إلى القرن الحـادي عشر المـيلادي على وجه التـقريب[٥]. وهناك بقايا

لحمام حي اليهود في سرقسطة رقم ١٤٨ بالشارع الرئيس، وقد اتضح أنه بني، أو على الأقل رُمم في القرن الثالث عشر الميلادي تحت سيادة النصارى. وهناك مصادر تثبت وجود عدة حمامات في مدينة طليطلة من القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. ومن الأرجح أن أحدها قد بني قبل منحه ألفونسو السادس المدينة، كذلك الذي أهداه ألفونسو السابع لدير سان كليمنتي سنة ١١٣١م، والذي كان لليهود في وقت سابق[٦]. ومنذ سنوات قليلة كانت تشاهد بقايا أحد الحمامات بحي اليهود، الواقع على بعد ٣٠ مترًا من معبد اليهود القديم، المعروف بسانتا ماريا لابلانكا Santa M. La Blanca عند الواجهة الشرقية منها، وذلك في قبو المنزلين رقم ١٣ و١٥ في شارع "أنجيل" Angel[٧].

ويذكر كتاب تاريخي لمؤلف مجهول من أواخر القرن العاشر الميلادي أنه عند فتح أسبانيا جعل مغيث كل النصارى الذين ظلوا بقرطبة طعمة للسيوف، ثم جمع اليهود وأسكنهم معًا في مكان واحد[٨]. وفي شهادةٍ لإحدى هبات الملك فرناندو الثالث لأسقفية قرطبة سنة ١٢٤١م ورد ذكر أحد ميادين المدينة يقع بجوار باب سانتا ماريا (المسجد الجامع سابقًا)، حيث كان يباع السمك في ذلك المكان، وحتى نهاية الشارع المنحدر من «مالبو رجيت» أمام حي اليهود[٩]. ويوضح هذا المستند، المؤرخ بعد انتزاع المدينة بخمس سنوات، أن حي اليهود كان يقع، قبل منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، في حي قريب من المسجد الجامع بين الشارع المتجه إلى معبر النهر مباشرة والسور الغربي. وأنه استمر في نفس المكان كما يثبته مبنى المعبد اليهودي القائم حتى اليوم، الذي بني في السنوات الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي. وكان هذا الحي منفصلاً عن باقي المدينة بقوسين ببابيهما، وهما اللذان يصفهما المؤلف بالقوسين القديمين

سنة ١٤٧٩م[١٠]. ومن المحتمل أيضًا أن حي اليهود في تاريخ سابق تحت سيادة المسلمين، كان يشغل الربض القريب من باب اليهود، الذي كان معروفًا باسم هذا المدخل[١١]. وكان الباب الشمالي للمدينة يعرف أيضًا باسم باب ليون Leon، [باب العيون]؛ وتقع شمالاً مقبرة اليهود المفصولة عن مقبرة المسلمين بطريق[١٢].

وهناك باب آخر لليهود عند سور مدينة سرقسطة، وبالقرب منه مقبرة تعود إلى فترة تلي الفتح الإسلامي لها بقليل[١٣]. ولا نعلم شيئًا عن موقعها. ويفترض أن حي اليهود، الذي كان تحت سيادة النصارى في الزاوية الجنوبية الشرقية داخل المدينة المسورة، احتل المكان نفسه سابقًا تحت سيادة الإسلام[١٤]، ولكن ليس لدينا بيان يؤكد هذا الافتراض.

أما مدينة تُطِيلة التي انتزعها ألفونسو الأول المحارب سنة ١١١٩م فيعتقد أن حي اليهود بها لم يتغير بتغير الحكم. فقد كان يحتل الزاوية الجنوبية الشرقية للأرض المسورة التي يحدها في أغلب أجزائها سور المدينة، وحيث يمكن أن تُرى اليوم أحياء ذات دروبٍ ملتوية ومسدودة تتوغل فيها[١٥]. وفي سنة ١١٧٠م سمح ألفونسو الثاني لسكانها بالجلاء عن حي اليهود القديم إلى المنطقة العليا من المدينة لحمايتهم وراء أسوار القلعة[١٦].

ويذكر مؤرخ مسلم أن اليهود كانوا يقيمون بمدينة طليطلة بمنطقة خاصة عرفت بـ "مدينة اليهود"، وهي منفصلة عن المسلمين والمستعربين، ويؤكد بأنها كانت مسورة بسور بناه سنة ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م مهاجر بن القتيل المتمرد ضد سلطة الأمويين[١٧]. ومن المحتمل أن موقعه هو موقع حي اليهود الواسع الذي كان من أهم الأحياء اليهودية في أسبانيا، ولدينا بعض الأخبار عن موقعه ابتداء من

القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر الميلادي. وقد امتد ذلك الحي من "سانتو تومي" والمناطق المجاورة لـ"سان رومان" حتى نهر التاجه. وكان ذلك الحي متصلاً بباقي المدينة عن طريق عدة أبواب، ومتصلاً بالخارج عن طريق باب اليهود الواقع فوق "سانتا ليوكاديا" الخارجية في المكان الذي يقع فيه اليوم "باب كامبرون". وكان حي اليهود يتألف من عدة أحياء، وقد أطلق على جزء منه يجاور سان رومان ومنفصل عن القسم المسيحي بواسطة درب، اسم الربض الأعلى Arrabal alto أو الربض الخارجي. وفي إحدى ساحات الحي الصغيرة تقام السويقة، وكانت تلك الساحة محمية بقلعتين إحداهما على نهر التاجه، وقد بنيت في عهد المسلمين على الأرجح، فهناك مرجع مؤرخ في ١٢٧٠م يطلق عليها اسم "القديمة"، أما القلعة الأخرى فهي من الفترة النصرانية اللاحقة يسميها المرجع نفسه "بالجديدة"(١٨).

وكان حي اليهود بمدينة ميورقة ـ كما يؤكد "كوادرادو" ـ بداخل المُدَيْنَة، وهو جزء من المدينة المحصنة بسور قوي. وفي هذا المكان التقى خايمي الأول باليهود عند الاستيلاء عليها. وكان حي اليهود يمتد ناحية الجزء الغربي للقلعة قرب الأرض الممنوحة للرهبان الدومنيك في عام ١٢٣١م، لبناء ديرهم، وقد وضع حجر الأساس لهذا الدير سنة ١٢٩٦م. كان المعبد يواجه ميدان القصر الملكي؛ وهناك باب قريب قد أطلق عليه اسم سكان الدير. وثبت في سنة ١٣٠٠م أن حي اليهود نقل إلى "تمبلي" وقلعة رباح (كالاترابا). أما كنيسة جبل صهيون فقد بنيت على المعبد اليهودي الأصلي(١٩).

ويبين كتاب **التوزيع** el Repartimiento ووثيقة "**أمنبوس بالنثيا**" Omnibus Valencia أن حي اليهود كان موجوداً بمدينة بلنسية في عهد المسلمين واستمر بعد

أن استولى خايمي الأول على المدينة في مكان قريب من مركز المدينة، قريب من شرق ميدان «رحبة القاضي» في الموقع الذي توجد به اليوم كنيسة سانتا كاتالينا[٢٠]. وفي سنة ١٢٤٤م وهب الملك المذكور كل الحي ليهود بلنسية، وأعطاهم الأحياء التي يبدأ فيها درب ابن جيم Abingeme. وقد امتد هذا الدرب من تلك الأحياء إلي حمامات نالماليج Nalmelig، ومن هذا المكان إلى باب الشريعة، ومنه إلى فرن ابن نوليز Abinnulliz ثم إلى الدرب المعروف بدرب إبراهيم البلنسي[٢١].

ولا نعلم أكان يهود أشبيلية مقيمين بحي منفصل أم مختلطين بباقي السكان المسلمين. وحول هذا الشأن يذكر أرجوت Argote اسم حي يهودي قديم بمنطقة سان بيدرو[٢٢]. وعندما استولى فرناندو الثالث على المدينة سنة ١٢٤٨م تحدد موقع ذلك الحي في حي آخر كان قد سكن فيه المسلمون حيث حلت معابد اليهود مبانيَ كانت من قبل مساجد[٢٣].

وفي أوائل القرن الرابع الميلادي كثر عدد اليهود بالمدينة الأسبانية الرومانية "إليبريس" التي أصبحت غرناطة فيما بعد. وقد أقام المجلس الديني هناك قدّاسًا (ما بين ٣٠٩ ـ ٣١٢م) اتخذ فيه بعض القرارات ضدهم[٢٤]. ولم يقلّ عدد اليهود في القرون اللاحقة فيما يُعتقد. وعندما سيطر المسلمون على غرناطة، في السنوات الأولى للقرن الثامن، أمنوهم، كما حدث في مواضع أخرى، حراسة المدينة في الوقت الذي واصل فيه الفاتحون حملتهم[٢٥]. وقد سبقت الإشارة إلى أن الرازي سمّى غرناطة مدينة اليهود، وذلك في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي. ويذكر عبد الله، آخر ملوك الزيريين الذي عزله المرابطون، في مذكراته أنه أثناء حكم جده "باديس بن حبوس" كان

أغلب سكان غرناطة يهودًا[٢٦]. وقد كان اثنان من اليهود وزيرين متتاليين شاركا الملك في السلطة هما صاموئيل بن نجر الله (متوفى ٤٤٨/١٠٥٦ ـ ١٠٥٧م) وابنه خوسي، وظل الوضع كذلك إلى سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، عندما شهدت الأندلس رد فعل إسلامي عنيف عرف بـ "بروجروم" progrom هلك فيه هذا الوزير بالإضافة إلى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف يهودي.

ولم توقف هذه المذبحة تاريخ اليهود في مدينة غرناطة. وقد قيل من قبل: إن "ابن هَمُشْك" (نائب وصهر القائد ابن مردنيش (٥٥٧هـ/١١٦٢م) ـ الملقب في المراجع النصرانية بالملك "لوبي أو الذئب"ـ) تَحَرّكَ، بالاتفاق مع يهود غرناطة الذين اعتنقوا الإسلام بالقوة ومع حليفه ابن دَهْري، من مدينة جيان مباغتةً غرناطة منتهزًا فرصة رحيل أبي سعيد ابن الخليفة الموحدي إلى مراكش للقيام بزيارة أبيه. وبعد عدة تقلبات وهزيمة ابن "هَمُشْك"، استولى الموحدون على مدينة غرناطة مرة أخرى، وقتلوا العديد من اليهود[٢٧].

ويفيدنا الرحال الألماني "خيرونيمو منزر"، الذي زار تلك المدينة في أواخر سنة ١٤٩٤م، عن موقع حي اليهود فيها في الفترة الأخيرة للمملكة النصرية؛ فذكر أنه يقع في وسط المدينة. وكان يسكن فيه ٢٠ر٠٠٠ يهودي تقريبًا وفقًا لقول هذا الرحالة، وقد أمر الملك فرناندو بتدمير الحي لإقامة مستشفى كبير في موقعه وكاتدرائية مخصصة للعذراء كانت قبابها قد بنيت في ذلك التاريخ[٢٨]. ويمكن بلا شك أن يستنتَج من شروط معاهدة استسلام غرناطة التي وُقّعت في ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م بمدينة "سانتا في" أنه كان هناك سكان من اليهود بحي البيازين والأرباض المجاورة[٢٩].

وفي سنة ١٤٠٤م قام طاقم السفن المرسل من أنريكي الثالث ملك قشتالة

ضد القراصنة بزيارة حي اليهود في مـدينة مالقة، وكان على رأس الطاقم دون بيدرو نينيو، وذلك أثناء الـهدنة مع مملكة غرناطة[٣٠]. والحي اليهودي المذكور كان، على ما يعتقد، في الجانب الشرقي من المدينة، لأن المقبرة اليهودية كانت تمتد على سفـح "جبل الفارو"[٣١]. وعندما سيـطر الملكان الكاثوليكيان على مدينـة مالقة سنة ١٤٨٧م وجـدوا بها ٤٥٠ يهـودياً من الجنسين من مخـتلف الأعمار، يمثلون ١٠٠ عائلة. وقد افتداهم محصل الضرائب (المعرِّف) القشتالي إبراهيم الكبير[٣٢].

وكان بربض "بلث" في "مالقة" خمسون يهوديًا من السكان وخمس أرامل عندما انتقلت المدينة إلى سيطرة الملكين الكاثوليكيين[٣٣].

* * *

(1) **Ajbār Maŷmū'a,** texto, p. 12; trad., p. 25.

(2) Pascual de Gayangos, **Memoria sobre la autenticidad de la Crónica denominada del moro Rasis (Memorias de la Real Academia de la Historia,** p. 37): Et el otro es el castillo de Granada, al que llaman villa de los judíos, et ésta es la más antigua villa que en término de Elvira ha, et pobláronla los judíos». Véase también Casiri, II, p. 105, n. a.: «Granada de los judíos», Lévi-Provençal, La **«Description de l'Espagne d'Aḥmad al-Rāzī,** p. 67.

(3) **Al-Idrīsī,** edic. Dozy y de Goeje, pp. 191 y 205 del texto y 231 y 252 de la trad.

(4) F. Cantera, **Elegía de Abraham ben Ezra a la toma de Lucena por los Almohades,** pp. 113-114.

(5) Gómez Moreno, **El baño de la judería en Baza,** pp. 151-155.

(6) Bib. Nac., copia Burriel, ms. 13.045, según cita de Manuel Vallecillo Avila, **Los judíos de Castilla en la Edad Media,** pp. 57-58.

(7) González Simancas, **Las Sinagogas de Toledo y el Baño Litúrgico Judío,** pp. 16-18.

(8) Ms. de la Bib. Nat. de París, f.º 45, citado por Gayangos, **Memoria... sobre ... la crónica del moro Rasis (Mem. Real Acad. Hist.,** VIII, pp. 26 y 30).

(9) Victoriano Rivera Romero, **La carta de fuero concedida a la ciudad de Córdoba por el rey don Fernando III,** pp. 55-57.

(10) F. Fita, **La Sinagoga de Córdoba (Bol. Real Acad. Hist.,** pp. 393-394): «dos arcos viejos... dichos arcos viejos, que están a la entrada de la dicha judería».

(11) Al-Maqqarī, **Analectes,** I, pp. 98 y 304, con referencia a Ibn Baškuwāl, quien entre los arrabales septentrionales de Córdoba incluye el «arrabal de la puerta de los judíos» **(rabad bāb al-Yahūd)** (Manuel Ocaña Jiménez, **Las puertas de la madīna de Córdoba,** pp. 149-150, y E. Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane au Xème siècle,** p. 207). Al-Idrīsī —p. 208 del texto y 257 de la trad.— también menciona la puerta de los Judíos situada al norte de la **madīna** cordobesa.

(12) Ibn Baškuwāl, **Sila,** p. 300 (núm. 672), según cita de Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III (París, 1953), p. 229.

(13) **Historia de la conquista de España de Abenalcotía el Cordobés,** trad. de don Julián Ribera, p. 196 del texto y 169 de la trad.

(14) Lacarra, **El desarrollo urbano de las ciudades de Navarra y Aragón,** p. 16.

(15) **Ibidem,** pp. 9 y 16. En un doc. de 1135 se localiza un huerto en Tudela **infra muros juxta Judeos (Esp. Sag.,** L, apénd. XI, p. 395).

(16) F. Baer, **Die Juden in Christlichen Spanien,** I, **Aragonien und Navarra,** núm. 578, citado por Lacarra, **El desarrollo urbano,** p. 16. Un doc. de 1177 menciona la **sinagoga iudeorum** de Tudela, **que fuit de Iacob Suaib medico,** pero sin localizarla (Lacarra, **Docs. para el est.... del valle del Ebro** (Segunda serie), doc. núm. 274, p. 192). Otro documento, fechado en 1234, alude a la **Judaria vetus (Colecc. diplom. del rey don Sancho VIII (el Fuerte) de Navarra,** por don Carlos Marchalar, doc. CXCVIII, p. 229). De 1487 es una escritura censal de unas casas en la judería de Tudela, junto a la subida al castillo (Fuentes, **Cat. de los Arch. de Tudela,** doc. núm. 723, p. 192).

(17) Ibn Hayyān, **Muqtabis,** I, f.º 114 r, según cita de Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. mus.,** III, p. 228.

(18) González Palencia, **Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII,** vol. preliminar, pp. 74-76; vol. III, docs. núms. 897, de 1135, y 1163, de 1270; pp. 167-168 y 570-572.

(19) José María Quadrado, **La judería de la ciudad de Mallorca en 1391,** pp. 305-306. Se refieren al traslado de la judería dos documentos, de los años 1299 y 1323, respectivamente, publicados por Villanueva en su **Viaje literario.** t. XVII, docs. XXIX y XXX. pp. 300-303, y t. XXII, doc. XIII, pp. 323-333. El de 1299 dice: **attendentes quod Judei civitatis Maioricarum, qui consueverunt morari et suas domos et habitationes habere intus almudynam et in aliis locis civitatis Maioricarum, transtulerunt se et sua domicilia in certo loco dictae civitatis, scilicet, in quosdam vicos vocatos partita Temli et Calatravae, extendentes se versus domun seu castrum Templi civitatis Maioric., in quibus vicis dicti Judei suum callum et domos hedificaverunt et construxerunt.**

(20) Julián Ribera y Tarragó, **Disertaciones y opúsculos,** II, pp. 324-325; Teixidor, **Antigüedades de Valencia,** t. II, pp. 153-154.

(21) Bofarull, **Repartimientos... de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** p. 290.

(22) Gonzalo Argote de Molina, adic. al núm. 24 del año 1248 según cita de Ortiz de Zúñiga, **Anales eclesiásticos y seculares de... Sevilla,** I, p. 196. Julio González cree que no existía judería en Sevilla al conquistarla Fernando III; los pobladores israelitas de los primeros tiempos de dominación cristiana, procederían en gran parte de Toledo (**Repartimiento de Sevilla,** I, p. 362). Repetidamente alude «El tratado de Ibn 'Abdūn» escrito hacia 1100, a los judíos sevillanos; dice que deberían llevar un signo con el que fuesen conocidos, no por vía de humillarlos (Lévi-Provençal, **Sevilla a comienzos del siglo XII,** § (169), p. 157).

(23) Privilegio rodado de Alfonso X en 1252, por el que concede a la catedral de Sevilla, a ruego de su hermano don Felipe, todas las mezquitas «que son en Seuilla quantas fueron en tiempos de moros... fueran tres mezquitas que son en la judería que son agora sinagogas de los judíos» (Antonio Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** doc. núm. 8, p. X).

(24) R. Thouvenot, **Chrétiens et Juifs à Grenade au IVe siècle après J. C.,** pp. 201-211).

(25) Dozy, **Recherches sur l'histoire... de l'Espagne,** tercera edición, tomo primero, p. 339.

(26) Lévi-Provençal, **Deux nouveaux fragments des «Memoires» du roi ziride 'Abd Allāh de Grenade,** p. 12 del texto y 30 de la trad.

(27) Torres Balbás, **La Alhambra de Granada antes del siglo XIII,** pp. 162-164.

(28) Jerónimo Münzer, **Viaje por España y Portugal, 1494-1495,** trad. de José López Toro, p. 44.

(29) «Item es asentado e concordado que los judíos naturales de la dicha cibdad de Granada e del Albaicín, e de sus arrabales, e de las otras dichas tierras que entrasen en este partido e asiento, gocen de este mismo asiento e capitulación...». A esta cláusula de protección de los israelitas acompaña la siguiente: «Que no permitirán sus Altezas que los judíos tengan facultad ni mando sobre los Moros ni sean recaudadores de ninguna renta» (**Colecc. de docs. inéditos para la Hist. de España,** t. VIII, p. 421).

(30) Gutierre Diez de Games, **El Victorial,** cap. XXXVII, p. 44.

(31) **Guerra de Granada,** escrita en latín por Alonso de Palencia, p. 302.

(32) **Ibidem,** p. 328; **Historia de los Reyes Católicos don Fernando y doña Isabel,** escrita por el bachiller Andrés Bernáldez, t. I, p. 252.

(33) Juan Moreno de Guerra, **Repartimiento de Málaga y su obispado, Vélez-Málaga,** p. 373.

# الباب الثالث

# الشــوارع

## الفصل الأول

## المصلَّى والشَّريعة(*)

جرت العادة منذ فجر الإسلام أن يخصَّص مكان خارج سور المدن مباشرة لأداء بعض الصلوات في الهواء الطلق، وعادة ما يكون المصلى قريبًا من السور في أرض منبسطة ومستقلة وفسيحة. وفي أوقات معينة، كصباح أول يوم العيد - أول شوال (نهاية صوم رمضان) واليوم العاشر من ذي الحجة (اليوم الأول لعيد الأضحى)، وهما العيدان الرسميان السنويان - يجتمع المسلمون بُعَيد شروق الشمس في ذلك المصلى لأداء الصلاة جماعة. فمع كون مساحة المسجد الجامع كبيرة، كان لا يتسع للأعداد الكبيرة من المصلين، لهذا نشأ المصلى، ويلاحظ أن فكرة المصلى ليست فكرة غريبة حيث كانت الصلاة في الهواء الطلق معروفة في التقاليد الشرقية القديمة، كما كان يستعان بالمصلى لأداء صلوات الاستسقاء لطلب الغيث النافع للمحصول[1].

وبما أن المقابر كانت، من وضع المصلى، خارج أبواب سور المدينة وبجوارها فكانت غالباً ما تحتل أماكن قريبة من بعضها. فصارت المقبرة تسمى عندئذ "المصلى".

وقد اقتضى وجودُ تلك المصليات في الهواء الطلق، بالإضافة إلى الظروف الخاصة بالموقع والاتساع المذكور، محرابًا مؤقتًا أو دائمًا مفتوحًا أحياناً في حائط للإشارة إلى اتجاه القبلة - الشرق - لأداء الصلاة. وفي بعض المناسبات كان يوضع على يمين المحراب منبر مزود بسلم لإلقاء الخطبة من فوقه.

ولمعظم مدن المغرب وشمال أفريقية مصلى واحد؛ وللبعض الآخر مصليان،

وهناك أيضًا مصلى لكل مدينة من المدن الأسبانية المسلمة كما تؤكده الأدلة التي ستأتي تباعًا، ففي اللغة الأسبانية المغربية كانت العادة أن يسمى المصلى "الشريعة" - وكانت التسميتان تستعملان في وقتٍ واحد -، وقد أكد ذلك دون خوليان دي ريبيرا Julian Ribera عندما قام بدراسة أصل باب بلنسية ومقبرتها اللذين أطلقت عليهما نفس هذه التسمية[٢]، وفيما بعد أكد ليفي بروفنسال Levi Provencal هذه التسمية بالاستعانة بعدة نصوص عربية[٣]. وفيما يبدو أن لفظة "شريعة" Saria بهذا المعنى استعملت في الغرب فقط؛ أما في باقي العالم المسلم فإنها كلمة مجهولة. وفي كتب المسلمين الأندلسيين المدجَّنين يشير هذا المصطلح في اللغة الدارجة إلى معنى "مصلى". ولتعيين الشريعة أو المصلى، أو أحدهما على الأقل، في حالة وجود الاثنين، كان يبحث عن موقع مناسب شرق المدينة، ولكن الظروف لم تكن ملائمة دائمًا، تبعاً لتضاريس الأرض مثل ماحدث في مدينتي غرناطة ومالقة.

ويصف "علي بك العباسي" Domingo Badia - دون دومينجو باديا - احتفالاً دينيًا بمصلى فاس رأسه السلطان وحضره جمع غفير من الناس. وكانت الركعات والأدعية الصادرة من هذا العدد الكبير من المصلين بصوت جماعي تشكل منظرًا رائعًا أثر تأثيرًا بالغًا على المغامر الأسباني[٤].

وفي بلاد معرضة باستمرار للقحط الشديد ودورات الجفاف كشبه الجزيرة الإيبيرية، فإن حالات الاستسقاء والدعاء إلى الله طلبًا للغيث كانت كثيرة؛ وفيما يلي سوف نذكر البعض منها. ومثل ما يحدث في كل زمان، يعتقد المزارعون أن ذبول مزارعهم بلا رحمة تحت سماء زرقاء خالية من الغيوم ليس إلا تهديدًا بالمجاعة المفزعة التي تهلك البشر، والتي تعد عقابًا من الله بسبب

خطاياهم. كان هؤلاء المزارعون يرجون من الله، والضيق يملأ قلوبهم، الغفران معلنين التوبة ومحاولين تهدئة الغضب الإلهي وبذلك ينتظرون الغيث الغزير لريّ حقولهم وثمارهم التي به تحيا مع وجود الشمس.

ويذكر المَقَّري إحدى صلوات الاستسقاء أثناء خلافة قرطبة. فقد اتجه قاضي تلك المدينة "منذر بن سعيد البلوطي" (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م) إلى مصلى الربض، تنفيذاً لأمر الخليفة عبد الرحمن الثالث. واحتشد جمهور غفير حوله وبدأ خطبته باكيًا متذللاً إلى الله قارئًا ﴿ **وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الأنعام: ٥٤] ثم أضاف: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا** ﴾ [نوح: ١٠]، وبين بكاء المصلين ارتفعت أدعية المسلمين متوسلين إلى الله طالبين بخشوع أن يمن عليهم بالمطر. وقبل انقضاء النهار أرسل الله عليهم السماء مدراراً[٥].

واستمرت العادة عند مسلمي أسبانيا في أداء صلوات الاستسقاء الجماعية في "الشريعة". وقد وصف دون بيدرو لونجاس Longas تلك الصلوات وصفًا تفصيليًا معتمدًا على مستندات معاصرة، وفي اعتقاد الكاتب أن جمهور المصلين يؤدون تلك الشعيرة وفقا للأنماط الموجودة قبل السيادة النصرانية.

وقد كانت صلاة الاستسقاء تقام في أوقات القحط الشديد والخوف من أن يؤدي إلى فقد المحاصيل، علمًا بأن هذه الصلاة أصحبت واجبةً على الجميع طبقاً للـ "سُنَّة". وكان المصلون يستعدون روحيًا بالموعظة ثم «يخرجون من البلدة مجتمعين في موكبٍ في فجر يوم صلاة الاستسقاء، ثم يتجه الجميع إلى الحقول، حيث روعي أن تتم الصلاة بعيدًا عن المساكن، وتحرم إقامتها في وسط

الشوارع أو الرحاب التي اعتبروها أماكن قليلة الوقار لذلك كانوا يبحثون عن الحقول يلتمسون فيها السكينة والابتعاد عن الحياة الدنيا، متأملين خيرات الله عن كثب راجين التوبة وتيسير الأحوال. وكان الإمام هو الذي يؤم الناس في صلاة الاستسقاء؛ وكان الجميع ينتقلون إلى المكان على أقدامهم في خشوع وهدوء مستحضرين في قلوبهم الخشية من الله تعالى، كذلك كان المصلون يبتعدون عن الزينة والملابس الجديدة القيمة، فكانوا يرتدون أزياء رثّة غير تلك التي يلبسون في أثناء الصلاة بالمسجد. كما كان الموكب يقف في الطريق لأداء صلاة الفجر عندما يحين موعدها. وعند وصولهم إلى المصلى يصطف المسلمون في صفوف لأداء صلاة الظهر[٦].

وكان يوجد بمدينة قرطبة مصليان: أحدهما في المُصَارة Musara وهي الساحة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير والمتصلة بباب الجسر عن طريق «الرصيف» الواقع على حافة النهر. وتلك الساحة هي التي انتصر فيها عبد الرحمن الأول سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م في المعركة الحاسمة التي دارت بينه وبين يوسف الفهري. والتي على أثرها استولى عبد الرحمن على مدينة قرطبة. وكان يُحتفل فيها أيضًا باستعراض وتفقد الجيش[٧]. وفي سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م أمر عبد الرحمن الثالث ببناء محراب من الحجر في هذا المصلى[٨]، حيث لم يكن موجودًا من قبل في عهد الإمارة؛ وكان القاضي يقف إماماً لأداء الصلاة على سجادة في مكان مناسب[٩].

أما المصلى الآخر المذكور بقرطبة فهو "مصلى الربض" الواقعُ على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير جنوب المدينة. وبجواره المقبرة التي استمدت اسمها منه، والتي أسسها السمح Al Samh الذي وصل إلى إسبانيا سنة ١٠٠هـ/ ٧١٩

ـ٧٢٠م[١٠]. وفي سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٥م أقيمت صلاة الاستسقاء خمس مرات بمصلى الربض القرطبي لطلب زوال القحط العام الذي استمر طويلاً، حيث أسفر عن خلو الأسواق وغلاء المواد الغذائية. وبعد الصلوات المتكررة نزلت أمطار خفيفة لم تكف لإنبات معظم البذور. وقد تكرر نفس القحط سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م فأمر عبدالرحمن الثالث بأداء صلاة الاستسقاء في المسجد الجامع وفي المصليين في آن واحد، مصلى المُصارة ومصلى الربض[١١]. ولا نعلم عما إذا كانت الاستجابة أكبر من المرات السابقة.

وقد أدت الاضطرابات التي شهدتها قرطبة ومنطقتها في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي إلى منع سكانها من الاحتفال بآخر رمضان، أول شوال ٤٠٢هـ/ ٢٦ أبريل ١٠١٢م، في المصلى كما يذكر ابن عذاري، إذ تغلّب الخوف والكرب على قلوب الناس نتيجة لعبث البرابرة، واقتصروا على أداء الصلاة في المسجد الجامع[١٢].

وبعد أن فتح المسلمون شبه الجزيرة الإيبرية بوقتٍ قصير يذكر مصلى بمدينة "أرشدونة" Archidona[١٣]، بينما يذكر مصلى آخر بمدينة طرطوشة Tortosa شرق القصبة؛ أما مصلى مدينة إشبيلية فيقع في جنوبها، وفي ذلك الاتجاه كانت الحدائق التي استمدت اسمها من المصلى وهي المعروفة "بجنات المصلى" حيث زرع فيها قصب السكر[١٤]. وكان المصلى في مَالَقة خارج باب فونتنالا Funtanalla شمال غرب المباني السكنية. وهناك أيضًا وجدت مقبرة تسمى مقبرة المصلى، وهي التي دفن فيها يوسف بن الشيخ أحد سكان مالقة سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م[١٥].

وهناك أبواب بأسوار مدينتي مرسية وبلنسية أطلق عليها اسم "باب

الشريعة" بمعنى المصلى كما قيل. وفي قصر الحمراء بغرناطة "باب الشريعة" الذي كان يؤدي، دون شك، إلى الساحة المجاورة حيث المصلى في الهواء الطلق. وبمدن فاس ومراكش وتازة كانت توجد أو توجد حتى الآن أبواب تحمل نفس الاسم(١٦).

وهناك مراجع عن مصلى مدينة بلنسية قبل أن ينتزعها "السِّيد" بفترة قليلة. وكتاب "**التاريخ العامّ الأول**" يروي عن منذر بن المقتدر أمير دانية أنه توجه سنة ١٠٨٦م من شاطبة إلى بلنسية للهجوم عليها، «فتوقف في المكان الذي كان يستعمله العرب لأداء صلواتهم في الأعياد، المعروف باللغة العربية "بالشريعة"»(١٧). وهناك العديد من المعلومات عن مقبرة بلنسية التي اشتهرت باسم "مقبرة المصلى"، والتي دفن فيها العديد من الشخصيات، وقد دفن بقبلتها ابن الزبير القضاعي الذي توفي (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩ - ١٢٣٠م). وقبلها بسنوات قليلة في ٦١٤هـ/ ١٢١٧ - ١٢١٨م توفي الرجل التقي الصالح "أبو عامر ابن هذيل"، وشيعت جنازته تشييعًا مهيبًا ودفن بتلك المقبرة، بحضور السلطان ورجال البلاط وعدد غفير من الناس(١٨).

وفي كتاب "**توزيع بلنسية**" يرد ذكرٌ لأحد الأبواب يسمَّى بباب الشريعة، وهناك أيضًا حقل الشريعة وحي الشريعة(١٩)، وفي الكتاب نفسه أمثلة أخرى مثل منزل المصلى(٢٠). وعند استيلاء الملك خايمي الأول على المدينة نهائياً كان هناك باب ومكان وحي سُميت كلها باسم "المصلّى"، كما كان في الحي شارع رئيس عرف باسم شارع المصلّى. وقد حدد دون خوليان ريبيرا، بمساعدة "**كتاب التوزيع**"، موقع الباب بالميدان المعروف اليوم باسم لاكونجريجاثيون Congregacion(٢١). وكان ذلك الباب يفضي إلى الشريعة القديمة التي حل

محلها أحد الأحياء منذ السنوات الأولى من القـرن الثالث عشر الميلادي عندما ازداد عدد السكان في السنوات السابقة وانتشرت خارج المساحة المسوَّرة. وكانت الشريعـة أو المصلى، في اعتقـاد ريبيرا، عـبارة عن مسطح من الأرض واقـعة خارج الأسـوار، وممتدة من الجـزء الشرقي لسـور المدينة، الذي فتح فـيه باب الشريعـة والنهر، ويحد جـانبي المصلى قناتان تجري فـيهمـا المياه لتحـرك عدة طواحين[٢٢]. وأرض المصلـى الخـارجـي كانـت المحصـورة داخل مثلث تحـد أطرافه الأمـاكن الآتية: ميـدان لاكونجريجـاثيون Congregacion وجسر الـبحر والتمـبلي Temple. وكان حي الشـريعة خـارج الأسوار بين لاكـونجريجـاثيون والتمـبلي. ولقد احتفظ شـارع الشريعة باسـمه مع تعديل طفـيف حتى أيامنا الراهنة، وهو مـعـــروف بشـارع "الإكْسَـارِيع" Exaree (الممـتـد من شـارع لاكونجرجاثيون حتى بوابة التمبلي)[٢٣].

وتمكن "بيوتر" Beuter، في النصف الأول من القـرن السادس عـشر، من معرفة مصير "شريعة بلـنسية"، حيث يقول إنه كان "بالإكساريع" (التي تعني باللغة الأسبانية القديمة مصلى أو شريعة) مصلى يجلّه المسلمون إجلالاً بالغًا". ويصفه كالآتي: «هذا "الإكساريع" كـان بيتاً للصلاة وبجواره حصن، وبداخله بعض المنازل مكوِّنة مـا يشبه ربـضاً من الأرباض أمام باب المديـنة، وكان ذلك الباب يسمـى باب الشريعة نظرًا لوجود المصلى، وهو الذي يعـرف اليوم باسم "لوس سانتـيتس" Santets». ويضيـف الكاتب "تيكسـيدور" Teixidor إلى هذا أخبارًا مفيدة، فـيقول إن "لوس سانتيتس" كان اسماً لكنيسة صغـيرة مخصصة لعبادة الملوك المقدسين، و«كانت الكنيسة عاليـة بها برج محصن بقبته»، وكانت تقع أمام باب كـنيسة "لاكـونجرجاثيـون" التي هدمت سنة ١٧٣٦م[٢٤]. وقد

يستنتج من ذلك أنه كان هناك جداراً كان يحيط بالشريعة التي كان بها محراب قوي مقبب، ومن المحتمل أن كنيسة صغيرة مخصصة للملوك المجوس los Reyes Magos " قد حلت محلها بعد الاستيلاء على المدينة.

وكان هناك أيضًا سور يحيط بالشريعة بمدينة شاطبة عندما أصبحت تحت سيطرة الملك خايمي الأول[٢٥] سنة ١٢٤٨م.

وليست مدينةُ بلنسية الوحيدةَ التي أدى تزايد عدد السكان فيها إلى ضرورة بناء أرباض خارج أسوار المدينة مما أدى في الوقت نفسه إلى تحول المصلى القديم إلى ربض. بل تكررت نفس الظاهرة في مدينتي ألمرية في القرن الحادي عشر، وفي غرناطة في القرن الثالث عشر الميلادي.

ومن مصلى مدينة المرية الواقع شرقها استمدت المقبرة القريبة منه اسمها، علمًا بأنها ظلت مستعملة حتى سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م، وكانت معروفة عندئذ بمقبرة الشريعة القديمة[٢٦]. وقد جاء في "**الروض المعطار**" أن السكان انتشروا في ذلك المكان في التاريخ المذكور، وقام خيران العامري (٤٠٣ ـ ٤١٩هـ / ١٠١٢ ـ ١٠٢٨م) ببناء سور من الطوب حول الربض الجديد لحمايته[٢٧]. وهذه النواة السكانية، التي كانت أكثر مساحة واتساعًا من نواة المدينة ونواة سكن الحوض، قد سميت منذ ذلك التاريخ "بربض المصلى"، ويذكره بهذا الاسم كتاب "**الروض المعطار**" وكذلك "العُمَري"[٢٨]. أما المقبرة الرئيسة لمدينة المريّة فإنها تقع شرق المدينة في خارج أسوارها؛ ومن المعتقد أنه كان بالقرب منها شريعة جديدة، على الرغم من عدم وجود مراجع تثبت ذلك.

وفي القرن الثاني عشر الميلادي كان المصلى أو الشريعة في مدينة غرناطة واقعاً على أحد المرتفعات، شمال التل الذي بنيت عليه القصبة القديمة علمًا بأن

تل المصلى كان أعلى بأمتار قليلة من تل القصبة. وفي الثالث من ربيع الأول من سنة ٥٤٠هـ/ ٢٤ أغسطس ١١٤٥م كان هذا التل مسرحًا لمعركة المصلى التي هزم وقتل فيها ابن أبي جعفر، الذي قدم من مدينة مرسية بقوة عسكرية إضافية لتعزيز جهود "ثافادولا" في حربه ضد المرابطين من أجل السيطرة على غرناطة[٢٩]. وبعد ذلك بأعوام قليلة، عام ١١٦٢م، جاء ذكر المصلى مرة أخرى، وذلك عندما قامت جيوش ابن مردنيش بنصب خيامها فيه، وكانت قد جاءت لطرد الموحدين الذين كانوا يحتلون القصبة. والكتب التاريخية توضح انتماء اسم الشريعة في ذلك الوقت إلى التل الصغير المجاور مباشرة لضواحي مدينة غرناطة[٣٠]. وعند ازدياد سكان المدينة في القرن الثالث عشر الميلادي اتجه الأهالي إلى جبل الشريعة ـ الذي كان أعلى جبل في سلسلة جبال البيازين باستثناء قمة سان ميجل ـ وأصبح جبل الشريعة مليئًا بالمساكن، ومن ثم أدمج داخل أسوار هذا الربض. ومن المعروف أن تلك الأسوار بنيت سنة ١٣٠٠م تقريبًا. ولعل ابن الخطيب كان يقصد نفس المكان بالذات عندما ذكر إحدى المرات التي دخل فيها ابن هود مدينة غرناطة سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣ ـ ١٢٣٤م، فيقول إنه قد وردت عليه الراية والتقليد من الخليفة العباسي ببغداد. وبمصلى غرناطة قرئ على الناس كتابه وهو قائم وزيّه السواد ورايته السوداء بين يديه[٣١].

وكذلك يروي ابن الخطيب أنه عند وفاة الملك ناصر بمدينة "وادي آش" سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٣م نقل جثمانه إلى غرناطة، واستقبل الملك ورجاله الجثمان في مصلى سعيد، حيث ظل مُسَجًّى إلى أن دُفن بضريح أجداده في "سبيكة قصر الحمراء[٣٢].

وقد استمر إطلاق اسم الشريعة القديمة على ذلك الحي الذي بني عليه، وهو المعروف في بعض النصوص النصرانية "بشريعة البيازين" بعد انتزاع غرناطة بفترة قليلة، وقد سمى المسجد الواقع حالياً في أرض كنيسة سان كريستوبال بجامع الشريعة Algima Axarea، وأطلق اسم «حوض الشريعة» على الحوض الواقع بجوار المسجد وهو القريب من المعبد المسيحي في الوقت الحالي. وهناك أيضًا مكان معروف باسم "قبة الشريعة" و"فرن الشريعة" و"بئر الشريعة"(٣٣).

وينسب إيجيلاث إلى دوزي أنه عثر على مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد (مجموعة ج ٧٢) يُروى فيه كيف أنه عند وصول الملكين الكاثوليكيين إلى غرناطة سنة ١٤٩٩م استقبلهما السكان استقبالاً مهيبًا و"ومن أهم الحوادث التي أثارت الاهتمام منظر أكثر من ثلاثين ألف مسلم يرتدون ملاحفهم البيضاء مجتمعين في "شريعة البيازين" وبالمنطقة المنبسطة السفلية منه حتى مكان يدعى "سان لاثارو" San Lazaro. وكان ذلك شيئاً مثيراً للإعجاب"(٣٤).

وهناك قصيدة شعبية قشتالية معروفة بـ "سيدي وعد بإقامة عيد"، يذكر كاتبها اسم ربض البيازين نظرًا لمعرفته بأسماء مناطق غرناطة:

" يجري البعض منهم ويصيح البعض الآخر،

ويقول آخرون "قف، . . . قف!

اتبعوا النظام. . اذهبوا جميعًا

إلى شارع القصبة!"

ويقول آخرون: لا تتركوا الشريعة ولا رحبتها!"(٣٥).

وكان باب قصر الحمراء معروفًا بباب الشريعة طبقًا لما توضحه الكتابة

المحفـورة على حجر الأساس المـكتوبة بخط الرقعـة الراقي على باب مدخله؛ وهي مؤرخـة بعام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، ومن المعـروف أن ذلك الباب الأثري هو «باب العدل" حـاليًا. ويسـمى الكاتب "إيشيـباريا" Echevarria، مؤيدًا أقوال كريستوبال كوندي في كتابه عن «**رحلات عبر غرناطـة وضواحيها**»، ذلك الباب باسمه الحقيقي "الشريعة"[٣٦]. وقبل ذلك التاريخ وبعده في مناسبات متعددة فسرت هذه الكلمة خطأ: بـ "العدل". وقـد وجد ليفي بروفانسال Levi Pro-vencal معناها الصحـيح قائلاً إنها تنتمي إلى مصلى مـجاور في الهواء الطلق. وكانت تضـاريس الأرض وعرة في المناطق المجاورة للمـصلى وأعلى قليلاً منه وأمام الباب المسمى بباب "الأرضيات السـبع" الذي اشتهر عند مسلمي غرناطة باسم الطبلة. وعند الطبلة وجدت ساحـة واسعة مسطحة نسبيًـا ـ مغطاة حاليًا بالخضرة ومـقسمة إلى عدة مـزارع ـ يعتقد أن الشريعـة (أو المصلى) كانت تقع فيها. ومن المحتمل أن الشريعة السـابق ذكرها هي ما كان يشير إليه ابن خلدون عندما روى أن أبا الحـجاج (يوسف الأول) قد اغـتاله شـخص أسود هائج في الركعة الأخـيرة من صلاة عيد الفطـر في آخر شهر رمضـان / ٢١ أكتوبر سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، في مصلى مدينة غرناطة[٣٧].

**المصلّى والكنائس المكسيكية الصغيرة المفتوحة :**

إن الذكرى الوحيـدة للمصلى أو الشريعـة الذي استمر بعد الـقرن السادس عشـر في المدن الأسبـانية المسلمة هو اسم "شـارع الأكسـيدريا" Exedrea أي الشريـعة في مديـنة بلنسيـة، ومن الأرجح أن هذا المصلى أثَّر تأثيرًا بالـغًا في الأشكال المعمـارية التي تطورت على بُعْد مئـات من الفراسخ من شبـه الجزيرة الإيبيـرية على الأراضي المكسيكية، وقد كـانت هذه الأشكال غير معـروفة في

القارة الأوروبية كما أكد من قبل.

وهناك العديد من الأديرة القديمة على أراضي أسبانيا الجديدة وجواتيمالا تنتمي إلى القرن السادس عشر الميلادي، وكانت توجد بجوار معبد الدير ساحة أو فناء بدائرته كنيسة صغيرة، أو عدة كنائس صغيرة، مفتوحة على هيئة محاريب أو قبو، لكي يتمكن جمهور من المصلين من رؤية الاحتفال بالقداس من أنحاء الساحة كلها. وقد ظهر ذلك النظام في الفترة التي تتراوح بين ١٥٣٠ و١٥٥٠م، وهي الفترة التي اعتنق فيها جمهور كبير من الأهالي الأصليين الديانة النصرانية، كما اختفت هذه التسميات في الربع الأخير من القرن السابق ذكره. ونظرًا لعدم استيعاب الكنائس النصارى الجدد أيام الأعياد، ولقلة الرهبان الذين يؤدون الشعائر فقد لجؤوا إلى بناء فناء في الكنيسة الصغيرة المفتوحة التي كانت تستوعب العديد من المصلين. وكان ذلك الفناء يستعمل أيضًا للاحتفالات الدينية الأخرى، مثل تناول أسرار القربان المقدس وممارسة الطقوس الإنجيلية. ومن المعروف أن احتشاد الجمهور في تلك الاحتفالات كان فوق طاقة الكنيسة. ويروي الكتّاب المعاصرون لتلك الفترة أن الأهالي الأصليين كانوا يجتمعون في الساحات تبعاً للأحياء التي كانوا يقيمون بها، وقد كتب الراهب الأغوستيني جريخالبا Grijalva قائلاً: "وقد انتظم الجمهور في صفوفهم" . والراهب خيرونيمودي مينديتا يقول: «عندما كان يصل الأهالي إلى الساحة كانوا يجلسون، وكان يجلس الرجال القرفصاء (كعادتهم) في صفوف وكذلك النساء، وكانوا يقومون بإحصائهم مستعينين بألواح خشبية كانت أسماؤهم مقيدة بها، وكانت أسماء الغائبين تُدوَّن بغرض عقابهم، وكان العقاب عبارة عن ست جلدات على ظهورهم».

وتساءل جارثيا جرانادوس عندما بحث عن سوابق تلك الساحة إذا ما يمكن أن تنتمي إلى الساحة التي كانت تحيط "بالتيوكالي"، أي الساحة التي كان يؤدي فيها أهالي الفترة السابقة للحضارة الكولومبية طقوس العبادة، وكذلك من الممكن أن ينتمي أصل الكنيسة الصغيرة المفتوحة إلى المعبد الذي كانت تقدم فيه الضحايا البشرية للآلهة. وأشار أنجولو إينيجث إلى أن هناك مثيلاً محتملاً في الكنائس الصغيرة الواقعة على القوس الخارجي لبعض أبواب الأسوار في عدد من المدن الأسبانية[٣٨].

والواقع أن أكثر مايُشبَّه بالكنيسة الصغيرة المفتوحة لأسبانيا الجديدة وجواتيمالا هو بلا شك الشريعة أو المصلى الذي كان في أسبانيا المسلمة كما وُصف من قبل. وليس من الضروري أن نتحدث بإلحاح عن تشابه المحراب والكنيسة الصغيرة المفتوحة. وكما قيل كانت شريعة بلنسية محاطة بأسوار وكانت الأسوار أيضًا موجودة حول عدة مصليات في بلاد البرابرة. وبمصلى حفصي بتونس والذي قام ببنائه أبو زكريا، وجدت بعض الأبراج وبعض الشرفات على "شكل مدينة صغيرة"[٣٩]. وبالقرب من تلمسان يقع مصلى المنصورة الذي بناه المرينيون، وكان عبارة عن مربع مغلق بأسوار مرتفعة إلى حد كبير مزودة ببابين مزخرفين في واجهاته الشمالية الشرقية والغربية. ومن المحتمل أن المحراب كان يقع جهة الجنوب مثل ماكانت حالة المسجد الجامع لنفس المدينة[٤٠]. ونظام الهنود في رص الصفوف الذي وجد في أمريكا الجنوبية يستدعي الترتيب الذي كان يتخذه المسلمون في المساجد. ومن المؤكد أنه وجد في أسبانيا في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي مصليات استمرت العبادة في البعض منها بينما توقفت في البعض الآخر، ويؤيد ذلك

مراجع المدجَّنين كالمرجع السـابق ذكره الذي يشير إلى صلاة الاستـسقاء. ومن المعروف أن بعض الأسبان الذين هاجروا إلى أمريكا، وبالأخص رجال الدين، كـانوا على علم، دون ريب، بـالمصليـات (أو الشـريعـة) الموجـودة في أرض الوطن.

ويلاحظ أن وجود أرض واسـعة مسورة في الهـواء الطلق مزودة بقبة مـبنية على أحـد الأطراف لأداء العـبادة كـان يحل مـشكلة ضـيق المكان المخـصص للمصلين داخل المعبد. وكانت هذه فكرة مبدئية يمكن أن تخطر ببال أي مبشر، أو ببال أي مهندس معماري يعمل بالمكسيك في السنوات الأولى للقرن السادس عشر الميلادي، دون أن يلجأ إلى أشكال أو أمثلة سابقة تاريخية لتعليلها.

ومنذ عدة قرون، وهي القرون الأولى لعهدنا، عرفت تشكيلات شبيهة ليس لها أي عـلاقة بالمصليات الإسـلامية في الهـواء الطلق ولا بالكنائس الصغـيرة الأمريكيـة الجنوبية المفتوحـة على الإطلاق، وهي مصليات المقـابر أو المصليات الخاصة بذكر المتوفَّيْنَ الواقعة في المقابر التي تحت الأرض في مدينة روما، والتي كانت عبـارة عن قبو بسيط أو قـبو ثلاثي مفتـوح من الواجهة الأمامـية حيث كانت تمارس الشعـائر الدينية وكان جمهـور المصلين المجتمع أمامها يؤدي فـيها الصلاة.

(*) Torres Balbás, **«Muṣallā» y «Šarī'a» en las ciudades hispanomusulmanas**, pp. 167-180.

(1) **Enc. de l'Islam**, III, p. 797: **muṣallà**, por A. J. Wensinck.

(2) Julián Ribera y Tarragó, **Enterramientos árabes en Valencia y La xarea de Valencia musulmana**, en **Disertaciones y opúsculos**, II, pp. 262-263 y 326-329.

(3) Lévi-Provençal, **Notes de toponomastique hispano-magribine**, II, pp. 222-234.

(4) **Viajes de Alí Bey el Abbasí por Africa y Asia** durante los años 1803, 1804, 1805, 1806 y 1807, tomo primero (Valencia, 1836), pp. 151-154.

(5) Maqqarī, **Analectes**, I, pp. 376-377; **La Péninsule Ibérique**, por Lévi-Provençal, p. 141 del texto árabe y 169 de la trad. francesa.

(6) Pedro Longás, **Vida religiosa**, pp. 123 y 132-133. El señor Longás publica cuatro rogativas de los moriscos —pp. 153-164—: tres para implorar la lluvia y la otra solicitando de Allāh que alejase de los campos el azote del pedrisco.

(7) Julián Ribera, **Jueces de Córdoba**, p. 16 del texto árabe y 19 de la trad. castellana.

(8) Ibn 'Idārī, **Bayān**, II, pp. 182 y 213 del texto árabe y 289 y 333 de la trad. francesa de Fagnan; E. Lévi-Provençal, **Histoire de l'Espagne**, I, pp. 73, 115 y 374.

(9) Ribera, **Jueces de Córdoba**, pp. 85 del texto árabe y 105 de la trad. castellana. No se concreta en esta obra en cuál de las **muṣallàs** de Córdoba tuvo lugar el hecho referido; supongo sería en la de la orilla derecha del Guadalquivir.

(10) Ibn al-Qūṭiyya, **Historia de la conquista**, pp. 12-13 y 206 del texto árabe y 9 y 177 de la trad. castellana.

(11) Ibn 'Iḏārī, **Bayān**, II, pp. 173 y 213 del texto árabe y 276-277 y 330 de la trad. francesa.

(12) **Córdoba de la primera a la segunda conquista de la ciudad por los berberiscos, según al-Bayān al-Mugrib de Ibn 'Iḏārī**, trad. G. Lévi della Vida, p. 162.

(13) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, pp. 124 del texto árabe y 151 de la trad. francesa.

(14) **Ibidem**, pp. 21 del texto árabe y 27 de la trad. francesa.

(15) Miguel Asín Palacios, **El «Abecedario» de Yūsuf Benaxeij el malagueño**, p. 16.

(16) Lévi-Provençal, **Notes de toponomastique hispano-magribine**, pp. 222-230. De la **Bāb al-šarī'a** de Marrākuš hay noticias en 541/1147; la de Fez forma parte del recinto almohade empezado por Ya'qūb al-Manṣūr (580/1184-595/1199), y fue construida en 600/1203-1204; la de Taza se cita en 685/1286.

(17) **Primera Crónica General**, tomo I, texto (Madrid, 1906), c. 880, p. 551; Menéndez Pidal, **La España del Cid**, I, p. 339.

(18) Ribera, **Disertaciones y opúsculos**, II, p. 260.

(19) Bofarull, **Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia y Cerdeña**, pp. 179, 264, 290, etc.

(20) **Ibidem**, p. 155.

(21) Derribóse este antiquísimo portal, dice Teixidor, en 1726, para fabricar la iglesia de la Congregación. «El arco que era mui elevado, estava uno de sus estrivos dentro de dicha iglesia, i el otro fuera, delante de las gradas que ay en la calle» (**Antigüedades de Valencia**, tomo I, p. 179). Este mismo autor refiere —p. 155— que el portal se llamaba de la Xerea «por salir al lugar donde hacían las Justicias (los moros) que en su lengua llaman ellos **Xara**».

(22) Ribera, **Disertaciones y opúsculos**, II, p. 329.

(23) ...**illam exeream que est inter illa duo molendina ad portam de Exerea sicut vadir usque ad civitatem et sicut vadir usque in finem illarum aquarum** (Bofarull, **Repartimientos**, p. 229).

(24) Pedro Antonio Beuter, **Primera parte de la Corónica general de toda España**, y especialmente del Reyno de Valencia, lib. I, cap. 33; lib. II, cap. 37; **Antigüedades de Valencia**, Teixidor, t. I, p. 180.

(25) Privilegio de población otorgado por don Jaime I a los sarracenos pobladores del arrabal de Játiva, el año 1251: ...**toti Aljamae sarracenorum praesentium et futurum in ravallo Xativae, habitantium, et habitandorum, et vestris et eorum successoribus in perpetuum, ravallae Xativae totum integre, de pariete Foveae usque ad alium parietem de Exerea cum duobus figueralibus, qui sunt in costa**... (**Condición... de los moriscos**, por don Florencio Janer, p. 199).

(26) Ibn Baškuwāl, **al-Sila,** biog. 599, p. 280.

(27) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** pp. 183-184 del texto árabe y 221-223 de la trad. francesa.

(28) **Ibidem,** pp. 183-184 del texto árabe y 221 de la trad. francesa; Ibn Faḏl Allāh al-Umarī, **Masālik,** I, **L'Afrique, moins l'Egypte,** trad. Gaudefroy-Demombynès, p. 239.

(29) Los testimonios, en **La Alhambra de Granada antes del siglo XIII,** por Torres Balbás, p. 161.

(30) Ibn al-Aṯīr, **Annales du Maghreb,** trad. Fagnan, pp. 593-595; **Kāmil,** edic. Tornberg, t. XI, p. 187. Según Ibn al-Jaṭīb, Ibn Mardanīš acampó en la elevada colina, inmediata al barrio del Albaicín, que se llamaba en su tiempo, es decir, en el siglo XIV, «colina de Ibn Mardanīš», nombre que aún persistía en el siglo XVI. En distinto lugar la llama el literato granadino «colina de Ibn Sa'd», que vale igual, por ser otra manera de designar el mismo personaje. Dice Ibn al-Jatīb que el Albaicín está al pie de la montaña inmediata a la colina de Ibn Sa'd.

(31) Manuscrito de Ibn al-Jaṭīb de la col. Gayangos, f.º 169, citado por don Francisco Codera, **Estudios de historia árabe española,** pp. 133-134.

(32) G. F. Riaño, **La Alhambra,** pp. 191-192.

(33) Gómez-Moreno, **Guía de Granada.**

(34) R. Dozy, **Recherches,** I, pp. 382-383.

(35) **Romancero de romances moriscos,** pp. 42-43.

(36) **Paseos por Granada y sus contornas,** que en forma de diálogo traslada al papel don Joseph Romero Iranzo.

(37) **Histoire des Berbères,** por Ibn Jaldūn, t. IV, pp. 327 y 478-479.

(38) Rafael García Granados, **Capillas de indios en Nueva España (1530-1605),** pp. 3-29; Angulo Iñíguez, **Historia del arte hispanoamericano,** I, pp. 178-190. También pudiera señalarse —ya se ha hecho— influencia de las mezquitas en iglesias mejicanas de múltiples naves separadas por hileras de columnas, y abiertas, como lo están aquéllas, del lado del patio. Así la Capilla Real aneja al convento franciscano de Cholula, y la de San José de los Naturales, dependiente del convento de San Francisco de Méjico, ambas de siete naves.

(39) **Chronique des Almohades et des Hafçides attribuée à Zerkechí,** p. 33.

(40) Marçais, W. y G., **Les monuments árabes de Tlemcen,** p. 214; **Manuel d'Art musulman, L'architecture,** II, p. 489.

# الفصل الثاني

## المُصارَة

"مُصَارَة" MUSARA هي كلمة عربية غير معروفة في دول المشرق الإسلامي. وطبقًا لما كتبه "دون خايمي أولبير أسين" Asin في عهد حديث ووفقاً للمراجع المذكورة فيما بعد التي تؤيد وجهة نظره تدل هذه الكلمة على مكان مخصص لتمرينات الفروسية ومكان لراحة الجمهور وتسليته كان يقع خارج بعض المدن المسلمة في الغرب، كان الناس اعتادوا العَدْوَ فيه على ظهور الخيل وكذلك النزهة سيراً على الأقدام[1]. وكان ذلك المكان عبارة عن مساحة مستوية مناسبة للتمرينات العسكرية ولممارسة رياضة الفروسية وألعابها. وفي بعض الأماكن، كما في قرطبة وفاس، يتفق مكان المُصارَة مع مكان المصلى الواقع في الهواء الطلق خارج أسوار المدن[2]، والذي كان يتطلب أيضاً مكاناً واسعًا، مسطحًا نسبيًا، ليتجمع فيه المصلون في العيدين، عيد الأضحى وعيد الفطر، وليؤدوا صلاة الاستسقاء، إلخ[3].

وكانت الألعاب والتمرينات العسكرية للفروسية إجبارية لتدريب جزء كبير من السكان الذين كان عليهم، علاوة على النزاعات الأهلية الداخلية، مباشرة الحملات التي كانوا يقومون بها كل عام تقريبًا عند بداية اعتدال الجو ضد النصارى، وكان عليهم أن يدافعوا عن أرضهم ضد الغارات العسكرية لتلك القوات. وكان سباق الخيل ولعب الصولجان على الخيل يعدان من التقاليد القديمة الراسخة بين المسلمين. وحسب قول يُنسب للرسول فإن الملائكة تحضر الألعاب البشرية الثلاثة الآتية: سباق الخيل؛ ولعب الزوج مع امرأته والرماية. ويقال عن الرسول [صلى الله عليه وسلم] أيضاً إنه اعتاد مشاهدة سباق الخيل

الخاصة به. وكانت تلك الرياضة مسموحًا بها في نظر الفقهاء ما دامت على غير رهان. وهناك العديد من المراجع عن سباق الخيل بمصر في القرن التاسع[٤].

وكانت المُصارَة ساحة واسعة، ولهذا السبب كانت تصلح للاستعراضات العسكرية. وكانت مصارة قرطبة ـ وهي الأولى من مصارات الأندلس وأكثرها ذكرًا ـ تمتد إلى بعض الأراضي الواقعة جنوب غرب المدينة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير. وكانت تتصل بباب الجسر عن طريق "الرصيف" الممتد على طول حافة النهر قبل وصوله إلى "منية الناعورة" التي أسسها الأمير عبدالله[٥].

وهناك خبر يفيد عن قيام سباقات الخيل "أو الملعب" Mallab ـ ولم يذكر هذا الخبر أنها كانت تتم بالمصارة ـ في عهد الزيري "باديس" في الرَمْلة "Alramla" خارج مدينة غرناطة، وكانت الرملة مكاناً مستوياً قريبًا من باب الرملة الذي استمر حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي[٦]. أما الاستعراضات والتدريبات العسكرية فإن الخشني يذكر أنه جرى في سنة ٢٧٣ ـ ٢٧٥هـ / ٨٨٦ ـ ٨٨٨م استعراض عسكري كبير بساحة المصلى الواقع في مصارة قرطبة في عهد المنذر، وقد حضره بنفسه. وفي إحدى الليالي رأى المؤلف نفسه في المنام أنه تلاقى في تلك المُصارَة مع أربعة أشخاص راكبين على جيادهم[٧].

ويشير ولي العهد "دون خوان مانويل"، الذي كان دون شك على علم تام بعادات المسلمين الأسبان، في كتابه "**أمير لوكانور**" أنه في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي قام أحد أمراء المسلمين بالخروج من مدينة مسلمة

"وأمر الرجال المسلمين جميعًا بالخروج منها على خيولهم وعلى أقدامهم، وأمر المسلحين منهم أن يستعرضوا وأن يُظهروا مهاراتهم وتدريباتهم بالأسلحة، واطَّلع على الأسوار والأبراج وحصون المدينة"(٨). وهناك مراجع أخرى تتحدث عن مُصارة قرطبة وعن موقعها وتبين أنها كانت واسعة وتقع على أبواب المدينة، ولم تذكر تلك المراجع وظيفتها الدائمة السابق ذكرها. وقام ثعلبة بن سلامة العاملي، حاكم أسبانيا، بنقل عدة آلاف من الأسرى العرب أنصار أهل المدينة ومن البربر إلى مُصارة قرطبة سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م بغرض بيعهم في المزاد، وعندما تولى الوالي الجديد أبو الخطار الحسام بن ضرار "B.Dirar" أمر بإطلاق سراحهم(٩). وبعد ذلك بسنوات قليلة عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م قامت قوات عبد الرحمن، ولي العهد الذي أصبح أميرًا فيما بعد، وهو أول من حمل اسم ولي العهد، بعبور نهر الوادي الكبير من إحدى مخاضتيه، وانتصر انتصارًا نهائيًا بمُصارة قرطبة على أنصار يوسف الفهري الوالي أو الحاكم الأخير لأسبانيا الإسلامية(١٠). وفي عام ٢٠٢هـ/ ٨١٩م أمر الحكم الأول بصلب ٣٠٠ من متمردي الربض الواقع على طول رصيف الحافة اليمنى لنهر الوادي الكبير الممتد من المرج حتى المُصارَة(١١). وهناك خبر عن مُصارة بالقرب من مدينة لورقة Lorca جرت فيها معركة بين قوات أمير قرطبة ومتمردي "تدمير" Tudmir سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢ - ٨٢٣م(١٢).

إن كلمة "مُصارة" المسبوقة بـ «أل» التعريف اختلطت بألفاظ اللغة الرومانسية مثل العديد من الكلمات الأخرى منذ فترة مبكرة. وهناك حقل كرم يقال إن اسمه "كرم المُصارَة" Almuzara ورد ذكره في وثيقة مؤرخة من ٩٦٤ في البشيرو Becerro في "دير سان بيدرو دي كاردينيا" P.de Cardena و"نهر

الـمُصارَة" بقطر "أستورجا" المبـين بوثيقة أخرى مؤرخة من ١١٢٥ الواقع في "تومبو" بمدينة أستورجة(١٣).

وبعد الاستيلاء المسيحي اسـتمرت الـمُصارَة في بعض المدن في أداء أغراضًا مماثلة لأغراضها الأصلية لمدة قصيرة، واستمرت بتسميتها المتأثرة باللغة القشتالية "المثارة" Almuzara؛ أمـا في مدن أخـرى فـقد اندمج هـذا الاسم بالأسمـاء الجغرافية الخاصة بالقطر واستمر ذلك حتى أيامنا هذه. وبوجه عام يسمى المكان المخصص للتدريبات العسكرية ولركوب الخيل في مدن قشتالة بالكلمات المشتقة من اللغة اللاتينية "كوسو" Coso وتيلا Tela منذ القرن الثالث عـشر الميلادي. وكانت تلك المصطلحـات تشير أسـاسًا، وبالأخص منذ أواخر القـرن الخامس عشر الميلادي، إلى المكان الذي كانت تصارَع فيه الثيران، وهي الرياضة السائدة منذ ذلك الوقت(١٤).

إن التمـاثل واضح بين معـاني الكلمـات: المثارة Al muzara وكوسو Coso وملعب السباق Corredera وتيلا Tela ـ والكلمات الأخيرة ابتـعدت سريعًا عن اللغة العربية ـ ويبين كتاب **القانون القشتالي** التابع لمدينة قلعة دي هينارس Alcala de Henares بُعْد المصطلح العربي عن المصطلحات القشتالية الخاصة بالـمُصارَة. ولابد وأن ذلك الكتاب قـد حُرر بعد بـداية القرن الثالث عـشر الميلادي بفـترة طويلة في أغلب الظّن، وهو يضم أنظمـة قانونية سـابقة تم تحويلهـا إلى اللغة الرومـانسيـة(١٥). وهو يبين الأمـر الموجّه إلى كل "فـرسـان مدينة القلعـة أو مقـاطعتهـا وإلى الذين يختلفـون إلى الكوسو "Coso" و"المثارة" ألا يحملوا رمحاً ولا قضيبًـا حادًا؛ وكل الرجال الذين يدخلون وينتظرون في الـمُصارَة أن لا يفتشوا أي فارس"(١٦). والاعتقاد الأرجح أن هذا المنع المـشار إليه لا يتعلق

بمُصارَة مـا واقعة بقلعـة دي هينارس، وهي مدينة مسـيحيـة تشكلت في القرن الثالث عشر الميلادي حول كنيسـة سان خوستو؛ بل إنه على الأرجح يُعَد نظام عام ورد في عـدة قوانين. فهـذا النظام ظهر في فتـرة سابقة في لائحـة مدينة مدريد المؤلفة في بداية القـرن الثالث عشر الميلادي، في عهد ألـفونسو الثامن، لأغراض شـبيـهة بما ذكر من قـبل. ويوضح الغرامـة المطبقة علـى من يحمل أسلحة حـديدية حادة في الأماكن التـالية: "الـمُصـارَة" أو الرملة أو المدينة أو السوق أو في المجلس. وكانت الغرامة أربع قطع فـضية، وأضيف بند آخر إلى اللائحة سنة ١٢١٩ ينص على أن: "من يجـري في الكوسو حامـلاً رمحاً أو قضيباً حاداً يقوم بدفع قطعتين فضيتين. ."[١٧] وفي ذلك الوقت حلت الكلمةُ اللاتينية "كوسو" محل كلمة «الـمُصارَة» العربية الأصل.

وأغلب الظن أن اسم الـمُصارَة في مدينة مدريد يشير إلى مكان معين، ذلك لأن هناك مكانًا آخر معروفًا بـ "تيلا" أو "كوسو" مذكورًا في مراجع تعود إلى عـهد كـارلوس الخامس، ويُطابِق الاسمُ الأخـيرُ الأولَ وهو الـمُـصارَة، وقـد استـمر هذا الاسم حتى بداية القـرن التاسع عشـر الميلادي. وفي سنة ١٥٢٩م كان "التيلا" يقع بين غابة القصر (المعروف اليوم بحقل العربي Campo del Moro) والجسر الجديد لمدينة شقوبية[١٨]. وفي مخطط تكسيرا Texeira حدد مكان التيلا على أرض مسـتوية على الضفة اليـسرى لنهر "مـانثنارس"، على يمين الاتجاه المؤدي إلى جسر شـقوبية ماراً بالباب المسـمى، بباب جسر سيجـوبيا، أو بباب الجسر، ويكون "الـتيلا" محصـوراً بين المسار المشار إليه والغـابة الملكية تحت باب "لابيجا"[١٩]. وهناك بعض الخرائط المؤرخة منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي تبين نفس المكان والغابة التي تحولت إلى حدائق على الطراز الفرنسي،

وقد حلت محلها حدائق "حقل العربي" Compo del Moro المعروفة حاليًا بتلك التسمية.

ومنذ استيلاء ألفونسو الأول المحارب على مدينة سرقسطة دعيت المنطقة الواقعة في ضواحي المدينة التي تبلغ مساحتها ٤٫٣٠٠ كيل تقريبًا المُصارَة، وهو الاسم الذي ظل مستعملاً حتى الآن Al Mozara، وهي عبارة عن أراض خصبة مزروعة بالغلال وحقول الكرم وأشجار التوت وأشجار الزيتون وبساتين الخضروات الواقعة في ضواحي المدينة على الضفة اليمنى لنهر الإيبرو Ebro. وتروى هذه الأراضي بقنوات مائية متفرعة من "الساقية" المعروفة بساقية المُصارَة التي تستمد مياهها من نهر "خالون" بواسطة خزان مبني بين "كاستيلاز" و"الأجون"، الذي كان يغذّي بمياهه الجعفرية(٢٠).

ويرجح الاسم والتضاريس والموقع أن المُصارَة التي يتكرر اسمها في جغرافية المنطقة نشأت عن مُصارة من مصارات سرقسطة المسلمة ثم انتقلت هذه التسمية امتداداً كبيراً.

وهناك مُصارة استثنائية نظرًا لموقعها داخل أسوار مدينة شقوبية وقد أتى ذكرها في خطاب ملكي عام ١٤١٢م خاص بعزل اليهود. وكانت تلك المُصارَة تقع بجوار دير "سانتا ماريا دي لامرثيد" De La Merced التي وجد فيها المعبد اليهودي الأصغر(٢١). وفي أوائل القرن السابع عشر الميلادي يذكر "كولمينارس" اسم "شارع المُصارَة" ضمن الآثار القليلة الباقية التي تركها المسلمون ضمن أسماء الأماكن(٢٢).

وكان في مدينة فاس الجديدة في القرن الرابع عشر الميلادي مُصارة خارج "باب الشريعة" يسميها القرطاس في أحد مراجعه "بالجنة" وبمرجع آخر

"بالفحص" (الحقل)؛ وقد نبت فيها محصول جيد من الغلال ذات النمو السريع[٢٣]. وفي نفس القرن يطلق الكاتب الشرقي العُمَري اسم المُصارَة على الحديقة الملكية في مدينة فاس، التي كان ينقل إليها الماء بعجلة هيدروليكية مشهورة[٢٤]. وكانت الحديقة تقع بجوار القصر طبقًا لقول ابن خلدون، وقام سلطان فاس أبو الحسن بإنزال ملك غرناطة فيها عندما ذهب طالباً مساعدته ضد أهل قشتالة عام ٧٣٢/ ١٣٣١ ـ ١٣٣٢م[٢٥]. كما رتب ملك المغرب استقبالاً حافلاً لمحمد الخامس المخلوع من العرش، وذلك عندما كان جالسًا في خيمته المنصوبة بمُصارة مدينة فاس، وقد حضر استعراض أنصاره كما ذكر ذلك المقري نقلاً عن ابن الخطيب[٢٦]. وقد وقعت الأحداث السابقة بين شهر رمضان من عام ٧٦٠هـ أغسطس ١٣٥٩م، وهو التاريخ الذي خلع فيه ملك مدينة غرناطة، و١٧ من شهر شوال ٧٦٢هـ المقابل لـ٢٠ من شهر أغسطس ١٣٦١م التاريخ الذي غادر فيه الملكُ المغرب، متجهاً إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. وكانت مُصارة مدينة فاس النزهة المفضلة لأهل المدينة منذ القرن الرابع عشر الميلادي[٢٧].

وفي القرن السابع عشر الميلادي يذكر الرحالة "شارنت" Charent في مراكش مُصارتين واحدة كبيرة والأخرى صغيرة، بالإضافة إلى الحدائق العامة الرائعة المليئة بصنوف من أشجار البرتقال والليمون والنخل والزيتون وأشجار التين والرمان، بالإضافة إلى شجيرات الياسمين والزهور العطرة. وهي حدائق اعتاد الجميع الذهاب إليها للتنزه فيها[٢٨].

وأغلب الظن أن المُصارَة كانت المسرح الذي يتم فيه العرض الدوري، أو تفتيش الجنود والفرق العسكرية كما هي العادة الجارية في العالم الإسلامي

كله. وفي مـراكش في القرن الـسادس عـشر الميـلادي كان الـسلطان يحتـفل بالاستعراض كل ثلاثة أشهر[٢٩]. وفي سنة ١٢٦٤م أصدر ألفونسو العاشر أمرًا أجبر به أفـراد الشعب بمدريد والفرسان على الاشـتراك في عرض يقومـون فيه بعرض الأسلحة التي يمتلكونها، وكان ذلك العرض يقام مرتين سنويًا: مرة في منتصف شهر مارس، ومرة أخرى يوم عيد سان ميجل[٣٠].

وباختـصار يمكن أن نؤكـد أن بعض المدن الأسبـانية المسلمـة المهمـة كانت تخصص مكانًا واسـعًا مستـويًا خارجهـا لتدريبات الفروسـية والاستعـراضات العسكرية وملعبًا لسـباق الخيل، كان يستعمل أحـيانًا مصلى في الهواء الطلق. وبعد السيطرة المسيحية استمر ذلك المكان يؤدي الوظيفة السابق ذكرها في بعض الحالات بأسماء مختلفة مثل: كوسو أو تيلا.

(1) Oliver Asín, **Historia del nombre «Madrid»**, pp. 342-347. El autor hace un cumplido estudio filológico del nombre **al-muṣāra.** Antes trataron del complejo problema de su etimología y significación, Dozy y Engelmann (**Glossaire des mots**..., pp. 180-184) y Eguílaz (**Glosario etimológico**, pp. 241-243). Según Oliver (p. 342), tan sólo registra la palabra muṣāra el Diccionario latino-árabe de Leiden, elaborado en España en el siglo XII, en el que se le da el sentido de **stadium** (**Glossarium latino-arabicum ex unico qui extat codice leidensi undécimo seculo in Hispania conscripto**, ed. Christianus Fredericus Seybold, p. 480).

(2) Dicen que una de las **musāllàs** de Córdoba estaba en **al-muṣāra**: Ibn 'Iḏārī, **Bayān**, II, texto, pp. 182 y 213; trad., pp. 289 y 330; **Una crónica anónima**, edic. de Lévi-Provençal y García Gómez, p. 126; al-Jušanī (véase **infra**, p. 221) e Ibn Hayyān (Dozy y Engelmann, **Glossaire des mots**..., p. 390).

(3) Torres Balbás, «**Musallà**» y «**šari'a**» **en las ciudades hispanomusulmanas**, pp. 167-180.

(4) Mez. **El renacimiento del Islam**, p. 484. Según Lévi-Provençal, la moda de los torneos en campo cerrado parece posterior al siglo X, lo mismo que las carreras de caballos, pues el arte de la equitación no se desarrolló en España hasta que los jinetes magribíes y sobre todo los oficiales ifrīquíes venidos a la Península al declinar el poderío omeya enseñaron a sus reclutas andaluces los métodos norteafricanos (**España musulmana**, por Lévi-Provençal, p. 286).

(5) Puede verse la situación de la **muṣàra** cordobesa en el «Plano esquemático de Córdoba en el siglo X», según Lévi-Provençal, inserto en **España musulmana**, t. V, fig. 100, p. 235.

(6) Lévi-Provençal, **Deux nouveaux fragments**, p. 261.

(7) Ribera, **Jueces de Córdoba**, p. 16 del texto y 19 de la trad.

(8) Infante don Juan Manuel, **El conde Lucanor**, cap. XI.

(9) **Ajbār Maŷmū'a**, texto, pp. 44-45; trad., pp. 53-54; Ibn 'Iḏārī, **Bayān**, II, texto, p. 33; trad., p. 48; t. IV, **España musulmana**, por E. Lévi-Provençal.

(10) Ibn al-Qūṭiyya, **Historia de la conquista de España**, texto, p. 28; trad., Ribera, pp. 21-22; Ibn 'Iḏārī, **Bayān**, II, texto, p. 48; trad., p. 72.

(11) Ibn 'Iḏārī, **Bayān**, II, texto, p. 78; trad., p. 124; **España musulmana**, t. IV, por Lévi-Provençal, pp. 107-109.

(12) Ibn 'Iḏārī, **Bayān**, II, texto, pp. 83-84; trad., pp. 132-133.

(13) Gómez Moreno, **Iglesias mozárabes**, pp. 120 y 122 (el autor traduce el primer nombre por cercado); **Becerro gótico de Cardeña**, por el R. P. Luciano Serrano, p. 369.

(14) Pedro de Alcalá, a comienzos del siglo XVI, dice en su vocabulario granadino que se llamaba **ráhba** —plural **rihāb**— «el cosso do corren el toro» (**De lingua arabica**, p. 158). Sebastián de Covarrubias define así el coso en los primeros años del siglo XVII: «La plaça o campo donde lidian los toros, **quasi corso**, porque los corren allí», y la tela «la que se arma de tablas para justar y de allí mantenerla» (**Tesoro de la Lengua Castellana o Española**). El **Diccionario oficial de la lengua española** (décimosexta edición) define el coso como «Plaza, sitio o lugar cercado, donde se corren y lidian toros y se ejecutan otras fiestas públicas». Y da como uno de los significados de tela, el de «Sitio cerrado dispuesto para lides públicas y otros espectáculos o fiestas». Desde el siglo XV, con la construcción de las plazas mayores en el centro de las villas castellanas, las lidias de toros, justas y torneos, convertidos en grandes espectáculos públicos, tuvieron lugar siempre en los magníficos escenarios que eran esas plazas.

(15) Torres Balbás, **Estudios de arqueología e historia urbana: Complutum. Qal'at 'Abd al-Salām y Alcalá de Henares**, p. 177.

(16) **Fueros castellanos de Soria y Alcalá de Henares**, edic. y estudio de Galo Sánchez, 170, p. 304.

(17) Sánchez, **Fuero de Madrid**, CIX y CXII, pp. 53 y 56.

(18) Carlos Fernández Casado, **Historia documentada de los puentes de Madrid**, pp. 70-71.

(19) «Topographia de la Villa de Madrid descripta por don Pedro de Texeira, 1656.»

(20) Hay documentos de 1140 y 1144 en los que se nombra la almozara. Según Asso, «almozara significa en árabe tierra de sembrados porque el suelo de este término estubo antiguamente destinado para los granos más nobles», Asso, **Historia de Aragón** (la pri-

mera edición de 1798), pp. 59 y 284; Manuel Mora Gaudó, **Ordenanzas de la ciudad de Zaragoza,** pp. 162-163.

(21) Fidel Fita, **La Judería de Segovia,** pp. 289, 292 y 349-350.

(22) **Historia de Segovia,** por Colmenares, pp. 79, 488, 557, 558 y 631. En planos de Segovia de no hace muchos años, aún figura la calle de la Almuzara que desde la Refitolería, por detrás de la catedral, iba a la plaza de San Andrés.

(23) **Qirṭās,** trad. Huici, pp. 36 y 40. Como **muṣāllà** y **šarī'a** son términos sinónimos, parece que el oratorio al aire libre estaba en Fez, como uno de los de Córdoba, en la **muṣāra.**

(24) **Al-'Umarī, Masālik,** p. 156.

(25) Ibn Jaldūn, **Hist. Berbères,** tomo cuarto, pp. 216-217. En la muy detallada obra de Brunschvig, **La Bérberie orientale,** dos volúmenes, no hay referencia alguna a **al-muṣāra,** por lo que parece era lugar desconocido en Ifrīqiya. Tampoco figura la palabra en la **Encyclopedie de l'Islam.**

(26) **Al-Maqqarī,** edic. de Būlāq, III, pp. 48 y 191, según cita de Dozy y Engelmann, **Glossaire des mots...**

(27) Ibn Faḍl Allāh, ms. citado por Louis Massignon, **Le Maroc dans les premières années du XVe siècle,** p. 236.

(28) Dozy y Engelmann, **Glossaire des mots...,** p. 182.

(29) «Arḍ, parade militaire» (Encyclop. de l'Islam, I, p. 645).

(30) Al'Umarī, **Masālik,** pp. 41 y 205.

# الفصل الثالث

## المدافــن

إن مصطلح "المدافن" Los Cementrios السـائد في الغرب يقـابله في اللغـة العربية "مقبرة" جمعها "مقـابر". وقد كان بناء المقبرة في اعتبار الأهالي عملاً دينياً لوجه الله، له ثوابه في الآخرة مثله مثل بناء مسجد أو حفر بئر أو إصلاح جسـر. وكان في مدينة قـرطبة عدة مـقابر أنشـأتها بعض الأميـرات وسراري الأمراء، وقـد اشتهرت تـلك المقابر بأسمـائهن وكانت ملكية المقـابر تعود في معظم الأحيان إلى "إدارة الأوقاف".

كـان القاضي و"المحـتسـب" هما المكلفين بالإشـراف على المقـابر في كل مدينة، كما أنهما كانا يقومان بإنشاء مقبرة جديدة أو أكثر عند ازدياد السكان أو عند وقوع وباء؛ وعليهمـا أيضًا أن يهدما المباني المقامـة بجوار المقبرة دون إذن، وأن يمنعا أية أعمال غير أخلاقيـة لا تليق بقدسية المكان. ويذكر ابن عبدون أنه في عام ١١٠٠م كان يُطلب من المحـتسب ومن مساعديه بمدنية "إشـبيلية" أن يقوموا مرتين يوميًا على الأقل بتفتيش مقابر المدينة كيلا يساء استعمالهـا[١].

**موقعها: المدافن الواقعة خارج الأسوار والمدافن داخل المدن.**

أول ما يلاقي الزائر عند وصوله إلى ضـواحي مجموعة سكنية إسـلامية هو مدينة الموتى. وعلى غـرار التقليد الرومـاني، كانت المقابر المسلمة تمتـد خارج الأسوار، كـما أنها كـانت غير مـسورة، وكانت تقع بـجوار الطرق المؤدية إلى الأبواب الرئيسة لسور المدينة. وهذا ما يوضحه سيرفانتس Cervantes عندما قال إن "كريستوستومو" الراعي الطالب "أمر في وصيته أن يتم دفنه بالريف "كأنه

عربي"[٢]. وكانت الحالة عكس ذلك في المدن النصرانية في القرون الوسطى، إذ كان الأحياء والأموات يتكدسون داخل أسوارها، وذلك بسبب وجود المدافن حول الرعيات في بادئ الأمر؛ ثم بُدئ بعد ذلك، في أسبانيا بدفن الأموات داخل الكنائس واستمرت تلك العادة حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

ولما كانت المدينة مزدحمة فقد كان الأهالي يقومون ببناء عدة مقابر خارج أسوارها بشرط أن تكون الأرض صالحة لذلك، وذلك لدفن أهالي الضواحي الواقعة بجوار كل باب من أبواب السور. وهناك مراجع تذكر وجود ثلاث عشرة مقبرة تقريبًا بمدينة "قرطبة" في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وثلاث عشرة مقبرة أخرى بمدينة "سبتة" في بداية القرن الخامس عشر الميلادي. بينما كان في مدينة "طليطلة" المزدحمة مقبرة واحدة فقط، أو ربما اثنتان، وكانت تقع في الفيجا Vega خارج الأسوار أمام باب "الشاكرة" Bisagra. وكان مجرى نهر التاجه العميق الذي يتسرب بين حيطان صخرية من الجرانيت كان يحول دون دفن الأهالي خارج مداره؛ وقد تكررت هذه الحالة بمدينة "رندة" Ronda.

ويبدو أنه وجدت في بعض المدن مقابر خاصة؛ ففي مدينة بطليوس Badajaz يرد ذكرٌ لـ "مقبرة المرضَى" سنة ٣٩٢/ ١٠٠٢[٣]. ويذكر ابن الخطيب اسم شخص دفن في "مقبرة الغرباء" بغرناطة سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م بالربض الواقع بالقرب من النهر أمام "النجد"[٤].

وبالإضافة إلى المقابر العامة كانت هنالك عدة مدافن صغيرة، بعضها داخل الأسوار والبعض الآخر بعيد عن النواة السكنية. وكان لكل قصر ملكي "روضة" Rawda، أي ضريح، يقع عادة في إحدى الحدائق[٥]. فكان بقصور

قرطبة في القرن العاشر "روضة"[٦]؛ وكذا في قصور أشبيلية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر[٧]؛ وبقصر "بلنسية" قبل انتزاعها بفترة وجيزة[٨]؛ و"بقصر الحمراء" بغرناطة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر[٩].

وتعددت القباب في داخل المدن وفي ضواحيها وفي الريف على السواء[١٠]، والقبة عبارة عن مصلى ذي قاعدة مربعة مفتوحة من جانب واحد أو من جوانب أربعة، وهي مغطاة بقبة أو بهيكل خشبي. كان يبنى تحتها مقبرة لولي من الأولياء أو لرجل ناسك، جرت العادة أن يدفن بجوارها الأهالي نظراً لقداسة المكان. وكان يدفن في المصلى أو "الروابط" [جمع "رابطة"][١١]، الواقعة في الريف أو في المدينة، المرابطون أو الناسكون الذين قضوا فيها حياة زهد؛ واحتفظت تلك الروابط ببقايا لهؤلاء المرابطين. ويفيد التاريخ أن بناء القبة كان عادةً يؤدى إلى إقامة مبنى أو عدة مبان يطلق عليها اسم "الزاوية" Zawiya، وتقع في أغلب الأحيان حول مقبرة معتبرة، وكانت تشمل "مكانًا للعبادة"، و"كُتابًا لحفظ القرآن"، و"فندقا" مجانًا، كما يوجد عادة مدفن مخصص للورعين من الأهالي الذين رغبوا في دفنهم بعد الموت بالقرب من بقايا المرابط[١٢].

وكان الأهالي يضطرون إلى إتمام الدفن داخل الأسوار في ظروف خاصة مثل حصار المدينة. ويذكر ابن بشكوال أن العالم القرطبي «ابن بنوش» دفن في سنة ٤١٥هـ (١٠٢٤ ـ ١٠٢٥م) في "رحبة عزيزة" Aziza بقرطبة بجوار "منزل ابن شهيد"، ولم يجسر الأهالي على نقل جثته إلى المقبرة نظرًا للرعب الذي كانت تبثه عصابات البربر التي كانت تطوف بقصد النهب حول المدينة.

ويذكر المؤلف نفسه رحبة أخرى في المدينة ذاتها، وهي رحبة ابن دِرْهَمَيْنِ،

وفيها المسجد المبني حديثًا المعروف بمسجد "يوسف بن بسيل" الذي دفن فيه أبو الوليد مالك بن عبد الله السهلي سنة ٥٠٧/ ١١١٤م[١٣].

ويذكر كتاب **توزيع مدينة بلنسية** أن ابن جحاف قام ببناء مقبرته في داخل المدينة، وربما كانت مقبرة قاضي تلك المدينة المشهور ابن جحَّاف الذي أحرق خارج أسوارها بأمر "السِّيد" في مايو لعام ١٠٩٠م[١٤]. وبعد ذلك بفترة قليلة، أي في السنوات الأخيرة للقرن الحادي عشر، بعد قيام "السِّيد" الحربي بحصار بلنسية، اضطر الأهالي إلى دفن الموتى في الرحاب الذين ماتوا داخل أسوارها؛ لأنهم لم يتمكنوا من الخروج إلى المقابر الخارجية[١٥]. وفي سجن نفس المدينة، أثناء ثورة عبد الملك، توفي "عاصم بن خلف التُّجِيبي" سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢ ـ ١١٥٣م ودفن داخل السور[١٦].

**النباتات حول المقابر.**

لا نعرف مراجع خاصة تشير إلى وجود أشجار "السرو" في المقابر الإسلامية لشبه الجزيرة الإيبيرية، ومن المعروف أن هذه الشجرة المأتمية هي الرمز البارز الذي يتوافر في المقابر الحديثة في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وبما أنه عثر على هذه الشجرة في بعض مدن أفريقية الشمالية، مثل مدينة تلمسان، فإنه يمكننا القول بأنها كانت تزيّن بقممها الحادة مقابر الأندلس.

وفي سنة ١٤٩٤م وجد الرحالة الألماني "منزر" في الجزء القديم من مقبرة غرناطة مزرعة من أشجار الزيتون، وكانت تلك المقبرة واقعة عند مخرج باب إلبيرة ELVIRA.[١٧] وفي إحدى مقابر قرطبة المعروفة "بمقبرة نجم" وجدت نخلة واحدة[١٨]. وفي مدينة سبتة في السنوات الأولى من القرن الخامس عشر الميلادي كانت الأغصان الشائكة لأشجار العنّاب البرية تحمي "مقابر الشهداء"،

ومن المعروف أن العديد من الأتقياء كانوا يختلفون إلى ذلك المكان لزيارة «مقبرة الحافَة Al Hafa»[19].

كما لا يُعلم حتى الآن أكان متنزّه الزجّالي شبه العام، الواقع بجوار باب اليهود والذي وجد به قبران لصديقين حميمين، يقع بداخل مدينة قرطبة أم بخارجها[20]. ومن المؤكد أنه لم يوجد في أسبانيا المسلمة مقبرة واحدة مخصصة لآلهة الخمر، تلك المقابر التي كانت تنبت في أرضها جذور الكرم بين بقايا الجثث البشرية، ومن المعروف أن ابن قُزمان كان يتمنى أن يُدفَنَ أهاليه في تلك المقابر، كما كان يتمنى أن يكون كفنهم من أوراق الكرم المتوَّج بنبته[21].

**أسماء المقابر.**

كثيراً ما كان يطلق اسم المقبرة على باب المدينة المجاور لها. فهناك باب في الجهة الشرقية لمدينة لشبونة Lisboa سمي بباب المقابر[22]. وكذلك الباب الجنوبي لمدينة رندة Ronda، الذي كان معروفًا بباب المقابر Almocabar بعد التعديل الطفيف الذي أجري على تلك التسمية. ومن المعروف أن ذلك الباب قد أسس في القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر، وكان ذلك المدخل المسطح هو الطريق الوحيد، والأسهل المؤدي إلى المدينة المرتفعة[23]. ومن المعتقد أن أبواب "الجزيرة" القديمة وأبواب "مدينة جيان" قد اتخذت نفس الاسم وقد سميت في الكتب التاريخية القشتالية بأبواب فونساريو Fonsario[24]. ومن المحتمل أن هذا الاسم كان ترجمة للتسمية العربية.

وقد كانت المقبرة والمصلى أو "الشريعة" (المصلى المقام في الهواء الطلق) يقعان خارج المدينة بجوار مداخلها[25]. وكان المصلى والمقبرة متجاورين في معظم الحالات، وتسمى المقبرة حينئذ بمقبرة المصلّى كما في قرطبة وبلنسية

ومالَقة وسبتة.

أحياناً كانت المقبرة تستمد اسمها من أحد أبواب أسوار المدينة المجاور لها. من ذلك مقبرة باب "الشاكرة" "Bisagra" في "طليطلة"؛ و"مقبرة باب القبلة" Bab al - Qibla بسرقسطة؛ و"مقبرة باب إلبيرة" ilbira بغرناطة؛ و"مقبرة باب بجّانة Bagana " في ألمرية؛ و"مقبرة باب الحرش al- haras في بلنسية. وهناك مقبرة في ألمرية سُميت بمقبرة "الحوض" Al-Hawd أخذت اسمها من الحي الواقع بجوارها. وقد استمدت المقابر أيضًا أسماءها من المباني المجاورة لها. فهناك "مقبرة البرج" بمدينة قرطبة إشارة إلى البرج الذي كان يطل على المقبرة. و"مقبرة الخِيام" في بلنسية، ومن المحتمل أن تلك الخيام كانت متاجر انتشرت بجوار المكان نفسه.

وكثيرًا ما حملت المقابر اسم مؤسسها أو مؤسِستها مثال ذلك "مقابر أم سَلَمة" مثل "مقبرة مُتْعة ومُعَمَّرة"، وكانت الأولى زوجة محمد الأول، بينما كانت الأخريان سريتين؛ إحداهما سرية الحاكم الأول والثانية سرية لعبدالرحمن الثاني بمدينة قرطبة ـ وقد يطلق على المقبرة أيضاً اسم ولي صالح دفن فيها "كمقبرة ابن حازم" ومقبرة ابن العباس ومقبرة أبي العباس الوزير بمدينة قرطبة.

**القبور.**

هناك تباين شاسع بين القبور الرومانية وقبور الأندلس؛ فمقابر الأندلس تتسم بالتقشف والمساواة السائدة في الإسلام. ولهذا السبب كانت مجردة من التماثيل المأتمية الجبّارة ومن الأضرحة الفاخرة التي تحتفظ بذكر من دُفن فيها، وتظهر الزهْو والبطولات التي ليس لإظهارها مسوّغ على الإطلاق بعد الموت.

ويذكر الحميري أن أحد حكام مدينة سرقسطة أراد أن يبني ضرحياً به قبة على قبر اثنين من "التابعين" المدفونين بمقبرة الباب الشرقي المسماة بمقبرة "باب القبلة" ولكنه تراجع عن تنفيذ ذلك المشروع بعد ما قالت امرأة ورعة وتقية إنها شاهدت في الرؤيا التابعيين يطلبان وقف أي بناء على قبريهما(٢٦).

وعلى الرغم من ذلك كان غالباً ما توجد قبة أو أكثر دُفن تحت سقفها أحدُ العلماء الكبار، أو الناسكين أصحاب الكرامات، أو أشخاص مشهورون بتقواهم أو بحياتهم التقية. وقد جرت العادة أن يدفن بعض الأموات حول تلك المقابر طمعاً في الاستفادة من التأثير الروحي المنبعث من تلك الأماكن المكرمة. وكان بعض الناس يتخذون الأولياء المدفونين في تلك المقابر شفعاء وحماة لباب السور وأنهم الحراس الذين يمنعون دخول سوء الحظ أو المحنة من خلاله(٢٧).

ويُذكر في أواخر القرن العاشر وجود كنيسة جنائزية "بمقبرة الربض" بقرطبة اضطر القاضي ابن زرب Ibn Zarb أن يلجأ إليها هاربًا من عداوة العوام(٢٨). وبالقرب من قبر القاضي الخطيب أبي عبد الله التّنْجالي، بالمقبرة الواقعة خارج باب الربض "فونتنالا" بمدينة مالَقة، قام الأهالي بنصب مصلى يحمل اسمه بسبب حياته الزاهدة وورعه، وذلك فوق قبر محمد بن قاسم الأعمى أبي عبدالله المعروف باسم ابن القطان، الذي توفي ضحية طاعون سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩-١٣٥٠م(٢٩). وكتب تيكسيدور Teixidor عن المقبرة المسلمة بمدينة بلنسية، التي بني بها السوق بعد الاستيلاء عليها، وذكر «أنه كان في جوارها العديد من المساجد الصغيرة المخصصة للأولياء والمرابطين التي تؤدى فيها الصلوات شفاعة لمتوفيها ولم يكن ذلك إلا اختراعًا شيطانيًا غرضه الوحيد أن

يقلد ما قام به حواريو سيدنا عيسى بمصلياتهم حول القبور»[٣٠].

وقد اختلفت القبور باختلاف المدن والأقاليم. وسنبدأ فيما يلي في الدراسات الأولى لأنواعها المختلفة، حيث مقارنتها بالأنواع الموجودة في المناطق البربرية أو بالأحجار القبرية المنقوشة للمناطق الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط، قد تؤدي إلى اكتشاف علاقات وتأثيرات غير معروفة. وتعد الأحجار القبرية مثلاً والتي عثر عليها بمدينة ميورقة شبيهة لأحجار قبور أفريقية أكثر مما تشبه التي وجدت في باقي شبه الجزيرة الإيبيرية. وهناك ظاهرة واضحة جداً، وهي أن كمية ونوعية المواد المستعملة في القبور وقيمتها ومدى أبعادها الفنية، وقيمة الكتابات والنقوش المكتوبة التي تتفاوت في نوعيتها، كل تلك تعد بيانًا عامًا لتقييم تاريخ اقتصاد المدن. فإن كثرة أنواع الرخام القبري المنقوش نقشًا جيدًا بمدينة "ألمرية" في عهد المرابطين، وهي تفوق ما وجد منها بين بقايا أقطار الأندلس، تدل على الثراء الظاهر في تلك المدينة في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي[٣١].

وكانت العادة في ذلك الوقت أن تدفن الجثث على أحد جنبيها مما كان يسمح بحفر لحد ضيق جداً، والرأس متجه إلى الجنوب والوجه في اتجاه مكة. كما كانت العادة أن توضع علامة مميزة (نُصُب) فوق قبور الأهالي العاديين، وهي عبارة عن حجر خشن غليظ غير مشغول مغروز على رأس القبر ومجرد من أية لافتة. وقد عثر على مقبرتين بقاياهما قائمة حتى الآن عند مخرج بابي مدينة "باسكوس" Vascos المقفرة الواقعة قرب مدينة طليطلة، وقد حُدد موقع القبر فيهما بأربعة أوتاد أو أعمدة من الجرانيت، غير مصقولة مغروسة في الأركان، والعمودان الواقعان عند رأس القبر أعلى من العمودين الآخرين،

وتقع بين الأعمدة الأربعة حافة خشنة من نفس المادة تحدد مساحة القبر وتكاد تبرز فوق سطح الأرض.

وعندما يكون صاحب القبر ذا مكانة اجتماعية أو اقتصادية مميزة، فإن ذلك يتضح من القبر والحجر التذكاري بطرق شتى، منها ما يلي:

أ ـ الاستعانة بحجرين قبريين كانا عبارة عن لوحين مستطيلين من الحجر أو من الرخام مغروزين رأسيًا ومتجهين إلى القبلة (مكة) أحدهما عند رأس القبر وهو الأكبر، والآخر عند القدمين وهو الأصغر، طبقاً لنظام الدفن الشرعي الذي يتطلب وجود شاهدين يحددان مساحة القبر[٣٢].

ب ـ الاستعانة بحجر قبري طويل جدًا من مادة الحجر أو من الرخام، قليل الارتفاع ومثلث المسقط، قائم على عمود ارتفاعه غير محدد، ذي شكل مستطيل موضوع على المحور الطولي للقبر، وتوجد تحته في معظم الأحيان عدة صفوف أو درجات مبنية من الملاط أو من الطوب الأحمر. واللغة الدارجة المغربية تسمي النوع من المقابر "بالمقبرية"[٣٣].

جـ ـ الاستعانة بنصبة أو بقطعة من ساق عمود أسطواني الشكل مغروزة عند رأس القبر.

د ـ الاستعانة بحجر قبري واحد أو حجرين قبريين صغيرين من المادة الخزفية الزجاجية على هيئة قرص، أحدهما مغروز عند رأس القبر والآخر عند القدمين.

وبالإضافة إلى الطرق الأربع هنالك طرق أخرى متفرقة؛ منها الألواحُ الحجرية المكتوبة بخط الرقعة، وهي عبارة عن ألواح غير منتظمة في الشكل خشنة معظم الأحيان تنتمي إلى الأوساط البربرية والريفية، وتُشكَّل بأشكال عديدة مختلفة[٣٤].

وفي الأنواع (أ) و(ب) و(جـ)، تحدد الحـواف المبنية من الحـجر أو بالطوب الأحمـر المغروز رأسيـاً في أرض مستطيل القـبر[٣٥]. ومن الأرجح أن الألواح المسـتطيلة، في بعض حـالات من النوع الأول، تغلق الجـوانب الصغـرى من مساحة القبر بدلاً من وضعها في داخل تلك المساحة. وسوف نوضح فيما بعد أين قيّد النقش والكتابة في حالة وجـودهما، لأن هناك "مقبريات" Mqabriyas أو سيقان أعمدة مجردة من الكتابات المقتبسة.

وهناك كتابات قليلة الدقـة لقبر في "مقبرية" عثـر عليه في مدينة ألمرية منذ أكثـر من قرن تقريبًا. وبما أنه لم يقـيد في العديد منهـا اسم المدفون ولا تاريخ وفاته فإن هناك شكاً في أن يكون الحجر القبري الآخر، المستطيل، والمغروز في الأرض، ربما عند الرأس هو المكمل للنصب التذكاري المأتمي الصغير.

وعثـر منذ عدة سنوات في مدينتي غـرناطة ومالقة على قـبور بها حـافات توضح أصل الكثـير من الألواح الحجـرية القبرية، وأغلبـها يحـمل على أحد جانبيه وعلى جزء مـن واجهته نقشًا. وتظهر تلك الأحجار القـبرية حاليًا على جدران بعض الكنائس التي تم بناؤها في الثلث الأول من القـرن السادس عشر في مدينة غرناطة، منهـا سان كريسوبال "San Cristobal"، وسان خيرونيمو San Jeronimo وسانـتو دومينـجو Santo Domingo؛ وهناك أمثلة أخـرى ظاهرة على سور قصر الحمراء Alhambra الواقع على يسار الطريق الصاعد من باب المحكمة حتى "القصبة".

وكان مصير تلك الألواح الحجرية القبرية مثيراً لاهتمام علماء غرناطة خلال عدة قرون، وقد لوحظ أنـها تنتمي إلى نوع الأحجار المستـخرجة من "ملاها" Malaha. وقد أشار "برمودث دي بيدراثا" إلى العدد الكبـير المستعمل منها في

أساسات جدران بعض المنازل، واعتقد أنها من أصل فينيقي وليست رومانية أو إسلامية أندلسية[٣٦]. وأكد "إيشيبريا" Echeverria بفطنته وحِدة نظره أنها تنتمي إلى بنايات إسلامية[٣٧]. بينما يعتقد كونتريراس Contreras أنها استعملت لتزيين جدران المباني الإسلامية بغرناطة. وطبقًا لذلك فقد أمر هذا العالم بدهْن الجدران الجانبية لفناء بركة قصر الحمراء على هيئة حليات عريضة مسطحة نسخاً للزخرفة التي في الألواح الحجرية القبرية السابق ذكرها[٣٨]. ولكن هذا افتراض غير معقول، لأنه لو كان بذلك الشكل لكانت حليات باقي الطبقات محجوبة[٣٩]. ثم جاء "إيجيلاث" Eguilaz وجوميث مورينو Gomez-Moreno ـ بالأخص ـ واكتشفا أصل تلك الألواح الحجرية القبرية. فقد كانت العادة أن تُغرز في الأرض على الوجه الجانبي حول المساحة المستطيلة للقبر بحيث يظل الجزء المنقوش منها مكشوفًا ومرئيا[٤٠].

وحين عُثر في الطبقات الأرضية السفلية بمدينتي غرناطة ومالقة، كما قيل، على قبور كاملة سليمة باستثناء الألواح الحجرية الخاصة بها، اتضح مصير تلك الألواح الحجرية[٤١].

ويتراوح سمك الأحجار القبرية ما بين ٨ و١٠ سم؛ أما أقصى طول لها فيتراوح بين ١٣٨ و١٦٦ سم، علمًا بأن الجانب الطولي هو الذي يحدد حافة القبر. أما الأحجار الموضوعة في منطقتي الرأس والأرجل فإن طول الواحد منها يتراوح بين ٣٨ و٥٨ سم. وفي حالات كثيرة يحفر فيها تجاويف أو نقر بغرض تثبيت أركانها معًا. وبعضها أملس، ولكن أغلبها مزين بزخارف هندسية على هيئة ضفائر متقاطعة وشُريفات وآيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي منقوشة على الجانب الظاهر، بينما تظهر تلك الزخارف على هيئة أشرطة أفقية

في الجزء القريب من الأوجه الكبيرة ـ فـي الوجه الواحد أو في الوجهين معًا ـ أما باقي اللوحة الحجـرية فإنه يظل مخفياً مغروزًا مختـبئًا تحت الأرض. وتلك الأشكال الزخرفية تبرز على أرضية اللوحة المحـفورة حفرًا طفيفًا. أما الكتابـة فإنها تكـرر عبارات "المجد لله" و"العافية" أو "الملك لله"(٤٢).

وفي أواخر القـرن الخامس عشر الميـلادي وصف منزر قبور مـدافن بغرناطة على النحو الآتي: «كان القبر يتكون من أربعـة ألواح حجرية تستوعب المدفون بصعـوبة، وكانت قـاعدة القبـر تسوى بالطوب الأحمـر حتى لا تلمس الجـثة الأرض التي تحـتهـا ثم يسوّى القـبر بالتـراب". وعندما ذكـر المقبـرة الكبـيرة الواقـعـــة خـارج أسوار بـاب إلبيـرة Elvira قـال "إن قبـور الأثريـاء كـانت محاطـة بسور مربع، كالحدائق، من الأحجار القيمـــة"(٤٣).

وأحـيانًا كـانت تستـبدل الألواح الحـجريـة بالطوب الأحمـر المرتب بنفس الشكل. وتوجـد في المتاحـف والمجـموعـات الأثرية بمنطقتي غرناطـة وليبانتي Levante، وبالأخص في مدينة مالقة، وهي مركز فخاري كبير، أمثلة كثيرة من تلك الألواح. وغالبها عبارة عن أجزاء متناثرة وقطع مبرنقة بأرضية بيضاء، أما الجزء المرئي مـنها فإنه مـزخرف بأشكال هندسـية وكـتابة بخط الرقعـة باللون الأزرق(٤٤).

وقد احـتفظ المتحف الأثري لمدينة طليطلة بطوب القـبور، وهو من الطوب المحمـر غـيـر المبرنـق بمقـيـاس ٢٧ سم تقريبًا للـطول، و٢٠ سم في الارتفاع و٣٥ مم للسُمـك، والزخرفة الوحـيدة الظاهرة عليـها عـبارة عن آيات قـرآنية معروفة بالخط الكوفي مصبوغة باللون الأسود أحياناً، ومرتبة على هيئة أشرطة ضيقة مستطيلة على أحد الأطراف الطويلة منها، وأرضيتها غائرة بصورة طفيفة

لكي تبــرز الحروف. ومن المرجح أنهــا واردة من المقبــرة الكبيرة أو من المــقابر الواقعة خارج "باب بيساجـرا (باب الشاكرة) فهي تتكون كذلك من العديد من ذلك الطوب[٤٥].

وفي بعض مناطق مراكش وباقي بلاد البربر (الجزائر وتـلمسان) توجد أيضاً قبور محاطة بحافات من الأحـجار أو من الطوب الأحمر، وعلى طرفيها ألواح حجرية ذات كتابات مقتبسة[٤٦].

**الألواح المستطيلة المزينة بأقواس[٤٧]**

كانت المساحة المكتوبة في الألواح القـبرية ذات الشكل الموشوري ـ المستطيل في الأندلس التي ظهـرت قبل القرن الحـادي عشر غـائرةً محـاطة بإطار مربع الشكل وخاليـة من زخرفة تذكـر ولا يتجاوز أكـبر مقـاس لتلك الألواح متـراً واحدًا؛ بينما يبلغ عرضها ٥٠ سم تقريباً وسمكها يتراوح بين ٦ و١٠سم. ومنذ الأعوام الأولى للـقرن الثاني عـشر بدأت زخـرفة الوجـه الأمامي منهـا بقوس مُصْمَت على هـيئة محراب مـحفور حفراً طفـيفًا، ويبدو أحيـانًا مرتكزًا على بعض الأعمـدة، ورؤوس تلك الأعمدة تكـون مزخرفـة على هيئة حـبال سلة المنطاد في أغلب الأحيـان. ولكن في بعض الحالات يشير إلى الصـورة الرمزية للمحـراب. وهنـاك حـزام مـن الكتابة المنقوشة على طول الوجه الأمامي منها، عدا الجزء السفلي، وبالتالي يعد القوس المصمت محاطًا بالكتابة على هيئة إطار (أفريز). والبنائق الظاهرة لمعظم الألواح القبرية مليئة بزخرفة التوريق Ataurique (وأقدم اللوحات القبريـة القوسية تظهر فيها الزخرفـة على هيئة أصداف نصف دائرية) وزخرفـة التوريق تظهـر أيضاً في المثلثـات المحصورة بـين إفريز الإطار المحيـط باللوحة ونقـاط انطلاق القوس. ومـفتـاح معظم الألواح يـدور حول

التعبيرات الزخرفية من النوع الزهري، ولبعض هذه الألواح إفريز من الشريفات على الحافة العليا منها، وبقاع القوس على الشريط المستطيل الواقع بينه وبين الجزء الأفقي للإطار تظهر الكتابة المأتمية(٤٨).

وأقدم لوحتين قوسيتين معروفتين حتى الآن عثر عليهما في قرطبة: إحداهما تابعة لأميرة من أميرات المرابطين متوفاة عام ٤٩٦/١١٠٣(٤٩) والأخرى تابعة "لسيد" من سادة المرابطين متوفى عام ٥١٧/١١٢٣(٥٠). أما بالنسبة إلى أغلب اللوحات الأخرى فإنها واردة من مقابر مدينة ألمرية؛ وأقدم واحدة تعود إلى سنة ٥١٩/١١٢٥، وأحدث واحدة تعود إلى سنة ٥٤٠/١١٤٥. وقضى استيلاء النصارى على المدينة خلال سنتين فيما بعد على استعمال ذلك النوع من الألواح.

ووجدت في أماكن أخرى واقعة تحت سيادة الإسلام أمثلةٌ متناثرة حتى تاريخ قريب. فنجد واحدة منها في المتحف الأثري الأهلي واردة من "بيليا ديل ريو" Villa del Rio (محافظة بطليوس) تابعة لوزير يدعى إبراهيم المتوفى سنة ٥٤٧/١١٥٢(٥١)؛ والثانية في متحف الآثار لمدينة «مرسية» وهي عبارة عن لوحة قوسية من الرخام تابعة لامرأة متوفاة سنة ٥٥٧/ ١١٦٢(٥٢). وهناك لوحة أخرى قبرية واردة من مرسية أيضًا، هي غير كاملة، تابعة لقائد من قادة ابن مردنيش مؤرخة بسنة ٥٦٦/١١٧١ موجودة حاليًا في متحف الآثار الوطني(٥٣). ويتكون القوس من الأوراق ذات الطرف المنطوي على هيئة خطاف، ويشكل باطن القوس العديد من الخطوط المنحنية المقعرة. وبمدينة لورقة Lorca عثر على أجزاء للوحتين أخريين من الرخام بأقواس مصمتة مجردة من الاسم والتاريخ، وإحدى اللوحتين في بلدية تلك المدينة والأخرى في

مدريد ضمن مجموعة خاصة[٥٤]. ويملك متحف قرطبة «عبارة» مكتوبة على ضريح شيخ موحدي توفي سنة ٥٨٧/ ١١٩١، ويظهر باللوحة قوسان متماثلان على هيئة حذوة الفرس الحادة والكتابة القبرية مكتوبة بخط الرقعة[٥٥].

وأحدث اللوحات الحجرية الثلاث من المجموعة المذكورة زيِّن القوسُ فيها بالتطريز النباتي، وإحدى تلك اللوحات ناقصة وخالية من التاريخ، وهي من الرخام، وأصلها من ميرتولا (بالبرتغال) Mertola بمتحف يابرة Evora [٥٦]؛ والثانية أصلها من مدينة جيّان، موجودة حاليًا بالمتحف الأثري بقرطبة ومؤرخة بسنة ٦٦١/ ١٢٦٣[٥٧] والثالثة من مدينة غرناطة موجودة بمعهد دون خوان ببلنسية وهي عن شخص متوفى سنة ٧٤٢/ ١٣٤٢[٥٨].

وضمن الألواح الحجرية الثمانية والسبعين، أو بعض أجزائها، الواردة من مدينة تونس ومن ضواحيها، هنالك لوحة قوسية واحدة فقط مستطيلة الشكل من الرخام فيها ذكر لشخص مسلم متوفى سنة ٥٤٢/١١٤٧[٥٩]. وهناك ألواح حجرية مستطيلة الشكل مزودة بأقواس، تستند على أعمدة في بعض الأحيان، محفوظة بمتحف فن الآثار الإسلامية بالقاهرة[٦٠].

ومن المحتمل أن هذا الأسلوب كان قادماً من شرق البحر الأبيض المتوسط وانتشر في مدينة ألمرية إبان عهد المرابطين، ومن هذه المدينة انتشر إلى باقي أقطار الأندلس. والألواح الموجودة بمدينة ألمرية بلغت قمة الكمال في الكتابة والفن المتاز. وبدلاً من إطلاق اسم تلك المدينة على تلك الألواح لتميزها يبدو أنها سميت بألواح المرابطين، ويرجع هذا إلى أن أكثر تلك الألواح نقش في عهد سيادة المرابطين على شبه الجزيرة.

**المقبريــات.**

أغلب المقبــريات الأسبــانية يعود أصلهــا إلى مقابــر مدينة ألمرية[٦١]. وهي مصنوعة من الرخــام الأبيض من نوع "ميكائيل". وقد عثر على بعــضها تحت الأرض في نفس المواقع منذ أكثــر من قرن واحد. وقد وصفت أشــكالها بدقة غير كــاملـة، وهي تستنـد على قاعـدة مـستطيلـة من الأحجار مـؤلفة من عدة درجات ـ أقـصاها أربع ـ وكــان يستند عــلى القاعــدة عدد آخر من الــدرجات الصغيرة المصنوعة من نفس المادة[٦٢]. وتتسم هذه المقبريات في مدينة ألمرية بقلة ارتفاع الـقاعدة الموشــورية المستطيلــة الشكل المنقوشــة على نفس الكتلة، التي تستند عليــها اللوحة الحجرية ذات المســقط الثلاثي. وتظهر الكتــابات المنقوشة على الواجهتين الطويلتين المنحدرتين المنحرفتي الــشكل؛ أما الواجهات الجانبية، الثلاثـية الشكل والمائلة أيضًــا، فتظهــر بها كــتابات منقــوشة أحــيانًا وزخــرفة "توريق" أحيانًا أخــرى؛ ومن النادر وجود كتابة أو زخرفة على حــافَات قاعدة المقبرية. وكان ارتفاعها يتراوح بين ١٠ و٢٢ سم؛ وطولها بين ٩٣ و١٦٦سم؛ وعرضها بين ١٥ و٢٢ سم. وفي بعضها تــوجد زخرفة من التوريق موزعة بين الحروف الكوفية.

وفي هذه المقبريات في "ألمرية" Almeria توجد كتابات ضــريحية لأشخاص توفوا في السنوات ٤٥٢/ ١٠٦٠م و٥٤١هـ/ ١١٤٧م، وفي هذا التاريخ الأخير استولى ألفونسو السابع على المدينة. أما القطعــتان المحتفظ بهما بمتحف "فابر" ـ بالشركة الخاصــة بعلم الآثار بمدينة مونتبيليه في (فرنســا)، فربما ترجعان إلى ألواح مدينة ألمرية. ومن المحــتمل أنه استــولى عليهــما مواطنو كــاتالونيا الذين اشــتركــوا في انتــزاع مدينة ألمرية في سنــة٥٤١هـ/ ١١٤٧م، وهما من الرخــام

ومجردتان من أي تاريخ(٦٣).

وهناك "مقبرية" من الرخام محفوظة في «مالقة»، تنتمي إلى نوع من المقبريات الموجودة بمدينة «ألمرية» وتحمل اسم مريم المتوفاة سنة ٦١٨/ ١٢٢١، مكتوب عليها عبارات بالخط الكوفي، وزخرفة من التوريق المميز لعصر الموحدين(٦٤). وقد عثر في تلك المدينة على مقبريات خزفية خالية من أية كتابة: منها "موشور ثلاثي جالس على قاعدة مستطيلة من الصلصال المحروق مبرنقة باللون الأخضر"(٦٥). ومنها ما يوجد بمتحف قصر الحمراء بمدينة غرناطة، وهو من الرخام وخالٍ من الكتابات الضريحية(٦٦). ويحتفظ معهد بلنسية دون خوان بمدريد بواحدة منها عليها كتابة بخط الرقعة، وهي من نفس المادة التي تنتمي إلى مقبريات مدينة ألمرية. ويرجع أصلها إلى مدينة "نيابلا" (ولبة)، وهي مؤرخة بـ ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨-١٣٢٩م(٦٧).

واللوحة الضريحية الظاهرة على هيئة مقبرية، كما رأينا، عثر عليها بمدينة ألمرية ولم تكشف اللوحة الضريحية الأخرى المؤلفة من لوحتين مستطيلتين، وكما قيل من قبل فقد انتشرت الأولى في المنطقة الشرقية. وقد عثر على نماذج منها في مدن كارتاخينا Cartagena (٦٨) ومرسية، وبيناروث (كاستيليون). ويحتفظ متحف الآثار القديمة بمدينة مرسية باثنتين منها مادتهما من الرخام(٦٩). أما اللوحة التي عثر عليها بمدينة بيناروث فإنها تشتمل على كتابة بخط الرقعة المنحوت حسب العادة، وهي شاهد لقبر شخص توفي سنة ٦٣٩/ ١٢٤١؛ وهي محفوظة بمتحف كلية سانتو دومينجو في أوريولة (أليكانتي)(٧٠).

وقد عثر عند تقليب الأرض سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢، شرق جزيرة "بالما دي ميورقة" على مسافة غير بعيدة من كنيسة ديل تيمبلي Temple بجوار "باب

البلاط" في "المُدَيْنة جوميرا " Almudayha de Gomera" على قطع من المقبريات المصنوعة من الحجر الجيري الأبيض من المنطقة المعروفة محليًا بسانتانيي Santanyi. وتختلف هذه الألواح عن ألواح ألمرية بارتفاع قاعدتها المنقوشة التي تظهر على أوجهها الرأسية والمائلة كتابات ضريحية بالخط الكوفي وزخرفة من التوريق. وبإحدى القطع تظهر الكتابة بالخط الكوفي على الأوجه المائلة، وبخط الرقعة مختلطاً بالتوريق على الواجهات الرأسية، ويوجد في هذه القطعة وفي قطع أخرى حزام مزدوج مضفّر على هيئة إطار حول الكتابة. وقد بلغت الكتابة فيها غاية الجمال والنحت روعة في الفن. وهي خالية من التاريخ. ومن المحتمل أنه تم نحتها في عهد سيادة بني غانية Banu Ganiya على الجزيرة ٥٢٥-٥٩٩/ ١١٣١-١٢٠٢ ربما في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي كما تدل عليه الكتابة التي بخط الرقعة وبعض الدلائل الأخرى[٧١]. وهي تشبه إلى حد كبير المقبريات الموجودة في شرق بلاد البربر.

وقد عثر أيضًا بجزيرة "بالما "خارج "باب الكحل" bab AlKuhl على عدة قطع من الألواح الضريحية قليلة الارتفاع طويلة الشكل، ولها مسقط رأسي على هيئة حذوة الفرس الحادة بدلاً من الأخرى العادية الثلاثية الشكل، وهي ترتكز على قاعدة مضفرة. وعثر على قطعة شبيهة لها ضمن المقبريات المذكورة في سنة ١٨٨١-١٨٨٢ عند حفر أساس بناء ملجأ التيمبلي Temple[٧٢]. ولايعد هذا شكلا نادرًا في المقابر الأخرى في العالم الإسلامي[٧٣].

وتكثر المقبريات ذات الدرجات في "الربطات" شمال أفريقية[٧٤] وفي أفريقية بين الاعوام ٤٧١-٥٨٩/ ١٠٧١-١١٩٣[٧٥]، وتتسم هذه المقبريات بأنها ضيقة للغاية وقواعد أعمدتها مرتفعة؛ والقديم من تلك القواعد مزود

بأحزمة مزخرفة؛ أما المقبريات اللاحقة فإنها ذات تشكيل متنوع. وبعكس ذلك نجد الألواح في بلاد البربر الوسطى حيث تتكون قاعدتها من أوجه ملساء مغطاة بالكتابات. وفي "قلعة بني حماد" (بالجزائر) عثر على العديد منها، إحداها كانت لشخص يدعى "عيسى" متوفى عام ٥٢٥/ ١١٣٠(٧٦). وفي متحف "إتفان جزيل" Etephane Gsell بالجزائر ست مقبريات، بعضها مشوه تشوهاً شديدًا، وتنتمي إلى المقبريات التي عثر عليها في القلعة، وتعود إلى الفترة الواقعة بين ٤٨٨-٥٣٥/ ١٠٩٥-١١٤٣(٧٧).

وليس لدينا علم عن الألواح التي عثر عليها قبل نهاية القرن الثالث عشر في المناطق البعيدة الأخرى غرب المغرب(٧٨). ومن المحتمل أن استعمالها انتشر في عهد سيادة "المرينيين"، وهي تكثر بمقابر مدينة فاس وبالأخص الألواح الخالية من الكتابة(٧٩). وفي المقبرة الملكية لمدينة "شيلا" Chella هناك خمس مقبريات من الرخام يرجع أقدمها إلى سنة ٧٥٠/ ١٣٤٩؛ وأحدثها إلى سنة ٧٧٦/ ١٣٧٤(٨٠). أما المقبريات التابعة للأمراء السعديين الواقعة في ضريحهم بمراكش في القرن السادس عشر، فإن لدينا علمًا تامًا بها وهي مغطاة بشتى أنواع الزخرفة. وإحداها موجودة في مدينة سبتة مؤرخة في أواخر القرن السابع عشر(٨١). وقد أوقف استعمالها في المغرب في الوقت الحالي. ويوجد البعض منها بجزيرة صقلية(٨٢)، ويحتفظ متحف مالطة بعديد منها منحوت من الرخام. إن في دراسة العينات الموجودة دراسة وصفية وتاريخية فائدة كبيرة قد تؤدي إلى معرفة طرق انتشارها.

وقد قيل إن شكل تلك المقبريات يستدعي وجود كومة التراب أو الجثوة الصغيرة التي كانت تشير إلى القبور في الحضارات البدائية. ولكن يبدو أن

هناك أمثلة منها أحدث: كبعض القبور الرومانية وقبور الوثنيين والنصارى المنتشرة على طول الإمبراطورية (مثلاً مقبرة تمجاد بالجزائر)، وكانت مرتَّبة على هيئة صفين من الأحجار المائلة في الاتجاه العكسي، يستند كل منها على الآخر مشكلاً خطاً قوسياً، ويغلق حجر ثالث كل طرف من طرفيهما، وتكون أحرف الالتقاء أحياناً مغطاة نظراً لتشابك بعضها ببعض. وعادة كان الشكل الكلي يستند على قاعدة من الرديم بدرجة واحدة أو أكثر. وضمن الأماكن العديدة التي عثر فيها على هذا النوع من القبور بأسبانيا توجد آثار "بيلو" (قادش)(٨٣) و "تراجونا"(٨٤).

**النصب التذكاري الأسطواني أو من دون العمود(٨٥).**

يقتصر وجود اللوحة الضريحية الأسطوانية الشكل بأسبانيا على مدينة طليطلة ومنطقتها. وقد قام ليفي بروفانسال بجرد ثلاثين وحدة في مدينة طليطلة وضواحيها ودراستها، منها تسع عشرة عبارةٌ عن سيقان أعمدة تذكارية تحمل كتابة بالخط الكوفي البارز، موجودة على هيئة أشكال مستطيلة تقع في الجزء العلوي من العمود، وهي محاطة في بعض الأحيان بإطار من الكتابة المنقوشة أو بزخرفة بسيطة (على هيئة خط مضفر). وبالإضافة إلى ذلك عثر على "ساقين لعمودين" اكتشفا بعد نشر ذلك الكتاب(٨٦). وكما قيل، كانت سيقان الأعمدة تغرز عادة عند رأس القبر، في داخل مستطيل مكون من الطوب الأحمر مغروز في الأرض على جوانبها.

وأقدم لوحة ضريحية أسطوانية الشكل احتفظ بها حتى اليوم يرجع تاريخها إلى عام ٣٩١/١٠٠١، وهي موجودة حاليًا بكنيسة سان أندريس S.Andres في طليطلة، واستخدمت كعمود لسند قوس من النوع المدجَّن(٨٧). ومعظم تلك

الألواح تذكر أشخاصًا متوفين في القرن الحادي عشر، وأحدثها يرجع تاريخه إلى سنة ٤٦٤/١٠٧٤. وهناك لوحات أخرى من النوع المدجن أحدث من الأخيرة بكثير؛ وهي تشتمل على كتابة بخط الرقعة تذكر "زهرة" Zahra المتوفاة سنة ٦٦٠/١٢٦١ ـ ١٢٦٢[٨٨]. أما تلك التي لدينا علم بأصلها فقد عثر عليها جميعًا خارج باب الشاكرة في الجزء الواسع من الوادي الواقع بين ضفاف نهر التاجه وكنيسة كريستو دي لابيجا ومرج سان أيسيدرو. وقد عثر على لوحات تذكارية مأتمية في إيسكيبياس، وأخرى في جوادليرثاس Gua-dalerzas، مما يثبت كثرة انتشارها في الإقليم.

ومعظم تلك السيقان العمودية القبرية منحوتة من رخام المنطقة، وقد نُحتت من الحجر الرملي والجيري، وفي البعض منها نتوء في الجزء العلوي على هيئة طويقة. ويتراوح ارتفاعها بين ٥٦سم و ١,٤٥ متر، أما بالنسبة إلى قطرها فإنه يتراوح بين ١٦سم و٤٥سم.

وفي القطع الأثرية لمقبريات مدينة "مايورقة" التي سبق وصفها يوجد جزء من عمود رخامي رمادي من أصل مجهول، يحمل كتابة بخط الرقعة داخل إطار مستطيل لكنها كتابة غير كاملة وغامضة[٨٩].

إن الساق العمودي أو النصب التذكاري الأسطواني ليس من الألواح الضريحية المميزة في شبه الجزيرة الإيبيرية، ولكنها تكثر في المقابر الإسلامية خارج شبه الجزيرة. ففي مقابر تونس وبنزرت وقسطنطينة كانت العادة أن تتوج تلك الأعمدة الضريحية بعمامة. وتوجد بمتحف مدينة الجزائر ثلاثة نماذج منها من الرخام الأبيض مشتملة على كتابة، واثنان منها مؤرخان بسنة ٤٢٨/١٠٣٧ من أصل مجهول[٩٠].

**الزخرفة الخزفية القبرية.**

لقد ذكرنا من قبل أن العـادة جرت باستبدال الحافات الحجـرية الصغيرة التي كانت تحيط بالإطار المستطيل للقبر بالطوب الأحـمر المغروس في الأرض على جوانب القبر. وكـانت الحافات في مدينة طليطلة مصنوعـة عادة من الطين غير المبرنق، مـزينة بكتابات قرآنيـة بالخط الكوفي البارز. ولكن أماكن أخـرى مثل مَـالَقـة، وغرناطة، ومـرسيـة كان النصـف الأعلى من الطوب يبـرنق باللون الأبيض، لأن النصف الأسـفل والجـوانب السـفليـة منه كانت مـدفـونة تحت الأرض، وعلى الجزء العلوي المبرنق باللون الأبيض انتـشرت زخرفة زرقاء على هيئة أحزمـة كان يكتب عليها عبارات التقـريط بخط الرقعة ـ وتتكرر في تلك العبارات كلمة "العـافية" عدة مرات[٩١] ـ كما يوجد في جانب الجزء العلوي لفات من زخرفـة التوريق وأشكال هندسية ملتوية في أغلب الأحـيان. ولبعض الطوب شق في طرفه ليشتبك بالطوب المجاور له وليؤلف زاوية طرفية[٩٢].

وعلى الرغم من قلة عدد الألواح الضريحـية الخزفية الموجودة فـمن المحتمل أنها توافرت في المدن التي تطورت فيها الصناعـات الفخارية، ومن أمثلتها مدن مَالَقـة وغرناطة ومرسيـة. والألواح الضريحيـة الفخارية التي احتـفظ بها ذاتُ مـقاس صـغيـر ذي شكل معـرورف بالقـرصي، ولها أذنان. وتوجـد الألواح الضريحية القرصية في العديد من القـرى وفي كثير من الحضارات القديمة. وقد كتب عنها العـديد من البحوث، وصدرت بخصـوصها افتراضات مـختلفة عن أصلها وعن معانيها[٩٣].

أما الأنواع الأسبانية الإسلاميـة فهي عبارة عن ألواح من الطين كانت تغرس رأسيًا على رأس القـبر ـ ولا نعلم أكانت توضع لوحة أخرى أقل منهـا حجمًا

في اتجاه الأقدام كما هو محتمل ـ والجزء السفلي من تلك الألواح منها مستطيل الشكل، غير مبرنق ومدفون تحت الأرض، وعلى اللوحة يوجد قرص على هيئة ثمرة اللوز بأذنين مقعرتين وكان هذا الجزء الأخير مبرنقًا كما قيل. وكانت الزخرفة تنتشر على أحد الوجهين أو الاثنين معًا وعلى الجوانب على حسب الحالة.

وهناك لوحة عثر عليها في مدينة ولبة Huelva مصنوعة من الخزف ملونة باللون الذهبي ويوجد في الوجه الأمامي منها كتابة بخط الرقعة، وهي الكتابة الضريحية الخاصة بذكر الطالب الشاب المدعو "بالجبلي" Yabali المتوفى سنة ٨١١/١٤٠٩. أما الوجه الخلفي فإنه مغطى بزخرفة التوريق المرتبة حول عنصر رئيس من النوع النباتي أيضًا(٩٤).

ويوجد بالمتحف الوطني للآثار بمدريد نسخة للوحة ضريحية قرصية من الفخار الذهبي اللون، وجدت من قبل في مجموعة دون أنطونيو بيبس، وقد عثر عليها بمدينة مَالَقة. والزخرفة والكتابة الضريحية على اللوحة الأخيرة، وهي دينية على ما يبدو، لكنها ممحوة تقريبًا. وهناك لوحتان ضريحيتان أصلهما من غرناطة محفوظتان في معهد بلنسية "دي دون خوان دي مدريد"، تظهر عليهما زخرفة زرقاء اللون. ارتفاع إحداهما ٢٧سم، وفي الوجه الخلفي منها تتكرر كلمة العافية في عدة سطور. والجوانب مزخرفة بلفات من التوريق. أما الثانية فإنه لم يبق منها إلا جزؤها العلوي فقط، وتنتشر عليه زخارف نباتية باللون الأزرق أيضًا(٩٥). وقد سبق القول كيف عثر في مدينة مَالَقة على مقبريات من الطين المبرنق، خضراء اللون، خالية من الكتابة ومن الزخرفة.

الكتابة المأتمية المقتبسة.

تقتصر الكتابات المنحوتة في ألواح المقابر الإسلامية الإسبانية عادة على عبارات معروفة مستقلة عن المكان وعن الزمان، وهي عبارة عن أقوال دينية وآيات قرآنية مكررة خالية من الإيجاز الجميل واللبق والشعور الإنساني الدافئ الذي تتسم به بعض كتابات القبور الرومانية. وتقتصر النصوص المأتمية في أغلب الأحيان على ذكر اسم المتوفى ونسبته ومنصبه الذي يدل على اختلاف كبير في الدرجة الاجتماعية؛ بالإضافة إلى تاريخ الوفاة وتاريخ الميلاد أو عمره في قليل من الأحيان؛ والشهادة؛ وآيات قرآنية وأدعية دينية. وتنسب تلك الكتابات الضريحية إلى التقاليد الشرقية وتتكرر عباراتها على نحو رتيب. وتختلف عنها كتابات مملكة غرناطة الناصرية التي اتسمت بطلاقتها اللغوية الجزلة غير العادية وبسجعها المقفى(٩٦).

وكان بعض الأهالي يقومون بنحت الكتابة الضريحية الخاصة بهم في أثناء حياتهم، وعند الوفاة كان يكتفى بإضافة تاريخ الوفاة. أما البعض الآخر فإنهم كانوا يرجون من قرأ تلك الكتابة الضريحية أن يدعو الله لهم. وقد أمر علي بن أبي جعفر بن هامُشْك أن ينحت على قبره في شقورة (جيان) أبيات من الشعر(٩٧).

ويوجد على مقبرية من مدينة ألمرية منقولة إلى مونتبليي Montpellier، التي سبق ذكرها، قصيدة رثاء للمتوفى.

والكتابة المنحوتة على أغلب هذه الألواح الضريحية من النوع الكوفي الزاويّ البارز، ولكنها أقل تطوراً من شبيهتها في المشرق(٩٨). وتوجد أقدم كتابة ضريحية بخط الرقعة على لوحة ذات أقواس مصمتة في ذكر شيخ موحدي متوفى سنة ٥٨٧/ ١١٩١ محفوظة في متحف الآثار بقرطبة(٩٩). وتظهر فيها الكتابة بالخط الكوفي في باطن القوسين المشكلين على هيئة حذوة

الفرس الحادة، ويحيط بالكتابة حزام مـن حروف الرقعة المشوهة الرديئة الخط. ويوجد هذان النوعان من الكتابة أيضا على جزء مقـبرية من مايورقة عثر عليها دون تاريخ ودون ذكر اسم المدفون تحتها.

والكتابات التي ظهـرت على لوحة ضريحـية في "ميرتولا" (في البـرتغال) كانت على قبر شـخص متوفى سنة ٥٩٨/ ١٢٠١[١٠٠]. وهناك مقبرية أخرى أصلهـا من "بيناروث"، حـاليًـا (في أوريولا)، لشـخص مـتـوفى سنة ٦٣٩/ ١٢٤١[١٠١]. أما اللوحة الضريحية التي عثر عليها بمدينة جيان وتاريخها سنة ٦٦١/ ١٢٦٣ والمحفوظة في متحف الآثار بقرطبة، فإن الرسم وخط الرقعة المدون عليها ليسا بجودة من اللوحتين السابقتين[١٠٢].

**الحياة حول القبور[١٠٣].**

تقع المقابر الإسلامية خارج أسوار المدينة وبجوار بواباتها قريبة من حركة التدفق البشـري اليومي، ولكنها لم تكن مـختلطة بالحياة المدنيـة كالمقابر النصـرانيـة حتى أوائـل القـرن الماضي. ولم تكن بعيدة عـنها كالمقابر الحالية ـ لأن الحـضارة الحديثة تهرب من الراحلين وتـبعدهم عنهـا وتزورهم في حالات نادرة[١٠٤] ـ أما موتى المسلمين فكانت العلاقة بينـهم وبـين أقاربهم وأصـدقائهم في استمرار دائم.

ومن المؤكد أن موقع المقبرة كان يعرقل تـوسيع المدينة ونشوء ضواح خارجية مجاورة لها. ففي بعض الأحيان يتجاوز نمو المدينة حدود المقابر، وبذلك تختل راحة القاطنين فيها. ومثـال ذلك مدينة أشبيلية في أوج نموها في عهد المرابطين سنة ١١٠٠م؛ فقـد أنشئت بين القـبور المراحيض والمجـاري المكشوفة، ومـبانٍ أخرى ملحـقة بالمبـاني. وكانت تلك المبـاني القريبة تسـمح للأهالي بالاطلاع والتلصص من خلف أبـوابهم ونوافذهم علـى النساء اللاتي أقـبلن إلى المقـابر

لأغراض دينية أو غير دينية. وفي بعض المدن، كما في أشبيلية السابق ذكرها في الفترة المذكورة قبلاً، بالإضافة إلى بعض المقابر في مدنية فاس، أنشئت المدابغ بجوار المقابر. أما في مدن أخرى حديثة فقد استغل الدباغون والرقاقون المقابر لبسط الجلود أو منتجات محلية أخرى عليها. وكانت تحدث أحياناً حركة عكسية: إذ أنشئت المقابر في بعض الأحياء المقفرة بين بقايا المساكن المدمرة كما في مدينة ألمرية. ووصلت حركة تدفق أهل المدينة إلى المقابر محتلة مساحتها أحيانًا أو مؤدية إلى بناء قبور على أرض الأحياء المقفرة أحيانًا أخرى.

وبعد تشييع جنازة شخص ذي مقام لعلمه أو منصبه أو قيامه بأعمال خيِّرة كان الأهالي يختلفون في زيارات متكررة إلى قبره. ويذكر المؤرخون المسلمون العديد من الزيارات من هذا النوع. وقد قص ابن بشكوال موت أبي العباس من إلبيرة في السنوات الأولى من القرن الحادي عشر، الذي سبب حزنًا عميقًا في قلوب أهالي قرطبة، فكانوا يزورون قبره دون انقطاع «بمقبرة ربض» تلك المدينة بعد أدائهم الصلاة إكرامًا له[١٠٥].

وكانت الطرق المؤدية إلى المقابر مزدحمة بالنساء والرجال خاصة أيام الجمعة وبعد أداء الصلاة في المسجد الجامع. وكان بعض الفتيان يتجاذبون الأحاديث مع النسوة اللاتي يسرن وحدهن ـ وفقا لما حكاه ابن حزم والضبِّي ـ وكما فعل الشاعر الرمادي عندما قابل الجارية رائعة الجمال المسماة "بجَلْوة"، بجوار ضريح بني مروان بمقبرة الربض بقرطبة[١٠٦].

وقد أنشئت متاجر بين القبور حيث كان بعض النساء يقضين وقتًا طويلاً بعيدًا عن الأنظار، ولم يكن ذلك إلا حافزاً جيداً لإنماء الهوى لدى العشاق والفساق الذين اعتادوا الذهاب إلى تلك المقابر باحثين عن فرصهم، بإغراء

النساء اللاتي كانت تتكرر زيارتهن إلى ذلك المكان[١٠٧]. وبمدينة إشبيلية في عهد المرابطين كانت المتاجر تتحول إلى خانات للفساد، وبالأخص في ساعات القيلولة وقت الصيف، حين تخلو الطرق من الأهالي. وبالإضافة إلى الفتيان الواقفين في الطرق وبين القبور أيام العيد لمراقبة مرور النساء كان يقبل أيضًا إلى تلك الأماكن الباعة ورواة القصص والعارفون والعازفون الراغبون في تأمل وجوه النساء المكشوفة اللاتي يلبسن ملابس الحداد. ويحكي الخشني قصة منقولة عن مؤلف آخر عن قاضٍ من قضاة قرطبة أمر بتحطيم آلة موسيقية، وكان يعزف عليها بعض العبيد في "مقبرة الربض" السابق ذكرها[١٠٨]. وقد اعتمد القاضي على أحكام الرقابة الصارمة الصادرة من المحتسب الصارم ابن عبدون، وقد بلغ الحال ببعض الناس إلى شرب النبيذ فوق القبور[١٠٩].

وكانت المقابر الإسبانية الإسلامية باختصار المسرح الذي طفحت فيه خارج الأسوار الحياة المكبوتة تحت ضغوط المدينة؛ والذي اختلطت فيه الحياة الإنسانية بمزيجها الخالد للروح الدينية والطهر والشهوة والعواطف البذيئة. فبجانب القبر "الذي ينتظر المرء بغصونه المأتمية" كان الجسد قد استغوى للحياة الشهوانية بعناقيدها الطازجة"[١١٠].

وقد شهد "منزر" سنة ١٤٩٤ عند الجزء الجديد للمقبرة الكبيرة من باب إلبيرة بغرناطة مشهدًا شاعريًا جميلاً يمكن اعتباره ختاماً للأمور السابق ذكرها عن تدفق الحياة اليومية في مدينة الأموات فبعد دفن الجثة جلس بجوار القبر رجل الدين [طبقًا للنص الأصلي] الذي كان يطرب في اتجاه الجنوب بينما سبع سيدات يرتدين أزياء بيضاء، كن يضعن غصونًا من نبات الريحان المعطر على القبر المفتوح حديثًا[١١١].

**مقابر المدن الأسبانية المسلمة.**

**قرطبة.**

يحصى ليفي بروفنسال اثنتي عشرة مقبرة رئيسة بقرطبة المسلمة(١١٢). ويمكن أن نضيف إليها بعض المقابر الأخرى غير المعروفة:

١ - **مقبرة أم سَلَمة**: المعروفة بهذا الاسم العائد إلى أميرة متدينة من العائلة المالكة، زوجة محمد الأول وابنة عمه(١١٣). وقد كانت من أوسع المقابر ولعلها كانت أوسع مقابر المدينة. ويُعتقد أنها كانت تقع في ربض "مسجد أم سلَمة" شمال المدينة على الجانب المقابل لباب اليهود، أو باب الليون في اعتقاد ابن الأبَّار(١١٤)، وعلى مسافة غير بعيدة من "مسجد كوثر" بجوار مقبرة يهودية (١١٥). وذكر بداخل هذه المقبرة اسم "مسجد الضيافة"(١١٦). ويذكر علماء التاريخ تشييع جنازات بهذه المقبرة منذ ٤٣٢/ ١٠٤٠ حتى ٥٢٩/ ١١٣٤ ـ ١١٣٥(١١٧). وبها دُفن البكري المتوفى سنة ٤٨٧/ ١٠٩٤(١١٨).

٢ - **مقبرة حَلاَل**: من المحتمل أنها تقع بالقرب من المقبرة السابقة أو أصبحت جزءاً منها، وقيل إنه كان يفصلها عن مقبرة اليهود الطريقُ الذي أنشئ شمال قرطبة(١١٩).

٣ - **مقبرة ابن حزم**(١٢٠).

٤ - **مقبرة الربض**: كان في مدينة قرطبة بعض المقابر المعروفة بمقابر الربض، إحداها مسماة بالمقبرة "العتيقة"(١٢١) والأخرى أحدث منها، وتسمى في بعض الأحيان "بمقبرة روضة الصُّلَحاء"(١٢٢). وقد أسس المقبرة العتيقة ـ التي كانت أول مقابر قرطبة الإسلامية على وجه الاعتقاد ـ السَّمْحُ الذي وصل إلى أسبانيا سنة ١٠٠/ ٧١٩ ـ ٧٢٠ تنفيذاً لتعليمات الخليفة

عمر بن عبدالعزيز في واد أو سهل منخفض على الضفة المواجهة لنهر الوادي الكبير على الأرض التي كانت جزءًا من ضيعة الخليفة(١٢٣). ومن ثم كان العبور إليها صعباً أحياناً كما حدث سنة ٤٣٩/ ١٠٤٧ حين اضطر الأهالي إلى نقل الجثث بالقارب لدفنها في المقبرة المعروفة "بمقبرة الربض القبلي"(١٢٤) التي تقع بجوار "مصلى الربض"، وكانت تسمى أحيانًا بهذا الاسم، وقد بني فيها أضرحة بني مروان(١٢٥) بالإضافة إلى بعض المصليات المخصصة للموتى. وفي القرن التاسع أصدر "الأسور بن عقبة"، قاضي قضاة قرطبة المعين بأمر عبد الرحمن الثاني قرارًا حدَّد فيه مكان مقبرة الربض. وذهب قاض آخر يسمى "أحمد بن بقيّ" في القرن التالي مع عدد من الفقهاء راكبين الخيل إلى هذه المقبرة، وعلَّم حدودها معتمدًا على القرار السابق ذكره(١٢٦). وقد ذكر ذلك الخشني الذي كان شاهد عيان لهذا الحادث. وقد دفن بمقبرة الربض في سنتي ٣٤٩ ـ ٣٥٠/ ٩٦٠ ـ ٩٦١ يحيى بن حسن وحسن بن محمد المنتميان إلى العائلة المالكة الإدريسية(١٢٧). ودفن فيها المؤرخ ابن حيان سنة ٤٦٩/ ١٠٧٦. وظلت تستعمل في القرن اللاحق.

وعند بناء الضاحية العمالية الحديثة "لاساجرادا فاميليا La Sayrada Familia" على أرض مقبرة الربض في المكان المسمى كامبو دي لا برداد، عند مدخل المعبر، على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، عثر على عدد كبير من الكتابات القبرية أغلبها بقايا قطع، وبينها ألواح حجرية منقوشة ترجع إلى نساء عائلة محمد الأول وعائلتي عبد الله وعبد الرحمن الثالث قبل توليه الخلافة، في تواريخ تتراوح بين الأعوام ٢٦٨ ـ ٣١٢هـ/ ٨٨١ ـ

٩٢٤م[١٢٨]. ونظرًا لوجود جـزء من المقبرة بجوار منعرج حـاد من النهر بدأت الطرق في جـرف أراضي الحافة تدريجـيًا، فأصـاب الدمار القـبور المجاورة لمجرى المياه.

٥ - **مقـبرة الرُّصـافة أو مـقبـرة "فُرانق"** : من المحتمل أنهـا كانت في ربض الرُّصافة شمال المدينة.

٦ - **مقبرة ابن العباس أو بني العباس** : سميت هذه المقبرة (أو بعضها) بمقبرة السِّقاية، وقد ذكر أنها تقع بجوار مساكن "بني هابيل" خارج أسوار باب عباس، الذي كان يُفتح على الحافة الشـرقية لسور "أخاركيا" Ajarquia أو الشرقية[١٢٩]. ويطلق هذا الاسم أيضًا على مـقبرة البرج الواقـعة بجوار الربض الذي يحـمل الاسم عينه. وكانـت المقبرة تمتـد على طول الطريق الرومـاني القـديم (السكة الـعظمى) التي تنطلق من المـدينة وتمر بالبـاب الشرقي "لعبد الجبار" أو باب طليطلة[١٣٠]. وقد استمر تشييع الجنازات إليها حتى السنوات ٣٢٨/ ٩٣٩ و٣٩٧/ ١٠٠٦م. وفي أوائل سنة ١١٩٩ نقلت إليهـا جثة "ابن رُشْـد" المتوفى بمراكش في ٧ صـفر ٥٩٥هـ/ ١٠ ديسمـبر ١١٩٨م)، قادمـة من مقبرة باب "تـاجازوت" في تلك المدينة، ووضعت في الضريح الخاص بالعائلة بمقبرة ابن عباس بقرطبة[١٣١].

٧ - **مقبـرة أبي العباس الوزير** : كان الطريق المؤدي إلى هذه المقبرة هو زقاق داحم[١٣٢].

٨ - **مقـبرة قـريـــش**: تنسب هذه المقبـرة إلى عامر بن عمـرو القُرشي الذي أنشأها بعـد فتح المدينة بوقت قليل[١٣٣]. كما أسس أيضـاً البابَ المجاور لها المعروف "بباب عامر" الواقع عند مخرج المقبرة الذي كان يفتح شمال

غرب مدينة قرطبة[١٣٤]. وتقع تلك المقبرة في اعتقاد المَقَّري في الربض الواقع غرب مدينة قرطبة جنوب غربي مسجد السُّدة الكبرى على مسافة غير بعيدة من مسكن المنذر الذي دفن فيها سنة ٣٥٥/ ٩٦٦[١٣٥]. وهناك مسجد آخر معروف "بمسجد مقبرة قُريش"، وهو في ربضٍ في شرق المدينة[١٣٦].

وقد دفن في المقبرة نفسها سنة ٣٠٣/ ٩١٥ أبان ابن الإمام عبد الله[١٣٧]. وفي سنة ٣٦٧/ ٩٧٧ دفن فيها المؤرخ ابن القوطية[١٣٨].

٩ - **مقبرة القلعة**[١٣٩].

١٠ - **مقبرة مُتْعَة**: تنسب هذه المقبرة إلى سُرّية، معروفة بهذا الاسم، من سراري الحكم الأول الذي كان ينفق على المقبرة وعلى بناء "مسجد متعة" كما ذكر أهل قرطبة حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي[١٤٠]. وليس لدينا علم عما إذا كان هذا الأخير هو مسجد أبي لِـوَي أو مسجد الزيتونة الواقع بجوار المقبرة[١٤١]. وبالقرب منها أيضًا كانت مقبرة للمستعربين؛ وبعد شكوى قدمها المحتسب مُنِع المستعربون في أوائل القرن العاشر من المرور بالمقبرة الإسلامية بعرباتهم التي تحمل جثث إخوانهم في الدين لدفنها في المقبرة النصرانية. ويعتقد أن ذلك تم برأي ابن سهل[١٤٢].

١١ - **مقبرة أم مُعَمَّرة**: أنفقت على هذه المقبرة أمّ مُعَمَّرة سُرِّيَّة عبد الرحمن الثاني[١٤٣] ودفن فيها سنة ٣٦١/ ٩٧١ أو سنة ٣٧١/ ٩٨١ الخُشني مؤلف كتاب **تاريخ قضاة قرطبة**[١٤٤]. ولا نعلم عن موقعها شيئاً.

١٢ - **مقبرة نجم**: الشيء الوحيد الذي نعرفه عنها هو أنه كانت في هذه المقبرة شجرة نخل[١٤٥].

١٣- **مقبرة بـــلاط مُغيث** : التي ذكرها الخشني[١٤٦]. ومن المعتقد أنها كانت بالقرب من الربض الحامل نفس الاسم غرب مدينة قرطبة[١٤٧].

**مدينـــة أشـبيلية** Sevilla. إنَّ العديد من البيانات القيـمة التي ورد بعضها فيما سلف والتي تتناول الـبحث عن مقابر إشبيلية في أوائل القـرن الثاني عشر الميلادي، أي عـهد المرابطين، يرجع إلى ابن عبـدون. إذ كانت تلك المدينة في ذلك الوقت مدينة شعبية لا يتناسب فيها عدد المقابر مع عدد السكان. وفي أول عهـد "المعتمد" (٤٦١ ـ ٤٨٤/ ١٠٦٨ ـ ١٠٩١) أمـر أبو جعفـر بن الفراء، تنفيذًا لقرار الخليفة، بتدميـر المساكن والأكواخ التي بنيت بالمقبرة مخالفة بذلك النظام. وفي ذلك الوقت أمر ابن شـهاب الذي يشغل منصب المحـتسب، وفي السنة التي عاني الأهالي من مجاعة كبيـرة، ربما نتيجة القحط الطويل في عهد "المتوكل" ٤٧٣ ـ ٤٨٧/ ١٠٨١ ـ ١٠٩٤، بإزالة الجـرار الفخارية الموضـوعة بجوار مسجد حي "الفخارين" بمدينة بـطليوس وتحويل المكان إلى مقبرة. وقد أدى ضيق المكان فيما بعدُ إلى دفن الجثث بعضها فوق بعض، مما دعا ابن عبدون عندئذ إلى الحـصـول على الأرض المـسمـاة "بفـدان ابـن المارس" وعلى بعض الأراضي الأخرى، على حساب الخزينة، بغرض إنشـاء مقابر فيها. ونظرًا لضيق مساحة المقابر قيـاسًا إلى عدد سكان إشبيلية كانت تحفر القبور في مـساحة ضيقة للغاية. ويحـكي المؤلف نفسه أنه شـاهد جثة أخـرجت ثلاث مرات من قـبرها بسبب عدم التمكن من إدخالها فيه، وبغرض إدخال جثة أخرى بالقوة[١٤٨].

ولسنا نعرف بوجـود مقابر إسـلامية بمديـنة أشبيليـة إلا "مقبـرة الصلحاء" خارج باب "مَقْرَنَـةَ"، وذكر أنه قد شيعت فيها جنازة سنة ٦١٠/١٢١٣[١٤٩].

وتكرر في بعض المراجع الخـاصة بمدينة إشبيـلية النصرانيـة في القرون الوسطى

ذكر مـقبرة بجوار مـرج سانتا خوسـتا S.Justa تقع خارج الأسـوار، في شمال شرقي المرج، بين بابي "قـرمونة" وقرطبة، وقد أصـبحت ملكاً لمجلس البلدية بأمر الملكين الكاثوليكـيين الصادر عام ١٥٠٢م. ولا ندري أكانت تلك المقـبرة المنتمية إلى المدجنين ملكاً لسكان مدينة إشبيلية الإسلامية في فترة سابقة.

وقد لوحظت ظاهرة غـريبة، وهي فقـر المدينة في الكتابات الضريحـية في تلك المقـابر؛ فلم يذكـر ليفـي بروفانسـال إلا اثنتين منهـمـا عبـارة عن ألواح ضريحية مستطيلة لشـخصين توفي أحدهما في سنة ٥٠٥/ ١١١١، والثاني في ٤١٢/ ١٠٢٢[١٥٠].

**مديـنــة طليطلة** Toledo. في الحملة التي قـام بها الناصـر في صيف سنة ٣١٨/ ٩٣٠ وصل على رأس جنوده إلى قرب مدينة طليطلة بعزمه الراسخ على الاستيـلاء بصورة نهائيـة على جيرانه المتمـردين دون انقطاع. واستقر بالمـقبرة المجاورة لباب المدينة كأنسب مكان لمحاربة العاصمة القوطية القديمة. وقد أخبرنا بذلك "ابن عَـذاري" الذي لم يذكـر اسم البـاب ولا اسم المقبـرة[١٥١]. فهل يكون ذلك الباب الـشمالي المعـروف بباب شاقـرة الواقع في جهـة السور التي لايحيط بها نهر التاجه؟ هذا احتمال كبير[١٥٢].

وهناك بيان راجع إلى سـنة ٤٠٠/ ١٠١٠ يؤكد وجود هذا المدخل المفـتوح بربض طليطلة ووجود مقـبرة المدينة خارج الأسوار واقعـة عند المخرج. ويقول ابن بشكوال إن أحمـد بن محمد بن محـمد بن عبيـدة الأموي المعروف "بابن ميمون" توفي في ذلك التاريخ ودفن «بحومة باب شاقرة» بربض طليطلة[١٥٣]. ولسنا نعلم بوجود مقبرة أخرى في تلك المدينة. وبجوار باب شاقرة، في المكان نفسه، استمرت مقبرة المسلمين المدجنين إلى ما بعد الاستيلاء النصراني. وهناك

مرجع من مراجع المستعربين مؤرخ في ١٢١٠ يذكـر بيع حقل شعير أخضر في منطقة مـقبرة المسلمين بجوار باب شـاقرة[١٥٤]. وفي أواخر القرن الـرابع عشر شيعت جنازة المسلمة الثرية فاطـمة، التي خدمت مباشرة لدى بلاط الملك دون أنريك الثـاني دي تراستـمارا وقـرينته الملكة دونيـا خوانا، وقـد دفنت السـيدة المذكورة بمقبرة المدجنين بمدينة طليطلة، الواقعـة بقرب باب شاقرة بجوار الموقع الذي أسس به فيما بعد دير سان بارتولومي دي لابيجا[١٥٥].

وقد امتدت المقبرة تجاه الشمـال حتى كنيسة المدجنين لسان أوخينيو S.Eujenio على الأقل. وهناك مذكـرة مؤرخة في ١٥٧٦ تؤيد وجـود «العديد من توابيت القبور تابعة لليهود وللمسلمين مصنوعة من الطوب الأحمر، ومغطاة بأكوام من أحجار الجرانيت، وذلك في المنطقة الخلفـية للمقبرة»[١٥٦]. وفي نفس التاريخ وصـف الطبيـب "دوث بيـدرو سـالاثار دي مندوثا" موقع المستشفى الخارجي، الذي يديره شخـصياً، في مـؤلفه "**تاريخ الكاردينال دون خـوان تابيرا**" قائلا: "ظهرت أيضًـا في الشمال مـبان أخرى صغـيرة منفردة، هي دون ريب قـبور ومدافن للوثنيين ولليهـود وللمسلمين.. وتتميز القبور التـابعة للوثنيين بطريقة النحت. أما قبور اليهود فبعضها به قبتان، كما كانت العادة لدى بني إسرائيل. أما مقابر المسلمين فكانت مزودة بأعمدة صغيرة من الرخام مكتوب عليها باللغة العربية أسماء المدفونين في معظم هذه القبور»[١٥٧].

وفي سنة ١٨٤٥ عثـر على ثلاثة أجزاء من الألواح الضريحـية عليها كـتابة منقوشة وذلك حين بدئ ببناء مقبرة خـاصة لكهنة دير "كريستو دي لا بيجا"؛ وكان أحد الأجزاء أسطواني الشكل لرجل يدعى عـبد الله بن عباد المتوفى سنة ٤٤٥/١٠٥٣.

وعندما فُتحت طريق المقبرة الحالية في سنتي ١٨٨٧ و١٨٨٨م على بعد ٨٠٠ متر تقريبًا من باب الشاقرة بين كنيستي سان روكي وسان أنطون، عثر على عدد كبير من القبور على عمق متر تقريبًا، وهي مكونة من قباب حلزونية مصنوعة من الطوب الأحمر الرديئة البناء. وعثر بين القبور على عدد غير قليل من الأعمدة الصغيرة الحجرية البعيدة عن قواعدها؛ وهي تشبه في مقاسها وفي شكلها تلك التي اكتشفت مرات متكررة في "لابيجا" La Vega(١٥٨).

وهناك احتمال كبير أنه قد عثر في طليطلة على أكثر من مقبرة بمنطقة "لابيجا" منها مقبرة «سانتا ليوكاديا الخارجية" (المعروفة حاليًا بكريستو دي لابيجا) التي كانت تمتد حتى ضفاف نهر التاجه ومقبرة باب الشاقرة، وتبعد الأولى عن الأخرى مسافة تبلغ ٥٠٠ متر. وقد عُثر على قبور في المقبرتين. وتبعد المقبرة الثانية عن القبور التي عثر عليها في سنتي ١٨٨٧ ـ ١٨٨٨ حوالي ٨٠٠ متر تقريباً. ويبدو أن هذه المساحة قد تجاوزت الحدود المعقولة، وذلك أن مقبرة واحدة لا يمكن أن تمتد على تلك الأماكن الثلاثة دون انقطاع.

**مدينة سرقسطة** Zaragoza. بعد استيلاء المسلمين على المدينة بسنوات قليلة كان بها مقبرة خارج الأسوار تسمى "بمقبرة باب القبلة" (أو مقبرة الباب الجنوبي). وترجع هذه التسمية بلا شك إلى قرب المقبرة من ذلك الباب، وقد دفن بها التابعيان حنَش بن عبد الله الصنعاني (المتوفى سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨ ـ ٧١٩م)، الذي بنى مسجد سرقسطة، وعلي بن رَبَاح اللخمي (المتوفى سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م)(١٥٩). وهناك نص آخر سابق يقول إن الأول ووري التراب في المقبرة المجاورة لباب اليهود(١٦٠). وقد حدد "أسو" Asso ذلك بصورة أدق عندما قال إن مقبرة المسلمين امتدت بين كنيسة "الكارمن" و"كنيسة سانتا

أنجراثيا" ، واستمرت كذلك حتى سنة ١٣٣٧م، عندما أصدر بيدرو الرابع الأمر بنقلها خارج الأسوار الجديدة(١٦١).

ولم يُحتفظ بمدينة سرقسطة بأية بقايا أو آثار قبرية بها كتابات.

**مدينة وَشْقة** Huesca. هناك مراجع تقول بوجود مقبرتين في هذه المدينة، إحداهما تسمى "أَلميكورا" Almecora في بعض مراجع القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكانت تقع شرق المدينة بين باب "مونتاراجون" (ألبورتيتا حالياً بشارع ديسنجانيو) ونهر "أيسولا" بجواره(١٦٢). أما الثانية فتقع في حقل معروف إلى سنة ١٤٢٦م باسم "الماكوريلا" Almocariellya. وكما يظهر من اسم التصغير فإنه يحتمل أنها كانت أصغر من الأولى مساحة. وكانت تقع بالقرب من جدار التراب غرب مدينة وشقة Huesca بين المدينة وسان خورخي(١٦٣). وفي سنة ١٢٧٢ أهدى خايمي الأول ملك أرغون "الميكوريلا" لـ"بيدرو جارثيس "Garces(١٦٤). وعندما زار الملك مدينة بلنسية في أول يوليو سنة ١٢٧٣ طالب المسلمون إعادتها إليهم، فوقع قرارًا يمنع فيه الرهبان المبشرين أو التابعين لأي رهبانية أخرى من استخراج أحجار مقبرة الميكوريلا واستعمالها في المباني الأخرى، وكان إهداء المقبرة لجارثيس يعد نافذاً ما لم يتمكن مسلمو وشقة من إثبات تشييع جنازة وإجراء دفن ما فيها في العشرين سنة الماضية(١٦٥).

**مدينة ميورقة** Mallorca. عثر على أحجار ضريحية في حالة جزئية غير كاملة خارج المدينة بجوار باب الكحل B.Al-Kuhl المدمَّر منذ أقل من قرن تقريبًا، وقد أشرنا إلى تلك الأحجار في الصفحات السابقة(١٦٦).

**مدينة بلنسية** Valencia. وجد فيها عدة مقابر، كانت تقع كالعادة عند

أبواب السور من الخارج باستثناء ما يقع قرب النهر:

١- مقبرة "باب الحنش": تقع بالقرب من الباب الغربي لسور مدينة بلنسية؛ وقد دفن فيها "ابن الخباز" الواعظ وإمام مسجد "مربيطر" Murviedro، بالإضافة إلى شخص ثري من أصل نبيل يعرف بابن نُمارة الحَجري متوفًى سنة ٥٦٣/١١٦٧ ـ ١١٦٨. ويُذكر اسم هذه المقبرة في "كتاب التوزيع" REPARTIMIENTO حيث تبدأ ساحة المانون ALMANONE بجوار مقبرة باب الحنش ومنازل "روتيروس" المقابلة لمقبرة المسلمين، وكانت روتيروس ضاحية قريبة منها[١٦٧].

٢- مقبرة باب "البَيْطالة": هي مقبرة واسعة؛ والمقبرة والباب المعروفان بنفس ذلك الاسم، كانا يقعان جنوب بلنسية بالقرب الطريق العام المؤدي إلى "الرُّصافة"[١٦٨]. وفي سنة ٥١٩/١١٢٥ ـ ١١٢٦ دفن فيها العالم المسلم ابن الأنفر، مفتي بلنسية، بجوار قبر صديقه ومواطنه ابن مَنْتِيال؛ وبعد قرن قمري دفن فيها أيضًا عبد الله بن أبي بكر القُضاعي (سنة ٦١٩/١٢٢٢ ـ ١٢٢٣)، وهو والد المؤرخ ابن الأبار إمام مسجد "السيدة" الواقع داخل الأسوار. وفي سنة ٦٢٤/١١٢٧ دفن في المقبرة عينها ابن سليمان (محمد ابن أحمد بن محمد بن إسماعيل أبو الحسن)، الذي كان يمتلك متجرًا بشارع العطارين[١٦٩].

وفي السنة اللاحقة للاستيلاء على المدينة في عام ١٢٣٩م أهدى خايمي الأول أرضًا للرهبان الفرنسيسكان للبناء عليها. وكانت مساحة الأرض ٨٠× ٥٠ قامة، وهي تقع بجوار الطريق العام المؤدي إلى الرصافة وأمام باب البيطالة (المسمى باسم المقبرة)[١٧٠]. وظل اسم المقبرة مربوطاً باسم الشارع

حتى سنة ١٤١٧ في أبرشية سان خوان دي لابيطلة Boatella[١٧١].

ولسنا ندري أكانت "مقبرة الخِيَام" في أقوال ابن الأبار هي مقبرة باب البيطالة نفسها أم جزءًا منها، أم مقبرة أخرى مختلفة عنها. وفي اعتقاد ابن الأبار أن مقبرة الخيام تقع خارج باب البيطالة، وقد دفن فيها في السنة الأولى من القرن السابع الهجري/ ١٢٠٤ ـ ١٢٠٥م) المقرئ الورع المعروف باللقب "البروفنسالي". ويَدَّعِي ريبيرا Ribera أن تلك المقبرة كانت تقع في نهاية شارع "سان بيثنت" S.Vicente[١٧٢].

٣- مقبرة **"باب المصلَّى"**: يكثر ذكرها في المراجع الخاصة ببلنسية. وقد دفن فيها عدد كبير من الشخصيات البارزة. وكانت تقع شرق المدينة خارج الأسوار عند باب الشريعة، وهذه الكلمة الأخيرة معناها المصلَّى المقام خارج المباني في الهواء الطلق[١٧٣]. وفي سنة ٦١٤/١٢١٧ ـ ١٢١٨ دفن فيها العالم التقي أبو عامر بن هذيل، وحضر جنازته السلطان وحاشيته وعدد كبير من الناس، وكان تشييعًا مهيبًا. وبعد ذلك بسنوات قليلة، أي في سنة (٦٢٧/ ١٢٢٩ ـ ١٢٣٠) دفن بجوار قبلة المصلى رئيس الجماعة ابن الزبير القضاعي[١٧٤].

ولم يُحتفظ من هذه المقابر بأي كتابات ضريحية أو بنصب تذكاري لأنها انقرضت في القرن الرابع عشر عندما توسعت المدينة متجاوزة حدود أسوارها؛ واحتلت الأحياء الجديدة أرضيتها وبقيت المقابر داخل مساحة السور الذي أقامه بيدرو الرابع "ثريمونيو سو" ابتداء من سنة ١٣٥٦م.

**مدينة الجزيرة** Alcira **(بلنسية)**. يحدد كتاب توزيع بلنسية موقع "الفوساتو" (المقبرة) "بجوار مدخل المعبر الخشبي" الذي كان يصل الجزيرة بربض الكنيسة

أو الربض التابع للمستعربين. وسمى هذا الربض "بالكانيثيا" Alcanicia بعد الاستيلاء، وبربض سان أجوستين فيما بعد، وكان يقع على الضفة المحاذية لنهر "الخوكار" Jucar[١٧٥].

**أليكانتي** Alicante. كان بها مقبرة للمسلمين في القرن الثالث عشر بالقرب من المستشفى على الطريق المؤدي إلى مرسية[١٧٦].

**مدينة ألشي** Elche **(أليكانتي)**. يفيد المستند الخاص بتبرعات الأراضي التي منحها دون خوان مانوئيل سنة ١٢٧٠م أن مقبرة المسلمين كانت تقع بمدينة ألشي بعد الحمامات القديمة على الطريق إلى مدينة أليكانتي[١٧٧].

**مرسية** Murcia. ليس لدينا إلا مراجع نادرة ومعلومات قليلة عن مواقع المقابر في مدينة مرسية. ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر دفن المسلم المشهور عبدالرحمن بن محمد أبو القاسم[١٧٨]. خارج المكان المعروف بباب ابن أحمد. وكان المسجد المسمى "بأبيث" Abez والمقبرة التابعة له يقعان بربض مرسية الذي كان معروفاً بهذا الاسم. وكان المسجد والمقبرة من تبرعات نائب مطران كارتاخينا Cartagena سنة ١٢٦٧ لصالح رايموندو بيثنت من سكان مرسية[١٧٩]. وفي روضة ابن فرج بربض سرحان، في مرسية، دفن شخص بارز سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧ ـ ١٢١٨م كتب ابن الأبار قصة حياته[١٨٠].

**مدينة جيّان** Jaen. عندما قام فرناندو الثالث بحصار مدينة جيان أول مرة في سنة ١٢٢٥، أمر بترتيب المتاجر بجوار بساتين الخضروات عند منطقة "كاسترو" بجوار المقبرة قريباً من المدينة على الجانب المقابل من الطريق المؤدي إلى غرناطة. وعندما ذَكَرَ الكتاب التاريخي لمدينة "أبيلا" LA CRONICA DE AVILA الحصارات العديدة التي خضعت لها المدينة خلال القرن الثالث عشر

أعاد ذكر اسم باب المقبرة Fonsario[١٨١].

**مدينة ألمرية** Almeria. يذكر "أوربانيخا" في أواخر القرن السابع عشر مقبرتين إسلاميتين إحداهما جنوب المدينة خارج أسوار الربض المقفر الواقع في الاتجاه الغربي، وكانت في اعتقاده مقبرة لليهود، وقد استمر ذلك الاعتقاد حتى الآن على الرغم من خلوه من أساس مقنع، فيقول: "ووُجد خارج الأسوار المحيطة بهذا الربض هضبة تمتد على طول شاطئ البحر، وحفرت في تلك المنطقة قبور من الملاط التي يُكشف عنها النقاب يومًا بعد يوم؛ وقد شاهدتُ ذلك المنظر مرات متكررة على طول الحقل الذي يقع على حدود كنيسة "سان روكي" القائمة حتى اليوم التي وجد بها العديد من العظام والبقايا اليهودية الأخرى. أما في اتجاه باب بورشينا فقد عثر على سهل آخر كان يُدفن فيه المسلمون، حيث تكتشف يومًا بعد يوم قبور تتفق والأساليب والعادات التي كان يستخدمها حسب سنتهم، البربر المسلمون[١٨٢].

والمقبرة الأخرى التي كانت من أهم المقابر الإسلامية هي الواقعة بجوار "باب بجانة"؛ وفي القصص المشهورة التي سطرها قلم ابن بشكوال وابن الأبار يأتي حديث عن أشخاص بارزين دفنوا في ذلك المكان بالقرب من الباب[١٨٣]. ويقول "دون خوسي دي مدينا إي رامبود"، جامع التحف المشهور من مدينة ألمرية في القرن التاسع عشر[١٨٤] إن أكثر الأماكن التي عثر فيها على أكبر عدد من الألواح الضريحية كان على "مسطح الكوردونيرو" Cordonero، وفي منطقة الميناء على شاطىء البحر[١٨٥]. وينطبق ذلك المكان على مقبرة الحوض Aljibe الواقعة خارج أسوار الحي أو الربض المعروف بنفس الاسم، الذي وصفه الإدريسي قبل منتصف القرن الثاني عشر بقليل. ويقول الإدريسي إنه كان

مركزًا صناعيًا وتجاريًا في غاية النشاط، بينما أصبح في القرن الرابع عشر مقفرًا ومهجورًا نتيجةً للدمار الشامل الذي خلّفه انتزاع ألفونسو السابع المدينة سنة ١١٤٧م. وضمن الذين دفنوا بمقبرة الحوض يوجد ابن الدّلائي الكاتب المعروف، المولود بـ"دَلاية" (دالياس Dalias) سنة ٣٩٣/ ١٠٦٢، والمتوفى بمدينة ألمرية سنة ٤٧٨/ ١٠٨٥، وهي السنة التي استولى فيها ألفونسو السادس على مدينة طليطلة، وهو مؤلف لعدة أعمال، منها كتاب في الجغرافيا اعتمد عليه الإدريسي[١٨٦].

وهناك مقبرة أخرى، يُعتقد أنها أقدم من المقبرتين المشار إليهما، كانت تقع بجوار المصلى أو شريعة مدينة ألمرية، بالربض المسمى بنفس الاسم. ويذكر ابن بشكوال أنه دفن بالشريعة القديمة سنة ٤٤٤/ ١٠٥٢ أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الجَدَلي المعروف باسم ابن الزِّفْت، صاحب الصلاة والخطبة بجامع المرية[١٨٧]. وبدئ عندئذ بتعمير ذلك الربض حتى أصبح في وقت لاحق النواة المركزية للمدينة. وفي مكان بعيد خارج أسوار المدينة هيئت شريعة جديدة أو مصلى، لأن المصلى القريب منها سمي باسم المصلى "القديم"، وأصبح موقعه في داخل الربض الذي أحاطه "خيران العامري"، مولى مدينة ألمرية من سنة ٤٠٣/ ١٠١٢ حتى ٤١٩/ ١٠٢٨، بسور من الطوب. وقد عرف منذ ذلك الوقت بربض المصلى[١٨٨]. وهناك احتمال كبير أن مقبرة الشريعة القديمة لم تستعمل لسنوات عديدة بعد تاريخ الدفن السابق ذكره بسبب التعمير السريع للربض؛ وهناك خبر عن تشييع جنازة أخرى في سنة ٤٧٤/ ١٠٨١ ـ ١٠٨٢ بمقبرة باب بجّانة التي حلت محل المقبرة السابقة[١٨٩].

ويلاحظ أن جميع الألواح الضريحية لمدينة ألمرية من الرخام الأبيض من نوع ماكـائيل Macael، من المكان الواقع عند سلسلة جـبال "فـيلابرس" القـريبة، وتنتـمي هذه الألواح إلى النوعين السـابق ذكـرهما: النـوع الحديث المعـروف بالألواح الضريـحية لمدينة ألمرية، الذي اقـترحنا أن نسـميه بالألـواح المرابطية، والنوع الآخر الألواح المقبرية Mqabriyas. وكانت الأولى تغرس في الأرض من ناحيتها الصغرى على رأس القبر كما يقول ابن بشكوال[١٩٠].

ومن «الألواح المرابطيـة» القديمة لوحـتان يرجع تاريخـهمـا إلى سنة ٣١٢/ ٩٢٤؛ وهناك ألواح يـرجع تاريخـــهـا إلى السـنوات التـاليـــة ٣١٧/٩٢٩، و٣٢٠/٩٣٢، و٣٢٧/٩٣٨ ـ ٩٣٩. والألواح المتـقدم ذكـرها يرجع تاريخهـا كلها إلى ما قبل سنة ٣٤٤/ ٩٥٥ ـ ٩٥٦، وهي السنة التي أسـست فيها مدينة ألمرية كمـا ذكر في كـتاب "**الروض المعطار**"[١٩١]. وكان ثلث تلك المقـبريات الموجودة بـالمدينة المشار إليـها تابعًـا لقبـور توفي أصحابـها بين ٤٥٢/ ١٠٦٠ و٤٥١/١١٤٧، وتشير السنة الأخيرة إلى انتزاع ألفونسو السابع المدينة.

ويلاحظ أن الألواح الموشـورية ـ المستطيلة الشكل مـؤرخة في نفس الفـترة تقريبًـا، ومن ثم لا يمثل هذان النوعان من الألواح أنماطًا متـتابعة في التـماثيل الضريحـية. وأكبر عدد من الألواح المؤرخـة يرجع إلى عهد استـيلاء المرابطين على مـدينة ألمرية (سنة ٤٨٤-٥١١/ ١٠٩١ ـ ١١٤٧). ولـيس في هذه المدينة عينة واحدة من تلك الألواح ترجع إلـى عهد الموحدين؛ وفي حقيـقة الأمر أن ليفي بروفنسـال في مؤلفه (كوربوس) Corpus لم يذكر من الألواح الإسـلامية الأسبانية إلا ستة ترجع إلى التاريخ السابق، هذا بالإضافة إلى مقبرية من مدينة مالقة، وهي غير مذكـورة في ذلك الكتاب. والأمر الغريب هو أنه لايعرف إلا

لوحة ضريحيــة واحدة فقط في مدينة ألمرية في العهــد الناصري، وهي مؤرخة بسنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، علمًـا بأنه في أثناء تلك الفتــرة استُخــرج من محــجر مكائيل القريبة من ألمرية العديدُ من قطع الرخام مخصصة لقصر الحمراء والمباني التابعة لمدينة غرناطة، وكانت تلك المناجم في قمة ازدهارها[١٩٢].

وعند الوصــول إلى مدينة ألمرية الإســلامية يبــرز على جانبي الطــريق، قبل موقع باب بجانة، بيــاض الألواح الضريحية الرخامية العــديدة المختلطة بالتراب وبخضرة الزرع. ولم يكن يوجد في أية مدينة من المدن الأســبانية المسلمة مقابر ظهر فيــها الثراء والعدد الفائــق من القطع الرخامية الضريحــية التي بلغ النحت فيــها قمــة الفن والجمال كــتلك المقابر الســابق ذكرها.[١٩٣] والمسافة الـقريبة الفاصلة بين محاجر سلسلة جبــال "فيلابرس" وألمرية لا تكفي لتسويغ توافرها وكثرة اســتعمالهــا، لأن تلك المحاجر كانت تقع على نفس المســافة من ألمرية، عندما كانت تلك المدينة تحت سيطرة مملكة غرناطة الناصرية، وفي ذلك الوقت لم يكن صنع القطع الرخامية الضريحية قد اُتّبع بعدُ.

ونظرًا لعدم وجود الشهادات المباشرة، فإنه يمكننا أن نستعين بالكتابات الظاهرة على الألواح الضــريحــية، علــى الرغم من جمــودها، ومن تمسكهــا بالصــيغ اللغوية، لإلقاء الضوء على بعض المشــاهد من الحياة في القرون الوسطى بمدينة ألمرية. ومن خلال الكتابة الضريحية يمكن أن نخرج بنتائج لعلّ أكثرها وضوحاً هو ثراء المدينة في عــهد المرابطين، حيــث سمح لهم ذلك الثراء في اســتعــمال القطع الرخامــية المنقوشــة جيدًا مما يعــد دليلاً قاطعاً علــى ذروة اقتصادية، كــما يتحــدث عنها الإدريســي في وصف له معــروفٍ كَتبــه بين سنتي ٥٤٢/١١٤٧ و٥٤٨/١١٥٤، وهذا هو تاريخ انتــهائه من كتــابه في الجغرافــيا[١٩٤]. والثراء

السريع لمدينة ألمرية، الواقعة بمنطقة تنقصها المنتجات الزراعية ومعرّضة أيضًا للقحط الطويل، يرجع إلى نشاط الصناعات المحلية وإلى تصدير منتجاتها واستيراد البعض الآخر، ذلك لأن مدينة ألمرية كانت باب الأندلس للمرور إلى الدول الشرقية(١٩٥).

ويدل عدم وجود الكتابات الضريحية المسلمة بعد انتزاع ألفونسو السابع لمدينة ألمرية سنة ١١٤٧/٥٤٢ بمساعدة أهل كاتالونيا وجنوه على انحطاط المدينة التي وقعت تحت سيطرة الموحدين بعد ذلك الاستيلاء بعشر سنوات. وقد استمرت تلك الحالة في الفترة الناصرية اللاحقة.

وعلى الرغم من أساليب الكتابات الضريحية المقتضبة، فإنها تكشف بعضًا من أنشطة أهل ألمرية في فترة ازدهارها. وأربع من تلك الكتابات لرجال تجار، أصل أحدهم من الإسكندرية، وهو معروف ـ بالإسكندراني ـ(١٩٦)؛ وهناك كتابات تنتمي إلى أصحاب المهن أو إلى عائلاتهم (العاملين المذكورين في صناعة الجلد أو الدباغة؛ وخياط واحد؛ وابن لفخّاري. وترجع ثلاث منها إلى سيدات العائلة الملكية لآخر حكام الطوائف في مدينتي ألمرية ومالقة ـ الأميرة "أسماء" سرية الأمير المعتصم (المتوفى سنة ١٠٩١/٤٨٤)، وهيَّال عتيقة الأمير الحمودي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود المدعوة «احْوِرار» (؟) ـ. وهناك بعض الألواح الضريحية لأشخاص بارزين كالفقهاء والدعاة، ووكلاء الأوقاف، بالإضافة إلى ألواح لأناس من البربر.

ومن المعروف أن المجتمع الإسلامي يتسم بروح المساواة. وكما يجتمع الشعب المسلم في الحياة كذلك يجتمع في الموت في المقابر نفسها ـ ولسنا نعلم بوجود روضة (مقبرة في حديقة) خاصة بالأمراء في مدينة ألمرية ـ فالرجال

الذين يعملون في المهن اليدوية والتجار ومشاهير الأشخاص وأقارب العائلة الحاكمة، كانوا جميعًا في نفس المقابر. كما أن الألواح لا تقل في قيمتها أو نقشها عن غيرها ـ بل قد تكون أفضل ـ حيث إن الثراء المكتسب حديثًا جعلهم يميلون إلى التظاهر به علانية.

**مدينة غرناطة.** كان في مدينة غرناطة المقابر الآتية:

١ ـ **مقبرة الفقيه سعد بن مالك.** يسميها ابن الخطيب في نصوص مختلفة "بمقبرة إلبيرة"، أو "جبّانة باب إلبيرة"، و"روضة الفقيه سعد بن مالك"[١٩٧]. وقد أسست هذه المقبرة في القرن الثالث عشر، وكانت من أهم مقابر المدينة. وهي تقع خارج باب إلبيرة. وفي القرن الخامس عشر الميلادي كان الجزء الأقدم منها مزروعاً بأشجار الزيتون؛ أما باقي المقبرة فكان خالياً من الأشجار. وقد أثارت إعجاب الكاتب "منزر" MUNZER صاحب ذلك الخبر، نظرًا لمساحتها الكبيرة التي كانت تعادل ـ كما يقول ـ ضعف مساحة مدينة نورمبرج، وكانت موزعة على عدة مستويات[١٩٨]. وقد بلغت حدودها موقع المستشفى الملكي، ذلك لأنها بنيت بأمر الملكين الكاثوليكيين على مقبرة، وعلى أرض لدير رهبان كابوشيين، كما تبيّن ذلك عند فتح الأُسس سنة ١٦٣٠م، وما عثر عليه من قبور إسلامية[١٩٩].

وهناك سور بأبواب على هيئة أبراج كان يحمي المقبرة التي كانت تمتد بصورة واضحة في اتجاه الشمال، وكانت الأبواب تحمي مداخل الطرق: فكان الباب الأول يقع على طريق "عقبة البقر" (الفكار Alfacar) القريب من المكان الذي توجد فيه حالياً كنيسة "كريستو ديلاييدرا"[٢٠٠]؛

أما الـباب الثـاني فكان يقع على طريق "أُبّذة" Ubeda ، وبقيت آثار ذلك الباب في آخر منزل من ناحـية اليمين في شارع كبوشـينوس الذي يقع فيه دير كـابوشـينوس. وببـستـان هذا الدير كـان البـاب الذي يحـمي طريق "جيّـان" ؛ وهناك برج آخر وجـد على طريق "سان لاثارو" ، حـيث كان ينفَّذ حكم الإعدام في القـرن السادس عشر، ووجد الباب الأخـير بجوار سان خيرونيمو»[٢٠١].

٢- **مقبرة سـوكاستر** Socaster . حسب "جومث مورينو" فإن ابن الخطيب، يذكر مقـبرة سوكاسـتر بغرناطة الواقعة بجـوار سور القصبـة القديمة قرب الباب الجديد المـعروف بقوس الأوزان Pesos. وقد تكون تلك المقـبرة هي الجزء الباقي من مـقبرة قديمة قبل تكوين ربض البيـازين بأسواره في القرن الرابع عشر. وبقـيت الأرض خالية من المباني بسبب وجود مـجموعة من البسـاتين مطلة على رحبة البـيازين. ومن المحتمل أنهـا كانت مقبـرة سان نقولاس San Nicolas ، الواقـعـة أمام الفـرن، بجـوار البـاب الصـغيـر "للبيازين" ، الذي يحده "الدرب" ، كما يبين ذلك مرجع مؤرخ في سنة ١٥٣٨[٢٠٢]. وفي سنة ١٥٩٥م، عند إجـراء حصـرٍ للأراضي، اتضح أن أرض المقـبـرة كـانت مـعـروفـة باسم المقـبـرة وكـانـت تابعـة لمصلحـة الأوقاف[٢٠٣].

٣- **مقبرة البيّازين.** لا نعلم شيئاً عن التسمـية الخاصة بها عند المسلمين. وقد كانت تحتل الجزء الشرقي داخل أسوار ربض البيازين، على المنحدر الغربي الشديد الميل لأحد التـلال، وكان غير صالح للبناء ولامـتداد المدينة، وقد انقطع السور في قـمة هذا التل، وأقيم عليه برج قـوي معـروف "ببـرج

شجرة الزيتون" في عهد السيطرة النصرانية، وقد استبدل بالبرج فيما بعد كنيسة سان ميجل العالي San Miguel". وكانت المقبرة تشغل في حسب منزر «الجزء الأكبر لمنحدر الجبل المطل على المدينة، وكانت تساوي في الاتساع مساحة مدينة "أولم" Ulm. وكان في القمة برج عال جدًا توجد به رفات ملك غرناطة»(٢٠٤). واحتفظت التسمية الجغرافية المحلية، في تقاليد أهل البلد، بذكر المقبرة؛ فما زال هناك صليب من الحجر ينتمي إلى أوائل القرن السادس عشر موجود على الجزء الأسفل لمنحدر الجبل - كتذكار لضريح خاص بوجهاء - يسمى حتى أيامنا الحالية «بصليب الروضة». وعثر على العديد من الأحجار الضريحية في المناطق المجاورة لها. كما وجد هناك مسجد يحمل نفس الاسم، وهو "جامع الروضة" طبقًا لمستندات مؤرخة بعد الاستيلاء بمدة قليلة(٢٠٥).

٤- **مقبرة السَّبيكة.** التل الذي أقيم عليه قصر الحمراء معروف "بالسَّبيكة"، أمّا الوهدة التي يُصْعد منها إلى قصور السبيكة فكانت معروفة "بخندق السبيكة"، وبباب الخندق، أي الباب السابق للباب المعروف اليوم بباب "غراناداس" Granadas. وقد حدَّد "منزر" موقع مقبرة السبيكة الفسيحة قائلاً: "صعدنا إلى قصر الحمراء الواقع على جبل عالٍ جدًا، وعلى منحدره عثرنا على مقبرة واسعة تعادل ستة أضعاف مساحة ميدان نورمبرج. وبعد أن قطعنا مسافة غير قليلة دخلنا مكانًا استعمل في قديم الزمان سجنًا للأسرى النصارى"(٢٠٦). فكانت المقبرة على منحدر جبل السبيكة، وعلى الخندق بين موقع السجون المُطْبَقَة (لوس مارترس حاليًا) وباب غراناداس Granadas الحالي. وقد دفن بضريح مقبرة السبيكة حكام

غرناطة محمد الأول ومحمد الثالث وناصر الأول الذي توفي في سنة ١٣٢٣/٧٢٢ . ودفن على منحدر الجبل الحاجب رضوان الذي اغتيل في شهر أغسطس سنة ١٣٥٩[٢٠٧].

٥- **مقبرة الغُربَاء** . كانت هذه المقبرة للأجانب، ودفن فيها، كما يذكر ابن الخطيب، فقيه توفي سنة ١٣٠٧/٧٠٧ ، وكانت تقع، طبقًا لقوله، أمام ربض نجْد في الربض الواقع قريبًا من النهر[٢٠٨].

٦- **مقبرة باب الفخّارين** . يحكي وزير مدينة غرناطة بنفسه (ابن الخطيب) أن هناك شخصًا مجهولاً دفن بمدينة غرناطة سنة ١٣٤٩/٧٥٠ ـ ١٣٥٠ في سفح الجبل الذي أقيمت عليه المقبرة الواقعة عند باب الفخارين بجوار القصور الملكية التي سمي أحدها الدار البيضاء[٢٠٩]. فكانت تلك المقبرة إذًا تقع خارج أسوار مدينة غرناطة، وكانت تؤتي من خلال الباب السابق ذكره، ولكنها داخل سور الأرباض الجنوبية الواقعة بين جبل قصر الحمراء ـ السبيكة ـ ونهر الخينيل Genil . وامتدت تلك القبور على الأقل حتى القبر المسمى "بحقل الأمير" الذي عثر بجواره على بعض القبور فيما بعد الاستيلاء بمدة قليلة[٢١٠]. ويطلق "سيكو دي لوثينا" على هذه القبور مقبرة الغرباء. ولم يحدد اسمها ابن الخطيب بل اكتفى بالإشارة إلى ذكر موقعها بباب الفخارين، علمًا بأن تلك التسمية وردت بقلم وزير غرناطة. ويحدد موقعها سيكو دي لوثينا بربضٍ ما بجوار النهر؛ ولكن مقبرة باب الفخارين كانت تبعد عن نهر الخينيل أكثر مما تبعد عن مقبرة نجد، مما يجعلنا نعتقد أن مقبرة الغرباء كانت مقبرة صغيرة تقع بين ربض نجد والنهر أو أمام النهر على الضفة اليسرى منه.

٧- **مقبرة العَسَّال.** ترجع معرفتنا بمقبرة العسال إلى العقود العقارية الخاصة ببيع قطع الأراضي بأمر عبد الله سنة ٨٩٦/ ١٤٩١، وكان قسمٌ منها يؤلف بستانَ عصام. وظهر اسم مقبرة العسال عند ذكر الحدود الشرقية للبستان السابق الذي تطابق موقعه مع موقع البستان الحديث المعروف ببستان "بيلين" وذلك، على وجه التقريب، حسب رأي السيد سيكو دي لوثينا الراجح(٢١١). ولا شك أن القبور التي عثر عليها سنة ١٨٨٧ بخندق القاضي Abogado "بجوار الزاوية الشرقية للسور الذي يحيط بعقار "كالديرون" Calderon "(٢١٢) [لوس مارترس Los Martires]، كانت تابعة لمقبرة "العسال" لا لمقبرة باب الفخارين، لأنها كانت تبعد عنها مسافة غير قليلة (من ٤٨٠ إلى ٥٠٠ متر تقريبًا)؛ وكان بستان عصام يتوسط مجموعتي القبور.

**مدينة لوشة** Loja **(في غرناطة).** ـ عند استيلاء الملكين الكاثوليكيين على مدينة لوشة كان بها مقبرة على مسافة ٤٠٠ قدم شرق المدينة، في المكان الذي بنى فيه دير النصر (لافيكتوريا) سنة ١٥٥٩م. وسميت هذه المقبرة في كتاب **توزيع مدينة لوشة** بالمقبران Macabran، ومعناها مقبرة باللغة العربية، واحتفظت اللغة القشتالية باسمها الذي لحقه التغيير(٢١٣).

**مدينة مالَقة.** ـ تقع المقبرة الرئيسة لمقابر مالقة خارج باب فونتنالا شمال شرق المدينة(٢١٤). ويُذكر اسم مقبرتين في ذلك المكان: مقبرة المصلى(٢١٥) ومقبرة روضة بني يحيى(٢١٦)؛ وهناك احتمال كبير أن الأخيرة كانت ضريحاً للمقبرة الأولى. وبالإضافة إلى هذا يذكر وجود قبور على منحدرات جبل فارو، حيث وجدت أيضًا مقبرة يهودية، وعثر على

العديد مـن القبور في القـرن الماضي[٢١٧]. وعلى سـفوح ذلك الجبـل المتوج بحـصن في وقت لاحق، سنة ٤٠٣/ ١٠١٢-١٠١٣ شـاعر من مـدينة مالقـة مقدَّم بن مُعافَى[٢١٨]. وفي سنة ١١٣٨/٥٥٣ دفن فيهـا أيضًا مواطنه علي بن عبـد الرحمن بن مَعْمَـر المَذْحجي[٢١٩]. وهناك أيضًا بيـانات عن قبور ربض الندماء [؟] سنة ٤١٩/ ١٠٢٨[٢٢٠]، وكذا في مـسجـد النخيل الواقـع خارج الأسوار[٢٢١].

**مدينة الجزيرة** Algeciras **(قادش** Cadiz**)**. ـ كانت المنطقة التي تقع فيها مقبرة المدينة أضعفَ أجزاء مدينة الجزيرة Algeciras القديمة من الناحية العسكرية. وقد عسكر في تلك المقبرة قـوات حملة ألفونسو الحادي عشر، وجرى فـيها العديد من المناورات والأعمـال الحربية في الحملة التي قـام بها سنة ١٣٤٢م. ووجـد بجوارها الباب المسمى ببـاب ألفونساريو أو مقبـرة Fosario في الكتب التاريخة النصرانية[٢٢٢].

**مـدينة سَتَنيل** Setenil **( قادش** Cadiz**)**. ـ في رواية الحـصار الفـاشل الذي جرى سنة ١٤٠٧ على ستنيل، ذكر عن المحـاصرين النصارى أنهم ضربوا أحد مـخيـماتهم فـوق مقـبرة المسلمين (هـونساريو) «التي كـانت واقعـة يمين باب المدينة»[٢٢٣].

**مدينة سبتـــــة** Ceuta . ـ ذكر البكري مقبرتين في سبتة إبان النصف الثاني من القرن الحادي عـشر، إحداهما في الجبل، على سـفوح "جبل الميناء" دون شك، والثانيـة في اتجاه الشمال بجـوار بحر المملة Mamla[٢٢٤]. ودفن بمقبرة الميناء في سنة ٣٦٠/ ١١٦٥ المحـدِّث أبو بكر يحـيى بن مـحمـد بن رقّ، من مدينة ألمرية[٢٢٥].

وفي كتاب وصف مدينة سبتة للأنصاري، الذي انتهى من تأليفه سنة ٨٢٥/ ١٤٢٢ ذكر أسماء ثلاث عشرة مقبرة في داخل المدينة وخارج أسوارها، وهي: مقبرة التوتة، الواقعة شرق المدينة على المنحدرات الشرقية "لجبل الميناء" وقد ذكرها البكري؛ ومقبرة المنارة التي كانت تشتمل على ست مقابر، وكانت منبسطة على مساحة واسعة تمتد من مقبرة زهر الملعب إلى مقبرة بئر النقطة؛ ومقبرة ابن الرامي؛ ومقبرة الخوائم؛ ومقبرة زجلو Zaglo؛ ومقبرة مسجد المحلة، في المكان الذي قيل عنه إن طارق بن زياد ترجل فيه إبان الحملة الأولى؛ ومقبرة المدينة القديمة التي أسسها "سبْت"؛ ومقبرة الشريعة في الربض الأوسط؛ ومقبرة الحارة al-Hara؛ ومقبرتان معروفتان بمضرب "الشَّبْكة البراني"، تقعان خارج باب الأحمر، بالإضافة إلى عدد من المقابر الأخرى بمنطقة أحجار السودان[٢٢٦].

## المقابر الأسبانية المسلمة بعد السيطرة النصرانية.

عند مهاجمة النصارى للمدن الإسلامية في شبه الجزيرة فقدت مقابر معظم المدن وظيفتها. باستثناء مقبرة طليطلة التي استمر دفن المسلمين المدجنين فيها.

وقد دخلت كلمة (مقبرة) في اللغة القشتالية بصورتها المعروفة "مقابر" Macaber[٢٢٧] ومن ثَم صارت المقبرةُ تُعرف بـ"المقابرَ" almacaber أو "المُقابرَ" almocaber أو "الموقوبر" almocober، فصار اسمها أقرب إلى الجمع (المقابر) منه إلى المفرد؛ وبمحافظة أرغون Aragon تسمى المقبرة بالميقورا و"الميقوريلا"[٢٢٨]، وتسمى "مقبران" في لوشة[٢٢٩].

وكان العدد الكبير من الأحجار المنقوشة في المقابر الإسلامية ـ الأحجار الضريحية أو حواف القبور المصنوعة من الطوب الأحمر ـ فرصة اقتصادية مهيأة

للغزاة لإقامة المباني اللازمة للحياة الجديدة، وبالأخص الكنائس. ففي شهر سبتمبر ١٢٧٣ منح خايمي الأول لدير المبشرين (سانتو دومينجو) بمدينة وشقة HUESCA كل الأحجار الموجودة بمقبرة "الفوسال" Fosal، الخاصة بمسلمي تلك المدينة، لبناء كنيستهم[٢٣٠].

وقد احتج المسلمون المدجنون من مدينة مرسية في ٦ فبراير من السنة اللاحقة فقام الحاكم نفسه بمنح المقبرة لجامع وشقة. ويعتقد أن أعمال الدفن قد أوقفت منذ فترة، ويقال إن الحاكم منح المقبرة للمسلمين «لكي يتمكنوا من تحويلها إلى حقل للحرث والإنتاج لصالح مسجدكم وما ينتج عنه من ثمار يخصص لخدمة المسجد»[٢٣١]. وصدر في مدينة "الجزيرة" Alcira في ٢ من شهر مارس ١٢٧٥، امتياز خاص منح بموجبه خايمي الأول الألواحَ الحجرية في "المقبرة القديمة للمسلمين" للنصارى لبناء الكاتدرائية[٢٣٢]، أو للقيام بالأعمال الخاصة ببناء كنيسة مدينة وشقة.

ولابد وأن الانتفاع من الأحجار القبرية الإسلامية في المباني الدينية الجديدة قد تم بصورة عامة. وهناك مثال متأخر وقع في مدينة غرناطة، فبعد اعتناق مسلمي غرناطة للكاثوليكية بُعيد تمرد سنة ١٤٩٩م أصبحت مقابرهم مهجورة. وقد أصدر الملكان الكاثوليكيان في مدينة أشبيلية مرسوماً ملكياً مؤرخاً في ١٤ أبريل ١٥٠٠م يمنح لرهبان "خيرونيموس" الطوب والأحجار الموجودة بمقبرة (أنساريو) بباب إلبيرة لبناء دير لهم[٢٣٣]. وفي ٢٠ من شهر سبتمبر من السنة نفسها صدر مرسوم ملكي يقضي بإغلاق كل المقابر الإسلامية في المدينة، وفي المرسوم الملكي المؤرخ في ١٥ من شهر أكتوبر سنة ١٥٠١، الذي أعلنت فيه قائمة لوائح مدينة غرناطة، قام الملكان الكاثوليكيان بتحويل «كل المقابر التي

كان يدفن فيها المسلمون» إلى أرض مشاعة لكل المدينة. وكما قيل فقد استغلت أحجار تلك المقابر، في الثلث الأول من القرن السادس عشر، في بناء رعيات النصارى بغرناطة، ومن هذه الرعيات رعية سان كريستوبال، ورعية سانتو دومينجو. واستعملت أيضا في تقوية بعض الجدران بقصر الحمراء وبعض المباني المدنيّة.

إن كثيراً من الأحجار الضريحية الأسبانية المسلمة، التي تشتمل على حمد الله تعالى، وفيها يدعو المسلمون الله تعالى، ويطلبون رحمته العظيمة لصالح المؤمنين الراحلين تحتها، نقلت إلى المعابد النصرانية، واستعملت في بنائها، وطمر بعضها تحت الأرض. واليوم نبحث عن تلك الأحجار بعناية كبيرة للاحتفاظ بها في متاحفنا، كشواهد لحضارة لا يمكن، بدون معرفتها، إدراك حاضر أسبانيا، ولا من الإعداد لمستقبلها.

(1) Levi-Provençal y García Gómez: **Sevilla,** pp. 94-98.

(2) **Don Quijote de la Mancha,** primera parte, cap. XII.

(3) Ibn al-Faradī: **Ta'rij 'ulamā' Al-Andalus,** B. A. H., VIII, p. 397, núm. 1.386, según cita de Lévi-Provençal: **Le Traité d'Ibn 'Abdūn,** en **Journal Asiatique** (París 1934), p. 294.

(4) Ibn al Jaṭib, **Iḥāṭa,** I, p. 139.

(5) En Medina llaman **al-rawda,** es decir, «el jardín», a la mezquita en la que está enterrado el Profeta. Pedro de Alcalá traduce **rawda** por «sepultura rica» y Raimundo Martín por **sepulcrum magnum cum testudine.**

(6) Dentro de las murallas del alcázar de Córdoba estaba el cementerio en el que se enterraban los príncipes omeyas (Ibn 'Iḏārī, **Bayān,** II, texto, pp. 49, 67, 109, 116, 122 y 155; trad., pp. 74, 104, 175, 187, 195 y 255). Algún cronista concreta más, al decir que era **al-Rawda** el lugar de la necrópoli regia (José E. Guráieb, **«Al Muqtabis» de Ibn Hayyān,** pp. 160 y 162). Ibn Jaldūn escribe que 'Abd al-Raḥmān III levantó en el palacio cordobés alcázares **(quṣūr),** entre ellos uno grandioso, al lado de al-Zāhir, que llamó **dār al-rawda,** con un oratorio privado. En él es de suponer estaría ese panteón (Ibn Jaldūn, **'Ibar,** IV, p. 144; Maqqarī, **Analectes,** I, p. 380). Una crónica anónima da noticia de haber sido enterrado el emir 'Abd Allāh, en el año 300/912, en la **Rawdat al-julafā'** (cementerio de los califas): Lévi-Provençal y García Gómez, **Una crónica anónima,** pp. 92-93.

(7) Muḥammad b. Ismā'īl b. 'Abbād, señor de Sevilla, fue sepultado el año 433 (1041-1042) en el panteón del alcázar de esa ciudad (Ibn al-Faradī, **B. A. H.,** VIII, biografía 1719). Ignórase si coincidía con las **rawdas** citadas por Ibn Sāḥib al-ṣalā como lugar hasta donde llegaron los derribos de casas, tiendas y posadas circundantes del zoco pequeño, realizadas por Abū Ya'qūb Yūsuf en 592 (1195-1196), para agrandar el patio de la mezquita mayor recién construida, **rawdas** contiguas a la mezquita de al-Yatīm (el Huérfano); P. Melchor M. Antuña, **Sevilla y sus monumentos árabes,** p. 123.

(8) En las que fueron casas del rey moro de Valencia, junto a la mezquita mayor, cedidas por Jaime I para edificios consistoriales y cárcel (donde hoy está el palacio arzobispal, en la plaza de la Almoina), estuvo el cementerio real en época islámica (Fr. Josef Teixidor, **Antigüedades de Valencia,** I, páginas 173-175; II, p. 8).

(9) En la **rawda** de los jardines de la Alhambra fueron enterrados Muḥammad II (671-701/1273-1301), su nieto Ismā'īl I (713-725/1314-1325), la mujer de éste (m. en 749/1348) y Yūsuf I (733-755/1333-1354); Torres Balbás, **Paseos por la Alhambra: La Rauda,** páginas 261-285.

(10) William y Georges Marçais, **Tlemcen,** pp. 331-333.

(11) Torres Balbás, **Rábitas hispanomusulmanas,** p. 476.

(12) **Ibidem,** pp. 476, 477 y 479.

(13) **Sila,** B. A. H., I-II, pp. 257, 275 y 562.

(14) Bofarull, **Repartimientos de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** p. 644.

(15) «Et estaua ya todo el pueblo en las andas de la muerte; et ueyen el omne andar, desi caerse muerto: assy que se finchió la plaça del alcáçar de fuessas en derredor del muro, et non auie y fuessa que non yoguiessen y más de diez» (**Primera Crónica General de España,** publicada por Ramón Menéndez Pidal, Madrid 1955, cap. 915, p. 585).

(16) Ibn al-Abbār, **B. A. H.,** V, según cita de Francisco Codera, **Decadencia y desaparición de los Almorávides en España,** pp. 313-314.

(17) Jerónimo Münzer, **Viajes por España y Portugal, 1494-1495,** pp. 39-40.

(18) Ibn Baškuwāl, **Sila, B. A. H.,** I-II, pp. 27-28, citado por E. Lévi-Provençal, **L'Espagne au Xe siècle,** p. 209.

(19) Lévi-Provençal, **Une description de Ceuta musulmane au XVe siècle.**

(20) Pérès, **La poèsie andalouse**, pp. 128-30.

(21) «Cuando muera, éstas son mis instrucciones para el entierro: / dormiré con una viña entre los párpados; / que me envuelvan entre sus hojas como mortaja, / y me pongan en la cabeza un turbante de pámpanos» (A. R. Nykl, **El cancionero del šeiḫ... Aben Guzmán**, XC, pp. 215 y 417).

(22) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, p. 16, trad., p. 22.

(23) Torres Balbás, **La acrópolis musulmana de Ronda**, pp. 460-461.

(24) Florián de Ocampo, fº ccccv, tomo LXVI, **Crónicas de los Reyes de Castilla**, I (Madrid, 1875), **Crónica de don Alfonso el Onceno**, cap CCLXX, p. 344.

(25) Cf. **supra**, «**Muṣallà o šarī'a**».

(26) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique**, texto, p. 97; trad., p. 119.

(27) G. Marçais, **Tlemcen**, p. 56.

(28) Nubāhī, **Marqaba**, pp. 78-79, según cita de Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane**, III. p. 1971, núm. 1.

(29) Ibn al- Jaṭīb, **Iḥāṭa**, según cita de Casiri, **Bibliotheca arabico-hispana escurialensis**, tomus posterior, p. 94.

(30) Teixidor, **Antigüedades de Valencia**, I, p. 165.

(31) Véase **infra.**

(32) Descripción de sepulturas halladas en Málaga: «una piedra rectangular bien cuadrada, bien redondeada por el extremo superior, la cual se colocaba vertical a la cabeza del sepulcro, ostentando en la cara que daba a éste algunos adornos en el mismo sitio en donde presentan inscripciones otras piedras del mismo género, que se hallan en diversos lugares de España. Con ellas correspondían las que en Málaga, como en otras muchas partes, se colocaban a los pies de la sepultura, más pequeñas, pero de la misma forma que las anteriores, entre las cuales ninguna se ha presentado todavía con adornos» (Guillén Robles, **Málaga musulmana**, pp. 38-39). Por esta descripción no cabe duda de que la parte superior de algunas estelas terminaba en forma arqueada; don Manuel Gómez-Moreno cita otra semejante aparecida en el cementerio del barranco del Abogado, en Granada. Pero debían ser muy escasas las de esa forma, con inscripciones u ornamentación, pues no conozco ninguna en los museos ni figura en los repertorios epigráficos sepulcrales.

(33) Se suele llamar a las **mqābrīyas** estelas tumulares, lo que define mal su forma, o estelas prismáticas, con adjetivo erróneo, pues sus cuatro caras vistas son ataludadas, divergentes y no hay dos paralelas.

(34) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne**, p. XXIV.

(35) En Almería, donde más abundan las **mqābrīyas**, no se han encontrado restos de bordillos. El macizo escalonado de mampostería o ladrillo levantado sobre el cadáver, asiento de la **mqābrīya**, cubría toda la sepultura; el bordillo era, pues, innecesario.

(36) Bermúdez de Pedraza, **Antigüedad... de Granada**, fº 37 **r y v.**

(37) Joseph Romero Iranzo, **Paseos por Granada.** Paseo XV, pp. 61-62.

(38) **Monumentos árabes**, por Rafael Contreras, pp. 171-172.

(39) Borradas cuando reparé el patio de la Alberca.

(40) Eguilaz, **Noticias de la Alhambra y de Granada, con pretexto del libro de Contreras;** Gómez Moreno, **Sepulturas arábigo-granadinas**, en **Cosas granadinas de arte y arqueología**, pp. 107-120, y **Guía de Granada**, pp. 33-34, 362 y 498.

(41) Simón de Argote, hacia 1800, describía así las tumbas de la Granada islámica: «Las personas de mediana esfera levantaban unos paredones baxos, y formaban como un corral, que servía de panteón a toda la familia; y los pobres se enterraban sin más distinción que la de levantarse dos almenas pequeñas que indicasen el sitio que ocupaban

los pies y la cabeza» (**Nuevos paseos históricos, artísticos, económico-políticos por Granada y sus contornos,** p 37). Es la única referencia que conozco a estelas en forma de almena. Tal vez sea sepulcral una incompleta, de barro, el fondo de su cara anterior vidriado en verde, con inscripción cursiva de relieve, existente en el Instituto de Valencia de Don Juan, de Madrid. El señor Gómez Moreno pudo ver unas 16 sepulturas, descubiertas antes de finalizar el siglo XIX, al abrir una carretera en el barranco del Abogado de Granada, cerca de la tapia de la finca de los Mártires: «Formaban las fosas, dirigidas de poniente a mediodía, cuatro citaras de ladrillo, que dejaban entre sí el espacio preciso para contener el cadáver, cerrando el hueco por arriba con delgadas cobijas de pizarra o ladrillo, que se cubrían con una gruesa capa de tierra. Exteriormente rodeaban cada sepulcro cuatro piedras unidas por sus extremos y clavadas verticalmente en el suelo; las dos mayores correspondían a los lados, y las más cortas a la parte de la cabeza y de los pies, cerrando el rectángulo que determinaba exteriormente el lugar donde se había colocado el cadáver, constituyendo una especie de alberquilla de poca profundidad, pues las losas no dejaban fuera más que la parte cubierta de adorno o un espacio igual al de éste en las que no le tenían». Casi todas carecían de ornatos y una sola tenía inscripción. Apareció también una piedra de cabecera con un remate curvo, como de tres partes de círculo, de 36 centímetros de diámetro (Gómez Moreno, **Cosas granadinas de arte y arqueología,** pp. 114-115).

(42) En 1871 se encontró en el llamado Secano de la Mezquita, en el solar de Medina Elvira, un fragmento de piedra de bordillo, de 41 centímetros de longitud, con cenefa de labores geométricas y letras cúficas de relieve que repetían la frase, «La gloria a Dios» (**Medina Elvira,** por Gómez Moreno, p. 17 y fig. 4 de la lám. III). En el Museo Arqueológico Nacional de Madrid hay un ladrillo de 29 por 12 centímetros, de barro cocido, con una inscripción sepulcral incisa que, traducida, dice: «En nombre de Dios el Clemente... / Mūsà b. Wald b. Walīd / Aḥmad». En Málaga se han encontrado también sepulturas recercadas con bordillos de piedra: «Con ellas [con las losas de la cabecera] correspondían las que en Málaga... se colocaban a los pies de la sepultura, más pequeñas, pero de la misma forma que las anteriores, entre las cuales ninguna se ha presentado todavía con adornos. Constituyen los costados del sepulcro piedras no muy grandes, clavadas en tierra, levantándose poco sobre ella» (Guillén Robles, **Málaga musulmana,** p. 538).

(43) Münzer, **Viaje por España y Portugal,** pp. 36 y 39. Entre las estelas almerienses de la colección de la «Hispanic Society» de América, de las que más adelante se hace amplia referencia, hay unos fragmentos de losas planas de mármol con letreros cúficos alcoránicos. En alguno, la faja epigráfica continúa formando escuadra. Este detalle y el estar labradas por una sola cara prueba que no pudieron servir para hincarse en tierra limitando la fosa; cubrirían ésta excepcionalmente, lo mismo que las conservadas en la Alhambra de Granada, que estuvieron sobre las tumbas de los príncipes nazaríes (Werner Caskel, **Arabic Inscriptions in the Collection of the Hispanic Society America,** XLII-XLV, p. 28).

(44) «... clavaban en el suelo [los musulmanes malagueños para sus sepulturas] ladrillos gruesos... vedriados de blanco hasta la mitad de sus dos caras y extremos, y en la parte superior, sin vedrío en el resto del ladrillo, que era la parte que se fijaba en tierra, dejando fuera la vedriada, sobre cuyo fondo blanco se trazaba una inscripción con letras azules... Estos ladrillos formaban una faja a lo largo del sepulcro, bien uniéndose con la piedra que había a sus pies, bien reemplazándola; en este caso, los que debían enlazar con los costados tenían una especie de mortaja, para que encajaran perfectamente unos en otros» (Guillén Robles, **Málaga musulmana,** p. 540). El recerco del espacio sobre la fosa con ladrillos parece muy extendido en el mundo islámico: «**On le déposait** [el cadá-

ver] **ainsi à même la terre, une brique crue sous la tête, puis on plaçait autour de lui des briques disposées pour former comme une sorte de cintre au-dessus du cadavre. Ce à quoi fait allusion Omar Khayyam lorsqu'il dit:**

> **Quand partiront du corps nos âmes angéliques,**
> **Sur ma tombe et la tienne on mettra quelques briques;**
> **Pour des briques devant couvrir d'autres tombeaux**
> **On moulera plus tard nos cendres identiques».**

(Aly Mozahéry, **La vie quotidiénne des musulmans au moyen-âge, Xe au XIIIe siècle,** p. 56).

(45) Veinticinco ladrillos de éstos había en el Museo Arqueológico de Toledo hace cincuenta años. De ellos 17, no todos enteros, se hallaron en 1781, en la Vega, junto a donde se dice estuvo la basílica de Santa Leocadia (Cristo de la Vega), con motivo de unas excavaciones realizadas en ese lugar. Otro procede del castillo de San Servando (**Monumentos Arquitectónicos de España, Toledo,** por Rodrigo Amador de los Rios, pp. 119-123). Amador de los Ríos ignoró su destino.

(46) P. Ricard, **Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne,** pp. 216-217.

(47) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** pp. XXIV-XXV.

(48) Columnas decorativas aparentan apear los arcos en una estela cordobesa de 496/1103, en la de Mértola y en la de Granada de 742/1342.

(49) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** n.° 24, pp. 30-31. En el Instituto de Valencia de Don Juan se conserva la parte inferior de una estela, losa de mármol que tal vez tuvo dos arcos gemelos decorativos, cuya columnilla central, helicoidal, parece distinguirse en el fragmento subsistente. Es de persona fallecida en el año 320 / 932 (Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** n.° 112, p. 104, lám. XXV).

(50) **Ibidem,** n.° 27, pp. 32-34.

(51) **Ibidem,** n.° 47, pp. 58-59.

(52) **Ibidem,** n.° 102, pp. 98-99, lám. XXIV, **a.** Tiene 61 x 50 x 6 centímetros.

(53) **Ibidem, n.°** 103, pp. 99-100, lámina XXIV **b.**

(54) Rodrigo Amador de los Ríos, **Epigrafía arábiga, Fragmento de lápida sepulcral descubierta en Lorca** (Murcia), pp. 129-131, y **Fragmento de la lápida sepulcral existente en Lorca** (Murcia), 1900, pp. 108-111; Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** números 105-106, pp. 100-101.

(55) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** núm. 28, pp. 34-35, láminas IX **c.**

(56) De mármol, de 49 por 35 centímetros (Rodrigo Amador de los Ríos y Villalta, **Memoria acerca de algunas inscripciones arábigas de España y Portugal,** pp. 271-274; A. R. Nykl, **Algunas inscripciones árabes de Portugal,** V, pp. 399-401).

(57) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** n.° 158, pp. 139-142, láms. XXXIV y XXXV.

(58) **Ibidem,** n.° 168, pp. 154-155, lám. XXXIX **a.** En la colección de inscripciones árabes de España de la **Hispanic Society of America,** hay siete estelas o fragmentos, de mármol, con arco decorativo, hallada sen Almería. Tan sólo una, de 93 x 47 centímetros, está completa; otra lleva almenillas. Dos tienen fecha: los años, respectivamente, 510/1116 y 525/1131: (Caskel, **Arabic Inscriptions in the Collection of the Hispanic Society of America,** núms. XVI, XVII, XIX, XX, XXI, XXII y XXIII, pp. 11-13, 15-19, láms. XVI-XXIII. De Baza (Granada), procede una estela de caliza nummulítica, de 69 por 41 centímetros, con inscripción cursiva, sin nombre ni fecha, dentro de un arco ciego ligeramente agudo. Figura en las colecciones del Museo Arqueológico Nacional (Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** n.° 170, p. 156).

(59) Estela rectangular de mármol, de 79 por 31 por 8,5 centímetros, con arco decorativo de herradura aguda (Slimane-Mostafa Zbiss, **Corpus des inscriptions arabes de Tunisie,** pp. 78-79 y lám. XXXIX).

(60) J. Bourilly y E. Laoust, **Stèles funéraires marocaines,** p. 69 y lám. XXVII. En los cementerios marroquíes abundan las losas o estelas tabulares con uno o dos arcos gemelos, ciegos. Mme. Sourdel-Thomine ha publicado en fecha reciente varias estelas del Afganistán con arcos ciegos festoneados, de la segunda mitad del siglo XII y comienzos del XIII, lo que da idea de la extensión alcanzada por esa forma en el mundo islámico (Janine Sourdel-Thomine, **Stèles arabes de Bust [Afghanistan]**, pp. 285-288).

(61) Lévi-Provençal, en sus **Inscriptions arabes d'Espagne** enumera catorce **mqābrīyas** o fragmentos de ellas; Caskel, en **Arabic Inscriptions in... the Hispanic Society of America,** dieciséis. Veinticuatro de ellas proceden de Almería.

(62) Amador de los Ríos, **Memoria acerca de algunas inscripciones arábigas de España y Portugal,** pp. 171-172; «Nota sobre la colección Medina» (manuscrita, en el Instituto de Valencia de Don Juan). La descripción de la sepultura la hizo un antiguo albañil en 1844. Se encontraron lápidas planas en los costados de alguna.

(63) J. Jomier, **Documents et notules,** I, **Deux fragments de stèles prismatiques conservés à Montpellier,** pp. 212-213).

(64) La mitad de esta **mqābrīya** está en el Museo de la Alcazaba de Málaga; el resto, en el Provincial de Bellas Artes (Ocaña Jiménez, **Una «mqabrıya» almohade malagueña del año 1221 J. C.** y **Nuevos datos sobre la «mqābrīya» almohade malagueña del año 1221 J. C.,** pp. 224-230 y 445-446).

(65) Guillén Robles, **Málaga musulmana,** p. 538.

(66) Una pequeña hallada entre el Partal y la torre del Peinador de la Reina; dos, aprovechadas, estaban en el altar del Mexuar. Del Generalife procede otra también incompleta. Todas carecen de inscripciones y adornos.

(67) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** n.° 146, p. 131. Equivocadamente figura en esta obra como procedente de Almería.

(68) Amador de los Ríos describe y publica la fotografía de un fragmento de **mqābrīya,** conservado en el Gabinete de la Sociedad Económica de Amigos del País, de Cartagena. Es de mármol blanco y tiene un alto plinto moldurado, como las tunecinas. La inscripción, incompleta, es de letras cúficas. Su editor dice leerse la fecha 582 / 1184-1185 (**España, sus monumentos y artes, su naturaleza e historia, Murcia y Albacete,** por Rodrigo Amador de los Ríos, pp. 563-566).

(69) Una de ellas se encontró en el subsuelo de la catedral de Murcia en la segunda mitad del siglo XIX; la otra, mayor, hallóse en 1936 o 1937 en la calle de Madre de Dios (Jorge Aragoneses, **Museo Arqueológico de Murcia,** pp. 75-76).

(70) Tiene 120 centímetros de longitud por 30 de ancho en el plinto y 15 de altura: **Geografía General del Reino de Valencia, Provincia de Castellón,** por Carlos Sarthou Carreres; Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** n.° 89, p. 88.

(71) Rodrigo Amador de los Ríos, **Epigrafía arábiga, Monumentos sepulcrales de Palma de Mallorca. El cementerio real de la Almudayna de Gómera,** pp. 357-380; Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** p. 89 y lám. XXI.

(72) **Bab al-Kofol (Puerta de Santa Margarita). Antecedentes relativos a la Puerta de Santa Margarita de la Ciudad de Palma, remitidos a la Real Academia de Bellas Artes de San Fernando por la Comisión de Monumentos Históricos y Artísticos** (Palma 1908), pp. 19, 61, 77 y 121 y láms VII y VIII.

(73) Procederán de otras semicilíndricas, alargadas, descansando sobre plinto rec-

tangular, frecuentes en los cementerios romanos (Pierre Paris, Georges Bonsor..., **Fouilles de Belo,** II, **La nécropole,** p. 69 y lám. XI).

(74) Bourilly y Laoust, **Stèles funéraires marocaines,** p. 5.

(75) La mayoría de las tunecinas son de los últimos diez años del siglo XI y de la primera mitad de XII. Cerca de cuarenta con inscripción cataloga Slimane-Mostafa Zbiss en su **Corpus des inscriptions arabes de Tunisie.** La altura varía de 10 a 34 centímetros y de 87 a 182 su longtud. También se ven en los cementerios de Bugía (Argelia) y dos incompletas guarda el Museo Arqueológico de la misma ciudad. Son de mármol y tienen inscripciones cursivas entre abundante ornato vegetal y alto plinto, muy moldurado, con sogueados. Carecen de fecha y nombre (General L. de Beylié, **La Kalaa des Beni-Hammad,** pp. 108-109, figs. 2-3 y lám. XXIX).

(76) Está en el Museo de Tremecén. Las dos que en él se conservan tienen plinto elevado, con alguna decoración (G. Marçais, **Album de pierre, plâtre et bois sculptées,** pp. 41-43 y lám. III ter.).

(77) G. Marçais, **Le Musée Stéphane Gsell, Musée des Antiquités et d'Art Musulman d'Alger, L'Art musulman,** p. 55, y **Sur deux stèles funéraires hammâdites du Musée Stéphane Gsell,** pp. 171-178. Once fragmentos de **mqābrīyas** de las encontradas en la Qal'a de los Banū Hammād, en las excavaciones Blanchet, posee el Museo de Constantina (Beylié, **La Kalaa des Beni-Hammad, p.** 89).

(78) Refiere Ibn Jaldūn que Abū Yusuf, desde Algeciras, mandó a su hijo Abū Ya'qūb, a fines de 684/1285, erigiese monumentos y **asnima** de mármol sobre ellos en las tumbas de su padre 'Abd al-Hāqq y de su hermano Idrīs. Esa palabra **asnima** parece designar a las que llamamos **mqābrīyas** (Henri Basset y Lévi-Provençal, **Chella, une nécropole mérinide,** p. 11).

(79) A. Bel, **Inscriptions arabes de Fès,** p. 13, n (2).

(80) Estas **mqābrīyas** son de mármol. La de mayores dimensiones tiene 2,165 m. de longitud, 35 centímetros de ancho en la base y 27,5 de altura. La letra es cursiva y el epígrafe, de relieve, se extiende por los lados largos de la parte superior ataludada. Bajo ésta hay una serie de molduras escalonadas, una de ellas sogueada, descansando sobre un plinto, cuyas caras verticales están cubiertas de ornamentación, a base de arquillos lobulados en las dos más ricas. En el mismo lugar hay también varias **mqābrīyas** lisas, sin epígrafe ni ornato (Basset y Lévi-Provençal, **Chella,** pp. 34-38 y 130-135 y láms. I-II).

(81) **Tanger et sa zone,** en **Villes et Tribus du Maroc,** pp. 450-451 y lám.

(82) Referencias a **mqābrīyas** sicilianas en la obra de M. Amari, que no he podido ver, **Le epigrafi arabiche di Sicilia trascritte, tradotte e illustrate,** parte II: **Iscrizioni sepolcrali.**

(83) R. Thouvenot, **Essai sur la province romaine de Bétique,** p. 547; **Les monuments antiques de l'Algérie,** por Stéphane Gsell, **p. 42.**

(84) En el cementerio romano-cristiano de Tarragona se encontraron 164 sepulturas de **tegulae** dispuestas formando lomo o doble vertiente. Claro que estaban bajo tierra, como las análogas del cementerio de Timgad que se reproduce (**Excavaciones en la necrópolis romano-cristiana de Tarragona,** Memoria redactada por el Delegado Director don Juan Serra Vilaró, pp. 15-17).

(85) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** p. XXIV.

(86) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** números 52, 54-56, 59, 62-68, 72, 74, 75, 77, 79, 80 y 83, pp. 63-65, 67-68, 70-77 y 80. Los dos fustes sepulcrales no incluidos en el **Corpus** anterior aparecieron en la Vega de Toledo en 1931. En uno figura el epitafio de un tal Ibn Muhriz, fallecido en 451/1059; el otro, de longitud excepcional —2,35 metros—, es del jurista Ibn Maslama, muerto en 467/1074 (Lévi-Provençal, **Deux nouvelles**

**inscriptions arabes de Tolède,** pp. 147-149). Amador de los Ríos registra otros dos fustes con epígrafes sepulcrales, uno en el torreón llamado Baño de la Cava y el otro en la casa número 2 de la plazuela de los Molinos de San Sebastián, a orillas del Tajo (Amador de los Ríos, **Memoria acerca de algunas inscripciones arábigas de España y Portugal,** pp. 120, 231 y 232).—Las estelas arábigas de Toledo en forma de losa son tan sólo cinco: tres de los años 370/981, 401/1010 y 441/1049, y mozárabes las dos restantes, con epígrafe en árabe y en latín (Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** números 51, 53, 61, 81 y 82, pp. 62-63, 64, 69-70 y 78-79).

(87) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** núm. 52, p. 63.

(88) **Ibidem,** núm. 83, p. 80.

(89) Amador de los Ríos, **El cementerio real de la Almudayna de Gómera (Bol. de la Soc. Arqueol. Luliana,** VI, pp. 379-380).

(90) G. Marçais, **Le Musée Stephane Gsell, L'art musulman,** p. 55.

(91) G. J. de Osma, **Los letreros ornamentales en la cerámica morisca del siglo XV,** pp. 473-483.

(92) En Córdoba hay ladrillos sepulcrales con inscripciones en el canto y en las caras. En el Instituto de Valencia de Don Juan, de Madrid, se conservan dos enteros y varios fragmentos de ladrillos sepulcrales vidriados, procedentes de Andalucía. Las dimensiones medias de los primeros son 28 x 14 x 5,5 centímetros; la altura de la faja superior, vidriada, es de unos 7. En las excavaciones realizadas en Qal'a de los Banū Hammād hace algunos años se encontraron ladrillos planos, de 27 x 18 x 3,5 a 4 centímetros, con tres cuartas partes de su superficie cubierta de esmalte verde. Sin duda tendrían análogo destino sepulcral que los españoles (Beylié, **La Kalaa des Beni Hammad,** p. 57 y figura 31; G. Marçais, **I, Les poteries et faïences de la Qal'a des Benî Hammâd (XI siècle),** p. 10).

(93) E. Frankowski, **Estelas discoideas de la Península Ibérica.** Abundan en los cementerios norteafricanos.

(94) La estela apareció, con otros restos cerámicos, en una casa lindante con el convento de Agustinas de Huelva, bajo la cual debió de haber una necrópolis islámica (Eduardo Díaz, **Hcrba. ciudad de Tartesos,** en **Vell i Nou,** vol. II) En Manises y Valencia también se han encontrado estelas y epitafios cerámicos (**Cerámica del Levante español, Siglos medievales,** por Manuel González Martí, tomo II, pp. 206-212).

(95) José Ferrandis Torres, **Estelas cerámicas,** pp. 179-180, láms. 14, 15 y 16.

(96) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** pp. XX-XXV.

(97) Lévi-Provençal, **La Péninsule ibérique,** texto, p. 105; trad., p. 129.

(98) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** pp. XXVIII-XXXVI.

(99) **Ibidem,** n.° 28, pp. 34-35. Según Lévi-Provençal, la escritura cursiva aparece en Berbería a fines del siglo V h. (1010-1107). En Ifrīqiya hay alguna **mqābrīya** del año 490/1096, con inscripciones cúfica y cursiva florida, a la par; cursiva la tienen otras de 499/1105, 510/1116, 515/1121, etc. (Slimane-Mostafa Zbiss, **Inscriptions de Tunis et de sa banlieu,** números 14, 21, 22, 37, 40, etc., pp. 54-55, 58-60, 68-69, etc.).

(100) Amador de los Ríos, **Memoria acerca de algunas inscripciones arábigas de España y Portugal,** pp. 15 y 263-265. Otra lápida de la primera mitad del siglo XIII, con inscripción cursiva, hay en Portugal, pero no es funeraria; conmemora la construcción de una torre fuerte **(burŷ)** en Silves, en 624/1227. Está en el Museo Arqueológico del Infante don Enrique, en Faro (Nykl, **Algunas inscripciones árabes de España y Portugal,** pp. 403-407; Lévi-Provençal, **L'inscription almohade de Silves,** pp. 257-262).

(101) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** n.° 89, p. 88.

(102) **Ibidem,** n.° 158, pp. 139-142.

(103) Sobre los entierros y ceremonias fúnebres pueden verse: Julián Ribera, **Cere-**

**monias fúnebres de los árabes españoles,** en **Disertaciones y opúsculos,** II, pp. 249-256; Pedro Longás, **Vida religiosa de los moriscos,** pp. 285-294, y Lévi-Provençal, **Histoire de l'Esp. musulmane,** III, pp. 101 y 406-407).

(104) «¿De dónde viene este miedo de la muerte, que ha crecido tanto arrimado a la ignorancia, que aun oírla nombrar no quiere alguno, como si por el oído secretamente se le entrara?», preguntaba Quevedo (**La cuna y la sepultura**).

(105) Ibn Baškuwāl, **Sila,** p. 53, citado por don Julián Ribera y Tarragó, **Un monasterio musulmán en Denia,** p. 203.

(106) **El collar de la paloma,** traducido por García Gómez, pp. 101 y 313; Dabbī, **Bugya,** Bib. Arab. Hisp., III, pp. 100-101; Lévi-Provençal, **Histoire de l'Espagne,** III, p. 440.

(107) Ibn al Munāṣif (563-620/1169-1223), cadí que fué de Valencia y Murcia, refiere que en al-Andalus los cementerios eran lugares de paseo muy frecuentados por hombres y mujeres que en ellos se mezclaban; también alude a las tiendas levantadas entre las espulturas (M. Talbi, **Quelques données sur la vie sociale en Occident musulman d'après de ḥisba du XV siècle,** apud **Arabica,** I, Leiden 1954, p. 303). A esas tiendas parece referirse asimismo Ibn 'Abdūn en su tratado de **ḥisba,** al que pertenecen todas las referencias que figuran en estas páginas sobre la Sevilla almorávide (Lévi-Provençal y García Gómez, **Sevilla a comienzos del siglo XII, El tratado de Ibn 'Abdūn,** § 53, pp. 96-97).

(108) Ribera, **Historia de los jueces de Córdoba,** p. 255.

(109) Lévi-Provençal y García Gómez, **El tratado de Ibn 'Abdūn,** §§ 52-55, pp. 94-98. También en la sociedad cristiana medieval de Occidente, las gentes celebraban fiestas y dejaban en libertad sus pasiones más humanas sobre las tumbas. En algunos cementerios se plantaban frutales, se paseaba, hasta se daban bailes y se amaba (Camille Enlart, **Manuel d'Archéologie française,** I).

(110) Rubén Darío, **Cantos de vida y esperanza,** XLI, p. 169.

(111) Münzer, **Viaje por España y Portugal,** pp. 39-40. No hay nada más acogedor —ha escrito Georges Marçais refiriéndose a los norteafricanos actuales— que un cementerio musulmán. Todos los viernes las mujeres van con sus hijos a visitar los difuntos de la familia. Antes de partir, plantan flores cortadas sobre las sepulturas y esparcen migas de pan o vierten en pequeños cuencos excavados en la tierra unas gotas de agua que los pájaros acuden a beber (**Tlemcen,** por G. Marçais, p. 69).

(112) Lévi-Provençal, **L'Espagne ... au Xe siècle,** p. 209, e **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, p. 380, n. 2.

(113) Ibn Hazm, **Ŷambarat al-ansāb,** p. 91, citado por Lévi-Provençal, **Histoire de l-Espagne,** III, p. 380.

(114) Ibn al-Abbār, **Takmila,** n.º 1.620. Llamada por los cristianos puerta del Osario.

(115) Ibn Baškuwal, **Sila,** n.º 672, p. 300, citado por Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, p. 229.

(116) **Takmila,** I, p. 125; **Sila,** p. 299.

(117) Castejón, **Córdoba califal,** p. 307.

(118) **Sila,** biog. n.º 628.

(119) **Sila,** n.º 672, p. 300. La vocalización del nombre Halāl es incierta, según Lévi-Provençal.

(120) **Sila,** p. 138.

(121) **Sila,** pp. 118 y 173.

(122) **Takmila,** I, p. 130.

(123) Ibn 'Idārī, **Bayān,** II, texto, p. 25; trad., p. 35; **Fatḥ al-Andalus,** trad. González, p. 28; **Historia de la conquista de España de Abenalcotía el Cordobés,** trad. Ribera, texto, pp. 12-13 y 205-207; trad., pp. 9 y 176-178.

(124) **Sila,** n.° 703, p. 325.

(125) Ibn Hazm, **El collar de la paloma,** traducido por García Gómez, pp. 101 y 313; Dabbī, **Bugya,** Bib. Arab. Hisp., III, n.° 1.451.

(126) Ribera, **Jueces de Córdoba,** p. 106.

(127) Maqqarī, adapt. Gayangos, II, p. 145.

(128) Ocaña Jiménez, **Nuevas inscripciones árabes de Córdoba,** pp. 379-388.

(129) **Takmila,** ed. de la **Miscelánea,** n.° 2.029, p. 561, según cita de Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, p. 380.

(130) Ibn Sahl, **Aḥkām Kubrà,** f.° 212 v del ms. de Rabat, según cita de Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, p. 373; **Takmila,** p. 279.

(131) H. de Castries, **Les sept patrons de Marrakech,** p. 289.

(132) **Sila,** p. 246.

(133) Ibn al-Abbār, **Hulla,** pp. 52-53; **Ajhār maŷmū'a,** texto, p. 63; trad., p. 67.

(134) Ibn al-Abbār, **al-Hulla al-Siyarā,** edic. Dozy, p. 52, citado por Manuel Ocaña Jiménez, **Las puertas de la medina de Córdoba,** p. 149. La **Bāb 'Āmir,** llamada después de la Reconquista puerta de los Gallegos, fue mandada abrir por orden de 'Abd al-Raḥmān III en 303/916 (**Una crónica anónima de 'Abd al-Rahmān III al-Nāṣir,** edic. y trad. por Lévi-Provençal y García Gómez, p. 120).

(135) Maqqarī, adapt. Gayangos, II, p 468, n. 42. Ibn 'Iḏārī, en el **Bayān** (II, texto, p. 175; trad., pp. 279-280), sitúa la **maqbarat** de Qurayš en el arrabal (**rabad**). En la casa núm. 13 de la calle de Rey Heredia, en Córdoba, se halló un fragmento de lápida sepulcral de un tal al-Ŷa'farī, sepultado en el cementerio de Qurayš (Ocaña Jiménez, **Nuevas inscripciones árabes de Córdoba,** pp. 387-388).

(136) García Gómez, **El collar de la paloma,** p. 133.

(137) Ibn 'Iḏārī, **Bayān,** II, texto, p. 175; trad., pp. 279-280.

(138) Francisco Pons Boigues, **Ensayo bio-bibliográfico,** p. 85.

(139) Vocalización incierta, según Lévi-Provençal.

(140) **Sila,** pp. 48 y 179; Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, p. 380.

(141) **Sila,** p. 351.

(142) Lévi-Provençal, **Hist. de l'Esp. musulmane,** III, pp. 225-226.

(143) **Ibidem,** p. 380.

(144) Pons Boigues, **Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y geógrafos arábigo-españoles,** p. 77.

(145) **Sila,** pp. 27-28.

(146) Ribera, **Historia de los jueces de Córdoba,** p. 74.

(147) Ibn Baskuwāl, **Sila,** según cita de Francisco Codera, **Contenido de las cien páginas de la Assilah de Aben Pascual,** p. 167, menciona un cementerio en Córdoba junto al paseo de invierno, de ignorada localización.

(148) Lévi-Provençal y García Gómez, **Sevilla,** §§ 52 y 149, pp. 94-95 y 148.

(149) Ibn al-Abbār, **Takmilat al-Sila,** ed. Bel y Bencheneb, p. 200.

(150) Lévi-Provençal, **Inscriptions arabes d'Espagne,** núms. 33 y 30 bis, pp. 42 y 43-46.

(151) Ibn 'Iḏārī, **Bayān,** II, texto, p. 218; trad., p. 336.

(152) **Al-Šāqra** —la Sagra— era la comarca que se extendía al norte de Toledo, entre el Tajo y los actuales confines de la provincia de Madrid; ver infra «Los Puertos».

(153) **Sila,** p. 23. Un documento mozárabe toledano de 1175 se refiere a la venta de una casa en el **rabad de bāb Šāqra,** en la **ḥawma** de Santiago (**Los mozárabes de Toledo,** por González Palencia, vol. I, doc núm. 121, pp. 87-88).

(154) González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** vol. I, doc. núm. 379, pp. 318-319. Al dorso del documento se lee: «Esta es carta del alcacer, cerca del fosario de los moros».

(155) Narciso Estenaga Echevarría, **Condición social de los mudéjares en Toledo durante la Edad Media,** p. 17.

(156) **Memorial de algunas cosas notables que tiene la ciudad de Toledo,** por Luis Hurtado Mendoza Toledo.

(157) Antonio Martín Gamero, **Historia de la ciudad de Toledo,** n. 17, p. 41.

(158) Amador de los Ríos, **Memoria acerca de algunas inscripciones arábigas de España y Portugal,** pp. 225-228.

(159) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 97; trad., p. 119.

(160) «Unas cuantas noticias acerca de la conquista de España», tomadas de «La noble carta dirigida a las comarcas españolas», apud **Historia de la conquista de España,** trad. de Ribera, pp. 169-170. El señor García Gómez cree que ese texto procede de un manuscrito del **Fatḥ al-Andalus.**

(161) Cartulario de la Ciudad, t. II, f.° 212, citado por Ignacio de Asso, **Historia de la Economía política de Aragón,** p. 199.

(162) En 1186 se vendía en Huesca un campo sito en el lugar conocido por la Almecora de la puerta de Montearagón. Lindaba al este con aquélla; al sur, con el río Isuela, y al oeste con el monte (Cartulario del Temple de Huesca, f.° 28, citado por Ricardo del Arco, **La catedral de Huesca,** p. 24).

(163) A. H. P., Huesca, p. 34, f.° 55, según cita de Federico Balaguer, **Las termas de Huesca,** pp. 268-269. En julio de 1213, Pedro Violeta vendía al obispo un huerto en Huesca **circa illa Almecorella de mauros.** Lindaba al este con el muro de tierra, al oeste con la almecorella, etc. (Libro de la Cadena de la Catedral, doc, n.° 526, citado por Ricardo del Arco, **Huesca en el siglo XII,** en el vol. I de las **Actas y Memorias del II Congreso de Historia de la Corona de Aragón,** p. 360.

(164) De la donación a Pedro Garcés: ... **locum illum vocatum Lalmicorella, qui est inter muros Osce et locum vocatum Puig de Sanxo, quiquidem locus quem tibi damus consuevit esse cimiterium sarracenorum** (A. C. A., Reg. 21, f.° 51, citado por Arco, **Huesca en el siglo XII,** pp. 360-361).

(165) A. C. A., Reg. 19, f.° 24, según cita de Arco, **La catedral de Huesca,** p. 24.

(166) **Bab al-Kofol (Puerta de Santa Margarita). Antecedentes relativos a la Puerta de Santa Margarita de la ciudad de Palma,** pp. 19, 61, 77 y 121.

(167) Ribera, **Enterramientos árabes en Valencia,** en **Disertaciones y opúsculos,** II, p. 259; Bofarull, **Repartimientos,** pp. 188, 229-231, 244, 275. Supongo que el cementerio de Roteros, arrabal situado extramuros de la **bāb al-Qanṭara** (puerta de Serranos cristiana), era el mismo que el de las afueras de **bāb al-Hanaš.**

(168) ... **in loco illo qui est ante portam de Boatella, prope ciminterium et portam de Boatella, contiguatas vie publice que vadit ad Roçafam; ortum subtus via de Rozafa qui contiguatur cum valle prope cimiterium de Boatella** (Bofarull, **Repartimientos,** pp 230-231).

(169) Ribera, **Disertaciones y opúsculos,** II, pp. 258-259.

(170) Teixidor, **Antigüedades de Valencia,** II, p. 21.

(171) Luis Ferrer, 9 junio 1417 (Arch. de la Catedral).

(172) Ibn al-Abbār, **Takmila,** n.° 1.426, pp. 502-503; Ribera, **Disertaciones y opúsculos,** II, p. 261).

(173) Cf. **supra: «Muṣallà» y «Šarī'a».**

(174) Ribera, **Disertaciones y opúsculos,** II, p. 260. «¿Habría otro pequeño cementerio, diferente del de la Muṣallà, en la parte más oriental de la misma, donde fue enterrado Ibn al-Zubayr, que correspondía a la situación de un antiguo **fosaret** que nos recuerda el erudito marqués de Cruilles en su curiosa **Guía Urbana,** II, p. 217?» (Ribera, **Disertaciones y opúsculos,** II, p. 263).

(175) Bofarull, **Repartimientos,** p. 424; **Topografía de Alcira árabe,** por Vicente Pelufo, pp. 83-85. Pelufo sitúa el cementerio hacia el barranco del Estrecho, a partir de la calle de Zaragoza.

(176) Juan Torres Fontes, **El Obispado de Cartagena en el siglo XIII,** pp. 364-365 y apéndice, doc. n.º 1.

(177) A. H. N., Clero, Leg. 77.

(178) **Bastitania y Contestania del Reyno de Murcia,** por el doctor don Juan Lozano, pp. 134 y 136.

(179) Arch. Catedral de Murcia, perg. original, publicado por J. Torres Fontes, **El Obispado de Cartagena en el siglo XIII,** p. 547.

(180) **Takmilat al-Sila,** B. A. H., V, n.º 939, p. 314.

(181) Florián de Ocampo, f.º ccccv; **La crónica de la población de Avila,** por Gómez-Moreno, p. 50.

(182) **Vida de San Indalecio y Almería ilustrada,** por el Doctor don Gabriel Pasqual y Orbaneja. Primera parte, p. 147.

(183) Dos de los individuos enterrados, según Ibn Baškuwāl, en el cementerio de las afueras de la puerta de Pechina, fueron el tradicionista Abū-l-Hasan 'Alī b. Ibrāhīm, conocido por Ibn al-Lawwāz, y el también tradicionista y qādī Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. Jalaf, llamado Ibn al-Murābiṭ, muertos, respectivamente, en los años 474/1081-1082 y 485/1092-1093 (Ibn Baškuwāl, **Sila,** biogs. 915 y 1.107, pp. 420 y 499-500). Entre los personajes biografiados por Ibn Jātima, biografías insertadas por Ibn al-Qādī en **su Durrat al-ḥiŷāl** (ed. I. S. Allouche, Rabat 1934-1936), hay varios de los que se dice fueron enterrados en dicho cementerio. Anejo a la puerta de Pechina estaba el **ribāṭ** de **al-Jušaynī,** nombre de su devoto fundador, en el que fue enterrado el valenciano al-Muqri' (**Complementos de la Takmila,** edic. Bencheneb y Bel, p. 104, según cita de Jaime Oliver Asín, **Origen árabe de rebato, arrobda y sus homónimos,** pp. 24 y 27). A él corresponden los siguientes hallazgos: en la calle de Regocijos, casi al principio, elegantísima piedra prismática sepulcral, con una sola inscripción en el centro aplanado, conservada en el museo de Almería; dentro de la sacristía antigua de la iglesia parroquial de San Sebastián, al hacer un retrete salió, a un metro o metro y medio de profundidad, un trozo de piedra prismática que estaba en poder de don Joaquín de Peralta Valdivia; recientemente se han encontrado restos humanos al hacer una cimentación en la calle de la Flora, esquina a la rambla de Alfareros; con motivo de excavar los sótanos de la casa n.º 1 de la plaza de Flores, aparecieron a diversos niveles, el más alto a metro y medio del suelo actual, varios trozos, casi todos pequeños, de lápidas árabes, que quedaron en poder del dueño de la casa, don Miguel Sebastián Simón.

(184) No menos de cinco colecciones de lápidas arábigas había en Almería hacia 1875; la más importante era la de don José de Medina Rambaud. A su muerte pasó a su sobrino don Nicanor Peralta (Rodrigo Amador de los Ríos, **Epigrafía arábigo-española, Piedras prismáticas tumulares de Almería,** pp. 315-333). Después se han dispersado todas ellas por muy divesos lugares: Madrid (Museos Arqueológico Nacional y del Instituto de Valencia de Don Juan), Granada y Nueva York, donde la «Hispanic Society» posee un buen lote.

(185) Al Llano del Cordonero se le llama actualmente tan sólo el Llano. El erudito almeriense señor Martínez de Castro dice puede limitarse por las calles de Hipócrates, al oeste; del Rosario, al norte; de la Corbeta, al sur, y la Rambla de la Chanca, al este. La calle del Cordonero es prolongación hacia norte de la de Hipócrates; en ésta quedaban hace pocos años restos de grandes torres del recinto del barrio de **al-Ḥawḍ**. En las proximidades de la ermita, hoy iglesia parroquial, de San Roque, se encontraron hace años, al abrir los cimientos de una casa, como a un metro de profundidad o poco más, muchos

restos humanos. En el ángulo de poniente que forma la rambla de la Chanca con la calle del Muelle aparecieron unos epígrafes que Amador de los Ríos dice estaban en poder de don Miguel Ruiz de Villanueva. De este cementerio del Aljibe procederán lápidas sepulcrales de mármol, como todas, aparecidas en diversas ocasiones en la playa y algunas extraídas del mar por los pescadores con sus redes, frente al balneario de Diana. Véase **supra, La medina, los arrabales y los barrios.**

(186) Al-Dabbī, **Bugya,** p. 446; Casiri, II, p. 135; Ibn Baškuwāl, **Sila,** n.° 139; Amari, **Bib. Ara. Sic.,** I, p. 37. Cita de Pons Boigues, **Ensayo bio-bibliográfico,** n.° 120, pp. 158-159.

(187) Ibn Baškuwāl, **Sila,** biog. 559, p. 280.

(188) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, pp. 183-184; trad., pp. 221-223; al-'Umarī, **Masālik,** I, p. 239.

(189) Algunos hallazgos de piedras sepulcrales en el **rabad al-musallà al-qadima** (varias de ellas fueron sin duda trasladadas de otros lugares): en la casa n.° 16 antiguo, 22 actual, de la calle de Marín, cerca de donde estuvo la puerta de Pechina, encontróse una lápida sepulcral, propiedad de doña Juana Pérez Núñez; al señor Martínez de Castro perteneció parte de otra encontrada en el jardín de la casa n° 4 de la calle de Reyes Católicos, a unos dos metros de profundidad; el mismo señor poseía una **mqābrīya** encontrada al cimentar la casa n.° 6 de la calle de San Pedro. Hacia 1932, al abrir una puerta en el Instituto provincial de Segunda enseñanza, se encontró otra **mqābrīya,** de persona fallecida en 527/1132, que fue a parar al Museo de Almería (A. P. V., **Dos lágrimas halladas recientemente** en Almería, en **al-Andalus,** I, 1933, pp. 189-190). Algunas estelas del mismo tipo, de procedencia ignorada, se han empleado para proteger las esquinas de los edificios en los cruces de calles: una, quizá entera, está en la esquina de la casa con fachadas a la calle de la Unión y plaza de Urrutia; un trozo de otra, enterrado, cuya parte vista arrancaron, tiene igual destino en el encuentro de la calle de Azara con la sin salida, perpendicular a la del Limón; una tercera, en iguales condiciones, resguarda el ángulo del edificio de la antigua calle de la Reina con vuelta a la de Serrano. Hallazgos en la **madīna:** en la calle prolongación de la parte norte de la plaza de Pavía, y próximo al lugar por donde bajaba la muralla, en un huerto-corralón del industrial don Francisco Hita, se encontraron restos humanos y una lápida árabe que pasó al museo Provincial; en el ángulo que forma la calle del Regimiento de la Corona con la plaza de San Antón, terreno hoy ocupado por el cuartel de la Misericordia, aparecieron hace algo más de cincuenta años, al hacer un desmonte, sepulcros de argamasa, orientados de norte a sur, lápidas y bastantes fragmentos de grandes vasijas decoradas con labores incisas y en relieve, de barro rojo y de barro claro y grisáceo, con adornos esmaltados en verde.

(190) «Leí de puño y letra de nuestro compañero Abū-l-Walīd Sulaymān b. 'Abd al-Malik [lo siguiente]: 'Leí sobre el sepulcro del qādī Abū-l-Walīd b. Murābiṭ, escrito en una lápida de mármol **(rujāma)**, colocada a la cabecera de su tumba, sobre el muy frecuentado camino junto a la puerta de Pechina...'» (Ibn Baškuwāl, **Sila,** biog. 1107, páginas 499-500).

(191) Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, pp. 183-184; trad., pp. 221-223. Esa fecha se puede interpretar como en la que se cercó la **madīna;** el poblamiento fue, sin duda, anterior.

(192) Esa lápida de 718/1318, hoy en la «Hispanic Society» de Nueva York, es dudoso que proceda de Almería. La que figura en las **Inscriptions** de Lévi-Provençal —n.° 146, p. 131— como de esta ciudad, fechada en 729/1328-1329, se encontró en Niebla.

(193) Amador de los Ríos inventariaba, en 1778, 83 lápidas completas o fragmentos procedentes de Almería; en 1905, 86 (**Memoria acerca de algunas inscripciones arábigas de España y Portugal,** p. 160; **Epigrafía arábigo-española, Piedras tumulares de Almería,** pá-

ginas 315-333). Lévi-Provençal publicó 31 estelas sepulcrales de Almería, 23 losas rectangulares y 8 **mqābrīyas**; Caskel, 38 inéditas, entre completas y fragmentos, 26 de las primeras y 12 **mqābrīyas**, además de 9 epígrafes incluidos antes en su colección por el sabio arabista francés. El catálogo de los epitafios almerienses, hecho por don Manuel Ocaña Jiménez y que está terminándose de editar, comprende unos ciento. Otros muchos se habrán destruido o quedarán bajo tierra o en el fondo del mar. Las ramblas que limitaban la ciudad islámica, en breves períodos de lluvia han arrastrado grandes cantidades de tierra que enterraron los cementerios.

(194) Idrīsī, **Description ... de l'Espagne**, texto, pp. 197-198; trad., pp. 239-241.

(195) De la cercana Pechina dice **al-Rawd al-Mi'ṭār** (texto, p. 38; trad., p. 48) que a fines del siglo IX y en el X se sostenía con víveres importados del norte de Africa. El mismo hecho se repitió para su sucesora Almería durante toda la Edad Media y aun en el siglo XVI.

(196) Almería fue, como se dijo, la puerta de al-Andalus desde fines del siglo X a mediados del XII para el tráfico con el oriente mediterráneo; Alejandría, la del oriente islámico para el comercio con el centro y occidente del mismo mar interior.

(197) **Iḥāṭa**, I, pp. 57 y 276; II, p. 250, según cita de Seco de Lucena, **De toponimia granadina** (**al-Andalus**, XVI, 1951, p. 64).

(198) Münzer, **Viaje por España y Portugal**, pp. 36 y 39.

(199) Lafuente Alcántara, **El libro del viajero en Granada**, p. 263. Restos de sepulturas aparecieron también a bastante profundidad al abrir los cimientos de la Escuela Normal hará unos treinta años.

(200) Se ve en la **Plataforma** de Ambrosio de Vico, dibujada hacia 1600 y grabada pocos años después.

(201) Gómez Moreno, **Guía de Granada**, p. 383.

(202) Arch. de Diezmos de Granada, legs. 235 y 236, citados por Gómez-Moreno y Martínez, **Monumentos Arquitectónicos de España, Granada**, p. 40 y n. (3).

(203) Gómez Moreno, **Cosas granadinas**, pp. 117-118.

(204) Münzer, **Vaje por España y Portugal**, p. 40.

(205) Gómez Moreno, **Guía de Granada**, p. 488.

(206) Münzer, **Viaje por España y Portugal**, pp. 36 y 40.

(207) Ibn al-Jaṭīb, **Iḥāṭa**, edic. Cairo, I, p. 521, citado por Luis Seco de Lucena, **El ḥāŷib Riḍwān**, p. 294.

(208) Ibn al-Jaṭīb, **Iḥāṭa**, I, p. 149, según cita de Lévi-Provençal, **Le voyage d'Ibn Baṭṭūṭa dans le royaume de Grenade**, p. 221. Véase la rectificación de Luis Seco de Lucena Paredes, **De toponimia granadina**, p. 51.

(209) **Iḥāṭa**, edic. de El Cairo, I, p. 78, citado por Luis Seco de Lucena Paredes, **De toponimia granadina**, p. 62.

(210) Gómez Moreno, **Guía de Granada**, p. 226.

(211) Seco de Lucena, **De toponimia granadina**, pp. 69-71.

(212) Gómez Moreno, **Cosas granadinas**, p. 113.

(213) W. Hoenerbach, **Loja en la época nazarí**, pp. 61-62.

(214) Ibn al-Abbār, **Takmilat al-Sila**, edic. Codera, p. 262; edic. Bel y Bencheneb, p. 274; edic. de las **Misceláneas**, p. 594.

(215) Asín Palacios, **El «Abecedario» de Yusuf Benaxeij el malagueño**, pp. 198 y 206. Alude a ese cementerio con motivo de haberse sepultado en él un malagueño en 604/1207.

(216) Seco de Lucena, **De toponimia granadina**, p. 75, n. 1.

(217) Guillén Robles, **Málaga musulmana**, pp. 536-538.

(218) Lévi-Provençal, **Arabica occidentalia**, III: **Sur deux poètes de Malaga de Xe siècle**, pp. 290 y 292.

(219) Al-Dabbī, f.° 132 del ms. de El Escorial, citado por Guillén Robles, **Málaga musulmana**, p. 611.

(220) Lévi-Provençal, **Sur deux poètes de Malaga du Xe siècle**, p. 292).

(221) Guillén Robles, **Málaga musulmana**, pp. 610-611.

(222) **Crónica de don Alfonso el Onceno**, en **Crónica de los Reyes de Castilla**, colecc. Rosell, I, capítulos CCLXVIII-CCCXXXVI, pp. 342-389.

(223) **Crónica de don Juan II**, en **Crónicas de los Reyes de Castilla**, II, cap. XLI, p. 294.

(224) **Description de l'Afrique septentrionale par el-Bekri**, trad. de Mac Guckin de Slane, pp. 202-203.

(225) Ibn Baškuwāl, **Sila**, n.° 1372.

(226) Lévi-Provençal, **Une description de Ceuta musulmane au XVe siècle**, pp. 145-146. La traducción, inédita, del mismo sabio arabista.

(227) Además de los ejemplos citados a continuación, en documentos de los siglos XVI y XVII —apeos de la renta de habices, libros de repoblación, erección de parroquias, deslindes, etc.— se citan abundantes «macáberes» en los pueblos de las Alpujarras (Manuel Gómez-Moreno, **De la Alpujarra**, pp. 25-29; Isidro de las Cajigas, **Topónimos alpujarreños**, p. 302).

(228) Varios ejemplos **supra**; otros figuran más adelante. Referencia más vieja en una concesión hecha por Pedro I en 1095 al monasterio de San Juan de la Peña de su heredamiento en la villa de Luesia (Zaragoza), para que en la era llamada Almecora (sin duda, el cementerio islámico), levantase una iglesia dedicada a San Esteban. El obispo de Pamplona confirmó la donación en 1133 (Ricardo del Arco, **Referencias a acaecimientos históricos en las datas de documentos aragoneses de los siglos XI y XII**, páginas 329-330).

(229) Hoenerbach, **Loja en la época nazarí, en Miscelánea de Estudios árabes y hebraicos**, III, pp. 61-62. La iglesia arciprestal de Alcántara (Cáceres) está dedicada a Santa María de Almocóbar; fundada en el siglo XIII, ocupará el solar de un anterior cementerio islámico.

(230) **Fundación, excelencias, grandezas y cosas memorables de la antiquíssima Ciudad de Huesca**, recopiladas por Francisco Diego de Aynsa y de Yriarte, p. 557.

(231) Donación del **locum quod dicunt fossarium sarracenorum in Osca, juxta riuam Isalle, partem cuius concesseremus fratribus predicatoribus Osce ad extrahendum inde lapides ad opus operis eeclesie sue. Ita ut de dicto fossario, de quo fratres predicatores extraserant lapides, possitis facere campum et ibi laborare et escolere ad opus mesquite vestre et id quod inde exibit sit ad servicium et opus dicte mezquite** (Joaquim Miret i Sans, **Itinerari de Jaume I «el Conqueridor»**, p. 493). El doc., en A. C. A., Reg. 19, f.° 96.

(232) A. C. A., Reg. n.° 20, f.° 325 v., citado por Arco, **La catedral de Huesca**, p. 24, y **Huesca en el siglo XII, apud Actas y Memorias del II Congreso de Historia de la Corona de Aragón**, I, p. 357.

(238) «Por hacer bien e merced e limosna al prior e frailes e convento del Monasterio de Nuestra Señora Santa María de la Concepción de orden de San Jerónimo de la ciudad de Granada, por la presente les hacemos merced e donación de todo el ladrillo e piedra que hay en el onsario que tenían los moros de la dicha cibdad a linde la puerta de Elvira para la obra del dicho Monasterio e mandamos al Corregidor e Alcaldes e otras Justicias cualesquier de la dicha cibdad de Granada que les dejen y consientan sacar del dicho onsario toda la dicha piedra e ladrillo libre desembarazadamente» (Arch. de la Alhambra; cita de Gómez Moreno, **Cosas granadinas**, pp. 119-120).

## الفصل الرابع

## المفهوم الإسلامي للشارع

إن تباعد وعزل الأرباض والأحياء حتى الشوارع عن بعضها؛ بالإضافة إلى ضيق الشوارع الملتوية التواءً شديدًا، ووجود الأزقة، والأسوار، وأبواب الأسوار في المدن الإسبانية المسلمة، كان استجابة طبيعية لحاجة السكان إلى الدفاع عن أنفسهم. ففي الفترات التي تكررت فيها حالات عدم الأمان والثورات الشعبية، كانت الأسوار الخارجية تؤدي وظيفتها في حماية السكان من العدو البعيد، كما كانت العوائق والحواجز السابق ذكرها ضرورية في سبيل الحماية الذاتية من العدو الداخلي الذي يشكل خطورة نظراً لقربه.

ويذكر ابن عَذاري أنه كان على رأس مدينة قرطبة في ٩٧٧/ ٩٧٨ تقريبًا المدعو فيما بعدُ بالمنصور. وقد تحسنت إدارتها إذ ذاك بصورة ظاهرة، إذا ما قورنت حالها بما كانت عليه أيام الحكام السابقين. ففي الفترة السابقة كان الأمر يقتضي السهر طول الليل للدفاع عن السكان من هجوم المجرمين الذين كانوا يلجؤون إلى كنف أهل البلاط، وكان هجومُ المجرمين في أثناء الليل أخطرَ على سكان المدينة مما يتعرضون له من المسلمين المجاورين على الحدود. ويذكر ابن سعيد أن الاغتيالات والسرقات كثرت في القرن الثالث عشر في العاصمة القديمة للخلافة، التي اشتهر فيها الغوغائيون بعدم التردد في ارتكاب الأعمال السيئة، وبالميل إلى انتقاد كل شيء، وإلى إظهار حال التبرم والسخط[1]. ولكي يتمتع السكان باطمئنان نسبي، كانوا في حاجة إلى السكن في أماكن ضيقة مزدحمة، إذ كان يسهل على الأهالي في الثورات الشعبية المتكررة وفي فترات الفوضى حماية مداخل الدرْب أو العطفة التي تفتح عليها أبواب مساكنهم.

ويذكر المؤلف جالوتي Gallotti، في كتاب له وصف فيه بدقة بعض المظاهر المدنيـة في المغرب منذ نصف قـرن، أن مفـهوم ابن البلد عن مـسكنه لم يكن يختلف عن المفهوم الراسخ لدى جاره في المدن الإسـبانية المسلمة، ويقول: «ما يرغب فيـه هو بناء سور فاصل بـين مكان راحته والطرق الريفـية غيـر المأمونة لكثـرة المكامن الخطرة؛ وهذا السور الفـاصل يؤمّن راحتـه ويبعـد عنه الروائح الكريهـة القادمة من المديـنة والأمطار الغزيرة وحـرارة الشمس الشـديدة وشدة الرياح والجمهور البـائس وضجة القوافل: فالسور كـان الحد الفاصل بين مكان استراحـته وأعماله التجـارية وبين مكائد ممثّل السلطان وفساد القـضاة، وجشع الجسورين منهم وحسـد الجميع؛ فالسور الفاصل هو الذي يُشْـعِره بالأمان التام في مسكنه مثلما في مضجعه وفي قبره»(٢).

وبالإضـافة إلى تلك الحـاجة الأوليـة في الدفاع عن النفس، كـان تخطيط الشوارع يتـرجم أيضًا مفهـوم السكان للحياة في المدينة الذي كـان يختلف كل الاختـلاف عن المفهوم الراسخ لدى سكان المـدن النصرانية. فـالناس في غرب البحـر الأبيض المتوسـط الذين يتمـتعون بمناخ لـطيف، تكون شوارع الأحـياء الشعبية بالنسبة لهم امتدادًا للحياة الصاخبة التي يعيشونها في مساكنهم، حيث يلجأ إليها جيران المنازل المجاورة بغرض التمتع بالشمس والهواء الطلق وللثرثرة معاً. وتُتـرك في الواجهات فتـحات عديدة منتظمة المقـاييس يطل منها السكان عادة للتمتع بمشاهدة منظر المدينة.

وكان سـكان المدن الأسبـانية المسلمـة يؤدون فريضـتهم الدينيـة وأعمـالهم التـجارية أو الصناعـية في الجـزء المركزي الـصاخب المزدحم من المدينة حـيث المسجد الجامع والقـيصرية والشوارع المكتظة بالمتاجر الضـيقة وأغلب الأسواق؛

أما مساكنهم في أغلب الأحيان فغير ظاهرة، لوقوعها في أواخر الأزقة المنعزلة الهادئة حيث قلة المرور فيها. وكان هذا الوضع يسمح بنمو الحشائش البرية على أراضيها. ومن خلف مشربية نافذة صغيرة، أو من خلف شماسة طائرة، كان النساء يستطعن مشاهدة الشارع دون أن يلتفت إليهن أحد، ولكن كان صحن الدار Patio مكاناً لتسلية النساء والأطفال بالإضافة إلى أنه وجد في بعض أماكن شاطئ البحر الأبيض المتوسط وشاطئ المحيط الأطلسي المجاور له، سطح البيت أو الغرفة "Algorfa" (أو الساحة العليا) عندما يكون المنزل مغطى بسقف من القرميد فقط. وكان الناس يتمتعون بالنظر من تلك الأماكن الواسعة أكثر من متعتهم في تأمل مشاهد الأزقة فكان النظر يبلغ "المنارات" المجاورة البارزة أعلى المباني السكنية، كما كان الناظر يشاهد الجبال البعيدة في الأفق.

وتساعد المعيشة في مسكن غير مريح مبني في آخر زقاق ضيق في مدينة مزدحمة على الاستمتاع بفوائد كثيرة منها الراحة التامة في مدينة فسيحة والعزلة والصمت الهادئ في آن معًا، بخلاف المعيشة في العمارات الحديثة بطوابقها المرتفعة غير المريحة، والصاخبة بسبب الاتصال المستمر بالجيران. وتبدو الحالة الأولى مثالية ومستحيلة المنال بالنسبة لسكان المدن الحديثة، وهذه الفكرة تكررت كثيراً على لسان (سيرفانتس) مادحًا إياها، ومعتبراً أنها امتياز عجيب.

ويميل علماء المدن المعاصرون، برغبة متزايدة، إلى تنظيم مركز مدني يخصَّص للحياة التجارية وللعلاقات فحسب، ومركز آخر تُجمَّع فيه الصناعات، وإلى بناء أحياء للمساكن منفصلة عنهما بشوارع ضيقة نسبيًا يندر فيها المرور.

وكانت الشوارع الضيقة مبنية للمرور لا للجلوس أو الثرثرة، كما أنها كانت خالية من المتاجر.

وهذا ليس، كما رأينا من قبل، اختراعًا حديثًا، بل كان مطبقًا في المدن الأسبانية المسلمة بصورة طبيعية وكاملة نتيجة تطور حيوي، وليس نتيجة لفرض تقني فجائي في تلك المدن التي كانت تشكل قطاعاتها المختلفة نظامًا في غاية الكمال، وكان الانتقال من قطاع إلى آخر يتم بصورة تدريجية متسقة دون انقطاع.

وبدلاً من دراسة تخطيط المدن بالاعتماد على رفع الشوارع كما كان يحدث حتى الآن، يميل الفكر الحديث إلى إيلاء الأرضيات المراد بناء مساكن عليها أهمية أساسية. وتلك الأرضيات هي التي تحدد الشكل وتصميم الطرق، كما رأينا في النظام الذي كان يطبق في المدن الإسلامية.

ومن المحتمل أنْ يرجع علماء المدن في المستقبل إلى التقليد الموقوف منذ خمسة قرون، ليصلوا إلى تخطيطٍ أو إصلاح جيد للمدن بحيث تتجمع الشوارع الصاخبة التي يشتد فيها المرور في مكان واحد، كما تطلبه ملابسات الحياة الحديثة، وفي مكان آخر منفصل عن الشوارع الأخرى تتركز المساكن التي لايسمع فيها بين فترة وأخرى إلا وقع أقدام الأهالي القلائل الساكنين فيها. وهكذا نكون قد تمكنا من الجمع بين الحياة الريفية برتابتها وهدوئها والحياة المضطربة الصاخبة للمراكز المدنية في مدينة واحدة.

ونحن نؤمن الآن بأن الشرقيين بتقاليدهم وبحكمتهم المخلصين لنظمهم المدنية القديمة الراسخة لا يحتاجون إلى تحويل جذري لمدنهم لكي تتفق مع الأنماط والأساليب الحديثة، لأن تلك الأساليب قد طبقت بصورة شبه كاملة منذ عدة قرون.

(1) Ibn 'Idārī, **Bayān,** II, texto, p. 284; trad., p. 442; Lévi-Provençal, **L'Espagne... au Xème siècle,** pp. 232-233.

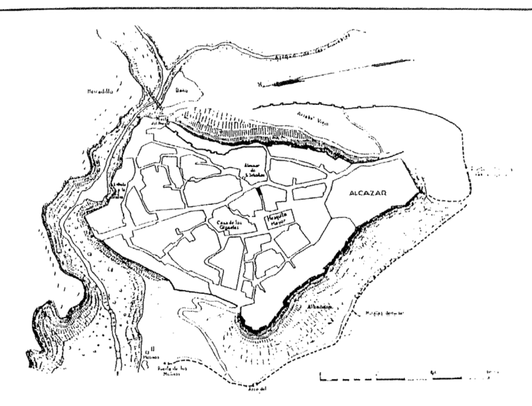
(2) Jean Gallotti, **Le jardin et la maison arabe au Maroc,** I, p. 7. Compárese con la descripción que hace Sauvaget de la disposición callejera de Damasco: «a las calles principales abren las callejuelas **(darb, ḥāra),** cuyas puertas se cierran todas las noches desde la puesta de sol, y permanentemente en épocas de intranquilidad; estas callejuelas se ramifican a su vez en calles sin salida **(zuqāq, dajla),** cerradas también por puertas, en las que están los ingresos de las viviendas. Cada casa no presenta así a la calle más que su fachada posterior, sin hueco alguno; para penetrar en ella hay que franquear, sucesivamente la puerta del barrio, la del atolladero y la de la vivienda. Gracias a esta sucesión de obstáculos y a la solidaridad que existe entre los vecinos de un mismo barrio, pueden éstos vivir relativamente seguros» **(Esquisse... de Damas,** p. 453).

# الفصل الخامس

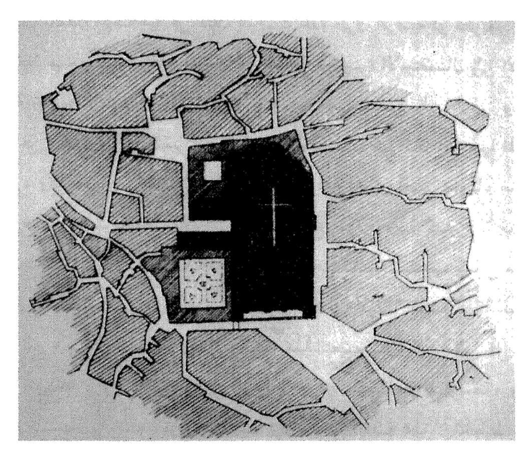
## تخطيط الشوارع والمجموعات السكنية وتصميمها

إن الصفة التي كانت تميز المدن المسلمة، سواء الشرقية منها أو التي في شمال أفريقية أو في شبه جزيرتنا، عن مدن الغرب في القرون الوسطى هي تصميم شوارعها. فمعظم شوارع مدن الغرب في العصور الوسيطة مفتوحة عند طرفيها كشوارع المدن الحديثة؛ إذ كانت طرقاً للمرور والتنقل دون انقطاع؛ وكانت مخصصة لحركة المرور العام في المدينة ولدخول المساكن الواقعة على جانب من جانبيها في آن واحد.

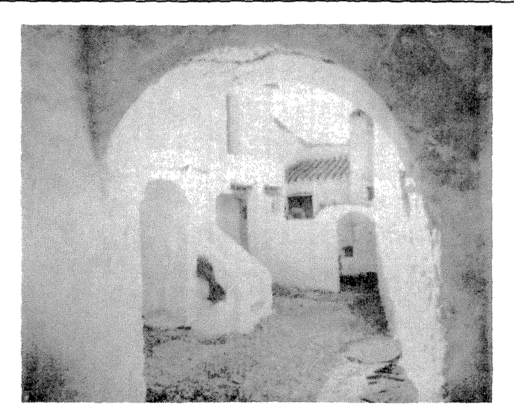
وكان للمدن الإسلامية في ذلك الوقت عدة طرق عرضية أو قطرية، كانت تعبر خط سور المدينة ممتدة من خلال المداخل الكثيرة الاستعمال إلى الأحياء الواقعة خارج الأسوار المجاورة، وفي نهايتها كانت تتحول إلى طرق. وكانت تتفرع من الشوارع التي تتميز بحرية المرور الكثيف، والتي كان يقع فيها المسجد الجامع، والقيصرية وأهم الأسواق المدنية، شوارعُ أخرى أضيق منها، مختلفة في عرضها، مفترقة وملتوية والتي كانت تتفرع منها دروب كثيرة لا مخارج لها، حيث كان في نهاياتها عدد من الالتواءات كانت تتشعب بشكل معقد كعروق الجسم البشري، وكانت في اعتبار الأهالي طرقًا خاصة ملكاً للسكان الذين تقع فيها أبواب مساكنهم. وكان هذا التصميم يتكرر في كل حي من الأحياء، وفي كل ربض من الأرباض ذوات المساحة المتوسطة، ولكن بصورة مبسطة ومختصرة وبنسب مختزلة. ومن أمثلة هذا : تخطيط مدينة أشبيلية سنة ١٧٧١م الذي يرجع الفضل فيه إلى اقتراح مساعد المأمور القضائي



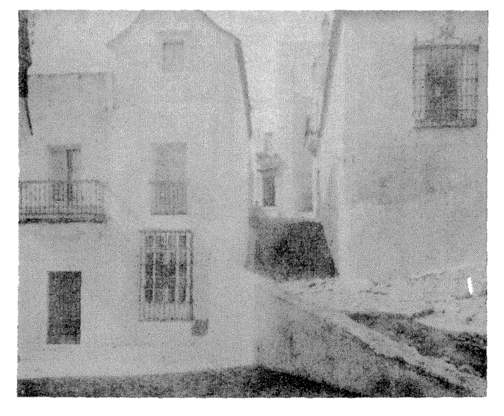

رُوندة (مالقة) مخطط للمدينة في العصر الإسلامي.



مخطط حديث لضواحي الكاتدرائية، طليطلة.



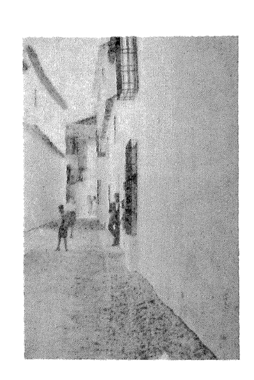
زاوية في بيخير ديه لا فرونتيرا (قادش).

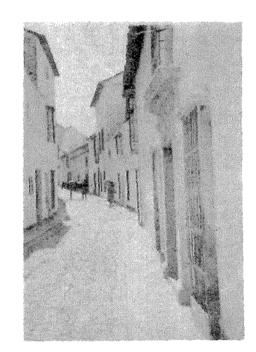


شوارع في بيخير ديه لا فرونتيرا (قادش).

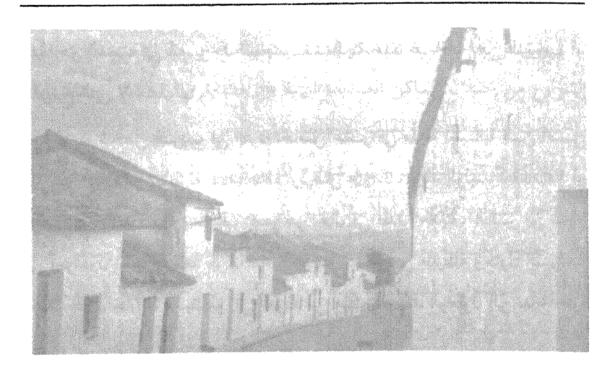


زاوية في بيخير ديه لا فرونتيرا (قادش).





شوارع في بيانة (قرطبة).



شارع في بايين (جيان).

السيد بابلودي ألابيدي Olavide ؛ أما تخطيط مالقة فإنــه يرجع إلى عشرين عاماً بعد ذلك التاريخ؛ وتخطيط "دالماو" Dalmau لمدينة غرناطة مؤرخ في ١٧٩٦م، وتخطيط قرطبة مؤرخ في ١٨١١ أثناء الاحتلال الفرنسي[١]. وتوضح كل هذه الأمثلة جليًا ذلك الترتـيب الذي بقي منه بعض الآثار في أحياء تلك المدن التي لم تدخل فيهــا حتى الآن التعديلات الحديثة. ومن أمــثلتها الحي الواقع جنوب شرق قصر أشبيلية القريب من الشوارع الواقعة فيه (شوارع بلاثنتس Placentines وأرجوتا دي مولينا A.D.Molina التي تفرعت منها بعض الأزقة المغلقة)، والحي الذي يمتد بمدينة غرناطة على طول ضفة نهر "الدارو" Darro على حدود منحدر قصــر الحمراء بين النهر والقــصبة القــديمة، والحي الأخير الذي يحيط بمســجد قرطبــة. وقد فرضت التضــاريس البارزة في مدينة طــليطلة وعمق الأدوار التي تحت الأرض وأســاســات أغلب المــبــاني على شــوارع طليطلــة أن تتــبع نفس التخطيط عدة قرون، خاضعة في ذلك لمبدأ الاستمرار والبقاء خلال هذه المدة،

وهذا هو السبب في أنه يوجد اليوم بهـذه المدينة عدد غير قليل من الدروب أو الشوارع التي لا منفذ لها.

وإذا تاه شخص غـريب في القرن الخامس عشـر في مدينة أسبـانية مـن أصـل غـربـي كمـدينة برشلونة Barcelona، وبرغش Burgos، وبلد الوليـد Valladolid أو سلمنقة Salamanca فإنه يستطيع، كـما هو الحال في المدن الحديثة، السـير من شارع إلى آخر دون انقطاع طائفاً حولها. أمـا إذا تاه شخص في طليطلة وحاول السير هنا وهناك خلال حاراتها فسيضطر إلى العودة من حيث بدأ عند الوصول إلى نهاية حارة مجردة من مخرج، مقفرة قد نبتت الحشائش بين أحجارها.

ولم ترث المدن الإسـلامية ذلك التـرتيب من المدن الرومـانية[٢]؛ ولنضرب مثالاً لذلك، فـتخطيط المدينتين الإيطاليتين: بومـبيا Pompeya وأوستيا Ostia، والمدينتين الأفريقيتين: تمجاد وجـميلة، والمدن الإسبانية: أثايل Azaila ونومانثيا Numancia، وأمبـورياس Ampurias، وإيتالكا Italica، منتظم نسـبيـاً، وعرض شوارعها ثابت، وتتصل ببعضهـا عند طرفيها. وذلك الاختلاف الحادّ بين المدن الإسبـانية المسلمـة والمدن الأخرى أتى إلى الغـرب من الطرف الأقصى للبـحر الأبيض المتوسط، ربما من سوريا، حيث استـقر العرب للمرة الأولى في المراكز المدنيـة المهمـة. وربما قد تأثرت سـوريا في ذلك بمدن اليمن الصـغيـرة جنوب الجزيرة العربية، التي خرج منها عدد كبـير من أصحاب المهن والتجار واستقروا في العراق والأندلس.

ويعبر الكاتب المسلم الحِمْيَري عن استغرابه البالغ عندما يتحدث عن تخطيط شوارع مـدينة سرقسطة غـير المألوف الذي كـان على شكل تقاطعات رأسـية، ويوجد باب واحد على كل طرف من أطراف المحاور المتعامدة.

ويطبق في هذه الحالة القانون السابق ذكره، من حيث الاحتفاظ بتخطيط الشوارع من خلال المساكن العديدة المبنية من جديد والمرتبة على حافتيها. واحتفظت المدينة المذكورة بذلك التخطيط حتى اليوم.

ولذلك الترتيب المشترك لجميع شوارع المدن الإسلامية، الشرقية منها والغربية على حدٍ سواء، ذلك لأن الإسلام يميل إلى بناء شكل متساوٍ للمدينة نتيجة لنظم الحياة الخاصة به، أضيفت صفة أخرى وهي شكل الأرباض غير المنتظمة، فالشوارع الضيقة الملتفة حول المساكن على حافتيها غيرُ متوازية الواجهات في كثير من الأحيان. وكانت تحيط بالمدن الإسلامية في الأندلس الأرباض الواسعة غير المنتظمة وتخترقها دروب خالية بلا مخارج.

وفي المدن الغربية أول ما يظهر هو الطريق الترابي، ثم يتحول تدريجياً إلى شارع كلما شيدت المباني على حافتيه. أمّا المدن الإسلامية فالمساكن التي تبنى فيها جنباً إلى جنب هي التي تحدد اتجاه الشوارع؛ سواء في ذلك الشوارع المؤدية إلى مداخل المساكن أو الشوارع الخاصة بمرور السكان، وهذا هو التفسير المنطقي لتخطيطها. وخلو المدن من نظام البلديات ومن القوانين الخاصة بالبناء كان يُساعد على إنماء المدن بتلك الأساليب(٣).

ومن ثم يتضح أن نمو المدينة في المجتمع الإسلامي كان نتيجة مبادرة شخصية مع شرط وحيد، وهو عدم الإضرار بالجار.

ولم يكن يخالف ذلك النظامَ إلا صاحب سلطة قوي قد تمكن من إدخال تعديلات جذرية في نظم المدينة. ومثال ذلك ما حدث بأشبيلية عندما أمر الحاكم الموحدي أبو يعقوب يوسف سنة ١١٧١ـ ١١٧٢ بتدمير عدة منازل في القصبة لبناء مسجد جامع جديد على أرضها لقصور المسجد القديم عن استيعاب المصلين.

(1) «**Plano topographico de la M. N. y M. L. ciudad de Sevilla.** Se levantó y abrió por disposición del señor don Pablo de Olavide, asistente de esta ciudad... Año de 1771. Lo levantó y delineó don Fco. Manl. Coelho, y gravó don Jph. Amat» (Se hizo nueva edición en 1903, a expensa del Duque de T'Serclaes) —Plano de Málaga, levantado en 1791 por el vigía del puerto don José Carrión de Mula; publicó una reducción don Manuel Rodríguez de Berlanga, en su obra **Monumentos históricos del municipio Flavio-Malacitano** (Málaga, 1864)—. «**Mapa topográfico de la ciudad de Granada.** Por don Francisco Dalmau... año de 1796». «**Plan topographico de la Ciudad de Córdoba,** levantado según Procedimientos de Geometría subterránea por el Ingeniero de Minas Barón de Karvinskj y el Ingeniero de Puentes y Calzadas. Don Joaquín Rillo a Expensas de la Municipalidad. Año de 1811». Se publicó en el **Boletín de la Real Academia de Ciencias, Bellas Letras y Nobles Artes de Córdoba,** a. IX, 1930, p. 117, y en la tirada aparte del trabajo al que acompaña en esa revista, **Córdoba durante la guerra de la Independencia,** por Miguel Angel Ortí Belmonte.

(2) Véase **supra «De las ciudades romanas a las hispanomusulmanas».**

(3) Véase **supra «Ausencia de disposiciones y reglamentos urbanos».**

# الفصل السادس
# الرِّحاب والأسواق والخانات
# في المدن الأسبانية المسلمة

**الرحــــاب.**

كان الميدان يسمى باللغة العربية في إسبانيا "الرَّحْبَة" Rahba، جمعه رِحَاب أو رَحَبات. وإذا وجـدت فيها مـحلات دائمة أو استـقرت فيهـا متاجر مـؤقتة سميت عندئذ بالسوق، جمعه أسواق، ولـم تكن هذه التـسمية الأخيرة تتضمن دائماً فكرة الرحبة؛ أما الثوكو Zoco ، وهي الكلمة القشتاليـة المشتقة من كلمة "السوق" العربية، فيمكــن أن يوجد في إحدى الرحاب، أو أحد الشوارع، أو في سـاحــة جرداء خـارج الأسـوار على السـواء، إلخ. ومن هنا تدل كلمـة "سوق" عــلى السوق الدائم والسـوق الدوري. ولـم تظهر هاتـان التسـميـتان متميزتين دائماً بصورة محددة. وكثيراً ما تطلق كلمتا «رحبات» و«شوارع» على «الخانــات»، ومع ذلك لم تكونا في العادة تسـميـان أسواقـاً. وكانت الــسوق الصغيرة تنصب عادة في "رحبة"، فـصار يطلق على الرحبة «السُّويقة» لوجود السوق الصغير فيها(١).

ولـم تكن في داخل أسوار المدن الأسبـانية المسلمة مساحات فـارغة واسعة؛ فبسبب شبكة الشوارع والحارات الملتوية وغير المتساوية التي تخترق أرض المدينة كـانت تتشكل أمـاكن على هيـئة رُحَـيبـات وأركـان ضيـقة ناتجـة عن تكرار الاتساعات الفجـائية لشارع ما أو عن تغير اتجاهه. وكان بجـوار المسجد الجامع والمساجد الصغيـرة عادة، كما سنرى في الصفحات التاليـة، رحبة أوسع قليلاً

من الرحاب الأخرى، كانت تحتل الخانات التجارية أكبر مساحة فيها. وكانت الصحون الداخلية للمساجد تعوض المساحات المختصرة للرحاب فيما عدا أوقات الصلاة المفروضة. وبالإضافة إلى ذلك كان الأهالي يتوزعون بين الشوارع والأسواق القريبة وبين القيصرية الواقعة أيضًا بجوار المسجد الجامع. وكان في بعض المدن رحاب أخرى صغيرة فيها خانات أحيانًا. كما كان من المألوف وجود أسواق خارج الأسوار، بالقرب من الأبواب، تباع فيها المنتجات القادمة من المناطق المحيطة بها.

وهناك شواهد مباشرة عن العدد القليل للرحاب وعن صغر مساحتها توضح الاختلاف الجذري في التصوّر المدني بين المدن الأسبانية المسلمة والمدن النصرانية، وكيف اضطر النصارى إلى توسيع الرحاب القديمة وبناء رحاب أخرى جديدة في المدن بعد الاستيلاء عليها. وهُدِمَ لهذا الغرض عدد غير قليل من المباني، وبالأخص في أواخر القرون الوسطى وفي القرن السادس عشر. ولم يكن الملك "خوسي الدخيل" المثال الوحيد الذي أحس بعد التاريخ السابق بثلاثة قرون، في أثناء حرب الاستقلال، بالضيق الناتج عن كثافة المنازل المتلاصقة بصورة مفرطة، وبالحاجة إلى تخفيفها، فلجأ إلى هدم بعضها.

ويقول ابن عبدون عن مدينة أشبيلية في حدود عام ١١٠٠م إن المساحات الداخلية كانت ضيقة مما اضطر الأهالي إلى صنع القرميد والطوب الأحمر خارج أبوابها عند الخندق الواقي لسور المدينة[٢]. وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر وصف الإدريسي مدينة "شلطيش" Saltis المنقرضة، الواقعة بجوار مدينة ولبة على جزيرة صغيرة في حيز ضيق لا يسمح بتوسع عمراني، بالإضافة إلى أن مبانيها متقاربة إلى درجة تكاد تخلو من حيز بينها[٣].

وتكررت تلك الحالة في مدينة مالقة المزدحمة في القرن الرابع عشر طبقًا لشهادة ابن الخطيب: "فقد كانت أرض مدينة مالقة الواقعة داخل الأسوار مزدحمة. والمدينة بأكملها متشابكة، وفي الوقت نفسه متسقة في توزيعها كنسيج العنكبوت.. وشوارعها مختنقة بالناس والمتاجر متراصة بالأسواق"[٤].

وبعد ذلك بحوالي قرن واحد كرر كاتب العدل "بيدرو ليليترا" من ميورقة، المعتاد على المدن الشرقية ذات الرحاب الواسعة، وقد دخل مالقة بعد أن انتزعها الملكان الكاثوليكيان (سنة ١٤٨٧) تلك الملاحظة فقال: "ليس بمدينة "مالقة" رحاب"[٥]. ويؤكد "لوثيو مارينيو سيكولو" الملاحظة نفسها في غرناطة، إذ يشاهد تكدس المباني في المدينة التي تعد خالية مما نسميه اليوم بالمساحات الخالية، وهو انطباع يخرج به من زار تلك المدن، فقال سيكولو: «إن أحياء المدينة وشوارعها الكثيرة ضيقة في أغلبها، نظرًا لكثافة المساكن والمباني، وكذلك الحال بالنسبة للرحاب والأسواق حيث تباع المواد الغذائية، وقد أصبحت بعد استيلاء النصارى على مدينة غرناطة أكثر اتساعًا وشهرة»[٦].

وعندما انتقلت غرناطة إلى السيطرة النصرانية صارت الحاجة ضرورية إلى توسيع الشوارع والرحاب[٧].

وكتب القمص مارتنيث ماثاس، من مدينة جَيَّان، في أواخر القرن الثامن عشر قائلاً: «لم يكن من أسلوب العرب أن يتركوا مساحات أو أماكن خالية في مدنهم، ولذا كان يتجمع عدد كبير من السكان في أحياءٍ ضيقة»[٨].

كان من المحتم وجود رحبة بجوار المسجد. ففي قرطبة كان هنالك رحبة وفقًا لما جاء في مستند مؤرخ بعد استيلاء فرناندو الثالث على المدينة، وتاريخ ذلك المستند قريب جداً من تاريخ الاستيلاء، وبالتأكيد لم تقم البلدية بإنجاز

الإصلاحات المدنية المهمة في المدينة الكبرى المتدهورة. وهناك امتياز من امتيازات الملك فرناندو الثالث صادر بمدينة برغش (بورجوس Burgos) في ١٢ من شهر يوليو سنة ١٢٤١م، يقول فيه: "أعطيت لكم تلك المنازل الواقعة بمدينة قرطبة المسماة بمنازل المسجد، بالإضافة إلى الرحبة الواقعة بجوار باب كنيسة سانتا ماريا"[٩]. وكان هناك، بين المسجد والقصر، الذي تحول إلى بيت للأسقف وبقيت خطوط واجهاته القديمة حتى اليوم، شارع ذو عرض غير معتاد إذا قورن بالشوارع الأخرى المعروفة في ذلك الوقت[١٠].

وكان في مدينة أشبيلية رحبة متاخمة للمسجد الجامع، ورد ذكرها في وثائق مكتوبة في الفترة المباشرة لانتزاعها: "وهناك بعض المنازل في مدينة إشبيلية واقعة برحبة "سانتا ماريا" (١٢٥١أ)؛ "وتطل كلها على رحبة سانتا ماريا" (١٢٦٤ - أ)[١١].

وكتاب **التاريخ العام** La Primera Cronica General عند روايته لحصار «السيِّد» لبلنسية في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر، يذكر أيضًا موقع المسجد والقصبة الواقعين برحبة كان يدفن فيها سكان بلنسية الساقطون في أثناء الحصار، لأنهم لم يتمكنوا من الخروج إلى المقابر الواقعة خارج الأسوار، يقول: «وقد كان الشعب كله يسير إلى الموت؛ كان الشعب يهرب ولا يسير، ويستسلم للموت حتى امتلأت رحبة القصر بقبور الأموات حول المسجد الجامع، وكذلك كان الحال في رحاب المدينة الواقعة حول السور، كما أن هناك حفرة دفن فيها ما لا يقل عن عشر جثث»[١٢].

وهناك مستندات نصرانية تعود إلى سنة ١٤٩٢م، وهي سنة الاستيلاء على مدينة غرناطة، تذكر وجود «مغسلة الأصواف الواقعة برحبة المسجد الجامع

للمدينة المذكورة، التي كانت تحدها من ناحية "الباستي" ، ومن الناحية الثانية "المدرسة" التي يقرأ فيها الفتيان ومن الناحية الأخرى "دار الوضوء" المعروفة باللغة الرومانية "بدار الجوادو" Daralguado». وقد تم شراء تلك المغسلة سنة ١٥٠٠ لتوسيع مدخل منازل البلدية القائمة بالمدرسة السابق ذكرها. فكانت الرحبة المعروفة "برحبة المسجد الأعظم" واقعة بين المدرسة أو البلدية القديمة والمسجد من ناحية الشرق؛ واحتلت الكنيسة الملكية فيما بعدُ جزءًا كبيرًا منها[١٣]. وجاء ذكر هذه الرحبة في نص عربي كتبه شخص مجهول أنهى كتابته سنة ١٥٣٨، يذكر فيه فيضان نهر "دارو" نتيجة الأمطار الغزيرة التي سقطت في أثناء الربيع سنة ١٤٧٨، "وقد بلغ مستوى مياه الأمطار حتى رحبة المسجد الجامع"[١٤]. وليس من السهل تحديد موقع الرحاب قليلة الأهمية المذكورة فيما بعد.

فيذكر ابن بَشْكُوال «رحبة عَزيزة» بقرطبة التي دفن فيها العالم القرطبي "ابن بنُّوش" سنة ٤١٥/ ١٠٢٤، بجوار منزل "ابن شُهيد"، ولم يجرؤ الأهالي على نقل جثته إلى المقبرة خوفًا من عصابات البربر الذين كانوا يتجولون في المناطق المجاورة للمدينة. يذكر الكاتب نفسه اسم «رحبة ابن درهمَيْن»، التي وجد فيها مسجد يوسف بن بسيل، الذي كان مسجدًا جديدًا في ذلك الوقت، ودفن فيه "أبو الوليد مالك بن عبد الله السهلي" سنة ٥٠٧/ ١١١٤، وتوفى البُشْكَلاري إمام هذا المسجد سنة ٤٦٠/١٠٦٨[١٥]. وتذكر النصوص المكتوبة في مدينة قرطبة باللغة العجمية aljamiada أن في القصبة القشتالية المعروفة بحمَّام ثريب Zarieb «رحبة قريش» التي تاهت فيها الصبية الجميلة «زينب» التي كانت حبيسة قصرها، عندما ذهبت إلى زيارة "حمام ثريب" استجابة لرغبة

مُلحة في ذلك[١٦].

وإننا لنعرف أسـماء بعض الرحاب في بلنسيـة بالإضافة إلى الرحبـة السابق ذكرها. فهناك رحبة القاضي التي تقع في مركـز المدينة تقريبًا، وقد ذُكر اسمها في أواخر القرن الحادي عشر عند انتزاع "السِّـيد" لها، وقد ظلت هذه التسمية حتى الاستيلاء النهائي على يـد خايمي الأول (عام ١٢٣٨)، ويتكرر اسمها في «كتاب التوزيع» بالصور المختلفة الآتية: "ربات القاضي" Rabat alcadi، "ربات القـادوس" Rabat alcadus "رحـبـتكادي" Rabatcadi، و "رحـالكادي" Rahalcadi. وكان فيها مسجد وحي محـيط به معروفان بهذا الاسم. وقد تحول المسجد إلى كنيسة سانتا كاتالينا فيما بعد؛ وأُجريت بعض التعديلات في هذه الكنيسة الباقية حتى اليوم[١٧]. ويرد في كتاب «توزيع مدينة بلنسية» ذكر لأسماء رحاب أخرى بأسماء مخـتلفة ومنها: بلاتيام Plateam، و"بلاثيام" Placiam الواقعة أمام باب الشريعة، وفيكولني Ficulnee، ووادي الجنة (ويبدو أن الأخيرة كانت على امتداد سور المدينة من الداخل)[١٨].

ويُسَمِّـي كتاب توزيع «ميورقة» الرحبة، مـثل كتاب توزيع بلنسية، بالبلاتيا Platea أو بلاتيي Platee أحيانًا و"فورو" Foro أحيانًا أخرى. وفي الحالة الأخيرة تكتسب الكلمة نغمـة علمية ثقافية. وهذه الرحاب الأخـيرة كانت الأسواق أو الأماكن المخصصة للتجارة فقط. وضمن الرحاب الأولى توجد الأسماء الآتية: رحبة فرن ديبنفليل Dabimfilel، ورحبة مسجد زكري، ورحبة القبور[١٩].

وكان جـوار المسجـد الجامع بمدينـة "غرناطـة" رحبـة أخـرى، إضافة إلى السابق ذكـرها، معروفة باسم رحـبة أبي العاصي نسـبة إلى شخص بنى فيـها مسـجدًا وحـمامًا كـما يقول ابـن الخطيب وفقًا لما نقـله "ريانيو" Riano[٢٠].

وذُكرت من قبل الرحبة الخاصة بالحطّابين في مدينة غرناطة التي كانت تحيط بها المنازل والمتاجر سنة ١٥٠٦م. وقد وُسِّعت تلك الرحبة في وقت لاحق؛ وكانت تشْغَلُ جزءًا من أرض الميدان الجديد الحالي[٢١]. وأوسع رحاب غرناطة هي «رحبة باب الرملة»، وقد سبق القول إنه لم يكن لها وجود أثناء الفترة الإسلامية؛ وإن وجدت فإنها كانت ضيقة للغاية. وبمنطقة البيازين توجد اليوم رحبة معروفة بالرحبة الكبيرة Plaza Larga، وسميت من قبل برحبة "الماجور" (أو الكبرى)، وكانت الرحبة رئيسة في الضاحية. واشتهرت بأنها كانت مسرح الصراع الحاد بين تابعي الزجّال وتابعي أبي عبد الله، ابن أخيه، صاحب حي البيازين سنة ١٤٨٦م، وفي الفترة التالية تمرد المسلمون الأندلسيون وتحولت إلى رحبة «باب البنود» القريبة من هذا الباب ومن المسجد الجامع لذلك الحي[٢٢].

أما المدن المهمة الأخرى، فنجد مدينة "الحامة" Alhama بغرناطة، وقد كانت مزودة برحاب ذات مساحات غير عادية. ويصف القس "ديجودي باليرا"، في روايته عن حملة ١٤٨٢ بقيادة أمير ثغر قادش، رحبة مدينة الحامة بأنها رحبة واسعة تستوعب أكثر من ألفي رجل، عكس الشوارع الضيقة المتاخمة لها التي لم تكن تسمح بمرور أكثر من شخصين معًا[٢٣].

ويذكر كتاب «**توزيع بلنسية**» أن بمدينة خطيبة Javita ثلاث رحاب: كان يباع في إحداها المواشي في عهد المسلمين، والثانية كان يباع فيها الدنان الفخارية؛ وكان في الرحبة الثالثة حمّام. كما كان بمدينة رايوسا Rayosa رحبة واحدة، تعرف بالرحبة الكبرى، وليس لدينا علم يقين عما إذا كانت هذه الصفة الأخيرة المستعملة ترجمة لصفة عربية بنفس المعنى[٢٤]. وكان في إحدى رحاب مدينة بلش (بليث مالقة) حمّام آخر عند الاستيلاء عليها[٢٥].

**الأسـواق :**

لا تدل الكلمة "سوق" ، كما ذكـر سابقاً، على ركن محدد في المدينة؛ بل يَدُل معـناها فقط على المكان الذي تجـتمع فـيه المتـاجر أو المحلات الـدائمة أو المؤقتة منها على حد سواء[٢٦]. وكان من الممكن أن تستقر السوق في شارع أو في عدة شوارع، في رحبة أو خارج المدينة أو قرب أحد أبواب المدينة، إلخ.

وليس لدينا إلا مـعلومات قليلـة عن أسواق مـدينة قرطبـة. إذ يثني بعض كتاب قرطبة في مؤلفاتهم على سعـة المدينة ويقولون إنه كان لها سوق ومسجد وحمّام[٢٧]. ويذكر الإدريسي أن مـدينة قرطبـة كانت تتألف من خـمس مدن متجاورة، لكل منها عدد كاف من الأسواق. ويذكر نفس العالم الجغرافي عدداً من أسماء الأسـواق في وصـفه لمدن الأندلس. ويقول إن لمدينة إشبـيلية عديداً من الأسواق؛ أما أسـواق مدينة ولبة فكانت المهن المختلفة تزاول فيـها؛ وكانت أسواق مدينتي شلب Silves وتروخيليو Trujillo ممونة بصورة جيدة؛ أما أسواق مدينة ألبش Elvas فتمتد على طول ضواحيها الزاهية؛ وكانت أسواق سانتا ماريا (البراثين) وألبونتي Alpuente أسواق دائمـة؛ وقد أقبل كثـير من الأهالي على سـوق مدينة بوكـايرنت Bocairente؛ وهناك قناة للسـاقيـة تعبـر أسواق مـدينة "ألشي" Elche؛ وكانت سـوق مـدينة لورقة Lorca تستقـر في العادة "بربض الجبّ" (Aljibo). وكـثـرت الأسـواق بمدينة ألمرية، وازدهرت أسـواق مـدينة مالقة، ويـذكر أن أسواق مدينة وادي آش نظيـفة، وأن أسـواق مـدن "أثناخـر" و"الكاوديـت" و "أستـجّة" Alcaudete, Ecija, Iznajar كانت مـزدحمـة؛ وقد تطورت التجارة في أسواق المدينة الأخيرة بشكل ملموس[٢٨].

وضمن أسواق قرطبـة يُذكر سوق السَّرَّاجين الذي اشتعلت فـيه النيران سنة

١٠٠٩/٣٩٩ زمن هشام الراشد بن سليمان بن عبد الرحمن في حربه ضد محمد الثاني المهدي، خليفة الحاكم سانشولو على عرش الخلافة[٢٩].

وبعد فترة قليلة أدى الأمر بأسواق النجارين وأسواق أخرى بقرطبة إلى نفس المصير بسبب الصراعات المستمرة. ونهب السلافيون الأسواق التي نجت من دمار الحرائق وذلك عام ١٠١٢/٤٠٢[٣٠]. وفي سوق بلاط مغيث بقرطبة استقر "الغرابيل" بجوار أحد المساجد[٣١].

أما أسواق مدينة أشبيلية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، عندما كانت المدينة عاصمة الأندلس تحت سيادة الموحدين، فلدينا علم عنها على نحو جيد بفضل **تأريخ ابن صاحب الصلاة**. ففي حدود سنة ١١٧٠ كان يوجد العديد من المتاجر بالأسواق المجاورة للمسجد الرئيس المعروف بمسجد عَدَبّس Adabbas، وكان المسجد لا يستوعب المصلين فكانوا يضطرون إلى أداء الصلاة في متاجر تلك الأسواق[٣٢].

وفي الأعوام القليلة التالية، نظرًا لضيق مساحة المسجد القديم، أقيم مسجد جامع جديد. وعندما أراد أبو يوسف يعقوب أن يوسع "صحن" المسجد أصدر أمرًا بهدم سويقة واقعة بجواره سنة ١١٩٦/٥٩٢. وبعد إتمام توسيع صحن المسجد أمر ببناء أسواق ومتاجر حول الجامع الجديد، وقد بني ذلك المسجد وفقا لأفضل الأساليب التي تُثير الدهشة والإعجاب. إذ كان ذا طراز أصيل رائع، وقد زود المبنى بأربعة أبواب كبيرة تغلقه من جوانبه الأربعة، والبابان الكبيران كانا في اتجاهي الشرق والشمال، وهذا الأخير كان في الوقت نفسه بابًا من أبواب الجامع. وعند الانتهاء من إتمام بناء هذه الأسواق بمتاجرها انتقلت إليها أسواق العطارين وتجار الأقمشة "المرقتلين"[٣٣] والخياطين. ولما كان

الأهالي يتنافسون في استئجارها فقد ارتفعت الإيجارات بصورة كبيرة. وعندما عاد الخليفة من أداء صلاة الجمعة بالمسجد، ظهر الرضا على وجهه بعد أن تأمل الأعمال التي اكتمل تنفيذها(٣٤).

وأقدم مرجع خاص برحبة مدينة طليطلة المشهورة التي احتفظت بالتسمية القديمة حتى أيامنا الحالية: ثوكوبر" Zocodover (سوق الدواب) مؤرخ في سنة ١١٧٦. وفي تلك الرحبة كانت تكثر الخانات؛ وعلى الرغم من هذا لم تبلغ الأهمية التي بلغتها في القرن الثالث عشر(٣٥). أما في القرون السابقة لاستيلاء ألفونسو السادس على المدينة فقد كانت لأسواق الدواب المذكورة، فيما يعتقد، أهمية كبرى، لأن مدينة طليطلة كانت عاصمة "الماركا" Marca السفلى ونقطة انطلاق الحملات العسكرية إلى منطقة الشمال. وجاء في وثائق مدينة طليطلة المكتوبة باللغة العربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أسماء عدة أسواق أخرى كان أغلبها نفس أسواق الفترة الإسلامية، منها: سوق الفخّارين بحي سان خينيس؛ وسوق الخياطين بحي سان نيكولاس؛ وسوق الجزارين؛ وسوق الإسكافيين؛ وسوق الصيادين؛ وسوق باعة الحصر؛ وسوق العطارين؛ وسوق الصقالين، إلخ(٣٦).

كما كان في مدينة بلنسية في القرون الوسطى عدة دروب مقببة واقعة بجوار السور عند "رعية سان لورنثو" بنيت على أرضها مدرسة الساجرادو كوراسون S.Corazon وسميت ببولتس دي سانتا أنا Voltes de S.Ana. ويحتمل أنها كانت عبارة عن بقايا لأسواق مغطاة مثل التي توجد اليوم في بعض مدن شمال أفريقية والمشرق. وكان شارع كاباليروس Caballeros في المدينة نفسها، وكان مقبباً أيضاً بصورة جزئية على الأقل(٣٧).

"وفي الساحة الواقعة أمام باب غرناطة بمدينة مالقة وفي ربض من أرباض تلك المدينة" وخارج أسوارها كان يُحتفل يوم الخميس من كل أسبوع بالسوق الحرة التقليدية، ومُنح هذا الامتياز بمرسوم ملكي صادر من الملكة الكاثوليكية سنة ١٤٨٩[٣٨].

وسبق الحديث عن كلمة "سويقة" وهي تصغير لكلمة «سوق»، التي يترجمها العديد من علماء الحضارة العربية برَحْبة أو برُحيبة ومعناها رحبة السوق أو ساحته، أو كما ترجمها "دون ميجل أسين"، عندما ذكر الكلمة الخاصة لمنطقة بلنسية سويكا، فقال معناها: سويقة[٣٩]. ويستنتج من ذلك كما سنرى فيما بعد، أن مشتقات كلمة "سويقة" التي نقلت إلى اللغة القشتالية تشير دائمًا إلى مكان السوق، أو إلى ساحة صغيرة في الكثير من الأحيان ولكن ليس دائماً.

وعرف في مدينة قرطبة "سويقة القُومِس"[٤٠]، لكن لم يحدد موقعها بعدُ. وفي سنة ٥٩٢/١١٩٦ أمر الخليفة أبويوسف يعقوب بتوسيع صحن جامع إشبيلية الذي بُني حديثًا، واقتضى ذلك هدم المنازل والمتاجر والخانات المحيطة بسويقة كانت معروفة من قديم الزمن "بسويقة المِسْمار"[٤١]، وبمدينة أستجة Ecija الإسلامية وجد باب معروف بباب السويقة، نظرًا بلا شك لوجود السوق الصغيرة التي كانت تقام خارجه[٤٢].

وفي المدن التي انتزعها النصارى استقرت الأسواق في معظم الأحيان في الأماكن القديمة نفسها، وكانت تسمى بأسماء مماثلة باللغة القشتالية. هكذا كان الحال في مدينة طليطلة في القرن الثالث عشر، حيث كان أكبر ربض لليهود يسمى بـ "أدربي دي لاسويكا" أو السويكا (معناه ربض السويقة) نظرًا لأن بها

مساحة صغيرة للتجارة[٤٣].

ويوضح **الكتاب التاريخي لتوزيع مدينة ميورقة** أسماء بعض السويقات ومنها: "سويقة باب البلاط"، التي ذكرت في مرجع آخر باسم "أثويكا بيبت البلت"، وكانت تقع في أغلب الظن بجوار الباب المعروف بباب البلاط، أو على الوجه الأرجح خارج هذا الباب؛ وهناك أيضًا "أثويكا بروبي ثيكيام" أو "سويقة الساقية"، وفي الجرد الذي أجري على الأولى وجد ٤٥ مضيفة ذات مساحة ضيقة للغاية، وعلى الرغم من صغرها فإنها تدل على تخصيص مساحة غير قليلة للسويقة[٤٤].

ويدل اسم مدينة "سويكا" في بلنسية على منشئها بمنطقة سويقة. ويرد اسمها في **الكتاب التاريخي لتوزيع مدينة بلنسية** بالصورة الآتية: "قرية السويقة" (أو ثويكا في مرجع آخر) وكانت تقع بمقاطعة كوليرا Culera[٤٥].

وكان يوجد بحي اليهود بمدينة إشبيلية في سنة ١٣٢٧ ساحة معروفة باسم "السويقة" تتصل بباب هذا الربض بواسطة أحد الشوارع[٤٦].

**الشوارع والأسواق المتخصصة في بيع المنتجات ذاتها:**

كان الصناع والتجار في المدن المسلمة لشبه الجزيرة الإيبيرية، على غرار كل الدول الإسلامية، في نقابات أو هيئات مهنية، بلغت قمة أوجها ابتداء من القرن التاسع[٤٧]، وهناك احتمال كبير أنهم عينوا على أنفسهم بعض الولاة المحليين حماة لهم، مطبقين في ذلك عادة من العادات كانت تنتمي إلى تقاليد الشعوب البربرية فيما يُعتقد. وكل نقابة كانت تحتل أرض شارع من الشوارع، أو أرض سوق من الأسواق.

ويقول ابن عبدون في رسالة الحسبة، مشيراً إلى مدينة إشبيلية في حدود عام

١١١٠م، إن على المحتسب أن يرتب أصحاب المهن الواحدة مجتمعين في مكان واحد، يتهيأ لهم فيه الاحترام والأمن بصورة أكبر مما لو كانوا مشتّتين في المدينة(٤٨).

ومن المعروف تماماً أن تلك العادة قد استمرت بعد استيلاء النصارى على المدن الإسلامية حتى عهد فيليب الثاني، عندما أصدر هذا الملك أمراً بإطلاق الحرية للتجار ولأصحاب المهن لاختيار المكان المناسب لهم للقيام بأعمالهم دون أن يخضعوا لشروط مكانية خاصة(٤٩). ويحتمل أن يكون هذا النظام قد انتقل من الأندلس إلى المغرب حيث لايزال قائمًا حتى اليوم؛ وطبقًا لقول "ماسينيون" وعلى نفس النهج كانت التنظيمات الشرطية للحسبة. وفي داخل معسكر محاصري مدينة إشبيلية وجدت شوارع ورحاب «انتشرت فيها الصناعات كلها، وكل صنعة مستقلة بذاتها؛ فاستقر جامعو الخرق والصيارفة في شارع؛ وفي شارع آخر استقرت دكاكين الأفاويه ودكاكين الكيميائيين ودكاكين الأدوية لشفاء المجروحين والمرضى؛ . . . وهكذا انتظم العمل، وتنوعت المهن، لكل مهنة شوارعها المخصصة، وكانت منظمة مزينة ومرتبة ترتيبًا جيدًا»(٥٠).

وبعد انتزاع المدينة الأندلسية الكبيرة مباشرة قام فرناندو الثالث بتقليد النظام المطبق بالمعسكر احترامًا للنظام الإسلامي بلا شك و«أصدر الأمر بإنشاء شوارع وطرق مقسمة بشكل جيد، لكل واحد صنعته المتخصصة، واستقر فيه أصحاب المهنة الواحدة، كالمهن الكريمة النبيلة القادمة حتى من المدن الكبرى المزدحمة»(٥١).

وفي مالقة أيضًا كانت المهن الموحدة تتركز في شوارع معينة. ونص على

ذلك الملكان الكاثوليكيان في الفترة التاليـة لانتزاع المدينة مباشرة. واحتج بعض المواطنين قائلين إن هـذا النظام كان إهانة لهم، ومن ثمّ أمر الملكان ببحث هذا الموضوع سنة ١٤٩٩، وفي غضون ذلك أُمر أيضًا بإيقاف القرار السابق ذكره. وصدر مرسوم ملكي سنة ١٥٠١ حددت فيه الشـوارع التي يمكن أن تستقر فيها المهن المختلفة[٥٢].

وعلى الرغم من ذلك استمرت الاحتجاجات في الأعوام التاليـة، وصدر مرسوم ملكي جديد مؤرخ في ٦ من شهر نوفمبر سنة ١٥٢٧ أمـر فيه المأمور القضائي بالنظر في الأضرار التي كـانت تلحق المدينة نتيـجة التمسك بالقرار الخاص بتقسيم المهن الموحـدة في شوارع معـينة، وقد أكد هذا القـرار المرسوم الملكي الصادر سنة ١٥٢٨[٥٣].

كان تقسيم المتاجر والمهن وتركيزها في الشوارع وفي الأسواق يتم في كل مدينة معتمدًا على حالة أرضها وموقعها ومواردها واحتياجاتها والصناعات التي كانت تتم فيها. ولبعض هذه التقسيمات صفات تثير الفضول.

ولنبدأ بتجارة العقاقير والأدوية والعطور التي كـانت في نظرهم من أفضل أنواع التجارة وأكثرها إنتـاجًا، والتي تعد في اعتبار العقلية المعـاصرة شيئا زائدًا عن الحاجـة ولكنها كانت عكس ذلك، بل كـانت شيئًـا في قمة الأهمـية في القرون الوسطى. وبالإضافة إلى تلك المنتجات كان يباع في نفس المتاجر بعض الأدوية والمراهم ومسـاحيق الزينة، وأشيـاء أخرى لتجمـيل النساء. وفي المدن المسلمة كلهـا كانت تحتل تلك المتـاجر شارعاً مـن الشوارع المجاورة للمسـجد الجامع بجـوار القيصـرية أو داخلها. ففي مـدينة قرطبـة كان «باب العطارين» جنوب غرب سور المدينة على مسافة غير بعيدة من المسجد الكبير ومن القصر،

علمًا بأنه سمى أيضًا بباب إشبيلية[٥٤]. ووجد بربض لورقة Lorca في النصف الأول للقرن الثاني عشر "سوق العطْر"، وكان متصلاً بالأسواق الأخرى[٥٥].
وفي حدود عام ١١٠٠ اتخذ بائعو العطور أو العطارون بمدينة إشبيلية سوقًا لهم سموه "سوق العطارين»[٥٦]. ومن الممكن أن يحدد موقعه، فقد كان بجوار المسجد الجامع حينئذ المعروف "بمسجد عَدَبِّس" (الواقع بأرض كنيسة ديل سالبادور). وانتقلت التسمية إلى اللغة القشتالية تحت السيادة النصرانية، وعرفت فيما بعد شارع الأتارس (العطارين) Alatares، حيث وجد فيه سنة ١٣٢١ سبعة متاجر. والمراجع الخاصة بذلك التاريخ - سنة ١٣٥٩ - كانت تحدد موقعه بصورة دقيقة: «فإذا دخلت سوق العطارين من الناحية الأمامية ستجد كنيسة سان سالبادور على اليسار»، و«كانت محلات العطارين على طول مدخل باب كنيسة سان سالبادور، وكانت المحلات السبعة على اليسار»[٥٧].
وفي سنة ١٤٠٧ أُمر بشراء المواد الخاصة بتصليح بيت حارس العطارين، ومن المحتمل أنه كان الشارع أو السوق المسلم المذكور، ذلك «لأنه كان مهددًا بالانهيار، وإن لم يقوموا بتصليحه فإن ذلك كان سيكلف إشبيلية أكثر من إعادة بنائه من جديد»[٥٨]. وكان شارع العطارين بين "السالبادور" ومتجر اللحوم الكبير؛ وفي تخطيط مدينة إشبيلية الذي قام بتنفيذه "أولابيدي" سنة ١٧٧١ ذكر اسم السوق بتسمية أخرى وهو: سوق الأربولاريوس Arbolarios (العطارين) وتذكّر هذه الكلمة حتى الآن بمدلولها القديم.

وبني بمدينة إشبيلية نفسها في أواخر القرن الثاني عشر مسجد جامع جديد، وطبقًا لعادة سارية استقر بجواره العطارون الذين احتلوا الأسواق التي بناها أبو يوسف يعقوب في حدود عام ١١٩٦ عندما انتهى من تنفيذ أعمال توسيع

صحن المصلى[٥٩].

وهناك احتمال كبير أن تلك التجارة استمرت فيها بعد انتزاع فرناندو الثالث المدينة، ويؤكد ألفونسو العاشر نفس الاحتمال بقراره المكتوب في سنة ١٢٦٤، عندما «أهدى متجرين لـ"للمُعلم بيدرو كاتالان" ـ العطار وعالم الطبيعة ـ بمدينة إشبيلية، وحدد فيهما مكانًا لإقامته أمام ميدان سانتا ماريا، وكانت تحدهما من ناحية منازلُ سيمون العطار، ومن الناحية الأخرى ميدان سانتا ماريا"[٦٠].

وبمدينة بلنسية يُذكر شارع العطارين في عام ١٢٢٧؛ وكان لابن سليمان متجر بهذا الشارع[٦١]. وبعد ذلك بأحد عشر عامًا ـ سنة ١٢٣٨ ـ وفي نفس المدينة، سمي ذلك الشارع الأترس Alatares (العطارين)[٦٢].

وفي كتاب **توزيع مدينة ميورقة** توجد عدة إشارات إلى منازل العطارين التي يبدو أنها كانت تقع بجوار القيصرية أحيانًا وبداخلها أحيانًا أخرى، وفقاً للعبارات اللاتينية الآتية: «أعلى منزل العطارين (أوبيراتوريا)» «ما بين العطارين والقيصرية معاً» «متاجر العطارين بالقيصرية»[٦٣].

وتوجد بمدينة طليطلة أيضًا متاجر للعقاقير في عام ١٢٢٣، بالإضافة إلى سوق العطارين سنة ١٢٨٧ بربض فرانكوس Francos[٦٤]. وقد شب حريق في أسواق العطارين في سنة ١١٨٧ وسنة ١٢٢٠، كما تذكر تواريخ مدينة طليطلة[٦٥].

وقد كتب العالم الجغرافي العربي العُمَري في القرن الرابع عشر (المتوفى ٧٤٩/ ١٣٤٩) أن المسجد الجامع في غرناطة كان منعزلاً ومحاطاً فقط بمناضد الشهود، وبمتاجر العطارين[٦٦].

ومن المحتمل أن ذلك المسجد قد ظل في المكان نفسه عند انتزاع الملكين الكاثوليكيين المدينة؛ فهناك مرجع مؤرخ في سنة ١٥٢٨ يذكر «شارع العطارين المنحدر من منازل المجمع الديراني»، وكانت تلك المنازل حينئذ تشغل المدرسة العربية القديمة الواقعة على حدود الكنيسة الملكية(٦٧). وبالإضافة إلى ذلك توجد إشارة لنفس الوقت إلى اسم سوق للعطارين تدل أسعار منتجاته التجارية المرتفعة على أنه كان في داخل القيصرية بجوار شارع خيليشس los Gelices؛ وفي سوق العطارين المذكور فندق معروف بفندق متاجر العطارين، كما وجد أيضًا شارع العطارين الذي كان يؤدي إلى المسجد الجامع(٦٨).

وقد بقي اسم سوق العطارين في مالقة عدة قرون في شارع بنفس الاسم الذي كان يقود إلى الرحبة المعروفة برحبة الشوارع الأربعة(٦٩).

وكان بمدينة غرناطة بجوار نهر دارو "رصيف" للحلاقين، طبقًا لما يقول نص باللغة العربية مؤرخ في ١٤٩٩(٧٠). "والحلاقون بمتاجرهم" مذكورة في كتاب **توزيع مدينة ميورقة**(٧١).

أمّا الشوارع والأسواق الخاصة بالخياطين وبائعي الأقمشة والملابس فلم تكن بعيدة عن الجزء الأقرب إلى النواة المركزية لأية مدينة من المدن. وثم أمر أبو يوسف يعقوب بعد سنة ١١٩٦ بفترة قصيرة باستقرار هؤلاء أصحاب المهن والتجار في الأسواق الجديدة المبنية بجوار المسجد الجامع بمدينة إشبيلية في عهد الموحدين(٧٢).

ولا نعلم يقيناً ما إذا كانت منطقة "البزازين" المذكورة بمدينة قرطبة في حدود سنة ٩٠٠، في عهد إمارة عبد الله، شارعًا أو سوقًا من الأسواق أو الاثنين معًا(٧٣).

أما الخياطون فقد بقي حتى اليوم في نفس المدينة شارع يطلق عليه اسم Al-fayates (الخياطين) شرق المسجد الجامع؛ ولا نعلم أكان اسمه يرجع إلى عهد الإسلام أو إلى وجود هؤلاء الخياطين من بعد الاستيلاء النصراني، لأنهم كانوا معروفين بذلك الاسم في القرون الوسطى. وليس هناك تناقض بين هذين الافتراضين. ففي مدينة إشبيلية سمي شارع من شوارعها بهذا الاسم حتى فترة قريبة، علمًا بأنه كان يقع على حدود خان المسجد والقيصرية وبجوار "أركيليو دي لاسيدا" (قويس الحرير)؛ كما يوضح مستند مؤرخ في ١٣٥٧[٧٤].

وقد احتفظ بالمصطلح العربي القشتالي "ثكاتين" Zacatin (السويقة) بمدينة غرناطة، وكانت تلك السويقة في القرن الخامس عشر عبارة عن شارع ضيق، ولم تكن مخصصة لتجارة الملابس القديمة فقط، بل وجد بها بالإضافة إلى ذلك متاجر الصائغين وبائعي الجوارب والصباغين وصانعي الأحذية وصابغي أقمشة الكتان وبائعي الخردات والسلع الصغيرة، إلخ[٧٥]. وهناك شارع بمدينة إشبيلية بمنطقة "سانتا ماريا لامايور" كان يسمى سنة ١٤٥٥ باسم شارع القماش القديم، وقد احتفظ بذلك الاسم حتى القرن السادس عشر؛ وهناك احتمال كبير أن تلك السويقة كانت هي السويقة التابعة للمدينة الإسلامية[٧٦].

وكان في تلك المدن أيضاً متاجر للأحذية، وكان مثل تلك المتاجر يسمى بالخرازين (القرّاقين) Caraquin بمدينة غرناطة في أواخر القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ويقع في منتصف مسافة الثكاتين (السويقة)[٧٧]. وكان بمدينة قرطبة شارع متجر الأحذية القديمة ـ وله مثيل بمدينة إشبيلية بنفس الاسم سنة ١٤٠٣ ـ وفي أغلب الظن كان هو السوق القديم لصانعي الأحذية[٧٨].

والواضح أن تجارة المواد الغذائية كانت لها مكانة كبيرة في الأسواق وفي

مجمَّعات الخـانات التجارية. فقد كان في مدينة قـرطبة خلال الربع الثاني من القرن التاسـع "شارع الجزارين"[٧٩]، وبمدينة طليطلة في عهـد النصارى وجد سوق مـخصص لبيع الأسمـاك، ومن المحتمل أنه نفس السـوق الذي كان في العهـد الإسلامي[٨٠]. وفي مدينة غـرناطة، على الحزام الضيق المحـصور بين السويقة ومجرى نهر الدارو، وجدت عدة حارات ورُحـيبات ضيقة جدًا جعلها المسلمون حظائر للدجاج ومحـلات لبيع الأسماك واللحوم[٨١]. كانت موزعة على متاجر دائمة؛ أما أنواع المنتجات الغذائية الأخرى فكانـت تباع في مخازن الغلال والمحلات المؤقـتة. وبمدينة ميورقـة كان يباع أيضاً ببعـض المتاجر الزيت والفحم[٨٢].

أما الصرافون، وهم في العادة من اليهـود، فكانت لهم مكاتب مجتمعة في منطقة مركزية. وفي مدينة إشبيلية سنة ١٢٥٥ احتل "الصرافون" ضاحية كانت تقع في ظهر المسجد الجامع السابـق وقريبة منه، ومن المعروف أن ذلك المسجد كان كنيسة كاتدرائية منذ السنوات السبع السابقة[٨٣]. وتذكر مراجع المستعربين بمدينة طليطلة في القـرنين الثانـي عشر والثـالث عشـر سوق الصـرافين الواقع بجوار مسجد المسلمين[٨٤].

وفي إحدى الساحات الداخلية الواقعة برعـية سانتا ماريا، أي بربض المسجد الجامع بمدينة إشـبيلية الإسلاميـة، كانت تباع أصبـاغ القرمز[٨٥]. وفي مدينة بلنسية وزع منزل كـانت تصنع فيه مادة الأرجوان بعـد أن أصبحت المدينة تحت السيطرة النصرانية بمدة قليلة[٨٦].

والجدير بالذكر أن سوق العبيد الذي كان له مكان مخصص ـ ويُسمَّى سوق المعرض ـ بلغ أهمية كبـرى في أسبانيا القرن الحادي عشر، حـسبما يستنبط من

كتاب الحسبة للسَّقَطيّ الذي ألّفه في مدينة مالقة[٨٧].

كان صنع بعض المنتجات يتطلب أماكن محددة من المدينة. فعلى سبيل المثال كانت المدابغ ومصانع الفخارين تحتاج إلى مكان تتوافر فيه المياه.

واستقر خارج باب الفخارين بمدينة غرناطة من كان له يمارس تلك الصناعة، وبجوار باب الطوّابين استقر أصحاب هذه المهنة. وفي هذه المدينة عند مخرج نهر الدارو من سور المدينة، بُني جسر على النهر المذكور وسُمي بجسر الدباغين. وبالقرب من تلك المنطقة، بين النهر والقيصرية، استقرت المدابغ؛ كما وجد أيضًا بمنطقة السُّويقة (أو الثكاتين) مكان معروف بسويقة الصباغين "Azacaya" في شارع ضيق للغاية كان يؤدي إلى نهر الدارو[٨٨]. وفي مدينة طليطلة كان الدباغون يعملون بجوار باب استمد اسمه من أصحاب نفس المهنة، وهو "باب الدباغين" الواقع بالقرب من نهر التاجه[٨٩]. وهناك باب من أبواب مدينة ألمرية سمي بباب الزيّاتين؛ ويرجع هذا بدون شك إلى قربه من مقر أصحاب تلك المهنة[٩٠].

**الخانات الدائمة.**

كانت الخانات موزعة على الشوارع والرحاب والأسواق والقيصريات التي تباع فيها المنتجات القيمة. وكانت الخانات تتركز بالأخص حول المسجد الجامع، وبالقرب من المساجد الأخرى، وبجوار الحمامات العامة وأبواب الأسوار، ذلك لأن تلك الأماكن هي التي يحتشد بها جمهور المدينة. يؤكد ذلك العديد من الشواهد. ففي مدينة إشبيلية كثير من المتاجر حول المسجدين الرئيسين: مسجد عَدَبَّس والمسجد الموحِّدي. وكان مسجد عدبَّس هو المسجد الرئيس إلى حين بناء الثاني الذي كان يعج بالمتاجر[٩١].

وبالإضافة إلى الخانات الواقعة حول المسجد الجامع لمدينة غرناطة يمكن إضافة سبعة عشر خاناً وحمام واحد شمال المدينة، وتم هدمها سنة ١٥٠٥ لبناء مقبرة الكنيسة النصرانية(٩٢).

وفي مدينة طليطلة كان أهم مناطق الخانات واقعًا حول الجامع، وقد استمرت في ذلك المكان إلى أن تحول الجامع إلى الدير النصراني سنة ١٠٨٥م. وكان أغلبها يحتل مواقع الأروقة الحالية للكنيسة الكاتدرائية. وقد أطلق على تلك المباني اسم «الخانات»(٩٣) وانتقلت التسمية فيما بعد إلى اللغة القشتالية لتحديد جزء من منطقة الخانات، ثم أصبحت تسمى الكانا Alcana بمدينة طليطلة ابتداء من القرن الثاني عشر. واشتهرت في أسبانيا كلها إلى الدرجة التي جعلت الكاتب سيرفانتس Cervantes يقول إنه حصل على مخطوط خاص من تأليف سيدي حامد بنجالي Cidi Hamete benengeli وقد أكمل به مؤلَّفه المسمى "**دون كيخوت دي لامانشا** Don Quijote la Mancha" ابتداء من الفصل التاسع. وقد حصل الكاتب ثيربانتس على هذا المخطوط من غلام ذهب إلى ذلك المكان لبيع بعض القماطر والأوراق القديمة المكتوبة باللغة العربية(٩٤).

وفي تاريخ متأخر، أي في النصف الثاني من القرن السادس عشر، كانت ضواحي مدينة طليطلة التجارية تقع بجوار الكنيسة الكاتدرائية لأن أغلب المباني احتفظت بترتيب يشابه ما كانت عليه في الفترة القديمة عندما كانت المدينة تحت السيادة الإسلامية. وهناك مرجع ذو قيمة بالغة وُصفت فيه تلك الضاحية في تلك الفترة. ولا يقتصر هذا المرجع على إخبارنا بما كان عليه حي الخانات في وسط المدينة طبقاً للتقاليد الإسلامية، بل إنه يؤيد صحة المعلومات اللاحقة

ـ بعد أن أصبحت المدينة تحت سيادة النصارى ـ الخاصة بتلك الخانات في سبيل دراسة هيكلها القديم. وقد أطلق على المراكـز التجارية لمدينة طليطلة في القرن السـادس عشر اسم "الـشوارع الأربعة"، عـلمًا بأنهـا قـد احتـفظـت بتلك التسمـية حتى الآن، وكان ذلك هو عـددها، «حيث يجتمع التجـار بوسائلهم وبأنشطتهم التجـارية، وكان أحد الشوارع مخصصًـا لأنشطة الجزازين، والثاني لبيع الجوارب، والثالث للخانات ودكاكين الأفاويه، والرابع مقسماً إلى فرعين: خـصص الفـرع الأول للحلوانيين وصـانعي القـباقـيب ومـصنّعي المادة الخـام للأحذية. وكان الفرع الـثاني بالقرب من الكنيسة، حيث كـان يحتشد الأهالي إجلالاً لفخـامة المعبد. وكانت المهن والأسواق بأكـملها تشكل مجتمـعاً كاملاً مصغرًا خاصًـا بالرعية المعروفة بكاتدرائية سان بيدرو، لأن أغلـب المساكن فيها كانت عبـارة عن خانات في غاية الصغر مـخصصة للأعمـال التجارية ولذا لم يُعثر في كل مسـكن على عدد كبير من الناس عند إجراء الإحـصاء، بالإضافة إلى ذلك يوجـد أكثر من سـتمـائة خان لايسكن فـيها أحـد من الأهالي وإنما امـتلأت بالأقـمشـة والحريـر والبضـائع، وهي تفـتح نهارًا وتغلق ليـلاً، لأن أصحابهـا يعيشون في مـساكن أخرى بعيدة عنهـا، وليس من المنطق أن يجري التعداد اعتباراً للمساكن لأن ذلك يشمل فيها الجزء العلوي من المساكن الأخرى المسجلة، ومن ثم يضـاف إلى هذا العدد الأخيـر من الخانات خاناتُ الرعـيات الأخـرى التي تغلق ليـلاً، فـيلجـأ العديـد من الأهالي إلى السكن في شـتى السراديب»[٩٥].

وكـانت توجـد عادة، كـمـا قـيل، على أبواب المدن أو بجـوارها، بعض الخانات[٩٦]. وتشير المستندات التابعة لأرشيف بلدية مدينة غرناطة إلى وجودها

أيضًا بالقرب من الحـمامات العامة. ويبين جردُها أن "الخاناتِ الـواقعةَ بالقرب من حمام البيازين"[٩٧]؛ وعدة خانات واقعة بالقـرب من حمام لويسة Loaysa المعروف باسم "تيكس" سابقًا؛ وخان آخر "بجوار حمام هرناندو دي ثافرا في اتجاه باب إلبـيرة"[٩٨]؛ بالإضافـة إلى خانات "صبـاغي الحرير الواقـعة على مستوى حمام البيازين[٩٩]؛ و"شارع الجزارين الواقع بجوار ضاحية البيازين"؛ وخانات المراقبة الواقعة على نهـر الدارو على حدود حمام بالاثيوس (البانويلو) المذكورة فيما بعد[١٠٠].

وهناك عدد غير قليل من خانات المدن الأسبانيـة المسلمة استخدمت محلات للبيع ووُرَشاً في آن واحد، وكان يعمل فيها أصحاب المهن بمساعدة عامل واحد أو صبي. كان أغلبها عبارة عن أماكن سفـلية ضيقة أكبر قليلاً من الخزانات أو التجويف في الحائط. وكان التاجر جالساً فيها دون الحاجة إلى أن يقف بغرض الحصول على أي شيء لتقديمه إلى المشتري[١٠١]. ولأغلب الخانات باب واحد فقط يفتح علـى الشارع، وكان يغلق بألواح خشبـية متحـركة، والجزء العلوي منها يدور حول السـقف، وتستند اللوحة الواحدة على ركائز خفـيفة، ومن ثم تكون مائلة إلى أسـفل عندما يكون الخـان مفتـوحاً، وفي الوقت نفسـه كانت تشكل غطاء يمنع الأتربـة، تحمي البـائع والبضـائع من الشـمس والمطر[١٠٢]، وكانت في بعض الأحيان مغطاة ببعض الحصائر، مثل شيش، الملفوفة في الجزء العلوي من التجويف عندما لايحتاج الأمر إلى استعـمالها. أما اللوحة الخشبية السفلية، التي كانت تجـاوز قليلاً مستوى جدار الواجهة، فإنهـا كانت تستعمل منضدة لعرض البـضائع. قد أوصى ابن عبدون بمدينة إشبـيلية في أوائل القرن الحـادي عشـر وفي بوادر القرن التـالي، بإزالة الأطراف البـارزة لتلك الألواح

الخشبية، للاحتفاظ بعرض الشارع، وخاصة بائعي اللحوم وبضائعهم المعروضة على مناضدهم، كما يذكر، لأنهم يعرّضون ملابس المارة للاتِّساخ(١٠٣).

ولابد وأن الإضاءة في داخل تلك الخانات الصغيرة الواقعة في أغلب الأحيان في شوارع ضيقة جدًا، كانت ضعيفة للغاية؛ وما قاله الكاتب بيدرو لوبيث دي إيالا (١٣٣٢-١٤٠٧) عن الخانات المعاصرة له في عهد المسيحيين بمؤلفه **ريمادو دي بالاثيو** قد ينطبق على الخانات القديمة:

«كانوا يبنون خاناتهم مظلمة بها ضوء قليل،

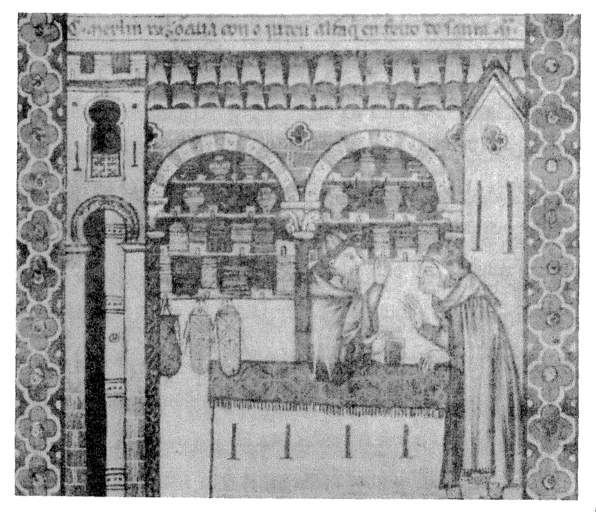
ولهذا تتراكم البضائع فيها

وتختلط والأقمشة البنفسجية تظهر بلون أحمر قانٍ،

وعند حساب النقود تفتح النوافذ»(١٠٤).

وتنص المراسم الملكية لمدينة طليطلة في القرون الوسطى، وهي - دون شك - منقولة عن التقاليد الإسلامية، على "عدم تركيب باب للمنزل مقابل لباب منزل الجار. . وكذلك بالنسبة للخانات التجارية. . . إذ ينبغي ألا تكون أبوابها متقابلة، لأن هذا يؤدي إلى كشف الأسرار"(١٠٥). ولكن عندما توجد أسواق أو شوارع تجارية ذات خانات صغيرة فإن تطبيق تلك التعليمات يصبح أمرًا مستحيلاً.

وغني عن القول أن الخانات والمعامل كانت مخصصة بصورة شبه مطلقة لممارسة التجارة والصناعة الصغيرة أو للنشاطين معًا، وكانت تلك الأماكن مستقلة تماماً عن مساكن التجار؛ وكان هؤلاء التجار يفاوضون ويديرون أعمالهم في مساكنهم مع أنها كانت تقع في أماكن أخرى. ومن المحتمل أنهم كانوا يتناولون طعام إفطارهم في خاناتهم، ومن المحتمل أيضًا أنهم كانوا



حانوت أحد اليهود في القرن الثالث عشر حسب منمنمة في القصيدة الغنائية رقم مئة وثمانية لألفونسو الحكيم.

يقيلون فيها إبان وقت القيلولة؛ ولكنهم عند إقبال الليل يعودون إلى منازلهم. وكان المسلمون يميلون إلى عدم الخلط بين حياتهم العائلية والحياة الجارية في الشوارع، ولكن ذلك يحدث عند إنشاء الخانات والمعامل بنفس المنزل، لذا كانت أغلب الأماكن المركزية المخصصة للتجارة كالأسواق الدائمة والقيصريات مكونةً من متاجر فقط خالية ليلاً ويقوم على حراستها أحد الحراس. وقد تمتعت مدينة "طليطلة" بالاستقرار وبأستمرارية تثير الدهشة والعجبَ في حياتها الاجتماعية خلال القرون الوسطى التي تميزت بالقلاقل في أسبانيا كما سبق

القول عـنها، بعـد خمسـمائة عـام من حكم النصارى، فـكانت متـاجر الحي التجاري الواقعة حول الكنيسة الكاتدرائـية خالية من الأهالي، كما كان سكانها بعد إنهاء أعمـالهم اليومية يغلقونها ويذهبـون إلى النوم في منازلهم الواقعة في أماكن أخرى. وقد نجا النظام المعماري التقليدي للربض من الحرائق ومن الدمار السابق ذكره، وتفوّق بقـوته المتدفقة على تغيير أنماط الحيـاة العائلية، لأن الحياة العائلية القشـتالية كانت تسمح للنساء بالاتصـال بالآخرين. وهذا كان الخلاف الأساسي بين المدن الشـرقية والمدن الغـربية، ففي المدن الغـربية كانت المتـاجر والصناعات الدائمـة تحتل عادة الطابق الأرضي من المنازل؛ وكـان البيع يتم من النافذة المسمـاة "أدْ فنسترام" ad fenestram باللاتينية، بينمـا كان الطابق العلوي منها مخصصًا لسكن العائلة.

ويـين كتـاب تاريـخ توزيـع بلنسيـة وكتـاب توزيـع ميورقـة، الإسلاميـتـين، المكتوبان باللغة اللاتينية الركيكة جـداً، بصورة واضحة الانفصالَ بين الخـانات والمعامل والمنازل، وتسـمى المنازل دموس Domus أو دوموس Domos بالكتاب الخاص بالمدينة الأولى، بينما تدعى هوسبتيا Hospitia، ودوموس Domus والبرج Alborgs في الثانية ـ علمًـا بأن الاسم الأخير هو أكثرها استعـمالاً ـ في الكتاب الخاص بمدينـة ميورقـة. ويطلق الكتابان علـى الخانات والمعامل والمـصانع اسم "أوبراتوريا Operatoria، أو أوبراتوريوم Operatorium (باللاتينية).

وكـانت الخانات في العـادة ملكاً للأوقاف (أجـويلا Haguela)، بمعنى أنها كانت ملك المساجد، أو المؤسات الدينية، أو تابعة لمالية للدولة[١٠٦].

ويفيـد أحد المراجع المؤرخـة سنة ١٥٣٧ عن وجود خانات طائـرة على نهر الدارو، كانت مـستندة على دعامات روابط مـن الخـشـب، وكان ذلك الموقع

إجبارياً، بسبب ضيق الأرضيات في وسط المدينة وكانت تقع على المنطقة المعروفة اليوم باسم "كاريراديل دارو" بغرناطة أمام "البانويلو"[١٠٧].

أما مدينتا بلنسية وإشبيلية فقد تحدثتْ عنهما المستندات المدونة بعد السيطرة النصرانية بقليل. وتعكس تلك المستندات أوضاع مدينتين لم يطرأ عليهما أي تغيير، خاصة إشبيلية وما حول مسجدها الجامع. وتطلق تلك المستندات على الخانات اسم «الطوابق العليا» أو «الغُرف» Algorfs[١٠٨]. وتدل أنها كانت مبان مرتفعة. ويطابق معنى كلمة «غرفة» المعنى المشارَ إليه في **المعجم الرسمي** Diccionario. وفي أحد منازل رعية "سان رومان دي توليدو" المطلة على الدرب المسدود، وجدت غرفةٌ فوق الأسطوان سنة ١١٦٥. وفي منزل آخر في نفس المدينة كان يعمل أحد صانعي الزجاج في أواخر الثلث الأول من القرن الثالث عشر، وكذلك عثر على خانين بهما "دياميس" لكل منهما بالإضافة إلى الغرف الخاصة بهما. "والخانان بغرفهما كانا ملك الأسقف دون جارثيا Don Garcia" وذكر اسماهما سنة ١٢٣٤ ضمن الأملاك التي كانت تحصل الكنيسة الكاتدرائية في طليطلة على إيجاراتها[١٠٩]. وبمدينة إشبيلية وجدت أيضًا سنة ١٢٥٥ خانات ذات غرف على الجزء العلوي منها. إحداها كانت تستعمل لحفظ الشعير سنة ١٣٤٧[١١٠].

وفي فترة سابقة يوضح الجرد الصادر بكتاب **توزيع مدينة بلنسية** بعض الورش ذات الحظائر الخاصة بها أو "أوبراتوريا بالكامرا"، أو الورش ذات الغرف على وجه الاحتمال[١١١]. ولقد كان مألوفاً إذاً وضعُ الطابق العلوي فوق الورش والخانات، ومن المحتمل أن الطابق العلوي (أو الغرفة) كانت تستعمل في ممارسة الصناعة ـ وسبق أن ذكر مثال منها بمدينة طليطلة ـ أو مستودعًا

للبضائع، وفي بعض الأحيان كغرفة نوم لصاحب الصناعة، أو للتاجر العزب ـ ومن معاني مصطلح "غرفة" ما يشير إلى مكان النوم[١١٢] ـ أو للمتدرب على المهنة أو للتابع الحر، أو الرقيق.

وعدد الخانات والمعامل التي تم إحصاؤها في بعض الشوارع والرحاب يوضح بشدة ضيق أرض تلك الأماكن، بالإضافة إلى الشهادات المدونة من قبل عن خانات ومعامل مدينة طليطلة إبان القرن السادس عشر التي تشير إلى صغرها البالغ. وفي كتاب **توزيع ميورقة**، الذي تكرر ذكره، أتى ذكر "الأوبراتوريوم" أو المعامل المخصصة للملك وعددها ٣٢٠ معملاً في المدينة المذكورة، وقد أصبحت ملكًا له[١١٣]. أما في مدينة بلنسية فكان عدد من المعامل ينتشر في المناطق المدنيّة ذات المساحة الضيقة بعد الاستيلاء على المدينة، ولكننا لم نستطع معرفة عددها ولو بصورة تقريبية. ويرجع ذلك إلى نقصان بعض الصفحات في المخطوطات المعاصرة المحتفَظ بها، علمًا بأن تلك المخطوطات نُشرت بالاعتماد على المذكرات المدوَّن فيها، على ما يبدو، عددُ المعامل وكيانها وسبب إنشائها، وقد كتبها الذين عينهم المستولي على المدينة. والصفحات المحتفظ بها مرتبة دون نظام، وقد تكرر فيها العديد من البيانات، ومن ثَمَّ يحتاج الأمر إلى دراسة سابقة للمرجع وإلى أن يعاد طبعها لكي نتمكن من استعمالها بصورة صحيحة وشاملة[١١٤].

وفي كتاب توزيع مدينة غير كبيرة مثل مدينة بلش (بليث مالقة) يذكر وجود ٦٤ خاناً في الشارع الذي كان يؤدي إلى "القنيطرة"، و٢٥ خاناً مخصصة للحدادين في شارع آخر، و٢٠ في شارع ثالث[١١٥].

وتعبّر تلك الأرقام عن التطور العجيب في المجالين التجاري والصناعي،

الذي كان يعتمد على معامل عائلية، وعلى متاجر صغيرة في المدن الأسبانية المسلمة. هذا بالإضافة إلى النشاط الزراعي حيث كان يستغل كل شبر من الأراضي الزراعية التي كان يعمل فيها المزارعون الواعون المنتجون، وكان هذا أمتن أساس لاقتصاد المدن.

**الخانات المؤقتة.**

إن المؤلفات الأسبانية المسلمة الأربعة المعروفة عن الحسبة تمكّننا من تكوين فكرة جزئية وغير كاملة عن التجارة التي كان يمارسها التجار على مناضدهم وفي المراكز المؤقتة المرتجلة والمتاجر المتجولة، كما أنها تعطينا في نفس الوقت فكرة عن حركة الأسواق والرحاب والأماكن المركزية في المدينة ونشاطاتها. وقد قال جرثيا جوميث عن كتاب الحسبة "لابن عبدون" إنه عبارة عن نافذة مفتوحة على الأسواق المزدحمة، وعلى الجامع الساكت، وعلى نهر إشبيلية العظيم.

وكان أصحاب المناضد والمراكز التجارية المؤقتة يبحثون، كغيرهم من أصحاب المتاجر الدائمة، عن أماكن قريبة من المسجد الجامع، حيث يجتمع حوله الناس. وقد ازدحم الأهالي في المصاطب المقامة على الجدران الخارجية لجامع إشبيلية لذلك الغرض. وهناك عدد غير قليل من الباعة كان لهم الرغبة في حجز أماكن معينة فيها؛ ولكن المحتسب الذي كان يمثل السلطة العليا والذي كان مندوب القاضي بالسوق، كان يشرف على تشغيل تلك الأماكن بالترتيب عند الوصول: فالمبكر كان يشغل المكان الأفضل للبيع. وكان على الموظف المذكور، المكلف بالسهر على تطبيق تعليمات تفصيلية دقيقة خاصة بالإدارة وبالتحكم في النشاط التجاري للمدينة بأكملها، التدخل غالباً لحل المنازعات الناتجة من شغل تلك الأماكن المفضلة. وكانت الأماكن المفضلة عند الباعة

جوار أبواب المسجد وفي الصباح الباكر لأيام الجمعة، حيث إن حضور المصلين للمسجد إجباري، وكان على الباعة المتجولين أن يتركوا مداخل المسجد نظيفة وألا يشغلوها بالبضائع حتى بعد أداء الصلاة. ولم يكن انتظار الدواب مسموحًا به أمام تلك الأبواب، وبالأخص حين صلاة الجمعة عندما يكون المسلمون يؤدون صلاة الجماعة. فكان النشاط في الأسواق يقف بعد الأذان أو عند الإقامة؛ ولم يكن مسموحاً للباعة بالبقاء بالقرب من مكان المسجد الذي تصلّى فيه صلاة الجنازة إلا بعد الانتهاء من أداء صلاة المغرب؛ وكذلك لم يكن يؤذن بالجلوس على ذلك المبنى لباعة الزيت الذين كانوا يلوثون بشكل دائم المكان الذي يمكثون فيه؛ وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى المبيعات الأخرى غير النظيفة كالأرانب والطيور. وكان نفس المنع يطبق على بائعي الكمأة، لأن استهلاكها كان في اعتقاد الأهالي مجرد شهوة خاصة بالمترفين في إرضاء رغباتهم الشخصية. ونظراً لضيق المسجد الجامع في مدينة إشبيلية فقد كان لا يستوعب سكانها في الفترة المذكورة بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فكان المصلون يوم الجمعة يملؤون ساحة المسجد وصحنه حتى خارج الأبواب، كما كانوا يتجهون إلى خانات التجار التي كانت تصبح عندئذ جزءاً من المصلى. وكان المحتسب يحافظ بصورة مستمرة على عدم عرقلة دخول المصلى الناتجة من تجمع الباعة والمشترين أمامه. وكان في الرحاب والشوارع المركزية المتوسطة السعة صفوف من الموائد ومناضد الخانات المتنقلة تحميها مظلات من وهج الشمس[١١٦]. وكان المحتسب يشرف على نصبها على ارتفاع كاف حتى لا يصطدم بها الخيالة وتجرح عيونهم[١١٧]. كما منع جلوس الباعة والبقالين ببضائعهم في الشوارع الضيقة[١١٨]. وكان الصيادلة أو بائعو العقاقير بمدينة مالقة ـ وفي باقي المدن كما يعتقد ـ يبسطون سجادة على الأرض لعرض

بضائعهم. وكـان هؤلاء العطارون يُحضِّرُونَ منتجـاتهم أمام العامة، وكثـيرا ما كانوا يخـدعون الجمـاهير ويلجـؤون إلى الثرثرة ورواية القصص المسلية لكي يتمكنوا من غش العـقاقيـر ويستبدلون بهـا منتجات أخـرى شبيهـة بها، ومن المعلوم أن تلك العقاقير مستـخرجة من النباتات البرية في جبال الأندلس[١١٩].

ولم يكن في استطـاعة المحتسب دائـمًا منع تلك الأعمـال السيئـة أو التدليس الجاري في السوق، فمن وظيفته أن يطارد السرقة في التجارة التي تشمل السرقة البسيطة التي يُلجأ فيها إلى تقليل وزن البضائع المباعة، والتدليس المعقد للحاذق من العطارين. وكـان التاجـر حينئذ، كـحاله اليـوم ودائماً، يلجـأ إلى الطمع والجشع، ويرى أن كل ما يستفيده من تجارته ليس إلا شيئاً يسيرًا.

وكـان يكثر في الشـوارع والرحاب الطبـاخـون وباعة اللحم المشـوي الذين يُعدّونه أمام زبائنهم؛ وكذا بائعو السمك المـقلي؛ وبائعو لقمة القاضي؛ وبائعو السجق؛ وبائعو المجبنات (المخبنة Al- Mojabana باللغة القشتالية) وبائعو نوع من اللحم المفروم المعروف لديهم باسم هريسة[١٢٠].

وعلى الرغم من شيـوع استعمـال الحمامات، فـإن اختلاط رائحة الجـمهور بالرائحة الصادرة من عملية الطبخ كانت كريهة على الأرجح. وكان المرء عندئذ يلجـأ إلى الطريقة الجـارية في القرون الوسطى لعـلاج هذا النوع من المواقف، وهي عبارة عن استعمال العطور القوية. فكانت وظيفة بعض الأفراد أن يعطروا الجمـهور فـي الأماكن العـامة وذلك برشّ الماء المعطر، وبإحـراق البـخور، أو بواسطة قطع خشبية معبقة[١٢١].

وفي الساعـات المبكرة من الصباح كـان المحتسب ومـساعدوه يتـجولون في الأسواق، علمًا بأن المحتسب في بعض الأحيان ـ وليس دائمًا ـ كان رجلاً ذكيًا

ومتعلمًا، وفي يد أحد مساعديه ميزان لوزن الخبز يساعده أحد المرافقين له، وكان الغرض من هذا تحديد سعر الخبز الذي كان من حيث المبدأ يتناسب مع وزنه، وكذلك الحال بالنسبة إلى اللحم الذي كان يحمل لافتة تحدِّد السعر طبقًا للتعليمات الصادرة من المحتسب. ومن ثَمّ كان باستطاعة الطفل أو الجارية الذهاب إلى السوق للشراء دون أن يخشى أي خداع. ومن عادات المحتسب أن يرسل بطريقة سرية شخصًا غير متقدم في العمر ومجردًا من الخبرة، كالأطفال والجواري، بغرض الحصول على بعض البضائع، وفي حالة التدليس كان العقاب يتناسب مع درجة ذلك التدليس، وكان العقاب يبلغ أحيانًا الإهانة والضرب بالسوط علانية، وإذا عاد البائع إلى ارتكاب المحظور مرة أخرى طُرد من المدينة. وإذا اكتشف أحد مساعدي المحتسب التدليس حصل حينئذ على جزء من مقدار الغرامة(١٢٢).

وكان هناك جمهور مبرقش وغريب، خليط من عناصر مختلفة في الجنس والدين والثقافة، يمنح الحياة الأسبانية طعماً خاصاً، يتجول في مركز المدينة، منهم: الإسبان المسلمون والمستعربون واليهود وعرب الشرق والبربر والمسيحيون من ممالك شمال شبه الجزيرة والفرنك والجنويون والسلافيون، كل جنس منهم بملابسه الخاصة المختلفة، وكل واحد يتحدث بلغة مختلفة(١٢٣).

وكان الباعة المتجولون والمشترون والمتنزهون العاطلون، والمتسولون المزعجون الواقفون بشكل خاص أمام أبواب الحمامات والمساجد، يملؤون الشوارع القريبة من المسجد الجامع، بالإضافة إلى عدد كبير من المزارعين القادمين من المزارع والمنيات والقرى القريبة لبيع منتجاتهم والحصول على منتجات أصحاب المهن الأخرى بالمدينة. وكان المار يمشي مضغوطًا في وسط الجمهور المتزاحم، يضايقه

الشحاذون، ويصطدم بالمناضد البارزة للتجار، كما كان يَبْعُد عن طريقه بين حين وآخر لكي يفسح الطريق للفرسان، وللجياد المحملة بالبضائع، وللجزارين الذين يحملون على أكتافهم رؤوس الغنم المذبوحة في طريقهم إلى دكاكين اللحم، بالإضافة إلى الأفراد الذين كانوا يحملون مواد البناء على عربات يدوية.

وكان ينتج من التدفق المستمر من الجمهور المحتشد ضجة شديدة قوية، هي خليط من أصوات وأحاديثَ ونداء الدلالين الذين ينادون في مزاد العبيد والجياد والخضروات أو الفحم وغيرها من المنتجات(١٢٤)، بالإضافة إلى أصوات الباعة الجائلين الذين كانوا ينادون على بضائعهم(١٢٥). ويضاف إلى تلك الضوضاء أصوات الرواة الذين يعتمدون في المعيشة على رواية القصص ـ وهم ليسوا إلا سلفاً للذين كانوا يحضرون المعارض والأسواق في السنوات الأخيرة، والذين كانوا يستعينون بمؤشرهم لإعلام الناس بمناظر الجريمة الأخيرة المشهورة، وكانت تلك المناظر مرسومة بصورة وحشية فظيعة على لوحة قماش، ومعلقة على الطرف العلوي لأحد العصي، وهم يترنمون بعنوان القصة المطبوعة في أغلب الأحيان على ورق ملون وهي معروضة للبيع ـ بالإضافة إلى العرّافين وقراء الكف. وبين فترة وأخرى يأتي صوت المؤذنين من المنارات ينادون إلى الصلاة ـ خمس مرات في اليوم ـ مذكّرين الناس وسط أعمالهم اليومية العادية بعظمة إله الأزلية، ووجود الآخرة بعد الموت.

### أسواق المدن المسيحية في شبه الجزيرة.

تصور المعلومات السابقة كيف استمر "السوق" في المدن الأسبانية المسلمة وكيف استمر استعماله في بعض المدن بعد انتزاع المسيحيين لها. وكان السوق يسمى بأسماء مختلفة مشتقة من الاسم العربي الإسلامي.

وكذلك الحال بالـنسبة إلى التجمـعات التقليدية من المتـاجر في بعض تلك المدن التي استمـرت كما هي. وقد درس دون خوليـان ريبيرا Don Julian Ribera وظائف المحـتسب ووظائف "الموتاثين" (وهو المحـتسب في اللغـة الإسبـانية) للمدن المسيحية دراسة مقارنة(١٢٦)، وقد استمرت تلك الوظيفة التي كانت تابعة للبلدية حتى القرن الثامن عشر(١٢٧).

ولم تقتصر تسميـة السوق، التي تدل على المركز التجاري، على المدن ذات الماضي الإسلامي؛ بل شملت المدن المشكلة على الأنماط الغربية أيضًا واستمرت تلك التسمية في تلك المدن الغربية على نحو ما فيما بعدُ.

وفي حين كانت كلمة السوق تدل على جميع أنواع التجمعات التجارية فـي أسبانيـا الإسلامـيـة، فإن كلمة "أثوجي" Azogue تدل في إسبانيا المسـيحية ـ أو بمعنى أصح بأسـبانيا المـدجنين ـ على المركز التـجاري الدائم القـائم في شارع أو ضاحية أو في رحبة تجارية بخاناتها ومناضدها المهيئة للبيع، بينما كانت تدل الكلمة ميركادو Mercado على التجمع التجاري المؤقت القائم في مواضع مؤقتة(١٢٨).

أما مصطلحا "ثوجي قديم Acoge vieio و"ثوك قديم" zoc vieio فقد سمي بهما مكان معين وحي من أحـياء مدينة سلمنقة Salamanca سنة ١١٨٠م وفي السنوات التالية؛ وهناك باب من أبواب الكنيسة الكاتدرائية كان يقع على حدود السوق، ولهذا سـمي بباب السوق portam del Azogue (باللغة اللاتينية)(١٢٩). وبمدينة بنابنيت Benavente في (ثامورا) التي قـام فرناندو الثـاني بتعمـيرها سنة ١١٦٧م سمـيت الكنيسـة التي بدئ في بنائهـا بعد هذا التـاريخ بسنوات قليلة "سـانتا مـاريا ديل أثوك" Santa M. del Azogue. وفي مـدينة أخرى بمقـاطعـة جـاليقـيـا البـعيـدة عن التـأثيـر المدجَّن، المعـروفة باسم بيـتـانثس Betanzos

(لاكورونيا)، كان هناك كنيسة تحمل نفس الاسم؛ علماً بأنه وجدت في بعض الفترات من التاريخ خانات مستندة على جدرانها الخارجية. وسمى أيضًا بـ" أثونكي " Azonque الحقلُ القريب منها المستعمل في تجارة القمح(١٣٠).

وبمدينتي شقوبية وبلد الوليد Valladolid و Segovia عثر على رحيبات معروفة "بالأثوجيخو" Azoguejo (وأسوجيو) أسفل المجرى المائي خارج أسواق المدينة الأولى، وقد احتفظت المدينة بهذا الاسم حتى أيامنا الحالية.

وكان في مدينة مدريد في القرن الثالث عشر سوق آخر(١٣١). وهناك شارع معروف بشارع السوق (أثوك) بالموروويا Moreria خارج أسوار المنطقة السكنية على الطريق الجنوبي لرعية سان بابلو في مدينة سرقسطة(١٣٢).

واحتفظ بهذا الاسم في مدينة مرسية، ويطلق على أرض بادية برملة (الكويرنو) Cuerno التي كانت تطل عليها منازل الصومعة ومعصرة المجمع الديراني Cabildo. كما كان في المدينة الشرقية نفسها شارع وباب بنفس هذه التسمية، وقد غُيِّر اسم هذا الأخير وعرف بباب سانتا فلورنتينا فيما بعد(١٣٣). كما وجد العديد من المتاجر بسوق حي اليهود (أثوك) في بلنسية إبان القرن الرابع عشر(١٣٤).

**الرحاب القشتالية الكبرى والمدن الأسبانية المسلمة.**

كتب المؤلف روبرت ريكارد R.Ricard عن الرحبة الكبرى القشتالية، التي بلغت من العظمة حداً كبيراً، الواقعة على الأرجح في وسط الكتلة السكنية للمدينة، والمزودة بأروقة متتالية في الطوابق السفلى، وبدهاليز أو بشرفات في الطوابق العليا من المساكن المحيطة بها. وقد كتب قائلاً إنها [أي الرحبة] غير موجودة في بعض مدن شبه الجزيرة الإيبيرية، كما يندر وجودها في مدن

الأندلس ومدن المنطقة الشرقية التي وقعت تحت تأثير السيادة الإسلامية، وعند وجودها فإنها تكون قد بنيت في تاريخ حديث خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر(١٣٥).

وقد كانت الرحبة الكبرى في أغلب الأحيان رحبة السوق، وكانت في الوقت نفسه المكان الأساسي للمشاهد العامة: كمسابقات الفرسان في رماية القصب وفي إظهار مهارتهم في استعمال الأسلحة، ومصارعة الثيران، ومسابقات الفروسية، واستعراضات الفروسية، وإتمام المسيرات الدينية، والرقص، والمسابقات الشعرية والأدبية، وقتل الملحدين بالغرق، وتصريف الامتيازات الدينية، وتنفيذ الأحكام بالشنق. ولأجل أن يشاهد الناس تلك الأمور زودت المساكن المحيطة بالشرفات والدهاليز التي كان البعض منها للنقابات أو للأهالي أصحاب المناصب الاجتماعية البارزة. أما البعض الآخر من الشرفات والدهاليز فإن أصحابها قاموا بتأجيرها للناس لغرض المشاهدة. وكانت تعد وظيفة تلك الرحاب أمرًا غريبًا وبعيدًا عن عادات الحياة الاجتماعية الإسلامية، وكذا تصميمها المعماري الذي يجب أن نبحث عن أصوله في إيطاليا على الأرجح. ومن المحتمل أنها انتقلت إلى أرض قشتالة في القرن الخامس عشر مرورًا ببلنسية وقطلونية.

وفي القرن الرابع عشر يحث الراهب الفرنسيسكاني "أكسمنس" في كتابه " كريستيبيا " Crestia على بناء مدينة جميلة جيدة البنيان مزودة برحبة مركزية واسعة، تمنع فيها كل أعمال البيع وتنفيذ العقوبات والمحاكمات للمتهمين، وكذلك يمنع الذين يقومون بفعل الفاحشة. وقد اقترح الملك مارتين «الهومانوا» Martin El Humano على مستشاري مجلس المدينة سنة ١٤٠٣م أن تبنى أمام

قصره الأكـبر بمدينة برشلونة رحبة واسعـة، لأنها ستمنح المدينة جمـالاً عظيمًا وفائدة غير متناهية[١٣٦]. فالرحبة القشتالية الكبرى الأصلية المميزة لأسبانيا قد اعتـمد في تأسيسـها على عناصر مسـتوردة. وفي القرن السادس عـشر زُوِّدت بعض المدن الأندلسـية، التي احـتفظت حـتى ذلك التاريخ ببنـيانها الإسـلامي بصورة شبه كاملة، برحبة من الرحاب الكبرى للاحتفال بالأعياد البارزة. ولهذا قال ريكارد: كانت تلك الرحاب أصلاً تصميـمات مستوردة إلى أرض قشتالة. وفي المجموعـات السكنية ذات المنازل المزدحمة المتكتلة لم يكن هدم عدد كـبير منها لبناء الرحبة أمرًا سهلاً. وبعد الانتـهاء من تعديل الرحبة الصغيرة للشوارع الأربعة بمدينة مالقة المسلمة، أقيم فيها مباشرة حفل مصارعة الثيران سنة ١٤٩٢ في عـيد المـلوك الماجوس وذكـرى اسـتـيلاء الملكين الـكاثوليكيين على مـدينة غرناطة. وفي جلسـة من جلسات البلدية التي عـقدت بتاريـخ ٣٠ يوليو لسنة ١٤٩٢ درس موضوع توسيعها لاستيعاب ازدياد السكان السريع[١٣٧].

وقد وافقت بلدية مدينة غرناطة سنة ١٥١٣ على تعـمير حقل الأمير الواقع على أحـد طرفي المدينـة، وهو المعـروف لدى السكان العـرب، كـمـا يقـول مارمول، بحقل أبي النست Abulnest، وبنيت فيه «رحبة فـاخرة لممارسة ألعاب الفروسية واستعمـال الأسلحة ولمصارعة الثيران»[١٣٨]. ولم تبن الرحبة الكبرى لمدينة قرطبـة إلا سنة ١٦٨٣ـ وهي المعروفة برحـبة "الكوريديرا" Corredera ـ، وكانت مزودة بشـرفات مرتبة على ثلاثة صفوف من الدعـائم الواسعة، وتلك الرحبـة، على عظمـتها بالأمس، تـعد اليوم فـي طي النسيـان ولا وزن لها، ويوجد خلفـها أحـد أسواق الحديد. وفي الـقرن السادس عـشر كانـت مدينة طليطلة مقـر البلاط الملكي، وقد جرى عـدد من التعديلات والتوسـيعات على

رحبتي المديـنة اللتين كانتا من أصل إسلامي، إحـداهما واقعة بجوار الـكنيسة الكاتدرائية والثـانية المعـروفة بالثكودوبر Zocodover (سوق الدواب)، ولـم تُبْنَ حتى ذلك التاريخ رحـبة كبرى للاحتفـال بالمشاهد العامة المدنيّة المسـتمرة التي تعودت عليها المدينة. وفي سنة ١٥٩٢ شب حـريق في رحبة سوق الدواب مما اقتضى تجـديد المنازل المحيطة بها وتحسينهـا "بأعمال جديدة جيـدة ذات شرفات حديدية تمكّن المشاهدين من رؤية الألعاب أو المشاهد العامة"[١٣٩]. وابتداءً من ذلك التاريخ كـانت الأعياد العظيـمة والاستعـراضات عبـر الشوارع تدل على الشـغب الصـاخب الذي يخـفي وراءه الانحطاط العـميق السـائد في أوسـاط الشعب أكثـر من دلالته على مظاهر الرضا لدى شعب سـعيد؛ إذ لم يكن ذاك إلا حفـلاً مأتميـاً مُقدَّمًـا للدولة الإسبـانية الخـربة. وكان بؤس الشعـب يقابل الفخامة المفرطة في مظاهر الأعيـاد العامة، بعد انحطاط المهن والفنون القديمة، وبعد إغلاق عدد غير قليل من الورش، واضمحلال التجارة وإقفار الأرياف.

(1) «Plaça, lugar donde venden: **çoq, açuaq**; plaça, lugar dondé no ay cosas: **rahba, rihāb**; corso do corren el toro: **ráhba, rihāb**; mercado, lugar: **çoq, açuaq**». **Petri Hispani, De lingua arabica,** libri duo, Pauli de Lagarde.

(2) Francesco Gabrielli, **Il Tratatto censorio di Ibn 'Abdūn sul bon governo di Siviglia,** p. 910.

(3) **Description de l'Afrique et de l'Espagne par Idrisi,** por R. Dozy y M. J. de Goeje, p. 179 del texto árabe y 216 de la traducción francesa.

(4) García Gómez, **El «parangón» entre Málaga y Salé de Ibn al-Jaṭīb,** p. 191.

(5) «De plassas no n'hi ha alguna». El documento se encuentra en un libro de cartas del Arch. Hist. de Mallorca (**España, sus monumentos y artes, su naturaleza e historia: Granada, Jaén, Málaga y Almería,** por don Francisco Pi y Margall, p. 430. Sin embargo, hay noticias de la existencia de una plaza malagueña en el centro de la ciudad, llamada de las Cuatro Calles poco después de la Reconquista, y que, como se verá en una nota siguiente, hubo necesidad de ensanchar.

(6) L. Marineo Sículo, **De las cosas memorables de España.** Ediciones latina y castellana se publicaron en Alcalá de Henares en 1530. La última fue reeditada modernamente por don Antonio María Fabié, **Viajes por España,** de Jorge de Einghen, p. 559.

(7) He aquí algunos datos referentes a esos ensanches: en 1391 y 1392 se derribaron casas en Valencia para abrir la Plaza del Portal Nuevo (**La urbe valenciana en el siglo XIV,** por José Rodrigo Pertegás, **Memorias,** I, p. 285). El condestable don Miguel Lucas de Iranzo, en una ciudad de no mucha importancia como Jaén que sin duda conservaba aún en gran parte su caserío musulmán fue, de 1460 a 1473, «comprando acreçentando anchuras y exidos y plaças» (**Hechos del Condestable don Miguel Lucas de Iranzo,** edición y estudio por Juan de Mata Carriazo, pp. 117-120 y 225). La plaza situada en el centro de Málaga se llamaba poco después de la conquista de la ciudad, de las Cuatro Calles, sin duda por concurrir a ella otras tantas. En su lado norte había unos baños; hacia el ángulo de poniente, al comienzo de la calle que arrancaba de este punto, una pequeña mezquita con su alminar. En Cabildo de 30 de julio de 1492 se convino en que la plaza era pequeña para una población que crecía rápidamente, por lo que se acordó ensancharla y a fines de 1493, estaba el proyecto realizado. Otras reformas de la misma tuvieron lugar en 1517, a partir de 1533, etc. (**Las calles de Málaga,** por don Francisco Bejarano Robles, pp. 98, 99, 101 y 102). Respecto a Granada abundan los testimonios. En 1506 hubo de dar licencia el Rey para agrandar la pequeña plaza de al-Haṭṭābīn donde hoy la Nueva, en documento en el que se dice «dicha cibdad tiene mucha necesidad de hacer una plaza pública» (Cristóbal Espejo, **Documentos para la Hist. del Reino Granadino, Licencia para fazer una plaza en el Atabín de Granada,** pp. 38-39). El documento, en el Registro del sello del Arch. General de Simancas. Nueve años después se realizó ese ensanche, cubriendo el río (Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 200). Respecto de la más vasta y famosa plaza de Granada, la de la Bibarrambla, no es seguro que provenga de época musulmana. Según L. Marineo Sículo, esa plaza, grande y llana, se había edificado hacía poco por los cristianos (Fabié, **Viajes por España,** pp. 560-561). En 1495 se la citaba como la plaza nueva de Bibarrambla; consta que por entonces era pequeña. En 1513 el rey Fernando, en nombre de su hija, expidió cédula ordenando comprar casas para ensancharla, lo que se realizó de 1516 a 1519 (Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 243). No hay para qué citar aquí las muchas ampliaciones y reformas posteriores. En las «Ordenanzas de edificios, de casas, y albañiles, y labores», de Granada, hay una de 1526, de Carlos V, que dice: «Viendo la grande necesidad que tenía que se ensanchassen las calles y plaças de ella por estar muy estrechas... y estando Nos en esta Ciudad, por aver mucha gente en nuestra Corte y ser grande la estrechura de calles y plaças de ella» (**Ordenanzas de Granada** (Granada, 1552), tit. 85, 1). En un manuscrito de censos y propios, de Granada, leg. 4.º, que se conserva en el Archivo del Ayuntamiento de esa ciudad, figuran las siguientes partidas: «Plaza delante de la capilla real y casas del cabildo, en la cual hubo dos tiendas, derribadas y hechas **plaza**; otra calle que se llama en arábigo **garbie xima** (occidente de la aljama) frontera de la iglesia mayor en la plaça del colegio; en ella había cuatro tiendas entre la iglesia y el colegio, derribadas y hechas plaza;... dos (tiendas) en la plaza donde agora están los pregoneros, delante de la carnicería que salen a la plaza de Bibarrambla, derribadas y hechas plaza». Aún en fecha avanzada del siglo XVI, en 1579, de Sevilla, el gran emporio

del comercio con las Indias, decía Francisco de Sigüenza, tener necesidad de una buena plaza, que es lo que le falta, a mi parecer» (**Traslación de la Imagen de Ntra. Sra. de los Reyes**, por Francisco de Sigüenza, 1579, editado en Sevilla en 1919, según cita de Santiago Montoto,**Sevilla en el Imperio**, pp. 33-34).

(8) **Retrato al natural de la ciudad y término de Jaén**, por un individuo de la Sociedad patriótica de dicha ciudad, pp. 41-42.

(9) En el Libro de las Tablas, f.º 5, del Arch. Capit. de la Cat. de Córdoba (**La Sinagoga de Córdoba**, por Fidel Fita, apud. **Bol. de la Real Acad. de la Historia**, V, p. 363).

(10) No sería muy amplia la plazuela que había delante de la puerta de la mezquita mayor de Toledo, convertida en catedral, en la que había varios mesones, que se cita en un documento, de 1186 (González Palencia, **Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII**, vol. I, doc. núm. 183, pp. 137-138).

(11) Antonio Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII**, docs. núms. 3, 5, 6 y 137, pp. V, VI y CXLIV.

(12) **Primera Crónica General**, I, Texto, edic. Ramón Menéndez Pidal, cap. 915, p. 585. Esta plaza se cita en un documento de 1242, de cambios de unas casas por unas posesiones que consistían en **totam illam intratam porte Ferrice in platea ante ecclesiam Beate Marie** (la mezquita mayor consagrada al culto cristiano cuatro años antes), **que dicta intrata affrontat ex una parte in turre vestra** (del Obispo) **petrea** (probablemente el alminar) **et in vestris domibus, de secunda et tertia in domibus nostris, de quarta vero in platea Sante Marie** (**Antigüedades de Valencia**, Fr. Josef Teixidor, I, pp. 199-200).

(13) Gómez Moreno y Martínez, **Monumentos arquitectónicos de España: Granada**, p. 51, n. (1). La traducción de escritura, fechada en el mes de octubre de 1492, se conservaba en el Ayuntamiento de Granada. Gaspar Remiro publicó el original árabe, con la data de 898/1491, y la traducción (**Escrituras árabes de Granada**, p. 15). El hombre de la plaza en **El baño de Šawṭār en Granada**, por Luis Seco de Lucena, p. 212.

(14) Marc. Jos. Müller, **Die Letzten Zeiten von Granada**, p. 5 del texto árabe y 111 de la versión alemana. Tradújose al castellano este fragmento del relato anónimo en la **Relación de algunos sucesos de los tiempos del reino de Granada.** Bibliófilos Españoles (Madrid, 1868), p. 147. El documento completo fue editado, en su original árabe y con traducción castellana, por don Carlos Quirós y don Alfredo Bustaní, en su obra **Fragmento de la época sobre noticias de los Reyes Nazaritas o Capitulación de Granada y Emigración de los Andaluces a Marruecos**, p. 5 del texto árabe y 6 de la versión castellana.

(15) **Biblioteca Arabico-Hispana**, I, II, Abenpascualis Assila... edit. Francisco Codera (Madrid, 1882), pp. 257, 275 y 562, según cita de Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane au Xe siècle**, pp. 208-209, n. (2). La fecha que da Ibn Baškuwāl para la muerte de al-Buškalārī —16 de ramadān de 461— debe de estar equivocada. Será el 16 ramadān 460/19 de julio de 1068 (rectificación de Ocaña Jiménez).

(16) Asín Palacios, **El original árabe de la novela aljamiada «El baño de Zarieb»**, p. 386. El nombre de Qurayš provendrá del de la tribu así llamada, con el que se conocía también un cementerio cordobés. Julián Ribera y Tarragó, **La plaza del alcalde**, en **Disertaciones y opúsculos**, II (Madrid, 1928), pp. 322, 323 y 325; Bofarull, **Repartimientos de Mallorca, Valencia y Cerdeña**, pp. 156, 176, 180, 294, 307, 556 y 627. En la **Takmila** de Ibn al-Abbār, edición Codera, biografía 118.ª, se cita la **raḥbat al-Qāḍī de Valencia.**

(17) Bofarull, **Repartimientos de Mallorca, Valencia y Cerdeña**, pp. 225, 284, 306, 311, 313, 315, 383, 483.

(18) Casi todos los **operatorium**, es decir, los obradores o talleres de Mallorca que cita el **Repartimiento**, estaban efectivamente, **in foro prope portam de Bebelet, in foro de porta de villa, y ad portam de Marbeleth** (Bofarull, **Repartimientos**, pp. 121-125). Según Valdeavellano uno de los significados de la palabra **foro** en la Edad Media española es el de mercado (Luis G. de Valdeavellano, **El mercado**, p. 217, núm. 34).

(19) Bofarull, **Repartimientos de Mallorca, Valencia y Cerdeña**, pp. 128-129.

(20) Gómez Moreno, **Guía de Granada**, p. 322.

(21) **Ibidem**, p. 315; Mármol, **Historia del rebelión**, pág. 222; Espejo, **Licencia para fazer una plaza en el Atabín de Granada**, pp. 38-39.

(22) Mármol, **Historia de la Rebelión**..., I, pp. 116. 117, 119, 150, 222 y 240.

(23) Mosén Diego de Valera, **Crónica de los Reyes Católicos**, pp. 137-138.

(24) Bofarull, **Repartimientos de los Reinos de Mallorca, Valencia y Cerdeña**, pp. 311, 438 (a. 1249), 439 y 444; **«domos in Xativa cum stabulo eisdem contiguo et plateam in**

**qua vendebatur ganatum tempore sarracenorum»; «placiam sibe carrariam que est in Xativa ubi modo est macellum et corralum in quo vendebantur cantari tempore sarracenorum contiguum dicte carnecerie ad excoriendas carnes»; «Plateam balneorum».**

(25) **Repartimiento de Málaga y su Obispado, Vélez-Málaga,** por Juan Moreno de Guerra, p. 388. Documentos toledanos de fines del siglo XI, a los últimos años del XIII mencionan varias plazas. Probablemente provendrían de época islámica. Llevaban nombres musulmanes: la del Caxalí, citada en 1093, donde hoy está el Pozo Amargo, cerca de la catedral, las de Abenaziz, en el arrabal de la iglesia de San Antolín; de Abuzeid el de Baeza, cerca de Santa Leocadia, junto al Alcázar; de Attam, en el barrio de la iglesia de San Vicente; la de Abuseleiman ben Sosán, en la Judería (Angel González Palencia, **Los Mozárabes toledanos en los siglos XII y XIII,** volumen preliminar, pp. 10, 56, 61, 71 y 302).

(26) Véase en la cita de al-Idrīsī de la página siguiente como éste llama **sūq** lo mismo al mercado permanente, formado por una o varias calles de tiendas en una ciudad, que al eventual y periódico celebrado en sus afueras o en pleno campo.

(27) **Al-Maqqarī,** adaptación de Gayangos, I, pp. 201 y 206.

(28) Al-Idrīsī, **Description de l'Afrique et de l'Espagne,** edición Dozy y de Goeje. En la descripción de cada una de esas ciudades, al-Idrīsī unas veces habla de zoco en singular y otras en plural. Parece no diferenciar los mercados o zocos permanentes de los periódicos, ni los lugares donde se celebraban del tráfico comercial.

(29) **Historia de los musulmanes de España y Africa,** por En-Nuguairi, texto árabe y traducción española por M. Gaspar Remiro, p. 77 del texto árabe y 71 de la traducción castellana.

(30) Ibn 'Idārī al-Marrākušī, **Al-Bayān al-Mugrib, Histoire de l'Espagne musulmane au XIe. siècle,** texto árabe, por E. Lévi-Provençal, I, p. 22.

(31) **Sila,** biog. 1.051, p. 477, según cita de Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane au Xe. siècle,** p. 208, n. (2).

(32) **Sevilla y sus monumentos árabes,** por el P. Melchor M. Antuña, p. 13 del texto árabe y 101-102 de la traducción castellana.

(33) Según la descripción se trataba de una alcaicería, que sería la así llamada en documentos poco posteriores a la conquista de la ciudad.

(34) En el **Libro de Propios de la cibdad de Granada,** 1506, manuscrito que se conserva, lo mismo que los dos citados a continuación, en el archivo municipal de la ciudad, figuran: «tienda en la alcaycería donde están los mercaderes de las marlotas e almayzares dicen almercatyl»; alcaycería dentro del mercatil (**Libro de censo de propios,** 1528, leg. 1.º); en el alcaycería en el mercatín (**Libro de las posesiones desta cibdad,** 1537, leg. 4.º). El **marqatān,** mercado especial en el que se vendían vestidos, existía en Sevilla hacia 1100. La palabra es de origen romano y aún se usa en Fez (**Un document sur la vie urbaine et les corps des métiers à Seville au début du XIIe. siècle: Le traité d'Ibn 'Abdūn,** por Lévi-Provençal, p. 191).

(35) González Palencia, **Los mozárabes toledanos,** volumen preliminar, pp. 69-70; vol. I, doc. núm. 248, a. 1193, pp. 191-192; doc. núm. 267, a. 1196, p. 209; vol. II, doc. núm. 410, a. 1214, p. 23; doc. núm. 474, a. 1224, pp. 75-76; doc. núm. 579, a. 1251, pp. 172-175; vol. III, doc. núm. 738, a. 1185; pp. 10-13; doc. núm. 1.025, a. 1212, pp. 402-404; doc. núm. 830, a. 1296, pp. 112-113; doc. núm. 791, a. 1251, pp. 63-63; vol. III, doc. núm. 900, a. 1176, pp. 171-172.

(36) **Ibidem,** volumen preliminar, pp. 58, 61, 70 y 162; I, doc. núm. 29, a. 1141, pp. 20-21; II, doc. núm. 496, a. 1229, p. 97; III, doc. núm. 829, a. 1287, pp. 110-112; doc. núm. 902, a. 1182, pp. 173-174; doc. núm. 904, a. 1100, pp. 175-176; doc. núm. 944, a. 1199, pp. 242-244.

(37) **La urbe valenciana en el siglo XIV,** por Rodrigo Pertegas, pp. 340 y 348.

(38) Se concedió por Real Cédula de la Reina Católica de 1489, pero documentos cuatro años posteriores se refieren a él como si fuera tradicional (**Documentos históricos de Málaga,** por don Luis Morales García Goyena, I, pp. 18, 82, 84 y 85).

(39) Asín Palacios, **Contribución a la toponimia árabe de España,** p. 135.

(40) Ibn Baškuwāl, **Sila,** pp. 170 y 196, biog. 479. Fecha entre los años 336/997-998 y 404/1013-1014.

(41) Crónica contemporánea de Ibn Sāḥib al-Salā, en **Sevilla y sus monumentos árabes,** por el P. Antuña, pp. 140-141 del texto árabe y 122-123 de la traducción castellana.

(42) **La Péninsule Ibérique au Moyen-Age,** por Lévi-Provençal, p. 15 del texto árabe y 21 de la traducción francesa. En Toledo se ha supuesto existía otra **Bāb al-Suwayqa,** pero la así llamada, que tan sólo aparece en un solo documento, debía de ser puerta del adarve del mismo nombre, no de la cerca de la ciudad (González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** volumen preliminar, p. 76; vol. II, pp. 235-236, doc. núm. 635 del año 1273).

(43) **Los mozárabes de Toledo,** vol. III, docs, núms. 635, 1.135 y 1.143 de los años 1254, 1270 y 1273, pp. 235-236, 570-572 y 581-582.

(44) Bofarull, **Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** pp. 66 y 122.

(45) **Ibidem,** pp. 392, 393 y 396.

(46) Arch. Cat. Sevilla, leg. 41, núm. 1, San Salvador. Documento de 27 de marzo de 1365 de la era: «la call que va de la puerta de la Judería a la plaça de la Judería que dizen Açueyca» (Pablo Montero de Espinosa, **Relación histórica de la Judería de Sevilla,** pp. 3 y ss.).

(47) Los obreros toledanos de los siglos XII y XIII estaban asociados en gremios (**Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII,** p. 26).

(48) Gabrieli, **Il trattato censorio de Ibn 'Abdūn,** pp. 917-918.

(49) Vicente Lampérez y Romea, **Las ciudades españolas y su arquitectura municipal al finalizar la Edad Media,** p. 19. Sobre como anteriormente en Sevilla, estas disposiciones habían caído en desuso, véase **Sevilla en el Imperio** (siglo XVI), por Santiago Montoto, pp. 22 y 117.

(50) **Primera Crónica General,** edic. Menéndez Pidal, I, texto, c. 1.127, p. 768.

(51) **Ibidem,** cap. 1.129, p. 770.

(52) Luis Morales y García-Goyena, **Documentos históricos de Málaga,** II, pp. 92-98; Bejarano, **Las calles de Málaga,** p. 7.

(53) **Los Corregidores de Málaga,** por don Juan Moreno de Guerra, pp. 156 y 159.

(54) Ibn Baškuwāl en al-Maqqarī, **Analectes,** I, pp. 303 y 304; Ocaña Jiménez, **Las puertas de la medina de Córdoba,** pp. 143-151.

(55) Al-Idrīsī, edic. Dozy y de Goeje, pp. 196 del texto árabe y 239 de la traducción francesa.

(56) Lévi-Provençal, **Le Traité d'Inb 'Abdūn,** p. 190.

(57) Arch. de la Cat. de Sevilla, leg. 38 (Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. CCLXXVI).

(58) Ramón Carande, **Sevilla, fortaleza y mercado,** pp. 330 y 337.

(59) P. Antuña, **Sevilla y sus monumentos árabes,** p. 141 del texto árabe y 124 de la traducción castellana.

(60) Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. CXLIV, doc. núm. 137, a. 1264.

(61) Julián Ribera, **Enterramientos árabes en Valencia, en disertaciones y opúsculos,** II, p. 259.

(62) **Monumentos históricos de Valencia y su reino, Antigüedades de Valencia,** I, por Fr. Josef Teixidor, p. 194.

(63) Bofarull, **Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** pp. 117, 120 y 121.

(64) González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** II, doc. núm. 473, pp. 74-75; III, pp. 110-112.

(65) Fr. Henrique Flórez, **España Sagrada,** XXIII, pp. 404-405. Aún proseguía este comercio en Toledo en 1576, en el mismo lugar, según un **Memorial** de esa fecha, citado más adelante, la parroquia de San Ginés era «poblada... de muchas tiendas de espezería».

(66) Ibn Fadl Allāh al-'Umarī, **Masalīk al-Absār fī Mamālik el Amṣār (L'Afrique moins l'Egipte),** pp. 233-234.

(67) **Libro de censos propios,** 1528, Leg. 1.° Arch. del Ayunt. de Granada. Debo las notas de este manuscrito del archivo del Ayuntamiento granadino y de los restantes citados de la misma procedencia, a la generosidad de don Manuel Gómez-Moreno.

(68) «1 (tienda) pasada la puerta q. se dice el postigo como entran en la especiería q. está en la calle de los gelizes, la cual está en la esquina del postigo y linde de otra calle q. vuelve sobre m. derecha a la duana... alhóndiga de las tiendas de la especiería q. están dentro de el alcaycería y las tiendas en torno... 1 (tienda) de la esquina

de la calle q. vuelve a la cadena q. sale a la calle de los especieros q. sale a la iglesia mayor. 1 (tienda) en la hacera q. es de la m. derecha como entran por la calle de los especieros por la puerta pral. de la duana» («Bienes de la agüele q. son de su magestad, 1552». Arch. del Ayunt. de Granada). Aunque de época cristiana reflejan estos documentos la organización comercial árabe en Granada, aún subsistente en el siglo XVI.

(69) **Málaga musulmana,** por F. Guillén Robles, p. 490; Bejarano, **Las calles de Málaga,** pp. 112, 114, 115, 117, 123.

(70) **Escrituras árabes de Granada,**.por Mariano Gaspar Remiro, p. 9.

(71) Bofarull, **Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** p. 121.

(72) P. Antuña, **Sevilla y sus monumentos árabes,** p. 131 del texto árabe y 124 de la traducción castellana.

(73) Julián Ribera, **Historia de los jueces de Córdoba,** pp. 63-64 del texto árabe y 204 de la traducción castellana.

(74) Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. CCCXXVIII, doc. del Arch. Cat. Sev., leg. 79.

(75) Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 314.

(76) Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. CCCXXIX, Arch. Cat. Sev. leg. 33, Escobas; Montoto, **Sevilla en el Imperio,** p. 133

(77) Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 314.

(78) En 1263, quince años después de la conquista de Sevilla, se alude a una Zapatería nueva en la colación de San Vicente (Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** pp. CXXIX, CXXX y CCCV).

(79) **Historia de la conquista de España de Abenalcotía «el Cordobés»,** traducción de don Julián Ribera, p. 69 del texto árabe y 55 de la traducción castellana.

(80) González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** vol. III, doc. núm. 1.099, a. 1170, pp. 517-519.

(81) Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 315.

(82) Bofarull, **Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** pp. 120-121.

(83) Una tienda «en Seuilla de las que son ante Sancta María, de las que están tras las Espaldas de las Tiendas en que están los Judios Cauiadores», a. 1255 (Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** doc. núm. 73, p. LXXVI).

(84) González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** vol. I, doc. núm. 317, a. 1202, p. 257; doc. núm. 365, a. 1209, pp. 305-306; vol. III, doc. núm. 904, a. 1190, pp. 175-176; doc. núm. 944, a. 1199, pp. 242-244.

(85) A. 1253. Carta de Alfonso X a don Ramón de Tolosa, por la que se le otorga «las casas que son fechas en el Corral do solían uender la grana en tiempo de Moros, de que uos sodes tenedor, que son en Seuilla ala Collation de santa Maria» (Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** doc. núm. 73, p. LXXVI).

(86) **...domos juxta sanctam Mariam ut in eis faciant purpuras** (Bofarull, **Repartimientos de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** pp. 285-286).

(87) **Un manuel hispanique de ḥisba,** texto árabe por G. S. Colin y E. Lévi-Provençal, I, y **El «Kitāb fī ādāh al-ḥisba» (libro del buen gobierno del zoco) de al-Sagat,** estudio y traducción de Chalmela P.

(88) Archivo del Ayuntamiento de Granada, Libro de censos de propios, leg. 4.º

(89) González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** vol. I, doc. núm. 89, a. 1168, pp. 63-64. Esta puerta, situada en la parroquia de San Sebastián, no existe, pero el lugar continuó llamándose Puerta de Adabaquín, y más tarde de Hierro.

(90) Ibn al-Abbār, **Takmilat al Sila,** edición Codera, p. 214.

(91) Además de las tiendas de los zocos sevillanos citadas en la Crónica de Ibn Sāḥib al-Salā, hay documentos cristianos, poco posteriores a la conquista de Fernando III en 1248, que reflejan una organización urbana aún no alterada. Se refieren a tiendas próximas a la mezquita convertida en catedral —unas adosadas, ante ella otras, y algunas «que tienen con la Eglesia» (Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** docs. núm. 5, a. 1251, p. VI; núm. 60, a. 1253, p. LXII; núm. 68, a. 1254, p. CXLIV; núm. 58, a. 1253, p. LXI). Según un documento del archivo de la catedral de Sevilla, leg. 29, del año 1312, había en la colación de Santa María, lindando con la que fue mezquita mayor, una tienda, «la que solien desir la tienda del Alcall moro» (**Ibidem,** p. 102).

(92) Gómez-Moreno, **Guía de Granada**, pp. 280-281. El dato procede de las escrituras de habices.

(93) Pedro de Alcalá, «Tienda donde venden: **hanút, hagu înit» (Petri Hispani, De lingua arabica,** libri duo, Pauli de Lagarde). Amador de los Ríos, y otros escritores antes de él, sostienen que el nombre de las tiendas toledanas procede de una palabra caldeo-hebraica (**La Alcaná de Toledo,** p. 52).

(94) **Don Quijote,** primera parte, cap. IX. En el Alcaná, al norte de la catedral, había en 1234 veinticuatro tiendas propiedad de ésta (antes lo serían de la mezquita mayor), arrendadas a cristianos y moros. En el año 1355 don Fadrique y don Enrique, hermanos del rey don Pedro I, queriendo encastillarse en la ciudad de Toledo, entraron en ella a viva fuerza, y sus tropas mataron a 1.200 judíos, hombres y mujeres, y robaron las tiendas de mercería que tenían en el Alcaná. En esta ocasión, o algunos años después, ardió, por lo que el arzobispo don Pedro Tenorio hizo cesión del solar para construir el claustro de la catedral. (**Crónica de los Reyes de Castilla, Crónica de don Pedro I,** edición Rivadeneira, cap. VII, página 462; González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** volumen preliminar. pp. 57, n. (2), 60 y 171-172.) En el alboroto y matanza de conventos que tuvo lugar en Toledo en 1467, el «fuego... quemó... todo el alcaná de los especieros hasta Santa Justa...» (Amador de los Ríos, **La Alcaná de Toledo,** p. 73). Sin duda se reconstruyó en sitio próximo o conservó ese nombre el resto del barrio comercial inmediato, pues sigue figurando hasta el siglo XVII. Sebastián de Covarrubias dice en su **Tesoro de la Lengua Castellana o Española** (primera edición de 1611) que el Alcaná es «una calle en Toledo muy conocida, toda ella de tiendas de mercería». Pisa escribe: «El Alcaná calle de Toledo toda de tiendas de tratantes» (**Descripción de la imperial ciudad de Toledo,** por el doctor Francisco de Pisa, f.º 12 v). Su situación era hacia el encuentro de las calles de la Trinidad y del Hombre de Palo, en el ángulo noroeste del claustro. Un documento toledano se refiere a la calle que pasa por Alcaná, cerca de Santa Trinidad (González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** III, doc. núm. 960, a. 1269, pp. 276-279).

(95) **Memorial de algunas cosas notables que tiene la ciudad de Toledo, año de 1576,** por Luis Hurtado Mendoza.

(96) En Valencia figuran en el Repartimiento «**operatoria**» entre los arcos de algunas puertas y **operatorium contiguum barbachane, porte Exeree** (Bofarull, **Repartimiento de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** pp. 287-288 y 483). Los **operatoria** que menciona el **Repartimiento** de Mallorca estaban casi todos cerca de la puerta de la ciudad: **in foro prope portam de Belbelet, in foro de porta de villa, ad portam de Marbeletth, forum portalis Bebalbelet** (Bofarull, **Repartimientos de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** pp. 117 y 122-125). Otros obradores se mencionan en la Almudayna de Mallorca, en el mercado de la puerta de la villa que llamaban Atarazana (**Memoria de los pobladores de Mallorca después de la última conquista por don Jaime I de Aragón,** por don Joaquín María Bover, pp. 25 y 33). En Málaga había en 1489 extramuros, y cerca de la puerta de la Mar, que era la de entrada del tráfico marítimo, varias tiendas (**Documentos históricos de Málaga,** por Morales y García Goyena, I, p. 9). En el **Libro de las posesiones desta cibdad,** 1537, leg. 4.º, que se conserva en el arch. del Ayunt. de Granada, figuran las siguientes partidas: «tienda entre las dos puertas q. bajan del Alacaba»; «tiendas entre la pta. del realejo a la pta. nueva».

(97) **Libro de la renta de los propios de la cibdad de Granada,** 1506.

(98) **Propios,** leg. 4.º

(99) **Libro de censos de propios,** 1528, leg. 1.º

(100) **Libro de las posesiones desta cibdad,** 1537, leg. 4.º

(101) Así describe las de Tánger Domingo Badía en la primera mitad del siglo XIX (Viajes de Ali Bey, p. 51).

(102) Tal disposición tenían los cierres de las tiendas de la Alcaicería de Granada antes del incendio que la destruyó en 1483 (**La Alcaicería,** por Indalecio Ventura Sabatel, pp. 131-132)

(103) Gabrieli, **Il trattato censorio di Ibn 'Abdūn,** p. 922.

(104) Cita de la obra **Vida española en la época gótica,** por J. Rubio y Balaguer, p. 38.

(105) **Ordenanzas para el buen régimen y gobierno de... Toledo,** cap. XXXIV, p. 23.

(106) Las tiendas situadas en torno de la mezquita y las adosadas a sus muros solían ser propiedad de ella. De la renta de la halagüela, es decir, de propiedad real, eran ocho tiendas que había en Granada en la plaza de Jatabín o Hatabín. Felipe I concedió licencia para derribarlas en 1506 con objeto de ensáncharla (Espejo, **Documentos para la Historia del Reino granadino,** apud **Rev. del Centro de Est. Hist. de Granada**

**y su Reino,** II, pp. 38-39). En Granada eran también del rey la mayor parte de las tiendas de la Alcaicería («Bienes de la agüela q. son de su magestad, 1552», manuscrito en el archivo del Ayuntamiento de Granada); cf. el reciente estudio y publicación de Villanueva Rico, María Carmen, **Habices de las mezquitas de Granada - Casas, mezquitas y tiendas**...

(107) «...tiendas cerca de la casa de la moneda incorporadas en el muro que está entre el río d. darro e la calle q. va a la pta. de guadix, alindan con la torre frontera al baño de palacios (el Bañuelo) y vuelan sobre el río sobre maderos» (**Libro de las posesiones desta cibdad,** 1537, leg. 4.º, manuscrito del Archivo del Ayuntamiento de Granada).

(108) Valencia: Bofarull, **Repartimientos,** pp. 310 y 316; Sevilla: Ballesteros, **Sevilla,** p. VI, doc. núm. 5, a. 1251; p. LX, doc. núm. 57, a. 1253; p. LXXVI, doc. núm. 73, a. 1255 (carta de Alfonso X a Rabi Yuzaf Çabazaz, su judío: «...una tienda en Seuilla, delas que son ante Sancta María de las que están tras las Espaldas de las Tiendas en que están los Judíos Cauiadores. Et esta tienda quel yo do, es la tercera Tienda de las que están cabo de la puerta del Arco gran o uenden la fruta, que ua contra las casas de don Remont Bonifaz et a cal de ffrancos. Et esta Tienda le do con su algorfa assi como la ouo en tiempo de Moros»); p. LXI, doc. núm. 58, a. 1253; p. CCCXXI, apénd. L, doc. de 1357, que se refiere a siete tiendas con sus sobrados, que estaban en Gradas, junto al arco de cal de Bayona (Arch. Cat. Sevilla, leg. 80, núm. 2).

(109) González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** vol. I, doc. núm. 29, a. 1141, pp. 20-21; doc. núm. 74, a. 1165, p. 52; II, doc. núm. 461, a. 1221, pp. 63-64. Volumen preliminar, p. 170.

(110) Ballesteros, **Sevilla,** doc. núm. 73, a. 1255, p. LXXVI; p. CCCXX.

(111) Bofarull, **Repartimientos,** pp. 560 y 647.

(112) Pedro de Alcalá, «cámara donde dormimos, **górfa, góraf,** cámara como quiera, **górfa, goráf**; cámara pequeña assí, **gorayfa, gorayfit**; celdá, cámara, **górfa, goráf**» (**Petri Hispani, De lingua arábica,** Pauli de Lagarde).

(113) Bofarull, **Repartimientos,** p. 120.

(114) Ribera, **Disertaciones y opúsculos,** II, pp. 300-301, 319-322 y 347-348.

(115) **Estudios malagueños,** pp. 388, 390 y 391.

(116) En 1481 se autorizó a los judíos y judías de la ciudad de Segovia a que saliesen «con su tiendas portátiles a las plazas e mercados de la dicha çibdad e sus arravales» (Fidel Fita, **La judería de Segovia,** p. 282). El gremio de cambiadores de Sevilla, en la segunda mitad del siglo XIII, establecía sus tiendas al aire libre en la plaza de Santa María, frente a la catedral (Cód. núm. 175, cart. XLI, f.º 59 v. Bib. Escurialense, según cita de Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. 203).

(117) En las **Ordenanzas** de Huesca, de 1349, figura una disposición mandando que no se cuelguen muestras en las tiendas que puedan dar en la cabeza a los jinetes: «ningún veçino de la ciudat non tienga taula ni alffacera delant so puerta a tan baxo que dé en la cabeça, nin faga enbargo a nuyl homme cavalgant» (Ricardo del Arco, **Ordenanzas inéditas dictadas por el concejo de Huesca** (1284 a 1456), p. 432).

(118) Gabrieli, **Il trattato censorio di Ibn 'Abdūn,** pp. 899-900 y 917-918.

(119) Colin y Lévi-Provençal, **Un manuel hispanique de ḥisba,** p. 40.

(120) Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane...,** pp. 188-189.

(121) Lévi-Provençal, **Le traité d'Ibn 'Abdūn,** pp. 256 y 262.

(122) Al-Maqqarī, **Analectes, edición** Dozy, I, pp. 134-135. El párrafo describiendo al almotacén en el mercado ha sido incluido por don Miguel Asín Palacios en su **Crestomatía de árabe literal,** fragmento 33, y traducido al castellano por O. Machado en **La España musulmana,** por Claudio Sánchez Albornoz, II, pp. 131-132; Lévi-Provençal, **Un manuel hispanique de hisba,** p. 19.

(123) Mozárabes y judíos en el concepto religioso desaparecieron de la España musulmana durante la dominación almohade; los eslavos ya no figuran a partir de la invasión almorávide.

(124) En la Granada nazarí solían ser subastadoras (José López Ortiz, **Fatwas granadinas de los siglos XIV y XV,** pp. 98-99).

(125) Hacia 1100 vendíase al pregón el carbón en Sevilla (Lévi-Provençal, **Le Traité d'Ibn 'Abdūn).** En la Toledo cristiana de los siglos XII y XIII citan los documentos mozárabes un pregonero, don Cebrián el Bacal, de un zoco de la ¿carne?; otro había del zoco del Alcaná; el judío Abuomar ben Israel era **dallāl** de los esclavos; figuran pregone-

ros de los verduleros, de las bestias, de los caballos; mesones y fincas vendíanse también mediante pregoneros (González Palencia, **Los mozárabes de Toledo,** II, doc. núm. 476, a. 1224, pp. 77-78; doc. núm. 608, año 1259, pp. 207-209; doc. núm. 653, a. 1277, pp. 253-254; doc. núm. 659, a. 1278, páginas 260-261; doc. núm. 690, a. 1286, p. 298; III, doc. núm. 944, a. 1199, pp. 242-244; doc. núm. 955, a. 1218, pp. 261-263; doc. núm. 960, a. 1269, pp. 276-279; doc. núm. 964, a. 1289, pp. 289-292).

(126) Julián Ribera Tarragó, **Orígenes del Justicia de Aragón,** pp. 71-76. Véase también sobre el almotacén: **El mercado,** por Luis G. de Valdeavellano, pp. 321 y 324-326. La función del almotacén está, perfectamente definida, en los fueros latinos de Cuenca, Teruel, Albarracín y otros. Acerca de dicha filiación cf. Chalmeta, P., **La figura del almotacén en los Fueros y su semejanza con el rabaroque hispanomusulmán.**

(127) No se ha estudiado, que yo sepa, las diferencias entre los mercados de las ciudades hispanomusulmanas de la Península y los de las cristianas, y la evolución de los de las primeras tras su conquista. Respecto a otros países, afirma Plessner la uniformidad de los zocos en todo el mundo islámico, puesto que las disposiciones que regían su funcionamiento derivaban de un derecho único de raíz canónica, frente a la variedad de los mercados cristianos, dependientes de autoridades locales que podían dictar disposiciones diversas respecto de su organización (**Encyclopédie de l'Islam,** IV, p. 531).

(128) Valdeavellano, **El mercado (Anuario de Historia del Derecho Español,** VIII, pp. 254-260). La cita más antigua de **azoch** en un documento cristiano dícese ser en 1117, en el Fuero de Uclés (**Ibidem,** p. 256).

(129) Julio González, **La Catedral de Salamanca y el probable autor de la torre del Gallo,** pp. 270-271.

(130) P. y A. H. Sampelayo, **Datos geológico-mineros de la zona de Betanzos,** p. 419.

(131) «Azoche», El Fuero de Madrid de 1202; documento de 1203 en el que se citan «unas casa in la Zoch» (F. Fita, **Madrid desde el año 1202 hasta el de 1227,** pp. 316-317).

(132) T. Ximénez de Embún, **Descripción histórica de la antigua Zaragoza,** p. 203; **Zaragoza histórica,** por Ricardo del Arco, pp. 23, 91, 96 y 142.

(133) Javier Fuentes y Ponte, **Murcia que se fue,** pp. 334. 206-207.

(134) Rodrigo Pertegás, **La urbe valenciana en el siglo XIV,** p. 289.

(135) Conferencia pronunciada en el Instituto Francés de Madrid el 24 de abril de 1947, sobre la **«Plaza mayor» en Espagne et en Amérique, son rôle historique et social.** Resumen en **Bulletin de l'Institut Français en Espagne,** núm. 18, mayo 1947, pp. 15-17.

(136) **Vida española en la época gótica,** por J. Rubió y Balaguer, pp. 25-26 y 30.

(137) Bejarano, **Las calles de Málaga,** pp. 99 y 110-111.

(138) Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 266. Más tarde, ampliada notablemente y reformada la de Bibarrambla, sirvió para este destino.

(139) **Descripción de la imperial ciudad de Toledo,** por el doctor Francisco de Pisa, f.º 30 v.

## الفصل السابع

## أسماء الشوارع والدروب والرحاب

من المعروف أن بعض المدن الأسبانية المسلمة، ولو أن عددها قليل، قد احتفظت مدةً ببعض أسماء الشوارع والرحاب في بعض الكتب التاريخية والمراجع المعاصرة، أو في مراجع أخرى تسبق تلك الفترة. وقد بقي ذكرٌ لبعضها حينًا حتى بعد السيطرة النصرانية، ذلك لأنها كانت مذكورة في بعض النصوص المسيحية. ونتيجة حالة نادرة من البقاء هناك أسماء مشوهة إلى حد ما، لبعض الشوارع (مثال ذلك: شارع "إلبيرة" بمدينة غرناطة الذي كان يعد المدخل الرئيس للمدينة الإسلامية في ذلك الوقت والمسيحية حتى القرن الحالي) وقد استمرت خلال ثمانية قرون. ومن أمثلة أخرى الـ"ثكاتين" (سويقة بيع الأقمشة القديمة) بمدينة غرناطة، ورحاب سوق الدواب (سوق المواشي) بمدينة طليطلة، وكذلك الشارع الرئيس "الشريعة" بمدينة بلنسية الذي استمد تلك التسمية من وجود المصلّى فيه المذكور في كتاب **توزيع المدينة** وقد استمر بنفس التسمية «إكساكريا» حتى اليوم[1].

كما وجد بمدينة قرطبة شارع الخياطين Altayates المعروف بهذا الاسم؛ ولا نعلم أكان هذا الاسم مستمداً من نوع من الأعمال التي كانت تتم في العهد الإسلامي، أم اتخذ الشارع هذه التسمية في وقت لاحق بعد حرب الاسترداد.

ويفترض المؤلف «كاستخون» Castejon أن تسمية السويقات استمرت حتى الآن لتحديد اسم شبكة من الأزقة الموجودة حالياً بتلك المدينة. وترجع أسماء شوارع بعض المدن إلى عرضها غير العادي أو إلى أهميتها، مثال لذلك: الحارة المايور La Hara Mayur (الحارة الكبرى) بمدينة أشبيلية في أواخر القرن الثاني

عشر، بالإضافة إلى الزقاق الكبير بمدينة قرطبة[٢].

ومن المرجح أيضاً أن الشـارع المعروف باسم الشارع الـرئيس (بيكو مايوري باللاتيني Vico Maiori) في مدينة مـرسية بعد انتـزاعها بفـترة قليلة سنة ١٢٦٦ ليس إلا ترجمة للتسمية العربية[٣].

وهناك شوارع أخرى ورحاب كانت تستـمد أسماءها من اسم عائلة أو مـن شخـص ذي نفوذ يسكـن أو سكـن بذلـك الشـارع؛ مثال ذلك شارع عائلة ابن غناشب Beni Gnachib أكـثر الشـوارع ازدحـاماً من الشـوارع الواقـعة خـارج الأسوار بمدينة بلنسية فـي القرن الثالث عشر، وهو المعروف حاليًا بشـارع سـان بيسـنت San Vicente[٤]؛ وكان في نفس المدينة، لما سيطر عليها «السِّيد»، شارعُ ابن جحاف الذي اسـتمد اسمـه من أحد القضاة النبلاء بمدينة بـلنسية، والذي وجدت به منازلهم الخـاصة، وقد اسـتمرت هذه التسـمية إلى أن انتـزع خايمي الأول المدينة[٥].

وعلى غرار الحال في المدن المسيحيـة إبان القرون الوسطى فقد سُميت بعض الشوارع باسم المهن والنقابات التي اسـتقرت فيها أو باسم الصنـاعة أو التجارة الواقعة فيها. ومن أمثلتها: شارع السقّاطين في غرناطة، وشارع الخياطين بمدينة قرطبة الواقع شرقي المسجد الجامع؛ وربما شـارع الخياطين بمدينة أشبيلية المذكور سنة ١٣٩٥ بأنه الواقع على حدود القيصرية[٦]، وشارع العطارين بمدينة بلنسية سنة ٦٢٤[٧] وشارع الحطابين بمدينة غرناطة الذي استمر بهذا الاسم حتى القرن السادس عشر، وقد عُرف فيمـا بعد بشارع «سان خيل» وهو الذي يشغل حالياً جزءًا من مساحـة الرحبة الجديدة[٨]؛ وشارع الجزارين بمدينة قرطبة[٩]؛ وشارع العطارين المذكور بمرجع من مـراجع مدينة أشبيلية سنة ١٣٥٩ الذي يُعـتقَد أنه

واقع بالقرب من كنيسة «سالبادور» أي التي كانت المسجد الجامع القديم[١٠]. وكان في مدينة غرناطة سنة ١٤٩٩ رصيف للحلاقين واقع بالقرب من نهر الدارو، وهو مذكور في نص عربي[١١]. كما كان بمدينة قرطبة أيضاً شارع لبائعي الأقمشة[١٢].

وقد يتكرر استمداد الشوارع والرحاب أسماءها من الأحياء أو الأرباض التي هي فيها أو التي تتجه إليها. ومثال لذلك "زقاق الشابُلار" بمدينة قرطبة الواقع دون شك في الربض الشرقي المدعو بالشابُلار[١٣].

كما وجد بمدينة سرقسطة إبان القرون الوسطى شارع يسمى بشارع السوق وهو دون شك تذكار لسوق أو متاجر أقيمت ربما في العهد الإسلامي.

وقد استمدت الشوارع العابرة للأسوار أسماءها أحياناً من أبواب المداخل التي كانت تمر بها، ومثال ذلك الرحبةُ الواقعة في مدينة غرناطة التي احتفظت بتسميتها القديمة خلال القرن السادس عشر، وهو "باب البنود" الواقع بمنطقة البيازين الذي اشتهر في أثناء فترة تمرد الموريسكيين[١٤].

وكان في مدينة غرناطة في القرن الخامس عشر "زقاق الكحل" الذي كان يؤدي بلا شك إلى "باب الكحل" أحد الأبواب الواقعة على سور المدينة، ولا ندري شيئاً عن موقعه[١٥]. وكان في المدينة نفسها شارع "سقاية الحَبّة" كما يتبين من معلومات العقدين المؤرخين في أواخر ٨٩٨/ ١٤٩٢ ـ ٨٩٩/ ١٤٩٣ الخاصين بأعمال الشراء والبيع. ويبدو أنه كان يقع بالقرب من كلية سانتا كروث المعروفة اليوم بكلية "سانتو دومينجو"[١٦].

**قرطبة.**

كان في قرطبة أيضًا "زقاق دُحَيم"[١٧] الذي كان يؤدي إلى مقبرة ابن أبي

العباس الوزير؛ وهناك أيضًا رحبة عَزيرَة Azira[١٨]. وكذا المسكن الذي كان يسدّ شارع النشّارين في الضاحية الخارجية لمدينة قرطبة في عهد الأمير عبد الرحمن الثالث[١٩]. وعثر بشارع الجزارين على جثة بداخل قُفّة في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم[٢٠]. وفي عهد الأمير عبد الله ذكر شارع المبطلة al-Mubtillah، وكان يبدأ طرفه من باب عبد الجبار المهدم وينتهي طرفه الآخر في المنطقة الوعرة شرق مدينة قرطبة[٢١].

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم كان هنالك شارع محمد بن شراحيل المعافري، وهو ينسب إلى القاضي المذكور، ومثله أيضًا أحد المساجد[٢٢]. وكان المتبطلون (وعددهم غير قليل) يجتمعون بشارع معروف بدرب ابن زيدون (وهو يُنتمَى دون ريب إلى الشاعر المشهور ابن زيدون). كما ذكر أيضًا درب الزَّجّالي[٢٣].

وذُكر في عهد عبدالرحمن الأول درب الفضل بن كامل darb de Afadal ben Ca`mil، ورحبة عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية. وشارع بائعي الأنسجة[٢٤] و"مَحَجّة فَحْلون"[٢٥]، وزقاق شُبُلْتاري[٢٦]؛ وزقاق زُرعة الذي كان يؤدي إلى شبُّلار[٢٧]؛ ودرب أبي الأشهب[٢٨]؛ ورحبة ابن دِرْهَمَين[٢٩]؛ وسويقة القُومس[٣٠]. ورحبة قُريش في مدينة قرطبة حيث ضلت طريقها الفتاة الجميلة زينب[٣١].

**إشبيلية.**

في مدينة إشبيلية كان أحد القضاة يملك منزلاً في عهد عبد الرحمن الثاني في حي بأحد أطراف العاصمة، حيث كان يَمُرّ به الطريق المرصوف بشارع "المجرانا" Magrana[٣٢].

وهناك احتمال كبير أن شارع العطارين الذي ذكر سنة ١٣٥٩ ، الواقع بالقرب من سان سالبادور، كان يحمل نفس الاسم في العهد الإسلامي(٣٣).

ولتوسيع صحن المسجد الجديد أمر أبو يوسف بهدم المباني التي كانت تحيط بسويقة إشبيلية المعروفة لدى كبار السن من السكان باسم "رحيبة الكلابو" plazuela del Clavo(٣٤).

**مدينة لشبونة.**

كان في هذه المدينة شارع المغامرين los Aventureros بالقرب من الحمامات الساخنة(٣٥).

**مدينة مرسية.**

وجد فيها الطريق العام المعروف "برَبَّاك الحوميت" Rabak Alahumet(٣٦) ومن المحتمل أن كلمة (ربَاك) تعني الربض أو الضاحية أو الرَّحْبة أو الميدان.

**مدينة سَرَقُسْطة.**

وُجد فيها شارع "أبو خالد" الواقع في ربض "سيناتشا" Sinhacha (صنهاجة) في الجزء الغربي من المدينة - وقد ورد له ذكر في عقد شراء منزل باعه عربي لآخر (دون تاريخ وذلك بعد انتزاع المدينة بمدة قصيرة)(٣٧).

**مدينة ميورقة.**

يبين كتاب "**التوزيع**" لـ"بوفارول" الأسماء اللاتينية الآتية: "«زقاق بيل بيكم لعمر أبي ناجية zucaq vel vicum de Homar Abennagia»، وزقاق "القائد" zucaq Alcaid (ص ٦٥)، وزقاق "أبو عمران" zucaq Abombram (ص ٦٤)، وشارع ابن باربا vico de Abenbarba، وشارع دابن ألبوا vico de Daben Alpua،

وشارع عــمر بن حازم الغالب بن مــحمد (السويقــة) بباب الحلّة vico de Hom- ariben Hacem Algelub Azzueca [?] Bibeb Alhelet، وشــارع "راوثابــة" ابن علي الفُرِّي الخَـلاَفة vico de Raozoba Aben Ali lle Forri Alcalafat (ص ٦٦)، والشارع المعروف بألياف، وطريق حازم (ص ١٢٦)، وطريق دابنسير carraria Dabensir، وطريق ابن شـــبـيب، وطريق العطار، وطريـق الكتّـاب carraria de Aliquizab (ص١٢٧)، وشــــارع درب ابن دابوشِك vico de Dabchec، وشــارع مـــوسى القاري، وشارع عون بن بحار Onabenrropehaer.

وهـناك شـارع من شـوارع مـيورقـة سـمي باسم شخـص عـربي بـارز من أهـل الجزيرة معروف باسم عمر بن شـرى[٣٨].

**مدينة وادي آش (جواديكس).**

كان الـشُّشْـتَري الشـاعر الأندلسي مـدفونًا بمدينة دمـياط بمصـر (١٢١٢ - ١٢٦٩)، وكتـابه عن الحسبـة يشير، وفـقاً لاعـتقاد ابن ليـون، إلى اسم زقاق الشُّشْتَري (وهو المصطلح الذي ظل مستعملاً حتى الآن في اللهجة المحلية لـمدينة توسـتـار بمقاطعــة سوسيـانا). كما كـان في مدينة وادي آش (جــواديكس) زقاق الشُّشْتَري في الضاحية المعروفة بهذه التسمية لدى بعض المهاجرين الفارسيين[٣٩].

**مدينة طليطلة.**

كان بها سوق الدواب Zocodover.

**مدينة إشبيلية.**

بها شارع الخياطين Alfayates سنة ١٣٩٥م[٤٠].

**مدينة غرناطة.**

في مدينة غـرناطة في القرن السادس عشـر شارع معروف بشــارع "هنتار"

Hantar. وهذه التسمية القشتالية تطابق المصطلح العربي: شارع "الشنترة" Saw-tar، ومن المحتمل أن الـشارع المذكور قد استـمدّ اسمه من الحـمام الموجود به (حمّام الشنترة) Santar، وقد ورد اسمــه في كتاب **الأوقاف**[41] وكان موقـعه بالقرب من شارع الأبراج على أرض رعية "سانتا ماريا دي لا أُو"[42].

وفي غرناطة سوق ثكاتين Zacatin أو سوق الرقـاعين. ويوجد بمدينة سبـتة زقاق الحطاب أو "شارع الحطاب".

وقـد نزل المؤرخ "أندريـا ناباخـيـرو" بشـارع الدباغين إبـان مُـقـامــه في غرناطة[43]. وفي المدينة المذكـورة زُنقة القُلُنْبَـيْري أو شــارع كولومـيرانو Co-lomerano[44]. وبها أيضًـا شارع ابن عمـر "أو الدرب المسدود المتـصل بشارع "ابناماس Avenamas"، هذا بالإضافة إلى المنازل الرئيسة التي تحولت اليوم إلى مستـشفى الإحسان والملـجأ (عام ١٥٣٢)[45]. وفي سنة ١٥٥٤م استقرت في بعض منازل شارع "ابناماس" بمدينة غرناطة رهبانية اليسوعيين[46]. كما أن في المدينة بعد انتزاعها بفترة قصيرة (الرحـبةَ الطويلة) المعروفةَ برحبة البيازين، وقد كانت معروفة في فترة سابقة "بالرحبة الكبرى Almajura"[47].

وكان بغرناطة في أواخر القرن الخامس عشر ـ عام ١٤٦٦ ـ شارع، أو عدة شوارع، باسم شـارع الكحل أو "زنقة الكحل"[48]. وقد سمـي شارع "سان ماتيـاس" بشارع الشـبين Axibin[49]. وكذلك شـارع "دار بالكاتا" Darbalcata المعروف بشارع الصبغ[50]. ورحبة سان خـيل المعروفة في فترة سابـقة برحبة الحطّابين[51]. وفي غرناطة سنة ٨٧١ هـ/١٤٦٧م أيضـا شارع ابن لبّاج Lab-bay الذي كان يسمى بشارع "ابن لاباش" Abenlapache في القرن السادس عشر ـ ولم يُحدد موقعه حتى الآن ـ[52]. وشارع سِقاية الحَبَّة القريب من دير سانتا

كروث المعروف اليوم بشارع "سانتو دومينجو"(٥٣).

وكـان بمدينة غـرناطة في العـهد الإسـلامي أكـثر من شـارع يحـمل اسم السَّقـاية، ويمتد اليـوم شارع السـقاية Azacaya من شارع إلبـيرة حـتى رُحيـبة البوكيرون.

وهناك شـوارع أخـرى في غرنـاطة اتخذت التـسـمـيات الآتـية: شـارع "الشنشكايرين" Chinchicayrin، و"شـارع خـيليـش" Gelices المعـروف أيضـاً بشارع خيلـيس مينـاليمـان Gelies Minaleyman، وشارع العطارين.

(1) Ribera, **Disertaciones y opúsculos. La Xarea de la Valencia musulmana,** II, p. 329.
(2) **Al-Sila,** pp. 187, 241, citado por E. Lévi-Provençal, **L'Espagne...,** p. 209, y Ibn Idārī (**Bayān,** II, p. 78; trad. Fagnan, II, p. 123.
(3) Ballestero Beretta, **Itinerario de Alfonso X, rey de Castilla,** p. 429.
(4) Ribera, **Disertaciones y opúsculos,** II, **La nobleza árabe valenciana,** p. 228.
(5) R. Menéndez Pidal, **La España del Cid,** II, p. 454; Ribera, **Disertaciones y opúsculos, La nobleza árabe valenciana,** p. 218.
(6) Antonio Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. CCCXXXVIII. Leg. 79. Archivo Catálogo de Sevilla.
(7) Ribera, **Enterramientos árabes en Valencia,** en **Disertaciones y opúsculos,** II p. 259.
(8) Mármol, **Historia del rebelión,** t. I, p. 222; Gómez-Moreno, **Guía de Granada,** pp. 200 y 315.
(9) **Historia de la conquista de España de Abenalcotía el Cordobés,** trad. de don Julián Ribera, p. 55.
(10) Antonio Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. CCLXVI.
(11) Mariano Gaspar Remiro, **Escrituras árabes de Granada,** p. 9.
(12) Ribera, **H.ª Jueces de Córdoba,** pp. 203-204.
(13) **Al-Sila,** pág. 244.
(14) Mármol, I, pp. 116-117-119, 150, 222, 240.
(15) G. Lévi Della Vida, **Il regno di Granata nel 1465-66 nei ricordi di in viaggiatore egiziano,** p. 324.
(16) Luis Seco de Lucena, **Documentos árabes granadinos:** I, Documentos del colegio de Niñas Nobles, pp. 424-429.
(17) **Al-Sila,** p. 246.
(18) **Al-Sila,** p. 257, on y enterra en 415 (15 mayo 1024-3 mayo 1025) un savant cordouan dont on n'osa pas emmener le cadavre au cimetière à cause de la terreur que los Berbères faisaient règner dans la ville; E. Lévi-Provençal, **L'Espagne... au Xème siècle,** p. 209.
(19) **Al-Maqqārī,** adap. Gayangos, II, p. 147.
(20) Ribera, **Historia de la conquista de España de Abennalcotia,** p. 55.
(21) Guraieb, **«Al-Muqtabis» de Ibn Hayyān,** Cuadernos H. E., XV, p. 168.
(22) De Ibn al-Qutiyya († 367), en Fagnan, **Extraits inédits,** p. 206.
(23) Lévi-Provençal, **Arabica Occidentalia,** I, pp. 50-52, r. VII.
(24) Ribera, **H.ª Jueces de Córdoba,** texto, pp. 40, 47 y 164; trad., pp. 50-57 y 204.
(25) **Al Sila,** p. 481.
(26) **Ibidem,** p. 244.
(27) **Ibidem,** p. 254; Ibn al-Faradī, II, p. 78.
(28) **Ibidem,** I, p. 181.
(29) **Ibidem,** pp. 275, 562.
(30) **Ibidem,** p. 196, y Lévi-Provençal, **L'Espagne musulmane au Xème siècle,** p. 209.
(31) B. A. H., X, p. 133; Miguel Asín Palacios, **El original árabe de la novela aljamiada «El baño de Zarieb»,** p. 386.
(32) Ribera, **Jueces de Córdoba,** p. 98.
(33) Leg. 38, Arch. Cat. de Sevilla; Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. CLXXVI. Documento de 1327, el adarve de Aben Manda (Legajo 41, núm. 1, S. Salvador, Arch. Cat. de Sevilla. Boll. p. 222, núm. 1). Ibn al-Abbār en la **Takmila** (biogr. 1013) menciona la calle de los Libreros en Sevilla (Julián Ribera y Tarragó, **Bibliófilos y Bibliot. en la España musulmana,** en **Disertaciones y opúsculos,** I, p. 208.
(34) Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. 123.
(35) Al-Idrīsī, texto, p. 184; trad. p. 223.
(36) Miret i Sans, **Itinerari de Jaime I «el Conqueridor»,** p. 338.
(37) R. G. de Linares, en **Homenaje a Codera,** p. 175, núm. 2.
(38) Joaquín María Bover, **Memoria de los pobladores de Mallorca después de la última conquista por Don Jaime I de Aragón,** p. 48.

(39) L. Massignon, **Investigaciones sobre Šuštarī, poeta andaluz, enterrado en Damieta**, p. 32.

(40) Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII**, Leg. 79, Arch. Cat. Sevilla, p. CCCCXXXVIII.

(41) Folio 40 v, núm. 365, publicado por Villanueva Rico, M.ª Carmen, **Habices de las mezquitas de Granada.**

(42) Luis Seco de Lucena, **La familia de Muḥammad X el Cojo, rey de Granada,** p. 381, núm. 1.

(43) Fablé, **Viajes**, p. 306.

(44) L. Seco de Lucena, **De Toponimia granadina**, p. 83.

(45) Angulo Iñíguez, **La pintura en Granada y Sevilla hacia 1500**, pp. 86-87.

(46) Gómez Moreno, **Guía de Granada**, p. 382.

(47) **Ibidem**, p. 482.

(48) G. Lévi della Vida, **Il regno di Granata nel 1465-66 nei ricordi di un viaggiatore egiziano**, p. 324.

(49) Gómez Moreno, **Guía de Granada**, p. 205.

(50) **Ibidem**, p. 312-313.

(51) **Ibidem**, p. 315.

(52) L. Seco de Lucena, **Documentos árabes granadinos**, pp. 419-420 y 422.

(53) **Ibidem**, pp. 424, 426-427 y 429.

## الفصل الثامن

## الشوارع الرئيسة والشوارع الثانوية

كان الشارع يسمى بالأسماء الآتية: زقاق (الجمع أزقةٌ وزُقّانٌ) وزَنقة وطريق. وبقيت التسمية في بلنسية حتى أواخر القرن الرابع عشر عام ١٣٧٢ لأنها كانت معروفة بنفس الاسم مع التعديل الطفيف "السوكاش" asucach (أي الزقاق)[١].

وكانت الشوارع الرئيسة توصّل، كما قيل قبل، إلى بوابات سور المدينة الواقعة في الاتجاه المضاد مارة بالنواة السكنية المركزية التي كان يتوسطها عادة المسجدُ الجامع والمركزُ التجاري المهمّ الواقع داخل "القيصرية". فوجود هذه الأماكن بالإضافة إلى وجود المسجد الجامع مع حركة المرور والمسافرين الداخلين والخارجين عبر تلك الشوارع، كل هذا كان يجعل البلدةَ مزدحمة وصاخبة.

وقد أطلق على الشارع الرئيس في المدينة اسم الشارع الأكبر Mayor على غرار المدن المسيحية. والشوارع التي كانت تحمل ذلك الاسم، كما نعلم، نجدها في المدن الآتية: قرطبة، وإشبيلية، وميورقة، ومرسية، والجزيرة، وسبتة. وكانت تلك الشوارع داخلَ أسوار المدينة على امتداد الطريق الرئيس الذي كان يختلف إليه السكان والمؤدي إلى المدينة.

وبقي من تلك الشوارع بعضُ الآثار حتى الآن في مخططات بعض المدن. ففي مخطط مدينة قرطبة تمكنوا من التعرف على تصميم الشوارع التي كانت تعبر المدينة وتُوصل إلى الأبواب المتقابلة وهي: الشارع الرئيس الذي كان يتجه من الشمال إلى الجنوب، ابتداءً من باب الأساريو Osario، أو باب "ليون" (باب العيون)، ماراً بشارع خيسوس وماريا الحالي ثم ينحدر إلى أسفل من تل

"بدريجوسا" Pedregosa، ثم يمر بين القصـر والمسجد الجامع ويمتـد من خلال باب الجسـر (أو باب القنطرة). وكان يُطلق على هذا الشـارع اسم "الـمَحـجَّة العظمى"، وكان يمـر من داخل الساباط Sabat أو الممر الذي كان يـصل القصر بالمسجد. والشارع الآخر كان يخترق أيضاً المدينة ولكن في اتجاه الشمال الغربي متجـهاً إلى الجنوب الغربي ابتداءً مـن باب جايجوس Gallegos (أو باب عامر) إلى "باب الحديد" ماراً بالشـوارع التـي تسمى حاليًا كونثبـثيون Concepcion، وجوندومـار Gondomar، وألفونسو الثالث عشر، إلى شارع ثباتريا Zapateria، ثـم يمتـد إلى خارج المدينـة مـاراً بالزقاق الكـبير Zuqaq al-Kabir[٢].

وكان لمدينة غـرناطة الإسلامية طريقـان رئيسان: شمـال/ جنوب، وشرق/ غرب"، «وكان الطريقان يعبـران وسط المدينة دون التواءات أو كسور»، وبقيت آثارهما حـتى القرن السادس عـشر. وكان الطريق الأول يبـدأ عند باب الرملة (ببارملة) Bibarrambla ماراً بالسويقة Zacatin، وهو الشارع الرئيس للتجارة، ثم برحبـة الحطّابين (المعروفة فـيما بعـد بالرحبة الجديـدة) ثم بطريق نهر الدارو، وينتهي بباب وادي آش Guadix. أما الطريق الثاني المتجه من الشرق إلى الغرب، فكان يبـدأ عند باب إلبيـرة مـاراً بالـشارع المـعروف بهـذا الاسم ثم برحبـة الحطابين ثم بـ"تورنريا Tornería" وبشـوارع: لاكـولشـا La Colcha، وسـان فرانسيسكو، وسـانتا أسكولاسـتكا، ولوس ريالخـوس. وينتهي بآخـر شارع سانتيـاجو عند باب الطاحونة[٣]. وربما أن باب الطاحونة هو الباب المذكور في ترجـمة رسـالة عربيـة مؤرخـة في ٨٧٣/ ١٤٦٨ ـ ١٤٦٩، وقد حـررت تلك الترجمة عام ١٥٤٨، وكان يسمى بالباب الملكي[٤].

ومن ضمن بقايا شـوارع إشبيلية في العهـد الإسلامي الشارعُ الطويل الذي

يطلق عليه اسم "حارة مَيُور" HARA MAYUR أي الحارة الكبرى؛ وقد بُني فيه بأمر الأمير الموحدي أبي يعقوب يوسف خزانٌ للمياه التي كانت تصل إليه بأنابيب كارمونا Carmona، وافتتح ذلك الخزان في جمادى الآخرة من سنة ٥٦٧ الموافق ١٢ فبراير ١١٧٢[٥]. ومن الأرجح أن ذلك الشارع هو الذي يطلق عليه المؤرخ بيراثا شارع "ريال" أي الشارع الملكي، ويذكر ذلك المؤرخ أنه كان يقسم المدينة في القرن السادس عشر إلى جزأين؛ يبدأ بباب الأرينال ويمتد خلال "لاس جراداس"، ماراً بشارعي بلاثيتينوس وفرانكوس، وبرحبة سان سالبادور، وبرحبة أسبارتريا، وبالشوارع الآتية: ألوندجا، وسان ماركوس، وسانتا مارينا، وسان خيل، وينتهي عند باب مكارينا (باب مكرانة)[٦]. ويؤكد جونثالث دي ليون أنه كان الشارع الرئيس في إشبيلية: «ويمكن القول إنه كان شارعاً مستقيماً إلى حد ما مبتدئاً من الكاتدرائية ماراً بشارع "أبادس" Abades منتهياً عند باب مكارينا، فكان يمتد على طول المدينة تقريباً من الجنوب إلى الشمال»[٧].

وفي مدينة بلنسية، بعد انتزاع خايمي الأول لها مباشرة، شارع من شوارعها الرئيسة كان مستقيماً على نحو غير معهود في المدن الإسلامية، على عكس العديد من الحارات الموجودة بالمدينة، وكان بعضها مزوداً بقباب. ويوضح كتاب **توزيع المدينة** أن "جميع الأرباض كانت من طرف إلى آخر كالطريق المستقيم، كالذي كان يصل بين باب الشريعة و«باب إلبيرة»[٨]. ووجد أيضاً الشارع الكبير Magnus Vicus في ميورقة كما يبين كتاب **توزيع المدينة**[٩].

وقد مر تصميم مدينة ألمرية في القرون الوسطى بفترات انحطاط كبيرة وتعرضت المدينة لعدد من الزلازل والإصلاحات المدنيّة التي غيرت تصميمها

التابع للـقرون الوسطى جذريًا، وعلى الـرغم من ذلك يوجد في أيامنا الحـالية شارع من شوارع المدينة يســمَّى شارع ريال المدينة Real del la Almedina، وكان فيه المســجد الجامع في فتـرة سابقة، ومن المعتـقد أنه كان يتبع تصــميم الشارع الإسلامي.

وفي سنة ١٢٦٦ بعد انتــزاع مدينة مـرسية مــباشرة قـام الملكان دون خايمي الأول ودون ألفونسو العاشر بتـسليم بعض المنازل لأحد حجاب الملك، وكانت ملكـاً لشــخص يدعى مـحمــدًا؛ وتقع تلك المنازل في الشــارع الرئيس in vico Maiori، ومن المؤكد أن اسم هذا الشارع ليس إلا ترجـمة للاسم العربي[١٠]. ويعتقـد أنه الشارع المذكور بمؤلفات المؤرخ "مــونتانير" Muntaner الذي قال «إن ذلك الشارع كان يمر وسط مدينة مرســية، وكان من أجمل طرق المدينة ليس له مثيل في أية مدينة أخرى: كان كبيرًا واسعًا، يمتد من السوق المؤقتة الواقعة أمام "برديكادورس" حـتى الكنيســة الكبرى لسانتــا ماريا"، ويوجـد بذلك الطريق محلات الدباغة والصرافة وبيع الأنسجة والعديد من المهن الأخرى»[١١].

ويُذْكَرُ اسم الشــارع الأكبــر العام via majori publica في كتاب **توزيع مدينة الجزيرة** الصادر سنة ١٢٤٩ بعد وقوع المدينة تحت سيطرة المسيحيين[١٢].

وكان في مدينة سبتة الشارع الأكبر أو الشارع النبيل calle Mayor o noble عند سيطرة البرتغاليين عليها سنة ١٤١٥م. وكان يسمى بزقاق ابن عيسى، نسبة إلى القاضي أبي عبد الله (بن عيسى) التـميمي. وهو يقسم الـمدينـة إلى جـزأين، وكان شــارعًا واسعًــا يقطـن فيه بعـض الشــخصيــات البارزة[١٣]. ولعلـه هـو "الطريق المباشر" المـذكور بمؤلفات "ثورارا" Zurara وكتب المؤرخين البـرتغاليين الآخرين، وقد استقر فيه الأثرياء من التجار بمتاجرهم[١٤].

ومن الممكن أن نتعرف اليوم على تصميم الشارع الرئيس الذي كان يعبر مدينة مالَقة من الشرق إلى الغرب، والذي يمتد جزء منه في شارع غرناطة المعاصر. وكان يمتد من «القصبة إلى الموقع الذي كان معروفًا بالحصن، وقد فُتح فيه البابُ الجديد فيما بعدُ، وتفرع من هذا الشارع ثلاثة شوارع أخرى مختلفة، كما يوضح التصميم المعاصر، أحدها قادم من الجزء الشمالي، وثانيها متفرع في اتجاه البحر، وثالثها يمر بالرحبة الرئيسة المسماة برحبة الشوارع الأربعة، كما كان يعرفها الغزاة المسيحيون، علمًا بأن الطرق الرئيسة كانت تنتهي بهذه الرحبة»(١٥).

وكان يوجد في داخل كل حي أو ربض مهم طريقٌ رئيس. ولما دخل بعض الفرسان المسيحيين من مدينة أندوخار Andujar سنة ١٢٣٦ الربضَ الشرقي لمدينة قرطبة، مقدّمةً للاستيلاء عليها، «قاموا بإغلاق جميع شوارع ربض "الشرقية" باستثناء الشارع الرئيس المستقيم الذي لم يغلق بغرض مطاردة العرب»(١٦). وفي المجموعة السكنية أو الربض الواقع خارج أسوار الشريعة بمدينة بلنسية يذكر كتاب توزيع تلك المدينة اسم الشارع الأكبر للشريعة(١٧)، الذي احتفظ بالتسمية الحالية "أكسوريا" Exarea (ويمتد من شارع لاكونجرجاثيون إلى عتبة المعبد)، ويُذْكر كذلك الشارع الأكبر لربض شاطبة Jativa كحد للامتياز الذي منحه دون خايمي الأول سنة ١٢٥١ للسكان المسلمين القاطنين بذلك الربض(١٨).

وللمراجع التي تتحدث عن سعة الشوارع أو ضيقها دون مقاييسَ معينة فائدةٌ قليلة، لأنه يُجْهل حد المقارنة المستعمل في وصفها. وفي النصف الأول من القرن العاشر يقول "الرازي" إنه كانت تكثر بمدينة "بيخار" Bejar الشوارع

الجميلـة والواسعة[19]. وبعد التاريخ السابق بـقرنين يذكر الإدريسي أن شوارع مدينة سرقسطة واسعة[20].

وفي عام ١٥٢٦ لم تكن شوارع مدينة إشبيلية المسلمـة قد خضعت لتغيرات كبيرة، فقد وصفها المؤرخ ناباخيرو Navajero بأنها كانت واسعة وجميلة؛ ومن الأرجح أن للمناخ الرطب الحار تأثيراً كبيراً على تصـميمها بحيث تكون أوسع من المدن الأخرى.

وهذه كـانت حالات نادرة؛ وهناك أقـوال أخرى عكسـية تشـير إلى ضـيق الشـوارع، وترد تلك الأقوال منـذ أواخر القـرن الخامس عـشـر حـتى الفـتـرة الكلاسيكـيـة الجـديـــدة Neoclasico لـ" أنطونيو بونث". وذكـر كاتب العدل الميورقي بيـدرو ليليتـرا، الذي دخل مدينة مالقـة بصحبـة الملكين الكاثوليكيين لاسـترداد المدينة سنة ١٤٨٧ «أنه لم يـكن فيـها إلا شـارعان أو ثلاثة شـوارع واسعة إلى حد معقول؛ أما باقي الشوارع فـهي كئيبة وضيقة جداً إلى درجة أن فارسًا من الفـرسان الأقوياء يتمكن بالكاد من التحـرك فيها»[21]. أما شوارع البيازين بغرناطة كما يصفها منزر سنة ١٤٩٤ «فإنها كانت ضيقة حتى إن غالبية الطوابق العليا كانت تتلامس. وبصورة عامـة يضيق الشارع ولا يتمكن حماران من المرور معًـا، هذا باستثناء أشـهر الشوارع التي تبلغ سـعتهـا أربعة أذرع أو خمسة بحيث يمـر جوادان متقابلان معاً»[22].

ويبين كتاب **لوائح مدينة غرناطة** في النصف الأول من القرن السـادس عشر «ضيق الشوارع والرحـاب فيها»[23]. ويؤكد لويس دي مارمـول في آخر القرن السابق ذكره عن شوارع غرناطة «إنها كانت ضيقة جداً حتى كان بوسع المرء أن يلمس بيده النافذة المقابلة لنافذته، وكان هناك عـدد من الأحياء الضيقة لا يتمكن

الفارس الحامل لرمحه من عبورها. فمن عادات المسلمين عند بناء منازلهم أن يتركوا فتحات صغيرة في بعض المنازل لإخراج الرماح منها، ويقول المدجنون إنه كان من ضمن عاداتهم في بناء المساكن الحفاظ على متانة المدينة لحمايتها»[٢٤]. ولم تخضع خطوط التصميم في "شارع إلبيرة" بغرناطة إلا لتعديلات طفيفة، كما يبدو، منذ القرن الخامس عشر وذلك عندما كان هذا الشارع معروفًا بنفس الاسم. ويمكن أن يقدم هذا الشارع فكرة عن مقاس أهم طرق المدن الأسبانية المسلمة. وفي سنة ١٥٢٦ وصف "أندريس ناباخيرو"، السفير الفينيسي السابق ذكره، هذا الشارعَ بأنه كان رئيسيًا وواسعًا إلى حد ما وطويلاً؛ وخلال القرون الأربعة التالية للتاريخ السابق حتى اليوم لم تنقرض أجزاؤه الضيقة والأجزاء غير المنتظمة. وعلى الرغم من ذلك ظل الشارع حتى بوادر القرن الحالي من أهم الطرق الخارجية لدخول مركز المدينة. ولم يكن الشارع الآخر الذي يخترق المدينة من شرقها إلى غربها أوسع منه.

وهناك أحياء في مدينة إشبيلية، كالحي القريب من القصر، احتفظت بحاراتها الضيقة حتى القرن التاسع عشر، ومنها حارة "أتاود" Ataud التي لا تتسع طرقاتها إلا لشخص واحد. وكذلك شارع "تراسبولسو" الذي كان يصل بين شارع لاس دونثيلياس Doncellas ورحبة رفينادورس Rafinadores، الذي كان يعسر فيه مرور شخصين معًا. والشارع المعروف منذ القدم بشارع العطارين الخاص بالنساء، وكان هو الممر بين رحبة الخبز وشارع أنسلاديروس، وكان ضيقًا جدًا[٢٥]. وهناك حارات مماثلة له هُدمت قبل منتصف القرن الماضي في الجزء الجنوبي الشرقي لسور المدينة. وقد ذكر الكاتب "لوثيو مارنيو سيكولو" في السنوات الأولى للقرن السادس عشر أن مدينة طليطلة «يوجد بها عدد من

الشوارع الضيقة المسطحة إلى حد ما. . . يصعب فيها المرور»[٢٦].

وفي القرن السابع عشر، في الفترة التي شهدت فيها مدينة مرسية ازدهاراً واسع النطاق وثروة بالغة اضطر أهل المدينة إلى توسيع عدد غير قليل من شوارعها. وكان عرض بعض تلك الشوارع قبل التوسعة يبلغ ٥ أشبار فقط (٤٠ر١ متر)[٢٧].

وفي أواخر القرن التاسع عشر نجد بمدينة بالما دي ميورقة PALMA DE MAL-LORCA أن من بين الـ ٢٢٨ شارعًا الموجودة، منها ١٢١ شارعاً، أي أكثر من نصف العدد، كان عرض كل منها ما بين متر واحد وثلاثة أمتار ويبلغ عرض ١٨ شارعاً منهاً أقل من مترين[٢٨]. وقد ازداد ضيق الشوارع بسبب وجود الأشكال المعمارية الطائرة[٢٩].

لقد كان كُتّاب القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، الذين تعلموا الأنماط والمفاهيم الجديدة الخاصة بعلم تجميل المدن لفترة النهضة يحملون عرب أسبانيا ذنب وجود الشوارع الضيقة في المدن الأسبانية. وكتب الدكتور بيسا Pisa في بوادر القرن السابع عشر عن شوارع مدينة طليطلة قائلاً: «إن (العرب) أنشؤوا شوارع ضيقة ملتوية ذات تعارج كثيرة» ولهذا السبب لم يكن للمدينة «البهاءُ وجمالُ الشوارع كما كان حالها إبان عهد الرومانيين والقوطيين»[٣٠]. وهذا افتراض فيه مجازفة كبيرة. فكُتُبُ اللوائح الخاصة بمدينتي طليطلة وإشبيلية، اللتين تنتميان إلى تقاليد القرون الوسطى، والتي تم تجميعها في القرن السادس عشر، كانت تمنع تجاوز حدود طُنوف أسطح الشوارع (أي طنوف المنازل) بمسافة تزيد عن ثلث عرض الشارع؛ ومن ثم كان يبقى «الثلث الآخر للمنطقة الوسطى لمرور الهواء ولنفاذ الضوء ولتصريف مياه

الأمطار»[٣١]. وبما أن طَنَف كل سطح لم يكد يبلغ ٧٠ سم، فإن عرض الشارع لم يكن يجاوز المترين.

وقد كتب القمص "مارتنيث ماثاش" عن منازل مدينة جيّان وشوارعها، وهو من الأسبان المشهورين في عهد كارلوس الثالث، وقد اهتم اهتمامًا شديداً بتقدم الدولة، فقال: «بعد مرور خمسمئة وخمس وأربعين سنة على السيطرة عليها، وعلى الرغم من التعديلات الجذرية التي نُفذت فيها خلال هذه الفترة، فإنها مازالت تؤكد أنه تم تنفيذها على أيدي العرب، وذلك لضيق شوارعها وتعرجها»[٣٢].

وذكر "أنطونيو بونث" في كتابه **زيارة إلى أسبانيا** أنه ألفَى في المدن التي زارها «الشوارع الضيقة الملتوية والمتقلبة الوعرة» في مدينة طليطلة، «وملتوية وضيقة في مدينة مالَقة»، «وعدم الترتيب والضيق» في أغلب شوارع مدينة إشبيلية. وقد نسب الذنب إلى "الوسوسة أو الحياة الموريسكية" التي كان عليها سكانها القدامى المسلمون، الذين "كانت عاداتهم بربرية للغاية". كما طالب بـ «إزالة كل قبح ناتج عن عادة سيئة موريسكية»[٣٣]. وينظر "تيوفيل جوتير" Teofilo Gautier إلى شوارع مدينة طليطلة نظرة تبتعد عن الأساليب التقليدية أكثر من الأول، فيقول: إن المنازل المتجاورة تمكّن الأهالي من المصافحة بالأيدي عبر الشارع، وليس أسهل من أن يعبر المرء من منزل إلى آخر، لولا الحواجز الحديدية المشبكة الجميلة التي تحول دون إتمام تلك الألفة الجوية.

وقد زار الرحّالة الرومانتيكي المذكور مدينة طليطلة خلال فترة الصيف، وشعر بالظل والطراوة، وبفتنة حاراتها التي يتمشى فيها الأهالي في الظل بعيدًا من حرارة الشمس تحت طنوف الأسطح. وفي مقابل كثرة الاحتجاجات من

ضيقها ليس هناك إلا صوت واحد هو صوت "تيوفيل جوتيي" الذي دافع عنها بحجج رصينة: "وكان المسبب لتلك الاحتجاجات هو قلة عرض الشوارع؛ وكان مصدرُها هم أنصارَ الحضارة الذين لايحلمون إلا بالرحاب الواسعة والحدائق العامة الفسيحة والشوارع المفرطة في سعتها وبوسائل التجميل الأخرى المتطورة إلى حد ما، مع أن الحل الأنسب والأعقل هو بناء شوارع ضيقة تحت مناخ شديدة الحرارة، وهو ما سوف يدركه بصفة عاجلة المهندسون المعماريون الذين يفتحون شوارع عريضة جداً في وسط مدينة الجزائر"(٣٤).

وأسماء بعض الشوارع في شتى المدن تشير إلى تلك الطرق الملتوية المتفتقة. ومثال ذلك طريق المنحنيات السبعة وطريق المنحنيات الاثني عشرَ. وكان في حي سان بيدرو بمدينة قرطبة "طريق سانتياجو ذي المنحنيات السبعة" SIETE REVUELTAS DE SANTIAGO(٣٥)؛ و"طريق المنحنيات السبعة" بمدينة إشبيلية بالقرب من السالبادور المذكور في مستند مؤرخ سنة ١٤٧٦، وظل الطريق موجودًا حتى منتصف القرن التاسع عشر(٣٦). كما وجد طريق آخر بنفس الاسم بمدينة مرسية، ولم يكن إلا دربًا وعرًا متفتقًا واقعًا بالقرب من برج الكاتدرائية(٣٧). وفي عام ١٤٨٨ سُميت بعض الدروب أيضًا بطرق المنحنيات الاثني عشرَ بمدينة مالَقة وكان في مدخلها قوس، كما ظل اسم طريق المنحنيات السبعة حتى اليوم للإشارة إلى عطفة بنفس هذا الاسم في المدينة نفسها، وقد اضمحل جزئيًا عند فتح شارع "لاريوس" الجديد(٣٨)، وكذلك طريق من طرق "قرمونة" بالقرب من باب مدينة إشبيلية، بالإضافة إلى طريق آخر مسدود في طليطلة.

وهناك شارع بمدينة فاس معروف بشارع "سبع الليات"(٣٩). ومن المحتمل

أن وجود شوارع بتلك التسمية في المدن المغربية قد أثر في تسمية الشوارع في المدن الأسبانية، حتى إن هناك شكاً في أن أسماء شوارع المدن الأسبانية لم تكن إلا ترجمة للاسم الأصلي المعروف في الفترة الإسلامية.

أما التغيرات الفجائية المتكررة في عرض الشوارع واتجاهها، فكان ينتج عنها العديد من الأركان والزوايا التي كانت تتحول إلى رحيبات صغيرة. ويوجد عَرَضاً في تلك الرحيبات والشوارع الأخرى الأكثر اتساعًا بعض الأشجار. ويحكي العالم الجغرافي "القزويني" قصة من القصص العجيبة التي كان يرويها الأهالي بمنطقة الشرق عن الصوفي محمد بن العربي، وكأنه هو الذي كان يرويها بنفسه، وقد لقيه في دمشق سنة ٦٣٠/ ١٢٣٢، فقال: "إنه كان في أحد شوارع إشبيلية نخلة التي كانت تميل إلى منتصف الشارع وأصبحت تعوق المارة، فبدأ الأهالي يتحدثون عن الحاجة إلى قطعها حتى قرروا البدء بالتنفيذ في اليوم التالي". ورأى ابن عربي في نومه "النبي [صلى الله عليه وسلم] واقفًا بالقرب من النخل الذي كان يبكي له قائلاً "يارسول الله! إن الأهالي يريدون قطعي لأني صرت أعوق دربهم. وقد ربَّتَ النبي [عليه الصلاة والسلام] على النخل بيده المباركة، وفجأة اعتدل النخل". ومنذ ذلك الوقت أقبل الأهالي على ذلك المكان احترامًا له وإكرامًا(٤٠).

وهناك احتمال كبير أنه كان بمدينة إشبيلية وببعض المدن الأندلسية الأخرى في العهد الإسلامي شوارع مبلطة؛ وفي فترة لاحقة كانت كل الشوارع مبلطة تحت السيطرة النصرانية، حسبما يؤكد " أنطونيو دي لالاينج" في قصة له عن سفر فيليب الجميل إلى أسبانيا سنة ١٥٠١(٤١). وفي سنة ١٨٣٩ يكرر جونزالث دي ليون نفس الشيء الذي ينتمي في اعتباره إلى الماضي؛ ففي ذلك

الوقت رُصف أحد الشوارع، وكان معروفًا بالشارع المبلط، وتلك التسمية تناقض التسلسل التاريخي[٤٢].

ويخصص كتاب **لوائح مدينة إشبيلية** «فصلاً خاصًا عن العامل في المدينة» و«طريقة تبليط الشوارع»، وينقل هذا الفصل خطابًا للملكين الكاثوليكيين مؤرخاً في ١٣ أكتوبر سنة ١٥٠٠ بمدينة غرناطة، وقد دوّن بعض القرارات الخاصة باحتفاظ الشوارع المبلطة[٤٣]. وفي سنة ١٥٣٤ كان شارع سانتا ماريا في مدينة مالقة مبلطاً بنفس هذه الطريقة مع شوارع أخرى[٤٤]. ويقول "ليون" الأفريقي ولويس ديل مارمول كارباخال Carvajal إنه كانت توجد رحبة مبلطة بمدينة فاس في القرن السادس عشر تقع أمام مسجد الأندلسيين[٤٥]. وهو ما يؤكد الاعتقاد بإمكانية وجود رحاب وشوارع مبلطة في بعض المدن الأندلسية تحت السيادة الإسلامية.

وكان لمدينة قرطبة في ذلك الوقت نظام معقد في تصريف المياه التي كانت تسيل في النهر قادمة من الجزء الأعلى للمدينة مارة بالشوارع الرئيسة، وتجمع أثناء سيرها مياه الصرف من المجاري الثانوية[٤٦]. ويشير "مارتنيث ماثاس" في أواخر القرن الثامن عشر نظام تصريف المياه عند المسلمين بمدينة جيان الذي لم يُرجَع إليه قط ولم يُدرس فيما بعد فيما أعتقد. وكان للمدينة العديد من الينابيع، «وكانت المياه الزائدة، كما كَتَب، تختلط بمياه المصارف متجهة إلى المجاري الرئيسة العميقة الموجودة بمنتصف الشوارع؛ ويُعتقد أن هذه من أفضل الأعمال التي تركها العرب؛ لأنه يمنع أي مياه من أن تصب في الشارع، فتظل المدينة نظيفة جدًا»[٤٧].

ومن دراسة رسالة الحسبة Hisba "لابن عبدون" يمكن أن نستنتج أنه كان في

مدينة إشبيلية تحت سيادة المرابطين في السنوات الأولى من القرن الثاني عشر مجار لمياه الصرف، وقد أنشأها مُلاّك الأراضي الزراعية، وكانت المياه تأتي من الشوارع، أما في فترة الصيف فكان صبُّ المياه في الشوارع ممنوعاً. كما تحتم على الأهالي الاهتمام بعدم إلقاء القمامة والمخلفات أمام منازلهم، وكان يتحتم عليهم إصلاح المطبات والحُفر الموجودة في تلك الأماكن. وكذلك كان يمنع باعة الفواكه من نصب مناضدهم وبيع بضائعهم بالشوارع الضيقة[٤٨].

وكانت مجاري الصرف بمدينة غرناطة نادرة كما يقول "منزر"، لكنْ كان في كل الشوارع «قنوات لجمع مياه الصرف، فكانت المنازل الخالية من مجاري الصرف، بسبب صعوبات الموقع، تلقي القاذورات ليلاً في تلك القنوات»[٤٩].

وقد أمر الملكان الكاثوليكيان ببناء نظام للمجاري بمدينتي طليطلة[٥٠] وغرناطة[٥١]. وغني عن البيان أن كل التنقلات داخل المدينة كانت تتم بوساطة الدواب أو الجياد أو الحمير، مثل ما يجري حتى اليوم بحي البيازين والأحياء الأخرى القديمة بمدينة غرناطة وفي المدن الأندلسية الأخرى. مما كان ينعكس على مقاييس بناء أجزاء المباني، حيث لا يمكن في تلك الظروف سوى نقل المواد قليلة الوزن والحجم، وكذلك الحال بالنسبة للمدة اللازمة للبناء.

(1) Manual, núm. 16, fol. 118, según cita de Teixidor, **Antigüedades de Valencia,** I, p. 142.

(2) Ibn 'Idārī, **Bayān,** II, texto, p. 77; trad., p. 124. Lévi-Provençal, **La Péninsule Ibérique,** texto, p. 156; trad., pp. 157-158. Ocaña, **Las puertas... de Córdoba,** pp. 143-151.

(3) Henríquez, **Anales de Granada,** pp. 31-32. Es posible que fuera vía más pasajera la que después del recorrido de la calle de Elvira seguía por la de San Matías, llamada entonces Axibin, para salir de la ciudad por la puerta de Bibatanbín **(bāb al-Tawwābīn).**

(4) Seco de Lucena, **Documentos árabes granadinos,** I, pp. 419 y 422.

(5) Crónica de Ibn Sāḥib al-Salā, en Antuña, **Sevilla,** p. 99, texto árabe, pp. 133-134.

(6) Morgado, **Historia de Sevilla,** p. 328; Montoto, **Sevilla,** p. 23.

(7) González de León, **Noticia... de las calles de Sevilla,** pp. 405-406.

(8) Bofarull, **Repartimientos,** pp. 209 y 290.

(9) Busquets, **El códice... del Repartimiento de Mallorca,** p. 281 y 290.

(10) Ballesteros, **Itinerario de Alfonso X (B. R. A. H.,** CIX, p. 429).

(11) Ramón Muntaner, **Crónica,** vol. I, 44-45. Era la calle llamada modernamente Trapería o Príncipe Alfonso, orientada norte-sur.

(12) Bofarull, **Repartimientos,** pp. 413 y 480.

(13) Lévi-Provençal, **Une description de Ceuta musulmane au XVe siècle.**

(14) Robert Ricard, **Recherches sur la toponymie urbaine du Portugal et de l'Espagne,** p. 162.

(15) Guillén Robles, **Málaga musulmana,** p. 485.

(16) **Primera Crónica General,** cap. 1046, p. 730.

(17) Bofarull, **Repartimientos,** pp. 179, 264, 290, etc.; Julián Ribera y Tarragó, **La Xarea de la Valencia musulmana,** p. 329.

(18) Fernández y González, **Estado social y político,** doc. XXIV, pp. 324-327.

(19) Al-Rāzī, **Description de l'Espagne,** p. 87.

(20) Al-Idrīsī, **Description... de l'Espagne,** texto, p. 190; trad., p. 230.

(21) Pi y Margall, **Granada, Jaén, Málaga y Almería,** p. 430, n. (1).

(22) Münzer, **Viaje por España y Portugal,** p. 43.

(23) **Ordenanzas... de Granada.**

(24) Mármol, **Rebelión,** I, p. 37.

(25) González de León, **Noticia... de las calles... de Sevilla,** pp. 179 y 441.

(26) Marineo Sículo, **De las cosas memorables,** fol. 12 v.º

(27) Fuentes, **Murcia que se fue,** pp. 9, 11 y 126-127.

(28) **La ciudad de Palma,** por E. Estrada, p. 93.

(29) Véase **infra,** «Calles encubiertas» y «Las fachadas de las casas; salidizos y ajimeces».

(30) Pisa, **Descripcion... de Toledo,** fol. 26 v.º

(31) **Ordenanzas... de Toledo; ordenanzas de Sevilla,** cap. XXV, fol. CXLIII.

(32) Martínez Mazas, **Retrato... de Jaén,** p. 40.

(33) Ponz, **Viaje de España,** t. primero, p. 19; t. IX, pp 211-212; t. XVIII, p. 220.

(34) Gautier, **Voyage en Espagne.**

(35) Ramírez de Arellano, **Paseos por Córdoba,** II, p. 44.

(36) Ballesteros, **Sevilla,** p. CCCXXXX. Estaba en la Parroquia del Salvador; era muy angosta y servía de comuncación a la plaza del Pan con la calle del Burro (González de León, **Noticia... de las calles... de Sevilla,** p. 415).

(37) Fuentes, **Murcia que se fue,** p. 217.

(38) Guillén Robles, **Málaga musulmana,** pp. 485 y 488; Díaz Escobar, **Apuntes... sobre... calles de Málaga,** pp. 37 y 44.

(39) Lévi-Provençal, **Hist. Esp. Musul.,** III, p. 372.

(40) **Kosmographie,** p. 334; **El Islam cristianizado,** por Asín Palacios, pp. 46-47.

(41) Lalaing, **Voyage de Philippe le Beau,** p. 202.

(42) González de León, **Noticia... de las calles... de Sevilla,** p. 269.

(43) **Ordenanzas de Sevilla,** f.º LXXIII.

(44) Moreno de Guerra, **Los corregidores de Málaga**, p. 165.

(45) León Africano, **De la descripción de Africa**, p. 135; Mármol, **Descripción general de Africa**, libro cuarto, cap. XXI, f.º 90.

(46) Francisco Azorín, **El alcantarillado árabe de Córdoba**, pp. 181-182.

(47) Martínez Mazas, **Retrato... de Jaén**, p. 43.

(48) Ibn 'Abdūn, **Sevilla**, pp. 119-120 y 164.

(49) Münzer, **Viaje por España y Portugal**, p. 43.

(50) Clemencín, **Elogio... Reina Católica**, p. 261.

(51) **Ordenanzas... de Granada**, f.º IIII.

# الفصل التاسع
## القيصريات

لم يعد في القيصرية

قماش لم يُبَعْ

ولا حلية

في الصاغة تباع.

لوبي دي بيجا في مؤلفه (الحسد لدى طبقة النبلاء)

ربما تاجر ما

آملاً اللحاق

بالقيصرية مبكراً،

كان ينشط بالحضور إلى الحمراء

حتى قبل السحر.

خوسي ثوريلا في مؤلفه "غرناطة " (جـ٢ طبعة عام ١٨٩٥م ص١٧٤)

إن الكلمة العربيــة "القيصرية" وجمــعها "القياصـر" الذي انتقل إلى اللغة القشتــالية قد اتخذ الصورة الآتــية "الكايثريا" ALCAICERIA. وكان الاسمان يشيــران في الشرق والغرب الإسلامي مــعًا إلى مؤسســة تجارية، وإلى المبنى أو مجموعــة المباني التي كانت تشكل القيصرية. ومنذ القرن الســادس عشر حتى اليوم نجد الكتَّاب الذين اهتموا بالقيصريات يتفقون على افتراض أن ذلك الاسم مشتق مــن صفـــة يونانية، اشتقت منها الصفة اللاتــينية "ثيساريا" Caesarea،

وذلك من خـلال اللغة البـيزنطيـة "كايسـاريا" KAISAREIA أو هو اختـصار لمصطلح "سوق إمبراطوري" أو "قيصري" Cesareo، أو مؤسسة من مؤسسات الدولة، بخلاف الفندق الذي كان ملكاً للأفراد في معظم الأحيان. يبدو إذاً أن أصل تلك المؤسسة يعـود إلى الحضارة اليونانية. ومن المعتـقد أنه أُكتُشف أصل نموذج لتلك المؤسسـة "القيـصرية" التي قام بتـأسيسـها إمبـراطور روماني من أنطاكيا، ومن المحتـمل أن أصلها يرجع إلى قصر روماني كبـير مغطـى ومغلق في داخـله محلات ومخـازن تودع بها البضائـع الثمينة في أمـان، أو إلى مبنى آخـر مشابه من مبانـي مدينـة الإسكندرية الميسورة(١). أن يكون التعريف الوارد في المعجم المـعروف بـ **معـجم السلطات** DICCIONARIO DE AUTORIDADES يعد تعريفاً كـاملاً إذا أضيفت إليه الفكرة التي تبين أن القيـصرية كانت ملكية: «فإن القـيصرية اسـتقرت بمكان أو بحي منعـزل يغلق ليلاً، توجد فـيه متـاجر متنوعة، يباع فيها الحرير الخام أو الحرير الملفوف في رزم، ولا يباع فيه أي نوع آخر غير الحرير. وعلى الرغم من أن الأقمشة المخـتلفة كانت تُغزَل فيها وتُنسَج في قديم الزمـان، فإنها اليوم لا يصنع فـيها أية أقمـشة، لأنها خصـصت لبيع الحرير فقط. وقـد بقي مكان القيصرية بمدينتي طليطلة وغـرناطة ولا يسكن فيه إلا الذين يحرسون المحلات إبان الليل"(٢).

وكانت القيصرية في العالم الإسلامي مركزاً عامًا تجاريًا واسعًا، وكان الموقع والغرض فيهـا يختلفان قليلاً من مدينة إلى أخرى على مرور الأعـوام. فأحيانًا كانت عـبارة عن صـحن واسع مطوق بأروقـة أو ممرات مغطاة فـيهـا المحلات والورش والمخازن وحتى المسـاكن (كمكان للمبيت)، وفنادق (خـانات للقوافل ذوات الامتياز الخـاص)، وأحيانًا أخرى كانت عبارة عن شـارع مغطى، أو غير

مغطى، بالأروقة وبالمحـلات المطلة عليها. وفي بعض الأحيـان كان يطلق اسم القيـصرية على حي تجاري صغـير مؤلف من حارات ضـيقة، أو على رُحيـبة محاطة بالمراكز التجارية.

وفي الشرق بدأ اسم القـيصرية في الاختـفاء بسرعة وحلت أسـمـاء أخرى حديثة، ومـن أمـثلتها "خـان" ـ من اللغة الفارسـية ـ و"فندق" و"وكالة" أو "وكيل"[٣]. ويوجد بالطبع بعض الغموض في دلالة تلك المصطلحات، والذي يبرر هذا الغموض هو الغاية التجارية المشتركة لتلك المباني.

ومن أبرز مميزات القيصريات هي أنها: كانت ملكاً للحاكم؛ ومساحتها أكبر من مسـاحة الفنادق ومـساحة السـوق لأنها يمكن أن تسـتوعب عـدة أسواق، وكانت أسـاسًا مـبنى مغلقًـا ذا بوابة واحدة أو عـدة بوابات تفتح في سـاعات الحركـة التجارية، وكانت تحـرس بمساعدة مراقـبين مخصَّصين، ولهـذا السبب كانت تُخصص لتخزين المنتجات الفاخرة الغالية وبيعها.

**القيصريات الأسبانية المسلمة.**

لم يبق لدينا إلا بيانات نادرة عن قيـصريات مدينة قرطبة في عـهد الخلافة. وقد احتفظت تلك المدينة حتـى السنوات الأخـيرة برحـبـة مستطيلة مقاسها ٤ أكـيال أو ٥ أكـيال من الأراضي، وهي عـبـارة عن صحن واسع واقع بمركـز مجموعـة من المساكن وقريب من المسجد الجامع، ومداخلهـا الأبواب الصغيرة للمنازل المحـيطة بها، كـانت تسمى تقليـدياً "القيـصرية" ALCAICERIA[٤].

وهناك مراجع مـؤرخة بعد انتزاع المدينة بفـترة قصيـرة تحدد موقعـها عندئذ في ذلك المكان مما يؤكد أصلها الإسلامي. وفي مرجع مؤرخ في سنة ١٢٤١، أي بعد مضي خمسة أعوام فقط على سيطرة المسيحيين على مدينة قرطبة، يُذْكرُ أن

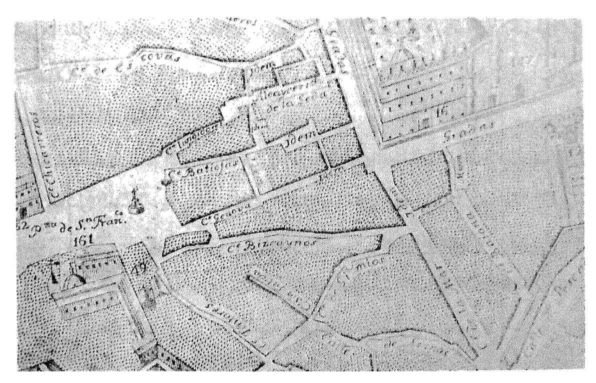
العاهل وَهَبَ فندقًا واقـعاً بالقرب من كنيسة سـانتا ماريا Santa Maria (المسجد الجامع سابقًا) لرئيس الدير دون جونثالو Don Gonzalo. حيث كان يباع السمك، بالقرب من القيصرية. كما وهب ألفـونسو العاشر للكاتدرائية، ضمن ممتلكات مختـلفـة وبامتـياز خـاص صادر سنة ١٢٨١ لكاتدرائيـةٍ للمجـمع الديراني، المحلات التي كان تُباع فيها القدور وهي واقعة على أرض رعية "سانتا ماريا"، بين القيـصرية والشارع الممـتد من الكاتدرائية إلى باب سـوق السمك أو "باب الحديد" العربي، الواقع على الحـافة الشرقية للسور قـريبًا من النهر(٥). وذلك هو الشارع المعروف اليوم بشارع الكاردينال جونثالث Cardenal Gonzalez.

ومما يوضح وجود قيـصرية بمدينة بلنسية في النصف الثـاني من القرن الثاني عشـر أن ابن منْتِيال من مـدينة مربيطر قـام بمشروع مكتبـة في القيصـرية لبيع الكتب، هذا بالرغم من سوء كـتابته وخطه، علمًا بأنه ولد قـبل عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥ ـ ١١٥٦م وتوفي في بلنسية في عام ٦١١هـ/ ١٢١٥(٦).

وكانت الأسواق التي أمـر ببنائها السلطان أبو يوسف يعقوب بمدينة إشـبيلية في عام ٥٨٢هـ/ ١١٩٥ ـ ١١٩٦، في الفتـرة اللاحقة مباشرة لتوسـيع المسجد الجامع الذي أسس في فترة سابقـة، تشكل بلا شك القيصرية، هذا على الرغم من عدم ذكر اسمها في الوصف الخـاص الذي كتبه عنهـا ابن صاحب الصلاة المعاصر لبناء القـيصرية ذاكراً أنه قد تم "بناء الأسـواق والمتاجر... على أمتن البنيان وأجـمل الأساليب المعمارية، حـتى أصبحت شيـئًا مدهشاً وغـير عادي بالنسبة لفـن العمارة في ذلك الوقت. وقد زود الجزء المبني مـنها بأربعة أبواب كبـيرة تغلقهـا من جوانبها الأربعـة؛ والبابان الكبيـران هما الشرقي والشـمالي المقـابلان للبـاب الشمـالي من الجـامع. وعند الانتهـاء من بناء هذه الأسـواق

بمتاجرها نقل إليها سوق العطارين وسوق تجار الأقمشة[٧] وسوق الخياطين. وكان الأهالي، بكل الرضا، يتنافسون في إيجارها مما أدى إلى زيادة أرباح الضرائب وامتداد الرضا[٨].

وقد استعمل اسم القيصرية في بعض المراجع المسيحية المؤلفة بعد انتزاع المدينة مباشرة للدلالة على ذلك المبنى المذكور. وفي سنة ١٢٥٠ منح "فرناندو الثالث" لسكان حي فرانكوس، من أحياء إشبيلية، نفس الامتيازات التي كان يتمتع بها سكان حي فرانكوس بمدينة طليطلة، وهذا الامتياز كان عبارة عن التصرف الحر في أعمال شراء الأقمشة والبضائع الأخرى وبيعها في منازلهم: «وأنهم غير ملزمين بحفظ بضائعهم بقصرنا أو بالقيصرية أو بحفظ الأشياء الأخرى، وذلك على غرار ما هو جارٍ في حي فرانكوس بمدينة طليطلة»[٩]. وقد قام الملك ألفونسو العاشر سنة ١٢٥٣ بإصدار خطاب منح فيه لـ"بيدرو فرنانديث"، اليهودي الديانة الذي اعتنق المسيحية فيما بعد، «متجراً بمدينة إشبيلية عند كنيسة "سانتا ماريا الكبرى" وكان هذا المتجر قريبًا من باب الكنيسة لأن مدخل الكنيسة يقع ناحية القيصرية في اتجاه اليد اليسرى». وكما تدلّ بعض الخطابات المؤرخة في سنة ١٢٧٤ الصادرة بأمر نفس العاهل على وجود مخازن للزيت فيها[١٠]. وكانت المدينة تدفع حقوق الحراسة؛ ويدفع أصحاب المتاجر الذين يقومون بأعمال الشراء والبيع فيها ٨٠٠٠ مرابطي سنة ١٣٨١[١١]. وهناك مراجع مؤرخة في سنة ١٣٥٧ وسنة ١٤١١ تخبرنا أن القيصرية كانت تقع على حدود شارعي الخياطين وجنوا[١٢]. وتحدد مراجع أخرى مؤلفة في سنتي ١٣٨٩ و١٤٢٢ موقع القيصرية في نفس المكان الذي كانت تحتله تحت سيادة الإسلام. كما تشير نفس المراجع أنه كان للقيصرية باب




أشبيليا ـ مخطط للقيصرية وضواحيها في عام ١٧٧١ .

محاذٍ لباب "بردون" Perdon التابع للكاتدرائية، كما كان بداخلها بعض المتاجر(١٣).

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر شهدت القيصرية في مدينة إشبيلية، التي من المعتقد أنها قد احتفظت بهيكلها وبتنظيمها الإسلاميين، تزويد متاجرها بالثروة القادمة من الهند كما يؤكده الوصف المتمعن "لألفونسو دي مورجادو" حيث يقول: «الشيء العجيب في شوارع إشبيلية هو الثروة العظيمة، إذ يوجد فيها أجود وأغرب مما هو موجود في "فلاندر" واليونان وجنوا وفرنسا وإيطاليا وانجلترا وبريطانيا، وغيرها من المناطق الشمالية، ومن الموجود في الهند والبرتغال. والثروة العظيمة الأخرى بالقيصرية هي الذهب والفضة واللؤلؤ والزجاج والأحجار النفيسة والمينا والمرجان والحرير والديباج والأقمشة النفيسة وكل أنواع الحرير والأقمشة الفاخرة. إن القيصرية كانت عبارة

عن ضاحية تعد بذاتها مليئة بمتاجر الصاغة والنقاشين وبائعي الحرير والأقمشة. بها غنًى عظيم وتُحرس ليلاً بأبوابها التي يغلقها العمدة بالمفتاح"(١٤).

وبعد ذلك التاريخ بخمسين عامًا تقريبًا وصف رودريجو كارو أيضًا قيصرية إشبيلية وصفاً دقيقاً، وبالأخص ما يتعلق بالمباني نفسها قائلاً: «ليس المبنى فاخرًا ولا عظيمًا بنفسه، ولكن الغنى فيه عظيم جدًا، حتى لقد تجاوزت قيمة مدينة من المدن الكبرى.. ففيه تجار الحرير والأقمشة والديباج والبضائع الأخرى من حيث النوع والقيمة. فهناك صاغة الفضة الذين يعرضون بمتاجرهم الذهب المنقوش والفضة والماس والياقوت والزمرد «والياقوت الأصفر» واللؤلؤ والأحجار الكريمة ذات القيمة العالية. والجدير بالذكر أنه يوجد بهذا المكان الدائري الشكل الضيق الذي يغلق ويحرس ليلاً ثروة أكبر مما هو موجود في عدد من مدن المملكة بأجمعها. ويغادر القيصرية أصحابها ليلاً عندما يزيد الخطر عليها بسبب عدم وجود مساكن لإقامة الناس بجوارها».

ويواصل العالِم الإشبيلي حديثه عن القيصرية محددًا موقعها قائلاً: «إنها كانت تفتح أبوابها على شارع الخياطين ويوجد باتجاهها الأيمن شارعان مخصصان للتجار، أحدهما هو شارع "فرانكوس" المشهور، والآخر هو شارع "أسكوباس" حيث يباع فيهما كل ما يستورد من المناطق الشمالية من بضائع يستبدلها الأجانب رويدًا رويدًا بفضتنا وذهبنا»(١٥). وفي تصميم مدينة إشبيلية الذي نُفذ سنة ١٧٧١ على يد المأمور القضائي "دون بابلو دي أولابدي" حُدد موقع القيصرية باسم "قيصرية الحرير" وهو الواقع بين شوارع "أسكوباس" و"جنوا" والمدرجات ورحبة "سان فرانسيسكو"؛ وذكر في داخلها شارع "باتيوخاس" وشوارع أخرى ضيقة كانت تحيط ببعض الأرباض المنتظمة إلى حد ما.

وكانت القيصرية في فترة سابقة، قبيل سنة ١٨٣٩، مقتصرة على شارع واحد ضيق معروف بشارع قيصرية الحرير؛ وعلى كل طرف من طرفي الشارع قوس قوي منخفض بني فوقهما بعض المنازل المجاورة(١٦)، وقد كان هذان القوسان بلا شك هما البابين اللذين استعملا من قبل لإغلاق القيصرية ليلاً. وقد ذكر "مادوث" Madoz في منتصف القرن التاسع عشر اسم قيصرية مدينة إشبيلية (١٧)، علمًا بأنه قد اختفت آثارها من طوبوغرافية المدينة في فترة تالية.

وكان في مدينة إشبيلية سنة ١٣٥٧ قيصرية أخرى، وكانت على الأرجح هي القيصرية التي سبق بناؤها القيصريةَ الأخرى التي بناها الموحدون في أواخر القرن الثاني عشر. وكانت الأولى تقع بالقرب من المسجد الجامع القديم، أي كنيسة "سان سالبادور" فيما بعد(١٨).

وفي تصميم "أولابيدي" Olavide سميت القيصرية السابقة "بقيصرية الفخار" ALCAICERIA DE LA LOZA. ويذكرها "جونثالث دي ليون" بذلك الاسم في منتصف القرن التاسع عشر؛ ويقول إنها عبارة عن شارع ضيق جداً وغير طويل، وكان يغلق ليلاً في السنوات القليلة الماضية بالأبواب الواقعة تحت القوس المرفوع عند مدخله. وكان ذلك الشارع يمتد من رحبة الخبز إلى شارع المجازر، وكان معروفًا في قديم الزمان بشارع العطارين، وتشير هذه التسمية إلى نوع أنشطة القيصرية في القرون الوسطى - وفي الفترة العربية على الوجه الأرجح - وأنها كانت قيصرية العطارين، وباعة العقاقير بدلاً من باعة الأشكال الفخارية الإشبيلية ومنها اللعب والوجوه الفخارية التي كانت سائدة في ذلك المكان في الفترة الأخيرة. والجديد الذي حققه هؤلاء التجار هو إيجاد مساكن في تلك القيصرية، وعلى الرغم من ذلك، لم تزد من مساحتها الضيقة

لاستيعاب الساكنين فيها. ويقول "جونثالث دي ليون" عنها إنها كانت ضيقة جدًا، حتى لم يكن بالاستطاعة أن توضع فيها الجثث التي كان يتوفى أصحابها فيها، ومن ثم اضطر الأهالي إلى تركها في مصلى يقع عند مخرج الشارع تمهيدًا لدفنها. وعندما قام الكاتب المذكور بذكر ذلك الموقع، كان القوس والمصلى قد انقرضا[١٩].

ويذكر كتاب **توزيع مدينة بالمادي ميورقة** REPARTIMIENTO DE PALMA DE MALLORCA قيصريتين، إحداهما تدعى قيصرية العطارين[٢٠].

وفي كتاب **اللوائح** الصادر في مدينة جيان سنة ١٤٨٩ بأمر الملكين الكاثوليكيين، الخاص بتوزيع مدينة مالَقة وإدارتها، وطبقًا لقول الموزعين المعينين بأمر هذين الملكين، أُقِرَّ الآتي: «كان طوق قيصرية تلك المدينة مكونًا من المتاجر فقط منها المهدم، ومنها ما لم يتم إصلاحه بصورة جيدة، إذ ليس هناك من يستطيع أن يقوم بإصلاحها. وإذا أضيفت تلك المتاجر إلى عدد متاجر المدينة كان العدد كبيراً لدرجة الإفراط في المتاجر. وإننا سوف نقدم خدمة كبرى إن خصصنا تلك الأماكن للسُّكْنى بدلاً من انتظارنا لانقراضها. ولهذا السبب فقد أمرنا الموزعين السابق ذكرهم بالقيام بتوزيع القيصرية السابق ذكرها لصالح من يستطيع القيام ببناء المنازل على نحو أسرع وأفضل»[٢١]. وكانت تلك اللوائح خاصة بتوسيع المدينة وبإدارتها الجيدة. وليس من الممكن أن نتبين بدقة حدود القيصرية بمدينة مالَقة؛ ومن الأرجح أنها كانت تقع في آخر شارع "الماثينس" Almacenes في اتجاه ما يسمى اليوم "بالكونبنتيكو" Conventico وضواحيه. وفي حدود سنة ١٤٩٠ كان للقيصرية عدة أبواب: أحدها كان يفتح على شارع النجارين، وباب آخر كان يفتح على شارع "ثيبرس" Cipres؛ أما شارع

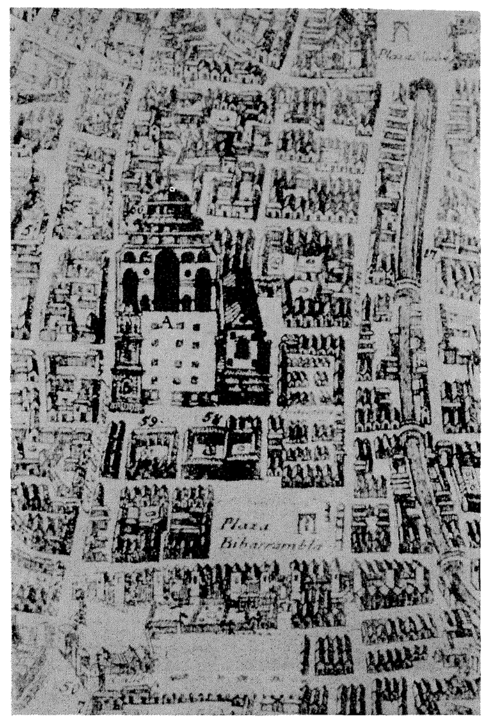
"نرانخو" Naranjo فكان يمتد من موقع بعض المتاجر الواقعة تحت المسجد الجامع حتى أحد مداخل القيصرية؛ وهناك مدخل آخر بشارع القوس Calle del Arco . ولا شك أن ذلك الشارع سمي "شارع القوس" لوجود قوس عند مدخل القيصرية. وفي سنة ١٤٩٢ هدمت منازل القيصرية التي كانت تمنع امتداد الشارع الجديد من حارة "دويندي" Duende حتى الشارع المعروف حالياً بشارع "ثباتروس" Zapateros[٢٢].

وقد استمرت قيصريتا مدينتي "مالقة" و"المرية" من سنة ١٤٩٥ حتى سنة ١٥٠١ مؤسستين منتظمتين بمكانهما الأصلي على ما يبدو[٢٣]. ووفقاً لكتاب **توزيع مدينة بَلِّش** VELEZ-MALAGA كانت قيصرية هذه المدينة تشغل أرض موقع البلدية الحالية وأرض السوق المجاورة لها، وكان بها مسجد صغير. وورد ذكر لقيصرية أخرى في الحي اليهودي بنفس المكان. ويذكر المرجع السابق وجود قيصرية "مهدمة" بجوار المسجد الواقع بداخلها[٢٤].

**قيصرية مدينة غرناطة.**

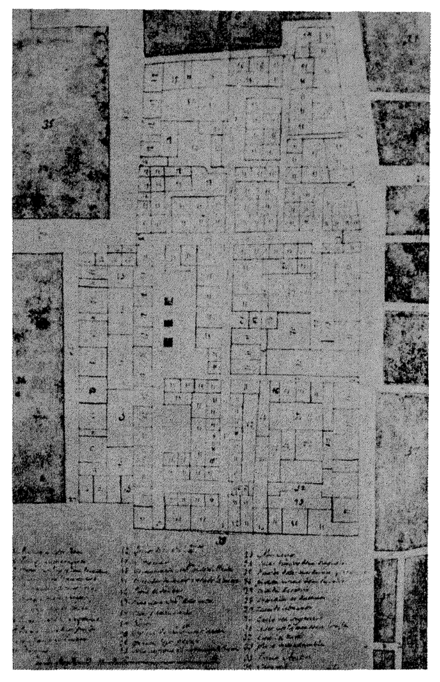
ظل التنظيم العام للقيصرية العربية لمدينة غرناطة محتفظاً بشكله في صورة شبه كاملة حتى عام ١٨٤٣م حين اشتعلت فيها النار وأحرقتها كلها. ويقول مارمول كارباخال عنها: إنها كانت وافرة الثراء «كقيصرية مدينة فاس مع أنها لم تكن أكبر منها، وكانت تأتي إليها بضائع المدينة كلها»؛ وتعد تلك شهادة قيمة من كاتب كان على معرفة تامة بهما في القرن السادس عشر[٢٥].

إن أقدم مرجع لديَّ عن قيصرية مدينة غرناطة هو عبارة عن خطاب خاص ببيع متجرين موجودين في القيصرية، وقد حرر ذلك الخطاب بتاريخ ١٠ صفر ٨٦٥هـ (٢٤ من شهر نوفمبر سنة ١٤٦٠م)، بأمر الأمير سعد أبي الحجاج



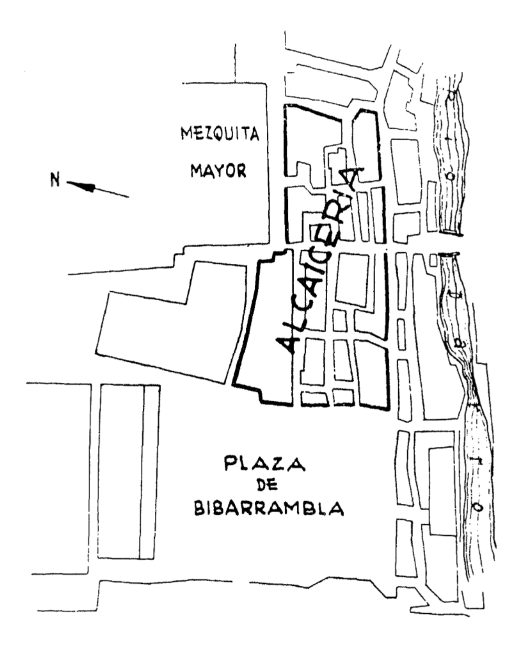

غرناطة ـ قيصرية غرناطة وضواحيها في السنوات الأولى من القرن السابع عشر حسب مسطح Vico .

يوسف ابن عـمدة المـدينة، وبأمر الوزير أبـي القاسم ابن السـراج أيضًـا بمبلغ يعادل ٧٥٠ ديناراً من الذهب(٢٦).



غرناطة ـ مخطط لقيصرية غرناطة والشوارع التي تحيط بها طبقاً لوضعها الحالي،
رسمه عام ١٧٨٧ توماس لوبيث (أرشيف Simancas العام).

وبعد ذلك بعدة سنوات وفي تاريخ ٢٢ محرم سنة ٨٨٣هـ (٢٦ من شهر أبريل سنة ١٤٧٨م) ذكر اسم القيصرية السابقة عند ذكر عاصفة شديدة هبت أثناء استعراض الجيش أمام الحاكم مولاي حسن Mulay Hassan، الذي كان يقف




غرناطة ـ خريطة للقيصرية حسب بنتورا ساباتيل.

في غرفة أمام باب بستان الملك ـ أو جنة العريف ـ. وقد ازداد مستوى مياه نهر الدارو بصورة جسيمة حتى خلعت جذور الأشجار العالية الواقعة على ضفافه، وقد اعترضت تلك الأشجار في المعبر المعروف بمعبر القاضي، الذي سمي بمعبر

"سانتا أنا" Santa Ana فيما بعد، مكونة سدًا كبيرًا، حتى تجمعت المياه من خلفها بكميات وفيرة وفاضت إلى السويقة وإلى "لاس كورتدورياس" -Cor tidurias، فالقيصرية، وأدى ذلك إلى إغراق العديد من المتاجر، وإلى تدمير كميات كبيرة من البضائع القيمة المخزونة في تلك الأماكن(٢٧).

وفي عهد الملوك العرب وجد في القيصرية "الأمين" ALAMIN(٢٨). ويتضح من البلاغ الملكي الصادر من الملكين الكاثوليكيين بمدينة غرناطة المؤرخ في ١٥ من شهر يوليو سنة ١٥٠١، تبعًا للتقاليد النصْرية، أنه لم يُمكن شراء لفات الحرير وأشرطتها وتسديد الحقوق الضريبية المفروضة عليها إلا بقيصريات مدن غرناطة ومالقة والمرية، علمًا بأن المدن المذكورة كانت مواقع المخازن المركزية للشؤون المالية والضرائب، حيث كان يدون فيها كميات المحصول السنوي من الحرير(٢٩). وكانت القيصريات السابق ذكرها من أكبر مصادر الدخل للحكام النصريين، مما سمح لهم بإقامة الحصون والقصور وتشكيل البلاط الفاخر. وقد قرر الملكان الكاثوليكيان الاحتفاظ بذلك التنظيم الذي كان ينتج عنه دخل قيم ملموس(٣٠).

وفي سنة ١٥٠٢ يحكي "أنطونيو دي لالاينج"، سيد من سادات مونتني Montigny وصل إلى أسبانيا بصحبة حاشية الملك فيليب الجميل، عن قيصرية مدينة غرناطة أنها كانت تباع فيها كميات كبيرة من الحرير - الحرير الخام بلا شك - بغرض تصديرها إلى إيطاليا، بالإضافة إلى الأنسجة الجميلة المشغولة بالطريقة الخاصة بالمسلمين الأندلسيين المتنوعة في ألوانها وأشكالها(٣١).

وقد أقام السفير الفينيسي ناباخيرو Navajero بمدينة غرناطة في صيف عام ١٥٢٦، وفي نفس الوقت الذي كان يقيم بها الإمبراطور كارلوس الخامس Carlos V الذي

كان متــزوجاً حديثًا من الأميرة إيزابيل من الــبرتغال. وقد وصف ناباخيرو قــيصرية المدينة ذاكراً أنها مكان مـغلق، فيه حارات ملأى بالــدكاكين من كل النواحي، وكان المسلمون الأندلسيون يبيعون فيها الحرير وكثيراً من المنتجات الرخيصة(٣٢).

وبعــد سنوات قليلة من تلك الفـترة كـتب "لوثيو مـارنيو سـيكولو" عن قيــصرية غرناطة قـائلاً: «كان فيــها حوالي مـائتي متجـر، ويبـاع فيهـا الحرير والأنسجة والبضائع الأخرى كلها باستمرار، وهذا المكان (المشابه لمدينة صغيرة) كان به عدد من الحارات مغلقةً بعشر بوابات بسلاسل من الحديد لمنع العبور بها على ظهـور الخيل ومن يعين لمنصب الحـراسة يغلق البـوابات ويراقب حـراسه وكلابه المكان ليلاً، كما أنه كان يُحَصِّـل باسم الملك الإيجار والضرائب الخاصة بكل متجر»(٣٣).

وقد كتــب "برمودث دي بيدراثا" في أوائل القرن الســابع عشر عن متــاجر قيصرية مـدينة غرناطة التي كانت تباع فيهــا «كل أنواع الحرير المنسوج أو على هيـئة لفــات، بالإضافـة إلى الذهب والقمــاش والكـتان، والبـضائـع الأخرى المستخـرجة منها. وللقيصـرية عمدة كان يعينه عـمدة قصر الحمراء، يحـرسها ويراقبهــا ليلاً ويفتحــها ويغلقها نهــارًا ويهتم بنظافتهــا». ويذكر "إنريكث دي خوركـيرا" في الفتـرة ذاتها أنه «قد تركـزت في القيـصرية تجارة الحـرير كلها بجمركــها المعقد المنتشـر عبر المملكة كلها، وعـماله المختصين والمتجـولين عبر الأسواق؛ وحقوق الضريبة الخاصة كانت تعادل أربعة عشر ريالاً ونصف الريال لكل رطل من الحرير المشـغول أو الطبيعي على حـد سواء.. وهو أكبـر مصدر للدخل لجلالته ذلك لأنه يستهلك وينفق أكثر من ثلاثين ألف دوكادوس Ducados في المملكة كلها في تجارته. وتشمل هذه التجارة أيضًــا تجارة الكتان بجمركها، والتجارة الكبرى للأقمشة، مع أن جمرك الأقمشة يحدد خارج القيصرية»(٣٤).

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأت حياة القيصرية المذكورة في الفتور، في رأي بيلاثكث إشبيريا، بسبب الانحطاط الملموس في تجارة الحرير وصناعته. وقد نقص حجم الحرير وبلغ ثلث الكمية المنتجة في القرنين الماضيين.. مما أدى إلى إخلاء العديد من المتاجر فيها. ويذكر نفس الكاتب الأبواب العشرة للقيصرية وعدد المتاجر فيها التي كان عددها مائتي متجر تقريبًا. أما حراستها ليلاً فيتولاها عمدة القيصرية وكلاب الحراسة. ويصف المؤلف القيصرية السابقة قائلاً إنها تنقسم إلى جزأين: «توجد في أحدهما الدكاكين أو متاجر الحرير الضيق ومتاجر الحرير العريض على حد سواء؛ أما الجزء الثاني ففيه مكاتب "السماسرة" أو «جليس» XELICES (أي: خَليص، الذين كانوا يتسلمون الحرير ويحفظونه ويبيعونه في المكان نفسه بالمزاد، ويحصلون على حقوق الحرير)، وكانت مكاتبهم في مكان منفصل. ويوجد فيه أيضًا الجمرك مع المكاتب التابعة له. وكان سماسرة الحرير يقومون بست وظائف ذات أهمية كبرى وذات مصلحة مهمة للقيصرية بالإضافة إلى الوظائف الست الأخرى لسماسرة السوق المسؤولين عن مراقبة المكان الذي كانت تباع فيه أقمشة الحرير»(٣٥). ويضيف نفس المؤلف أنه لم يكن يوجد بالقيصرية في فترة سابقة إلا التجار المتخصصون بفن الحرير، ولكن في سنة ١٦٣٢ دخل أحدُ الكتبةِ القيصريةَ للقيام بعمله، فأقام عليه أصحاب التجارة دعوى لمغادرة المكان لم تنفذ إلا بعد خمس سنوات من إقامتها. مما يؤكد عدم الاستعجال في تنفيذ العدل في ذلك الوقت. وبعد ذلك بفترة قليلة بدأت المهن الأخرى في الظهور، ثم انضم إلى القيصرية، كما يقول "بيلاثكث"، تجار الكتان والكتبة وبعض المتاجر الأخرى التي لا علاقة لأصحابها بتجارة الحرير على الإطلاق.

وكانت القيصرية كما قيل ملكًا من تراث الملك، وكان على رأسها عمدة يعينه عمدة قصر الحمراء، وكان الأول يسكن داخلها، ومن صفاته أن يكون شخصًا نبيلاً وثريًا؛ وأحيانًا قد ينتمي إلى النبلاء في مجلس استشارة البلدية. وفي سبيل حماية البضائع والثروة وحراستها كان يُعيّن حارس يقوم بعمله طوال اليوم. وعند موعد الصلاة يغلق جميع الأبواب والمتاجر والخُوخات الداخلية للمنازل المحيطة بالقيصرية؛ أما النوافذ التي تطل على المساحة الداخلية للقيصرية فكانت مزودة بحواجز حديدية تمنع أعمال التسلق والسرقة؛ وكان يجري تفتيش دقيق في نهاية العمل. وبعد مغادرة الحراس لا يبقى داخل القيصرية إلا خفيران بمصاحبة العمدة للقيام بالمراقبة ليلاً، وبالإضافة إلى ذلك كان يطلق سراح الكلاب الجارحة الكبيرة والشرسة. وكانت القيصرية تفتح في الشتاء من الساعة الثامنة صباحًا، وفي الصيف من الساعة السابعة صباحًا. وكان العمدة يقوم على أجراس الكنيسة الكبرى أثناء الساعات الأولى من الصباح لضبط الموعد. وكانت القيصرية تغلق أيام الأعياد. كما أن التجار لم يكونوا يتمكنون من دخول القيصرية لإتمام أعمال التجارة الخاصة بهم إلا من خلال منزل العمدة وحتى وقت الظهر فقط.

وقد شب صدفةً في قيصرية مدينة غرناطة حريق خلال الليل بين يومي ١٩ و٢٠ من شهر يوليو سنة ١٨٤٣ استمر ثمانية أيام ودمر القيصرية في غرناطة تدميرًا كاملاً؛ واحترق معها اثنان وخمسون متجرًا[٣٦]. وقد تمت إعادة بنائها في السنة التالية، بصورة عاجلة، طبقًا للمخططات التي وقع عليها اختيار اللجنة التي عينت لهذا الشأن، واعتمدت في التنفيذ على مبادئ علوم الآثار وعلى الأساليب الأثرية القديمة «بهدف تقليد أسلوب الهندسة المعمارية

العربية»[٣٧]. «كما أقاموا الشوارع وعملوا على تنظيمها وتعديل شكلها وتوسيعها، وقاموا بحذف أخرى كانت تستعمل للعبور من مكان إلى آخر فقط». «وقد بدئ في إنشاء شوارع جديدة مصممة بانتظام أكثر من القديمة»، كما كتب في ذلك الوقت "لافونتي الكنتارا" L.Alcantara[٣٨]. وطبقًا لقول الكاتب "دون رفائيل كونتريراس" « فقد كانت القيصرية قبل الحريق عبارة عن مكان أضيق مما هي عليه اليوم بمتاجرها الصغيرة للغاية، حتى إن بعضها كان خالياً من الحيز الخاص بالبائع، فكان يقف حينئذ على منضدة عرْض البضائع أو خارجها. إن الزخرفة العربية الظاهرة على القيصرية بعد إعادة بنائها تبلغ درجة كبيرة من التماثل والتناسق، وبالتالي لم تعد صالحة لوصف تلك الأسواق المميزة»[٣٩].

ولمعرفة تنظيم قيصرية غرناطة لدينا مراجع تعود إلى القرن السادس عشر، بالإضافة إلى البيانات الأخرى السابقة، المحررة بهدف الضريبة، كما أن لدينا مخططين للموقع. وبما أن المباني المتواضعة التي كانت تشكل القيصرية قد استمرت بعد انتزاعها بتنظيمها الداخلي على رغم التعديلات الطفيفة التي أجريت عليها، فمن الممكن أن نستنتج أن كل هذه المعلومات تعد وسيلة صالحة تسمح لنا بتناول دراسة القيصرية في عهد الأمراء النصريين.

والمراجع التي وصلت إليها معرفتي عن طريق "دون مانؤيل جومث مورينو" Gomez Moreno هي اليوم في أرشيف بلدية المدينة (أو كانت هناك) وهي «كتاب خاص بريع ممتلكات مدينة غرناطة سنة ١٥٠٦ " وكتاب **إحصاء ممتلكات المدينة سنة ١٥٢٨**، وقائمة جرد "الممتلكات الملكية سنة ١٥٢٢». أما المخططان، فإن أقدمهما غير منشور، وهو يحمل توقيع "دون توماس لوبيث" ومؤرخ في ١٠ اكتوبر سنة ١٧٨٧، هو محفوظ بالأرشيف المركزي لمدينة

"سيمانكس" Simancas[٤٠]. والثاني نَشَره "دون اندالثيـو بنتوريا سباتيل" سنة ١٨٩٠ في كتاب **النشرة الفنية المركزية لمدينة غرناطة**، أي بعد نصف قرن من تدمير القيصرية تقريبًا، والمخطط الأخير هو المجمع الدقيق للبيانات وللمذكرات السابقة للحريق[٤١]. ويتفق المخططان في خطوطهما العامة، ولكن مخطط "دون توماس لوبث" يبلغ درجة أكمل من الانتظام؛ لأن معظم الحارات تتقاطع تقاطعًا رأسيًا، كما أن المتاجر قد احتفظت بشكلها المستطيل.

وكانت القيصرية تحتل مساحة تعادل ٤٫٥٩١ مترًا مربعًا تقريبًا ممتدة إلى اتجاه الشرق أكثر من القيصرية الحالية إلى حدود شارع الصبغ Tinte المعروف في عهد العرب بدرب القاطع Darbalcata، وفي القرن السادس عشر بحارة سويقة الأصباغ AZACAYA DE LOS TINTES[٤٢]، الواقعة على الجزء المسطح غرب المدينة بالقرب من المسجد الجامع، الذي أقيم مكانه اليوم "بيت القربان المقدس" للكنيسة الكاتدرائية. وهناك شوارع واسعة كانت تفصل القيصرية شمالاً عن المسجد السابق ذكره وعن المباني التي سبقت بناء قصر المطران؛ أما في اتجاه الجنوب فقد كانت على حدود سُويقة السقّاطين (ثكاثين) التي كانت عبارة عن طريق ذي أهمية تجارية كبرى، وفي اتجاه الغرب كانت القيصرية على حدود "رحبة باب الرملة" BIbarrambla المعروفة بالرحبة الجديدة سنة ١٤٩٥ التي أجريت فيها توسيعات ملموسة فيما بعد. وكما يقول بلاثكث دي إشيباريا V.Echevarria، كانت القيصرية تتركب من جزأين: الجزء الأول في اتجاه الشرق، وهو عبارة عن مربع مائل إلى الشكل المستطيل بصورة ظاهرة ومساحته ١٫٥٤١ مترًا مربعًا، وفيه مكاتب موظفي الحرير والجمرك وإدارة تجارة الحرير، أما الجزء الثاني فأوسع من الأول، وكان في جهة الغرب، ومساحته

٣,٠٥٠ مترًا مربعًا، وكان طوله مساويًا تقريبيًا لطول الجزء الأول، ولكنه أعرض منه ممتدًا في اتجاه الشمال. ويتألف هذا الجزء الأخير من عدد كبير من المتاجر الصغيرة. أما الشارع الرئيس لتجار الحرير فكان أوسع من باقي الشوارع، وهو يفصل بين الجزأين السابق ذكرهما؛ وكان هذا الشارع يمتد من المسجد الجامع حتى "السويقة" في الاتجاه الشمالي الجنوبي، ثم ينعطف إلى الجنوب قليلاً عابرًا نهر الدارو من خلال "القنطرة الجديدة" التي سميت فيما بعد "بجسر الفحم LLAMADO DEL CARBON"، والذي كان يفتح أمامه الباب الأثري "للفندق الجديد" - فناء الفحم EL CORRAL DEL CARBON -، ويلاحظ أن هذا الباب - لحسن الحظ - قد عاش إلى أيامنا هذه. والشارع المذكور كان يغلق بواسطة أبواب تقع أمامها مصاطب مزودة بسلاسل حديدية لمنع مرور الخيالة.

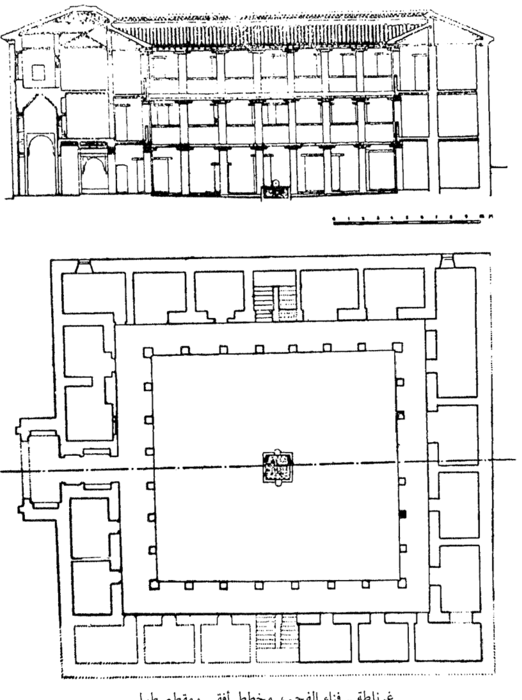
وكانت منطقتا القيصرية كلتاهما تنقسم إلى مجموعات سكنية متباينة المساحة إلى درجة كبيرة، ضيقة وطويلة ومعدة، بحيث كانت تمكّن من إقامة المتاجر ذات العمق القصير على طول الدائرة، وكان الجزء الخلفي من المتاجر مغلقًا بجدران فاصلة، وكانت كذلك مجردة من أي فناء داخلي. وكانت أغلب الحارات الطولية والعرضية منها تتقاطع على هيئة زاوية قائمة بصورة تقريبية، طبقًا لتصميم منتظم إلى حد ما[٤٣]، كما لم ينقصها بعض الرحيبات الصغيرة التي كانت أقرب إلى الأفنية نظرًا لمساحاتها الضئيلة.

أما عن باقي مداخل القيصرية فعددها عشرة، أربعة منها كانت مخصصة لكل جزء من جزئي القيصرية. ففي الجزء الشرقي القريب من المسجد الجامع، باب يسمى بباب موظفي الحرير في القرن الثامن عشر؛ وقد احتفظ ذلك الباب

باسمه الـقديم، وكان هو المدخلَ إلى حارة قـصيرة تؤدي إلى رحيبـة لها نفس الاسم، كان بها مقر الجمرك ـ الضيق جداً ـ والدار الخاصة بإدارة تجارة الحرير. وفي سنة ١٥٢٢ ذُكر بـهذا الجزء اسم شـارع يدعى "جليس مناليـمان" Jelis Minaleyman. كما كان في مـقدمة تلك المنطقة مسجد أنشـئت في نطاقه المتاجر التي أصبـحت فيما بعـد ملكاً للكنيسـة الكبرى، وذلك في النصف الأول من القرن السـادس عشر(٤٤). وقد تركـزت "متاجر الـعطارين" في ذلك الشارع، شارع موظفي الحرير، بينما كان شارع العطارين ينتهي عند الكنيسة الكبرى.

ويذكر التصميم الذي رسمه "لوبيث" Lopez «وجود باب وشارع الأصباغ» عند الطرف الآخر شرق القيصرية، وكذلك متجر أو محل لبيع الأصباغ المحدد موقعـه بمحيط القيصرية؛ وكان الشـارع المذكور سابقاً يفصل القـيصرية عن دار شمامـسة الكاتدرائية في القـرن الثامن عشر. كمـا يقع على مسافة أبعـد قليلاً المبنى الذي استعمل مدرسةً في العـهد الإسلامي ثم مبنًى للبلدية بعد السيطرة، ويفصل بين ذلك المبنى والدار السابق ذكرها شارع "إستريبو" C. Estribo الذي افتـتح بعد سنة ١٤٩٢ بمدة قليلة. وتجـعل المراجع المنتمـية إلى القـرن السادس عشر موقعَ محلات الأصباغ غيرَ بعيد عن شارع "إستريبو"، وتبين كذلك أنها كانت تقع بين "السويقـة" ونـهر "الـدارو"؛ علـمًا بأن حارة الصـباغين كانت تمتد إلى النهـر، إضافة إلـى "الـشـارع المسمـى بشـارع السويقـة حيـث كـان يغـسل الحـرير" C. Azacaya(٤٥). وقـد أدى انهـيار تجـارة الحـرير إلى إخـلاء القيصرية جزئيًا، ويعتقد من ثم أن بعض المصابغ أنشئ بها في مكان قريب من مواقع المصـابغ القديمة، بالإضـافة إلى إقـامة مـحلات الكتبـة وبعض المكاتب والصناعات الأخرى.

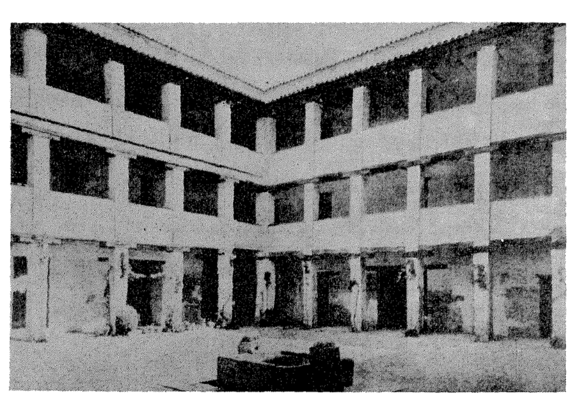
ويبين تصميم "لوبيث" للقيصرية وجود بابين في جهة الجنوب، وكانت وظيفتُهما توصيلَ هذا الجزء من القيصرية بالسويقة ويعرفان "بالباب والمنزل الجديدي الاستعمال» PUERTA Y CASA DE NUEVO USO . ويوضح التصميم، في حقيقة الأمر، أنهما فُتحا في منتصف القرن السادس عشر تقريبًا، وعندئذ



غرناطة ـ فناء الفحم، مخطط أفقي ومقطع طولي.

أغلق باب آخر أوسط صغير يسميه الكاتب "بنتورا" Ventura "بـابَ الـمنجّدين والسجّـادين" LOS TAPICEROS Y ALFOMBRISTAS، وكان يُفـتح على حارة معروفـة بنفس الاسم. كما كان بالـقرب من شارع موظفي الحـرير شارعٌ آخر معـروف "بشارع الـصرافة والـقرض" CAMBIO Y PRESTAMO مزودٌ بـباب موصل إلى القيصرية".

وكان في الجزء الغربي ثلاثة أبواب، ومداخله توصّـل من الـرحبة المعروفة بباب الرملة إلى ثلاث حـارات أخـرى عينهـا "لوبيث" على النحـو الآتي: الأول «باب وشارع الأقـمشـة»، والثاني «باب وشـارع ريال (الملكي) Puerta Real»، أما الباب الثالث فإنه تحول حينئذ إلى متجر وكان معـروفًا "بمتجر الخردوات" وفقاً لـما يعتقده "بنتورا" علمًا أن هذا الكاتب رسم الباب الذي شغل المتجر محله مفتوحًا.



غرناطة ـ فناء الفحم، جزء مرمم (النصف الأول من القرن الرابع عشر)

(تصوير تورّيس مولينا).

وهناك باب رابع آخر أو بتعبير أصح "خوخة"، واقعة على شارع ضيق كانت تصل المساحة الداخلية من القيصرية بالسويقة؛ وكانت تسمى سنة ١٨٤٣ "بباب الصاغة"؛ واستقر هؤلاء الصاغة، منذ القرن السادس عشر على الأقل، في الأماكن القريبة من القيصرية. وفي النصف الأول من القرن السادس عشر، كان بقرب تلك المنطقة شارع فيه باب يصل بالقيصرية يسمى بشارع "الشنشكايرين" Chinchicayrin أو "الشنشاكايرين" تباع فيه الجوارب، وهناك شارع آخر معروف بسوق الكتان؛ وشارع ثالث معروف بشارع جامعي الخرق؛ بالإضافة إلى شارع رابع معروف بشارع "حامد مينااليمان" وشارع باعة المعاطف. ومن المعتقد أنه كان يباع بهذه المنطقة سنة ١٥٠٦ المنتجات ـ التي ربما كانت تباع في عهد العرب ـ كالثياب التي يرتديها المسلمون الأندلسيون ولثاماتهم الشفافة، وكان المكان معروفًا "بالمركاتيل" Almercatyl[٤٦]. وفي أقصى الاتجاه الغربي للقيصرية المواقع الآتية: مكان الحراسة، غرفة الكلاب، بالإضافة إلى بعض الأفنية والمخازن، علمًا بأنها قد أقيمت بلا شك نتيجة لبعض الإصلاحات التي جرت تحت سيطرة المسيحيين. وهناك شارع متفرع من الشارع العرضي الذي كان يفصل بين القيصرية ورحبة باب الرملة، يسميه "بنتورا" شارع جامعي الخرق في جزئه القريب من رحبة باب الرملة، وشارع "باعة الكتان" في الجزء الآخر منه؛ وقد وجد في جزئي الشارع كليهما بعض السقائف.

والإحصاء الذي قام به "لوثيو مارنيو سيكولو" في القرن السادس عشر يفيد بوجود حوالي مائتي متجر في القيصرية، وقد اختصر هذا العدد في أواخر القرن الثامن عشر، كما يوضح ذلك تصميم "دون توماس لوبيث"، حتى أصبح عددها ١٥٣ فقط، تسعون منها كانت تقع في الجزء الغربي من القيصرية[٤٧].

ويقول "بنتـورا ساباتيل" عن المتاجر إنها كانت "ضـيقة"، ومـزودة بباب واحد فقط كان يـفتح على الشارع، وكان يرفع إلى أعلى مشكلاً سقـفًا يستند على عكازين من الحـديد (ويحتمل أنهـما كانتـا من الخشب في عهـد العرب) وكان الغرض منهما وقاية المشتري من المطر أو من أشعة الشمس. وهناك بعض المتاجر لم يسمح لهـا ضيق الشارع بغلق أبوابها مجتـمعةً، ومن ثم كانت تغلق بألواح خشبية مفردة متشابك بعضها ببعض... أما الطوابق السفلى من المتاجر فكانت هي فقط المزودة بسقيفة من القـرميد على هيئة مظلة. وتنفصل الأبواب عن بعضها بواسطة حاجز من الطوب المشـدود بعمود وسطي وعصًا من خشب الصنوبر مرتكزاً رأسيًا تستند إليه مساحـة السقيفة، وكذا الشكل الطائر بأكمله، وكان يسـتخدم بغـرض تثبيت اللوازم والعناصـر الحديدية الخاصـة بأمن البابين المتجاورين. وكانت المتاجر مدهونة بالـمَـغْـرة طبقًا للعادة السائدة لدى العرب، والشوارع مـرصوفـة ببلاط من الفـسيفـساء الرقـيق، وبعضـهـا مزيـن بالرسوم العربيـة، والآخر بالرسوم الرومانيـة. وكانت رقة الأشكال والمتـاجر وصيانتـها تشيران إلى أهمية التجار الذين كانوا يشتغلون فيها»(٤٨).

وقد بقي حتى أواخر القرن الماضي المنزل الصغير التابع لجمرك الحرير بالرقم ٥ "شارع التينت" Tinte، وكان في حـالة تـلـف؛ وكان يظهـر قوس غرفـته العليا من الواجهتين مبـينًا «الزخرفة العربية الدقيقة المنتـمية إلى منتصف القرن الرابع عشر». ولم يبق إلا كلمتان من الكتابة الكوفية المدونة حوله؛ التي كانت تذكر الآيات القرآنية المعروفة. أما سـقفا الدهليز المجاور و"مضجع" واقع على يسار الصالة، فإنهـما كانا مصنوعين من الروافد الصغيرة ومن الألـواح الخشبية المتشـابكة بين الروافد؛ وباقي المبنى ينتـمي إلى القرن السادس عـشر في أغلب

الظن[٤٩]. وقد بقي في ذلك المبنى حتى ذلك الوقت "عكار" كانت تعلق فيها بالات أو جوالات الحرير بغرض وزنها عند تسلمها؛ ثم كان الحرير يعلق بعد ذلك في الهواء الطلق بغرض تهويته، ويعرض بعد مرور ٢٤ ساعة مرة أخرى أمام البائع والمشتري، بغرض تجنب سوء النية أو التدليس في حالة ما إذا كانت البضائع مسروقة[٥٠].

**القيصريات المغربية.**

يتفق أغلب الكتاب على أن القيصريات انتقلت من أسبانيا الإسلامية إلى المغرب. فهناك درجة كبيرة من التماثل بين القيصريات الواقعة على كلتا ضفتي مضيق جبل طارق، وعليه فإنه لتكملة وصف القيصريات الأسبانية يجب الاستعانة ببعض المعلومات الواردة من القيصريات المغربية في القرون الوسطى.

وحسب "القرطاس" إنه عندما أسس إدريس في السنوات الأولى من القرن التاسع مدينة فاس بنى القيصرية بالقرب من المسجد، ورتب حولها بعض المتاجر والرحاب[٥١]. وفي القرن السادس عشر قام "ليون الأفريقي" بوصفها وصفًا مفصلاً قائلاً إنها كانت محاطة بالأسوار، وكانت تتفرع خلال العديد من الحارات وبعض الرحيبات، وفيها العديد من المتاجر الصغيرة. وكان لها اثنا عشر بابًا، وكان يقوم بمراقبتها ليلاً بعض الحراس المسلحين المزودين بالمصابيح والكلاب[٥٢]. وبعد مرور قرن تقريبًا، يقول "فرانسيسكو دي سان خوان ديل بورتو" عن قيصرية مدينة فاس القديمة إنها كانت تقع في وسط المدينة على أرض مستوية قريبة من المسجد الجامع: «وأنها كانت تضاهي مدينة صغيرة بأسوارها وبأبوابها المتينة المزودة بالسلاسل الموضوعة عرضًا لمنع دخول الخيل. وكان لها خمسة عشر باباً، وهي مشتملة على أجود المتاجر، المرتبة الواحد تلو

الآخر ليس بـينها منازل؛ ذلك لأنه لا يسكن هناك عـائلات على الإطلاق ولا يبيت فـيها أحد ليـلاً؛ وبعد خروج جمـيع التجار منهـا تغلق الأبواب، وتبقى المجمـوعة كلها تحت رعـاية عمدة القيـصرية؛ ويحرس هذا الأخـيرُ المكان مع حرّاسه، متحمـلاً مسؤولية الأضرار الناتجة، كما تتحمل مجـموعة التجار أجر القيام بتلك الرقابة الليلية. والمتاجر التي تباع فـيها نفس المنتجات قريب بعضُها من بعض؛ وتتـجمع في شـارع واحد أو فـي أكثـر من شارع. وللبـحث عن البضـائع المطلوبة لا يستدعي الأمـر التجول فيـها كلها، وكذلك الحـال خارج القيصرية؛ ومن ثَمّ يوجد في أحد الشوارع تجار الفاكهة دون أن يدخل وسطَهم باعةُ الأنواع الأخـرى من البضـائع، وفي شارع آخر يوجـد صانعـو الأحذية، وهكذا بالنسـبة إلى الأنواع الأخـرى من البـضائع الاسـتهـلاكيـة. وما يبـاع بالقيصرية هو عبارة عن أثمن وأرقى البضائع كأنسجة الحرير والأقمشة وأنسجة الكتان والقطن». والمؤلف نفسـه يذكر أيضًا كيف كانت شوارع القـيصرية ترش بالماء صيـفًا قـبيل الفـجر، وكان الأهالي يتـجولون فـيها، وفي الأمـاكن التي تركزت فيها التجارة، حامـلين المباخر لإزالة الروائح الكريهة وليعطروا بها الجو كله[٥٣]. وفي النصف الأول من القـرن التـاسع عشـر، وطبـقًا لقـول "دون دومنجو بديع"، كانت شوارع قيصرية مدينة فاس «ملأى بمخازن أنسجة القطن والحرير وبالمواد اللازمـة للبقالة»، وكـانت مغطاة «بالخشب المبني على زخـرفة التوريق وبه فتحات أو نوافذ ذات أشكال مـختلفة، بغرض نفاذ الهواء والضـوء إليـها»[٥٤].

وكان في مراكش سنة ١٢١١م قيصرية هدمت بعد حريق كبير شبّ فيها في ١٣ من جمادى الأولى من تلك السنة (٢ نوفمبر)[٥٥].

والكاتب الذي وصف مدينة سبتة ـ وهو محمد الأنصاري، في أوائل القرن الخامس عشر، يصف أجزاء المدينة ومبانيهـا المختلفة مستعملاً أسلوب الإطناب والمغالاة، ويقتصر قوله على تحديد موقع القيصرية خلف المسجد الجامع(٥٦).

**القيصريات في المدن المسيحية.**

تكلمنا في الصفحـات السابقة عن القيصـرية كمؤسسة تجـارية، وكيف أنها استـمرت في أداء وظيفتـها دون انقطاع في عدد من المدن الأسـبانية ـ إشبـيلية وغرناطة وغيرها ـ فيما بعد السيطرة المسيحية، وكانت تشغل الموقع الذي شغلته في الفترة الإسلامية.

وهكذا اسـتمـرت خلال القـرون قيـصرية مـدينة "طليطلة". وفي تقـويم ١٢٠٤، سنة ١١٦٦، منح ألفـونسـو الثامن لخـوان ثبـاثيرو «مـتجـراً داخل القيصرية ومـتجرين بالقرب من الشارع العام إلى سـيكلاتورس، بالإضافة إلى متـاجر أخرى واقعـة على الطريق العام»(٥٧). وفي أواخر القـرن الثاني عـشر كانت القيصرية في ربض الملك، الواقع بضاحية "سانتا ماريا مجدالينا" بالقرب من الكنيسـة الكاتدرائية، المسجد الجـامع سابقًا، وكـانت تكثر في ذلك المكان المطاعم الشعبيـة والخانات. واستمرت تسميـة "ضاحية الملك Barrio Rey حتى اليوم للإشـارة إلى الشارع والحارة اللذين يصـلان ما بين كنيسة "لامـجدالينا" وسوق الدواب Zocodover(٥٨).

ويذكر كاهـن الكاتدرائية "بيدرو دي ميـسا"، في الخطاب الذي يحكي عن الشغب الذي وقع بمدينة طليطلة سنة ١٤٦٧، والـذي صاحبته مـذبحة الرهبان العاملين في خدمة الـدير، أن المسيحيين القدماء قامـوا بإشعال النار في بعـض المنـازل الواقـعـة بالقـرب من «باب غفـران الكنيسة الكاتـدرائية» «ولأن الرياح

هبت جنوبًا فـقـد انتشـر الحـريق في الشـوارع الأربعة واحـتـرقت قـيصـرية الأقمشة»[٥٩].

وفي فترة لاحقة، سنة ١٥٧٦، ذكر اسم قـيصرية مدينة طليطلة «حيث يبيع التجار فـيها أقمشتـهم مستعينين بمقـياس الذراع» وتم تحديد موقعهـا عند رعية "سان بيدرو" التـابعة للكنيسة الكـاتدرائية؛ وفي أوائل القرن السابع عـشر قام الدكتـور "فرانسـيسكو دي بيـسا" بتـحديد مـوقعـها بصـورة أدق قائلاً: «إن القيـصرية توجد في المكان المسـمى "بالشوارع الأربعة"، وبهـا تجار الأقمـشة والأنسجة من كل الأنواع، وتوجد بمدينة طليطلة تجارة ضخمة من هذه الأقمشة وأنسجة الحرير والبضائع الأخرى، كما يكثر فيها التجار الأثرياء الذين يتاجرون ولديهم اتصالات تجارية ببلنسـية وشاطبة ومرسية ومديـنة ديلكامبو ومدينة دي ريو سيكو ومـدينة إشبـيلية وقـادش وأستجّـة، وبالمدن الأخرى الواقـعة داخل المملكة وخارجها إلى الهند. وتمتد الشواع الأربعة من خلال السوق وتصل حتى الكنيـسة الكبرى الواقـعة أمـام رحبة شـؤون بلدية المدينة»[٦٠]. وهناك مرجع صـادر عن بلدية طليطـلة مـؤرخ في ١٥٩٦ يذكـر اسم «الشـارع الملكي الذي استقرت فيه القيصريات»[٦١].

وقد وُجدت "القـيصرية" في عدد من المدن الإسبـانية الأخرى ذات الأصل الإسـلامي. وتَنُص لائحة مـدينة "قُـونكة" Cuenca على أن دعـوات المحاكم الجارية بين اليهود والمسيحيين يجب إبرامها عند باب القيصرية، وليس على باب المعبد اليهـودي، وقد كررت اللائحة السابقة في «المرجع الخاص بتعـمير منطقة "البراثين"؛ وذُكر اسم "قـيصرية" مدينة قُونكة في مـرجع من مراجع أرشيف البلدية سنة ١٤١٩[٦٢]؛ أمـا قـيـصـرية مـدينة "طرويل" Teruel فكانت في

السنوات الأولى من القرن الخامس عشر تقع في الرحبة التي كانت تتم فيها الأعمال التجارية للمدينة[٦٣]. أما قيصرية مدينة سرقسطة Zaragoza فحدد موقعها برحيبة "لابيرونيك" Laveronica التي كانت تتصل بميدان المصارع بواسطة عدة درجات مبنية خلال فتحة الجدار[٦٤]. وكان القاضي يُعْلِن عن حقوق إيجار قيصرية مدينة "وَقَشة" Huesca سنة ١٣١٥ وفي السنوات اللاحقة لهذا التاريخ، وكان قاضياً من قضاة السماسرة وكان يصرف له مقابل هذا العمل ١٢ ديناراً من مدينة "جاكا" Jaca[٦٥].

وقد تنازل "خايمي" الفاتح سنة ١٢١٩ عن قيصرية "قلعة أيوب" Calatayud لدير "برناردو دي بيدرا"، كما وهب مسؤولَ الدير حقوق الشراء والبيع والاستبدال داخل أسوار القيصرية[٦٦]. وكان فيها عدد من المتاجر المؤجرة للتجار الذين كان كثير منهم ذا أصل يهودي. وقد حاول بعض هؤلاء اليهود إلغاء الامتياز الملكي أكثر من مرة؛ وفي سنة ١٣٣٧ صدر حكم بحجز ممتلكات أربعة تجار من باعة الأقمشة، وقد بلغت قيمة الحجز ٥٠٠ ريال مرابطي من الذهب عقابًا لهم، وذلك بسبب إقامتهم متجراً وممارستهم فيه بيع الأقمشة خارج القيصرية. وفي سنة ١٤٦٥ لم يكن مرخصاً بتأجير محلات القيصرية للرعايا اليهود والرعايا المدجَّنين كما كانت العادة في القرن السابق. وطبقًا لقول "دون بيثنت دي لافونتي" V.de la Fuente كانت القيصرية تشغل أرض مبنى بلدية المدينة، وتمتد مساحتها إلى قريب من "لاروا" La rua الرحبة المعروفة اليوم "برحبة السوق"، الممتدة من شارع "لاس ترانكاس" Las Trancas حتى "لاروا" السابق ذكرها، يحدها جنوبًا مقبرة "سان بيدرو دي لوس فرانكوس"؛ وكانت أمامها رحبة كانت تقام فيها الأسواق الأسبوعية[٦٧].

وفي سنة ١٥٨٠ ذكر ١٤ متجرًا في قيصرية مدينة شريش (خيريث دي لافرونتيرا)(٦٨).

إن القيصرية، مثل المؤسسات الأخرى التي هي من أصل أسباني إسلامي، استمرت خلال القرن السادس عشر، وقد نقل الإسبان أنظمة القيصرية إلى أمريكا اللاتينية. ففي أوائل القرن اللاحق اقترح بناء قيصرية واحدة في المكسيك عند المنازل التي كانت مُلْكا لـ"كورتيس" Cortes في وقت ماض؛ ويبدو أن مثل المشروع لم ير النور، ولكن تم تصميم حارات ضيقة ومعروفة باسم القيصرية حتى عصر حديث عندما فُتِحَ شارع فيها معروف بشارع "لاباالما"(٦٩).

وباختصار كانت القيصريات الإسلامية الأسبانية عبارة عن أسواق مغلقة جيدة الحماية، وكانت ملك الحاكم، وكان يعرض فيها خام الحرير بالجملة بغرض تسديد حقوق الحاكم وبغرض تسعيره، وكان يباع فيها أثمن البضائع التي منع الاتجار بها خارج تلك الأسواق: وبالأخص تجارة الحرير ومنتجات الفضة والصياغة في بعض الأحيان، وأحيانًا أخرى كانت تباع فيها منتجات متنوعة للغاية. وكان يباع أيضًا الأزياء الجاهزة؛ وبهذا الخصوص يحكي ابن قزمان في شعره، في منتصف القرن الثاني عشر تقريبًا، كيف اصطحبه "المنادي" خلال قيصرية واسعة بأكملها باحثًا عن عباءة جديدة رقيقة وأنيقة، مزودة بالتطريز وجيدة الحياكة، كان يريد التزين بها، ولكنه لم يتمكن من العثور على شيء مناسب لذوقه(٧٠).

وكانت مكاتب الصرافين داخل القيصرية عادة. وكانت مواقع القيصريات عادة قريبة من وسط المدينة بجوار المسجد الجامع، وكانت تغلق في الليل

بأبواب قوية، وبداخلها بعض الأشخاص المكلفين بحراستها. والمساحة الداخلية كانت مقسمة إلى حارات ضيقة لم يكن يمر بها الخيالة، وبها بعض الرحيبات والمتاجر الصغيرة المرتبة في صفوف على حافة الشوارع، والمجمعة طبقًا لنوع البضائع التي كانت تباع فيها، والتي كانت تؤجر للتجار أو لأصحاب الصناعات. وكانت قيصريات مدن غرناطة ومالَقة والمرية أحسن القيصريات وأوفرها إيرادًا للحكام النَّصْريين. وسبق الحديث عنها وكيف استمر البعض منها خلال التاريخ، وقيصرية مدينة إشبيلية التي استمرت إلى وقت حديث؛ كما بقي ذكر قيصرية مدينة طليطلة حتى أوائل القرن الثامن عشر؛ وقيصرية مدينة غرناطة إلى أن أبادها الحريق المؤسف الذي شبّ فيها سنة ١٣٨٤.

(1) **Supplément aux dictionaires arabes,** por R. Dozy, t. II, p. 432. «El Alcaicería, que hasta ahora guarda el nombre romano de César (a quien los árabes en su lengua llaman caizar), como casa de César» (Hurtado de Mendoza, **Guerra de Granada,** ed. Rivadeneyra, t. XXI, p. 90). Repiten lo mismo Sebastián de Covarrubias, **Tesoro de la Lengua Castellana o Española,** p. 71; Mármol Carvajal, **Desc. general de Africa,** lib. 4, cap. 22; León Africano, **Description de l'Afrique,** trad. Jean Temporal, t. I, p. 364. Pedro de Alcalá traduce **cayṣāriyya,** por «lonja de mercaderes» (Petri Hispani, **De lingua arabica libri duo,** Pauli de Lagarde, p. 295). Gunnar Tilander, **Los fueros de Aragón,** p. 242, propone la etimología: **alcáçar, alcácer, alcacería.**

(2) **Diccionario de la lengua castellana,** en que se explica el verdadero sentido de las voces, su naturaleza y calidad..., compuesto por la Real Academia Española, **t. I** (Madrid, 1726), pp. 175-176.

(3) **Encyclopédie de l'Islam,** II, pp. 700-701, **Kaiṣārīya,** por M. Streck; Massignon, **Situation de l'Islam** (París, 1939), pp. 21-22.

(4) Con ese nombre figura en el primer plano de la ciudad de Córdoba, levantado en 1811, que se conserva en su Ayuntamiento y fue publicado por Miguel Angel Ortí Belmonte, **Córdoba durante la Guerra de la Independencia.**

(5) Libro de escrituras, encuadernado en tablas, del Arch. de la Cat., según cita de Rafael Ramírez de Arellano, **Historia de Córdoba,** IV, pp. 11 y 44; Miguel de Manuel Rodríguez, **Memorias para la vida del Santo Rey Don Fernando III,** p. 453.

(6) Ibn al-Abbār, **Takmilat al-Sila,** edic. Codera, **Bibl. Ar. Hisp.,** t. V-VI, biog. 1.434.

(7) Mercado de ropas hechas, llamado en árabe hispánico **marqatān,** del romance **mercadal** (Lévi-Provençal y García Gómez, **Sevilla a comienzos del siglo XII. El tratado de Ibn 'Abdūn,** p. 180).

(8) P. Melchor M. Antuña, **Sevilla y sus monumentos árabes,** p. 141 del texto árabe y 123-124 de la trad.

(9) Manuel Rodríguez, **Memoria para la vida del Santo Rey don Fernando III,** p. 145.

(10) **Sevilla en el siglo XIII,** por Antonio Ballesteros, docs. núms. 60, 179, 182 y 183, pp. LXII-LXIII; CXCI-CXCII; CXCIV y CXCV-CXCVII.

(11) Ramón Carande, **Sevilla, fortaleza y mercado (Anuario de Historia del Derecho Español,** II, p. 337). En 1295 era guarda Per Yannef de la «alcaçería de Seuilla» **(Documentos lingüísticos de España,** I, **Reino de Castilla,** por Ramón Menéndez Pidal, p. 471).

(12) Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** pp. CCCXXIX y CCCXXXVIII. Arch. Cat. Sevilla, leg. 79.

(13) **Ibidem,** pp. CCCXXIX, CCCXXXIII y CCCXXXXVIII, Arch. Cat. Sevilla, legs. 31 y 34.

(14) **Historia de Sevilla,** por Alonso de Morgado, pp. 167-168; la primera edición de 1587. Juan de Mallara escribía por entonces: «La Alcacería para los paños, Sedas, Plata, Oro, Perlas y piedras preciosas, lienço, telas de Oro y Brocado, todo debaxo de sus puertas y alcayde» **(Recebimiento que hizo la muy noble y muy leal Ciudad de Seuilla a la C. R. M. del Rey D. Philipe. N. S.,** f.º 149).

(15) Rodrigo Caro, **Antigvedades y principado de la ilvstríssima civdad de Sevilla,** f.º 61 v.

(16) **Noticia histórica del origen de los nombres de las calles... de Sevilla,** por don Félix González de León, pp. 161-162.

(17) Pascual Madoz, **Dicc. geog.-est.-hist. de España y sus posesiones de Ultramar,** XIV, p. 387.

(18) Ballesteros, **Sevilla en el siglo XIII,** p. CCCXXXVIII, Arch. Cat. Sevilla, leg. 79.

(19) González de León, **Noticia histórica,** pp. 160-161.

(20) **Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia y Cerdeña,** por Próspero de Bofarull y Mascaró, pp. 120-121.

(21) **Documentos históricos de Málaga,** por Luis Morales García-Goyena. I, p. 3.

(22) **Málaga musulmana,** por F. Guillén Robles, pp. 490, 491 y 493; **El ensanche de Málaga, El de Puerta del Mar,** por Joaquín M. Díaz de Escobar, en **Estudios malagueños,** p. 6. Guillén Robles, en el plano que publica de **Málaga musulmana** —p. 470—, a base del dibujado en 1791 por don José Carrión de Mula, sitúa la alcaicería en el centro de la ciudad, en la manzana que hace esquina a la «plaza de las Cuatro Calles» la que más tarde se llamó «Principal» y de la «Constitución»), entre las de Granada y Santa María, en el solar ocupado en los primeros años del sigo XIX por el convento de religiosas de Nuestra Señora del Carmen.

(23) Morales y García-Goyena, **Docs. Hist. de Málaga,** I, pp. 60 y 127-128.

(24) **Repartimiento de Málaga y su Obispado, Vélez-Málaga,** por Juan Moreno de Guerra, pp. 390 a 392.

(25) Mármol, **Rebelión,** segunda impresión, I, p. 37.

(26) **De los Beni Nasr o Naseríes de Granada,** apéndice B a las **Ilustraciones de la Casa de Niebla,** por Alonso Barrantes Maldonado, t. II **(Memorial Histórico Español,** p. 563).

(27) **Las cosas que pasaron entre los reyes de Granada,** y relación árabe anónima, de la pérdida de Granada, ambas en **Relaciones de los últimos tiempos del reino de Granada,** pp. 18 y 146-147.

(28) «Minuta de lo tocante al asiento que se dió a la ciudad de Granada por los Reyes Católicos acerca de su gobierno» (Manuscrito de la Bibl. de El Escorial, sin fecha, publicado en **Colección de docs. inéditos para la Historia de España,** VII, p. 472).

(29) «y los otros derechos que en cualquier manera pertenezcan y sean deuidos a su Magestades de la dicha seda en madexas, como a Reyes de Granada: lo que se pague y cobre en vna de las tres alcaycerías de las ciudades de Granada, y Málaga, y Almería, como se han cobrado y pagado, y acostumbrado pagar y cobrar los años passados». Morales García-Goyena, **Documentos históricos de Málaga,** II, pp. 127-130). Este documento expresa claramente cómo los Reyes Católicos respetaron la organización islámica de la alcaicería. Velázquez de Echevarría **(Paseos por Granada,** p. 203) dice que bajo dichos monarcas, en los primeros tiempos de dominación cristiana, los jelices siguieron siendo moros. Nadie podía vender la seda **(Nueva Recopilación,** lib. 9, tít. 30, leg. 9) fuera de la alcaicería en el reino granadino, trocarla ni tomarla, por ningún concepto, como dádiva ni como pago. Ninguna madeja podía circular dentro del reino, ni salir de él sin pasar por la alcaicería. En ellas los poseedores recibían guía a los efectos del tránsito (Ramón Carande, **Carlos V y sus banqueros, La Hacienda real de Castilla,** p. 315).

(30) A comienzos del siglo XVII, dice Henríquez de Jorquera que la alcaicería granadina era «una de las mayores rentas que su magestad tiene, pues en todo el reino se consumen más de treinta mil ducados» (Frnacisco Henríquez de Jorquera, **Anales de Granada,** p. 82.

(31) **Voyage de Philippe le Beau en Espagne, en 1501,** por Antoine de Lalaing, p. 205.

(32) **Viaje de Navajero** en **Viajes por España de Jorge de Einghen**..., anotados y con una introducción por don Antonio María Fabié, pp. 289 y 400-401.

(33) L. Marineo Sículo, **De las cosas memorables de España,** en **Viajes por España,** de Fabié, pp. 560-561.

(34) Henríquez de Jorquera, **Anales de Granada,** pp. 82-83.

(35) **Paseos por Granada,** por el Doctor don Juan Velázquez de Echevarría, paseo XI, pp. 83 y 203-205.

(36) **La Alcaicería,** por Indalecio Ventura Sabatel **(Bol. del Centro Artístico de Granada,** pp. 131-132).

(37) **Manual del Artista y del Viagero en Granada,** por José Giménez Serrano, pp. 178-180.

(38) **El libro del viajero en Granada,** por don M. Lafuente Alcántara, p. 216.

(39) **Estudio descriptivo de los monumentos árabes de Granada, Sevilla y Córdoba,** por Rafael Contreras, pp. 341-342.

(40) «Diseño por planta de la Alcaizería y calles que le circundan según su actual estado, sugeto al pitipié de varas castellanas, echo por Thomás López (s. f., Granada, 10 de octubre de 1787). Tinta y color encarnado, 229 x 478 mm. (Arch. gen. de Simancas, G.ª y J.ª, 132).

(41) «Plano de la alcaicería en la época de los árabes». Ventura Sabatel, **La Alcaicería (Bol. del Cent. Art. de Gran.,** V, p. 140).

(42) **Guía de Granada,** por Gómez-Moreno, pp. 218 y 313.

(43) El plano de don Tomás López ofrece, según queda dicho, un trazado de calles mucho más regular que el de Ventura Sabatel; en este aspecto, creemos más próximo el último a la realidad. Es curioso señalar el hecho de que cuando los musulmanes españoles edificaban de nueva planta un pequeño barrio comercial, cosa que sin duda ocurrió con esta alcaicería, disponían las calles normalmente, según un trazado regular. Análogo debió de ser el de la alcaicería almohade de Sevilla, con sus cuatro puertas que parecen indicar dos calles formando cruz.

(44) Ventura Sabatel sitúa en su plano una pequeña capilla en la parte occidental de la alcaicería; sin duda se instaló en lugar distinto al ocupado por el oratorio musulmán.

(45) Frontera de la mezquita mayor, en la plaza del Colegio, había una calle llamada **Garbi exima** —Occidente de la aljama— que debía de ser una de las exteriores de la alcaicería.

(46) Tal vez **al-marqatān** (Véase supra nota 7).

(47) Además de los oficios de la seda y tiendas de paños, que eran los tradicionales, había entonces en la alcaicería otras de tintes, librerías, almacenes y escribanías.

(48) Ventura Sabatel, **La Alcaicería**, pp. 131-132.

(49) **Guía de Granada**, por Gómez-Moreno, p. 314.

(50) Ventura Sabatel, **La Alcaicería**, pp. 138-139.

(51) Trad. A. Huici (Valencia, 1918), p. 34; trad. Beaumier (París, 1860), p. 44.

(52) **Description de l'Afrique**, por León l'Africain, trad. Jean Temporal, pp. 364-368.

(53) **Misión Historial de Marruecos**, por Fr. Francisco de San Juan de el Puerto, libro V, cap. XLII.

(54) **Viajes por Ali Bey el Abbasi por Africa y Asia**, t. I, pp. 106-107.

(55) **El anónimo de Madrid y Copenhague**, trad. A. Huici, pp. 115-116.

(56) **Une description de Ceuta musulmane au XVe siècle**, por Lévi-Provençal.

(57) Arch. Hist. Nac., Cart. o Becerro de la Cat. de Toledo, 978-B, fol. 63 r, según cita de Rodrigo Amador de los Ríos, **La Alcana de Toledo**, p. 71.

(58) Arch. Hist. Nac., Cart. 1, fol. 63, según cita de González Palencia, **Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII**, volumen preliminar, p. 68; III, pp. 316-318.

(59) Publicada por Antonio Martín Gamero, en su **Historia de la ciudad de Toledo**, apéndice XIII, pp. 1040 ss.

(60) **Memorial de algunas cosas notables que tiene la ciudad de Toledo**, por Luis Hurtado Mendoza de Toledo, año de 1576; **Descripción de la imperial ciudad de Toledo**, por el Doctor Francisco de Pisa, f.º 33.

(61) Arch. mun., Toledo, caja 4.ª, leg. 2.º, núm. 70, p. 59, según cita de Amador de los Ríos, **La Alcana de Toledo**, p. 72.

(62) **Indice del Archivo municipal**, por don Timoteo Iglesias Mantecón, p. 146.

(63) Francisca Vendrell, **Concesión de nobleza a un converso**, p. 398.

(64) **Zaragoza histórica**, por Ricardo del Arco, p. 95.

(65) **Censo de Cataluña, ordenado en tiempo del rey don Pedro el Ceremonioso**, por don Próspero de Bofarull y Mascaró, p. 330; **Rentas de la Antigua Corona de Aragón**, por don Manuel de Bofarull y de Sartorio, p. 164 **(Colecc. de docs. inéditos del Arch. Gen. de la Corona de Aragón**, tomos XII y XXXIX). Aluden también a alcaicerías los fueros de Jaca, Alarcón, etc. En los «Fueros de Aragón», compilación promulgada en Huesca en 1247 por Jaime I el Conquistador, también se citan las alcaicerías (Tilander, **Los fueros de Aragón**, pp. 161 y 241-243). Los romanistas no suelen tener un concepto claro de lo que eran las alcaicerías en la España cristiana, en las que los comerciantes no eran exclusivamente judíos, aunque éstos predominaran en algunas, ni pueden confundirse con el alcázar o palacio real; en alguna ocasión se emplazarían en sus inmediaciones, protegidas en otras por los mismos muros.

(66) **España Sagrada**, L, p. 438.

(67) **Historia de la siempre augusta y fidelísima ciudad de Calatayud**, por don Vicente de la Fuente, II, pp. 122-123, 193-194, 217-218 y 280, n. (1); **Reseña histórica del monasterio de piedra**, pp. 373-374.

(68) **Bandos en Jerez: los del puesto de Abajo**, por don Juan Moreno de Guerra, segunda parte, p. 93, n. (IV).

(69) Publicó el plano de esta fracasada alcaicería don Lucas Alamán en el tomo III de sus **Disertaciones**, según Manuel Toussaint, **Arte mudéjar en América**, p. 47.

(70) A. R. Nykl, **El cancionero de Aben Guzmán**, XXIV, pp. 374-376.

# الفصل العاشر

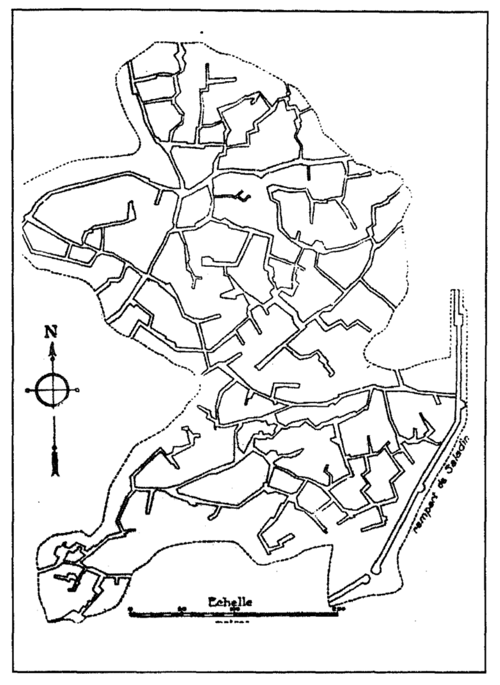
## الشوارع المسدودة والدروب

### الدروب الأسبانية الإسلامية.

كان المصطلح القشتالي "أداربي" ADARVE منذ القرن الثاني عشر وحتى أواخر القرن السادس عشر يدل على السور أو الجدران المبنية كحاجز دفاعي. ومنذ القرن السادس عشر استعملت تلك التسمية للإشارة إلى جزء واحد من أجزاء السور، وهو بالتحديد الممر الضيق الممتد على طول علو السور بغرض حماية المتاريس المسننة، وقد بقيت تلك التسمية بمعناها ذاك في العصر الحالي، أما المعنى السابق فقد اختفى في طي النسيان[١].

والمصطلح درب ـ جمعه: دروب ـ الذي ينتمي إليه أصل الكلمة القشتالية، يشير في اللغة العربية إلى الشارع أو الزقاق المسدود، أي الخالي من أي مخرج في معظم الأحيان، وهو مزود بباب واحد أو بعدة أبواب لإغلاقه. والشارع المسدود لم يكن له اسم خاص[٢]؛ بل كان الشارع يتحول إلى درب عند تركيب باب أو عدة أبواب عند مدخله. ولا نعلم كيف أو متى تغير هذا المعنى؛ فكان المصطلح يستعمل في أسبانيا في القرون الوسطى في عهد المسيحيين بمعنييه معًا كما سيتضح في الصفحات التالية.

ويبدو أن كلمة "درب" كانت تستعمل في الأصل للإشارة إلى حاجز يوضع بغرض الحماية والدفاع، وعلى هذا كانت وظيفةُ الدرب ذي الباب المغلق ليلاً شبيهةً بسور المدينة أو قلعتها.




خريطة لحي نُقّب عنه في الفسطاط (مصر).

ومن ثَم كان يتميـز "الدرب" ، الآتي من الشرق، بوجود الباب أو الأبواب الخاصة به المركبة لعـزله ليلاً. على الرغـم مـن وجود شـوارع مفتوحـة للمـرور المتواصـل مـزودة بأبواب على طرفيـها وكانـت تسمى أيضاً "دروبـًا" . وكان

الباب يُغلق، منطقياً، الشوارع التي لا منافذ لهـا والشوارع التي كان يتفرع منها شارع واحد أو عـدة شوارع مثلها ولا منافـذ لها. وكان في هذا الأمـر حماية فعالة للسكان المقيمين هناك. وإذا خلعت أبواب الدرب شكل ذلك خطراً يهدد الجميع، ومن ثَم كانـت المصلحة الخاصة تدفـع الناس إلى دفع أي تهديد.

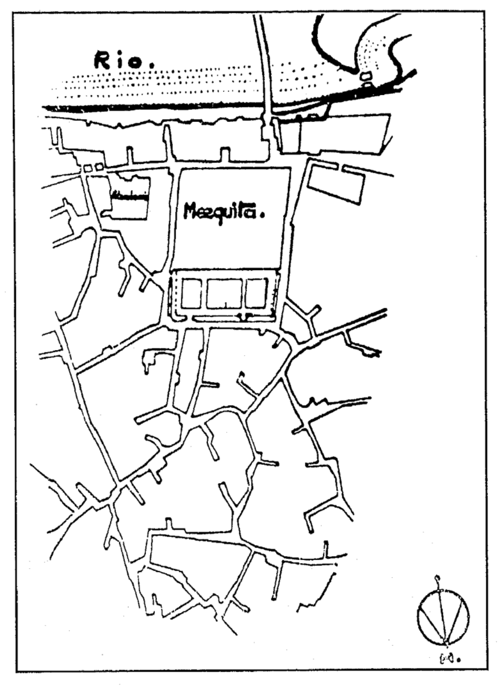
وفي أوائل القرن التاسع عشر (من سنة ١٨٠٣ حتى ١٨٠٧) يذكر علي بك (دومنجو باديا) الـدروب الضيقـة الملتوية لمراكش، «التي كـان يمر فيهـا الجواد بعسر، وهذا كان يسـهّـل الدفاع عن الأشخاص البارزين إبان الثورات الشـعبية والحروب المتكررة من "الأشْرَاف" للاستيلاء على العرش، فقد كان يكفي أربعة رجال أو ستة للدفاع عن أي درب مما يجعل مهاجمته عملية صعبة"[٣].

وكانت الأرباض التي يقطنها الناس في المدن الأسبـانية المسلمة مكونة، كما ذكر من قبل، من مـجموعات سكنية كبـيرة غير منتظمة تتـفرع داخلها دروب طويلة أو أزقـة مغلقـة بأبواب، وكانت هذه الأزقـة تفتح على شـوارع أخرى مـفتـوحة للعـبـور الحر. وكان يمكن أن يكـون للدرب باب واحد على أحـد طرفيـه؛ وأن يكون له اتصال بـشارع واحد مـسدود أو بعـدة شوارع مـسدودة مشكلاً ما يشبه الحي الصغير، أو كان الدرب ينتهي إلى رحبة مغلقة أو إلى فناء داخلي يُعرف بالكـورال Corral. وفي معظم الأحـيان كان الدرب يقتـصر على شارع صغير أو زقاق، أي "أدِربي" ADARVE أو "دُريب" ADARVEJO باللغة القشتالية في القرون الوسطى. وفي الدرب مساكن قليلة أو كثيرة حسب طول شوارعه، فهناك درب يتكون من ثلاثة وثلاثين مسكناً، وفي درب آخر معروف بدرب "دابوشيك" تسـعة مسـاكن، وكان الدربان يقعـان بمدينة ميورقـة عندما انتزعـها خايمي الأول سنة ١٢٢٩م. وبدفـتر قيـد منـازل مدينـة "رُنـدة"، الذي

تم، في اعتقاد ناشره كارياثو، خلال المدة الواقعة بين تاريخ السيطرة على المدينة سنة ١٤٨٥ وسنة ١٤٩١، يكثر ذكر اسم "باريراس" BARRERAS (وهو اسم أندلسي للشوارع غير النافذة)، ويوجد في كل منها إما عشرة منازل أو تسعة أو ثمانية، ولعل أغلبها كان «دروباً»، هذا على الرغم من عدم ذكر وجود أبواب الدروب في المرجع المذكور.

ويذكر ابن القوطية (المتوفى سنة ٩٧٧م) اسم درب بمدينة قرطبة في عهد عبدالرحمن الأول، أطلق عليه قاضٍ من قضاة المدينة اسم "درب ابن شراحيب"[٤]. وكان القاضي المذكور يقطن، حسب الخُشَني، في " درب الفضل بن كامل"، أما القاضي محمد بن بشير، الذي كان يمارس وظيفته في عهد الحاكم الأول، فكان مقره في الدرب الواقع في الجزء الشرقي لمسجد أبي عثمان بقرطبة[٥]. ويذكر ابن الفرضي بمدينة قرطبة أيضًا "درب أبي الأشهب"[٦]. ويذكر "الضبي" في ترجمة أحمد بن كليب زيارته إياه، وهو يحتضر، وكان يسكن بتلك المدينة "في آخر درب طويل"[٧]. ويذكر الحضرمي أن مجموعة من الشواذ كانوا يسكنون مجتمعين في شارع واحد معروف "بدرب ابن زيدون" Ibn Zaydon في قرطبة، نسبة إلى الوزير الشاعر المعروف، ولم يوجد في أية مدينة من مدن الأندلس ذلك العدد كما وجد بمدينة قرطبة[٨].

ومن المؤكد أن قراءة النصوص الأسبانية المسلمة يمدنا بالكثير من أسماء الدروب سواء بقرطبة أو بباقي المدن الإسلامية بشبه الجزيرة الإيبيرية. ولكن، ودون اللجوء إلى ذلك الافتراض، فإن لدينا شهادة ذات قيمة عالية عن الدروب لابن سعيد الأندلسي. فإنه يذكر في بعض الفقرات التي نقلها عنه




قرطبة ـ خريطة للحي الملاصق للجامع.

الـمَقّري عن مـدن الأندلس، أنها كانـت مزودة بدروب ذات أبواب تغلق من بعد العتمة (الساعة الثالثة ليلاً)، ولكل زقاق حارس مسلح يعرف "بالـدرّاب" يحمل مصباحًا معلقًـا، وبمصاحبة كلب، وكان الحارس يمضي ليله في الدرب.

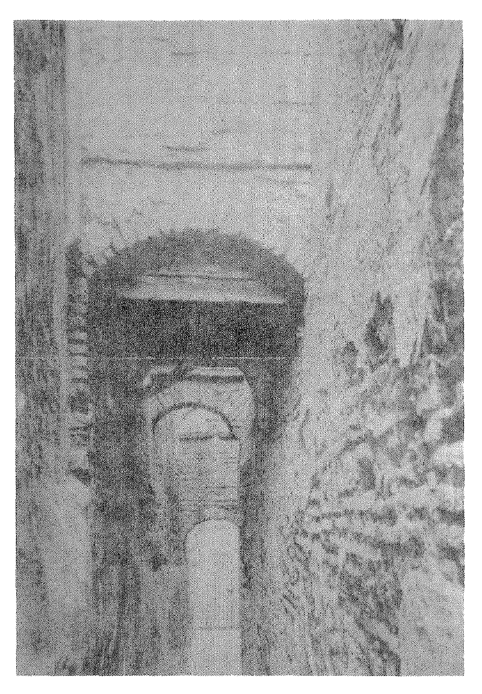
ووظيفة الحارس مشابهة لوظيفة "أصحاب الأرباع" أي (رؤساء الحي) في الشرق. وكان ذلك احتياطًا لابد منه لمنع الاعتداء والسرقات والاغتيالات الليلية[٩].

وهناك مستند عربي خاص بشراء منزل بمدينة "سرقسطة" مجرد من التاريخ، ويحتمل أن يكون معاصرًا أو مؤرخًا بعد انتزاع المدينة بفترة قصيرة (أي في سنة ١١١٨م) حدد موقعه بضاحية مسجد أبي خالد بالدرب المعروف بنفس هذه التسمية بربض صنهاجة (ثينيخا Cineja) غرب المدينة[١٠].

وكتاب توزيع مدينة ميورقة قيّد ثلاثة وثلاثين منزلاً بالشارع المعروف "بالدرب" IN QUODAM VICO ADARB XXXIII DOMUS كما يذكر النص اللاتيني، وتسعة منازل بشارع درب "دابوشيك" VIDELICET IN VICO DE ADARB DABUCHEC IX DOMUS "، أيضا طبقًا للنص اللاتيني. ومعنى الكلمة "بيكو" Vico الواردة في النص اللاتيني غير قابل للشك في هذه الحالة، وذلك بسبب التكرار المستمر للعبارة". والشارع معناه "زجاك" ZUGAQ أو "زقاق" ZUCAQ. . في نفس هذا المرجع[١١].

وكانت الدروب موجودة بمدينة بلنسية عند انتزاعها، وهي مذكورة في كتاب التوزيع. وقد قام الملك خايمي الأول سنة ١٢٤٤ بوهب الأحياء الآتية لصالح الجالية اليهودية في تلك المدينة: «وهذه الأحياء كانت تبدأ من درب ابن جامع ABINGEME إلى حمام "نالمليح NALMELIG، ومنه إلى باب فرن ابن مليس ABINMULLIZ ومنه إلى درب إبراهيم البلنسي"[١٢].

وورد في كتاب وصف مدينة سبتة في الأعوام الأولى من القرن الخامس عشر لمحمد الأنصاري، الذي تكرر ذكره، أن كل شارع من شوارعها كان يؤدي إلى بعض "الدروب" وكان يحرس الدروب حراس بالأجر[١٣].



درب في قرطبة.

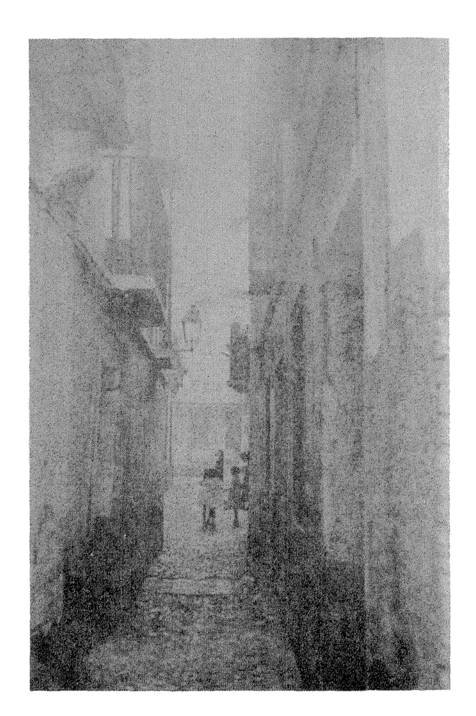
ودفتر قيد منازل مدينة "رندة" Ronda المتضمن قائمة جرد وتوزيع لعقارات المدينة المحرر بين الأعوام ١٤٨٥ و ١٤٩١، يُسمي أغلب شوارعها باسم "الحواجز" BARRERAS أو "الحويجزات" BARRERUELAS؛ وهي عبارة



درب في قرطبة.

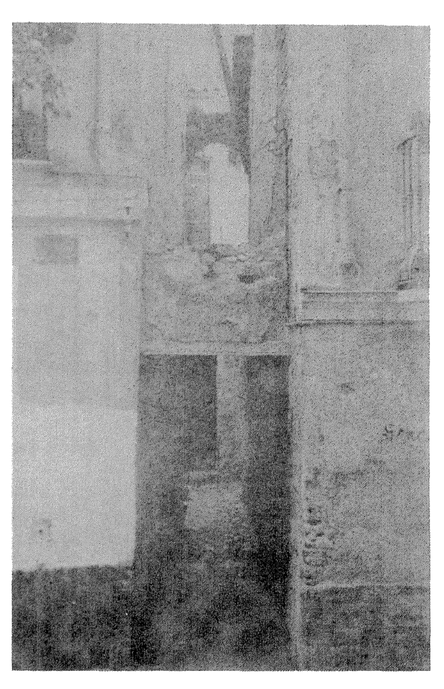
عن شوارع غير نافـذة أو دروب. ولا شك أن بعض النصارى هم الذين حرروا دفتر قـيد المنازل السابق ذكره بعـد أن مرّت فترة على استـيلائهم على المدينة، بمعنى أن تحريره كان بعد التاريخ الأول وقريبًـا من التاريخ الثاني، كما أنه حُرر

دون استشـــارة المسلمين، ومن ثَم لم يميز بين الحواجز والـشوارع المزودة بباب، علمًــا بأن الشـــوارع المـــزودة ببـــاب لم تكن تغلق بعـــد نـــزول المســـيـــحـــيين في المدينة(١٤).



شارع قديم ودرب خرب في مالقة (تصوير بيريث برموديث).

أما مدينة غـرناطة فقد ورد ذكر للدروب فيهـا عندما انتقلت المدينة سنة ١٤٩٢ إلى سيادة الملكين الكاثوليكيين، ويعـد هذا شيئاً مؤكدًا لأنه قد جاء ذكـر بعضها في المراجع اللاحقة لذلك التاريخ بفترة قصيرة. فتذكر تلك المراجع "حي درب



شارع قديم ودرب خرب في مالقة (تصوير بيريث برموديث).

الدين Darb aldina الذي يوجد به فرن "منقـــوف" بحـي الحطابين Hatabin[١٥]، وتذكر أيضاً "منزل درب القطع" Darb al cata، وهو اسم الحارة التي تمتـد من "سانتا ماريا" Santa Maria حتى علامة شارع الصباغين Tintoreros[١٦]. وهناك



درب الغروب (تصوير فرنانديث كاسامايور. مالقة).

كتاب عن ممتلكات مدينة غرناطة مؤرخ في سنة ١٥٠٦، محفوظ في قسم دار المخطوظات ببلدية المدينة، وهو مشتمل على قائمة جرد، باللغة العربية، لممتلكات مدرسة مدينة غرناطة متضمنة "منزلاً بدرب الكوينا Darb al Koyna، وهو (درب الجُحْر فيما يعتقد)، وتوجد أيضًا غرفة بأحد الدروب مجهول الاسم[١٧]. ويذكر أيضًا "درب الجوز" و"درب الحمراء" Darb al-Hamra ودرب البيازين، ودرب "الموكو" الواقع خلف حي القراقين[١٨].

**دروب المدجَّنين.**

بعد انتزاع بعض المدن مثل مدينتي طليطلة وإشبيلية استقر المسلمون دون انقطاع في المدينة الأولى خلال فترة القرون الوسطى بأكملها، بينما استقرت مجموعات من العرب بالمدينة الأندلسية بعد السيطرة المسيحية بفترة قصيرة، وقد أسفر عن ذلك استمرار وجود الدروب في تصميم المدينة وفي التسميات المحلية TOPONIMIA. وقد استمرت الدروب بشكل خاص في أحياء الأقليات الإسلامية واليهودية التي اضطرت أن تنعزل عن بقية السكان، وذلك طبقًا للتعليمات الدينية وللأوامر الملكية، وأن تعيش في الأماكن التي كانت غالباً ما تطبق فيها تلك الأوامر. وفي تاريخ قريب من عام ١٠٨٣ يوجد بمرجع لاتيني ذكر درب من الدروب[١٩].

والمستندات المستعربة للقرنين الثاني عشر والثالث عشر توضح كيف كانت مدينة طليطلة بوتقة لمختلف الجنسيات والأديان، بالإضافة إلى العدد الكبير من الدروب والشوارع والأزقة غير ذات المنافذ الموجودة فيها، التي بقي العديد منها حتى الآن، وهذا يسمح لنا من التأكد في الوقت نفسه من معنى كلمة "درب"[٢٠]. ومن خلال المواصفات العرفية المختصرة للعقارات وتخومها،

وكذلك من خلال كتابة عقود العقارات والعقود الخاصة بالشراء والبيع، نتمكن من تعرف الشبكة المعقدة من الشوارع والأزقة التي كانت تفتح فيها الدروب في الفترة التي احتفظت فيها مدينة طليطلة دون ريب بنظمها المدنيّة للقرن الحادي عشر بصورة شبه كاملة، عندما كانت المدينة مركزًا للبلاط الزاهي للمأمون أحد ملوك الطوائف (من سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣- ١٠٤٤م إلى ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م).

وتذكر تلك المراجع الدروب في معظم أحياء مدينة طليطلة باستثناء «الضاحية» أو «الربض» أو «كال» Cal - المعروف بالأسماء الثلاثة - "دي فرانكوس" Francos، نسبة إلى الأنشطة التجارية التي تميزه بلا شك، وأيضًا في سوق الدواب Zocodover وهو الموقع الذي استقر فيه أهم الأسواق، أي سوق الفروسية، الذي احتفظ بتسميته العربية وتأثيرات اللغة الرومانسية حتى اليوم. وقد كثرت المتاجر والخانات والفنادق في المجموعتين السكنيتين المذكورتين. وتذكر المراجع عشرة "دروب" بعضها ذو أهمية على نحو ما في حي اليهود الواسع الواقع في الجزء الغربي من مدينة طليطلة بين الكنيسة الكاتدرائية ومعبر "سان مارتين".

وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر استمرت العادة على ما هي عليه في بناء بعض الدروب بمدينة طليطلة، والدليل على هذا "الدرب" الذي سمي بالجديد سنة ١٢٩٤[٢١]. وفي أواخر القرون الوسطى بقيت تلك الدروب معروفة بالاسم نفسه. وتذكر ذلك وثيقة رسمية مؤرخة في سنة ١٤٣٧، خاصة بدائرة الكونت فونساليدا Fuensalida، حيث تم إصلاح بعض المنازل على أرض رعية "كنيسة سانتو تومي" الواقعة في الدرب المسمى بدرب "دومنجو بيريس". وفي القرن عينه يُذكَر اسم درب "ابن كانياس" Aben Canias بحي اليهود في مدينة طليطلة[٢٢].

وفي المستندات المستعربة عدد من المراجع يذكر أسماء أبواب المداخل لدروب مدينة طليطلة[٢٣]. وكان الشارع يسمى "بالدرب"؛ ويسمى الدرب الضيق "بالزقاق" (زنقة)؛ ووجد شارع الدرب (زنقة الدرب) وزقاق الدرب. وكانت بعض الدروب تتألف من عدة طرق أو أزقة (الطريق السالك داخل الدرب)[٢٤]. وقد أطلق الاسم المصغّر وهو «الدُّريب» على مجموعة من الدروب، ووجد هذا المصطلح على ظهر أحد العقود العقارية الرسمية التي ترجمت بـ"الأداربيخو adarvejo" (في اللغة الأسبانية القديمة، أي الدُّريب).

وهناك مراجع خاصة بمدينة إشبيلية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر تذكر أيضًا أسماء بعض الدروب دون أن تشير بصورة مؤكدة إلى معنى السور أو الممر الموجود على الجزء العلوي منه. وفي هبة خاصة بعقار، وقد كُتبت عام ١٢٥٤ يُذْكَرُ اسم «الدرب الذي كان يمرّ من خلال منازل دون خوان مارتين» الواقع على حدود أحد المنازل[٢٥]؛ وعندما بيع بعض المنازل الأخرى سنة ١٢٧٢، وَضّحَ العقد أنها كانت تقع بين مقبرة "سان ميجل" والدرب الذي كان يؤدي إلى معمل الجلود[٢٦].

وفي تاريخ سابق، سنة ١٢٦٥م، منح الأمير دون ألفونسو دي مولينا بعض المنازل التي قيل إن أحد طرفيها على حدود درب ميو (mio adarve)، الذي سمى منذ ذلك الوقت «درب الأمير دي مولينا de Molinaâ» وتظهر نفس التسمية في العقود العقارية العائدة إلى سنة ١٢٧٤ وسنة ١٣٤٨[٢٧]. وهناك درب كان يتوغل داخل منازل المطران سنة ١٢٨٢م؛ كما أن هناك دربًا آخر كان ملكاً لدون خوان ماتي J. Mate سنة ١٢٩٤؛ وفي سنة ١٣٠٣ يذكر امتياز لفرناندو الرابع اسم "الدرب الذي يؤدي إلى القصر"[٢٨].

ويذكر "درب المسلمين" في مرجع مؤرخ بسنة ١٢٩٣ وموقعه على أرض رعية سانتا كاتالينا[٢٩]. ومن الأرجح أنه كان أحد الأماكن التي أقبل عليها أصحاب مدينة إشبيلية القدامى لتحديد إقامتهم فيها بعد سيطرة فرناندو الثالث على المدينة. وفي بعض المراجع اللاحقة لذلك التاريخ سمى "بالأدربيخو" darvejo (أو الدُرَيْب)، وكان ذلك الحي يقع، حسب تينوريو Tenorio «بين رعيات ديل سالبادور وسان بيدرو، وسانتا كاتالينا وسان أسيدرو»[٣٠]. وكان فيه المسجد الذي سلّمه المسلمون الأندلسيون سنة ١٥٠٢ بعد إصدار أمر رسمي بذلك من الملكين الكاثوليكيين[٣١].

ويعتقد أنه كان في حي اليهود في مدينة إشبيلية "الشارع المسمى "بدرب ابن ماندا" ADARUE DE ABEN MANDA المذكور في مرجع مؤرخ في سنة ١٣٢٧[٣٢].

وفي المراجع المؤرخة إبان القرنين الثالث عشر والخامس عشر يُذكَرُ في مدينة قرطبة "درب القصر" (١٢٤٣-١٢٧٣)؛ وهو «الدرب الذي يتجه من القصر إلى النهر» (١٢٧٦ و١٤٩٠)، وكذا «درب منازل المطران» و«الزقاق الذي يدخل خلال تلك المساكن إلى حي اليهود» (١٣١١)[٣٣].

وليس من الغريب ملاحظة الخلط المتكرر في معنى "الشارع" و"الدرب" في المدن الإسلامية الحالية ومدن الأندلس في القرون الوسطى على حد سواء، لأن الدرب كان يتكون، كما قيل، من شارع واحد أو من عدة شوارع، يغلق مدخله أو مداخلها بواسطة أبواب. ومن هنا كانت الشوارع تتحول إلى دروب بمجرد إقامة حاجز الأبواب فيها، وكذلك عند إزالة وسائل الإغلاق كانت تتحول الدروب إلى شوارع. وكان هذا الحدث يتكرر بصورة بطيئة في المدن

الأسبانية عندما أصبحت تحت السيطرة المسيحية، مثال لذلك درب إشبيلية الذي يسميه الأمير دون ألفونسو دي مولينا سنة ١٢٦٥ "دَرْبي" MIO AD-ARUE، ويسمى في عقد عقاري آخر مؤرخ في سنة ١٢٩٠م "بشارع الأمير دي مولينا"(٣٤).

وقد سبق الحديث عن الدروب في أحياء المسلمين واليهود في طليطلة وإشبيلية ووشقة HUESCA. وفي مدينة قلعة هنارس كان اليهود في منتصف القرن الرابع عشر يسكنون بالدرب المسمى بدرب اليهود أو درب "دي لاكسيناجا" (صنهاجة) واستمروا فيه إلى أن أخرجوا منه، وسمي هنا الدرب "بالبرنس" وكان عبارة عن فناء فسيح به مدخل واحد فقط مؤد إلى الشارع الأكبر(٣٥).

وكان العيش داخل الدروب، المسماة بالأفنية فيما بعد CORRALES، بالنسبة للأهالي المنتمين إلى الجنسيات المضطهدة دائمًا، أمرًا إجباريًا من جانب السلطات الدينية والمدنية. ذلك وهو ما كان يضمن لهم أماناً نسبياً، ولكنه أمان ظاهري أكثر مما هو حقيقي، كما اتضح ذلك من الاعتداءات التي تعرض لها معظم أحياء اليهود في أسبانيا في أواخر القرن الرابع عشر.

وكان العزل من أهم الصفات المطلوبة لبيوت الدعارة، وقد نتج عن هذا دون شك إقامة تلك البيوت في بعض المدن في الشوارع المغلقة بالأبواب. وهكذا يصف القبطان "كونتريراس" Contreras شارع دعارة في قرطبة في السنوات الأولى من القرن السابع عشر دون أن يستعمل كلمة "الدرب"؛ ويذكر أنه عندما أصيب فيه مأمور قضائي «أغلقت النساء الأبواب بما فيها باب الشارع".. الذي كان ضيقًا جداً»(٣٦).

والجدير بالذكر وجود أحد الدروب في مدينة إشبيلية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو حالة استثنائية، وكان معروفًا بشارع "دويندي" LA CALLE DEL DUENDE وكان عبارة عن "شارع طويل جداً غير نافذ وضيق يغلق ليلاً ببابه الذي كان موجودًا سنة (١٨٣٩) في السكن الخاص برعية ديل ساجراريو في شارع "يميوس" YIMIOS "»[٣٧].

**من الآثار الباقية : شوارع غير نافذة وأفنية الجيران.**

أشرنا في الصفحات السابقة إلى وجود عدد من الشوارع بلا منافذ في المدن الأسبانية ذات التقاليد الإسلامية ـ كقرطبة وإشبيلية ومالقة ورُندة وغرناطة ومُرسية وبلنسية، إلخ. وعلى الرغم من ذلك فإنه من المناسب أن نؤكد على ذلك لنثبت إثباتًا قاطعًا أن البصمات الشرقية السابق ذكرها قد دامت قروناً طويلة[٣٨].

إن الشوارع غير النافذة كانت تدعى في المدن القشتالية في القرون الوسطى "بالشوارع التي لا يُمر منها" calle Que No Pasan [٣٩]؛ وكانت تسمى في الأندلس في معظم الأحيان "بالحواجز" BARRERAS أو "الحويجزات" BAR-RERUELAS قياساً إلى الشوارع الأخرى.

"وهناك عدد غير محدود من الشوارع بمدينة إشبيلية تحمل اسم "شارع دون منفذ"، «ذلك لأنها كانت خالية منه. والبعض الآخر كان خاليًا أيضًا من مخرج، لكنها سميت بأسماء خاصة»، كما كتب جونثالث دي ليون في مؤلَّف له نشر سنة ١٨٣٩[٤٠]. وعثر في دليل لمدينة إشبيلية مؤرخ في عام ١٨٧٢م على ٥٨٠ شارعًا و٤٩ رحبة و٤٣ حاجزًا صغيرًا أي شوارع بلا منافذ (دروب)[٤١].

وفي كتاب **توزيع مدينة مالقة** ذكرت أسماء بعض الحواجز أو الحويجزات عدة مرات[٤٢]. ويبين دليل المدينة الذي نشر سنة ١٩٥٠ وجود ٨١ شارعًا بالإضافة إلى حارات وخوخـات، مما يوضح بصورة جيدة مظهر الـهيكل الأساسي لنواة المدينة[٤٣]. وبالطبع ينتـمي عـدد من تلك الشـوارع، كـمـا هو الحـال بمدينة إشبيليـة، إلى فترة لاحقة لـلسيطرة المسيحيـة، بل إنها تنتمي إلى فتـرة حديثة نسبيًا، مما يؤكد جـيدًا الاحتفاظ بالتقاليد الإسـلامية خلال القرون الوسطى في تلك المدن أو في غيرها من المدن الأسبانية. وكذلك كان مركز مدينة بلنسية في القرون الوسطى عـبارة عن شبكة مزدحـمة ومعـقدة من الشوارع الضيـقة التي كانت تتـفرع من الأزقة الضيـقة المسدودة. وقـد هُدم بعضها في القـرن الثامن عشر، مـثال لذلك: "الشارع الضيق المسـمى بشارع "تليكا" TALECA المجرد من المخارج"[٤٤].

وقد احتـفظت مدينة سرقـسطة بالجزء الكبير من التـخطيط المدني الإسلامي حتى بعـد انتقالهـا إلى سيادة المسـيحيين في الأعوام الأولى مـن القـرن الثاني عشـر. وتُبَين مراجع القـرون الوسطى، وكذا القـرون اللاحقـة، وجـود أزقة ودروب وحارات لا منافذ لها؛ وقد استمر بعضها إلى أيامنـا الحالية[٤٥].

كمـا كثُرت في حي اليـهود بمدينة ميـورقة سنة ١٣٩١ "الكاراروس" Car-raronos أي الدروب غير المفتوحة للمرور (كما يوضح النص اللاتيني)[٤٦].

ووجدت أيضًا الشـوارع والأزقة غير النافذة في مدن أخـرى تقل أهميةً عن المدن السابق ذكرها، من أمثلتها تلك الموجودة بقرى الشرقيـة (Ajarquia) التابعة لمدينة مالقة وبقرى البوخاراس Al Pujarras. ويذكر الكاتب مارمول شارعاً غير نافذ بمدينة "برجة" Berja، وقد قتل فـيه ٦٦ مسلماً بعد هجـوم جنود الماركيز

دي لوس بيليث أثناء تمرد مناطق البوخاراس[٤٧]. والتخطيط الصغير المرفق عن مدينة مويل MUEL في محافظة أرغون، المشهورة بالصناعات الفخارية، يعد مثالاً واضحًا عن نوعية تلك الشوارع.

وقد ذُكر في الصفحات السابقة الشارع أو "الدرب" الذي كان مزودًا بباب أو بأبواب عند مدخله ـ وظهر أنه بضاحية ـ وكان يتفرع أحيانًا إلى أزقة أخرى لا منافذ لها مؤلفة بذلك شيئًا شبيهًا بضاحية صغيرة. وكان يتسع أحيانًا أخرى عند طرفه على هيئة رحبة أو فناء داخلي مزود بمدخل واحد، وكانت أبواب المنازل تفتح فيها (مثال لذلك حي اليهود في قلعة الهنارس). وفي الحالة الأخيرة كانت العادة أن تسمى هذه الرحبة بالكورال Corral (أو صحن وكورال Qural كما توضح مراجع المستعربين لمدينة طليطلة)، وقد استمر هذا النوع من التجمعات السكنية، وبالأخص بمدينة إشبيلية، حتى السنوات القليلة الأخيرة، ولكن ظروف الحياة الحديثة سوف تؤدي إلى انقراضها عما قريب.

والصحن شكلٌ شبيه "بالفندق" (في المعنى القديم) وهو عبارة عن: فناء داخلي، بمدخل واحد فقط متصل بممر ضيق، هذا بالإضافة إلى النافورة الواقعة بمركز الصحن، وكذا صفوف المساكن المستقلة المنتظمة حول الفناء[٤٨]. وفي حالة وجود طابق علوي، أو طوابق علوية، يكون الدخول إلى المساكن من خلال الأروقة أو الممرات المطلة على الفناء الداخلي أو الصحن.

ويرد ذكر كوررالس أو الصحون في مدينة إشبيلية منذ بوادر القرن الرابع عشر؛ ويذكر في مرجع مؤرخ عام ١٢٠٣ «منازل مزودة بصحنها الذي جرت العادة أن تُنقش فيه عملة الذهب، وكانت تقع عند الباب القريب من صنبور المنبع»؛ وهناك مرجع آخر مؤرخ عام ١٣١٤ يذكر وجود صحن بمدينة طريانة

Triana بشـارع سانتـا آنا Santa Ana "الذي تخـصص في صنع الحلل، وكـان بأفرانه وبقصوره المتمـيزة وببرجه الواقع عند المدخل». وفي سنة ١٤١١م يُذْكَر صحن صانعي الخذاريف على أرض رعية سان ألدفونسو، وصحن العُمدة على أرض رعية سـان بيدرو(٤٩). وفي القرن السـادس عشر كـان بإشبيليـة ضمن الصحون الأخرى الآتيـة: صحن دون خوان Corral Don Juan، وصحن نرانخ Naranjo وصحن دي لابارّا De la Parra، وصحن ديل البرال Del Peral، وصحن دي لارينـــا De la Reina، وصحن ديل ريـي، وصحن دي إسكريـث De Xe-rez (٥٠). ويذكر دليل مدينة إشبيلية المؤرخ في عام ١٨٦٢ أسماء ٢٠٠ صحن من ضمنها صحن الكابوس (أكابوسي)، وصحن إثيبريس، وصحن أوركادو، وصحن ألفـالفا، وصحن أثوفـيفو، وصـحن كالدريروس، وصـحن كارتايا، وصـحـن دوس بورتاس، وصـحن إينـديوس، وصـحن لارجـو، وصـحن تراثانا(٥١). وكانت الحياة الشعـبية الإشبيلية، المليئة بالحركة والحـيوية المتدفقة، مزدهرة مـنذ عدة قرون في تلـك الصحون بمسـاكنها التـي يلجأ إليهـا الأهالي المتـواضعـون باحثين فـيهـا عن التضـامن الدفاعي الذي يحـميـهم من الخطر الجمـاعي، مع أنهم ليسوا فـي حاجة إليـه. فمنذ قرون مـضت استبـدل بآخر إنساني بشكل عميق كـان ثمرة للتقارب والتعايش والتعاون في مـواجهة البؤس الذي يعانيه البؤساء الذين كانوا يسكنون فيها.

و"الكورال" أو صحـن الجيران الأندلسي، وبـالأخص الصحن الإشبـيلي، عبارة عن «فناء متسع نسبيًـا يرتفع بمركز منبع مائي، أو يوجد به بئر، فالمنبع أو البئـر يكون في خدمة الجيـران الذين يستعـملون مياهه لكل احـتياجات الحـياة عندما تسمح بهذا أنابيب الميـاه والأمطار؛ وهناك أربعة ممرات حول موقع الفناء

تفتح عليها أبواب الغرف الموجودة ـ القاعات ـ التي تشكل الطابق الأرضي، هذا بالإضافة إلى زاوية صغيرة مخصصة لرمي النفايات وفناء أصغر منها بكثير مخصص لأحواض الغسيل عند عدم وجود الأحواض في الفناء. ويطابق الجزءُ العلوي من المبنى الجزء السفلي. ولكل جار، أو بمعنى آخر لكل عائلة، قاعة، وبعض القاعات تنقسم إلى جزأين دون أن تفقد تسميتها(٥٢). ويمكن أن يكون هناك عدة أفنية تشكل عدة صحون متتالية. وفي أغلب الأحيان يوجد لها مدخل واحد فقط، هذا على الرغم من وجود بعض الصحون بمدخلين؛ والباب أو الأبواب مزودة بمصاريع لإغلاقها. أما ممرات الدخول إلى القاعات فتتكون من أعمدة رأسية وسُلّم من الخشب (درابزين) مصمم بصورة بسيطة(٥٣). وكانت توجد بعض الأشجار في وسط الصحون، وفي بعضها حديقة بمعنى الكلمة. وقد كتب جونثالث دي ليون، منذ أكثر من قرن، أنه كان يقطن بصحن الكوندي بشارع سانتياجو ٤٠٠٠ نسمة تقريبًا؛ وكان يوجد في نفس الصحن في تاريخ حديث ١١٣ مسكناً يقطن فيها ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ نسمة؛ كما كان صحن ترومبيروس، السابق ذكره سنة ١٤١١ بشارع لاس برخنس Virgenes، يتألف من أربعة أفنية، وكان يقطن فيه من أعوام قليلة مائة نسمة تقريبًا. وبصحن "بابا" Pava في طريانة تقع مصانع فخار هذا الحي(٥٤)؛ ومن المحتمل أن يكون صحن "لوس أليروس" Los Olleros بشارع سانتا أنا هو الذي قيل عنه إنه وجدت مراجع خاصة به يعود تاريخها إلى سنة ١٣١٤. ولم تكن العادة في الأيام الأخيرة إغلاق الصحون ليلاً، هذا على الرغم من تزويدها بأبواب وبمفاتيح في حوزة أحد الجيران المكلف بأمر صاحب الدار أيضًا بإضاءة الأنوار وبإطفائها وبتنظيفها وإدارتها، وكان المالك يكافئه على تلك الخدمات بإعفائه من تسديد إيجار مسكنه.

وفي مناخ رطب حار كمناخ إشبيلية كان فناء الصحن يسمح للأهالي بقضاء أوقاتهم في الصحن في الهواء الطلق في معظم السنة، متمتعين بدرجة حرارة أكثر احتمالاً مما في داخل الغرف. وكان الجيران يقضون الجزء الأكبر من حياتهم في الفناء؛ فالنساء يخطن فيه الملابس ويغسلنها، ويطهين الطعام أحيانًا على موقد صغير ويثرثرن في كل الأوقات، والصبية يلعبون فيه؛ وكانوا يحتفلون فيه أيضاً بالأعياد العائلية، كما كانوا ينامون فيه خلال الصيف ليلاً ويقيلون فيه.

ويلاحظ أن النقص في المساكن والارتفاع الهائل في قيمة أرض المدن أديا تدريجيًا إلى انقراض تلك الصحون سريعاً؛ ففي الوقت الحالي تُباع الصحون بغرض هدمها لتقام على أرضها المباني ذات الطوابق العالية، حيث يقطن فيها الأهالي بصورة أسوأ مما كانت عليها في الصحون، إذ المساكن الحديثة مجردة من السلوة المتاحة في الفناء الداخلي الذي يعوض عن ضيق مسكن العائلة. وأصبح الفرد اليوم معزولاً في غرفته أو في شقته، والمكانان الوحيدان اللذان يتلاقى فيهما الأهالي هما الدرج ومدخل المنزل اللذان أصبحا يؤديان وظيفة واحدة فقط، هي وظيفة المرور بهما، وقد بدأ الإنسان تدريجيًا يفقد التضامن الرائع والتعاون المتبادل اللذين كانا أمرًا سائدًا في صحون الماضي. وهذا مثال من الأمثلة التي توضح جيدًا ما جرى من تغيرات في الحياة الاجتماعية بعد تطور نظم الحياة بالمدن.

وكان في مدينتي قرطبة وغرناطة صحون للمنازل بقي بعضها حتى الآن، ولكن عددها أقل بكثير من صحون إشبيلية. وتعرف تلك الصحون اليوم "بمنازل الجيران" CASAS DE VECINOS أو بمنازل الكثيرين" CASAS DE MUCHOS . وفي فترة حديثة شُرع في هدم مجموعة من المساكن التابعة لأحد الصحون

الذي فيه مدخل واحد فقط على الشارع، وكان ذلك الصحن يشغل الجزء الأوسط من المنزل المعروف بمنزل خيرونس Girones الواقع في إحدى رحبيات غرناطة التي كانت تحمل اسم المنزل نفسه. وكانت "الكاسيرا" Casera (وهي المرأة المكلّفة بأمر صاحب الدار) تسكن بالقرب من الباب، وكان مسكنها مزودًا بنافذة تطل على المدخل، وهي مكلفة بإغلاق الباب ليلاً بأمر صاحب الدار. وهذا ما يذكره حتى الآن بعض الأشخاص الذين مازالوا على قيد الحياة. وكان الجيران يلتزمون بإخبارها مسبقًا حينما يريدون التأخر ليلاً خارج المنزل. كما أنها كانت مكلفة برعاية الأصص ونباتات الفناء وبتزويد الدار بالماء، وبتحصيل الإيجارات من السكان، وبمراقبة قيام كل ساكن دورياً بتنظيف الفناء والأروقة والممرات. ويوجد في مدينة غرناطة بالقرب من باب "إلبيرة" خلف سان أندريس، في داخل مساحة كانت مسورة في وقت ماض، الصحن المعروف بصحن "بويّو" Pollo الذي يفتح عليه شارع واسع عند طرفه الأخير تطل عليه أبواب عدة مساكن(٥٥). وفي وسط المدينة نفسها يوجد، أو كان يوجد حتى وقت قريب، صحن آخر ذو مدخل من خلال ممر يصل بين رحبتي توبار Tovar و"لاس دسكالثاس" Descalzas(٥٦). وفي سنة ١٤٦٨ قام أعضاء مجلس تحكيم مدينة سرقسطة بإصدار أمر بهدم صحن "لوس بيليثروس" Pelliceros لأسباب صحية، بالإضافة إلى هدم مقبرة مستشفى "نوسترا سينيورا دي جارثيا"، وهما قريبان من السور الحجري وبالقرب من باب صنهاجة(٥٧).

وكان يوجد في حي اليهود في مدينة ميورقة (بالْما حاليًا) سنة ١٣٩١ صحون "بوخاش" Bojach ودي ستروش دوران Struch Duran "وموسى بهانين" Moises Behanin، وصحون أخرى غير مسماة(٥٨).

(1) Véase Torres Balbás, **Los adarves**, pp. 164-169.

(2) Según don Isidro de las Cajigas **darb** significó calle sin salida (**adarve, Rev. de Filol. Esp.**, XXIII, pp. 63-66). Pero Pedro de Alcalá traduce calle sin salida por **zanqa bilā manfudā** (**De lingua arabica**, p. 135). Así la nombra en el siglo IX el andaluz Abū Zakariyyā' Yaḥyà b. 'Umar b. Yūsuf b. 'Amir al-Kinānī (m. 289/901) en sus **Aḥkām al-Sūq** (Ordenanzas del zoco), en las que se prohíbe que en un callejón sin salida —**zuqāq gayr nāfid**— se abran puertas nuevas ni se cambien de sitio, lo que se puede hacer cuando tiene salida —**zuqāq nāfid**— (Emilio García Gómez, **Unas «Ordenanzas del zoco» del siglo IX: Traducción del más antiguo antecedente de «hisba» por un autor andaluz**, pp 257 y 292). Con idénticas palabras se llama siempre al callejón sin salida —**zanqa gayr nafida** y **ṭarīq gayr nāfid**— en los documentos mozárabes de Toledo de los siglos XII y XIII y —**zanqa gayr nāfida**— en escrituras árabes de Huesca de 1215 (Bosch Vilá, **Los documentos árabes... de Huesca**, docs. 8 y 9, pp. 35-40). En la España islámica, pues, la calle sin salida no tenía nombre especial.

(3) En el **Vocabulista** del siglo XIII atribuido a Raimundo Martín, se traduce **darb** por **porta** (C. Schiaparelli, **Vocabulista in arabico**); **Viajes de Ali Bey**, t. I; pp. 228-229.

(4) Ibn al-Qūtiyya, **Hist. de la conquista**, texto, p. 58, trad. p. 46.

(5) Ribera, **Jueces de Córdoba**, texto, pp. 40 y 55; trad. pp. 50 y 67.

(6) Ibn al-Faradī, **Ta'rīj 'ulamā'**, p. 181, citado por Lévi-Provençal, **L'Espagne... au Xe siècle**, p. 209.

(7) Al-Dabbī, **Bugya**, Bib. Art. Hisp. III, núm. 462, citado por García Gómez, **El collar de la paloma**, p. 318.

(8) Lévi-Provençal, **Le zagal hispanique dans le Mugrib d'Ibn Sa'īd**, p. 50.

(9) Al-Maqqarī, **Analectes**, I, p. 135. Incluyó este párrafo don Miguel Asín Palacios en su **Crestomatía de árabe literal**. Véase **supra** «Concepto islámico de la calle».

(10) R. García de Linares, **Escrituras árabes pertenecientes al Archivo de Nuestra Señora del Pilar de Zaragoza (Homenaje a D. Francisco Codera**, doc. núm. 2, p. 175).

(11) Bofarull, **Repartimientos**, p. 127.

(12) **Ibidem**, p. 290.

(13) Lévi-Provençal, **Une description de Ceuta**...

(14) Carriazo, **Asiento... de Ronda.**

(15) Libro de Habices, San Gil, en el Archivo de la Curia Eclesiástica de Granada. Cf. nota 106, p. 437.

(16) Libro de Habices, Santa María de la O, en el mismo Archivo.

(17) Debe estas referencias de documentos granadinos a don Manuel Gómez Moreno.

(18) Los tres primeros, en el citado **Libro de Habices**; el último figura en un libro de escrituras, de 1495, del Archivo Municipal.

(19) En **Port. mon. hist.** según Gómez Moreno, **Iglesias mozárabes**, p. 100, n. (1).

(20) Para un detenido análisis de los adarves y calles ciegas de Toledo a través de esos documentos, puede verse Torres Balbás, **Los adarves**, pp. 174-180.

(21) González Palencia, **Los mozárabes de Toledo**, III, doc. núm. 1.137.

(22) Rodrigo Amador de los Ríos, **Reminiscencias de Toledo según los documentos mozarábigos**, p. 260.

(23) Torres Balbás, **Los adarves**, pp. 178-180.

(24) González Palencia, **Los mozárabes de Toledo**, I, doc. núm. 219 (a. 1191).

(25) Arch. Cat. de Sevilla, 23-3-47. Publicado por González, **Repartimiento de Sevilla**, II, p. 323.

(26) Arch. Cat. de Sevilla, 25-1-1. Publicado por Gonzalez, **Repartimiento de Sevilla**, II, p. 351.

(27) Arch. Cat. Sevilla, leg. 135, núm. 36, publicado por Ballesteros, **Sevilla**, doc. 143, pp. CXLIX-CL; 25-2-25 y 31-1-39, publicados por González, **Repartimiento de Sevilla** pp. 253, y 376.

(28) Arch. Cat. Sevilla, leg. 31, núm. 1; 31-2-46; 27-3-49. Publicados por González, **Repartimiento de Sevilla**, pp. 360, 367 y 369-370.

(29) Arch. Cat. Sevilla, leg. 44. Santa Catalina, según cita de Ballesteros, **Sevilla**, p. CCLXXVIII, apéndice B.

(30) **El concejo de Sevilla**, por Nicolás Tenorio y Cerezo, pp. 47-48. Ballesteros dice que el Adarvejo estaba en la colación de San Pedro (**Sevilla**, p. 101).

(31) **Curiosidades antiguas sevillanas** (seg. serie), por Gestoso, p. 298.

(32) Arch. Cat. Sevilla. San Salvador, leg. 41, núm. 1, según cita de Montero de Espinosa, **Relación hitórica de la Judería de Sevilla,** pp. 3 ss.

(33) Miguel Muñoz Vázquez, **Documentos inéditos para la Historia del Alcázar de Córdoba de los Reyes Cristianos,** pp. 71-76)

(34) Arch. Cat. Sevilla, leg. 135, núm. 36; leg. 31. núm. 1, Abades. Ambos documentos han sido publicados por Ballesteros, **Sevilla,** docs. núms. 143 y 187, pp. LXLIX-CL y CXCIX-CC. La calle del Infante de Molina se llamó después callejón de la Botica de las Aguas y hoy de Guzmán el Bueno. A mediados del siglo XIX aún se conocía por «barrera del Infante de Molina» (González de León, **Noticia... de las calles... de Sevilla,** p. 430).

(35) Fernández y González, **Estado social y político,** LXVIII, pp. 383-384 (doc. de 1351); Ramón Santa María, **Edificios hebreos en Alcalá de Henares,** pp. 184-188 docs. de 1501, 1505, 1507, 1509 y 1513).

(36) **Vida del capitán Alonso de Contreras,** escrita por el mismo, p. 192.

(37) González de León, **Noticia... de las calles... de Sevilla,** p. 265.

(38) Véase **supra** «Disposición y trazado de calles y manzanas».

(39) Por ejemplo, casas en la judería toledana en 1327 «en la calle que non passa», y otras, propiedad de don Samuel Aben Huacar, físico del rey, «en la calleja que non passa, que disen la calleja de Aben gato» (Fidel Fita, **Marjadraque según el fuero de Toledo,** p. 392).

(40) González de León, **Noticia... de las calles... de Sevilla,** p. 430.

(41) Manuel Gómez Zarzuela, **Guía de Sevilla, su provincia, etc., y agenda de bufete,** pp. 105 y 190.

(42) Arch. Mun. Málaga, **Repartimientos,** núm. I, fol. 44 (a. 1490), según cita de Guillén Robles, **Málaga musulmana,** pp. 494-495, n. (1).

(43) Antonio Bueno Muñoz, **El libro de Málaga.**

(44) Teixidor, **Antigüedades de Valencia,** I, p. 158.

(45) Ximénez de Embún, **Descripción... Zaragoza,** pp. 41, 60, 67, 86 y 133.

(46) José María Quadrado, **La judería de la ciudad de Mallorca, en 1391,** pp. 297, 298, 300-305 y 307-310. Tenía el **call** o judería de Mallorca una **portam majorem;** es probable que bastantes de los callejones ciegos tuviesen puerta, es decir, fuesen adarves.

(47) Mármol, **Historia del rebelión,** II, pp. 75-76.

(48) Torres Balbás, **Las alhóndigas hispanomusulmanas y el Corral del Carbón de Granada.**

(49) González, **Repartimiento de Sevilla,** I, pp. 507 y 537-538.

(50) Montoto, **Sevilla,** p. 29.

(51) Manuel Gómez Zarzuela, **Guía de Sevilla, su provincia, etc., para 1868, año IV,** pp. LIV-LVI.

(52) **Los corrales de vecinos,** por Luis Montoto y Rantenstranch **(El Folk-lore andaluz,** 1882 a 1883, Sevilla, p. 121). Supone Montoto que los corrales sevillanos son consecuencia de la decadencia de antiguas casas señoriales (p. 121); sin duda hubo ejemplos de ello, pero los antes citados demuestran que el tipo de habitación colectiva procede de la época islámica, aunque posteriormente se instalasen varios en edificios levantados para otro fin. Así la alhóndiga granadina, llamada Corral del Carbón, levantada en el siglo XIV, sirvió de corral de vecinos en el XVII y aún lo era cuando la adquirió para el Estado, hace unos treinta años; vivían entonces en él treinta y cinco familias.

(53) Compárese con la disposición de las alhóndigas islámicas descritas en artículo citado supra.

(54) **Corrales de vecindad sevillanos,** por el Marqués de San José de Serra.

(55) El Corral del Pollo tuvo dos puertas: la actual y otra que salía a la calle de la Tinajilla y desapareció al abrirse la Gran Vía. Hasta hace pocos años había en este corral

unas seis viviendas independientes por completo, almacenes y una herrería, entrada al patio en el que están sus puertas se realiza por un hueco adintelado con una viga provista de dos quicialeras. El portal tiene, aproximadamente, 2,50 por 8,50 metros, ensancha al final y termina en un arco de medio punto.

(56) Datos comunicados por Gómez-Moreno y Jesús Bermúdez Pareja.

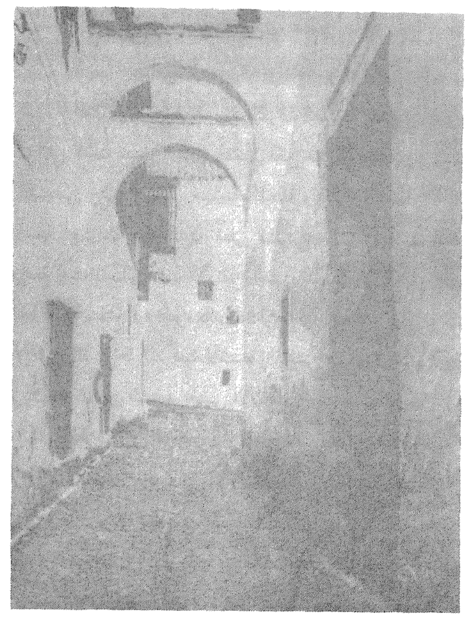
(57) Actas municipales de 1468; Ximénez de Embún, **Descripción... Zaragoza,** pp. 101-102.

(58) Quadrado, **La judería de la ciudad de Mallorca,** p. 310.

## الفصل الحادي عشر
## الشوارع المسقوفة والقُويسات

كانت شوارعُ المدن الأسبانية المسلمة المتفرعة الضيقة الملتوية ودروبُها مغطاةً بالساباطات التي كانت تصل الطابق الثاني لكل منزلين متقابلين. ويُلحظ هذا الترتيبُ الهندسي حتى الآن في مدينة طليطلة وعدد من مدن الأندلس وفي أرغون وبلنسية. وكانت الساباطات تغطي الشوارع جزئيًا. وكانت تلك الأجزاء المغطاة الواقعة تحت المباني ذات الارتفاع القليل تتحول إلى أماكن كثيفة الظل وتصير ملجأً لطيفاً يتمتع فيه المرء بالبرودة أيام الحرّ الشديد. وكانت تتناوب مع الأجزاء الأخرى المفتوحة المعرَّضة لأشعة الشمس الشديدة بضوئها الساطع. ويمكن أن يلاحظ التباين الشديد حتى الآن في بعض مدن المغرب المشابهة لمدن الأندلس كمدينة تطوان التي تمنحها تلك الساباطات جاذبية خاصة.

وكانت الساباطات مبنية في أعلى الشوارع ولذلك تقلل من إضاءتها وتهويتها، ومع ذلك فإنها كانت العنصر المشترك الأكثر انتشارًا بين المدن المسلمة بأكملها. وكان بناء تلك الساباطات يستجيب لضرورة حيوية، وهي علاج مشكلة ازدحام المساكن داخل أرض المدينة المسورة. فبسبب النقصان الظاهر في الحيز اللازم لنمو المساكن، كانت طوابقها العليا تتعدد عبر الشارع بصور شتى: فأحيانًا كانت تستعين بالواجهات الطائرة المرتكزة على دعامات أو آباط، وأحيانًا أخرى كانت تمتد حتى الواجهة المجاورة لها مشكلة ما كان يسمى "بالسُّقَيْفَة"، ومن ثمّ كان الشارع يتغطى جزئيًا. وهكذا كان الأهالي يتمكنون من توسيع المساكن وزيادة عددها معتمدين على جزء من مساحة الربض المجاور الواقع على الجانب الآخر من الشارع. وعلى الرغم من أن من وظائف



ممر أقواس لافرونتيرا (قادش).

المحتسب Muhtasib أن يراقب الملاك ويمنعهم من بناء الأجزاء الطائرة في مساكنهم نظراً لتقليصها من مساحة الشارع، فقد كانت المذاهب الشرعية الإسلامية، ومن ضمنها المالكي، متسامحة حيال تلك العادات، وكانت تشترط فقط أن يحتفظ الشارع بالمساحة الكافية للمرور[1]. ويبدو أن ذلك التسامح

انتقل إلى اللوائح الرسمية إبان القرون الوسطى في طليطلة، وقرطبة، وإشبيلية، اللوائح الثلاث لتلك المدن تشير إلى الأشكال الطائرة البارزة التي تمتد عبر الشوارع التي يدعونها السُّقَيفة»؛ وتنص اللوائح الخاصة بمدينتي طليطلة وإشبيلية البنائين أن يبنوا تلك الأشكال البارزة بارتفاع كاف "يتيح للفارس المرور أسفلها بأسلحت دون أي عائق"[٢].

وتؤكد كتبُ التوزيع الخاصة بمدينتي "لوشة" Loja و"بَلِّش" (بيليث ـ مالقة Velez Malaga) وجودَ الشوارع المغطاة في المدن الأندلسية. فكتاب **مدينة لوشة** المؤرخ في ١٤٨٩ يذكر شارعاً في ضاحية القصبة يسمى "شارع الساباط" Cobertizo. ويوجد بالإضافة إلى ذلك في أماكن لم يحدَّد موقعها «منازل الساباط الواقعة على الدرب» و«الفرن ذو الساباط الواقع أعلى الزقاق»[٣]. وفي كتاب **توزيع مدينة بلّش** بملقا جُردت بعض المنازل في «زقاق ما تحت الساباط» والبعض الآخر كان تحت الساباطات[٤].

وكتاب "محتسب" مدينة "كاتي" EL LIBRE DEL MUSTAÇAF المحرر سنة ١٢٩٣ الذي أعيد نشره سنة ١٣٢٢ يذكر امتيازًا خاصاً من الملك دون خايمي الأول ينص، ضمن تعليمات أخرى، على ألا تُغطَّى الطرق أو الأزقة[٥].

وابتداء من القرن السادس عشر أخذت مساحة القصور والأديرة تضيق بالأراضي التي تقام عليها، ولتوسيعها كان أصحابها يلجؤون إلى الطريقة التقليدية التي هي عبارة عن مدّ مساحتها إلى الأرض المجاورة لها على الجانب الآخر من الشارع، فيصبح جانبا الشارع متصلين بواسطة هذا الشكل الزائد فوق مساحة الشارع[٦]. ويوجد منه العديد من الأمثلة. وسوف أقتصر على ذكر واحد منها في كل من مدينتي مالقة وإشبيلية. ففي الأولى من تلك

المدينتين الأندلسيتين ساباط قديم (أو ممرّ) في أول شارع "لوس مارتيرس" كان يصل أعلى هذا الشارع بمنازل شارع "لاكومبانيا" Compania، وقد جرت العادة أن يسمى هذا الساباط بساباط "لاس بيالوناس" Villalonas لأن أقدم عائلات مالقة وأشهرها كانت تقطن ذلك المنزل(٧).

وفي منتصف القرن التاسع عشر كان يُطلق اسم "تيتشادا" TECHADA على أية سقيفة في أي شارع غير نافذ في إشبيلية، وكان ذلك الشارع طويلاً إلى حد ما وقد أطلق عليه اسم السقيفة (تيتشادا) نظراً لوجود الغرف العليا لقصر كوندي دي ألتاميرا أعلى مدخله، وكان يطلق عليه اسم آخر وهو شارع "لاس مرابيّاس" وكان يقع مدخله عند رُحيبة "سانتا ماريا لابلانكا" S.M.La Blanca(٨).

**القُويسات.**

كانت المدن الأسبانية المسلمة تزيّن بالأقواس المبنية على مداخل الأحياء والشوارع والدروب التي كانت تثبت فيها مصاريع الأبواب التي تغلق إجبارياً في الليل للمحافظة على أمن تلك المدن. وكان يوجد أقواس أخرى عرضية ومرتفعة في أغلب الأحيان ليست للحماية، وهي تضاهي ما يوجد في أغلب المدن الإسلامية في الشرق وشمال أفريقية. وكانت تلك الأقواس تستعمل لدعم الجدران التي تتعرض للتصدع نتيجة لبنائها الرديء. ومن المحتمل أن بعض تلك الأقواس استعملت مَساندَ للمباني البارزة الطائرة أو الساباطات المهددة بالسقوط، كما هي الحالة في مدينة تطوان والمدن المغربية الأخرى(٩).

وكتاب توزيع مدينة ميورقة يذكر عدة أقواس منها: «قوس السويقة» والقوس الذي وجد على منزل العطار(١٠).

ويذكر أحـد مراجع مـدينة إشبـيلية المؤرخ في سنة ١٢٥١، أي بعـد انتزاع المسيحيين لها بثلاث سنوات، «البـاب المعروف في عهد العرب بباب داليار Da-lear، الواقع أمام حي فرانكوس Francos»؛ ومن الأرجح أنه الباب الموضح في كتاب الإهداء الصادر في السنة نفسها من فرناندو الثالث لصالح "بيردي لاثيثا" مبينًا تلك «الغرفة الواقعة بالقرب من المتجر التي أعطيت لكم على باب الشارع الممتد من رحبة سانتا ماريا حتى حي فرانكوس». ويأتي ذكر نفس القوس مرة أخرى في الكتاب الخاص بالهبة التي تمت بأمر الملك الحكيم سنة ١٢٥٥ لصالح "ربي يوسف سـاباشـاث" اليـهودي، وهي "أحـد المتـاجر بمدنيـة إشبـيلية، الواقعة أمـام سانتا ماريا، وهو من المتـاجر الموجودة عند باب القـوس الكبير، حيث تباع الفواكه. وهذا المتجر هو المبني عند منازل دون رامون بونفاث بشارع دي فرانكوس. وأهدى الملك المتجر مرفقًا بغرفته مثلما كان في عهد المسلمين». وهناك مرجع مـؤرخ سنة ١٣٥٧ يُذكر فـيه وجود قـوس «شارع بايونا Bayona بالقرب من "جراداس" Gradas بمدينة إشبيلية[١١].

وهناك ذكر لشـارع القويسات بمديـنة إستجة بـعد انتزاعـها بمدة قليلة[١٢]. ويُذكر في كـتاب **توزيع مـدينة مالقـة**، سنة ١٤٨٨، عدةُ قـويسات. وفي سنة ١٤٩٢ كان الشارع القديم المعروف بشارع الاثني عشر لفة ينفذ من تحت القوس الذي كان موجودًا بشارع سالادا (والمعروف فيما بعد بشارع كاسا بالـمـا)[١٣]. والشارع الـقديم المشار إلـيه كان يتـفرع إلى عـدة أزقة، وكـان ينفُـذ إلى حي المسلمين في مديـنة مالقة، المعـمورة بعد انتـزاعها، من خـلال القويس الواقع بشارع "مركادرس" Mercaderes بعد سانتا ماريا[١٤].

ويذكـر كتـاب **توزيـع مدينـة رُندة** بعد انتـزاعها بمدة قليلة، زقـاقًا معـروفًا

بزقاق القويس، بالإضافة إلى الأقواس الأخرى التي كانت مداخل لبعض الشوارع[١٥].

ويذكر كتاب **توزيع مدينة بلّش** (بيليث - مالقة) قبل سنة ١٤٩٢ «زقاقًا ذا قوس في مدخله»، ويذكر «قوسًا آخر في الجزء الداخلي من الشارع»[١٦].

والعديد من هذه القويسات بقيت بعد انتزاع النصارى المدن الأندلسية؛ وقد استمروا في بناء عدد غير قليل منها في بعض المدن فيما بعدُ إلى بداية القرن التاسع عشر. وهي القويسات التي كان يُستعان بها لتبيين الحدود وإغلاق أحياء اليهود في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكان بعض هذه الأقواس موجوداً في عدد من أحياء اليهود، ومنها أحياء اليهود في إشبيلية وقرطبة وطليطلة.

وكان حي اليهود في قرطبة منفصل عن باقي المدينة بقوسين زُوِّدا بأبواب بأمر الملك فرناندو الأول، كما أمر نفس الملك بتركيب أبواب على أحياء اليهود متى دعا الأمر[١٧]؛ وفي عام ١٤٧٩ سميت تلك الأقواس بالأقواس القديمة. وفي سنة ١٣٩١ عندما هجم المسيحيون على حي اليهود ونهبوه خلعوا الأبواب التي تغلق ليلاً وكان لها حراسها[١٨]. وبقي في مدينة طليطلة حتى الآن قوسان على مدخل حي يهود المدينة: أحدهما بشارع "سانتو تومي"؛ والآخر عند معبر القُويس TRAVESIA DEL ARQUILLO.

وتكثر المدن التي احتفظت باسم "القُويس" (DEL ARQUILLO) في أحد شوارعها أو أزقتها نسبة إلى القويسات التي بقيت فيها كما هو الحال في مدينتي مالقة ومرسية. وكان في مدينة إشبيلية أحد عشر شارعًا معروفة بذلك الاسم سنة ١٨٣٩. منها: شارع القويس "المنخفض العريض" و"أتوتشا" ATOCHA

(الذي هُدم في تلك السنة)؛ «وقويس دار السكة»؛ وقويس شامبينيروس (الذي هدم سنة ١٨٣٧ بسبب تعرضه للانهيار)؛ وقويس كلاريبوت Clarevout؛ وقويس سان كلمنتي San Clemente؛ وقويس كونتراتاثيون Contratacion؛ وقويس مادري دي ديوس؛ وقويس سان مارتين San Martin (الذي هدم سنة ١٨٣٨ لأنه كان آيلاً للانهيار)؛ وقويس دي لابلاتا De la Plata الموضح بتخطيط مدنية إشبيلية سنة ١٧٧١) الذي صُمم بعد اقتراح السيد أولابيدي[١٩]، وقويس لاس رويلاس Roelas (الذي كان معروفًا بتلك التسمية منذ القرن السادس عشر)[٢٠]؛ وقويس المسنين، وشارع القويس (أو "تيتشادا") بالقرب من رحبة سانتو توماس بجوار دار السكة. وكان الجزء الشمالي لمدينة إشبيلية يقع بين البابين المنقرضين المعروفين بباب سان خوان وباب لابركيتا حتى بوادر القرن التاسع عشر، وقد احتفظ هذا الجزء بكل الأقواس التي على مداخله، وكذلك الحال بالنسبة إلى بيت الدعارة القديم الذي كان أحد مداخله عند قويس أتوتشا المذكور سابقًا[٢١].

وسرقسطة هي المدينة التي كثرت فيها أيضاً القويسات، كبقايا من ماضيها الإسلامي، وقد أقيم أغلبها في عهد المسيحيين، واستمر البعض منها إلى تاريخ حديث[٢٢]. وهناك بمدينة قرطبة زقاق مزود بقويسات قد احتفظ بطابعه المتميز للقرون الوسطى، وهو زقاق بلا منفذ ظل مجهولاً حتى الأعوام القليلة الأخيرة في شارع "لاس كابيثاس Las Cabezas". ويصفه القرطبي "أمبروسيو دي مورالس" بأنه مزود بقوسين وضع عليهما رؤوس الأمراء السبعة لمدينة "لارا" Lara طبقًا لاعتقاد شعبي[٢٣]. وعندما اكتُشف هذا الزقاق ونُظف منذ عهد قريب عُثر فيه على عدد قليل من الأقواس غير مطابق للعدد الكبير من

الرؤوس، ومن ثم فقد أُكمل هذا الرقم حتى بلغ سبعة. وقد أصبح التمييز بين الأقواس القديمة والأقواس المضافة إليها عسيراً.

وهناك مدينتان صغيرتان جميلتان تابعتان لمدينة "قادش" وهما أركوس Arcos و"بخير دي لافرنتيرا" Vejer de la Frontera احتفظت شوارعهما بقويسات غير قديمة. وقد تكرر وجود تلك القويسات دون سبب ظاهر، ويمكن أن يعزى إلى ميول المسلمين الإسبان إلى الانعزال والخلوة.

(1) Brunschvig, **Urbanisme médiéval**, pp. 133, 135-136: Ashtor-Strauss, **L'administration urbaine en Syrie**, pp. 81-82.

(2) **Ordenanzas... de Toledo**, cap. XXVI, pp. 21 y 194-196; **Ordenanzas de Sevilla**, cap. XXVI; Alba, **Relaciones de la Nobleza**, p. 317.

(3) Hoenerbach, **Loja**, pp. 65-66.

(4) Moreno de Guerra, **Vélez-Málaga**, pp. 385 y 392.

(5) Joan Puig, **El Llibre del Mustaçaf de la Vila de Catí**, 1952, pp. 26 y 89.

(6) Es excepcional el caso de comunicación por un pasadizo subterráneo bajo la calle, como en el convento de Santa Isabel la Real de Toledo.

(7) Díaz Escobar, **Apuntes... sobre... calles de Málaga**, p. 51.

(8) González de León, **Noticia... de las calles... de Sevilla**, p. 434.

(9) **Viajes de Ali Bey**, t. I, p. 97. Con referencia a Fez alude a «murallas elevadas de distancia en distancia (en las calles) para servir de apoyo a las casas de ambas aceras, y agujereadas en forma de arco».

(10) Busquets, **El códice... del Repartimiento de Mallorca**, pp. 281 y 290.

(11) Ballesteros, **Sevilla**, docs. núms. 5, 6, 57 y 73, pp. VI, VII, LX, LXXVI-LXXXVII y CCCXXI; González, **Repartimiento de Sevilla**, II, pp. 300 y 319.

(12) Hernández, Sancho y Collantes, **Catálogo Arqueológico... de Sevilla**, III, p. 107.

(13) Díaz Escobar, **Apuntes... sobre... calles de Málaga**, pp. 37 y 44.

(14) Guillén Robles, **Málaga musulmana**, pp. 486 y 494.

(15) Carriazo, **Asiento... de Ronda**, pp. 60 y 86.

(16) Moreno de Guerra, **Vélez-Málaga**, pp. 388 y 398.

(17) Rivera Ramos, **La carta de fuero... de Córdoba**, pp. 55-56; Ramírez de Arellano, **Historia de Córdoba**, IV, pp. 292-294.

(18) Ramírez y de las Casas, **Anales de... Córdoba**, pp. 50-51.

(19) En ese mismo plano figura también la calle del Arquillo del Sacramento.

(20) Montoto, **Sevilla**, p. 28. En 1575 se cita el arquillo que sube a la puerta de San Juan de Acre; en el mismo siglo el Arquillo del Duque (**Ibidem**, p. 15).

(21) González de León, **Noticia... de las calles... de Sevilla**, pp. 184-187, 189, 344, 451, 609; Montoto, **Sevilla**, pp. 15 y 28.

(22) Ximénez de Embún, **Descripción de Zaragoza**, pp. 18, 27, 62, 110 y 114.

(23) **Crónica general de España** que continuaba Ambrosio de Morales, t. VIII, lib. XVI, cap. XLVI, p. 313.

# الفصل الثاني عشر
# واجهات المنازل: الطوابق العليا البارزة والمشربيات

يقول الشاعر الإسباني (خوسي ثوريلا):

**إن السلطانة الجميلة**

**بوجهها الشاحب، وروحها المتقدة**

**هي التي تقف شاردة**

**في مشربيتها الشرقية[1].**

**(غرناطة ج٢/ ص ١٧١)**

## واجهات المنازل.

إن الحياة العائلية المتحفظة للمسلمين كانت تسير بداخل المسكن حول الفناء الداخلي؛ ولم يكن هذا المسكن يستقبل الهواء والضوء الواردين من الشارع إلا في حالات نادرة وبكميات قليلة. ذلك لأن السكان لم يهتموا بالحركة الجارية في الشارع، التي لم تكن تظهر إلا في الطرق الرئيسة القليلة، كما لم يكن من عادتهم الاطلاع على المارة والجيران ولا التجسس عليهم.

وكانت الجدران الخارجية للمنازل خالية من الفتحات باستثناء فتحة المدخل، وقد أقيمت تلك الجدران دون اهتمام خاص بالزينة الهندسية وبالمباهاة، لذلك لم تكن تبين الوضع الاجتماعي والاقتصادي لمن كان يسكن خلفها. والفحص الدقيق على مصاريع أبواب المداخل، وكذلك التحليل الدقيق لنوعية الخشب

المستعمل لتشكيل الأبواب بالإضافة إلى الحديد المنقوش المشغول كانت هي العلامات الوحيدة التي تسمح بتحديد نوعية الأفراد الساكنين خلفها، وهل هم أناس متواضعون أم أناس أهل ثراء. وهذا المظهر بالإضافة إلى العديد من المظاهر الأخرى كان يوضح التباين الدائم بين الحضارتين الغربية والشرقية، فقد أقيمت بمدن الحضارة الثانية الجدران غير المعبرة والجرداء، والخالية من زخرفة هندسية على كل حافة من حافتي الشارع، وكان الأهالي المقيمون خلفها من أصحاب الحياة المرفهة الذين كانوا يميلون إلى إخفاء ثرائهم ولا يتباهون به خارج مساكنهم، بينما كان سكان مدن الغرب من ذوي الاقتصاد المزدهر، يُظهرون، في أغلب الأحيان، على واجهات منازلهم ثراءً وهمياً بعيداً عن ثرائهم الحقيقي. أما بالنسبة إلى مباني المصالح العامة وبالأخص مباني المؤسسات الدينية بالمدن الأسبانية المسلمة فكانت تخصص لها واجهات فاخرة نسبياً. ويُشار إلى الأبواب أو المداخل أكثر من الواجهات، ذلك لأن الثروة الفنية كانت تتركز على تلك المداخل، ومثال لذلك مدينة غرناطة في عهد النصريين في القرن الرابع عشر، فقد وُجدت المداخل المزخرفة للمدرسة أو "الجامعة"، التي تم هدمها في القرن الثامن عشر، والمدخل المزخرف "للماريستان" Maristan أو مستشفى الأمراض العقلية، الذي تم هدمه كالأول في القرن التاسع عشر، وكذلك بالنسبة إلى المدخل المزخرف بفناء الفحم Corral del Caron أو "الفندق" الذي احتفظ به حتى اليوم لحسن الحظ. ومن المعتقد أنه كان لمداخل المساجد أهمية معمارية وزخرفية استثنائية؛ وبما أنه ليس لدينا أمثلة لمداخل المساجد الأسبانية فمن الممكن أن نحكم عليها معتمدين على المداخل المزخرفة الموجودة بالمغرب.

وفي أغلب المدن التي كـان لها مـحيط أوسع بالنسـبة لعدد سكـانها، وفي الأحيـاء أو الأرباض غير المركـزية منها، كانت الشـوارع والأزقة على الأرجح ليست محددة فقط بواسطة الجدران الخارجية للمنازل، بل محددة أيضاً بواسطة الأسوار العـالية من التـراب المدقوق للبسـاتين والحدائق، التي كـانت تظهر في أعلى حافاتها رؤوس الأشجار والشجيرات.

وفي بعض المدن الأندلسية كمدينة "أستجـة" يتمتع المرء حتى اليوم بالجمال الخلاب لشـوارعها الضـيقة المرصـوفة أرضهـا بالأحجار، والمحـدودة بجدران مدهونـة بالجير الأبـيض النقي، والتي تعلو فوقـها، في تبـاين لطيف، رؤوس بعض أشجار السـرو بلونها الأخضر القـاتم، أو أشجار البرتقال المـورقة بلونها الأخضـر الفاتح. وفي عمق تلك الأزقـة يظهر برج أجراس رقـيق من النـوع "الباروك" بدلاً من المنارة التـي كانت، في أغلب الظن، منصوبة في الأفق في العهد الإسلامي.

وقد كتب بيدرو بيترا عند دخوله مـدينة مالقة بصحبة الملكين الكاثوليكيين، عند انتزاع المدينة مباشرة (عام ١٤٨٧)، أن واجـهات المنازل... كئيبـة للغايـة ومظهرها سـيِّئ جـداً»[٢]؛ وكان الكاتب الشـرعـي المايورقي على علم تام بلا شك بمدينتي بلنسية وبرشلونة، وببعض المدن الشـرقية الأخرى التي كانت تملك عندئذ أفضل منازل مدن شبـه الجزيرة. وكتب الألماني "منزر" سنة ١٤٩٤ عن منازل عرب غرناطة بأنها كانت غير نظيفة من الخارج ونظيفة للغاية من الداخل وكـانت تغلق مثل المتـاجر بواسطـة «أبواب بسيطة من الخـشب ومسـاميـر من الخشب أيضـاً حسب عادة أهل مـصر وأفريقـية»[٣]. وقد كـتب نائب المطران "مارتينث ماثاس" مـنذ أكثر من مائة وخمـسين سنة عن المنظر الخارجي لمنازل

مـدينة جـيان الموروث عن المسلـمين بأنها «بـلا إصلاح ولا تسـاو»[٤]. وقد استمرت التقاليد الخاصة بالمظهر الخارجي وبالعديد من المظاهر الأخرى للمنازل عدة قرون بعد انتقال المدن الأسبانية إلى سيادة المسيحييـن. وكتب "الونسو دي مورجادو" في كـتابه عن **تاريخ مدينة إشـبيلية**، الذي نشر سنة ١٥٨٧، قائلاً: «في الزمن الماضي اهتم البناؤون بمراعاة بناء المنازل من الداخل وعـدم مراعاتها من الخارج، وذلك طبقاً لما وجد بمدينة إشبيلية في عهد المسملين»[٥].

وقد أكد أندريس ناباخيـرو سفير فينسيـا سنة ١٥٢٥ عن مدينة طليطلة أنها كانت تملك "العديد من المنازل الحسنة والعديد من القصور المرهفة أكثر مما وجد في غيرها من المدن الأسبانية ولكنهـا كانت خالية من الخارج من منظر يُذْكَر أو من أي مظهر من المظاهر الزخـرفية. والمبـاني كلها مبنيـة بالحجارة الصغـيرة، وهناك جزء من أجزائهـا به أحجار منقوشة مع الـطوب الأحمر، وباقي المبنى من الطين كما هي العادة بأسبانيا؛ ولتلك المنازل شرفات قليلة وصغيرة، وذلك بسبب الحر والبرد كما يقولون ولهذا لا ينفذ إلى داخل أغلب المنازل إلا الضوء الآتي من الباب»[٦].

وقد قام "تيوفيل جوتير" بذكر الملاحظـة نفسها بعد ذلك بثلاثة قرون، وقد تحدث الكاتـب الفرنسي عن الفـتحات القليـلة المزودة بحواجز مـن الحديد في منازل مـدينة طليطلة، وتلك المنازل بمنظرها المهـيب في تقديـره كأنهـا أخذت سمـات "الدير" و"السجن" و"القلعة" في آن واحـد، بل أخذت ـ كمـا قال أيضاً ـ الجو الاجتمـاعي السائد في دائرة الحريم الموروث عن العرب[٧]. وكتب ثيـربانتس Cervantes «عن نوافـذ منازل المسلمين التي كـانت في العـادة تشبـه الفتحات الصغيرة أكثر مما تشبه النوافـذ، وكانت تغطى بمشربيات كثيفة مزدحمة

بفتحاتها الضيقة للغاية»[٨]. ومن المحتمل أنه وضع على بعض النوافذ قضبان حديدية لحمايتها. فهناك مؤرخ من بني عباد يحكي عن "فخر الدولة"، أحد أبناء المعتمد المشهور، وهو أحد ملوك الطوائف في مدينة إشبيلية في النصف الثاني للقرن الحادي عشر، أنه شغف في يوم ما بفتاة جميلة قد لمحها من خلف شبكة الحاجز الحديدي لإحدى النوافذ في تلك المدينة[٩].

أما أبواب مداخل المنازل فقد كانت العادة الإسلامية، وبالأخص العادة لدى أصحاب المذهب المالكي "Maliki" الذي يتبعه المسلمون الأسبان، تسمح بتركيب تلك الأبواب بصورة حرة أو بتغييرها بشرط ألا ينتج عنها أي إضرار للجيران، أو بمعنى آخر عدم تركيب الباب أمام أبواب الجيران حتى يتمكنوا من فتح أبوابهم دون أن يخشوا الأنظار المتطفلة، وحتى يتمكنوا أيضاً من الاقتراب منها بدوابهم في سعة للوصول إلى عتبتها[١٠]. ولوائح القرون الوسطى لمدينتي طليطلة وإشبيلية قد احتفظت بتلك التقاليد عندما نصت على «عدم تركيب باب منزل من المنازل أمام باب الجار.. وكذلك بالنسبة إلى المتاجر والفنادق والحمامات... يجب ألا تُركب الأبواب مواجهة لبعضها لأن ذلك يُعد كشفاً للأسرار[١١].

وإذا كان الباب كبيراً فإن العادة تقضي أن يُفتح في كل مصراع من مصراعيه مدخل صغير يعرف بالدفة [الخوخة] "Postigos" - علماً أنه كان هنالك دفتان حتى ولو كان عرضهما لم يتجاوز متراً واحداً - وكانت الدفة تسمح بتقليل الفراغ العرضي المخصص لفتح الباب. وقال "مارتينث ماثاس" «عن الأبواب الخارجية لمنازل مدينة "جيان" قبل نهاية القرن الثامن عشر إنها كانت مزودة بساكف الخشب، هذا بالرغم من تركيب واجهاتها من الأحجار، وبما أن تلك

الأبواب كانت مغلقة في أغلب الأحيان - بسبب طبع المسلمين الحاد وأيضاً بسبب الشك، فلم يكن يوجد بالمنزل إلا مدخل صغير واحد منخفض وضيق يسمى بالخوخة "Postigo" . وهو يشبه باباً من أبواب القلعة، حتى إن المرء لم يكن يستطيع أن يمر منه إلا منحنياً وبصعوبة بالغة»(١٢).

وكان الباب الخارجي يفتح داخل «أسطوان» كبير نسبياً حسب أهمية المنزل، وكان يفتح بالأسطوان باب آخر، لم يكن يقع على خط الباب الأول، وكان يؤدي إلى الصحن الداخلي مباشرة، ولكن وجد في بعض الأحيان بين الباب والصحن ممر مؤد إلى الصحن المشكل على هيئة كوع الذراع. وبهذه الصورة كان يبعد الصحن الداخلي عن أنظار المارة عند فتح باب الشارع(١٣).

أما ارتفاع الواجهات أو الأجزاء الأمامية للمنازل فكان يختلف في بعض المدن عن البعض الآخر. وكان للمنازل عادة طابقان، الطابق الأرضي وطابق آخر أعلى منه، ومع هذا، وكما يحدث في كل زمان ومكان بسبب تقليل المساحة الداخلية المبنية داخل أرض الأسوار في وقت ما، فإن ارتفاع المنازل كان يزيد حتى بلغ أربعة أو خمسة طوابق عند الضرورة.

وفي أوائل القرن الخامس عشر كانت للمنازل الواقعة على حدود "زقاق الحطاب" Z. al-Hattab بمدينة سبتة تتكون من ثلاثة طوابق "وكانت ترتفع إلى أعلى مثل قلعة" كما يقول المسلم الذي يرجع إليه الفضل في وصف تلك المدينة.

والاختلافات الشاسعة الظاهرة بمستوى أرض بعض المدن كانت تساعد في بعض الأحيان، كما في مدينتي قونكة والبراثين، على الارتفاع غير العادي للمباني، فكان يغلب في تلك الحالات وضع المنازل التي كانت تظهر بإحدى

واجهـاتها من طابقين وفي الواجهة المـقابلة أربعة أو خمـسة طوابق، وفي هذه الحالة الأخيرة كانت الطوابق السفلى تقع تقريباً تحت مستوى الأرض.

وفي المدن المستوية ذات المحيط الممتـد كانت الحالة السائدة هي المباني القليلة الارتفاع، وهكذا استمـرت طريقة البناء بمدينة إشبيلية حتى بـعد منتصف القرن السادس عشـر، وذلك عندما قام بيدرو مكسيـا بإطراء قلة ارتفاعها ومـساكنها المنخفـضة والمتـواضعـة وقليلة الأهميـة التي لم تكن تبدو حـسنة في «اعتـقاد الأجانب، وفي اعتـقاد هؤلاء الذين يأتون إليها وعـيونهم مليئة بما عـثروا عليه بمدينة برشلونة أو بالمدن الأخرى من منازل بثـلاثة طوابق وأربعة». وكان ينصح بعدم بناء المنازل أعلى من هذا الحد بغـرض احترام الناحية الجماليـة والزخرفية للبناء، واعتباراً لمناخ الجو الحار الرطب، مثـل مناخ إشبيلية، حتى تتعرض أهم أجزاء المنازل للشمس السـاطعة والهواء الطلق حرصاً على تسهـيل تجديد الهواء فيها[١٤].

وبمدينة غرناطة في عهد النصريين في القرن الرابع عشر، وكذا بمدينة طليطلة المعاصرة لها، التي كـانت عندئذ واقعة تحت سيادة المسيـحيين منذ عدة قرون، كانت الأطناف بأشكالها المزخرفة البـارزة جداً تحمي واجهات العديد من المنازل والمباني الأخرى، وكانت الأطناف مائلة في معظـم الأحـيان، فقد كان طرفهـا الطـائر أعلى من الطرف الآخر المغروس بالحائط[١٥].

وكـانت النظم الخـاصة بمديـنتي طليطلة وإشـبيـلية، في الفـصل الخـامس والعشـرين ـ الخاص «بأطناف الأسطح» ـ تمنع أصـحاب المنازل من القـيام ببناء أطناف منازلهم إلى حد يجاوز ثلث عرض الشارع؛ وتبقى نفس المسافة للمنزل المجاور له، والثلث الـباقي كان يسـمح للهواء والضوء بالنـفاذ إليه ولتـصريف

المياه[١٦]. وهناك عـادة قديمة توحي بفكرة عن ضـيق تلك القنوات، ذلك لأن الأشكال الزخرفية للأطناف (القنيوات) لم تكن تتـجاوز مسافة تعادل الـ ٦٠ أو الـ ٧٠ سم، باستـثناء بعض الحالات النادرة، وكـانت هذه المسافـة هي عرض الحزام الضيق من السماء المقطوع في الأجزاء العالية المحصورة بين أطناف أسطح المنازل المتقابلة. وليس لدينا علم عـن كيفية انتهاء الأجـزاء العالية لمنازل بعض المـدن الأخرى الأسبانية المسلمة أو المدجنة، مثل مـدن قرطبة وبلنسية وغيرها، إلخ[١٧].

**أجزاء الطوابق العليا البارزة الطائرة.**[١٨]

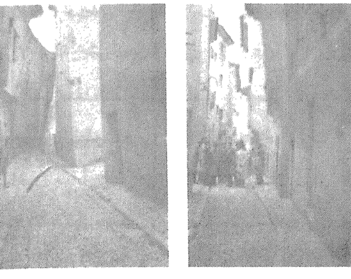
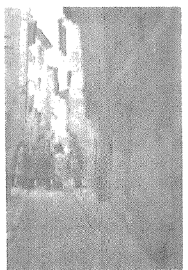
كان كتاب **لائحة الحقوق الرومانية** يمنع بناء أشكال طائرة أو بارزة في المقدمة المطلـة على الطريق العـام. وفي العهد الإسلامي كـانت حقوق ملكية المسـاحة تمتد افتـراضيـاً إلى الأجزاء المحيطة بها. ومن ثم سـمح علماء المذهب المالكي ببروز المبانـي الصغيرة عن مستوى الشـوارع[١٩].

لقد كانـت الشوارع الضيقة التـصميم تزداد ضيـقاً في أجزائها العليـا بسبب تكرار بناء الأشكال الطائرة عليـها أو البروزات، أي بناء الطوابق العليـا البارزة التي تجعلها قاتمـة، لأنه لـم يكن بين طنفـي الأسطح إلا حزام مضيء ضيق كما حدث في المدن المسيحية الغربية في القرون الوسطى التي كان بناؤها واقعاً مبرراً باعتبار العدد الهائل من الـطوابق العليا ومن الغرف الطائرة التي كانت تمتد إلى الشوارع علـى مسافـات محـدودة. هذا، بالإضافة إلـى قلة المساحة الـداخلية المحصورة بين أسوار المـدينة قياساً بالعدد المتزايد من سكانهـا. مما أجبر الأهالي على الاستـفادة من المسـاحة المحصـورة داخل الأسوار بأقصـى صورة. وبتلك الوسائل أمكن زيادة المساحة المبنية دون المساس بمساحة الشوارع الضيقة.

واعتادت المدن المسلمة الشرقية على ارتكاز الروافد البارزة للطوابق الطائرة على أعمدة خشبية مائلة، أي على دعامات أو أوتاد خشبية.

وانتقل هذا النظام إلى مصر وشمال أفريقية وإلى شبه الجزيرة الإيبيرية. وتوجد في حلب، ودمشق، والقاهرة، والجزائر، وفي أماكن أخرى عديدة مبانٍ رائعة بأجزاء الطوابق الطائرة المستندة على تلك الدعائم. وقد احتفظت المدن الأسبانية بعدد قليل منها. فيوجد بعض منها بمدينة قُونكة Cuenca حتى الفترة الحالية. ومما يثبت انتشارها الواسع في وقت ماض التخطيطات المؤرخة في نهاية القرنين الخامس عشر والسادس عشر المذكورة في الصفحات اللاحقة، وتنص تلك التعليمات على عدم بناء طوابق عالية بارزة جديدة، وعلى هدم الموجود منها بغرض توسيع الشوارع وجعلها صحية أكثر[٢٠]. وبهذا الخصوص سوف أكتفي بذكر بعض الأمثلة بالمدن الآتية: بلنسية وغرناطة وطليطلة.

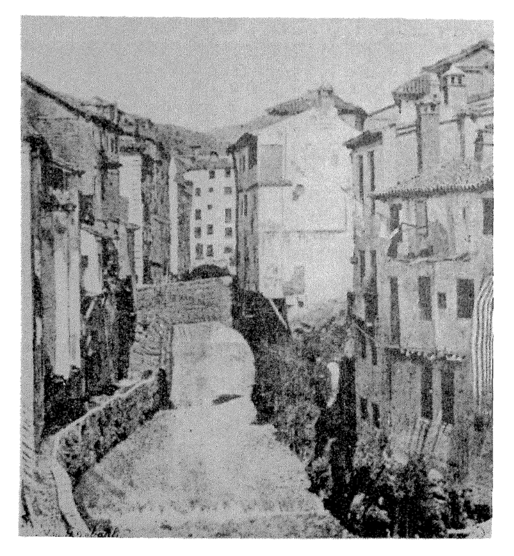
فكان في مدينة بلنسية عدد من الـ"أمبانس" embans أو الـ"براندات" ba-randats (حيث كانت الطوابق العليا البارزة تسمى بهذا الاسم في اللهجة الشرقية)، وكانت تضيِّق من عرض شارعي "سيرانوس" Serranos و"بواتيّا" Boatella بالإضافة إلى الشوارع الأخرى التي لم تذكر، وكانت تلك الطوابق العليا البارزة آيلة للسقوط بسبب قِدَمها، كما كانت على ارتفاع منخفض أقل من المسموح به والموضح بلائحة التخطيط المحلية المعمول بها في ذلك الوقت. وفي النصف الثاني من القرنين الرابع عشر والخامس عشر صدر أمر بهدمها[٢١]. وبقائمة جرد ممتلكات مجلس بلدية غرناطة سنة ١٥٣٧ تبين أن هناك بعض المتاجر الطائرة على نهر تلك المدينة، في المكان المعروف اليوم بطريق نهر "الدارّو" أمام "البانويلو" Banuelo[٢٢]. أما المنازل الواقعة على


شوارع ومنازل في قونكة.

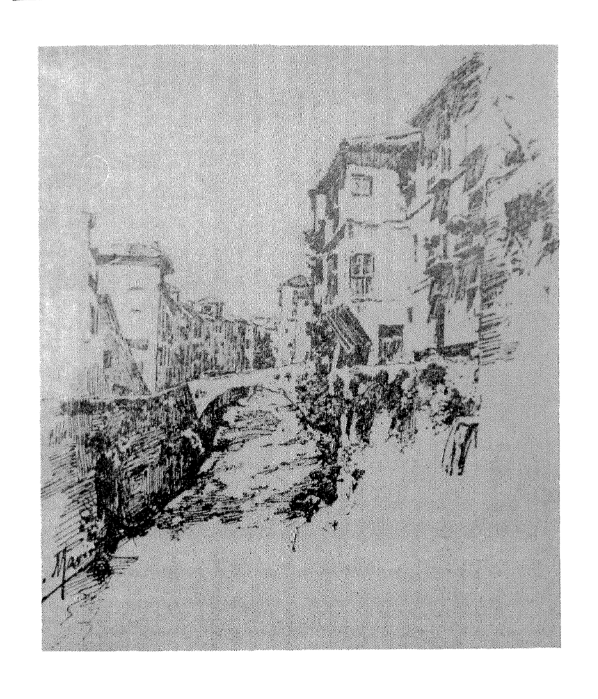
ضفتي النهر فكان يسمح لها بمدّ الطوابق العليا البارزة على مجرى النهر. وتظهر صورة التقطت قبل ثمانين عاماً بعض تلك المنازل التي تستند أشكالها البارزة على دعامات خشبية، وهي واقعة في المناطق السفلى من النهر بالنسبة إلى تلك التي ذكرت سنة ١٥٣٧.

إن المنظر الرائع لمجرى نهر الدارو Darro عند عبوره غرناطة قد فُقد للأسف عندما قاموا بتغطيته منذ أكثر من نصف قرن، وبهذا الخصوص علق أنخل جانيبت A.Ganivet، أحد مواطني مدينة غرناطة، على ذلك الإصلاح المدني قائلاً: «إني أعرف عدداً من المدن التي تعبر خلالها الأنهار الكبيرة والصغيرة كنهر السين ونهر التايمز ونهر سبري Spree بما فيها نهر مانثنارس المتواضع الظمآن؛ ولكني لم أر على الإطلاق أنهاراً مغطاةً مثل نهر الدارّو الذهبي، كما أؤكد أن من جاء بفكرة تقبية النهر قد أوحي إليه ليلاً أي في الظلام، وكانت تلك الليلة ليلة مشؤومة لمدينتنا»[٢٣].



طريق نهر الدارّو، في غرناطة، في أواخر القرن التاسع عشر قبل حجب النهر. ويرى في رسم إيسيدرو مارني، وفي الصورة الفوتوغرافية أدوار عليا تبرز فوق دعائم خشبية. تم تنفيذ الرسم من مكان جسر سانتا آنا. ويلمح في الصورة جسر لاجاينيرا وفي خلفية الصورة بيت يسد ميدان نوييا.

ومما يؤكد الاستمرار في بناء الطوابق العليا البارزة الطائرة في المدن الأسبانية المسلمة القديمة حتى سنوات متقدمة من القرن السادس عشر المرسومُ الصادر في ذلك الوقت من المأمور القضائي ومجلس بلدية طليطلة الذي يفيد أن بعض البنائين والجصاصين والنجارين وغيرهم خالفوا الأوامر الصادرة الخاصة بالمدينة،



طريق نهر الدارّو، في غرناطة، في أواخر القرن التاسع عشر قبل حجب النهر.
رسم إيسيدرو مارني، وقد تم تنفيذ الرسم من مكان جسر سانتا آنا.

ومن ثم صاروا « يفتحون أبوابًا ويصلحون الطوابق العليا البارزة ويبنونها من جديد، بالإضافة إلى بناء المداخن البارزة »، كما تنص تلك الأوامر على أنه ينبغي ألا يتجرأ أحد منهم «على فتح تلك الأبواب ولا على تعديل أو إصلاح الطوابق العليا البارزة ولا على إعادة بنائها»[٢٤]. وكان أهل المدينة مستمرين في عادتهم التقليدية ولكن أقلية من الزعماء والمثقفين كانت تحاول تعديلها تحت التأثيرات القادمة من الخارج.

**المشربيات** AJIMECES [٢٥].

بدأت واجهات منازل أهم المدن الأسبانية المسلمة في إظهار تحمسها لبناء النوافذ والشرفات الخشبية الطائرة، المغلَّفة بمشربيات كثيفة، كي تتمكن النساء من قضاء وقتهن فيها في الهواء الطلق متمتعات بالظل اللطيف وبرؤية الشارع دون أن يراهن أحد من الخارج. ومن المحتمل أن ذلك حدث في أواخر القرن الثالث عشر.

وقد سمّى أهل قشتالة تلك الأشكال الطائرة البارزة "أخيميث" Ajimez. وقد أُشتُق هذا المصطلح من الكلمة العربية «الشِّماسة» (النافذة) المشتقة من كلمة "شمس" [٢٦]. والمصطلح "أخيميث" Ajimez من اللغة الرومانسية لم يظهر في الأدب القشتالي إلا في القرن الرابع عشر[٢٧].

**المشربية الرومانتيكية الكاذبة.**

بعد انقراض المشربيات عن جدران واجهات منازل مدننا، وبعد نسيان تصميمها الأصلي، استعملت تسميتها بصورة خاطئة للإشارة إلى أشكال هندسية مختلفة عن الأصل. ففي المعجم المسمى **معجم السلطات** DICCIONARIO DE AUTORIDADES التابع للمجمع العلمي للهيئة الملكية

الأسـبانيـة، الذي نُشـر سنة ١٧٢٦م، يعـرِّف المصطلح بمعنى مـزدوج: المعنى القديم «الشكل المبني الطائر» والمعنى الآخر "النافذة المقوسة المقسمة إلى قسمين بعمـود مركزي»[٢٨]. وبعد نسـيان المصطلح القـديم أصبح المعنى الأخـير هو السائد والدائم الاستعـمال، وسوف يكون نفيه وإزالته من المعجم أمـرًا عسيرًا. ولست على علم تام بالطريقـة الخاصة التي أدت إلى تدوينه في المعـجم السابق ذكـره. وبعض النصوص والمراجع المؤرخـة في أواخـر القرن الخـامس عشـر والسادس عـشر تؤكد دون ريب المعنى السـابق ذكره، وتثبت في الوقت نفـسه المعنى الخطأ الذي جرى استعماله منذ أكثر من قرنين ونصف[٢٩].

والانتشـار الواسع النطاق للتسمـية "أخيمـيث" (المشربية)، التي تشـير إلى النافـذة المزدوجة المقـسمـة إلى قـسمين بالعـمود الـوسطي، يرجع إلى الفتـرة الرومانتيكية. والمشربية موضوع المناقشة كانت تشكل الإطار المثالي للنسوة مثل: فاطمـة وزبيدة وعـائشة، ذوات العيـون السود والشـفتين القرمـزيتين والأسنان العاجية، الـتي تطل من داخل فتحة النافذة المزدوجة، كـما توضح الصور التي مرت عليها عـدة قرون وهي الواردة في صفـحات النشرة الأسبوعيـة الأسبانية عن فنون الرسم Semanario Pintoresco المحـتفظ بـها "بمتـحف العـائلات"، بالإضافة إلى مـا توضحه مؤلفات الناشر "جـاسبار إي رويج" Gaspar y Roig. ومن المعروف أن الشاعر ثوريلا Zorrilla كان شاعر المشربيات وكان قصر الحمراء أرضيته المفضلة.

**المشربية (الأخيميث) في أسبانيا المسلمة ومنشؤها.**

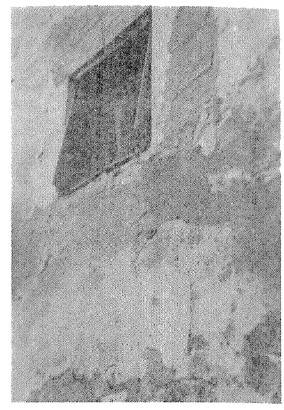
من المحتمل أن بدعـة الشرفة الطائرة الخشـبية المغطاة بالمشربيـات قد انتقلت إلى أسبـانيا المسلمـة في أواخر القرن الثـالث عشر، أو فـي أوائل القرن الرابع

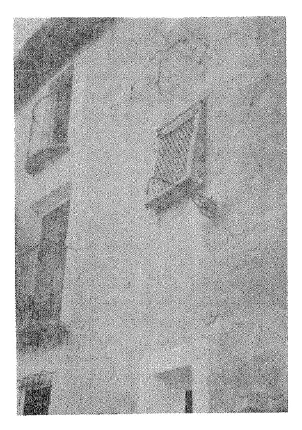
عشر، قادمة من القاهرة ومن الإسكندرية، ثم انتشرت انتشاراً سريعًا في المدن الأكثر ارتباطًا بالمناطق الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. وفي حقيقة الأمر فقد اشتقت المشربيات الأندلسية من المشربيات المعروفة تماماً في القاهرة والإسكندرية(٣٠) ـ والموجودة أيضًا في سورية وشبه الجزيرة العربية ـ وهي المعروفة لدى الفرنسيين بـ "مشربيات Moucharabiehs " . وهي عبارة عن صناديق خشبية طائرة، مغلقة بواسطة عوارض خشبية متقاطعة، ويُعدّ بعضها تحفًا فنية أضفت نوعاً من البهجة على واجهات منازل المدينة المصرية الكبرى ابتداء من القرن الثالث عشر. وفي الفترة الراهنة يندر عددها نتيجة للهدم المحزن لعدد كبير منها؛ بينما نقل البعض الآخر إلى المتاحف وإلى المجموعات القديمة الخاصة. وتعيننا بعض الرسوم وبعض الصور الفوتوغرافية الراجعة إلى السنوات القليلة السابقة على تكوين فكرة عنها، وعن توافرها وعن قيمتها، وعن تنوعها وكيف أن تلك المشربيات كانت تضفي مظهراً أصيلاً ورائعاً للغاية على العديد من المدن الشرقية ومنها القاهرة بصورة خاصة(٣١). ومن الممكن تقدير منظرها القديم بالاعتماد على رسم بالألوان المائية للرسام "أمبروسيو بودري" Ambrosio Baudry مؤرخ في عام ١٨٧١، وقد نشر في عدة مؤلفات ومنها هذه الصفحات، ويمثل هذا الرسم "سوق العصر" Suq al-Asr بمدينة القاهرة، وهو الشارع الذي يؤدي إلى "باب النصر"؛ ويلاحظ في آخر الشارع منارة الجامع الذي أقيم في أوائل القرن الرابع عشر بأمر السلطان المملوكي ركن الدين(٣٢).

وكان بعض الكوابيل Mensulas الحجرية أو رؤوس الروافد الخشبية، المستندة أحياناً إلى دعامات، يتحمل وزن المشربيات التي كانت عبارة عن

صناديق من الخشب معلقة من جهة ظهرها على الأجزاء العليا من الجدران، أما الواجهات الأمامية منها فكانت تنقسم إلى أشكال مستطيلة أو مربعة، والبعض منها كان يفتح من أسفل إلى أعلى في حركة دورانية متجهة إلى الخارج حول محور الإطار الأعلى، وكانت مزينة بالرسومات المختلفة. وكانت المشربيات تصنع من قطع صغيرة من الخشب مشغولة بدقة ومخروطة باهتمام بالغ. وكان النسوة الجالسات بداخلها يتمكنّ من استقبال الضوء القوي الآتي من الشارع من خلال شقوق المشربيات، ومنهن من يتمتع بمنظر الشارع أو الفناء الداخلي ـ لأن المشربيات كانت تبنى أيضًا بالأفنية ـ دون أن تتعرض النساء لأنظار المارة. وكان يوضع داخل المشربيات قلال مساميَّة مصنوعة من الفخار تحتفظ بالماء باردًا. إن تقاليد نقش الخشب المستخدم في صنع المشربيات ترجع إلى الصانعين الأقباط، ولكنها تطورت بصورة كبيرة إبان سيطرة المماليك على مصر، وبالأخص في عهد السلطان قايتباي (٨٧٣ ـ ٩٠٢/١٤٦٨ ـ ١٤٩٥)[٣٣]. أما في المغرب فالمشربيات غير موجودة[٣٤].

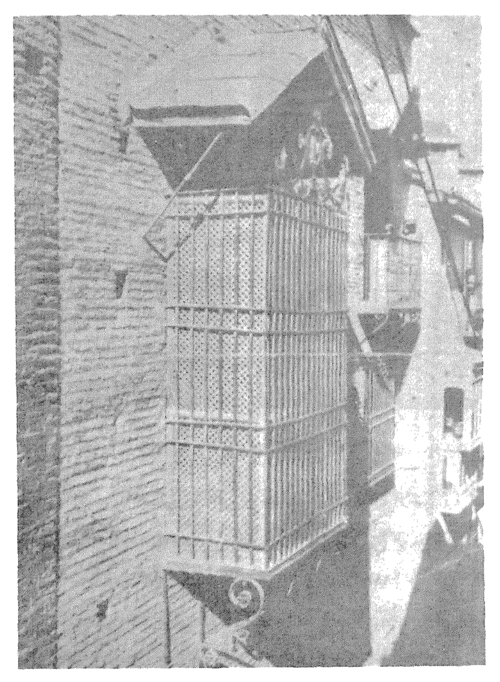
وفي أسبانيا توجد أخبار عن وجود المشربيات في قادش، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقة، ومرسية. ويؤكد ذلك الأمرَ التعليماتُ الصادرة في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر التي ستذكر بعدُ؛ وهي تنص على منع بناء المشربيات وعلى هدم الموجود منها. فكان عدد المشربيات في تلك المدن المزدحمة المشار إليها كبيراً على الأرجح، بينما كانت قليلة في بعض المدن الأخرى الصغيرة. فقد وجدت مشربية كبيرة في مدينة بَلِّش في مالقة، وهي المدينة التي قام الملكان الكاثوليكيان بالسيطرة عليها سنة ١٤٨٧. وحالتها استثنائية، إذ إنها الوحيدة التي ذكرت في كتاب توزيع المدينة[٣٥].





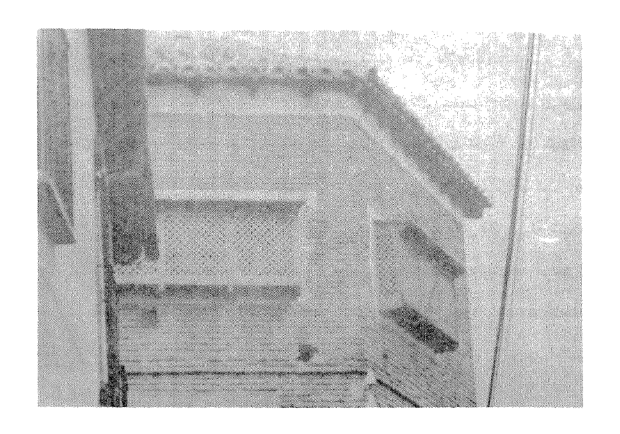
مشربية وبقايا أخرى في مدينة البرائين (ترول).

كيف كانت المشربيات البارزة على واجهات منازل المدن الأسبانية المسملة، أهي مغلقة وعارية ابتداء من سنة ١٣٠٠، كما افترضنا في الصفحات السابقة؟ هناك رسم لـ "دون مانوئيل جومث مورينو" تم سنة ١٨٧٧ لمشربية «الحامة» Alhama بغرناطة يعطي فكرة عن المشربيات الأندلسية الأبسط من غيرها، والتي لم تكن إلا تقليداً لبعض مشربيات القاهرة الموضحة في الرسومات المائية لبودري "Baudry". فالمشربيات المشكلة بالبكرات المخروطية المشابهة لمشربيات القاهرة انتشرت بمدينة غرناطة الإسلامية - وقد احتفظ بإحداها في الصالة المعروفة بـ "لاس دوس هرماناس" Las dos hermanas (الشقيقتان) بقصر الحمراء. هذا بالإضافة إلى بقايا بعض المشربيات الأخرى - أما مشربيات المباني المهمة فالأرجح أنها كانت مزودة بالأشكال ذاتها (المتكونة من البكرات



مشربية أو شرفة كانت موجودة في مصلى القديس كريستو ديه لاس أجواس (مسيح المياه) في أبرشية "ماجدالينا" بطليطلة.

المخروطيــة) المماثلــة لتلك التي في العاصــمة المصــرية. وهذا الشكل هو الذي يُعتقد أنه موجــود بمشربيات صالة كومــارس Comares وببرج معشوقة Machuca بقصر الحمراء(٣٦).



مشربيات حديثة في دير لاماردي دي ديوّس ودير سانتا إيسابيل لاريال بطليطلة.

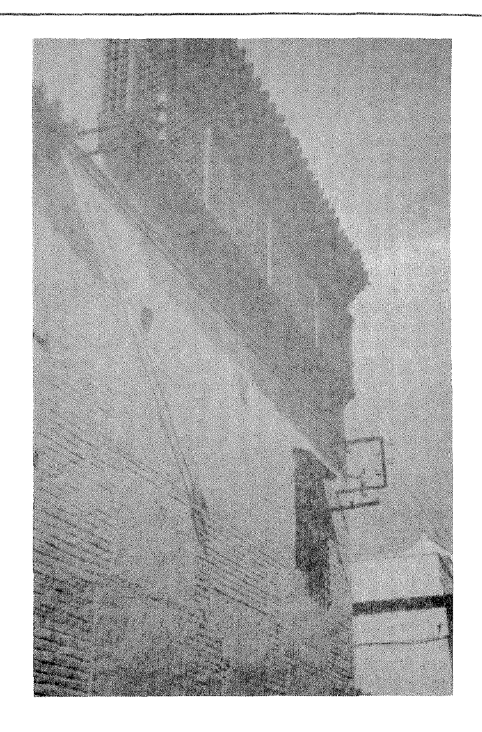
وقد انـقرضت المشـربيات الإسـلاميـة القديمة من مناظر مـدننا بعـد حرب الاسترداد ـ تمكن دون مانوئيل جومث مـورينو من رؤية إحداها في البيازين Al-baicin بمدينة غرناطة ودراستها ـ وسبب انقراض المشربيات يرجع إلى التعليمات السابـق ذكرها التي تقـضي بمنع بنائها وبهـدمهـا قسـراً، وبسبب قـصر عـمر الأخشاب المتشابكة الخـفيفة المعرّضة لتأثير العـوامل الجوية أيضًا. ومع هذا فقد بقيت تقاليد تركيبها في المناطق الـزراعية استثناءً. وكانت هناك بقايا في الأعوام القليلة الماضيـة بمدينة "البراثين" Albarracin المحتـضرة عندئذ، في وسط المنازل المنهارة والمنازل الأخرى المغلقة بمحافظة أرغون Aragon. كما كانت تلك البقايا موجودة بكثـرة بمدينة ترويل قبل الحرب الأهلية. ويحتمل وجـود أمثلة لها في

بعض الأماكن المعزولة بمحافظة أرغون؛ تلك المنطقة التي أثرت فيها التقاليد الأسبانية المسلمة تأثيراً عميقًا كالأثر الذي تركته على بلاد الأندلس.

وكانت مشربيات البراثين هي المشربيات المماثلة لمشربيات القاهرة الموضحة في الرسم المائي لبودري السابق ذكره عدة مرات. وكانت عبارة عن حلقة أو طوق خشبي بارز وجهه الأمامي إلى الخارج، وفي وجهه كان يركب إطار مكوّن من مجموعة من العوارض الخشبية البسيطة المتقاطعة على هيئة شبكة، وكانت تستند بشكل مائل على لوحتين خشبيتين مثلثين جانبيتين، مرتكزتين على لوحة خشبية أخرى أفقية الوضع بارزة ومرتبة على امتداد سقف النافذة. وكانت النسوة يستندن عليها ناظرات إلى الجهة الأمامية من الشارع وإلى الجهتين الجانبيتين على حد سواء، بعيداً عن أنظار المارة، علماً بأن هذه الملاحظة الأخيرة كان تتم من خلال بعض الفتحات الموجودة في اللوحتين الجانبيتين المثلثتين[٣٧].

**المشربيات الديرانية.**

إن الأديرة القديمة للراهبات، وهي كالجزر المنعزلة التي استمرت فيها الحياة خلال القرون دون تغيرات جذرية، هي التي احتفظت بتقاليد المشربيات بصورتها الأصلية الصميمة، بسبب العزل النسوي عن الدنيا بصورة أشد صرامة من تلك التي عرفت في الفترة الإسلامية. ومع أن معظم المشربيات ركبت على النوافذ البارزة الطائرة؛ فقد توافرت المشربيات التي كانت تمتد على طول مساحة الواجهة أو على جزء منها فقط؛ ففي مدينة طليطلة مثلاً احتفظت بتلك المشربيات أديرةُ سانتا إيسابيل لاريال، وديلا مادري دي ديوس، ودي أجوستيناس كالثادس ودي سان أنطونيو. وهناك مثال جيد موجود بدير لاس منماس بمدينة أَستَجَّة Ecija الموضح بالرسم.



مشربية دير إستجة.

وقد استمـر بناء المشربيات الديرانية حتى أيامنا الحاليـة. وتعد راهبات تلك الأديرة الأسبانيـة القديمة، أكثر انعزالاً من النساء المسلمـات. وفي الوقت نفسه تعد تلك الراهبات الممثـلات الأخيرات لحياة اجتماعيـة منقرضة منذ عدة قرون

من مناطقنا وعلى وشك الانقراض السريع في مناطق أخرى كانت تنتشر فيها. فغير مرئيات من خلف مشربياتهن، كانت تلك الراهبات يتلصصن بأنظارهن الفاحصة حول ديرهن المنعزل المغلق، ذلك الدير الذي لم يكد يتغير خلال مئات السنين، والذي لم يتم فيه إلا تغييرات طفيفة مقارنة بما يجري في الحياة المدنية الدائمة السريعة التغير.

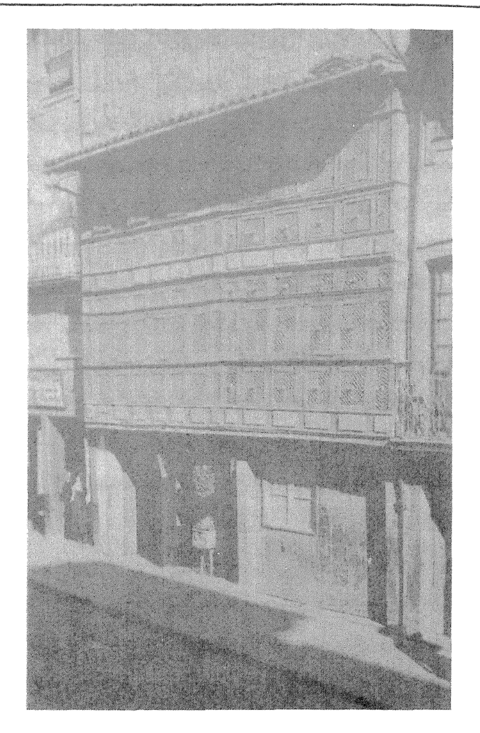
**الدفاف البرتغالية.**

لقد بقيت تقاليد المشربيات في البرتغال وجزر الكناري وبعض المناطق في أمريكا الأسبانية بأشكالها الأصلية التي تفوق في دقتها ما هو موجود في أسبانيا، كما سندرس في الصفحات التالية.

الأشكال التقليدية للمشربية.

ففي البرتغال تسمى "الدفة" adufa وهي مشتقة من كلمة "الدُّفَّة" العربية (وجمعها دِفاف، وهي تعني بوابة أو لوحاً خشبياً)[٣٨].

وفي عدة مناطق من المدن الآتية: برغش Braga، وشنتمرية الغرب (فارو) Faro، والكوشيت Alcuchete، وباجة Beja، إلخ. اعتاد الناس أن يستعملوا الدفاف adufas والنوافذ Ventanas والشرفات Balcones أو الأروقة الطائرة الخشبية المغطاة بالمشربيات لإغلاق كل فتحات المنازل[٣٩]. وفي مدينة بَرْغَش Braga يوجد منزل غطيت واجهتا طابقيه الثاني والثالث كليًا بواسطة دفَّة كبيرة من البكرات الخشبية. وهناك مطبوعات قديمة ظاهرة على الأحجار تبين أسماء شوارع بعض المدن البرتغالية بمنازلها المليئة بالدفاف التي تضفي عليها سمة من السمات الشرقية[٤٠].



مشربية ببيت في براجة (البرتغال).

**المشربيات في جزر الكناري.**

من المرجح أن المشربيات قد انتقلت إلى جزر الكناري قادمة من شبه الجزيرة الإيبيرية في عهد الملكين الكاثوليكيين، وفي عهد حفيدهما الإمبراطور كارلوس

الخامس عندما بدأت المشـربيات في الاختفاء من مدن الأندلس. فـهناك محضر صـادر عن مـجلس بلدية "لالاجـونا" La Laguna مـؤرخ في ١٩ يناير سنة ١٥١٨، يذكر ما تناوله ذلك المجلس من مواضـيع في ذلك اليوم، وقد تحدث عن «تحديـد موقع أرض مجلس الـبلدية الذي يراقبـه بيرو ديـاس، وانعـقدت الجلسة الخاصـة بتحديد مواقع المجـازر ومـتاجر الأسماك، ومن المسـتحسن أن يبنى فيها "مشربـية" وطنف بأعلى الأبواب وعلى حدود منازل ديجو فرناندس المخـصصـة لتجـارة اللحم، وذلك بغـرض وقاية الأهالي الآتون إلى المجـازر ومتاجر الأسماك من مياه الأمطار. وقد قرر المجلس. . . طريقة البناء والعرض الخاص بها»(٤١). فموضـوع المناقشة جرى إذًا حول بناء المشربيـة طوليًا بغرض حماية الأهالي، مع أنه لم يكن لهذا الغرض مـبرر كاف، ذلك لأن القيام ببناء طنف طائر كان يؤدي نفس الوظيفة بنفس الفعالية وبتكاليف أقل.

ودام ازدهار مشربيـات منازل جزر الكناري بينما بدأت في الاختفـاء سريعاً من أسبانيـا، ويرجع ذلك في أغلب الظن إلى أن تلك الجزر لم تكن تقع تحت أحكام التعليـمات الملكية ومجلس البلـدية التي كانت تمنع القيام ببنائهـا وبهدم الموجود منها. (ومن المرجح أنهـا كانت مشربيات جديدة مـوضوعة عندئذ في شارع أقل ضيقًا وظلامًـا من شوارع مدن الأندلس)، والتعليل الآخر يرجع إلى العادات المتأصلة الخاصـة بالحياة النسائية المغلقة: فقـد كان مناخ الجزيرة يسمح بإقامة حـياة عائلية على الشـرفات الطائرة، حيث كانت النسوة يجـلسن للقيام بأعمالهن اليومـية كالتطـريز والزخرفة، كمـا كن يراقـبن ما يجري بالشـارع دون أن يراهن أحـد.

وكان يساعـد على بناء المشربيات استـعمال خشب الصنوبر المـمتاز من نوع "تيا" Tea ، "بينس كانارينس" المشرب بالمواد الراتنجـية، الذي ينمو بالجزر،

وهو يتميز بالمتانة الشديدة وطول العمر. وكانت الأخشاب تستعمل قبل أن يزال منها المواد الراتينجية وهي بألوانها المحمرّة الطبيعية. وبقيت تلك المشربيات في أماكن كثيرة، ومن بينها: سانتا كروث دي لابالما وجزيرة تنريف Tenerife، ولا لاجونا La Laguna (أديرة راهبات سانتا كلارا وسانتا كاتالينا دي سينا ولاكونثبثيون) ولاأوروتابا، وإيكود دي لاس بيناس، وميدنا دي لاكورث، وسان خوان دي لارامبلا. وكانت المشربيات توضع غالباً في الجزء الأعلى من الواجهة، وقد احتفظت بسمات نموذج المشربيات الأسبانية المسلمة إلى حد كبير بالتعديلات الزخرفية الطبيعية الراجعة إلى التاريخ الحديث المبينة في المنظر الجانبي لرؤوس الروافد وفي الركائز وفي الأوتاد. ويكون نقش الزخرفة فيها سطحياً، ولا تتغلغل الشقوق والفوالق الزخرفية في الألواح والإطارات الخشبية إلا بصورة خفيفة. لكن هناك مشربيات مكونة من العيدان الخشبية المتقاطعة في اتجاه خطوط الزاوية. وتتكرر حالة المشربيات الممتدة على طول الواجهة أو على الجزء الأكبر منها بغرض تكوين شرفة غير منقطعة. وللمشربيات عادة دفوف تنفتح إلى الخارج وإلى أعلى. وهناك نوعان من المشربيات: مشربية الجزر الشرقية "جران كناريا" Gran Canaria" ولانثروتي Lanzarote وفورتبنتورا Fuerteventura التي تسقط فيها الأمطار بكميات قليلة جدًا وتندر فيها أشجار الصنوبر، فارتفاع المشربيات فيها منخفض، وهي مجردة من الطنف، أما الجزر الواقعة بالمنطقة الغربية فتسقط عليها الأمطار الغزيرة ومن ثم نمت فيها الغابات فهي تفاخر بمشربياتها القيمة التي تُغطى عادة بطنف من القرميد الأحمر اللون، حيث يتوافق بصورة رائعة مع اللون الأبيض للجير وتدرج معه الألوان القاتمة لحجر البازالت، كما تتوافق أيضاً مع اللون الأحمر القرمزي للخشب المستعمل(٤٢).

## تطور المشربيات في الأندلس تحت السيادة النصرانية:

### من المشربيات إلى المشارف.

إن أسلوب حياة النسوة عند النصارى قد جعل من المشربية أمرًا غير ضروري. لكن الجو الاجتماعي السائد ظل متأثرًا بالعادات الأسبانية المسلمة. ففي واقع الأمر لم تكن المرأة النصرانية المنتمية إلى الطبقة المتوسطة الأندلسية منغلقة داخل دارها كالمسلمة، ولكنها استمرت في قضاء القسط الأكبر من وقتها داخل منزلها، باستثناء الأوقات المخصصة للزيارات العادية، كذهابها إلى الكنيسة القريبة من المنزل بصحبة عدد كبير من الخادمات، دون التدخل في الحياة الاجتماعية لزوجها ولم تشاركه فيها، بل اكتفت فقط بالزيارات المتكررة للأقرباء.

ومثل ذلك السلوك في حياتها كان يتطلب مقتضيات خاصة مثيلة لذلك السلوك. فإطلالتها على الشارع من فتحة النافذة الخفية كانت التسلية اليومية لها، وهذه التسلية هي التي كانت تسمح لها بالتأمل فيما يجري في الشارع وهي بعيدة عن أنظار المارة، وبهذا السلوك كانت المرأة تهرب إلى عالم آخر مليء بالحركة مختلف عن حياتها اليومية المثقلة بالأعمال العادية الرتيبة. وفي خلال القرن السادس عشر انقرضت المشربيات الإسلامية من شوارع مدن الأندلس الرئيسية - وبقي بعض منها في الأماكن المنعزلة، كالمشربيات الموجودة بحي البيازين Albaicin وبحي "الحامة" Alhama وقد استمرت باقية حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر -، وحلت محل الكثير منها شبكة بارزة طائرة من الحديد المكون من أسياخ أفقية ورأسية مرتكزة على قطع أخرى من المادة نفسها أو مرتكزة أيضًا على رؤوس الروافد الخشبية، وقد جُعل فوقها طنف لوقايتها، وبه مستوى واحد مائل أو مستويان مائلان. وفي داخلها مشربيات



شرفات ذات حواجز حديدية بارزة في منازل اللَّسينة (قرطبة).

خشبية بإطاراتها. وكانت المشربية تتكون من عيدان من الخشب المرتبة في اتجاه خطوط الزاوية، وفي بعض الأحيان كانت نافذة المشربية تفتح على مشربيات أخرى، فكانت المرأة تقف بداخل هيكل مغلق على هيئة قفص من الخشب. وهذا النوع الأخير ظل ماثلاً في الضواحي الخارجية من عدة مدن بمحافظة الأندلس، وفي مناطق من محافظتي قشتالة وأرغون حتى بعد الاختفاء النهائي للمشربيات، كما بقي في مدن أخرى في تلك المحافظات، إذ احتفظت منازلها بالأنماط الهندسية السارية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولم يستعمل هذا النوع في المباني السكنية فقط؛ بل انتشر استعماله في المباني الدينية وفي بعض المباني العامة.

ولم يقف تطور المشربية عند ذلك الحد: ففي أواخر القرن الثامن عشر، وفي القرن التاسع عشر بالأخص، انتشرت بدعة الشرفات في المنازل الجديدة،

فزُوِّد القســم الأمامي للشكل البارز المبنــي فوق الباب بمجمــوعة من القضــبان الحديدية الرأســية الوضع، ثم بني عليه هيكــل من الإطارات الخشبيــة، والجزء السفلي منه ظل مــحفوظًا خلف الأســياخ، بينما الجــزء العلوي منه ارتفع فوق القضبان، كما غُطيت الشــرفـة ببطانة معدنية من الزنك مكونة شكلاً مماثلاً إلى



شرفات ذات حواجز حديدية بارزة في منازل اللّسينة (قرطبة).

حد كبير لمشربية حي "الحامة". وقـد استبدلت المشربيةُ مادةَ الزجاج بالإطارات الخشبية بعد إضافة المصاريـع أو الستائر خلف النوافذ؛ مما يسمح للنسوة الأكثر تحفظًا أن يمكثن فيـها بعيداً عن الأنظار. بينما عُلقت في المنازل المتـواضعة على ساكف الـباب الطائر سـتائر من القـماش الخشن الخـام، أو من نسيج الحـلفاء المفروشة خـارج شبكة الأسياخ الحـديدية للشرفة الطائرة. وهذا التصـميم كان يعطي النسوة فرصة لقضاء وقتهن جالسـات وهن شبه مختبئات، يتأملن الشارع أثناء القيام بأعمال الخياطة في الأيام الصيفية الحارة.

لقد توسط بين المرأة، المسـتندة على النافذة أو داخل الشـرفة الطائرة المكونة من دعامات حديدية أو في الشرفة العادية، والشـارع حجابٌ على هيئة مشربية أو ستـارة من مادة الحلفـاء، أو درفة النافـذة، أو الأصص الملتفة المـورقة التي تسمح لهـا بالرؤية دون أن تُـرَى، وذلك خلال أربعـة قرون متـتاليـة في الجزء الأكبر من أسبـانيا. وفي سنة ١٦٧٩ وصفت مدام دولنوي d`Aulnoy واجهات منازل مدينة مدريد بأنها مشابهة لقفص عظيم مهيأ لتربية الدجاج، وأنه لم يكن يُرى في كل أنـحـاء المدينة مـن الأرض حـتى الطـابق الرابع من منازلـهـا إلا المشربيـات أو درف النوافذ التي بها عـدد من الثقوب الصـغيرة جـداً، وكانت النسوة يقضين وقتهن خلفها يتجسسن على المارة(٤٣).

ويبدو أن المرأة الأسبانية في أيامنا قد خرجت بصورة نهائية وفجائية من الحصار المفروض على دائرة الحريم، فالشرفات والمشارف التقليدية ستصبح قريباً غريبة عن أنماط الحياة حينئذ بنفس الطريقة التي أصبحت فيه المشربيات غريبة عن أنماط حياتنا الحديثة. ولاستدعاء ذكرياتها يجب علينا أن نذهب إلى الأحياء الفقيرة خارج المدن الكبرى أو إلى المدن الصغيرة شبه المنقرضة التي تَحتضر.

(1) José Zorrilla, **Granada**, t. II, p. 171.

(2) Pi Margall, **Granada, Jaén, Málaga** y **Almería**, n. (1) de la p. 430... La carta de Ultrá se conserva en un libro de «Lletras Misivas» del Arch. Hist. de Mallorca.

(3) Münzer, **Viaje por España y Portugal**, pp. 43-44.

(4) Martínez Mazas, **Retrato... de Jaén**, p. 40.

(5) Morgado, **Historia de Sevilla**, p. 143.

(6) Fabié, **Viajes por España**, p. 373.

(7) Gautier, **Voyage en Espagne**, pp. 142-143.

(8) **Don Quijote de la Mancha**, primera parte, cap. XL.

(9) Al-Nuwayrī, **Historia de los musulmanes**, I, p. 107.

(10) Brunschvig, **Urbanisme médiéval**, p. 134.

(11) **Ordenanzas... de Toledo**, cap. XXXIV, p. 23; **Ordenanzas de Sevilla**, cap. XXXIV, fol. CXLV. Ambas ordenanzas son casi idénticas.

(12) Martínez Mazas, **Retrato... de Jaén**, p. 40.

(13) En palacios, casas-fuertes y castillos se conservó hasta bien entrado el siglo XVI la costumbre de situar en los extremos opuestos del zaguán la puerta de ingreso desde la calle y la de entrada al patio.

(14) Mexía, **Diálogos**, pp. 3-4.

(15) Torres Balbás, **Aleros nazaríes**, pp. 169-185.

(16) **Ordenanzas... de Toledo**, cap. XXV, p. 21; **Ordenanzas de Sevilla**, cap. XXV, fol. CXLIV.

(17) Las casas de Murcia debían tener aleros de madera, pues en las Ordenanzas de Albañiles de 1592 de esa ciudad, se dispone que «no se puedan hazer aleros de madera a la parte de la calle, si no fueren de ladrillo, u de piedra» (Fuentes, **Murcia que se fué**, pp. 126-127).

(18) Torres Balbás, **Algunos aspectos de la casa hispanomusulmana: almacerías, algorfas** y **saledizos**, pp. 185-191.

(19) Brunschvig, **Urbanisme medieval**, pp. 133 y 135-136.

(20) Véase **infra** «Evolución de la calle en los siglos XV y XVI: de las calles de las ciudades hispanomusulmanas a las del Renacimiento». Alí Bey el Abbasi —**Viajes**, p. 97— describe las casas de Fez altísimas, con un «vuelo o proyección» en el primer piso que quita mucha luz, inconveniente que se acrecienta más con la especie de galerías o pasadizos que reúnen la parte superior de las casas por ambos lados».

(21) **Manual de Concells**, 24A, Concell General de 28 de febrero de 1402. Arch. Mun. Valencia. En el **Aureum opus regalium privilegiorum civitatis et regni Valentie** (Valencia, 1515), figura la siguiente disposición: **Quod iurati propter ornatum civitatis possint dirruere son demolire omnia envanna civitatis**, fol. CXCIIII, CXLII (Josefina Mateu Ibars, **El Aureum Opus**, p. 646); Pertegas, **La urbe valenciana**, pp. 287, 325-326, 337, 353, 358.

(22) ...tiendas cerca de la casa de la moneda, incorporadas en el muro que está entre el río d[e] Darro e la calle q. va a la pta. de Guadix, alindan con la torre frontera al baño de Palacios (hoy llamado Bañuelo) y vuelan sobre el río sobre maderos» (Libro de las posesiones desta cibdad», 1537, leg. 4.º, manuscrito en el Arch. del Ayunt. de Granada) (Libro de censos de propios, 1528, leg. 1.º en el Arch. del Ayunt. de Granada).

(23) **Granada la Bella**, por Angel Ganivet, seg. edic. p. 34.

(24) **Ordenanzas... de Toledo**, p. 194.

(25) Torres Balbás, **Ajimeces**, pp. 415-427.

(26) Real. Acad. Esp., **Diccionario**; Dozy, **Supplément aux dictionnaires**, t. primero, p. 741; Dozy y Engelmann, **Glossaire des mots**.

(27) Neuvonen, **Los arabismos del español en el siglo XIII**, p. 302.

(28) Real. Ac. Esp., **Dicc. de autoridades**.

(29) Fue tal vez don Manuel Gómez-Moreno el primero que en su **Guía de Granada**, p. 35, dijo que el nombre de ajimez aplicado a la ventana gemela era de notoria impropiedad, «pues en antiguos documentos consta que los aximeces eran balcones salientes, cerrados por celosías de madera, como los que se usan en nuestros conventos de monjas, y que permitían a las mujeres asomarse sin ser vistas desde el exterior». Más tarde el hijo del artista y erudito granadino, sabio maestro de varias generaciones de historiadores de arte, insistió en lo mismo, definiendo el ajimez como «saledizo ante una ventana, como balcón cerrado con celosías, para asomarse las mujeres sin ser vistas» (Gómez-Moreno, **Iglesias mozárabes**, pp. 13, n. 4, y 403). Conocedor de la documentación sevillana de los siglos XV y XVI, don José Gestoso volvió también por el exacto significado de la palabra ajimez (**Curiosidades antiguas sevillanas**, pp. 152-153).

(30) Según Dozy, **Supplément aux dictionnaires**, t. primero, p. 741, el nombre de **mašrabiyyāt** procede de la costumbre de colocar en ella el cacharro de barro poroso que conserva el agua fresca. En Alejandría subsisten **mašrabiyyāt** en dos barrios viejos inmediatos, al oeste de la ciudad, los de Kūm al-Suqāfa y Karmūz, al lado del cementerio de 'Amūd al-Sawārī (Noticia del becario señor Aḥmad al-Ša'arāwī).

(31) **Manuel d'Art musulman**, por H. Saladin, pp. 167-168; **Arts plastiques et industriels**, por Gaston Migeon, pp. 324-325; Clerget, **Le Caire**, I, p. 331.

(32) Reproducida, entre otras, en la conocida obra de I. Bourgoin, **Prècis de l'art árabe**, lám. I.

(33) Clerget, **Le Caire**, I, p. 331.

(34) Así lo afirma Gallotti, **Le jardin et la maison arabes**, t. primero, pp. 77 y 101. Sin embargo, en el norte de Marruecos, sobre todo en Rabat, se ven en las fachadas, adosados a los huecos de las ventanas, unos semicilindros volados de madera, cuya altura no llega al metro, perforadas sus tablas por algunos agujeros, para poder ver la calle y con un remate en lo alto de almenillas. Son verdaderos ajimeces de ventanas. En Rabat se establecieron abundantes moriscos españoles.

(35) «una casa de un aximez a la mano derecha» (Moreno de Guerra, **Vélez-Málaga**, p. 393). Los hubo sin duda en Antequera, pues una cédula de la reina doña Juana, de 1515, se refiere a los «balcones y salidas a las calles», que había en algunas casas, y «las hacían estrechas y oscuras». José María Fernández, **Repartimientos y urbanización después de la Conquista.**

(36) En una de las láminas de la obra **Civitates Orbis Terrarum**, visita de Granada desde el nordeste, fechada en 1564, reproducción de un grabado de Nogenber, se ve una casa grande con varias torres, en cuya fachada oriental hay, en alto, un mirador volado de madera, es decir, un ajimez. Se nombra en el grabado «Casa del moro rico».

(37) Más rara es la existencia de ajimeces semejantes hasta hace pocos años en una ciudad rica y populosa como Barcelona, donde se llamaban celosías. Carreras y Candi las cree exóticas, consecuencia de la moda barroca, triunfante en el siglo XVII, de colocar en el interior de las iglesias antepechos de coros y tribunas, balcones volados y mamparas, de celosía. El ayuntamiento de Barcelona autorizaba unas veces las celosías voladas en las viviendas y las prohibía otras. Muchas desaparecieron en el transcurso del siglo XIX; cuatro se conservaban aún en 1908 y una en 1915 en el número 21 de la calle de Montcada (Francesh Carreras y Candi, **La ciutat de Barcelona**, pp. 793-795. Cabe la sospecha de que esos ajimeces de las viviendas fueran restos de una tradición medieval importada de Alejandría, con la que mantenía Barcelona estrechas relaciones comerciales en la Edad Media.

(38) Alcalá, **De lingua arabica**, p. 359; Eguílaz, **Glosario eaimológico**, pp. 63-64.

(39) Se reproduce una adufa de Beja en la **Guía de Portugal**, segundo volumen, **Extremadura, Alentejo, Algarve**, p. 149.

(40) Es muy expresiva la descripción hecha por el padre François de Tours, visitante de Portugal en 1699, de las adufas de las fachadas de las casas de Lisboa: «**le jeune homme mandra quelques fois à sa pretendüe qu'il se trouvera un certain jour, et à telle heure devant sa jalousie car il n'y a point de fenêtres aux maisons ce sont seulement des balcons garnis de jalousies, comme les treilles de nos confessionnaires, où les femmes et filles se promènent à fin de veoir les hommes passer dans la rue, la fille attend, avec grande impatience ce jour et ce moment**». Joaquín Verissimo Serrão, **Un itinéraire portugais, à fin du XVIIe siècle**, apud **Bulletin des Etudes Portugaises et de l'Institut Français au Portugal**, 1958, p. 61.

(41) Debo el conocimiento de esta acta a la generosa amistad del catedrático de la Universidad de La Laguna, don Elías Serra Ráfols.

(42) **El balcón canario**, memoria inédita de don Juan Julio Fernández Rodríguez, don Francisco Roda Calamita y don Juan Jorge Toledo Díaz, alumnos de la Escuela Superior de Arquitectura de Madrid; Wilhelm Giese, **Notas sobre los balcones de las Islas Canarias**, pp. 458-467. El autor publica un inventario de los balcones volados de madera que conoce por su reproducción en varias publicaciones en el Mediterráneo, Arabia, los Balcanes y la América hispánica.

(43) Condesa d'Aulnog, **La cour et la ville de Madrid**, pp. 489-490.

# الفصل الثالث عشر

## الوسط الاجتماعي والحركة في الشوارع

بغرض إدخال البهجة وإعطاء الحيوية إلى هذا المسرح المدني الجامد الذي وصفنا سلفاً، كان علينا أن نستدعي الأهالي الذين كانوا يقطنونه في القرون الوسطى. وقد اقتصرتُ في الصفحات السابقة على وصف ذلك المسرح، وأترك لغيري من الكتَّاب العمل المقترح - إذ لا تتوافر لديَّ الشروط اللازمة للقيام به - وهو عبارة عن وصف لحركة ممثلي المسرح السابق ذكره. وسأكتفي بالإشارة فقط إلى عدة ملامح قد تسمح بتصور الجو السائد في تلك المدن الصغيرة والكبيرة قبل انتقالها إلى سيطرة الغزاة النصارى ولو في خطوطه الرئيسة.

وبمتابعة أحد مواطني قرطبة أو إشبيلية أو غرناطة أو رندة أو مالَقة أو المريَّة، فإننا سنجده يتوجه من منزله الواقع في نهاية حارة ضيقة هادئة إلى مركز المدينة. وبعد أن يعبر بعض الشوارع الضيقة قليلة الازدحام، التي تعلوها عرضياً القويسات المغطاة على مسافات بواسطة الغرف أو أجزاء المنازل البارزة التي كان ينشأ عنها تباين شديد بين الظل والضوء، كان يصل إلى مقربة من المسجد الجامع. وبالقرب من المسجد تقع القيصرية وبعض الفنادق والأسواق المزدحمة والشوارع التي يجتمع فيها أصحاب المهن والتجار حسب نوع عملهم أو نوع البضائع المعروضة للبيع. وكان هؤلاء التجار يعملون في متاجر ضيقة ومنخفضة يستطيع المرء بالكاد أن يقف فيها معتدل القامة، وهي مزودة ببعض المخازن المحفورة في الحائط والمسماة بالخزانة Alacenas. وكان التجار يقبعون فيها اليوم بأكمله دون استطاعة الوقوف لأخذ شيء ما لدفعه إلى أحد

المشترين. وهناك ألواح خشبية متحركة من أعلى إلى أسفل يبقى جزء منها عند نزولها بارزًا بالنسبة إلى حائط الواجهة وقد استعملت منضدةً للتجار، وهناك ألواح خشبية أخرى موضوعة في الجزء العلوي ومائلة على هيئة طُنيفات لحماية البائع وبضائعه من أشعة الشمس ومن المطر.

ثم ينتقل المُواطن الذي نتحدث عنه من جو الهدوء والصمت السائد في شارعه إلى الازدحام والصخب السائد في الشوارع المركزية، وشديدة الازدحام والصخب أيام الجمعة. لضرورة أن يقبل كل مسلم متدين لأداء فريضة الجمعة في المسجد الجامع. وفي أواخر القرن الثاني عشر تحت حكم الموحِّدين كان المسلمون يتجمعون حول المسجد القديم بمدينة إشبيلية (وتشغل أراضيه اليوم "كولخياتا ديل سالبادور")، ولعدم استيعاب الساحة الداخلية والصحن والأروقة العدد الزائد من المسلمين المحتشدين الذين كانوا يختلطون بالمارة والباعة، تم بناء مسجد أوسع، ومنارته هي البرج المعروف اليوم "بالخيرالدا[1] Giralda. وقد وصف ابن الخطيب مالَقة في القرن الرابع عشر ذاكراً "أن شوارعها ملأى بالناس، وأنها مكتظة بالمتاجر"[2].

إن الحيز الصغير الذي تمنحه الرحيبات وزوايا المنازل وشوارع مركز المدينة لم يكن كافيًا للمرور الكثيف، بل كان يزداد ضيقاً في أكثر ساعات النهار بسبب عرض البضائع المؤقتة في الهواء الطلق في منتصف الشارع من خلال المناضد المتنقلة، بالإضافة إلى مظلات الباعة المصنوعة من القماش أو الخشب، وقد ارتفعت لئلا تصطدم بها رؤوس الفرسان عند عبورهم من تحتها، ولتوسع المكان للخيول الواقفة إلى أن ينتهي أصحابها من أعمالهم أو من أداء فرائضهم الدينية في المسجد القريب. ونظرًا لكونه مكاناً شديد الارتياد، فقد كان على

المصاطب الواقعة بين دعامات المسجد الجامع والرحبة المجاورة إقبال شديد من الباعة. وكان بعض التجار الانتهازيين يبغون حجزها لعرض بضائعهم، لكن المحتسب كان يقوم بواجبه راكبًا على دابته متجولاً منذ الساعات الباكرة في الأسواق والشوارع بصحبة مساعديه، يحمل أحدهم ميزانًا لمراقبة وزن الخبز مراقبة دقيقة، وكانت مهمته أيضاً الرقابة على شغل المصاطب طبقًا لموعد الوصول: فمن استيقظ مبكرًا كان له الحق في الإقامة على أنسب المصاطب لعرض بضائعه للبيع.

وكان العطارون وباعة العقاقير يحضِّرون عطورهم وعقاقيرهم تحت أنظار العامة، وبالرغم من ذلك فقد اعتادوا غشها، ولتنفيذ ذلك كانوا يلفتون انتباه الناس برواية القصص المسلية، هذا بالرغم من مراقبة المحتسب الذي كان يلاحق كل أنواع الغش والخداع في التجارة، سواء ما صغُر منها كبخس وزن البضائع، أو ما كبُر منها كما هي حال باعة العطور. وفي ذلك الوقت وحتى اليوم وإلى الأبد يرى التجار أن مكاسبهم قليلة. أما الإقامة بالقرب من المسجد الجامع فكانت ممنوعة على الباعة الذين كانوا بحكم تجارتهم يلوثون الأرض ببضائعهم كباعة الزيت والطيور والأرانب. وكان إيقاف المواشي قرب المسجد أيضًا ممنوعًا للسبب نفسه، وبالأخص قبيل صلاة الجمعة، ففي صباح ذلك اليوم كان الباعة يقومون بكنس مدخل المسجد والمناطق المجاورة له بعناية.

وكان يتجول في وسط المدينة جمهور متباين من الأهالي بملابسهم الزاهية: منهم الأسبانيون المسلمون والمستعربون واليهود والعرب القادمون من الشرق والبرابرة، وأهل كتالونا Catalanes والنصارى القادمون من الشمال والأفارقة السود والفرنج والجنويّون والسلافيون. وكان كل واحد منهم يرتدي ملابسه

الخاصة، ويتحدثون بلغات مختلفة، وكانت الشوارع المجاورة للمسجد الجامع الأكبر مزدحمة بالباعة المتجولين والمشترين والمارة المتعطلين والسائلين المزعجين الذين يقفون عند أبواب المساجد والحمامات. هذا، بالإضافة إلى عدد كبير من المزارعين الذين كانوا يقبلون من المزارع ومن القرى المجاورة لبيع منتجاتهم والحصول على البضائع التي يصنعها أهل المدينة. وكان العابر يمر متضايقًا في وسط الجمهور المحتشد، معرَّضًا لإزعاج السائلين ومتعثرًا في المناضد البارزة ومضطرًا أن يبتعد بين حين وآخر لإخلاء الطريق للفرسان والدواب المحملة وللجزارين الذين يحملون على أكتافهم المواشي المذبوحة إلى محلات الجزارة ولعمال البناء الذين يحملون مواد البناء على نقّالة. وكانت حركة تدفق الجمهور المستمرة تثير ضجة شديدة ناتجة من اختلاط الأصوات والمحادثات وصياح المنادين الذين كانوا يعلنون المزاد لبيع العبيد والجياد والخضروات أو الفحم(٣)، بالإضافة إلى مناداة التجار المتجولين الذين كانوا ينادون على البضائع بأصواتهم. ويضاف إلى هذه الضجة أصوات أخرى صادرة عن الذين يكسبون رزقهم من رواية القصص، أو أصوات العرافين الذين يقرؤون الحظ السعيد أو السيئ. وكانت أصوات المؤذنين في المدينة تنساب خمس مرات يومياً من أعلى المنارات داعية المصلين لأداء الصلاة.

وبعد انتهاء المُواطن من قضاء شؤونه من وسط المدينة يأخذ الطريق مرة أخرى عائدًا إلى منزله. وكلما ابتعد عن مركز المدينة أحس أن ضجيجها يبتعد رويدًا رويدًا. وعندما يدخل باب منزله فكأنما دخل في عالم آخر يلفّه صمت عجيب.

عندئذ كان يجلس في فناء المنزل الداخلي أو السطح أو الغرفة متأملاً الغوطة

الخضراء والجبال الزرقـاء البعيدة في الأفق متمتعًا بهـدوء الساعات الأخيرة من المساء، وإن كانت نفسه تميل إلى أن تتأمل المصيـر المجهول للبشر، والتفكير في عدم اسـتقرار كل تلك الحـياة المدنية المزعـزعة، لأن أي عصـيان في نظـره أو حـرب أو قحـط أو فيضـانٍ أو وباء قد يؤدي إلى خراب المدينة في وقـت وجيز وإلى فناء الأسواق والشـــوارع. وحتى وهو قابع في منزله مطـمئنًا ومن ورائه أبواب المدينة وأبواب الحي وأبـواب الشارع والبيت، كان يؤرقـه باستمرار ترقب الدمار والموت. وفي مواجهة حيـاته غير الآمنة كان يفكر بأنه حتى الأقوياء في الأرض لـم تبلغ حياتهم ما أرادوا من الهدوء والسعادة وذلك حينما يتذكر موت عبـد الرحمن الثـالث ذلك الحاكـم العظيم الذي حوى ملكًا شـاسعًـا مجـيدًا استغرق خمـسين عامًا وسبعة أشهـر وثلاثة أيام، وما يروى عنه من أنهم عثروا على قائمة مـوجزة مكتوبة بخط يده تتضـمن ترتيباً زمنياً لأيام حـياته التي تمتع فيها بسعادة هادئة، خالية من أي انشغال بال، فوجدوا أنها ١٤ يومًا فقط!.

(1) Antuña, **Sevilla,** p. 101.

(2) García Gómez, **El «Parangón entre Málaga y Salé»,** p. 191.

(3) En el siglo XI había en Granada pregoneros públicos (Lévi-Provençal, **Les «Mémoires» de 'Abd Allāh,** p. 119).

# الفصل الرابع عشر

# تطور الشارع في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

# من شوارع مدن أسبانيا المسلمة

# إلى شوارع النهضة

## فتح فجوات للمنازل.

يبدو أن المحتلين النصارى لم يحسوا بالحاجة إلى تعديل منازل المدن التي وقعت تحت سيادتهم لتكييفها مع أنماط حياتهم بعد أن استقروا استقراراً جيدًا فيها. والدليل القاطع على ذلك هو مدينة إشبيلية. إذ لم يبدأ مواطنو هذه المدينة في فتح الفجوات في واجهات المنازل، التي يحتمل أن أغلبها كان المنازلَ المسلمة حتى هذا التاريخ، بعد أن عُدّل بعض الشيء بناؤها، إلا ابتداءً من منتصف القرن السادس عشر، أي بعد ثلاثة قرون من تاريخ الانتزاع المسيحي، عندما بدأ حال المدينة في الثراء والتوسع الناتجين عن احتكار التجارة المفتوحة مع الدول الأمريكية الأسبانية.

وقد كتب "خوان دي ميارا" سنة ١٥٧٠ عن مدينة إشبيلية أنها كانت تختلف اختلافًا شاسعًا عن المدينة التي شاهدها ووصفها ناباخيرو سنة ١٥٢٦ «إن المدينة تغيرت في شكلها تغيرًا شاملاً فقد تطورت المباني بصورة فاخرة وتوسعت التجارة بقدر كبير حتى أثارت دهشة ناباخيرو نفسه»[1].

وقد كتب الفارس المشهور "بيدرومكسيا" في كتاب **محاورات** DIALOGOS المحرر سنة ١٥٤٧ قائلاً: «وصار الجميع يعمل في شغل الأسياخ الحديدية،

ففي السنوات العشر الأخيرة رُكّب منهـا ومن النوافذ ما يفوق العدد المركب في السنوات الثلاثين الماضية»[٢]. وبعد أعوام قليلة يفيد "مورجادو" أنه: «في ذلك الوقت (الحالي) أصبحت الصيانة أمرًا إجـبارياً لابد منه، نظرًا لوجود عدد كبير من النوافـذ بالأسيـاخ وبالمشربيـات المشكلة بألف شكل، البـارزة والمطلة على الشارع وبداخلها عدد كبير من السيـدات النبيلات العفيفات، اللاتي رضين بها وتكـرَّمـنَ بحضـورهن الجمـيل»[٣]. وقد كثرت في شوارع إشـبيلية المشربياتُ والطوابق الطائرة التي بُـنيت عنـدما كـانـت المديـنة تحـت سيـادة النصـارى؛ وصــدر أمـر بهدمها كما سيوضح فيما بعد، واستبدل بأغلبها، طبقًا للشهادات المذكورة سابقًا، أسياخٌ كبيرة بارزة طائرة.

وفي بعض المدن، كـمدينة "طليطلة"، لم تُـفتَح فجـوات جديدة أو تكـبَّر القديمة منها في المنـازل إلا في حالات نادرة. وقد كرر الكاتب تيوفـيل جوتير TEOFILO GAUTIER في منتصف القرن التاسع عشر نفس ملحوظة "ناباخيرو" قبل ذلك التاريخ بـ ٣٠٠ سنة مشيـراً إلى قلة الفتحات في منازل مدينة طليطلة ذات المنظر المهيب[٤].

**هدم القويسات والطوابق البارزة والمشربيات.**

إن لحركة النهـضة مفاهيمَ جـذيدة عن المدينة عامة، بالإضافـة إلى الاهتمام الخـاص بشكلهـا، ذلك الشكل الذي لم يُـعتنَ به في القـرون الوسطى إلا في حالات نادرة وذلك عندما يتعلق الأمر بالمدن الحديثة التأسيس، أما المدن القديمة فقد تطورت وتغيرت بصورة تلقائية، طبقًـا لاحتياجات المواطنين المقيمين فيها، مع محـافاظتهم على عدم الإضـرار بالباقي. إن المدن الشرقـية هي أُولى المدن التي اعـتنقت الأنماط الجديدة الخـاصة بالمدينة نظرًا لقـربها من المدن الإيطـالية

وللعلاقات الوثيقة السائدة بينها. وكانت تلك الأنماطُ تدافع عن الشوارع العريضة المستقيمة، والمناظر الممتدة، والمباني العامة المعزولة المعرضة للرؤية بكل واجهاتها(٥). وفي الوقت نفسه كانت تهتم بالواجهات الأمامية لتلك المباني لكي تكون بفخامتها القصوى، تعبيراً عن عظمة الدولة القريبة أو البعيدة عن الحقيقة، أو الأمير أو التاجر الغني الذي يقيم فيها. ومن هنا كان ذلك المفهوم مغايراً بصورة جذرية لمفهوم المدينة الإسلامية(٦).

وقد أطلق على المباني البارزة تسمية جديدة في مدينة بلنسية وهي "أمبانس" Embans؛ وفي القرن الرابع عشر وافق المجلس العامّ للمدينة على إزالة بعض مما يقع في شارع البيطلة، وهو من الشوارع الرئيسة للمدينة، حيث كان بها عدة ورش، وفي القرن اللاحق انتهى الأمر بإزالة الورش الواقعة بشارع "سيرانوس" Serranos على أثر منازعات شديدة بعد إصدار ذلك الأمر من الملكة "دونيا ماريا DONA MARIA(٧).

ولكن الحملة الكبرى لإزالة المباني الطائرة والمشربيات والقويسات من أجل إصلاح الشوارع الضيقة والمظلمة للمدن الإسبانية المسلمة، التي كانت تعرقل حركة المرور فيها، بدأت في الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر في عهد الملكين الكاثوليكيين، وقد استمرت في القرن اللاحق. وتكثر الحالات الخاصة بإزالة تلك الحواجز أو بمنع إقامتها، وقد وُرث بعضها من العصر الإسلامي، والبعض الآخر أُسِّس طبقًا للتقاليد الإسلامية في العصر المسيحي اللاحق.

ولما فُتح شارع جديد في مدينة مالقة سنة ١٤٩١، لتحقيق اتصال مباشر بين الرحبة وباب البحر، حُدد عرض الشارع بأربعة أذرع وثلث الذراع، ومنعت إقامةُ إضافات تضيق عرض الشارع أو إقامةُ المشربيات الطائرة البارزة. وفي

شهـر مايو سنة ١٤٩٢ صدر أمر في المدينة يـقضي بهدم كل المشربيـات البارزة المطلة على الشـوارع خلال شهـر واحد فقط، وفي حـالة مخالفـة ذلك كانت العقـوبة هي قيامَ المجلس بأعـمال الهدم على نفـقة أصحـاب المساكن «وذلك بغرض تطبيق شروط الصحة العامـة وجعل الشوارع خالية من الروائح الكريهة وتسهيل حركة الهواء النقي للإصـلاح الجيد للمـدينـة»[٨]. ولم ينصعِ الأهالي لذاك القرار الصـارم؛ ومما يدل على تلك المخالفة المرسـومُ الملكي الصادر بمدينة غرناطـة من الملكين الكاثوليكيين مؤرخـاً في ١٢ من شهـر فبـراير سنة ١٥٠١ المتعلق بـشـوارع تلك المدينة التي يُعتـقد أن فيـها ورشاً، وهو يـنص على ما يأتي: «إضافة إلى الفصل الخامس المتضـمن الأوامر الصادرة منـا القاضية بإزالة المشربيات من الرحبات والشوارع التي أقيمت فيها الورش السابق ذكرها، وإزالة المشربيات أيـضًا من الشوارع الرئيسة لـلمدينة المذكورة ونأمر بأن تقـوم محكمة ومجلس بلدية مـدينة مالقـة المذكورة بالإجراءات الخـاصة بهذا الشـأن وباتخاذ الحل الأنسب للصالح العام للمدينة»[٩].

وفي أثناء حياة الملكة الكاثـوليكية منعت إقامة المشربيـات التي كانت تضيق من عرض شوارع مدينتي قادِش Cadiz ومرسية Murcia[١٠].

وبغرض التـحضـير لزيارة العاهلـين لمدينة غرناطة سنة ١٤٩٨ تمت توسـعة الشوارع وتسويتها ومنها شارع إلبيرة Elvira، كما أُزيلت المشربيات وفقاً لما جاء في المستندات الرسمية للبلدية.

وقد وضح المرسـوم الملكي الصادر بأمر الملكة "دونيـا خوانا" سنة ١٥١٥، بالتماسٍ من وكيل حاكم مدينة أنتقيرة ANTEQUERA وباسم الملكة نفسها، بأن بعض المنازل كان "ذا شرفات وأجزاء بارزة مطلة على الشوارع مما يجعلها ضيقة

ومظلمة، وكانت تظهر سيئـة المنظر وضد الجمال والصالح العام»، وينص نفس المرسوم أيضاً على منع إقامة ما يلي بالشوارع «الساباطات والمباني البارزة الطائرة والممرات والشرفات وكل المباني البارزة المطلة على الشارع المذكور، موضحًا أن البناء يجب ألا يتـجاوز مسـتوى جدار الـبناء»، كما يمنع من إعـادة بناء تلك الأشكال البنائية المنهـارة بغرض «جعل تلك الشوارع العامـة المذكورة ممتدة. . . وتظل بهية ونظيفة ومضيئة وأن تتمكن الشمس والضوء من النفاذ إليها»[١١].

وفي ٣ من شهـر ديسمبر سنة ١٥٣٨ أعلنت برحـبة باب الرملة Bibarrambla بغرناطة اللوائح الخـاصة ببناء العمارات والمنازل وأعمـال البناء للمدينة، وتنص تلك اللوائح على أنه «يجب منع كل شخص من بناء مشربية ولا عتبة باب ولا ساباط ولا أيـة بناية أخرى من هذا القـبيل خـارجة عن مـستـوى جداره، في شوارع تلك المديـنة أو رحابها». وفي وقت سـابق، ٧ نوفمـبر ١٥٣٢، أُعلن الأمر نفسه في ذاك المكان قاضياً بأن: «لا يتـجرأ أحد على إصلاح مشربية ولا شرفـة دون أن يحصل على ترخيص من بلدية المدينـة أو من الجهات المختـصة المندوبة لهذا الشأن من قبل بلدية المدينة»[١٢].

وفي ٢٢ و٢٤ وأول أكـتوبر من سنـة ١٥٥٠ انعقـد مجـلس البلدية بمدينة قرطبة، وبحث موضوع هدم كل مشربيات المدينة، وبالأخص المشربيات الواقعة بشارع "لافريا" La Feria. وفي السنة التـالية أمر المأمـور القضـائي "جارثي تيـيو" بإزالة الشـرفـات الواقـعـة على طول الأروقة المـمتدة من "الراسـتـرو" القديم، علـى كلا الجـانبين، إلى رحـبـة "السالبادور" Salvador وحتى إلى ما بعد موقع المجـازر[١٣].

وفي سنة ١٥٤٧ تقريبًا كـتب بيدرو مكسيا، وهو مواطن من مدينة إشـبيلية

سبق ذكره، عن المدينة التي ولد فيها قائلاً: «تم في هذا التاريخ إزالة كل المشربيات أو الأجزاء البارزة الطائرة، لأنها كانت تجعل الشوارع مظلمة ورطبة؛ ومن المعلوم أنها كلها تحسنت تحسنًا بالغًا خاصة ما يتعلق بالصحة والجو اللطيف فيها»(١٤). ولم تنقطع أعمال هدم القويسات والمشربيات والطوابق البارزة في مدينة إشبيلية خلال القرن السادس عشر كله. ومن أمثلة تلك الأعمال صرف مبلغ ٢٠٨٣ ريال مرابطي في ١٤ من نوفمبر ١٥٧٦ لألونسو بيريث «مقابل النفقات الخاصة بهدم المشربيات والطوابق البارزة التي كانت واقعة بشارع فرانكوس Francos»(١٥).

وفي الأعوام الأولى من القرن السادس عشر كثرت الطوابق البارزة في شوارع طليطلة بالإضافة إلى الممرات والشرفات. وكانت تجعل واجهات المنازل بارزة بصورة بالغة، مما جعلها تحتل أغلب الحيز الخاص بالطرق السابق ذكرها. وقد استمر الأهالي في ترميم الطوابق البارزة وبنائها مخالفين ما تنص عليه اللوائح، مما أدى إلى اتخاذ قرار صادر من الملكة "دونيا خوانا"، ورد فيه أنه نظراً لأن عدداً غير قليل من الشوارع العامة للمدينة الملكية «بُني فيها الكثير من المباني البارزة والممرات والشرفات في واجهات المنازل، وهي تتقدم إلى مسافة كبيرة من الشوارع المذكورة، وتشغل الحيز كله أو أغلبه، حتى أصبحت تلك الشوارع كئيبة ومظلمة جداً، فلا يمكن أن ينفذ إليها الضوء وهو لا ينفذ بالفعل ولا تدخلها حرارة الشمس مما يجعلها رطبة جداً باستمرار، وملطخة بالوحل والقذارة»، وعليه ينص القرار على أنه ابتداء من هذا التاريخ «يمنع الجميع من القيام ببناء الساباطات والطوابق البارزة والممرات والشرفات في الشوارع العامة لتلك المدينة أو في الشوارع الأخرى، وكذا الحال بالنسبة للمباني التي تبرز إلى

الشارع خارجة عن مستوى جدار العمارة؛ . . . لتصبح تلك الشوارع العامة فسيحة وخالية من أي ساباط ولا من أشكال بارزة ولا أيٍّ من المباني السابق ذكرها، فتظل بهية نظيفة، تنفذ إليها الشمس والضوء»(١٦).

وقد أدى هدم العديد من أجزاء الطوابق البارزة بمدينة طليطلة سنة ١٥٥٠ بأمر من المأمور القضائي الإصلاحي "دون بيدرو دي قرطبة" ـ بعد مخالفة الأوامر الخاصة بهدمها مرة أخرى ـ إلى قيام "سيباستيان دي أوروثكو" HO-ROZCO الشاعر الشعبي الظريف لتلك المدينة، خليفة ابن قزمان و"آرثبرست" Arcipreste ، بتأليف أغان شعبية في هيئة رسالة يتظاهر بأنها موجهة من راهبة من راهبات مدينة "سونسيكا" Sonseca ، حيث تقيم زوجة المأمور القضائي وأبناؤه، وكانت الراهبة تلوم المأمور القضائي بسبب إقامته وغيابه الطويل بمدينة طليطلة، وأن هذا الغياب الطويل في اعتقادها كان بسبب عدم محبته لعائلته:

"ألعن الطوابق البارزة،

ومن قام ببنائها؛ كما ألعن الساباطات،

فبسبب الدعاوى الدنيوية

أُمر بغيابك الطويل.

وقد آلمني كثيراً،

أن أعلم أنك مشغول هناك

بالقرب من الأخدود الوعر،

كما صدمني

أنك تصبر على العودة إلينا.

وتأتي إجابة "أوروثكو" المتخيلة بتعبير مماثل، وبعد الرجاء الموجه إليه من

"دون بيـدرو دي قرطبـة" قائـلاً إنه ليس بـعيـدًا عن أقربائه، فـروحه تعـيش معهم؛ والغياب غير مباح للمأمور القضائي المستقيم.

قد كثرت الأشياء والأعمال،

وكثرت الدعاوى والنزاعات،

التي تقيدني بالأصفاد

في الشوارع المغبرّة.

وأنا محروم من المتعة ومن السرور.

وعندما أصغي إلى المنادي

طارقًا نواقيس الخشب

أجد أنه يجـب أن أهدم

الطـوابق البارزة والشرفـات(١٧).

وإذا كان المأمور القضائي المستقـيم "دون بيدرو دي قرطبة" أسهم في تحسين الصحة العـامة في المدينة معتمـدًا في ذلك على أعمال الهدم، فـإنه ساعد في الوقت نفسه على إزالة تحف فنية من أعمال النجارة بالأسلوب المدجن في مدينة طليطلة إبان القرون الوسطى، وفي الوقت الحالي يسهم في تعجيل هذه التصفية جامعـو التحف وجامعـو العاديات، دون أن يكون لديهم أي مسوّغ أو أي عذر على الإطلاق.

**توسعة الشوارع والرحبات وفتحها.**

كان المسلمـون يحتفلـون دائمًـا بالعروض العـسكـرية وبالمبارزات الفروسـية خـارج أسوار مـدنهم؛ إذ لم يكن في داخل الأسـوار السـعة الكـافيـة لذلك الغـرض. فـفي مـديـنة قـرطبـة كـان الاحـتـفـال يُقـام في المـُصـَارة أو

"الشَّـريعة"(١٨)، وهي الساحـة المفتوحة الـواقعة خارج أسـوار المدينة، وكان الاحتفال بمدينة غـرناطة في عهد النصْريين يقام في "طبلة السـبيكة" في قصر الحمراء خارج أسوار السبيكة وخارج أسوار المدينة.

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر، في فترة سابقة لعصر النهضة، انتشـرت في أسبـاينا المسيـحيـة هواية العروض العـسكرية الضخـمة، وإقـامة المدرَّجات وعقْد المسـابقات لفرق الفروسية من أجل إظهـار الأعمال العسكرية، ومسابقة الفرسان في رماية العصا ومصارعة الثيران، واختبار مهارة الفرسان في إدخال أطراف رمـاحهم في بعض الحلقات المعلقـة على ارتفاع معين. ولرغـبة الناس في أن تتم الاحتفالات في تلك المناسبات على أرضية المدينة اضطروا إلى بناء رحاب جديدة أو توسـيع القديم منها وإصلاحه، وأقيـمت حولها البنايات ذوات الطوابق العديدة، وزُودت واجهات المنازل بالشرفات والمشارف التي كانت تستـأجر لمشاهدة تلك العروض. وقـام المشير العظيم "دون ميـجل لوكاس دي إيرانـشو" من سنة ١٤٦٠ حتى ١٤٧٣ بتهـيئة مجموعـة سكنية في مدينة قليلة الأهمية مـثل ما كانت عليه مدينة "جَـيَّان" «وذلك بشراء وتوسيع مسـاحاتها ومخارجـها ورحابها» بغـرض إقامة مسـرح للاحتفالات والألعـاب التي كانت هواية من هوايات السـيد العظيم، ذي الأصل المتـواضع، وقد أفـرط في ذلك حتى انتهى الأمر باغتياله الغامض أمام مذبح الكنيسة الكبرى بمدينة "جيان".

وفي القرن السـادس عشر عندمـا سيطر عصـر النهضة سـيطرة كاملة، بدأ المواطنون في البحث عن الأشكال الهندسـية المنظمة والمتسـقة، ليس في المباني فقط، بل في المجمـعات المدنية أيضًا. ويلاحظ عندئذ ظهـور رغبة الأهالي في المساحات الواسعة الخالية وفي المناظر الكبيرة، وفي التخطيطات المستقيمة لإقامة

الحدائق وأماكن النزهة بينابيعها الأثرية الفاخرة، وفي المباني المنعزلة المرئية من كل جوانبها. وحتى الملكين الكاثوليكيين رغبا في أن تقام بالمدن المباني الفاخرة معتقدين أنها «ستبلغ درجة من النبل عندما تكون بها منازل ضخمة جيدة البناء». وفي سنة ١٤٨٠ أصدرا أمراً بأن كل المدن الكبيرة والصغيرة والمقاطعات التابعة لمحافظة قشتالة التي ليس فيها بيت للبلدية صالحٌ للاحتفال بالمؤتمرات ولعقد جلسات مجالس البلدية بأن يُشرع ببنائه عاجلاً، منبهين إلى أن مخالفة هذا الأمر سوف يؤول بالمأمور القضائي وموظفي المحاكم إلى العزل من الوظيفة.

أما المباني الجديدة والمنازل والقصور فقد انفتحت أكثر من ذي قبل على الخارج، وقد استُبدل بالتحفظ والجدران الخارجية الخالية من المنافذ المميزة للمساكن المسلمة، الميلُ إلى التباهي والفخامة الظاهرة على الواجهات المزينة بالثراء المزودة بشعارات كبيرة.

وكان في وسط المنازل المهمة صحن واسع مفتوح على «الأسطوان» وعلى الشارع بواسطة أبواب كبيرة، وكان الأسطوان على امتداد واجهة المدخل، وقد اتسم بنفس الفخامة التي كانت تميز هذه الواجهة. وانقرضت على العكس الحمامات والمراحيض التي كانت منتشرة في المنازل الأسبانية المسلمة، بصورة شبه نهائية من المنطقة، وظلت غائبة خلال عدة قرون فيما بعد. وقد سيطر الميل إلى التباهي على أذواق الناس، وهو يشير في بعض الأحيان إلى غياب الكيان، أو بمعنى آخر إلى الفراغ الداخلي للذات الإنسانية، ذلك الفراغ الذي يعبر عن نفسه بالتفخيم. وكتب المعلم الإسباني الجليل "بيدرو" الذي عاصر الحركة الانتقالية من القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر، متذكراً مضمون

تقاليدنا في القرون الوسطى القشتالية والمسلمة في آن واحد، قائلاً العبارات التحذيرية الموجهة للسيد "خينس دي باسامونتي" Gines de Pasamonte : «البساطة يا ولدي؛ لا تتكبر؛ لأن التصنع، مهما كان شكله، أمر سيئ».

واحتفظت المدن الأسبانية المسلمة حتى القرن السادس عشر، بصورة شبه كاملة، بمظهرها القديم. وبعد استردادها وطرد المسلمين منها، أو نقلهم إلى الأرباض الواقعة خارج الأسوار، عندما استقروا فيها، أصبحت مساكنهم ملكاً للفاتحين، الذين اكتفوا فيما يُعتقد بفتح وبتوسيع فتحات الجدران الخارجية للمنازل.

وبقيت الحمامات مفتوحة ومخصصة لاستعمال النصارى أكثرَ أيام الأسبوع، بينما استعملها المسلمون يومًا واحدًا فقط، وآخر لليهود(١٩). وقد استمرت أعمال بيع المنتجات المعروفة لدى المسلمين في متاجر القيصرية والسويقات. كما بقي السكان اليهود في أحيائهم تحت رعاية الحكام النصارى مستمرين في الذهاب إلى معابدهم لأداء الصلوات يوم السبت. أما المساجد فقد غُير وضعها لتوائم عبادةَ المسيحيين، ولم يمض وقت طويل إلا وقد استبدل أغلب المساجد والمصليات الإسلامية القديمة، التي كان أكثرها مبانيَ متواضعة وواهنة، بمعابد أخرى ذات قباب، وعالية حسب احتياجات العبادة والذوق الخاص بالنصارى. ففي الفترة الأولى حلّ محلَّ نداء المؤذن، خمسَ مرات في اليوم بصوته الشجي، أصوات النقر الأبحّ للأجراس الصادر من المنارات عينها، تلك الأصوات التي كانت تثير الغضب لدى الأتقياء من المسلمين. وفي حقيقة الأمر أجريت بعض التعديلات داخل الأسوار إثر تأسيس العديد من الأديرة الواسعة التي أُلحق بها عدد من الأوقاف. وقد بنيت الكنائس وفق طُرُز

جديدة؛ أما مباني حياة الرهبنة فقد أنشئت على النمط السابق بتكرار الحالة ذاتها بعد أن طوقت المنازل والقصور والشوارع بأسوار عالية مشكّلةً من ثَمّ كُتلاً من المباني الواسعة غير المنتظمة، حتى إنها صارت تهدد المساحة الداخلية المسورة. وقد نمت نمواً سريعاً فاضطرت السلطات إلى إصدار تعليمات متكررة لتحديدها، مثال ذلك التعليمات الصادرة في مدينة طليطلة بمناسبة السيطرة عليها، وتعليمات أخرى صادرة عن الملك دون بيدرو الرابع سنة ١٣٧٠ تقضي بعدم توسيع أراضي الأديرة والكنائس الموجودة وعدم بناء شيء آخر منها، لأن كثرتها وانتشارها كان يعرقل نمو بناء المساكن وزيادة السكان. وظلت الأسوار باقية في المدن بعد إعادة السيطرة النصرانية عليها، وفي الفترة سابقة لم يكن يرتفع من خلف شرفات تلك الأسوار إلا المناراتُ الرشيقة، وكانت المساحة المسورة عبارة عن مجموعة مزدحمة من المساكن قليلة الارتفاع. وبعد مرور عدة أعوام بدأت تظهر، من فوق الأسوار، الجدران العالية للمعابد الجديدة التي ارتفعت بجانبها أبراج أخرى عالية مفتوحة في أجزائها العليا على هيئة أقواس لوضع الأجراس فيها. وعلى الرغم من تلك التعديلات، استمرت الخطوط العامة للتخطيط المدني كما كانت عليه في عهد المدينة الإسلامية.

وتعد مدينة غَرناطة أوضح الأمثلة التي يمكن أن يتابع فيها التغير المدني المفروض عليها من سكانها الجدد بعد انتزاعها مباشرة، بالإضافة إلى عناصر الإبداع والإحساس الجديد. ويحكي "منزر" في أواخر عام ١٤٩٤ أن الملك دون فرناندو قرر توسيع بعض شوارع غرناطة بهدم الكثير من المنازل وإقامة بعض الأسواق فيها[٢٠].

ويبيّن كتاب مجالس البلدية الخاص ببلدية مدينة غرناطة أن مسؤولي سلطات

المدينة ونواب مجلس البلدية في يونيو عام ١٤٩٨ ذهبوا «سائرين على أقدامهم لمعاينة شوارع المدينة بغرض توسيعها وإصلاحها استعدادًا لاستقبال الملك والملكة»[٢١].

وطبقًا لقول الراهب خوسي دي سيجونثا قام فراي ارناندو دي تلابيرا (١٤٢٨-١٥٠٧) مطران مدينة غرناطة «بتوسيع عدد من الشوارع، ذلك أن المسلمين اعتادوا بناءها ضيقة كما أنه قام ببناء مبان وَفْقَ هندسة معمارية أجود وأكثر اتفاقًا مع أساليبنا، وفي نهاية الأمر اهتم اهتمامًا واسعًا وبذل كل جهوده ليجعل من تلك المدينة المشهورة بمضمونها الروحي والمادي مدينة من أجود المدن (وإن لم يكن من أحسنها) في أسبانيا كلها»[٢٢].

وفي عام ١٥٠٢ يحكي أنطونيو دي لالاينج، أحد سادات مونتني، عن زيارته لمدينة غرناطة موضحًا الأوامر الصادرة من الملكين الكاثوليكيين القاضية بهدم عدة شوارع صغيرة من مدينة غرناطة لتوسيعها وتكبيرها كما أجبروا السكان على بناء منازل واسعة مضاهية للمنازل الموجودة في أسبانيا[٢٣].

وكتب لوثيو مارنيو سيكولو L.Marino Siculo في مؤلفه "DE LAS COSAS MEMORABLES DE ESPANA" "حول الأشياء البارزة في أسبانيا" المنشور عام ١٥٣٠ قائلاً: «إن أحياءها [أي غرناطة] وشوارعها التي كثرت بسبب تكتل مبانيها؛ يُعد أغلبها ضيقًا، وكذلك حال الرحاب والأسواق التي تباع فيها المواد الغذائية وبعد انتزاع مدينة غرناطة اتسعت تلك الرحاب وتلك الأسواق واشتهرت بفضل جهود المسيحيين»[٢٤].

وفي عام ١٥٠٥ منح الملكُ تصريحًا خاصاً لبناء الرحبة الجديدة في مدينة غرناطة. وبعد مرور تسع سنوات تم تنفيذ المشروع، وغُطّيت من ثم مساحة

يبلغ طولها ٧٢ متراً من نهر "الدارّو"[٢٥].

وفي عام ١٥١٣ عزمت بلدية غرناطة على تعـمير حقل "أبولنيتس" Abul-nets، المدعو الـيوم "بحقل الأمـير" من أجل بنـاء "رحبة فـاخرة تقـام فيـها مسابـقات الفرسان للتـدرب على أسلحتهم ومصـارعة الثيران وممارسـة ألعاب رماية العـصا وتم ذلك لأن المدينة كـانت في حاجة مـاسة إلى الرحبـة"؛ وقد افتتحت الرحبة عام ١٥١٨[٢٦].

وفي نفس عام ١٥١٣م أصـدر الملك دون فرناندو، باسم ابنـته، مرسـومًا ملكيًا خـاصًا بشـراء بعض المنازل لتوسـيع رحبة "باب الرملـة" بغرناطة، وتم تنفيد ذلك القرار من سنة ١٥١٦ إلى سنة ١٥١٩. وكـانت تلك الرحبة سابقاً هي الرحبة الرئيسة للمدينة، وقد ذكرت عام ١٥٩٥ تحت اسم رحبة باب الرملة الجديدة PLAZA NUEVA DE BIBARRAMBLA. وقد كـتب عنها كـونت مدينة "تنديا" Tendilla عام ١٥٠٩ ذاكـراً أنها بسـبب صغـرها لم تكن تستوعب المحلات التجـارية وأن الملك أهدى الرحبة وتخلى عن حقـوق إيجارها بغرض تخصيصها للمداولات والمشاورات التـجارية وللتنزه وليس لإقامة الخانات فيها؛ وقد أدى صغرها البـالغ إلى منع دخول العربات المحملة بالنبيذ فـيها، في عام ١٥١٥م علمًـا بأن الملك "فرناندو" قـام منذ عامين سـابقين بإصدار مـرسوم، باسم ابنته، يقضي بشراء بعض المنازل من أجل توسـيع الرحبة. ونُفذ ذلك من سنة ١٥١٦ حتى سنة ١٥١٩ كـما ذكر آنفاً، فـبُنيت بعض المداخل فيهـا، كما أقيم ينبوع مياه عظيم لتزيين الرحـبة[٢٧]. وطبقًا لقول "برتانت" «كانت رحبة باب الرملة عبارة عن رحبـة طولها أكبر من عرضهـا، وهي محاطة بمبانٍ ذوات أربعة طوابق أو خمـسة مخصـصة للسكن على غرار مساكن فـندق "برجونيا"

الصغيـر؛ ولكن جدرانها أصبـحت على درجة كبيرة من الـقدم حتى بدأت في الانهيـار. . . " ، "وتستـأجر كل تلك المـساكن بالإضـافة إلى مسـاكن المدرج الخشبي الواقع أسفلها عند الاحتفال بمصارعة الثيران ومسابقة الفرسان في رماية العصا». وكان على أحد طرفيها «ينبوع عظيم ذي صنابيرعديدة » .

ويقول مارنيـو سيكولو، عام ١٥٣٠. [في كتاب ٢٠/ صـفحة ١٦٩ السطر الخامس] «قام النصارى ببناء رحبة باب الرملة في فترة ماضية وجيزة»، ويضيف أن مساحة الرحـبة كانت ٦٠٠ × ١٨٠ قدمًا «ويوجد بها ينبوع عـال مشهور، والأرض المحيطة بها فارغة وهادئة بمنازلها البيضاء ذات النوافذ المتعددة».

وفي عـام ١٥٣٨ أوضح مجلس العـدل ومجلـس بلدية مدينة غـرناطة أن المدينة عند انتزاعـها لوحظ فيهـا «الحاجة الماسة إلى توسـيع شوارعها ورحـابها لأنهـا كانت ضـيقـة جداً»، ومن ثَـمّ صـدرت بعض الأوامر بهـدف "تعـديل الشـوارع" ، وعلى كل من يقوم « ببناء حـائط ألا يتجـاوز حدود الـشوارع أو الرحاب»، وأن عليـه أن يعيد بناءه إلى « داخل منزله مـسافةً تبلغ طولَ حـجر أحمر واحدٍ ابتداء من حده الأصلي، أو مسافات أخـرى نسبية طبقًا لاقتراحات الموظفين المعيَّنين لذلك»[٢٨].

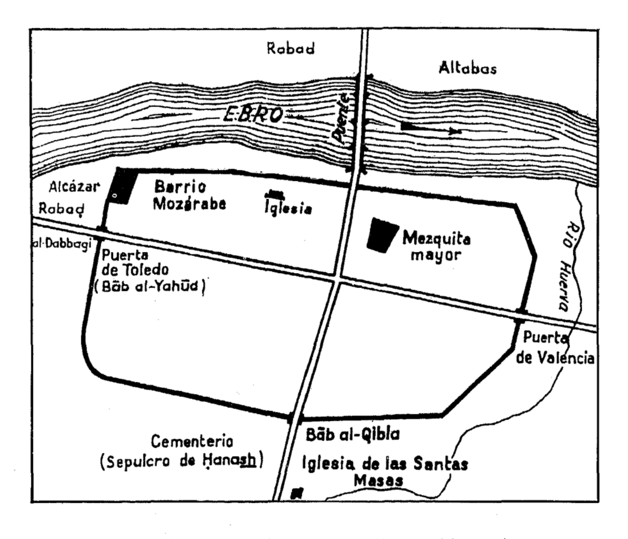
وسبق الحديث عن التغير الكبير في تخطيط مدينة إشبيلية ابتداء من منتصف القرن السادس عـشر. وبسبب أعمال الهـدم العديدة التي قامت فيـها انقرضت أزقة جـوانب الكنيسـة الكاتدرائية وأزقـة أسوار القـصر[٢٩]. وفي سنة ١٤٩٠ ظلت مسابقـات الفرسان في التدرب على أسلحـتهم خمسة عـشر يومًا وذلك بمناسبة الاحـتفال بعقد قـران الأميرة دونيا إيزابيل الابنة الكبـيرة للملك والملكة الكاثوليكيين. واضطروا أن يحـتفلوا بذلـك في ساحة واسـعة خـارج المدينة،

حيث أقيمت مائة منصة بها مقاعد للمتفرجين[٣٠].

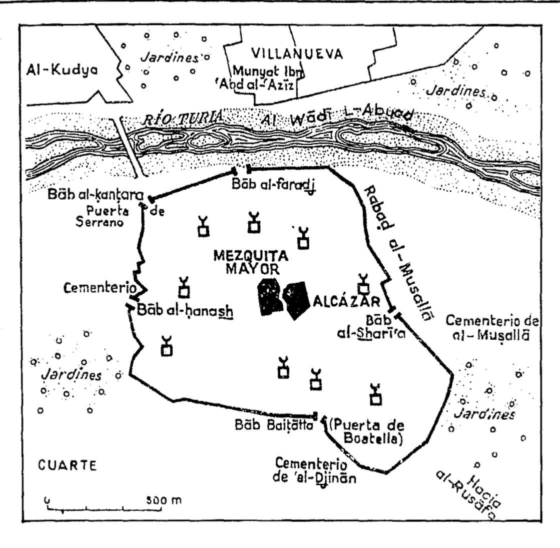
ونظراً لوجود العديد من المستندات الخاصة بمجالس بلدية مدينة بلنسية في القرون الوسطى، تلك المستندات التي ظل أكثرها غير منشور، فإننا يمكن أن نتابع تعديلات المدينة في هذه الفترة. فبناء السور الجديد عام ١٣٥٦ أسفر عن تغيرات جذرية في المدينة. وفي عام ١٣٧٢ فتحت بعض الأزقة، أحدها كان خلف كنيسة سانتا كروث[٣١].

وفي عام ١٣٧٨ عينت لجنة من الأشخاص البارزين ومن الحكام لمعاينة بعض الشوارع وتحسينها، وبالأخص الشوارع الضيقة المداخل التي تعرقل حركة المرور . وقد منع مرور العربات فيها سنة ١٣٧٩ نظراً لضيقها[٣٢].

* * *




سرقسطة: مخطط مجمل للمدينة ومقبرتها المسلمة، حسب ليفي بروفنسال.




مخطط مجمل لمدينة بلنسية الإسلامية وحولها المقابر، حسب ليفي بروفنسال.

(1) **Recebimiento que hizo la muy noble y muy leal ciudad de Seuilla, a la C. R. M. del Rey D. Philipe,** por Juan de Mallara, folios 142 r y v.º

(2) Mexía, **Diálogos,** p. 10.

(3) Morgado, **Historia de Sevilla,** p. 143

(4) Véase **supra** «Las fachadas de las casas: salidizos y ajimeces».

(5) «Un edificio debe de estar siempre exento para que pueda verse su forma exacta», escribió Leonardo de Vinci en uno de sus cuadernos.

(6) Véase Torres Balbás, **Resumen Hist. del urb. en España,** pp. 89-98.

(7) Pertegás, **La urbe valenciana en el siglo XIV,** pp. 287, 325, 326, 337 y 358.

(8) Archivo Municipal de Málaga, **Libro primero de cabildos,** folios 157 v y 158 r, 890-891, citados por Bejarano, **Las calles de Málaga,** pp. 6 y 133.

(9) Morales, **Documentos... de Málaga,** II, p. 97. Aún don Antonio Ponz encontró las calles de Málaga ahogadas por «unos ridículos resaltos de balcones y otras deformidades... Una ciudad tan lindamente situada, de tan agradable clima, y tan freqüentada por su comercio, merece mejor que otras quitarle todas las fealdades que tienen resabios moriscos» **(Viaje de España,** XVIII, p. 220).

(10) **Elogio de la Reina Católica doña Isabel,** por don Diego Clemencín, apud **Memorías de la Real Acad. de Hist.,** p. 261.

(11) José María Fernández, **Repartimiento y urbanización después de la Conquista (Gibralfaro,** I).

(12) **Ordenanzas... de Granada,** 1552.

(13) Ramírez y de las Casas, **Anales de... Córdoba,** pp. 123-124.

(14) Mexía, **Diálogos,** p. 5.

(15) Montoto, **Sevilla,** p. 13, n. (1).

(16) **Ordenanzas... de Toledo,** título ciento y veinte y ocho» «De los saledizos y puertas», pp. 194-195.

(17) **Cancionero de Sebastián de Horozco,** pp. 88-89. En la España de influencia occidental las calles no eran más anchas y ventiladas que en la andaluza. En 1551 el ayuntamiento de Burgos se quejaba al monarca de la profusión de corredores, balcones y saledizos, resaltando en lo alto de las fachadas y cubriendo en gran parte la angostura de las calles, cerradas totalmente al sol, tristes y sombrías, húmedas y lodosas **(La Ciudad y Castillo de Burgos,** por Teófilo López Mata, p. 209).

(18) Cf. supra, «La Muṣāra», p. 307.

(19) Torres Balbás, **Algunos aspectos del mudejarismo,** pp. 46-62

(20) Münzer, **Viaje por España y Portugal.**

(21) Lib. de cabildos de 1497 hasta 1502, folios 33 v, 83 v y 85, Arch. Ayunt. Gran. (Garrido Atienza, **Las capitulaciones... de Granada,** p. 141, n. (2).

(22) **Historia de la Orden de San Jerónimo,** por Fr. José de Sigüenza, segunda edición, t. II, p. 305.

(23) Lalaing, **Voyage de Philippe le Beau,** p. 205.

(24) Lib. XX, fol. CLXIX. Alcalá de Henares, 1530.

(25) Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 200.

(26) Garrido Atienza, **Los Alquezares de Santa Fe,** p. 61.

(27) Gómez Moreno, **Guía de Granada,** p. 243.

(28) **Ordenanzas... de Granada,** tít. 85.

(29) Montoto, **Sevilla,** p. 16.

(30) **El príncipe que murió de amor,** por el Duque de Maura, p. 46.

(31) Teixidor, **Antigüedades de Valencia,** I, p. 142, **Manual** núm. 16, fol. 118.

(32) Pertegás, **La urbe valenciana,** p. 360, n. (2).

# الكشافات العامة

## الألف


أبان بن عبدالله ٣٨١.
أبذة ٦٤، ٧٦، ٧٧، ٩١، ٩٢، ١١٠، ١٥٨، ٢٠٢، ٣٩٦.
إبراهيم الأول ٨٠.
إبراهيم بن عزرا ٣١٤.
إبراهيم الكبير ٣٢٠.
إبرس ١٧٢.
أبرشية سان خوان دي لا بيطلة ٣٨٨.
أبرشية ماجدالينا ٥٩٤.
ابن الأبـار ٢٢٦، ٢٤٨، ٣٧٨، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠.
ابن أبي جعفر ٣٣٣.
ابن أبي ذر ٧١.
ابن أشواي ٢٨٢.
ابن بسام ١٢٧، ٢١٥.
ابن بشكوال ٢٧٤، ٢٧٥، ٣٥٣، ٣٧٦، ٣٨٣، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٣٧.
ابن بطوطة ٧٩، ١٣٨، ٢٣٢، ٢٤١.
ابن بنوشس ٣٥٣، ٤٣٧.
ابن جحاف ٣٥٤.
ابن جزي ٧٩، ١٣٩.
ابن الجليقي ٩٤، ٩٥.
ابن جوندريكو ٤٥.
ابن حزم ٥٧، ٧٨، ٢١٣، ٣٧٦، ٣٧٨.
ابن الحمَّارة ٢٠٣.
ابن حوقل ١٢٢، ٢١٠.
ابن حيان ١٢٧، ٣٧٩.
ابن خاتمة ١٣٨، ٣٠٥.
ابن خاقان ١٠١، ٢١٦.
ابن الخباز ٣٨٧.
ابن خرداذبة (مؤلف) ٢٩، ١٢٠.
ابن الخطيب (مؤلف) ٥٨، ١٢٨، ١٣٦-١٣٩، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٥٩، ٢٦٨، ٢٧٣، ٢٩٦، ٣٣٣، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٨، ٤٣٥، ٤٣٨، ٦١٠.
ابن خفاجة ٣٠٤.
ابن خـلدون ٥٢، ٥٦، ٦١، ٦٨، ٧٢، ٧٤، ٩٤، ١٠٤، ١١٠، ١٣٧، ١٤٣، ٢٨٢، ٣٣٥، ٣٤٧.
ابن الدلائي (مؤلف) ٣٩١.
ابن دهري ٣١٩.
ابن رشد ٣٨٠.
ابن الزبير القضاعي ٣٣٠، ٣٨٨.
ابن زرب ٣٥٧.
ابن الزفت ٣٩١.
ابن زيدون (شاعر) ١٢٤، ٢١٣، ٤٨٢، ٥٤٤.
ابن سعيد (مؤلف) ٢١٣، ٢١٥، ٤١٩، ٥٤٤.

ابن سهل ٣٨١.
ابن شهيد ٢١٤، ٤٣٧.
ابن عبدالجبار ٢١١.
ابن عبدالعزيز ٢٢٤.
ابن عبدالمنعم الحميري ١٣٩.
ابن عبدون ١١٣، ٣٠٦، ٣٥١، ٣٧٧، ٣٨٢، ٤٣٤، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦١، ٥٠٠.
ابن عذاري ١٠٠، ٣٢٩، ٣٨٣، ٤٠٢.
ابن عمار ٢١٣.
ابن غانية ٥٢.
ابن فرج ٢٤٩.
ابن قزمان ٣٣٥، ٥٣٥، ٦٢١.
ابن القلاس ٢٩٤.
ابن القوطية ٣٨١، ٥٤٤.
ابن ليون ٤٨٤.
ابن مـــــــردنـيش ٢٩٥، ٣١٩، ٣٣٣، ٣٦٤.
ابن منتيال ٣٨٧، ٥٠٨.
ابن نمارة الحجري ٣٨٧.
ابن همشك ٢٩٥، ٣١٩.
ابن هود ٣٣٣.
أبو بكر بن عبدالعزيز ١٢٧.
أبو جعفر بن الفراء ٣٨٢.
أبو الحجاج (يوسف الأول) ٣٣٥.
أبو الخطار الكلبي ٨٧.
أبو الزهرية (قاضٍ) ١١٤.
أبو سعيد المريني ٢٨٠.
أبو العاصي ٢٥٩، ٢٦٢.
أبو عامر بن هذيل ٣٣٠، ٣٨٨.
أبو عبدالله ١٣٦، ٢٦٠، ٢٦٦.
أبو عبدالله التنجالي ٣٥٧.
أبو عبدالله بن الحداد ٣٠٦.
أبو عبدالله بن عيسى التميمي ٤٩٢.
أبو عمر بن قوندي سالبو ٣٠١.
أبو عمرو بن الفلاس ٢٤٧.
أبو الفداء (مؤلف) ١٣٨، ٢١٥.
أبو القاسم بن السراج ٥١٥.
أبو محمد بن السيد البطليوسي ٢١٦.
أبو المطرف ٢١٥.
أبيالا ١٨٠.
أبيلا ٣٨٩.
أتاباهس ٢٧٦.
إتفان جزيل (متحف) ٣٦٩.
أتوتشا ٥٧٢.
أتينسه ١٨١.
أثايل ٤٣٠.
أثناخر ٤٤٠.
أثنالفراش ٦٦، ١٠٢.
أثوجي ٤٦٦.
أثوجيخو ٤٦٧.

إثوميل ٢٢٠ .
أثونكي ٤٦٧ .
أثويكابروبي ثيكيام ٤٤٤ .
أثويكابيبت البلت ٤٤٤ .
الأجباب ١٨٦ .
أجوستوبريجا ٣٧ .
الأجون ٣٤٦ .
أجويلا ٤٥٨ .
الأحاديث (كتاب) ٢٤٦ .
الإحاطة (كتاب) ٢٣٣ .
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (كتاب) ١٢٣ .
إحصاء ممتلكات المدينة سنة ١٥٢٨ (كتاب) ٥٢٢ .
أحكام السوق (كتاب) ١١٢ .
أحمد بن باسو ٧٨ .
أحمد بن بقي ٣٧٩ .
أحمد بن سليمان المقتدر ٣٠١ .
أحمد بن عبدالملك بن سعيد ٢٣٩ .
أحمد بن كليب ٥٤٤ .
أحمد بن محمد بن إلياس ٩٧ .
أحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموي ٣٨٣ .
أحمد بن نصر بن خالد ٧٨، ١٠٠ .
أحمد بن يعلى ٩٧ .
أحمد بن يوسف المستعين ١٢٧ .
أخاركيا ٣٨٠ .
أخيميث ٥٨٩، ٥٩٠ .
الأداربيخو ٥٥٤، ٥٥٥ .
أدربي ٥٤٣ .
أدربي دي لاسويكا ٤٤٣ .
إدريس الأول ٧٤ .
إدريس بن يحيى بن علي بن حمود ٣٩٤ .
الإدريسي (مؤلف) ١٢٩-١٣١، ١٣٦، ١٨٩، ٢١٥، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٤٧-٢٤٩، ٢٧٥، ٢٧٨، ٣٠٧، ٣١٣، ٣٩٠، ٣٩٣، ٤٣٤، ٤٤٠، ٤٩٤ .
أدفنسترام ٤٥٨ .
أدلينو ٢٢٤ .
أدولفو (القديس) ٢٩٦ .
أديفونس إمبراطورس (كتاب) ٢٩٥ .
أرابال ٢٥٧ .
أراس ١٦٩، ١٧١ .
الأرباض ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٩، ٢٧٠-٢٧٢، ٢٧٥، ٢٧٧-٢٨٠، ٤٢٦، ٤٣١، ٥٤٣، ٥٧٩، ٦٢٥ .
أرباض البيازين ٢٦٩ .
أرباض غرناطة ٢٧٠ .
أرباض الكنسية ٢٨٠ .
أرباض المستعربين ٢٦١ .

أرباض اليهود ٢٦١.
إربيجيو ٣١٣.
أرثبرست ٦١٩.
أرجوت ٣١٨.
أرجون ٨٣، ١٢٧.
أردالس ١٨١.
أرشدونة ١٨٦، ٣٢٩.
الأرضيات السبع ٣٣٥.
أرغون ١٣٧، ٢٧٣، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣١٣، ٣٨٦، ٤٠١، ٥٥٩، ٥٦٧، ٥٩٥، ٥٩٦، ٦٠٣.
الأرك ٦٤، ٦٥، ٦٧-٦٩، ٨٥، ١٣٢، ٢٩٦.
أركابيكا ٥٨.
أركوس ٦١، ٥٧٤.
أركوس دي لا فرونتيروا ١٧٨.
الأركون ٥٥.
أركيليو دي لاسيدا ٤٥٠.
أرليانس ٣٦.
أرميليا ٢٤١.
إرناديث بيريث ديل بولجار ٢٨٢.
أروسيو ٤٤.
أريبالو ١٨٠.
أسبرتاريا ٤٤.
أستجة ١٥٨، ١٦٥، ١٨٥، ٢٤٨، ٢٨٠، ٤٤٠، ٤٤٣، ٥٣٣، ٥٧١، ٥٧٩، ٥٩٦، ٥٩٧.
أستراسبورج ٣٦.
أستورجة ٤٥، ٣٤٤.
إسحاق بن يوسف ١٩٠.
الأسرة الزيدية ١٣٣.
الأسرة الناصرية ٢٣٧.
الإسكندرية ٧٣، ١٣٠، ٣٩٤، ٥٠٦، ٥٩١.
إسماعيل بن موسى بن لب بن قسي ٩٤.
أسو (مؤلف) ٣٨٥.
الأسواق ١٤٨.
أسواق الغلال ١٣٤.
أسوجيو ٤٦٧.
الأسور بن عقبة ٣٧٩.
إشبيلية ٢٠، ٢٦، ٣٨-٤١، ٤٤، ٤٥، ٥٣، ٦٠، ٧٨، ٨٠-٨٢، ١٠١، ١٠٣، ١٠٩، ١١٣، ١٢١، ١٢٢، ١٢٨-١٣٣، ١٤٧، ١٥٨، ١٦٥، ١٦٦، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٦، ٢٢٦-٢٢٨، ٢٣٢، ٢٤٦، ٢٦١، ٢٦٤-٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٥، ٣١٨، ٣٢٩، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٧٥-٣٧٧، ٣٨٢، ٣٨٣، ٤٠٢، ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٤٠،

٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٧-٤٥٢، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٩-٤٩١، ٤٩٤-٥٠٠، ٥٠٨-٥١٢، ٥٣١، ٥٣٣، ٥٣٦، ٥٥٢، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٩-٥٧٣، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٩٢، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢٩.
أصحاب الأرباع ٥٤٦.
الإصطخري (مؤلف) ١٢٠.
أغمات ٢٢٧.
أفراغ ٢٨٠.
أفراغة ٨٢، ٢٤٧.
أفرينشس ٣٥، ٣٧.
أقليش ٧٦، ٧٧، ٨٨، ١٣٠، ١٨٦.
أكابوس ٥٦٠.
أكروبولس ٥٥.
أكساريس ٢٧١.
الإكساريع ٣٣١.
إكساكريا ٤٧٩.
أكساما ٢٥، ٣٨، ٥٨.
أكسمنس (راهب) ٤٦٨.
أكسوريا ٤٩٣.
أكليس ٨٨.
الألانوس ٤٥.
ألبش ٤٤٠.
ألبورتيتا ٣٨٦.
ألبونتي ٤٤٠.
ألبيتيكا ٤٢.
إلبيرة ٥٧، ٥٨، ٦٤، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٧، ٧٨، ٨٨، ٩١، ١٢٠، ١٢٢، ١٣٤، ٢٤٢، ٢٥٩، ٢٨٦، ٢٩٧، ٣٠٦، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٦٢، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٩٥، ٤٠٢، ٤٥٥، ٤٨٦، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٥، ٥٦٣.
ألثيرا ٢٨٠.
إلدفونسو ٢٧٩.
ألشي ٣٨٩، ٤٤٠.
ألفونسو ١٦٤.
ألفونسو الأول دي أرغون ٨٤، ٨٩، ٩٠، ٩٨، ٢٩٤، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٤٦.
ألفونسو الثالث ٤٥.
ألفونسو الثالث عشر ٤٩٠.
ألفونسو الثامن ٦٩، ١٥٧، ٥٣٢.
ألفونسو الثاني ٣١٦.
ألفونسو الحادي عشر ٦٢، ٨٧، ٩٥، ١٠٢، ٢١٩، ٢٨١، ٢٨٧، ٤٠٠.
ألفونسو الحكيم ٢٣٢، ٤٥٧.
ألفونسو دي بلنسية ١٣٨.
ألفونسو دي مورجادو ٥١٠.

ألفونسو السابع ٨٥، ١٣٠ ١٣١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٣١٥، ٣٦٦، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٤.
ألفـونســو الســادس ٩٢، ٩٣، ١٢٧، ٢٠٨، ٢١٦، ٢١٧، ٢٩٨، ٣١٥، ٣٩١، ٤٤٢.
ألفـونسـو العـاشـر ٦٥، ١٠٤، ١٣٥، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٠٤، ٣٤٨، ٤٤٨، ٤٩٢، ٥٠٨، ٥٠٩.
ألفـونسو المحـارب ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٩٥، ٣١٦.
ألكالاديل ريو ٤٣.
إلكرونيكون ٩٢.
ألمانيا ١٦٩.
ألمــريـــة ٧٥-٧٧، ٩٩، ١٠٠، ١٢١، ١٢٤-١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٧-١٣٩، ١٥٨، ١٦٣-١٦٦، ١٨١، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٢، ٢٤٩، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٧، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٣٢، ٣٥٨، ٣٦٤-٣٦٨، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٩٠-٣٩٤، ٤٠٠، ٤٤٠، ٤٥٢، ٤٧٩، ٥١٤، ٥١٨، ٥٣٦، ٦٠٩، ٦١٨.
ألموس ٦٥.
ألميكورا ٣٨٦.
ألونسو بيريث ٦٢٠.
ألونسو دي بالنسيا ٢٣٠.
ألونسو دي مورجادو ٥٨٠.
إلبياماقنا ٤٣.
إلبيريس ٣١٨.
أليكانتي ٣٦٧، ٣٨٩.
إليو ١١٩.
إليورا ٢٨١.
أمبانس ٦١٥.
الإمبراطورية الرومانية ٣١، ٧٣.
أمبرس ١٧٠.
امبروسيو بودري (رسام) ٥٩١.
أمبروسيو دي مورالس ٢٩٧، ٥٧٣.
إمبوريون ٤٤.
الأمراء الناصريون ٢٤١.
أمريكا ٣٣٨، ٥٩٨.
أمريكا الجنوبية ٣٣٧.
أمريكا اللاتينية ٥٣٥.
أمنبوس بالنثيا ٣١٧.
أمبورباس ٤٣٠.
الأمويون ٧٨، ٩٨، ١١١، ٢١٢، ٢٨٠.
أميان ٣٦، ١٧١.
أميرلو كانور (كتاب) ٣٤٢.
أميرينا ٤٥.
الأمين ١١٠، ١١١.
أنتــقــيــرة ٤٢، ١٣٥، ١٥٥، ١٥٦، ١٧٧، ٢٥٨، ٦١٨.

أنتكيرويلا ٢٣٧، ٢٤٠.
إنجلترا ١٩، ١٣٧، ٥١٠.
أنجلريا ٢٣٤.
الإنجليز ١٠٤.
أنجولو إينيجث ٣٣٧.
أنخل جانييت ٥٨٦.
أندروتو ٤٥.
أندريا ناباخيرو ٤٨٥.
أندريس ناباخيرو ٤٩٥، ٥٨٠.
أندوخار ٤٩٣.
أنديلو ٤٥.
أنريكي الثالث ٣١٩.
أنريكث دي خوركيرا ٥١٩.
أنطاكيا ٥٠٦.
أنطون (مدينة) ٣٥، ٣٧.
أنطونيو بونث ٤٩٤، ٤٩٧.
أنطونيـــو دي لالاينج (مـــؤلف) ٤٩٩، ٥١٨، ٦٢٥.
الأنواع (كتاب) ٢٩٧.
أوبراتوريا ٤٥٨.
أوبراتوريا بالكامرا ٤٥٩.
أوبراتوريوم ٤٥٨، ٤٦٠.
أوثيلس ٢٥، ٦٣.
أوجوستوبريجا ٢٤.
أوربانيخا ٣٩٠.
أورتيث دي ثونيجا ٢٧٥.
أوردونيو ٩٢.
أوردونيو الثاني ٢٠٩.
أوردنيو الرابع ٢١١.
أوروشكو ٦١٩.
أوريتو ٤٥، ٥٩، ٦٣، ٦٥-٦٧، ٨٥.
أوريولا ٣٧٥.
أوريولة ١١٩، ٢٤٨، ٣٦٧.
أوستيا ٤٣٠.
أوسما ٢٥.
أوسومو ٤٤.
الأوقاف (كتاب) ٤٨٥.
أوكانيا خيميث ١٩٢.
أولابيدي ٤٤٧، ٥١٢.
أولم ٣٩٧.
أولوجيكس ٢٢.
أولوس ٦١، ٦٨.
أيبرس ١٦٩، ١٧١.
إيتالكا ٤٣٠.
إيجيلاث ٣٣٤، ٣٦١.
إيجيليز ٨٢.
إيزي ٢٨٥.
إيسكيبياس ٣٧١.
إيسيدرو مارني ٥٨٧.
إيشيباريا ٣٣٥، ٣٦١.

إيطاليـا ٢٥، ٤٣، ١٦٧، ١٧٢، ٢٠٦، ٤٦٨، ٥١٠، ٥١٨.
إيطاليكا ٢٢، ٢٥، ٣٧، ٤٢، ٤٣.
إيكود دي لاس بيناس ٦٠١.
إيليو ٩٠.
أيوب بن أبي يزيد ٢١٠.
أيوب بن حبيب اللخمي ٨٣.
أيورا ١٨٦.

البـاء

باب ابن أحمد ٣٨٩.
باب أرينال ٤٩١.
باب الأساريو ٤٨٩.
باب أشبيلية ٤٤٧.
باب الأقمشة ٥٢٧.
باب إلبيرة ٢٤٢، ٤٩١.
باب ألتي ١٣٥.
باب ألفونساريو ٤٠٠.
بابا الأوساريو ٢٢٧.
باب بجانة ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٣.
باب البحر ٦١٥.
باب بردون ٥١٠.
باب البلاط ٣٦٨.
باب بلنسية ٣٢٦.
باب البنود ٤٣٩، ٤٨١.
باب بورشينا ٣٩٠.
باب البيازين ٢٧٩.
باب بيساجرا ٣٦٣.
باب البيطالة ٣٨٧، ٣٨٨.
باب تاجازوت ٣٨٠.
باب ثنيخيو ٢٧٧.
باب جايجوس ٤٩٠.
الباب الجديد ٢٧٨، ٥٠٨.
باب الجذام ٢٨٧.
باب الجسر ٣٢٨، ٣٤٢، ٣٤٥، ٤٩٠.
الباب الجنوبي ٢٨٥.
باب بهور ٢٢٧.
باب جهور ٢٤٠.
باب الحديد ٤٩٠.
باب الحلة ٤٨٤.
باب الحنش ٣٨٧.
باب الخندق ٣٩٧.
باب الدار البيضاء ١٣٥.
باب داليار ٥٧١.
باب الرملة ٢٣٨، ٤٩٠، ٥٢٧، ٦١٩، ٦٢٨، ٦٢٩.
باب ريال (الملكي) ٥٢٧.
باب الزياتين ٤٥٢.
باب سانتا فلورنتينا ٤٦٧.
باب سان خوان ٥٧٣.
باب السمك ١٣٤.

باب السوق ٤٦٦ .
باب السويقة ٤٤٣ .
باب شاقرة ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥.
باب الشاكرة ٣٥٢، ٣٦٣.
باب الشريعة ٣٢٩-٣٣١، ٣٣٤، ٣٤٦، ٣٨٨، ٤٣٨، ٤٩١ .
باب الشقراء ٢٦٢ .
باب الشكر ٢٢٣ .
باب الضفاف ٢٧٨، ٢٨٦.
باب الصناعة ٥٢٨.
باب الطاحونة ٤٩٠.
باب الطفالين ٢٢٠.
باب طليلطة ٣٨٠.
باب الطوابين ٢٣٨، ٢٤٠، ٤٥٢ .
باب العاشر ١٣٥، ٢٣٨.
باب عامر ٣٨٠، ٤٩٠ .
باب عباس ٣٨٠.
باب عبدالجبار ٤٨٢ .
باب العدل ٣٣٥.
باب العطارين ٢١٣، ٢٥٧، ٢٨٤، ٢٩٧، ٤٤٦ .
باب العيون ٣١٦، ٤٨٩ .
باب غراناداس ٣٩٧.
باب فحص اللوز ٢٤٥.
باب الفخارين ٢٣٨، ٣٩٨، ٤٥٢ .
باب فونتنالا ٣٢٩، ٣٩٩.
باب قرمونة ٢٢٨ .
باب القنطرة ٤٩٠ .
باب الكحل ٣٦٨، ٣٨٦، ٤٨١ .
باب لابركيتا ٥٧٣ .
باب ليون ٣١٦، ٣٧٨، ٤٨٩ .
باب متر ١٣٥ .
باب مخاضة النهر ٢٢٠ .
باب المدينة ٢٦٢ .
باب المرضى ٢٦١، ٢٦٢، ٢٨٧.
باب المصلى ٣٨٨.
باب المقابر ٣٥٥.
باب المقبرة ٣٩٠.
باب مكارينا ٤٩١ .
باب مكرانة ٤٩١ .
الباب الملكي ٤٩٠ .
باب المنجدين والسجادين ٥٢٧ .
باب مونتاراجون ٣٨٦.
باب موظفي الحرير ٥٢٤ .
باب النجد ٢٤٠.
باب النصر ٥٩١.
باب وادي آش ٤٩٠ .
باب اليهود ٢١٤، ٢١٦، ٢٨٤، ٣٥٥، ٣٧٨، ٣٨٥.
بابلو دي ألابيدي ٤٢٩ .

باتانيس ٢٢٢.
باتيرنو ٣٠٠.
باجة ٧٦، ٧٧، ٥٩٨.
باداخوت ٩٤.
بادوا ١٧٢.
باديس ١٦٤، ٢٣٩
باديس بن حبوسل ٣١٨.
باديس الزيري ٣٤٢.
بارثينو ٢٣.
باريس ٣٦، ١٧٠، ١٧١.
باريو ٢٥٧.
الباستي ٤٣٧.
باسكوال الثاني (البابا) ٣٠٠.
باسكوس ٦١، ٦٣، ٦٧، ٦٨، ٣٥٨.
باسكونيا (شعب) ٨٩.
الباكاتس ٤٣.
باسيليا ٣٦، ١٧١.
البالات ٦١.
بالاثيوس (القس) ١٥٦.
بالتانا ١١٩.
بالما ١٦٥، ١٨٥، ٥٦٣.
بالما دي ميورقة ٣٦٧، ٤٩٦.
باليرا ١٥٣، ٢٧٣.
باليرمو ١٦٩، ١٧٢.
باليريا ٤٥، ٥٨، ٢٣١.
البانويلو ٤٥٩، ٥٨٥.
بايثا ٦٤.
باليوس ماكسميانوس ٤٢.
بانبلونة ٣٠٢.
بايين ٤٢٩.
ببارملة ٤٩٠.
بتستاثيو ٤٤.
البثيرو ٣٤٣.
بجانة ٧٤، ١٢٠، ١٢٤، ١٨٩، ٢٤٩، ٢٨٣، ٣٥٦، ٣٩١، ٣٩٣.
البحر الأبيض المتوسط ٢٦، ٢٩، ١٠٠، ١١٥، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٧، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٣، ٢٠١، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦٥، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٣٠، ٥٩١.
بحر الململة ٤٠٠.
البحيرة ٢٢٧.
بحيرة أريج ١٢٢.
البحيرة الكبرى ٢٢٦.
بخير دي لا فرنتيرا ٥٧٤.
بدور الأول ٢٨٤.
البرابرة ٣٢٩، ٣٣٧، ٦١١.
البـــراثين ١٧٨، ٤٤٠، ٥٣٣، ٥٨٢، ٥٩٣، ٥٩٣، ٥٩٥، ٥٩٦.
براجا ٤٤، ٥٩٨.
بربخانة ١٩٣.

البـــربر ٦٤، ٨١، ٨٧، ١٢٣، ١٢٤، ٢٩٤، ٣٤٣، ٣٥٣، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٩٠، ٣٩٤، ٤٦٤.

بربشتر ٦١، ٦٣، ٦٩، ١٢٧، ٢١١.

برتانت (مؤلف) ٦٢٨.

البرتغال ٣٦، ٩٥، ١٨٥، ٢٨٢، ٣٦٥، ٣٧٥، ٥١٠، ٥١٩، ٥٩٨، ٥٩٩.

البرتغاليون ٢٨٠.

البرج ٤٥٨.

برجاسوت ٧٩.

برج الأنثى ٧٩.

برج الذهب ١٨٠.

برج الروث ٧٩.

برج شجرة الزيتون ٣٩٦.

برج الصوت ٧٩.

برج القصبة ١٠٢.

برج معشوقة ٥٩٤.

برجة ٢٤٩، ٥٥٨.

برديكادورس ٤٩٢.

بـرشلـونـة ٢٣، ٢٥، ٤٠، ٤٤، ٩٤، ٣٠٠، ٤٣٠، ٤٦٩، ٥٧٩، ٥٨٣.

بركة الوادي ٢٣٣.

برغش ٥٥، ٥٨، ٤٣٠، ٤٣٦، ٥٩٨.

برمودث دي بيدراثا ٣٦٠، ٥١٩.

برميتين ٤٠.

بروجروم ٣١٩.

بريانة ١٨٥، ٢٤٨.

بريطانيا ٥١٠.

بزانسون ١٧١.

برنيسا ١٨٤.

بروخاس ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

بريانة ١٣٠.

بريجو ١٣٠.

بريميتين ٣٠.

بساتين الرياليخو ٢٤٦.

بساتين الفخارين ٢٣٨.

بساتين المنجرة الكبرى ٢٣٨.

بستان أ. رياث ٢٢٢.

بستان ألكارديث ٢١٨.

بستان برجاس ٢٢١.

بستان بيلين ٣٩٩.

بستان الحفرة ٢٢٠.

بستان الخزنة ٢٢٠.

بستان الرمان ٢٢٠.

بستان عصام ٢٣٨.

بستان فيلانوبا ٢٢٤.

بستان الكورنيا ٢٢١.

بستان ليتيك ٢٢٢.

بستان الملك ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٣١.

بستان النوبلو ٢٤١.

بسطة ١٤٧، ٢٢٨، ٢٧٣.
بسويجيليا ٤٣.
البشكلاري ٤٣٧.
البصرة ٧٣، ١٢٢.
بطرس (القديس) ٢٩٧.
بطليوس ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٩٤، ٩٥، ١٢٨، ١٥٨، ١٦٥، ١٧٨، ٢٧٠، ٣٥٢، ٣٦٤، ٣٨٢.
بغداد ٨٠، ٨١، ١١٩، ٣٣٣.
البكري (مؤلف) ٩٥، ١٢٨، ١٣٩، ٢٧٢، ٤٠٠، ٤٠١.
البلات ٦٨.
البلاتيا ٤١٨.
بلاتيام ٤٣٨.
بلاتيي ٤٣٨.
بلاثيام ٤٣٨.
بلاثكث دي إشيباريا ٥٢٣.
بلاثيوس ١٥٣.
البلاط ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٩.
بلاط مغيث ٥٧.
البلدة ٦٦.
بلد الوليد ٤٣٠، ٤٦٧.
البلدان (كتاب) ١٢٠.
بلش ١٣٥، ١٥٠، ٢٨١، ٤٣٩، ٤٦٠، ٥١٤، ٥٦٩، ٥٧٢، ٥٩٢.
بلنسية ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٦٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٣، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٩، ٢٠٦، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٩، ٢٧٦، ٢٨٥، ٣٠٣، ٣١٧، ١٣٨، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٧٣، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٣، ٥٠٨، ٥٣٣، ٥٤٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦٧، ٥٧٩، ٥٨٤، ٥٨٥، ٦١٧، ٦٣٢.
بلوبلس ٧٤.
بليا ٤٥.
بلينيو الأكبر.
بله ٢٩٥.
بمبلونا ٨٨.
بنا بنيت ٤٦٦.
بناليوفار ٢٧٥.
بنتوراساباتيل (مؤلف) ٥١٧، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩.
بنزرت ٣٧١.
بنواثاس ٢٨٢.

بنو الأحمر ١٣٤ .
بنو إسرائيل ٣٨٤.
بنو الأفطس ١٢٨ .
بنو عباد ٥٨١ .
بنو غانية ٣٩٨.
بنو قسي ٨٣، ٨٩.
بنو مروان ٣٧٩.
بنو هابيل ٣٨٠.
البنية ٦٢، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥.
بوجاسترو ٦٣، ٦٩.
بوجيا ٧٣.
البوخاراس ٥٥٨، ٥٥٩.
بوخاس ٥٦٣.
بوخالاروث ٧٩.
بوخالانث ٧٩.
بودري (رسام) ٥٩٣، ٥٩٦.
بورجوس ٤٣٦.
بوردو ٣٦.
بورقس ٥٥، ٢٢٨.
بوركات ٢٠٦.
بوفارول ٤٨٣.
بوفي ١٧١.
بوكايرنت ٤٤٠.
بولتس دي سانتا أنا ٤٤٢.
بولجار ٢٧٣.
بولقار ٢٢٩، ٢٣١.
بولوبلس ٣٦، ٤٣.
بومبيا ٤٣٠.
بوليو ٤٠.
بومبيا ٤٣٠.
بونا ٧٣.
بونابنتورة دي أربوريا ٢٨٢.
بويتراجو ١٧٨.
بيا بييخا ٩٨.
بيا توخوان دي ريفيرا ٤٠.
البيائين ٢٧٩.
بيارا ٢٢.
بياريال ٦٥.
البيازون ١٣٥، ٢٤٥، ٢٦١، ٢٧٨، ٢٧٩، ٤٣٩، ٥٩٥.
بياسة ١٢١، ٢٥٠.
البيان (كتاب) ٩٥، ١٠٣، ٢٧٥.
بيانة ٢٦١، ٢٦٣، ٤٢٨.
بيتانت ٢٤٠.
بيتانش ٤٦٦.
بيت القربان المقدس ٥٢٣.
بيتيكا ٤٢، ٤٤، ٤٥.
بيخار ٤٩٣.
بيخيرديه لا فرونتيرا ٤٢٧، ٤٢٨.

بيداثا (مؤرخ) ٤٩١.
بيدرو ٦٢٢.
بيدرو جارثيس ٣٨٦.
بيدور دي ألكالا ٢٥٧، ٢٨٢.
بيدرو دي ميسا ٥٣٢.
بيدرو الرابع ٣٨٦، ٣٨٨.
بيدرو سانشورا ميريث ٣٠٠.
بيدرو فرنانديث ٥٠٩.
بيدرو كاتالان ٤٤٨.
بيدرو لوبيثا دي إيالا (مؤلف) ٤٥٦.
بيدرو مارتير دي أنجلريا ٢٣٥.
بيدرو ليليترا ٤٣٥، ٤٩٤.
بيدرو مكسيا ٥٨٣، ٦١٥، ٦١٩.
بيدرو بيترا ٥٧٩.
بيردي لاثيثا ٥٧١.
بيرو دياس ٦٠٠.
بيريث برموديث ٥٤٩، ٥٥٠.
بئر الشريعة ٣٣٤.
بيرني ١٧٢.
بيرومارين (راهب) ٣٠٧.
بيزانسيو ١٦٧.
البيزنطيون ٢٨.
بيسا (مدينة) ١٢٦، ١٦٤، ١٦٩، ٢٧٧، ٣٠٥.
بيسا (مؤلف) ٤٩٦.
البيضاء ٦٠، ٦٧، ٦٨، ٧٩، ٨٥.
بيكومايوري ٤٨٠.
بيلاثكث إشبيريا ٥٢٠.
بيلبيس ٣٨.
بيلو ٣٧٠.
بيليا ديل ريو ٣٦٤.
بيليث مالقة ١٣٥، ٤٣٩، ٤٦٠، ٥٦٩، ٥٧٢.
البيلدة ٦٠، ٦٧، ٦٨.
بيلياريال ٦٦.
بيناروث ٣٦٧، ٣٧٥.
بينافيل ١٨٠.
بينس كانارينس ٦٠٠.
بيوت البغاء ٢٨٢، ٢٨٣.
بيوتر (مؤلف) ٣٠٣، ٣٣١.

التــاء

تاجاريتي ١٨٠.
تاجازوت ٣٨٠.
تأريخ ابن صاحب الصلاة ٤٤١.
تاريخ توزيع بلنسية ٤٥٨.
تاريخ دون خايمي ١٣٤.
تأريخ روتنسي ٣٣، ٤٥.
التاريخ العام ٤٣٦.
التاريخ العام الأول (كتاب) ٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٨، ٣٣٠.
تاريخ قضاة قرطبة (كتاب) ١١٤، ٣٨١.

تاريخ الكاردينال دون خوان تابيرا ٣٨٤.
تاريخ مدينة أشبيلية ٥٨٠.
تاشفين بن علي ١٩٥.
تالورا ٢٧٨.
تامورا ٤٤.
التَّباس ٢٧٦.
تدمير (علم) ١١٩.
تدمير (مدينة) ٩٠، ٣٤٣.
تراثينا ٢٤، ٤٣، ٤٤.
تراجونا ٣٧٠.
تراكو ٤٤.
ترجالة ١٣٠.
ترقونة ٢٤، ٢٥.
ترمانثيا ٢٥، ٥٨.
تروا ٣٦.
تروال ٥٩٣.
تروخيليو ٤٤٠.
ترويل ١٧٨، ٥٩٥.
تريفريس ١٣٥.
التسلسل التاريخي (كتاب) ٢٤٨.
تشسترون (مؤلف) ١٩.
تطوان ٤٤، ٥٧٠.
تطيلة ٧٦، ٧٧، ٨٩، ٩٠، ١٧٨، ٢٦٤، ٢٧٠، ٣٠١، ٣١٦.
تقويم البلدان (كتاب) ١٣٨.
تقويم قرطبة (كتاب) ٢٩٧.
تكسيرا ٣٤٥.
التكملة (كتاب) ٢٧٨.
تل بدريجوسا ٤٩٠.
تل الشورو ٢٣٢.
تل القصبة ٣٣٣.
تل المصلى ٣٣٣.
تل الموار ٢٣٢.
تلمسان ٨٢، ٣٣٧، ٣٥٤، ٣٦٣.
التمبلي ٣٣١.
تمجاد (مدينة) ٤٣٠.
تنجيتانا (أيوس) ٤٢.
تندبياس ٤١.
تورس برميخاس ٢٣٨.
توركس ٢٦٣.
تورنريا ٤٩٠.
تورني ٣٦.
توريا ٣٨.
توريس بالباس ١٩٢.
توريس مولينا ٥٢٧.
التوزيع (كتاب) ٣١٧، ٣٣٠، ٣٨٧، ٤٣٨، ٥٤٦.
التوزيع لبوفارول (كتاب) ٤٨٣.
توزيع المدينة ٣٠٤، ٤٧٩، ٤٩١.
توزيع مدينة بالماري ميورقة ٥١٣.

توزيع مدينة بلش ٥١٤، ٥٦٩، ٥٧٢.
توزيع مدينة بلنسية ٢٨١، ٣٣٠، ٣٥٤، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٤، ٤٥٩.
توزيع مدينة الجزيرة ٤٩٢.
توزيع مدينة رندة ٥٧١.
توزيع مدينة لوشة ٢٩٩.
توزيع مدينة مالقة ٥٥٨، ٥٧١.
توزيع ميورقة ٢٥٨، ٢٨٥، ٤٣٨، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٨، ٤٦٠.
توستار ٤٨٤.
توفينو ٤٣.
توفينوت ٢٥.
تولوز ٣٥.
توماس لوبيث ٥١٦.
تونس ٣٣٧، ٣٧١.
تيتشادا ٥٧٠، ٥٧٣.
تيكسيدور (مؤلف) ٣٣١، ٣٥٧.
تيلا ٣٤٤، ٣٤٨.
تينس ١٢٢.
تينوريو ٥٥٥.
تيورفيل جوتير ٤٩٧، ٥٨٠، ٦١٤.
التيبر ٢٣٥.
التيوكالي ٣٣٧.

**الثـاء**

ثافادولا ٣٣٣.
ثامورا ٤٦٦.
ثريمونيوسو ٣٨٨.
ثعلبة بن سلامة العاملي ٣٤٣.
ثكايتن ٤٥٠، ٤٥٢، ٤٧٩، ٥٢٤.
الثكودوبر ٤٧٠.
ثوجي قديم ٤٦٦.
ثورارا (مؤلف) ٤٩٢.
ثورة المدجنين ٢٤٦.
ثوريتا ٨٣.
ثوريتا دي لوس كانس ٥٥.
ثوريلا (شاعر) ٥٩٠.
ثوك قديم ٧٦٦.
الثوكو ٤٣٣.
ثوكوبر ٤٤٢.
ثويكا ٤٤٤.
ثيربانتس (مؤلف) ٤٥٣، ٥٨٠.
ثيساريا ٥٠٥.
ثينيخا ٥٤٦.
ثيني هية ٢٧٦.
ثيوداد ريال ٥٩.

**الجيم**

جابر بن مالك بن لبيد ٩٠.
جارثي تيبو ٦١٩.
جارثيا جرانادوس ٣٣٧.
جارثيا جوميث (مؤلف) ٢٠.

جارثيا لوفيرا ٣١.
جارثيلاسو ٢٢١.
جاسبار إي رويج ٥٩٠.
جاكا ٥٣٤.
جالوتي (مؤلف) ٤٢٠.
جاليانو ٤٣.
جاليثيا ٤٥.
جاليقيا ٤٦٦.
جامع أشبيلية ٤٦١.
جامع الروضة ٣٩٧.
جامع الشريعة ٣٣٤.
جامع المرية ٣٩١.
جانت ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.
الجب ٢٧٧.
جبال إلبيرة ٢٠٨.
جبال البرانس ١٧، ١٩، ٢٨، ٥٩.
جبال البريني ٣٠١.
جبال البيازين ٢٤١، ٢٤٢، ٣٣٣.
جبال فيلابرس ٣٩٢، ٣٩٣.
جبال فيليث دي لاجوميرا ٢٨٧.
جبال لا سييرا ٢٢٩، ٢٣٨.
جبال نيفادا ٢٠٨.
جبانة باب إلبيرة ٣٩٥.
جبل إلبيرة ٧٨.
جبل الحجر ٣٠٥.
جبل السبيكة ٣٩٧.
جبل الشريعة ٣٣٣.
جبل طارق ١٧، ٤٤، ٦٢، ٦٥، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٣٥، ١٣٨، ٥٣٠.
جبل العروس ٩٦.
جبل الفارو ١٥٣، ٣٢٠، ٣٩٩.
جبل الكنيسة ٣٠٥.
جبل لحام ٢٧٧.
جبل الميناء ٤٠٠، ٤٠١.
جراداس ٥٧١.
جرانكاس ٩٦.
جران كناريا ٦٠١.
جرثياجوميث ٤٦١.
جرف مقبل ٢٣٣.
الجرمان ٤٣، ٤٤.
جرمانيا ٣٥.
جرونية ٣٧.
جريخالبا (راهب) ٣٣٦.
الجزائر ٣٦٣، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٤٩٨، ٥٨٥.
الجزر الشرقية ٦٠١.
جزر الكناري ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠.
الجزيرة ٦٥، ٨١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٨٠، ١٨٦، ٢٤٨، ٢٨٠، ٣٠٤، ٣٦٨، ٣٨٨، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٨٩.

جزيرة بالما ٣٦٨.
جزيرة تنريف ٦٠١.
الجزيرة الجديدة ٧٥، ١٠٣.
الجزيرة الخضراء ٦٢، ١٨١.
جزيرة شلطيش ٣٠٧.
جزيرة يابسة ١٣٠.
جسر البحر التمبلي ٣٣١.
جسر الدباغين ٤٥٢.
جسر سانتا أنا ٥٨٧.
جسر الفحم ٥٢٤.
جسر لاجاينيرا ٥٨٧.
جسر سيجوبيا ٣٤٥.
جعفر بن عثمان المصحفي ٢١٣.
الجعفريه ٧٤، ٣٠١، ٣٤٦.
جلانكاش ٩٦.
جليس ٥٢٠.
جميلة (مدينة) ٤٣٠.
جنات المصلى ٣٢٩.
الجنراليداد ٤٠.
جنة الجرف ٢٣٣.
جنة العريف ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦.
جنة العرين ٢٣٣.
جنة قداح بن سحنون ٢٣٣.
جنة المصلى ٢٢٧.
جنوة ١٢٦، ١٦٤، ١٧٢، ٢٧٧، ٣٠٥، ٥١٠.
الجنويون ٤٦٤، ٦٠٩.
الجنينة ٢١٨.
جنينة الجوف ٢٤١.
جنينة حامد ٢٤١.
جنينة السيد مكلز ٢٤١.
جنينة الغاز ٢٤١.
جنينة الفارس ٢٤١.
جنينة القاضي ٢٤١.
جواتيمالا ٣٣٦، ٣٣٧.
جواد ليرثاس ٣٧١.
الجوادرما ٩٢، ٩٣.
جواديكس ٤٨٤.
جومورا ٥٨.
جوميث مورينو ٢٦٧، ٣٦١، ٣٦٩.
جونثالث دي ليون ٤٩١، ٥١٣، ٥٥٧، ٥٦١
جوندريكو ٤٤.
جيان ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٧٨، ١٣٣، ١٥٨، ١٨٤، ١٨٦، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٤٩، ٣١٩، ٣٥٥، ٣٦٥، ٣٧٤، ٣٨٩، ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٩٧، ٥٠٠، ٥١٢، ٥١٣، ٥٨٠، ٥٨١.
جيرونة ٢٥٠.

الحـاء


الحاجب رضوان ١٣٥ .
الحاجب المنصور ٨٠.
حارة أتاود ٤٩٥ .
حارة باب الحديد ٢٨٥.
حارة بن عكاشة ٢٠٨.
حارة الثمرة ٢٨٧ .
حارة الحاج ٢٨٧ .
حارة حومة المريج ٢٨٥.
حارة الدباغين ٢٦١ .
حارة دويندي ٥١٤ .
حارة الرقاقين ٢٥٧ .
حارة زبالاشن ٢٨٥ .
حارة سان مارتين ٢٥٩ .
حارة السوق ٢٧٨ .
حارة سويقة الأصباغ ٥٢٣ .
الحارة الشرقية ٥٧٥ .
حارة الشومة ٢٨٧ .
حارة الصباغين ٥٢٥.
حارة الطرازين ٢٨٤.
حارة العرب ٢٨٧ .
حارة الفخارين ٢٨٤.
حارة الفرج ٢٧٨ .
حارة القبلة ٢٨٥.
حارة القصبة ٢٨٦ .
حارة القومس ٢٨٤، ٢٨٥ .
الحارة الكبرى ٤٧٩، ٤٩١ .
الحارة المايور ٤٧٩ .
حارة ميور ٤٩١ .
حارة اليهود ٢٥٩ .
الحامة ١٥٦، ٢٦١، ٢٨٢، ٤٣٩ .
حدائق عيندمار ٢٠٨ .
حدائق الهزبريدس ٢٣٥ .
حديقة لوبيرا ٣٩ .
حديقة مورو ٢٨٦ .
حرة أم عبدالله (الملكة) ٢٣٨ .
الحسام بن ضرار (أبو الحسام) ٣٤٣ .
الحسبة ١١٢، ١١٣، ٤٤٤ .
الحسبة لابن عبدون (كتاب) ٤٦١، ٥٠٠ .
الحسبة للسقطي (كتاب) ٤٥٢ .
الحسد لدى طبقة النبلاء (كتاب) ٥٠٥ .
حسن بن محمد ٣٧٩.
حصن الطرف ٧٩.
حصن الفرج ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١، ١٠٢، ١٠٣.
حصن القصر ٧٩.
حصن اللوز ٧٩.
حفصة بنت الحاج الركوني ٢٣٩ .
حقل أبولنيتس ٦٢٦ .

حقل أبي النست ٤٦٩ .
حقل الأمير ٣٩٨، ٦٢٨.
حقول الرمان ٢٢٠ .
حقل الشريعة ٢٢٠.
حقل العربي ٣٤٥، ٣٤٦.
الحكام النصريون ٥١٨، ٥٣٦ .
الحكم الأول ٢١١ .
الحكم الثاني ٦٦، ٧٧، ٧٨، ١٢٤، ٢١٣.
حلب ٣٣، ٥٨٥ .
الحلل الموشية (كتاب) ٧٨، ٢١٧، ٢٣٩.
حمام أبي العز ٤٦٨ .
حمام بالاثيوس ٤٥٥ .
حمام البانويلو ٤٥٥ .
حمام البيازين ٤٥٥ .
حمام ثريب ٤٣٧ .
حمام الحذائين ٢٦٨ .
حمام الشنترة ٤٨٥ .
حمام القبو ٢٢٠ .
حمام القراقين ٢٦٨ .
حمام قرطبة ٢٦٧ .
حمام كاباليل ٢٦٧ .
حمام لويسة ٤٥٥ .
حمام ناالمليج ٣١٨، ٥٤٦.
حمام هرناندو دي ثافرا ٤٥٥ .
الحميري (مؤلف) ٢٩، ٨٥، ٨٧، ٩٩، ١٢٩، ١٣٩، ٢١٢، ٣٠٦، ٣٥٧، ٤٣٠.
حنش بن عبد الله الصنعاني ٨٧، ٣٨٥.
الحواجز ٥٤٧، ٥٥٧، ٥٥٨.
حور مؤمل ٢٣٩ .
الحوض ١٣٨، ٢٧٧، ٣٥٦.
حوض الشريعة ٣٣٤.
الحوليات ٢١٧، ٢١٨.
حومة العرب ٢٨٤ .
حومة القصر المبارك ٢٨٤.
حومة المائدة ٢٨٥ .
حومة المريج ٢٨٥ .
حومة الموريلوم ٢٨٥ .
الحويجزات ٥٤٧، ٥٥٧، ٥٥٨ .
حي ابن جهاف ٢٨٥ .
حي ابن هاجون ٢٨٥ .
حي أكسارس ٢٨٦ .
حي باب المرضى ٢٨٧ .
حي البستان ٢٨٧ .
حي بسطة ٣١٤.
حي البوكارولفسين ٢٨٦ .
حي البيازين ٢٨٦، ٣١٩، ٤٣٩، ٥٠١، ٦٠٢.
حي ترثيوس ٢٨٣.

حي حارة القصبة

حي الحامة ٦٠٢، ٦٠٥.

حي الحطابين ٥٥١.

حي درب الدين ٥٥٠.

حي الزجاجلة ٢٨٤.

حي الزجالي ٢٨٤.

حي زقاق البصري ٢٨٦.

حي سان بيدرو ٤٩٨.

حي سانتا ماريا ٢٨٠.

حي سانتا ماريا مجدالينا ٢٥٩.

حي سانتياجو ٣١٤.

حي سان خينيس ٤٤٢.

حي سان نيكولاس ٤٤٢.

حي السويقة ٢٨٥.

حي الشـــريعـــة ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٣٠، ٣٣١.

حي الشورا ٢٨٦.

حي صنهاجة ٢٨٧.

حي العقبة ٢٨٧.

حي عين الفرقد ٢٨٤.

حي عيون جارة الريحان ٢٨٦.

حي غدير ثعلبة ٢٨٤.

حي الفخارين ٣٨٢.

حي فرانكوس ٥٧١.

حي القراقين ٥٥٢.

حي قربة ٢٨٧.

حي قوته راشو ٢٨٤.

الحي القوطي ٤٠.

حي الكرز ٢٨٦.

حي كوباس ٢٨٤.

حي الكورة ٢٨٦.

حي كولوبرس ٢٨٣.

حي المستعربين ٣٠١.

حي المنصورة ٢٨٦.

حي مورور ٢٨٦.

حي النجارين ٢٨٤.

حي اليهود (الحي اليهودي) ٢٨٥، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٤٤٤، ٤٦٧، ٥١٤، ٥٥٥، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٣، ٥٧٢.

الحير (الفسطاط) ٢١٤.

حير الزجالي ٢١٤، ٢٨٤.


## الخـــاء


الخالدة ١٣٢.

الخـــانات ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦٢.

خايمي الأول ٩٠، ١٣٣، ١٥٤، ٢٢٦، ٢٤٨، ٢٨١، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤٠٢، ٤٣٨، ٤٨٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٥٤٣، ٥٦٩.

خايمي الفاتح ٥٣٤.

خدام بلاط الملك ٢٨٤.
خرانبي ٢٧٨.
خريكا ٢٨٢.
الخشني (مؤلف) ١١٤، ٣٤٢، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٢، ٥٤٤.
خطيبة (مدينة ) ٤٣٩.
خليج الجزيرة ٦٩.
خليص ٥٢٠.
خليل البيطار ٢١١.
خندق السبيكة ٣٩٧.
خندق القاضي ٣٩٩.
خوان ثباثيرو ٥٣٢.
خوان دي ميارا ٦١٣.
خوان (القديس) ٢٩٦.
خوسي ثوريلا ٥٠٥، ٥٧٧.
خوسي الدخيل ٤٣٤.
خوسي دي سيجونثا ٦٢٦.
خوسي صاموئيل ٣١٩.
خوليان دي ريبيرا ٣٢٦.
خوليو بريجا ٤٥، ٥٨.
خيير التار ١٠١.
خيير الفارو ١٥٣، ١٨٢.
الخيرالد ٦١٠.
خيران العامري ٩٩، ١٦٤، ٢٧٧، ٣٣٢، ٣٩١.
خيرونيمو دي ميندیتا ٣٣٦.
خيرونيموس ٤٠٢.
خيرونيمومنزر ٢٣٤، ٣١٩.
خيريث دي لا فرونتيرا ٥٣٥.
الخيثيررا ٦٢.
خيل برث ١٢١.
خيمينا ٢٢٤.
خينس دي باسامونتي ٦٢٤.
خينيل ٤٥.

**الدال**

دارا بنار ٢٣٢.
الدار البيضاء ٢٣٩، ٣٩٨.
دار الجوادو ٤٣٧.
دار الخراج ٢٨٣.
دار السكة ١٢٢، ١٢٩، ١٦٤، ١٦٧، ٥٧٣.
دار العروسة ٢٤٦.
دار الغازي ٢٤١.
دار الهديل ٢٤١.
دار الوادي ٢٤٦.
دار الوضوء ٤٣٧.
داروقة ٢٤٧.
دالماو ٤٢٩.
دالياس ٣٩١.
دانية ٤٤، ١٢٧، ٢٤٨، ٢٨١، ٣٣٠.

درب إبراهيم البلنسي ٣١٨، ٥٤٦.
درب ابن جامع ٥٤٦.
درب ابن جيم ٣١٨.
درب ابن دابوشيك ٤٨٤، ٥٤٣، ٥٤٦.
درب ابن زيدون ٤٨٢، ٥٤٤.
درب ابن شراحيب ٥٤٤.
درب ابن كانياس ٥٥٣.
درب ابن ماندا ٥٥٥.
درب أبي الأشهب ٤٨٢، ٥٤٤.
درب الأمير دي مولينا ٥٥٤.
درب البيازين ٥٥٢.
درب الجوز ٥٥٢.
درب الحجر ٥٥٢.
درب الحمراء ٥٥٢.
درب دومنجو بيريس ٥٥٣.
درب دي لاكسيناجا ٥٥٦.
درب الزجالي ٤٨٢.
درب الغروب ٥٥١.
درب الفضل بن كامل ٤٨٢، ٥٤٤.
درب القاطع ٥٢٣.
درب القصر ٥٥٥.
درب الكوينا ٥٥٢.
درب المسلمين ٥٥٥.
درب منازل المطران ٥٥٥.
درب الموكو ٥٥٢.
درب ميو ٥٥٤.
دربي ٥٥٦.
درب اليهود ٥٥٦.
الدروب ١٩٥.
دريب ٥٤٣، ٥٥٤، ٥٥٥.
الدفة ٥٩٨.
دلاية ٣٩١.
دمشق ٣٣، ٣٤، ٧٨، ٨٠، ٤٩٩، ٥٨٥.
دمياط ٤٨٤.
دموس ٣٧، ٤٥٨.
دميان (القديس) ٢٨٣.
دوث بيدرو سالاثارد دي مندوثا ٣٨٤.
دورقة ٨٣، ١٣٠، ١٨٢.
دوزي ١٢٢، ٣٣٤.
دولة الغاليا ٢٣.
الدولة القوطية ٥٩، ٣١٣.
دوموس ٤٥٨.
دومنجو باديا ٥٤٣.
دون ألفونسو دي مولينا ٥٥٤، ٥٥٦.
دون أندالثيو بنتوريا سباتيل ٥٢٣.
دون أنريك الثاني دي تراستمارا ٣٨٤.
دون أنطونيو بيبس ٣٧٣.
دون بابلو دي أولابدي ٥١١.
دون البارو دي لونا ٢٤٠.

دون بيثنث دي لافونتي ٥٣٤.
دون بيدرو دي قرطبة ٦٢١، ٦٢٢.
دون بيدرو الرابع ٦٢٦.
دون بيدرو لونجاس ٣٢٧.
دون بيدرو مانريك ٢٢٢.
دون بيدرو نينيو ٣٢٠.
دون توماس لوبيث ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٨.
دون جارثيا ٤٥٩.
دون جونثالو ٥٠٨.
دون خاليان دي ريبيرا ٣٢٦.
دون خايمي ١٣٣، ١٣٤.
دون خايمي أولبير أسين ٣٤١.
دون خوان الثاني ١٥٥، ٢٤٠.
دون خوان ماتي ٥٥٤.
دون خوان مارتين ٥٥٤.
دون خوان مانويل ٣٤٢، ٣٨٩.
دون خوسي دي مدينا إي رامبور ٣٩٠.
دون خوليان ريبيرا ٣٣٠، ٤٦٦.
دون دومنجو بديع ٥٣١.
دون دومينجو باديا ٣٢٦.
دون رامون بونفاث ٥٧١.
دون رفائيل كونتريراس ٥٢٢.
دون رودريجو خيمينث دي رادا ٨٣، ٢١٦.
دون فرناندو ١٥٥، ٦٢٦، ٦٢٨.
دون لويس دي لاكويبا ٢٤٦.
دون كيخوت دي لامانشا (كتاب) ٤٥٣.
دون لويس سيرنوسكولو دي جوثمان ٢٢١.
دون مانؤيل جومث مورينو ٥٢٢، ٥٩٣، ٥٩٥.
دون ميجل أسين ٤٤٢.
دون ميجل لوكاس دي إيرانثو ٦٢٣.
دون نونيو جونثالث دي لارا ٢٣٢.
دونيا ٢٨٢.
دونيا إيزابيل ٦٢٩.
دونيا خوانا ٣٨٤، ٦١٨.
دونيا ماريا (الملكة) ٦١٧.
دوي ١٧٠، ١٧١.
ديانيوم ٤٤.
ديجو دي باليرا ٤٣٩.
ديجو فرناندس ٦٠٠.
دي دون خوان دي مدريد ٣٧٣.
دير أستجة ٥٩٧.
دير أنيا ٣٠٢.
دير برناردو دي بيدرا ٥٣٤.
دير تابانوس ٢٩٦.
دير الترانييداد ٢٨٧.
دير دي أبوستيناس كالثادس ٥٩٦.
دير ديلامادري دي ديوس ٥٩٦.

دير دي سان أنطونيو ٥٩٦.
دير الرهبان القديم ٢٤١.
دير رهبان كابوشيين ٣٩٥.
دير سان بارتولومي دي لابيجا ٣٨٤.
دير سان بدرو ٢٢٠.
دير سان بنيثو ٣٠٢.
دير سان بيدرو دي سيريا ٣٠١.
دير سان بيدرو دي كاردينيا ٣٤٣.
دير سان خوان دي لابنيا ٣٠٠.
دير سان خيرونيمو ٢٤١.
دير سان كليمنتي ٣١٥.
دير سانتا ايسابيل لا ريال ٥٩٥، ٥٩٦.
دير سانتا كالتالينا دي سينا ٦٠١.
دير سانتا كروث ٢٤٤، ٤٨٦.
دير سانتا كلارا ٦٠١.
دير سانتا ماريا دي لامرثيد ٣٤٦.
دير سيلوس ٣٠٧.
دير الشباب الرهبان ٢٣١.
دير كابوشينوس ٣٩٦.
دير كريستو دي لا بيجا ٣٨٤.
دير لاس منماس ٥٩٦.
دير لا كونثبثيون ٦٠١.
دير لا ماردي دي ديوس ٥٩٥.
دير المبشرين ٤٠٢.
الدير المحرم ٢٦٦.
دير النصر ٣٩٩.
دي ريو سيكو ٥٣٣.
دي ستروست دوران ٥٦٣.
دي فرانكوس ٥٥٣.
ديقو دي باليرا ٢٢٨.
دي لا فرونتيرا ١٦٥.
ديل بيلار ٣٠٠، ٣٠١.
ديل ريلوخ تنتو ٣٠٢.
ديلكامبو ٥٣٣.
دي لوس بيليث ٥٥٩.
دي ميجل لوكاس دي إرانثو ٢٤٠.
دييجو دي بالير ١٥٥.

## الـراء

رابلوم دينيا (مؤلف) ٢٨١.
رابيتا ١٩٠.
رابيدا ١٩٠.
الرازي (مـــــؤرخ) ٦٠، ٩٨، ١٢٠، ١٢١، ٢٠٩، ٢٥٠، ٣١٣، ٣١٨، ٤٩٣.
راساسو ٢٢٢.
راسموندو ٢٩٧.
رامون برنجر الرابع ٩٤، ٣٠٢.
راميرو الثاني ٩٦.
راميرو المونخي ٢٨٥.
رايموندو بيثنت ٣٨٩.
الرايوسة ٢٧٦، ٤٣٩.

ربات القادوس ٤٣٨ .
ربات القاضي ٤٣٨ .
رباك الحوميث ٤٨٣ .
الربال ٢٥٧ .
ربض ابن أشواي ٢٨٢ .
ربض أبي العاصي ٢٥٩، ٢٧٩ .
ربض أثياثي ٢٧٩ .
ربض أرانوك ٢٥٩ .
ربض أستجة ٣٠٦ .
ربض آسفي ٢٧٩ .
الربض الأعلى ٣١٧ .
ربض إكلسيس ٢٧٩ .
ربض إليورا ٢٨١ .
الربض الأوسط ٢٥٨ .
ربض باب البرص ٢٦١ .
ربض باب الرملة ٢٧٩ .
ربض باب الشقراء ٢٦٢ .
ربض باب المرضى ٢٦١، ٢٦٢ .
ربض باريس ٢٦٢، ٢٧٩ .
ربض بر البيت ٢٨٠ .
ربض البرج ٢٩٧ .
ربض البغايا ٢٨٢ .
ربض البلاط المجيد ٢٧١ .
ربض بلث ٣٢٠ .
ربض بن أهوار ٢٧٥ .
ربض البيازين ٢٦١، ٢٧١، ٢٧٨، ٣٣٤، ٣٩٦ .
ربض البيضاء ٢٧٩ .
ربض بينا هوار ٢٧٥ .
ربض تجار التين ٢٦١ .
ربض ترثيوس ٢٩٧ .
ربض التيانين ٢٦١، ٢٧٣ .
ربض التين ٢٧٣ .
ربض ثنهاشا ٢٧٧ .
ربض ثينيخا ٢٧٦ .
ربض الجب ٤٤٠ .
الربض الجديد ٢٦٢، ٢٧٨ .
الربض الجنوبي ٢٦١، ٢٧٠ .
ربض الحصن ٢٧٢ .
ربض الحلاقين ٢٥٨، ٢٦١ .
ربض الحوض ٢٦٢ .
الربض الخارجي ٣١٧ .
ربض الخندق ٢٥٩ .
ربض الدباغين ٢٦١، ٢٧٦ .
ربض الرايوسة ٢٧٦، ٣٠٣ .
ربض الرباط ٢٨١ .
ربض الرجاء ٢٧٨ .
ربض الرشاقة ٢٧٨، ٣٠٤ .
ربض الرصافة ٢٧٦، ٣٠٤، ٣٨٠ .
ربض الرقاقين ٢٥٧، ٢٩٧ .

ربض الروضة ٢١٠.
ربض زناتة ٢٦١.
ربض سان أجوستين ٢٨٠، ٣٨٩.
ربض سرحان ٢٤٩، ٢٧٨، ٣٨٩.
ربض السويقة ٤٤٣.
ربض سيناتشا ٤٨٣.
ربض شاطبة ٢٨١، ٤٩٣.
الربض الشرقي ٢٦١، ٢٨٤.
ربض الشرقية ٢٧٠.
ربض الشريعة ٢٦٢.
ربض شقندة ٢٧٠.
ربض صنهاجة ٢٦١، ٥٤٦.
ربض الطرازين ٢٦١، ٢٩٧.
ربض طليطلة ٣٨٣.
ربض عابث ٢٧٨.
ربض العقبة ٢٦٢.
الربض الغربي ٢٦٢، ٢٧١، ٢٨٠.
ربض الغمار ٢٦١.
ربض فحص اللوز ٢٦٢، ٢٧٩.
ربض الفخارين ١٣٤، ٢٧٩.
ربض فرانكوس ٢٥٨، ٢٦٦، ٤٤٨.
ربض فلاجيلاس ٢٦٩.
ربض فونتانالا ٢٧٣، ٢٧٤.
ربض الكانيثيا ٣٠٤، ٣٨٩.
ربض الكدية ٢٦٢.
ربض الكنيسة ٣٠٤.
ربض كولوبرس ٢٩٧.
ربض لورقة ٤٤٧.
ربض مارسويلا ٢٧٣.
ربض المستعربين ٢٩٩.
ربض المصلى ٢٧٧، ٣٣٢، ٣٩١.
ربض مقرانة ٢٧٠.
ربض المقيبرة ٢٨٠.
ربض المكارنة ٢٧٥.
ربض الملك ٢٥٩.
ربض موظفي حاشية الملك ٢٦١.
ربض الميناء ٢٨٠.
ربض النجد ٢٥٠، ٢٧٩، ٣٩٨.
ربض الندماء ٤٠٠.
الربضيون ٣٠٣.
الربوة ٢٦٢.
ربوة السبيكة ٢٤٣.
ربيع بن زيد ٢٩٧.
ربي يوسف ساباشاث ٥٧١.
الرثافا ٢١٠.
الرحـــاب ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٧٩، ٥٣٠، ٦٢٧.
رحالكا دي ٤٣٨.
رحات ٤٣٣.
رحبتكا دي ٤٣٨.

الرحبة ٤٣٣ ، ٤٣٦ .
رحبة ابن درهمين ٣٥٣، ٤٣٧ ، ٤٨٢ .
رحبة أبي العاصي ٤٣٨ .
رحبة أسبارتريا ٤٩١ .
رحبة باب البنود ٤٣٩ .
رحبة باب الرملة ٤٣٩، ٥٢٣، ٥٢٨، ٦٢٨، ٦٢٩ .
رحبة البيازين ٣٩٦، ٤٨٥ .
رحبة توبار ٥٦٣ .
الرحبة الجديدة ٤٩٠، ٥٢٣ .
رحبة الحطابين ٤٨٥، ٤٩٠ .
رحبة الخبز ٤٩٥، ٥١٢ .
رحبة رفينادورس ٤٩٥ .
رحبة السالبادور ٦١٩ .
رحبة سان خيل ٤٨٥ .
رحبة سان سالبادور ٤٩١ .
رحبة سان فرانسيسكو ٥١١ .
رحبة سانتا ماريا ٤٣٦، ٥٧١ .
رحبة سانتو توماس ٥٧٣ .
رحبة السوق ٥٣٤ .
رحبة الشوارع الأربعة ٤٤٩، ٤٩٣ .
الرحبة الطويلة ٤٨٥ .
رحبة عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية ٤٨٢ .
رحبة عزيزة ٣٥٣، ٤٣٧ ، ٤٨٢ .
رحبة فرن دينفليل ٤٣٨ .
رحبة القاضي ٣١٨، ٤٣٨ .
رحبة القبور ٤٣٨ .
رحبة قريش ٤٣٧ ، ٤٨٢ .
الرحبة الكبرى ٤٣٩ ، ٤٨٥ .
الرحبة الكبرى القشتالية ٤٦٧ .
الرحبة الكبيرة ٤٣٩ .
رحبة الكوريديرا ٤٦٩ .
رحبة لاس دسكالثاس ٥٦٣ .
رحبة الماجور ٤٣٩ .
رحبة المسجد الأعظم ٤٣٧ .
رحبة مسجد ذكري ٤٣٨ .
رحلات عبر غرناطة وضواحيها (كتاب) ٣٣٥.
الرحيبات ٥٢٤، ٥٣٦، ٦١٠ .
رحيبة البوكيرون ٤٨٦ .
رحيبة سانتا ماريا لابلانكا ٥٧٠ .
رحيبة الكلابو ٤٨٣ .
رحيبة لابيرونيك ٥٣٤ .
الرصافة ٢١٠، ٢١١، ٢٢٥، ٢٧٦، ٣٧١.
الرصافي ٢٢٦ .
الرصيف ٣٢٨، ٣٤٢.
رعية ديل ساجراريو ٥٥٧ .
رعية ديل سالبادور ٥٥٥ .

رعية سان أسيدرو ٥٥٥.
رعية سان ألدفونسو ٥٦٠.
رعية سان بابلو ٤٦٧.
رعية سان بيدرو ٥٣٣، ٥٥٥، ٥٦٠.
رعية سان رومان دي توليدو ٤٥٩.
رعية سان لورنثو ٤٤٢.
رعية سانتا كاتالينا ٥٥٥.
رعية سانتا ماريا ٣٠٢، ٤٥١، ٥٠٨.
رعية سانتا ماريا دي لا أو ٤٨٥.
رفادة ٨٠.
ركلة ٢٤٧.
الرملة ٣٤٢.
رملة الكورنيا ٢٢١.
الرميكية ٢٢٧.
رندة ١٤٩-١٥٢، ١٥٥، ١٨٣، ٢٨٢، ٣٥٢، ٣٥٥، ٤٢٦، ٥٤٣، ٥٤٧، ٥٥٧، ٥٧١، ٦٠٩.
رهبان الدومنيك ٣١٧.
الرهبان الفرنسيسكان ٣٨٧.
الروابط ٣٥٣.
روان (مدينة) ١٧١.
روبرت ريكارد ٤٦٧.
روتيروس ٣٨٧.
رودريجو ٣٣، ٩٢.
رودريجو كارو ٥١١.
الروض المعطار (كتاب) ٢٩، ١٢٩، ١٣٩، ٢١٢، ٣٠٧، ٣٣٢، ٣٩٢.
روضة ابن فرج ٢٤٨، ٣٨٩.
روضة الفقيه سعد بن مالك ٣٩٥.
الروضيات ٢٠٣.
روفينا ٢٩٧.
روما ٢١، ٤٤، ٥١، ١٨٠، ٢٣٥.
الرومانيون ٤٩٦.
الرياليخو ٢٧٩.
ريانيو ٢٦٨، ٤٣٨.
ريبالياس ٩٥.
ريبيرا (مؤلف) ٣٣١، ٣٨٨.
ريكاردو ٢٢.
ريكوبلس ٢٢، ٦٦، ٦٨.
ريكيلا ٤٥.
ريمادو دي بالاثيو (كتاب) ٤٥٦.
ريمس ٣٥، ١٧١.
رئيس الشرطة ٧٨.
ريـة ١٣٦.

## الـزاي

الزاهرة ٧٥-٧٨، ٨١، ١٠٠، ١٠١، ١٢٤، ٢١٣، ٢٧٥.
الزاوي ١٢٨.
زاوية اللجام ٢٤٠.
الزبير بن عمر الملثم ٢١٣.

الزجاجلة ٢٦١ .
زجاك ٥٤٦ .
الزجالي (قبيلة) ٢١٤ .
زقاق ابن عيسى ٤٩٢ .
زقاق أبي عمران ٤٨٣ .
زقاق بيل بيكم ٤٨٣ .
زقاق الحطاب ٤٨٥ ، ٥٨٢ .
زقاق ابن داحم ٣٨٠.
زقاق دحيم ٤٨١ .
زقاق الدرب ٥٥٤ .
زقاق زرعة ٤٨٢ .
زقاق الشابلار ٤٨١ .
زقاق شبلتاري ٤٨٢ .
زقاق الششتري ٤٨٤ .
زقاق القائد ٤٨٣ .
زقاق القويس ٥٧٢ .
الزقاق الكبير ٤٩٠ .
زقاق الكحل ٤٨١ ، ٤٨٥ .
زنقة الدرب ٥٥٤ .
زنقة القلنبيري ٤٨٥ .
زنقة الكحل ٤٨٥ .
الزهراء ٦٠ ، ٦٦-٦٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٦ ، ٢٧٥ .
زهير (حاكم) ٩٩ ، ١٢٦ .
زيران العامري ١٢٦ .
الزيريون ٢٣٩ ، ٣١٨ .

## السين

السباطات ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٦١٩-٦٢١ .
ساباط لاس بيالوناس ٥٧٠ .
ساحة الفحم ٢٦٧ .
ساقية الفخار ٢٤٢ .
ساقية المصارة ٣٤٦ .
الساقية الملكية ٢٣٧ .
ساكرومنتي ٢٤٦ .
سالا (الدوق) ٢٢ .
السالبادور ٤٤٧ ، ٤٩٨ .
سالتيس ٥٢ ، ٦٨ .
سامراء ٧٤ ، ٨٠ .
سان أثيسكلو ٢٩٧ .
سان أجوستين ٣٠٤ .
سان أسيدرو (مؤلف) ٢٢ ، ٤٤ .
سان أسديرو دي ليون ٩٢ .
سان إلدفونسو ٢٧٩ .
سان أندريس ٥٧٣ .
سان أوخينيو ٣٨٤ .
سان بابليو ٢٨٦ .
سان بارتولومي ٢٨٦ .
سان باليريو ٣٠٣ .
سان بيثنت الشهيد ٣٠٤ .
سان بيثنتي ٣١ ، ٣٠٧ .

سان بيدرو ٢٨٦، ٢٩٩، ٣١٨.
سان بيدرو الأخضر ٢٢٢.
سان توركواتو ٢٩٨.
سان توركاس ٢٩٨.
سان ثبريانو (كنيسة) ٢٩٦.
سان ثويلو ٢٩٧.
سان جريجوريو ٢٨٦.
سان خوان دي لارامبلا ٦٠١.
سان خوان دي لوس بانيتس ٤٠، ٤١.
سان خوان دي لوساريس ٢٨٦، ٢٨٧.
سان خورخي ٣٨٦.
سان خوستو ٦٥.
سان خيرونيمو ٢٨٦، ٣٦٠، ٣٩٦.
سان رومان ٣١٧.
سان سالبادور ٤٨٣.
سان سيباستيان ٢٩٨.
سان فرناندو ٣٩.
سان كريستوبال ١٨٢، ٢٧٧، ٢٨٦، ٣٦٠، ٤٠٣.
سان لاثارو ٢٧٦، ٣٣٤، ٣٩٦.
سان لوكار دي برميدا ١٠٢.
سان لوكاس ٢٩٨.
سان لويس ١٦٧.
سان مارتين ٢٩٧، ٥٥٣.
سان ميجل ٣٣٣.
سان أسكو لاستكا ٢٨٦.
سانتا أنا ٢٨٦.
سانتا أولاليا (كنيسة) ٢٩٦.
سانتا بر ٨٨.
سانتا خوستا ٢٩٨، ٣٨٣.
سانتا دومينجو ٤٠٢.
سانتا في ٨٣، ٣١٩.
سانتا فير ٦٣، ٦٤، ٦٧.
سانتا فيلا ٦٨.
سانتا كروث دي لا بالما ٦٠١.
سانتا ليوكاريا ٢٢٠، ٣١٧، ٣٨٥.
سانتا ماريا ٣٠٣، ٣٠٥، ٣١٥، ٤٤٠، ٥٥١، ٥٧١.
سانتا ماريا دي الغزي ١٣٠.
سانتا ماريا ديل أثوك ٤٦٦.
سانتا ماريا دي مدينة ٣٠٣.
سانتا ماريا القديمة ٣٠٣.
سانتا ماريا القديمة جداً ٣٠٣.
سانتا ماريا لابلانكا ٣١٥.
سانتا ماريا لامايور ٤٥٠.
سانتا ماريا مجدالينا ٢٦٧، ٥٣٢.
سانتشو الرابع ٢٨١.
سانتشو راميريث ٢١٧.
سانتندير ٥٨.
سانتو تومي ٣١٧.

سانتو دومينجو ٣٦٠، ٤٠٣ .
سانتوس جوميث ٤١ .
سانتياجو ٢٣١ .
سانتيوست ٦٥ .
سانشورا ميريث ٣٠٠.
سانشولو ٤٤١ .
ساهي بن مالك ٢٤٢ .
سبتة ٧٣، ٨٢، ٢٥٨، ٢٧٩، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٦٩، ٤٠٠، ٤٨٥، ٤٨٩، ٤٩٢، ٥٣٢، ٥٤٦، ٥٨٢.
سبتيميو سيبيرو ٤٣ .
سبرا إن ديو ٢٩٧ .
السبعة أقسام ٥١ .
السبيكة ٣٩٧، ٣٩٨، ٦٢١.
سبيكة قصر الحمراء ٣٣٣.
ستنيل ٤٠٠ .
سجلماسة ٧٣.
سد أسوميل ٢٢٠ .
سد البركة ٢٢٢ .
سد الجزيرة ٢٢٢ .
سد قصور جاليانا ٢٢٢ .
سدوم ٥٨ .
سر من رأى ٨٠.
سرتة ١٣٠ .
سرحان ٢٤٩، ٢٧٨.
سرقسطة ٢٤، ٣٨، ٤٠، ٥٣، ٨٤، ٨٨، ٨٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٠، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٨٣، ١٨٥، ١٩٥، ٢٢٤، ٢٤٧، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٦، ٢٨٥، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣١٥، ٣١٦، ٣٤٦، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٨٥، ٣٨٦، ٤٣٠، ٤٦٧، ٤٨١، ٤٨٣، ٤٩٤، ٥٠٨، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٤٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦٣، ٥٦٧، ٥٧٣، ٥٧٩، ٥٨٤، ٥٨٥، ٦١٧، ٦٣١، ٦٣٢.
سعد أبو الحجاج يوسف ٥١٤ .
سعيد بن المنذر ٩٦ .
السقطي ١١٣ .
السقيفة ٥٦٧، ٥٦٩ .
سكتان ٧٦-٧٨، ٩٧.
سلا ٧٣، ١٣٧، ٢٩٥.
السلافيون ٤٤١، ٤٦٤، ٦١١.
سلفادور ٢٧٩ .
سلمنقة ٤٣٠، ٤٦٦ .
سليمان بن الأسود ١١٤ .
السماسرة ٥٢٠ .
سنس (مدينة) ٣٩.
سهل الخيمة الملكية ٢١٠ .
سواسون (مدينة) ١٧١ .
سور أجريدا ٢٤ .

سور الربض ٢٢٠.
سور طريف ٢٦٢.
ســـورية ٥٥، ٥٨، ٨٤، ١٢٦، ١٣٠، ١٣٦، ٤٣٠، ٥٩١.
السوريون ٧٨.
سوسيانا ٤٨٤.
سوق الأربولاريوس ٤٤٧.
سوق الإسكافيين ٤٤٢.
سوف باعة الحصير ٤٤٢.
سوق بلاط مغيث ٤٤١.
سوق تجار الأقمشة ٥٠٩.
سوق ثكاثين ٤٨٥.
سوق الجزارين ٤٤٢.
سوق الخانة ٢٦٦.
سوق الخياطين ٤٤٢، ٥٠٩.
ســـــوق الدواب ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٧، ٤٤٢، ٤٧٠، ٤٧٩، ٤٨٤، ٥٣٢، ٥٥٣.
سوق الرقاعين ٤٨٥.
سوق السراجين ٤٤٠.
سوق السمك ٥٠٨.
سوق الصقالين ٤٤٢.
سوق الصيادين ٤٤٢.
سوق العبيد ٤٥١.
سوق العصر ٥٩١.
ســـوق العطـارين ٤٤٢، ٤٤٧-٤٤٩، ٥٠٩.
سوق العطر ٤٤٧.
سوق الفخارين ٤٤٢.
سوق الفروسية ٥٥٣.
سوق الكانا ٢٦٦.
سوق المعرض ٤٥١.
سوق المواشي ٤٧٩.
سوموسيرا ٦٥.
سونتيلا ٨٥.
سونسيكا ٦٢١.
سونليس ١٧١.
سويجليا باربا ٤٢.
السويف ٤٣-٤٥.
السويقات ٦٢٥.
الســويـقـة ٢٦٨، ٢٨٥، ٤٣٣، ٤٤٤، ٤٥٠-٤٥٢، ٤٩٠، ٥١٨، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٨.
سويقة أشبيلية ٤٨٣.
سويقة باب البلاط ٤٤٤.
سويقة الساقية ٤٤٤.
سويقة السقاطين ٥٢٣.
سويقة القومس ٤٤٣، ٤٨٢.
سويقة المسمار ٤٤٣.
سويكا ٤٤٤.
سوينتيلا ٢٢.
سيباستيا دي أوروثكو ٦٢١.

سيتيفيلا ٦١، ٦٦، ٦٨.
سيجوبريجا ٤٥.
السِّـــــيـــد ١٢٨، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٧٦، ٣٠٤، ٣٣٠، ٣٥٤، ٤٣١، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٨٠.
سيدونيا ٢٦٣، ٢٩٥.
سيدي حامد بنجالي (مؤلف) ٤٥٣.
سيربانتس ٢٢٢.
سيرفانتس (مؤلف) ٣٥١، ٤٢١، ٤٥٣.
سيكانو ١٥٠.
سيكو دي لوثينا ٣٩٨، ٣٩٩.
سيكولو ٤٣٥.
سيمانكس ٥٢٣.
سيمون العطار ٤٤٨.

**الشين**

الشابلار ٤٨١.
الشابيت ٢٧٩.
شارع أبادس ٤٩١.
شارع الأبراج ٤٨٥.
شارع أبناماس ٤٨٥.
شارع ابن باربا ٤٨٣.
شارع ابن جحاف ٤٨٠.
شارع ابن عمر ٤٨٥.
شارع ابن لاباش ٤٨٥.
شارع أبي خالد ٤٨٣.
شارع الأبيلانس ٢٨٥.
شارع الأتارس ٤٤٧.
شارع الاثني عشر لفة ٥٧١.
شارع أراندس ٢٨٦.
شارع أرجوتا دي مولينا ٤٢٩.
شارع إستريبو ٥٢٥.
شارع أسكوباس ٥١١.
شارع الأقمشة ٥٢٧.
شارع الأكساريع ٣٣١.
شارع الأكسيدريا ٣٣٥.
شارع إلبيرة ٢٥٩، ٢٧٩، ٤٧٩، ٤٨٦، ٤٩٥.
شارع ألوندجا ٤٩١.
شارع الأمير دي مولينا ٥٥٦.
شارع أنجيل ٣١٥.
شارع أنسلا ديروس ٤٩٥.
شارع باعة المعاطف ٥٢٨.
شارع باعة الكتان ٥٢٨.
شارع باتيوخاس ٥١١.
شارع بايونا ٥٧١.
شارع بلاثنتس ٤٢٩.
شارع بلاثينتينوس ٤٩١.
شارع بواتيا ٥٨٥.
شارع البيطلة ٦١٧.
شارع تراسبولسو ٤٩٥.

شارع تليكا ٥٥٨.
شارع التينت ٥٢٩.
شارع ثباتريا ٤٩٠.
شارع ثيبرس ٥١٣.
شارع جارثيا لوبيرا ٤١.
شارع جامعي الخرق ٥٢٨.
شارع الجزارين ٤٥١، ٤٥٥، ٤٨٠، ٤٨٢.
شارع جنوة ٥٠٩، ٥١١.
شارع جوميرس ٢٨٦، ٢٨٧.
شارع جوندومار ٤٩٠.
شارع حامد مينا ليمان ٥٢٨.
شارع الحطاب ٤٨٥.
شارع الحطابين ٤٨٠.
شارع خليس مينا ليمان ٤٨٦، ٥٢٥.
شارع الخياطين ٤٥٠، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨٤، ٥٠٩، ٥١١.
شارع خيسوس ٤٨٩.
شارع خيليش ٤٤٩، ٤٨٦.
شارع دار بالكاتا ٤٨٥.
شارع دان ألبوا ٤٨٣.
شارع الدباغين ٤٨٥.
شارع الدرب ٥٥٤.
شارع دويندي ٥٥٧.
شارع ديسنجانيو ٣٨٦.
شارع دي فرانكوس ٥٧١.
شارع دي لاباث ٤٠.
شارع راوثابة ٤٨٤.
شارع الرلوخ بييخو ٤٠.
شارع ريال ٤٩١، ٥٢٧.
شارع ريال المدينة ٤٩٢.
الشارع الرئيس ٤٨٠، ٤٩٢.
شارع الساباط ٥٦٩.
شارع سالادا ٥٧١.
شارع سان بيثنت ٩٣، ٣٨٨.
شارع سان خيل ٤٨٠.
شارع سان فرانسيسكو ٤٩٠.
شارع سان ماتياس ٤٨٥.
شارع سان ماركوس ٤٩١.
شارع سان نيسنت ٤٨٠.
شارع سانتا أسكولاستكا ٤٩٠.
شارع سانتا أنا ٥٦٠، ٥٦١.
شارع سانتا مارينا ٤٩١، ٥٠٠.
شارع سانتو تومي ٥٧٩.
شارع سانتو دومينجو ٤٨٦.
شارع سانتياجو ٢٣٩، ٤٩٠، ٥٦١.
شارع سبع الليات ٤٩٨.
شارع سرانوس ٤٠.
شارع السقاطين ٢٦٦، ٤٨٠.
شارع السقاية ٤٨٦.

شارع سقاية الحبة ٤٨١، ٤٨٥ .
شارع السوق ٤٦٧، ٤٨١ .
شارع السويقة ٥٢٥ .
شارع سيرانوس ٥٨٥، ٦١٧ .
شارع الشبين ٤٨٥ .
شارع الشنترة ٤٨٥ .
شارع الشنشكايرين ٤٨٦، ٥٢٨ .
شارع الصباغين ٥٥١ .
شارع الصرافة والقرض ٥٢٧ .
شارع الصبغ ٤٨٥، ٥٢٣ .
شارع عائلة ابن غناشب ٤٨٠ .
شارع العطارين ٣٨٧، ٤٤٧-٤٤٩، ٤٨٠، ٤٨٣، ٤٨٦، ٤٩٥، ٥١٢، ٥٢٥ .
شارع عون بن بحار ٤٨٤ .
شارع فالنثويلا ٣٩ .
شارع فرانكوس ٤٩١، ٥١١، ٦٢٠ .
شارع فراي لويس دي غرناطة ٤١ .
شارع الفندق ٢٦٨ .
الشارع القديم ٥٧١ .
شارع القصبة ٣٣٤ .
شارع القماش القديم ٤٥٠ .
شارع القوس ٥١٤ .
شارع القويس ٥٧٢، ٥٧٣ .
شارع القويسات ٥٧١ .
شارع كاباليروس ٤٤٢ .
شارع الكاردينال جونثالث ٥٠٨ .
شارع كاساباالما ٥٧١ .
شارع كبوشينوس ٣٩٦ .
الشارع الكبير ٤٩١ .
شارع الكحل ٤٨٥ .
شارع كروث كوندي ٤١ .
شارع كولوميرانو ٤٨٥ .
شارع كوميدياس ٢٣٦ .
شارع كونثبثيون ٤٩٠ .
شارع لاريوس ٤٩٨ .
شارع لاس برخنس ٥٦١ .
شارع لاس ترانكاس ٥٣٤ .
شارع لاس دو نثيلياس ٤٩٥ .
شارع لاس كابوشيناس ٢٨٧ .
شارع لاس كابيثاس ٥٧٣ .
شارع لاس مرابياس ٥٧٠ .
شارع لافريا ٦١٩ .
شارع لاكروث نويفا ٤٠ .
شارع لاكولشا ٤٩٠ .
شارع لاكومبانيا ٥٧٠ .
شارع لاكونجرجاثيون ٤٩٣ .
شارع لوس ريالخوس ٤٩٠ .
شارع لوس مارتيرس ٥٧٠ .
شارع لويس لا ميريث ٤١ .
شارع الماثينس ٥١٣ .

شارع المبطلة ٤٨٢ .
شارع المجازر ٥١٢ .
شارع المجرانا ٤٨٢ .
شارع مركادرس ٥٧١ .
شارع المصارة ٣٤٦ .
شارع المصلى ٣٣٠ .
شارع المغامرين ٤٨٣ .
الشارع الملكي ٢٦٢ .
شارع المنجرة الكبرى ٢٣٨ .
شارع موسى القاري ٤٨٤ .
الشارع النبيل ٤٩٢ .
شارع النجارين ٥١٣ .
شارع نرانخو ٥١٤ .
شارع النشارين ٤٨٢ .
شارع هنتار ٤٨٤ .
شارع يميوس ٥٥٧ .
شارنتا (رحالة) ٣٤٧ .
شاطبة ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٤٨ ، ٢٨١ ، ٣٠٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٤٩٣ ، ٥٣٣ .
شالينكاس ٩٦ .
الشام ٢١٠ .
شانترين ٢٨١ .
الشانزليزيه ٢٣٦ .
شبلار ٤٨٢ .
الشرف ١٠٢ ، ٢٢٧ .
الشرقية ١٢٩ .
شريش ١٥٨ ، ١٦٥ ، ٢٤٨ ، ٥٣٥ .
الشريعة ١٩١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٥٥ ، ٤٧٩ ، ٦٢٣ .
شريعة بلنسية ٣٣١ .
شريعة البيازين ٣٣٤ .
الششتري (شاعر) ٤٨٤ .
الشعوب البربرية ٤٤٤ .
شقندة ٢٧٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
الشقندي ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ .
شقة ٢٦٢ .
شقوبية ٥٥ ، ١٨٠ ، ٣٤٦ ، ٤٦٧ .
شقورة ٣٧٤ .
شلب ١٨٥ ، ٢٤٧ ، ٢٨٢ ، ٤٤٠ .
شلبترة ٢٨٠ .
شلبتيارة ٢٨٠ .
شلطيش ٥٢ ، ٦٨ ، ١٩١ ، ٢٨٠ ، ٤٣٤ .
الشماسة ٥٨٩ .
شنت أشتبين ١٨٤ .
شنتبرية ٦٣ ، ٦٨ ، ٨٨ .
شنتجالة ١٣٠ .
شنترين ٢٤٧ .
شنتمرية ١٧٨ ، ٥٩٨ .
الشوارع الأربعة ٤٥٤ ، ٥٣٣ .

شوارع آرينال ٩٣.
شوارع شيقوبيا ٩٣.
شيلا ٣٦٩.

**الصـــاد**

صاحب السوق ١١١، ١١٣.
صالح بن سيد ١٠٢.
صاموئيل بن نجر الله ٣١٩.
الصحن ٥٥٩، ٥٦٢.
صحن أثوفيفو ٥٦٠.
صحن إثيبريس ٥٦٠.
صحن ألفافا ٥٦٠.
صحن أوركادو ٥٦٠.
صحن إينديوس ٥٦٠.
صحن بابا ٥٦١.
صحن بوخاش ٥٦٣.
صحن بويو ٥٦٣.
صحن تراثانا ٥٦٠.
صحن ترومبيروس ٥٦١.
صحن دوس بورتاس ٥٦٠.
صحن دون خوان ٥٦٠.
صحن دي إسكريث ٥٦٠.
صحن دي ستروش دوران ٥٦٣.
صحن دي لا بارا ٥٦٠.
صحن دي لارينا ٥٦٠.
صحن ديل البرال ٥٦٠.
صحن ديل ريي ٥٦٠.
صحن الكابوس ٥٦٠.
صحن كارتايا ٥٦٠.
صحن كالدريروس ٥٦٠.
صحن الكوندي ٥٦١.
صحن لارجو ٥٦٠.
صحن لوس أليروس ٥٦١.
صحن لوس بيليثروس ٥٦٣.
صحن موسى بهانين ٥٦٣.
صحن نرانخ ٥٦٠.
الصحون ٥٥٩، ٥٦٢.
صقلية ٣٠٥، ٣٦٩.
صليب الروضة ٣٩٧.
صنهاجـة ٢٧٧، ٤٨٣، ٥٤٦، ٥٥٦، ٥٦٣.
الصوفيون ١٩٠.
الصين ١٣٦، ٢٣٢.

**الضاد**

ضاحية البيازين ٤٥٥.
ضاحية الحديقة ٢١٠.
ضاحية الحوض ١٢٦.
ضاحية السويقة ١٥٢.
ضاحية القصبة ١٥٢، ٥٦٩.
ضاحية الملك ٥٣٢.
الضبي (مؤلف) ٣٧٦، ٥٤٤.

الضيعات ٢٠٧.
ضيعة المارترس ٢٣٧.

**الطـــاء**

طارق بن زياد ٣٣، ٤٠١.
طارق بن نصير ٩٨.
طبلة السبيكة ٦٢٣.
طرابلس ٧٣.
طرسونة ٨٩، ٣٠٢.
طرطوشة ١٢١، ٢٨٠، ٣٠٣، ٣٢٩.
طركونة ٣٣، ٤٤، ٣١٣.
طرويل ٥٥، ٥٣٣.
طريانة ١٤٧، ٢٧٥، ٣٠٦، ٥٥٩، ٥٦١.
طريف ١٣٠، ١٨٧، ٢٨١.
طريق ابن شبيب ٤٨٤.
طريق حازم ٤٨٤.
طريق دابنسير ٤٨٤.
طريق سانتيا ذي المنحنيات السبعة ٤٩٨.
طريق العطار ٤٨٤.
طريق الكتاب ٤٨٤.
الطقوس الرومانية ٢٩٩.
الطقوس القوطية ٢٩٨.
طلبيرة ١٣٠، ١٨٥، ٢٨٤، ٢٩٥.
طلمنكة ٦٥، ٧٦، ٧٧، ٩٢، ٩٣.
طلياطة ٦٤، ٦٧، ١٣٢.
طليطلة ١٨، ٢٢، ٢٦، ٦٣، ٦٥، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ١٠٠، ١٠٢، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٥٨، ١٦٤-١٦٦، ١٧٨، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٩٥، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣١٣-٣١٦، ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٢، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٩١، ٤٠١، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦٩، ٤٧٩، ٤٨٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠١، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٦، ٥٥٩، ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٢، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٧، ٥٩٤، ٥٩٥، ٦١٦، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٦.
طود الشهداء ٢٤٠.
طود الهبول ٢٤٠.
طوق الحمامة (كتاب) ٥٧.

**العـــين**

عاصم بن خلف التجيبي ٣٥٤.
عامر (قائد عسكري) ٨٦.
عامر بن عمرو القرشي ٣٨٠.

عبّادة العرب (مدينة) ٩١.
عبدالباسط بن خليل بن شاهين الملطي ١٣٩، ٢٣٣.
عبدالرحمن الأول ٣١، ٧٧، ٨٥، ٨٧، ١١٤، ١٢٠، ٢١٠، ٣٢٨، ٤٨٢، ٥٤٤.
عبدالرحمن الثالث ٦٦، ٦٩، ٧٤، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٨٤، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢٩٧، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٧٩، ٤٨٢، ٦١٣.
عبدالرحمن الثاني ٧٧، ٩٠، ٩١، ٢١٢، ٣٥٦، ٣٧٩، ٣٨١، ٤٨٢.
عبدالرحمن بن الحكم ٤٨٢.
عبدالرحمن بن عبدالعزيز التجيبي ٨٣.
عبدالرحمن بن محمد ٣٨٩.
عبدالرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن علي بن وافد بن محمد اللخمي ٢١٥.
عبدالرحمن بن مروان ٩٤، ٩٥.
عبدالعزيز بن موسى بن نصير ٨٣، ٢٣٠.
عبدالله بن أبي بكر القضاعي ٣٨٧.
عبدالله (الأمير) ٨٧، ٩٥، ١٢٨، ٢١١، ٢١٢، ٢٧٢، ٣١٨، ٣٤٢.
عبدالله بن عباد ٣٨٤.
عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية ٤٨٢.
عبدالله بن محمد ٢١٢.
عبدالله بن محمد بن عبدالله الجدلي ٣٩١.
عبدالمؤمن الموحدي ٧٧، ٧٨، ٨٢، ١٠١، ٢٩٥.
عبدالواحد الموحدي ٢٣٩.
عبيدالله بن يحيى ٢١٢.
عبيدة (مدينة) ١٥٧.
العراق ٧٣، ١٣٠، ١٣٦، ٤٣٠.
عرب الشرق ٤٦٤.
عُريت (مدينة) ٨٥.
العريف ١١٠، ١١١.
العصر البيزنطي ٣٠.
العصر القوطي ٣٢، ٢٣٠.
العصر الكارولنجي ١٦٧.
العقاب ٦٩، ٨٧، ١٣٢.
عقبة البقر ٣٩٥.
علم أصول الكلام (كتاب) ٢٢.
علم التسلسل التاريخي (كتاب) ١٥٥.
علي بك العباسي ٣٢٦.
علي بن أبي جعفر بن هامشك ٣٧٤.
علي بن أحمد ٢٢٥.
علي بن رباح اللخمي ٨٥، ٣٨٥.
علي بن عبدالرحمن بن معمر المذحجي ٤٠٠.

علي بن يوسف ١٢٩، ٢١٧، ٢٩٥.
عمر أبو ناجية ٤٨٣.
عمر بن حازم ٤٨٤.
عمر بن حفصون ٦٣، ١٨٤، ٢٩٤.
عمر (بن الخطاب) ٧١.
عمر بن شرى ٤٨٤.
عمر بن عبدالعزيز ٣٧٩.
عمروس ٨٨.
العمري (مؤلف) ١٣٨، ٢٣٢، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٧١، ٢٧٨، ٣٣٢، ٣٤٧، ٤٤٨.
العهد المرابطي ٣١٣.
عيد الأثيرس ٢٠٧.
عيد سان ميجل ٣٤٨.
عيد اليرثس ٢٠٧.
عيسى (عليه السلام) ٣٥٨.
عين الدمع ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٦.
عيون الثور ٢٢٧.
عيون جارة الريحان ٢٨٦.

**الغين**

غاليا ٣٦، ٤٣.
غاليانا ٢١٩.
الغالية الرومانية ٣٦، ٣٧.
غرناطة ٢٦، ٣٩، ٥٨، ٦٢، ٦٤، ٧٤، ٨١، ٨٣، ٨٧، ٨٨، ٩١، ١٠٢، ١٠٤، ١٢٥، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٣، ١٨١، ١٨٧، ١٩٠، ٢٠٥-٢٠٨، ٢٢٧، ٢٣١-٢٤٦، ٢٥٩-٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠-٢٧٣، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٦، ٣١٣، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٧٢-٣٧٤، ٣٧٧، ٣٨٩، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٢، ٤٢٩، ٤٣٥-٤٣٩، ٤٤٣، ٤٤٨، ٤٥٠-٤٥٤، ٤٥٩، ٤٦٩، ٤٧٩، ٥٦٩، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٨٤، ٥٩٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٩، ٦١٩، ٦٢١-٦٢٣، ٦٢٦-٦٢٩.
غرناطة (كتاب) ٥٠٥، ٥٧٧.
غوطة طليطلة ٢٢٣.
غوطة غرناطة ٢٣٤.

**الفاء**

فابر ٣٦٦.
فادميكم ١١٢.
فارو ٥٩٨.
فاس ٧١، ٧٤، ٧٥، ٧٩، ١١٤، ٣٢٦، ٣٤١، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٦٩، ٣٧٦، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥١٤، ٥٣٠، ٥٣١.
الفاطميون ١٢٢.

فالد خوديوس ٩٢ .
الفامين ٦٨ .
فاوست يانوريو ٢٩٧ .
الفتح بن خاقان ٢١٤، ٢١٦ .
الفتح بن موسى بن ذي النون ٨٨ .
فحص الرحى ٢١٤ .
فحص السرادق ٢١٠ .
فحص السرّاق ٢١٤ .
فحص السيد ٢١٤ .
فحص اللوز ٢٤١، ٢٤٦، ٢٦٢، ٢٧٩ .
فخر الدولة بن المعتمد ٥٨١ .
فدان ابن المارس ٣٨٢ .
فدان عصام ٢٣٣ .
فرانسيسكو دي بيسا ٥٣٣ .
فرانثيسكو كوديرا ١٢٩ .
فراي ارناندو دي تلابيرا ٦٢٧ .
فرسان السيد ٢٢٤ .
فرن ابن جامع ٥٤٦ .
فرن ابن نوليز ٣١٨ .
فرن الشريعة ٣٣٤ .
فرنان بيريث دي قوثمان ١٥٥ .
فرناندو ١٣٦، ٦٢٨ .
فرناندو الأول ١٣٣، ٥٧٢ .
فرناندو الثالث ٨٢، ١٠٣، ٢١٤، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٧٥، ٢٨١، ٣١٥، ٣١٨، ٣٨٩، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٤٥، ٤٤٨، ٥٠٩، ٥٥٥، ٥٧١ .
فرناندو الثاني ٤٦٦ .
فرناندو دي أرجون ١٣٥ .
فرناندو ديل بولقار ٢٣٠ .
فرناندو الرابع ٥٥٤ .
فرناندو الكاثوليكي ٢٧٣ .
فرناندو (الملك) ٣١٩ .
فرنانديث كاسامايور ٥٥١ .
الفرنج ٤٣، ٤٤، ٨٩، ٦١١ .
فرنسا ١٦٧، ١٧٢، ٣٦٦، ٥١٠ .
الفرنك ٤٦٤ .
فرياس ٥٥ .
فريش ١٢٢ .
الفسطاط ٣٤، ٥٤٢ .
الفضل بن كامل ٤٨٢، ٥٤٤ .
الفكار ٣٩٥ .
الفلامان ١٦٩ .
فلاندر ٥١٠ .
فلاندس ١٧٢ .
فلورنتينو إليبرتانو ٣٩ .
فلورنسا ١٦٧، ١٦٩، ١٧٢، ٢٠٦، ٢٣٥ .
فناء الفحم ٥٢٤، ٥٢٧، ٥٧٨ .
فندق برجونيا ٦٢٦ .

فندق الجنوبيين ٢٦٨ .
الفندق الجديد ٥٢٤ .
فندق زائدة ٢٦٨ .
فندق ساحة الفحم ٢٦٨ .
فندق متاجر العطارين ٤٤٩ .
الفهميون ٦١، ٦٨ .
فوبيا ٢٨٢ .
فورتبنتورا ٦٠٠ .
فورو ٤٣٨ .
الفوساتو ٣٨٨.
فونساريو ٣٣٥.
فونساليدا (الكونت) ٥٥٣ .
فيتسا (القس) ٢٨٤ .
الفيجا ٣٥٢.
فيكتور ياكم ٢٢ .
فيكولني ٤٣٨ .
فيليب الجميل (الملك) ٥١٨ .
فيلبي الثاني ٢٠٢، ٢٢١، ٤٤٥ .
فيليث مالقة ١٥٠، ١٥١ .
فيلينا ١١٩ .
فينيسيا ١٦٧، ١٦٩، ١٧٢، ٢٣٥، ٢٤٤، ٥٨٠ .
فيينا ٣٦.


## القاف

القادر (ملك بلنسية) ١٢٨ .
قادش ١٥٦، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ٣٧٠، ٤٠٠، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٩، ٥٣٣، ٥٦٨، ٥٧٤، ٥٩٢، ٦١٦.
قاسم بن الرياحي ٢١٤.
القانون العربي ٢٩٩ .
القانون القشتالي ٣٤٤.
القاهرة ١١٤، ١٦٦، ٣٦٥، ٥٨٥، ٥٩١، ٥٩٣ .
قايتباي (السلطان) ٥٩٢ .
قبة الشريعة ٣٣٤.
قبيلة الصنهاجة ٢٧٧ .
قداح بن سحنون ٢٣٣ .
قدس الأقداس ٢٦٧ .
القربان المقدس ٣٣٦.
قرطاجنة ٤٤، ٤٥، ٦٨ .
القرطاجني (شاعر) ٢٧٨.
القرطاس (كتاب) ٨٤، ١٢٩، ١٣٠، ٢١٧.
قرطبة ٢١، ٢٧-٣٤، ٤١، ٦٠، ٨٠، ٨١، ٨٥-٨٧، ٩٦-٩٨، ١١٢، ١١٩-١٢٦، ١٢٨، ١٣٠-١٣٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢-٢١٤، ٢٣٢، ٢٥٧، ٢٦٠-٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩-٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣١٣، ٣١٥، ٣٢٧-٣٢٩، ٣٤١-٣٤٣، ٣٥١-

٣٥٧، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٧٤-٣٨٣، ٤١٩، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٥-٤٣٧، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٦، ٤٤٩-٤٥١، ٤٦٩، ٤٧٩-٤٨٢، ٤٨٩، ٤٩٣، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠٦، ٥٤٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٦٢، ٥٦٩، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٨٤، ٥٩٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٩، ٦١٩، ٦٢١، ٦٢٢.
قرمونة ٢٤، ٢٥، ٤٣، ١٣٠، ٣٨٣، ٤٩٨.
قرية الفخار ٢٣٦.
قرية الكانيثيا ٣٠٤.
القزمانيون ٢١٩.
القزويني (جغرافي) ٤٩٩.
قسطلونة ٦٨، ١٨١.
القسطنطينية ١١٩، ١٦٦، ٣٧١.
قسطيليا ٨٨.
قشتالة ١٨، ٦٥، ٩٠، ٩٨، ١٠٤، ١٣٣، ١٣٤، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٥٩، ٢٩٥، ٣١٩، ٣٤٤، ٣٤٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٥٨٩، ٦٠٣، ٦٢٤.
القشتاليون ٢٠٧، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٤٠.
القصائد الشعبية (كتاب) ١٨٥.
القصبة ١٥٣، ١٥٤، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٨٠، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٦٠، ٤٣١.
قصبة الحمراء ١٥٠.
القصبة القديمة ٢٣٢، ٢٨٧.
القصر ١٣٠، ٢١١، ٢٦٤.
قصر أشبيلية ٤٢٩.
قصر أليورا ١٣٥.
قصر البديع ٢١٣.
قصر البستان ٢١٣.
قصر التاج ٢١٣.
قصر جاليانا ٢٢٣.
قصر جنة العريف ٢٤٦.
قصر جوبالا ٢٢٥.
قصر الحائر ٢١٣.
قصر الحبار ١٣٥.
قصر الحكم ٣٠١.
قصر الحمراء ١٣٦، ١٤٩، ١٨٢، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٦١، ٢٨٦، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٥٣، ٣٦١، ٣٦٧، ٣٩٣، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٣، ٤٢٩، ٥٢١، ٥٩٠، ٥٩٣، ٥٩٤، ٦٢٣.
قصر الخنيل ٢٤٠، ٢٤٤.
قصر دمشق ٢١٣.
قصر الرستاق ٢١٣.
قصر الرصافة ٢١٠.
قصر روتا ٣١٣.
قصر رودا دي خالون ٣١٣.
قصر رودريج ٣٣.

قصر الروضة ٢١٣.
قصر الزهور ٢١٣.
قصر السدة ٣٠١.
قصر السرور ٢١٣.
قصر السيد ١٩٠.
قصر الفارسي ٢١٤.
قصر فريو ١٣٥.
قصر القصبة ١٢٨.
قصر كامبريلز ١٣٥.
قصر كوندي دي ألتاميرا ٥٧٠.
قصر المبارك ٢١٣، ٢٨٤.
قصر مرج الخور ٢١٤.
قصر المطران ٥٢٣.
قصر المعشوق ٢١٣.
قصر موكلين ١٣٥.
قصر مونتي ١٣٥.
قصور البحيرة ٢٢٧.
قصور دون نونيو ٢٣٢.
قصيدة المقصورة ٢٧٨.
القصيفة ٢٨٢.
قطلونية ١٣٧، ٢٧٧، ٤٦٨.
القلائد (كتاب) ٢١٣.
قلسانة ٦٠، ٦٧، ٦٨، ١٣٠، ١٨٠.
قلعة ابن زيد ٢٨١.
قلعة أيوب ٧٦، ٧٧، ٨٣، ٨٤، ١٨٢، ١٨٣، ٣٠٢، ٥٣٤.
قلعة باب الطوابين ١٣٩.
قلعة بني حماد ٣٦٩.
القلعة الحرة ٢٥، ١٠٢، ٢٤٢.
قلعة الخليفة ٦٠، ٦١، ٦٥، ٦٨.
قلعة دي هينارس ٣٤٤، ٣٤٥.
قلعة رباح ٦١، ٦٤-٦٩، ٧٦، ٧٧، ٨٤-٨٦، ٢٠٨، ٣١٧.
قلعة عبدالسلام ٦١، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ١٧٨.
قلعة قيطاجة ٢٨١.
القلعة المحصنة ٨٨.
قلعة المشرف ١٠٢.
قلعة هنارس ٦٥، ٥٥٦، ٥٥٩.
القليعة ١٨٤.
قناة عامر ٧٦-٧٨، ٨٦.
القنطرة ٧٩.
القنطرة الجديدة ٥٢٤.
القنيطرة ٤٦٠.
القوثيفة ٢٨٢.
قوس الأوزان ٣٩٦.
قوس ثنيخيو ٢٧٧.
قوس السويقة ٥٧٠.
قوسمي (القديس) ٢٨٣.
القوطيون ٢٨، ٦٧، ٤٩٦.

قـونكة ٥٥، ٥٨، ١٣٠، ٢٧٠، ٥٣٣، ٥٨٢، ٥٨٥، ٥٨٦.
القويس ٥٧٢.
قويس أتوتشا ٥٧٣.
قويس الحرير ٤٥٠.
قويس دار السكة ٥٧٣.
قويس دي لابلاتا ٥٧٣.
قويس سان كلمنتي ٥٧٣.
قويس سان مارتين ٥٧٣.
قويس شامبينيروس ٥٧٣.
قويس كلاريبوت ٥٧٣.
قويس كونتراتاثيون ٥٧٣
قويس لاس رويلاس ٥٧٣..
قويس مادري دي ريوس ٥٧٣.
قويس المسنين ٥٧٣.
القـويسـات ٥٧٠، ٥٧٢-٥٧٤، ٦٠٩، ٦١٦، ٦١٧، ٦٢٠.
القياصر ٥٠٥.
قيد منازل مدينة رندة ٥٤٣.
القيروان ٧٣، ٨١، ٢١٠.
القيصريات ١٣٢، ٤٥٧، ٥٠٧، ٥١٨، ٥٣٠، ٥٣٣، ٥٣٥، ٥٣٦.
القـيصـرية ١٤٨، ١٩٨، ٢٥٧، ٢٦٣، ٢٦٥-٢٦٧، ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٣٤، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٨٠، ٥٠٥-٥١٢، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٩-٥٢٨، ٥٣٠-٥٣٥، ٦٠٩، ٦٢٥.
قيصرية الحرير ٥١١، ٥١٢.
قيصرية السقاطين ٢٦٦.
قيصرية العطارين ٥١٢.
قيصرية الفخار ٥١٢.
قيطاجة ٢٦١.
قيلس ٢٧٠.

**الكـــاف**

الكابيلدو ٢٦٧.
كاتالونيا ٣٦٦، ٣٩٤.
كاتدرائية خاكا ٣٠٠.
كاتدرائية سان بيدرو ٤٥٤.
كاتي ٥٦٩.
كاثلونا ٦٣، ٦٧.
كاديار ٢٨٧.
الكاراروننس ٥٥٨.
كاراكويل ٦٥.
كاربتيانيا ٤٥.
كارتاجو ٤٤.
كارتاخينا ٣٦٧، ٣٨٩.
كارتيا ٤٣، ٦٢-٦٤.
كارلوس الثالث ٢٢٣، ٤٩٧.
كارلوس الخامس ١٥٠، ٥١٨، ٥٩٩.
كاروباروخا ٢٥.

كارياثو ١٥٢ .
كاريرا ديل الخينيل ١٣٩ .
كاريرا ديل دارو ٤٥٩ .
كاساس ديثا ٤١ .
كاستخون (مؤلف) ٤٧٩ .
كاسترو (منطقة) ٣٨٩.
كاسترو خريث ٥٥ .
كاستولو ٤٥، ٥٩، ٦٤، ٦٧.
كاستيخون ٣١.
كاستيلاز ٣٤٦.
كاستيليون ٣٦٧.
كاستيون ١٨٦ .
الكاسيرا ٥٦٣ .
كالاتاليفا ٦٠، ٦٨.
كالاتايود ٨٣.
كالاترابا ٣١٧.
كالاجورس خوليا ٢٥ .
كالانس ٦١، ٦٥، ٦٨.
كالديرون ٣٩٩.
كامبريلز ١٣٥ .
كامبو دي لابرداد ٣٧٩ .
الكانا (حي) ١٩٨ .
الكاوديت ٤٤٠ .
الكايثريا ٥٠٥ .
كايساريا ٥٠٦ .
الكتاب الأول للتسلسل التاريخي ٢٢٤ .
كتالونا ٦١١ .
الكتب التاريخية القتشالية ٨٣ .
الكدية ٢٦، ٢٧٦ .
الكرالات ٣١٤.
الكربوس ٢٩ .
الكرزة ١٩٤ .
كرم المصارة ٣٤٣.
الكرونيكون ٤٥ .
كريستوبال كوندي ٣٣٥.
كريستو دي لابيجا ٣٨٤، ٣٨٥.
كريستو ديه لاس أجواس ٥٩٤ .
كريستو ستومو ٣٥١.
كريستيبا (كاتب) ٤٦٨ .
كلاترابا ٨٤.
الكلا دي جواديرا ٢٢٧ .
الكلا دي هيناريس ٦٥ .
كلونية ٢٤، ٣٥، ٣٧، ٥٨ .
كلية سانتا كروث ٤٨١ .
كلية سانتو دومينجو ٤٨١ .
كنيسة الأرجاكا ٣٠٥ .
كنيسة الأسرى ٢٩٧ .
كنيسة البرانية ٣٠٣.
كنيسة جبل أصفهان ٣١٧.
كنيسة الحرقى ٢٩٧.

كنيسة خوان دي لوس ريس ٢٨٦.
كنيسة داميان ٢٩٧.
كنيسة ديل تيمبلي ٣٦٧.
كنيسة ديل سالبادور ٤٤٧.
كنيسة الساجراريو ٢٦٧.
كنيسة سالبادور ٤٨١.
كنيسة سان أندريس ٢٨٤، ٢٩٧، ٣٧٠.
كنيسة سان أنطون ٣٨٥.
كنيسة سان بيدرو ٢٩٩.
كنيسة سان ثيبريان ٢٨٥، ٣٠٠.
كنيسة سان خوان العجوز ٣٠١.
كنيسة سان خوستو ٣٤٥.
كنيسة سان خيل ٣٠١.
كنيسة سان روكي ٣٨٥، ٣٩٠.
كنيسة سان سالبادور ٢٦٥، ٥١٢.
كنيسة سان كريستوبال ٣٣٤.
كنيسة سان ميجل العالي ٣٩٧.
كنيسة سانتا أنجراثيا ٣٨٥.
كنيسة سانتا كاتالينا ٣١٨، ٤٣٨.
كنيسة سانتا كروث ٦٣٠.
كنيسة سانتا ماريا ٣٠٠، ٤٣٦، ٤٩٢، ٥٠٨، ٥٠٩.
كنيسة سانتا ماريا دي لوس هورتوس ٣٠٣.
كنيسة سانتا ماريا مجدالينا ٣٠١.
كنيسة سانتا ماريا مجدالينا دي تطيلة ٣٠٢.
كنيسة سانتاس ماساس ٣٠٠.
كنيسة سانتو تومي ٥٥٣.
كنيسة سانتياجو ٣٠١.
كنيسة الشهداء ٢٤٠.
كنيسة الغراب ٣٠٧.
كنيسة القديس بطرس ٢٩٧.
كنيسة القديسة مريم ٣٠٠.
الكنيسة القديمة ٢٩٩.
الكنيسة الكاتدرائية ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٦، ٤٧٠، ٥٢٣، ٥٣٢، ٥٣٣، ٦٢٩.
كنيسة الكارمن ٣٨٥.
كنيسة كريستو دي لابيجا ٣٧١.
كنيسة كريستو ديلابيدرا ٣٩٥.
كنيسة كوسمي ٢٩٧.
كنيسة لابيكتوريا ٢٨٦.
كنيسة لابيليثريا ٣٠١.
كنيسة لاس سانتاس ماساس ٣٠٠.
كنيسة لا كونجر جاثيون ٣٣١.
كنيسة لا مجدالينا ٥٣٢.
كنيسة المدجنين ٣٨٤.
الكنيسة الملكية ٢٦٧.
كوادرادو ٣١٧.
الكورال ٥٤٣، ٥٥٩، ٥٦٠.

كوبنهاجن ٢١٧ .
الكوثيرداسال ١٣٠ .
كوراتشا ٢٧١ .
كوربوس ٣٩٢.
كوربيرا ٢٨١ .
كورتيس ٥٣٥ .
الكوردونيرو ٣٩٠.
كورونيا ديل كوندي ٢٤ .
الكوسو ٢٨٥ ، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٨.
الكوشيت ٤٩٨ .
كوفرنتس ١٨٠ .
الكوفة ٧٣ .
كوكا ١٨٠ .
كولخياتا ديل سالبادور ٦١٠ .
كولينارس ٣٤٦.
كولومبا ٢٩٦.
كولونيا ١٧٠ .
كوليرا (ربض) ٢٨١ ، ٤٤٤ .
كوليو ٧٣.
الكونبتيكو ٥١٣ .
كونت تنديبا ٢٨٢ .
كونتريراس (قبطان) ٣٦١، ٥٥٦ .
كونثبثيون ٣٩، ٤٩٠ .
كونديسا أبيلا ٢٣ .
كونستانتينو بورفيروخينيتا ٢١٢ .
كونينبرجا ٣٦ .
كونينبريجا ٢٣ .
الكويرنو ٤٦٧ .
كويمبرا ٤٥، ٢٦٣.
كويمبرا القديمة ٢٣ .


## اللام


لاأوروتابا ٦٠١ .
لابيجا ٣٤٥، ٣٨٥.
لاجوارديا ٦٢ .
لاخيرالدا ١٣٢ .
لارا ٥٧٣ .
لارده ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٦ ، ٧٧، ٩٤ ، ١٣٠، ١٣٨ ، ٣٠٣.
لارو ٥٣٤ .
لاس جراداس ٤٩١ .
لاس دوس هرماناس ٥٩٣ .
لاس كابوشيناس ٢٨٧ .
لاس كورتدورياس ٥١٨ .
لاس نابـاس دي تولوسـا ٦٩ ، ٨٥، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥٧ .
لاسا جرادا فاميليا ٣٧٩ .
لافرونتيرا ٥٦٨ .
لافونتي الكنتارا ٥٢٢ .
لافيكتوريا ٣٩٩.
لاكاراً (مؤلف) ٢٢ ، ٨٩، ٣٠٠، ٣٠١.

لاكرونيكا (كتاب) ١٠٤.
لاكو ٦٠، ٦٧-٦٩.
لاكورونيا ٤٦٧.
لاكولجر يجرثيون ٣٣٠، ٣٣١.
لالاجونا ٦٠٠، ٦٠١.
لاماركا ٩٢.
لاماركا العليا ٨٦.
لامبوريون ٢٥.
لانثروتي ٦٠١.
لانثيا ٥٨، ١٧٩.
لائحة الحقوق الرومانية ٥٨٤.
لبلة ١٠٢، ١٢٢، ١٢٩، ١٧٧.
اللسانة ٣١٣، ٣١٤.
لشبونة ٤٥، ٩٥، ٣٥٥، ٣٨٤.
اللغة القشتالية ٢٧١، ٢٧٩.
لقنت ١١٩.
لك (مدينة) ٢٥.
لماقة ٦٣.
اللوار ٣٦.
اللوائح ٥١٣.
لوائح مدينة أشبيلية ٥٠٠.
لوائح مدينة غرناطة ٤٩٤.
لوبيث ٥٢٥-٥٢٧.
لوبي دي بيجا ٥٠٥.
لوت ٣٧.
لوثينا ٢٦٠.
لوثيو مارينيو سيكولو ٢٢١، ٤٣٥، ٤٩٥، ٥١٩، ٥٢٨، ٦٢٧.
لورقة ١٣٠، ١٧٧، ٢٤٩، ٣٤٣، ٣٦٤، ٤٤٠، ٤٤٦.
لورينثانا (كاردينال) ٢٢٣.
لوس أليخارس ٢٤٦.
لوس بيليثروس ٥٦٣.
لوس سانتيس ٣٣١.
لوس مارترس ٣٩٧، ٣٩٩.
لوسيتانيا ٢٤.
لوشة ٢٥، ٤٥، ١٣٩، ١٧٧، ٣٩٩، ٤٠١، ٥٦٩.
لوفين ١٧٠.
لوقروينو ١٨٠.
لويس ديل مارمول كارباخال ٥٠٠.
لويس دي مارمول ٤٩٤.
ليبانتي ٣٦٢.
ليج ١٧٠.
ليردا ٤٤.
ليفي بروفنسال ١٢٩، ٣٢٦، ٣٣٥، ٣٧٠، ٣٧٨، ٣٨٣، ٣٩٢، ٦٣١، ٦٣٢.
لي مانس ٣٦.
ليو فخيلدو ٢٢، ٦٦.
ليون (مدينة) ٢٥، ٣٥، ٥٨، ٩٥،

.١٧٩
ليون الأفريقي ٥٠٠، ٥٣٠.


## الميم

ماتيرنو ٤٣.
ماتيو إي يوبيس ٤٠.
الماجرو ٦٦.
ماجونثيا ٣٥.
مادوث ٥١٢.
ماربلة ١٣٠.
المارترس ٢٣٧.
مارتنيث ماثاس ٤٣٥، ٤٩٧، ٥٧٩، ٥٨١.
مارتين دي تور ٢٨٤.
مارتين دي تورس ٢٩٧.
مارتين الهومانوا (الملك) ٤٦٨.
مارثيال ٢٩٧.
ماردة ٢٢، ٢٤، ٤٥، ٩٥، ١٨٥.
مارسيليا ٣٦.
الماركا ٤٤٢.
ماركو أوريليو ٤٢، ٤٣.
مالقة ٣٨، ٣٩، ٤٣، ٧٨، ١٢٥، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٦-١٣٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤-١٥٦، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٥، ١٨١، ١٨٢، ٢٣٠، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨١، ٢٩٤، ٣٢٠، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٠-٣٦٢، ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٤٠، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٥٢، ٤٦٢، ٤٦٩، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥١٣، ٥١٨، ٥٣٦، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦٩، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٩، ٥٩٢، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١٧، ٦١٨.
مارمول (مؤلف) ٢٤٢، ٢٤٥، ٥٥١.
مارمول كارباخال ٢٤٥، ٥١٤.
مارنيو سيكولو ٦٢٩.
ماريا ٤٨٩.
ماريانا ٨٣.
ماسينيون ١٩٨، ٤٤٥.
الماكوريلا ٣٨٦.
مالبورجيت ٣١٥.
مالطة ٣٦٩.
مالك بن عبدالله السهلي ٤٣٧.
المأمون ١٢٨.
المأمون بن القاسم ٢٦٠.
المأمون بن ذي النون ٢١٥، ٢١٦.
مانتيشة ٦٨.
مانيس ١٣٧.
الماوردي ١١٠، ١١٢.
مايورقة = ميورقة.

مبشر بن سليمان (ناصر الدولة) ٢٧٨.
متاجر العطارين ٢٦٥، ٢٨٢، ٥٢٥.
متحف العائلات ٥٩٠.
المتوكل ٨٠، ٢٤٧، ٣٨٢.
المتوكل العباسي ١١٤.
المتوكلية ٧٤.
المثارة ٣٤٤.
مجريط ٩٣.
مجلس الشيوخ الروماني ٢٧.
مجلس الناعورة ٢١٦.
المجمع الديراني ٤٤٩، ٤٦٧، ٥٠٨.
محاربو الألانوس ٤٤.
المحاربون القشتاليون ٢٣٤، ٢٤٠.
المحافظة الشرقية ٢٩٣.
محاورات (كتاب) ٦١٥.
المحتسب ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤.
المحجة العظمى (شارع) ٤٩٠.
محجة فحْلون ٤٨٢.
محمد ﷺ ٣١٣.
محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل ٣٨٧.
محمد بن الأحمر ٢٣٧.
محمد (الأمير) ٨٥، ٢٨٣.
محمد الأنصاري (مؤلف) ٥٣٢، ٥٤٦.
محمد الأول ٧٧، ٧٨، ٩٢-٩٤، ١٨٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٥٦، ٣٧٨، ٣٧٩.
محمد بن بشير ٥٤٤.
محمد الثالث ٣٩٨.
محمد الثاني ١٣٤.
محمد الثاني المهدي ٤٤١.
محمد بن الحاج ٢٥٩.
محمد الخامس ٦٢، ٨١، ٩١، ١٠٤، ١٣٨، ٣٤٧.
محمد بن شراحيل المعافري ٤٨٢.
محمد بن عبدالرحمن الثاني ٩١.
محمد بن عبدالرحمن الفهري ٨٥.
محمد بن العربي ٤٩٩.
محمد بن علي بن فرح ٢٢٩.
محمد بن قاسم بن القطان ٣٥٧.
محمد الناصر ٢٢٩.
محمد بن هشام بن عبدالجبار ١٠١.
المحيط الأطلسي ٦٨، ٩٥، ٢٣٢، ٤٠٢.
المدجنون ٢٩٣، ٣٣٨، ٤٠٢، ٤٦٦، ٤٩٥، ٥٣٤، ٥٥٢.
مدرسة الساجرادو كوراسون ٤٤٢.
مدريد ٦٥، ٧٦، ٧٧، ٩٣، ١٣٠، ١٧٨، ٢١٧، ٣٤٨، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٧٣، ٤٦٧، ٦٠٥.
المدن الرومانية ٢٨.
المدن الغالية الرومانية ٣٥.

المدن القوطية ٢١، ٢٢، ٥٩، ٦٠.
المدور (المودوبار) ٣٢.
مديافيلا ٨٩.
المُدَينة ٧٩، ١٥٤، ٢٦٩، ٢٧١، ٣١٧.
المدينة البيضاء ٢٦٣.
مدينة ثيلي ٩٧، ٩٨.
المدينة جوميرا ٣٦٨.
مدينة سالم ٢٥، ٥٥، ٦٣، ٧٥-٧٧، ٩٧-٩٩، ٢٤٩، ٢٦٣.
مدينة ابن سالم ٢٦٣.
مدينة الفتح ٧٦-٧٨، ٨٢، ٩٦.
مدينة الفهميين ٦١.
المدينة القديمة ٩٨، ١١٤.
مدينة لوشة (كتاب) ٥٦٩.
مدينة الموتى ٣٢، ١٩١.
مدينة اليهود ٣١٣، ٣١٦، ٣١٨.
مذكرات عبدالله ٣١٨.
مراكش ٣٦، ٧٥، ٧٨، ٨٢، ٢٩٥، ٣١٩، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٦٣، ٥٣١، ٥٤٣.
المراكشي (مؤلف) ٢٩٦.
المربأة ١٠٢.
مربيطر ١٨٩، ٢٤٨، ٣٨٧، ٥٠٨.
مرج سان أيسيدرو ٣٧١.
مرج القاضي ٢٢٠.
مرج النضير ٢١٤.
مردانشو ٨٩.
مرعى الفضة ٢٢٧.
المركاتيل ٥٢٨.
المرو ٨٦.
مريم (القديسة) ٣٠٠.
المريني أبو يوسف ٧٧، ٨٠.
المرينيون ٧٩، ٨٢، ١٠٢، ٣٣٧، ٣٦٩.
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١٣٨.
المسالك والممالك للبكري ١٢٨.
المسالك والممالك لابن حوقل ١٢٢.
المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٢٠.
المسالك والممالك للإصطخري ١٢٠.
المستعجمون ٢٩٣.
المستعربون ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٧٦، ٢٨٥، ٢٩٣-٢٩٦، ٢٩٨-٣٠٤، ٣١٦، ٤٦٤، ٥٥٩، ٦١١.
مسجد أبي خالد ٥٤٦.
مسجد أبي عثمان ٥٤٤.
مسجد أبي لوي ٣٨١.
مسجد أم سلمة ٣٧٨.
مسجد الزيتونة ٣٨١.
مسجد السدة الكبرى ٣٨١.
مسجد السيد ٣٧٨.

مسجد الضيافة ٣٧٨.
مسجد عدبس ٢٦٥، ٤٤١، ٤٤٧، ٤٥٢.
مسجد كوثر ٣٧٨.
مسجد متعة ٣٨١.
مسجد مربيط ٣٨٧.
مسجد مقبرة قريش ٣٨٠.
المسجد الموحدي ٤٥٢.
مسجد النخيل ٤٠٠.
مسجد يوسف بن بسيل ٣٥٤، ٤٣٧.
المسطحة ١٨٥.
مسلمو البيارين ٢٦١.
المسلمون المدجنون ٢٩٣.
المشربيات ٥٧٧، ٥٨٩، ٥٩٠-٥٩٣، ٥٩٦، ٥٩٨-٦٠٣، ٦١٦-٦٢٠.
المشور ٧٩.
المصارة ١٩١، ٢١١، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٤-٣٤٧، ٦٢٢.
مصارة قرطبة ٣٤٢، ٣٤٣.
المصبغة ٢٨٤.
المصحفية ٢١٣.
مصر ١٢٢، ١٢٦، ١٣٦، ٣٤٢، ٤٨٤، ٥٤٢، ٥٧٩، ٥٨٥، ٥٩٢.
المصلى ١٢٦، ٣٢٥، ٣٢٦.
مصلى الربض ٣٢٧-٣٢٩، ٣٧٩.
مصلى سان سباستيان ١٩٠.
مصلى المصارة ٣٢٩.
مضيق جبل طارق ٥٩، ٦٥.
مطارنة طليطلة ٢٢١.
المعافري ٢٦٨.
معبد سان ثيبريان ٣٠٠.
معبر سان مارتين ٢٢١.
معبر سانتا أنا ٥١٧.
معبر القاضي ٥١٧.
معبر القنطرة ٢٢٠، ٢٢١.
معبر القويس ٥٧٢.
المعتصم ١٢٦، ٣٩٤.
المعتمد ٨١، ١٠٢، ١٢٨، ٢١٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٣٨٢.
المعجزات في القرن الثالث عشر الميلادي ٣٠٧.
معجم البلدان ١٣٣.
المعجم الرسمي ٤٥٩.
معجم السلطات ٥٠٦، ٥٨٩.
المعدن (مدينة) ٧٩، ١٢١.
معركة الأرك ١٣٢، ٢٩٦.
معركة العقاب ٨٥، ١٣٣، ١٥٧.
معركة لوثينا ٢٦٠.
معركة المصلى ٣٣٣.
المغرب ٨٢، ١٠٣، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٠، ٣٤٧، ٤٢٠، ٤٤٥، ٥٣٠، ٥٩٢.

مفتش الأسواق ٧٨.
مقابر الشهداء ٣٥٤.
مقاطعة البوخاراس ٢٨٧.
المقبران ٣٩٩.
مقبرة ابن أبي العباس الوزير ٤٨١.
مقبرة ابن حازم ٣٥٦.
مقبرة ابن الرامي ٤٠١.
مقبرة ابن العباس ٣٥٦، ٣٨٠.
مقبرة أبي العباس الوزير ٣٥٦، ٣٨٠.
مقبرة إلبيرة ٣٩٥.
مقبرة أم سلمة ٣٥٦، ٣٧٨.
مقبرة أم معمرة ٣٨١.
مقبرة أنساريو ٤٠٢.
مقبرة باب إلبيرة ٣٥٦.
مقبرة باب بجانة ٣٥٦.
مقبرة باب البيطالة ٣٨٧، ٣٨٨.
مقبرة الباب الجنوبي ٣٨٥.
مقبرة باب الحرش ٣٥٦.
مقبرة باب الحنش ٣٨٧.
مقبرة باب الشاكرة ٣٥٦.
مقبرة باب الفخارين ٣٩٨، ٣٩٩.
مقبرة باب القبلة ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٨٥.
مقبرة باب المصلى ٣٨٨.
مقبرة البرج ٣٥٦.
مقبرة بلاط مغيث ٣٨٢.
مقبرة بني العباس ٣٨٠.
مقبرة البيازين ٣٩٦.
مقبرة بئر النقطة ٤٠١.
مقبرة تمجاد ٣٧٠.
مقبرة التوتة ٤٠١.
مقبرة الحارة ٤٠١.
مقبرة الحافة ٣٥٥.
مقبرة حلال ٣٧٨.
مقبرة الحوض ٣٥٦، ٣٩٠.
مقبرة الخوائم ٤٠١.
مقبرة الخيام ٣٥٦، ٣٨٨.
مقبرة الربض ٢١١، ٣٥٧، ٣٧٧-٣٧٩.
مقبرة الربض القبلي ٣٧٩.
مقبرة الرصافة ٣٨٠.
مقبرة روضة بني يحيى ٣٩٩.
مقبرة روضة الصلحاء ٣٧٨.
مقبرة زجلو ٤٠١.
مقبرة زهرة الملعب ٤٠١.
مقبرة سان بيدرو دي لوس فرانكوس ٥٣٤.
مقبرة سان فرناندو ٢٧٦.
مقبرة سان ميجل ٥٥٤.
مقبرة سان نقولاس ٣٩٦.
مقبرة ساهي بن مالك ٢٤٤.

مقبرة السبيكة ٣٩٧.
مقبرة السقاية ٣٨٠.
مقبرة سوكاستر ٣٩٦.
مقبرة الشريعة ٤٠١ .
مقبرة الشريعة القديمة ٣٣٢.
مقبرة الصلحاء ٣٨٢.
المقبرة العتيقة ٣٧٨.
مقبرة العسال ٣٩٩.
مقبرة الغرباء ٣٥٢، ٣٩٨.
مقبرة فرانق ٣٨٠.
مقبرة الفقيه سعد بن مالك ٣٩٥.
مقبرة الفوسال ٤٠٢ .
مقبرة قريش ٣٨٠.
مقبرة القلعة ٣٨١.
مقبرة متعة ٣٥٦، ٣٨١.
مقبرة المدينة القديمة ٤٠١ .
مقبرة المرضى ٣٥٢.
مقبرة مسجد المحلة ٤٠١ .
مقبرة المصلى ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٩٩.
مقبرة معمرة ٣٥٦.
مقبرة المنارة ٤٠١ .
مقبرة الميكوريلا ٣٨٦.
مقبرة نجد ٣٩٨.
مقبرة نجم ٣٥٤، ٣٨١.
مقبريات ٣٦٠، ٣٦٦-٣٦٩، ٣٩٢.
المقبرية ٣٥٩.
مقدم بن معافى ٤٠٠ .
مقرنة ٣٨٢.
المقري (مـؤلف) ٢٩، ٣٢، ٨٥، ١٢٦، ١٣٩، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٧٢، ٣٢٧، ٣٤٧، ٣٨١، ٥٤٥.
مقرينة ٢٧٠.
المكارنة ٢٧٥.
المكارينا ٢٧٦.
مكرانة ١٤٧، ٢٧٥.
المكسيك ٣٣٨، ٥٣٥ .
مكناس ٢٩٥.
مكـة ١٦٤، ٣٥٨، ٣٥٩.
الملحمة ٢٨٢.
ملعب السباق ٣٤٤.
ملك أسبانيا الثالث ٨٩.
الملك الحكيم ٣٣، ٥٧١ .
الملكان الكاثوليكيـان ٩٩، ١١٥، ١٣٨، ١٤٤، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٧٤، ٣٢٠، ٣٣٤، ٣٨٣، ٣٩٥، ٣٩٩، ٤٠٢، ٤٣٥، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٦٩، ٤٩٤، ٥٠٠، ٥٠١، ٥١٣، ٥١٨، ٥٥٠، ٥٥٥، ٥٧٩، ٥٩٢، ٥٩٩، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٤، ٦٢٧.

الملك الكاثـوليكي ١٣٥، ٢٣٨، ٢٧٣، ٢٨١.
ملوك الأفارقة ٢٣٩.
ملوك الطوائف ١١١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣١، ١٦٣، ٢٠٧، ٢٩٤، ٥٥٣، ٥٨١.
الملوك الكاثوليك ٨٣.
الملوك المجوس ٣٣٢.
الملوك المقدسون ٣٣١.
المماليك ٥٩٢.
ممتلكات مدينة غرناطة (كتاب) ٥٥٢.
المملكة القوطية ٢١، ٢٩.
مملكة مرسية ١٣٣.
المملكة الناصرية ١٣٤.
المملكة النزارية ١٣٩.
المملكة النصرية ٣١٣، ٣١٩.
منابع كارمونا ٢٢٧.
منازل الجيران ٥٦٢.
منازل الكثيرين ٥٦٢.
منتيسا ٤٥، ٦١-٦٤، ٦٧، ٦٨.
المنجرة الصغرى ٢٣٨.
منذر بن سعيد البلوطي ٣٢٧.
منذر بن المقتدر ٣٣٠.
المنذر بن يحيى ١٢٧.
مـــنـــزر ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٤، ٣٥٤، ٣٦١، ٣٧٧، ٣٩٥، ٥٧١، ٦٢٦.
منزل ابن شهيد ٣٥٣.
منزل الأمراء ١٥٠.
منزل خيرونس ٥٦٣.
منزل درب القطع ٥٥١.
المنصور ٧٥، ١٢٣.
المنصور بن أبي عامر ٢٢٤.
المنصورة ٨٢، ٣٣٧.
المنكب ١٢١، ١٢٢، ٢٨١.
من مدريد وكوبنهاجن (كتاب) ٢١٧.
ميناء بجانة ٩٩.
منيـــات ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٥، ٢٣٣.
منية ابن عبدالعزيز ٢٢٤.
منية البديع ٢٤٧.
منية الجنينة ٢١٨.
منية عبدالله ٢١٢، ٢٧١.
منية عجب ٢١١، ٢٧١.
منية الكارديتو ٢١٩.
منية المغيرة ٢١٢، ٢٧١.
منية الملك ٢١٤.
المنية الملكية ٢١٥.
المنية المنصورة ٢١٥، ٢١٧.
منية الناصر ٢١١.
منية الناعورة ٢١١.
منية نصر ٢١٢.

الموتاثين ١١١، ٤٦٦.
المؤتمن (الملك) ١٢٣.
موثيون ٣٠٠.
الموحـــدون ٨٥، ٩٥، ١٠١، ١٣٠-١٣٤، ١٦٥، ١٩٠، ٢١٧-٢٢٠، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٩، ٣٣٣، ٣٦٧، ٣٩٢، ٣٩٤، ٤٤١، ٤٤٩، ٥١٢، ٦١٠، ٦٢٣.
المـرابـطـون ٩٩، ١٢٤، ١٢٩-١٣٢، ١٣٤، ١٤٩، ١٦٣، ١٦٥، ١٩٠، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٧٥، ٢٩٤، ٣٠٦، ٣١٣، ٣١٨، ٣٣٣، ٣٥٨، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٨٢، ٣٩٢، ٣٩٣، ٥٠١.
مـرسـيـة ٥٣، ٧٦، ٧٧، ٩٠، ١٣٣، ١٥٨، ١٨٥، ٢٠٧، ٢٤٨، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٨٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣٣٣، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٨٩، ٤٠٢، ٤٦٧، ٤٨٠، ٤٨٣، ٤٨٩، ٤٩٢، ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٣٣، ٥٥٧، ٥٩٢، ٦١٨.
مورجادو ٦١٤.
مورون ٣٠٧.
موريا ١٨١، ٤٦٧.
موريتانيا ٤٢، ٤٣.
الموريسكيون ٤٨١.
موسوعة قشتالة التاريخية ٩٢.
موسى الثاني ٨٩.
موسى بن موسى ٨٩.
موسى بن نصير ١١٩.
موسين دييجو دي باليرا ١٥٣، ٢٣٠.
الموش ٦٨.
مولا ١١٩، ٢٨٢.
مونتانير ٤٩٢.
مونتبيلي ٣٧٤.
مونتبلية ٣٦٦.
مونتورو ٢٢.
مونتيليا ١٧٧.
مونتني ٥١٨، ٦٢٧.
مويل ٥٥٩.
الميدان ٣٩.
ميدان بيارمل ٢٧٩.
ميدان خوسي أنطونيو ٤١.
ميدان سان ميجيل ٢٧٩.
ميدان سانتا ماريا ٤٤٨.
ميدان لاكونجر يجاثيون ٣٣١.
ميدان نوبيا ٥٨٧.
ميرتولا ٣٦٥، ٣٧٥.
ميركادو ٤٦٦.
الميريث ٢٨٥.

ميسينا ١٧٢.
الميكوريلا ٣٨٦.
ميلان ١٧٢.
ميلانو ٢٣٥.
مينا دي لاكورث ٦٠١.
ميورقة (مايورقة) ٢٦، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٣، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٨، ١٦٤-١٦٦، ١٨٥، ١٨٧، ٢٧٧، ٣١٧، ٣٥٨، ٣٧١، ٣٧٥، ٣٨٦، ٤٣٥، ٤٤٤، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٨، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٦، ٥١٣، ٥٤٣، ٥٤٦، ٥٥٨، ٥٦٣، ٥٧٠.

## النون

ناباخيرو ٢٠٥، ٢١٩، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦، ٤٩٤، ٥١٨، ٥١٩، ٦١٥، ٦١٦.
نابولي ١٧٢.
ناربونة ٣٦، ١٢٠.
ناصر الأول ٣٩٨.
ناصر (الملك) ٣٣٣.
الناعورة ٢١١، ٣٤٢.
نافاس دي تولوسا ٦٥.
نامور ١٧٠.
النجد ٣٥٢.
النشرة الفنية المركزية لمدينة غرناطة ٥٢٣.
نشيد السيد ٢٢٣.
النصريون ٥٧٨، ٥٨٣، ٦٢٣.
نقود الفلورين ١٦٧.
نهر الإبرو ٥٣، ٦٨، ٨٨، ٨٩، ١٨٠، ٣٠١.
نهر الأداخا ١٨٠.
نهر الإرسما ١٨٠.
نهر الأريباليو ١٨٠.
نهر الإسكالدا ١٦٩، ١٧١.
نهر الإسلا ١٨٠.
نهر أشبيلية ٤٦١.
نهر أوديل ٦٨، ١٨٠، ٣٠٧.
نهر الإيبرو ٣٨، ٧٦، ١٨٥، ٢٠٢، ٣٤٦.
نهر أيسولا ٣٨٦.
نهرالبرشي ٦٨.
نهر البورما ١٨٠.
نهر التاجه ٦٤، ٦٦، ٦٨، ٩٢، ٩٣، ١٧٨، ١٨٥، ١٩٢، ٢١٦-٢٢٣، ٢٧٠، ٣١٧، ٣٥٢، ٣٧١، ٣٨٥، ٤٥٢.
نهر التاميز ٥٨٦.
نهر التوريا ١٧٨، ٢٧٦.
نهر التيرون ١٨٠.
نهر تينتو ٦٨، ١٨٠، ٣٠٧.

نهر جوادالاما ٦٥ ، ٦٨ .
نهر الجوادا لورثي ٦٩ .
نهر جوادااليتي ٦٨ ، ١٧٨ ، ١٨٠ .
نهر الجوادليمار ٩١ .
نهـــر الجـــوادیانا ٢٢ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ١٨٥ ، ٢٠٢ .
نهر الجواديلا ٦٤ .
نهـــر الخــــالون ٦٣ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٩٨ ، ١٨٣ ، ٢٤٧ ، ٣٤٦ .
نهر الخراما ٦٥ ، ٩٢ ، ٩٣ .
نهر خوكار ١٨٠ ، ١٨١ ، ٣٠٤ ، ٣٨٩ .
نهر الخـينيل ٦٩ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٧٩ ، ٣٩٨ .
نهر دارو ١٨١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤-٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٩٠ ، ٥١٧ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٨٥-٥٨٧ ، ٦٢٨ .
نهر الدارو العليا ٢٤٦ .
نهر الدوراتون ١٨٠ .
نهر الدويرو ٩٨ ، ١٨٠ .
نهر الراين ١٦٩ ، ١٧٠ .
نهر سبري ٥٨٦ .
نهر سقولا ٥٣ .
نهر سنجيليو ٤٥ .
نهر السيجرى ٧٦ ، ٩٤ .
نهر السيجورا ٧٦ ، ٩٠ .
نهر السين ٥٨٦ .
نهر شقورة ١٨٥ .
نهر العسل ١٠٣ ، ١٠٤ .
نهر الفولتاثا ١٨٠ .
نهر قالاس ٨٩ .
نهر كابريبل ١٨٠ .
نهر الكلامورس ١٨٠ .
نهر لاميبل ٦٢ ، ١٠٤ .
نهر اللوار ١٧٠ .
نهر اللوثويا ١٧٨ .
نهر مانثنارس ٥٨٦ .
نهر المخاثيتي ١٨٠ .
نهر مرسية ٢٤٩ .
نهر المصارة ٣٤٣ .
نهرالمنثانارس٩٣ ، ٣٤٥ .
نهر الموسا ١٦٩ .
نهر هوربا ٣٠٠ .
نهر هينارس ٦٥ ، ٦٨ ، ٣٠٢ .
نهر وادي العسل ٢٤٨ .
نهر الوادي الكبير ٣٨ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٣٠٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٧٩ .

نهر وادي المدينة ٣٨.
نهر الويكار ١٨٠.
النهضة الرومانية ١٦٧.
نورمبرج ٣٩٥.
نوسترا سينيورا دي جارثيا ٥٦٣.
نومانثيا ٢٥، ٤٣٠.
نيابلا ٣٦٧.
نيم (مدينة) ٣٧.

الهـــاء

هارو (مدينة) ١٨٠.
هرنادي بايثا ٢٦٦، ٢٦٧.
هرناشو لوس ٢٤٨.
هرناندو ديل بولجار ١٩٠.
هشام الثاني ١٠٠.
هشام بن سليمان بن عبدالرحمن ٤٤١.
هلفيثيا ٣٥.
الهمداني (مؤلف) ١٢٠.
الهند ١٣٠، ١٣٦، ٥١٠.
هنري بيرث ٢٠٣.
هنري بيريس ٢١٤.
الهنود ٣٣٧.
هوبنر ٢٩.
هوراثيو ٦٩.
هوسبتيا ٤٥٨.
هوسكا ٢٩٩.
هونساريو ٤٠٠.
هيسبالس ٤٤، ٤٥.

الـــواو

وادي آش ١٣٠، ١٣٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٧٣، ٣٠٦، ٣٣٣، ٤٤٠، ٤٨٤، ٤٩٠.
وادي الجنة ٤٣٨.
وادي الحـــجـــارة ٥٥، ١٧٧، ١٨١، ١٨٥، ٢٤٧.
وادي الرملة ٦٨.
وادي اللبن ١٨٣، ١٨٤.
وادي ليكرين ٢٨٧.
واضح العامري ٢١٠.
وامبا ٢٢، ٤٥.
وبذة ١٣٠.
وشـــقـــة ٢٠٢، ٢٤٧، ٢٧٠، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٨٦، ٤٠٢، ٥٣٤، ٥٥٦.
وصف مدينة سبتة (كتاب) ٤٠١، ٥٤٦.
الوقَّشي ٢٢٥.
ولبـــــة ١٨٠، ١٩١، ٢٨٠، ٣٦٧، ٣٧٣، ٤٣٤، ٤٤٠.
الوندال ٤٤، ٤٥.
وهران ١٢٢.

اليـــاء

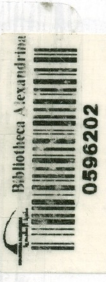
يابرة ١٣٠، ٢٠٩، ٣٦٥.

ياقوت [الحموي] ١٢٣، ١٣١، ١٣٣، ٢٨٤.
يحيى بن حسن ٣٧٩.
يحيى بن عمر الأندلسي ١١٢، ١١٣.
يحيى بن محمد بن رق ٤٠٠.
اليسوعيون ٤٨٥.
يعقوب المنصور ٦٦، ٨٠، ١٠٣، ٢١٧، ٢٩٦، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٧، ٤٤٩، ٥٠٨.
اليمن ٤٣٠.
اليمنيون ٨٦.
اليهود ٤٦٤.
يوسف بن بسيل ٣٥٤، ٤٣٧.
يوسف بن تاشفين ٣٠٦.
يوسف الشيخ ٣٢٩،
يوسف الفهري ٣٢٨، ٣٤٣.
يوسف الموحدي ٧٧، ٨٢، ١٣٢، ٢٢٧، ٢٦٥، ٤٣١، ٤٩١.
اليونان ٥١٠.

* * *



مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الاسلامية






مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الإسلامية

رقم الإيداع: ٢٢/٣٥٩٥